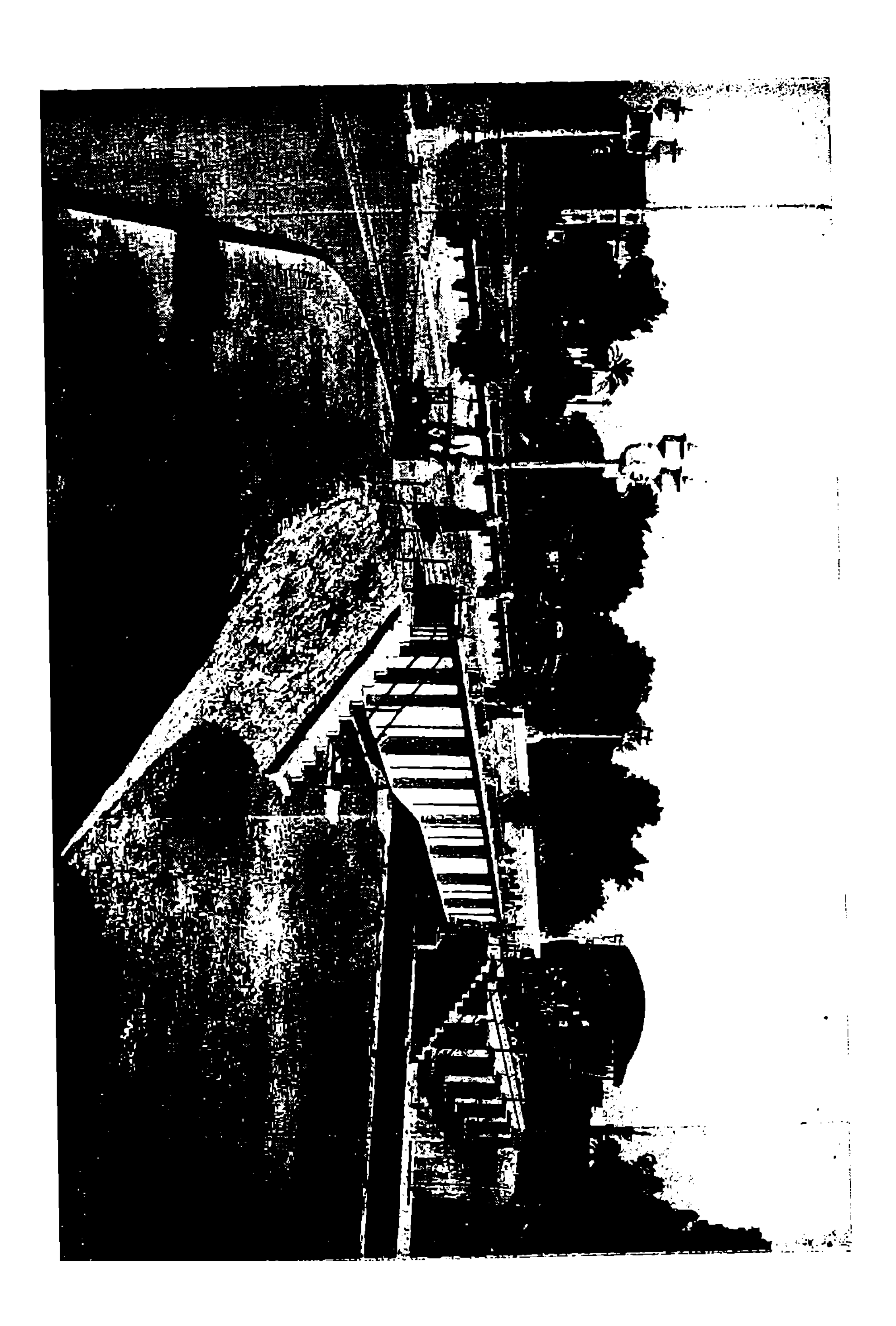
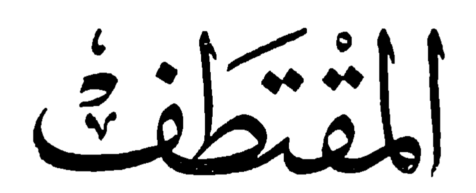




الجزء الاول من المجلد الثامن والتسعين

١ يناير سنة ١٩٤١ ٣ ذي الحجة سنة ١٣٥٩

اشعة الشمس

وحياة النبات

الشمس هي المصدر الذي تستمد منهُ الأرضُ الطاقةَ اللازمة لكل عمل طبيعي أو حيوي على سطحها . قد تؤخذ الطاقة مباشرةً من الشمس كما تفعل حبَّات اليخضور في أوراق النبات، أو قد تؤخذ مداورةً كتوليد الطاقة من الماء المنحدر وهو لم يرتفع الى رأس المنحدر إلاَّ بفعل حرارة الشمس التي بخرته ثم انعقد مطراً فجرى منحدراً . وقد سبق لنا في فصول المقتطف وكتاب «آفاق العلم الحديث» تبيان الصلة بين الشمس وجو الأرض وما فيه من تقلب في درجات الحرارة وأحوال الرياح ، ولذلك سنقصر موضوع اليوم على تأثير اشعاع الشمس في حياة النبات

وأول ما يتجه النظر اليه طبعاً هو عمل التركيب الضوئي (Photosynthesis) فالأوراق الخضر هي أكبر معامل كيميائية على سطح الأرض ، وأعظم منتج لمواد الطعام ، وأغزر مورد للوقود . وبفعلها يرتبط مصير الأمم بل مصير الانسان نفسه . في الأوراق الخضر يتحد ثاني أكسيد الكربون بالماء فيتولد من اتحادهما السكر بتأثير حبات اليخضور (الكلوروفل) . فهذا الاتحاد لا يتم بدونها لأنها تستطيع ان تقتنص بفعل لم يُفهم بعد ، من أشعة الشمس قدراً من الطاقة يتيح الاتحاد . وهذا السكر البسيط المتولد من اتحاد ثاني اكسيد الكربون والماء يتطور نشاء ومواد نشوية ومواد زلالية (بروتينات) وأحماضاً عضوية وأدهاناً وغير ذلك من مركبات النبات

وكثير من هذه المركبات غذاء للنبات نفسه وللحيوانات أو للنباتات غير الخضر . ومنها ما يهضم ويمثل فيولد طاقة ، ومنها ما يخزن ثم تنطلق طاقته منهُ

وإذن فالنباتات الخضر تجهز العالم بمواد الطعام الأصيلة . وتاريخ السياسة الدولية من أقد العصور الى الآن متأثر تأثيراً غير يسير بسعي الأمم الى الفوز بأرض تكثر فيها موارد الطعا وفي العصور القديمة كان المتاح من الطعام عنصراً أساسيًّا في تعيين حجم الممالك والمدن والعنصر الآخر الذي يجاري الطعام في تعيين حجم الممالك والمدن هو عنصر المواصلات . وا كانت المواصلات في العصور القديمة تعتمد على المطايا الحية كالبغال والحمير والجياد والابل ، فانها العصور الحديثة تعتمد على الوقود سواء أفحماً كان أم زيتاً . وما تحتويه مناجم الفحم وآبار الزي على السواء مردُّهُ الى الطاقة الشمسية التي خزنت في النبات بفعل التركيب الضوئي . وكما تتناف الأمم في سبيل الفوز بأرض غنية بموارد الطعام تتنافس كذلك في سبيل الاستيلاء على مناط غنية بمناجم الفحم وآبار الزيت المعدني . ولولا ضيق المقام لأسهبنا في تعداد الأمثلة التي من قبي ما تقدم ، مرتدين بأصولها جميعاً الى طاقة الاشعاع الشمسي . ومن البداهة ان يكون مقد ما يتلقاه سطح الأرض من طاقة الشمس متقلباً في مداه وقوته وانواع الأشعة التي يتألف من

فطول النهار يختلف باختلاف خط العرض واختلاف الفصل . فطول النهار وطول اللي متساويان تقريباً عند خط الاستواء . وفي الطرف المقابل نجد ان الظلام يخيم على القطب الشما مدى اربع وعشرين ساعة في بعض الشتاء والشمس تشرق مدى اربع وعشرين ساعة في بعض الصيف والقطب الآخر على هذا القياس ، والبلدان الواقعة بين خط الاستواء والقطبين متفاوتة في طول نهار وليلها . ثم ان شدَّة ضوء الشمس تختلف كمربع البعد عن الشمس . ولما كان فلك الارض اهليلجي والشمس في احد محترقيه فشدة ضوء الشمس الساقط على الارض يقل او ينقص وفقاً لكونها ا نقطة الذنب او نقطة الرأس وهذا الفرق يبلغ ٧ في المائة . ثم ان الاختلاف في شدة ض الشمس يعود الى ما في الهواء من دقائق الغبار او بخار الماء . فاذا زاد البخار نقصت قوة الضوء ويضاف الى هذا ان شدة الضوء تختلف باختلاف انحراف الشمس عن السمت وهو كبير الشتاء ، لذلك فمقدار واحد من ضوء الشمس في وقت واحد من النهار ، أضعف وأقل دفئاً الشتاء منهُ في الصيف عند ما تتكبَّد الشمس القبة الزرقاء

وأما نوع الامواج التي يتألف منها ضوء الشمس الواصل الى سطح الأرض فيختلف كذلك فالضوء الأبيض — معظم طاقته في منطقة اللون الأصفر — تكثر فيه الأشعة الحمر عند ما تم الشمس الى الغروب والأشعة الحمر أطول أمواجاً ولذلك فهي أضعف طاقة من الصفر . والتبد في أنواع الأمواج التي تدخل في تركيب ضوء الشمس الواصل الينا مردُّه الى فعل الغلا الغازي الذي يحيط بالأرض . وهذا الفعل مزدوج ، منه تكسير الأشعة ومنهُ امتصاص متفاو لأمواج مختلفة . فضوء الشمس أغنى بالأمواج الزرق البنفسجية في الصيف في المنطقة الشما المعتدلة منهُ في الشتاء

أما وهذه هي العوامل المتعددة الداخلة في تقدير نوع ضوء الشمس الذي يصل الى منطقة معينة من سطح الأرض فلا بدع في ان تكون أصناف النباتات على سطح الأرض كثيرة متباينة . نعم ان الحرارة والرطوبة عاملان أساسيان في احداث هذا التباين ، ولكن الحرارة والرطوبة يتأثران كذلك بتفاوت ما يصل الى سطح الأرض من طاقة الشمس

وليس ثمة ريب في أن الباحث يستطيع أن يستخرج حقائق شتى من ملاحظة نمو النباتات في مواطنها ، وهذا فرع قائم بذاته من علم النبات يعرف بعلم الايكولوجيا ecology فاذا تعدّى حدوده العامة الى دراسة اساليب النباتات المختلفة كل على حدة من حيث تأثرها بالبيئة خرجنا من علم الايكولوجيا الى علم الفسيولوجيا . فالايكولوجي يميل الى استخراج الاحكام العامة . والفسيولوجي الى استخراج الاحكام الخاصة بأنواع او اصناف معينة من النبات

وقد اسفر بحث هاتين الطائفتين من العلماء عن تبيُّن صلة وثيقة بين الضوء وتركيب النباتات ونموّها . فالألوان الزاهية في ازهار الالب تعزى الى كثرة ما في ضوء الشمس على تلك المرتفعات من الاشعة التي فوق البنفسجي . والاوراق العريضة الريّانة في النباتات الاستوائية ترتدّ الى قلة الضوء . وفي نباتات الصحراء يستند تبدُّل كبير في اشكالها الى تباين في مقدار الرطوبة والضوء

وهذه احكام تستوقف النظر ، ولكنها غير خاضعة لاسلوب البحث الكمّي ، وليس في الوسع الاعتماد عليها اعتماداً كليًّا ، إلاّ اذا أيّدتها التجارب التي تجرّب في نباتات خاضعة لقيود التجارب العلمية

ومن هنا بدأ الباحثون [١] في غرس النباتات في مستنبتات يخضع كل ما فيها للقياس العلمي ، مثل مقدار الرطوبة في الهواء ، ودرجة الحرارة ، ونوع الضوء وقوته وهكذا ، وخرجوا بحقائق وأحكام لها أعظم الشأن النظري والعلمي في النبات والزراعة

من الأمور التي يعرفها جميع المشتغلين بفلاحة البساتين ، انتظام ازدهار أصناف من النباتات في بدء الفصول المختلفة

وقد أثبت البحث ان الحرارة لها شأن عظيم في هذا الإزهار ، ولكنهُ أثبت كذلك أن العامل المسيطر على الإزهار هو مدى النهار أي مدى التعرض لضوء الشمس . فمن النبات ما يزهر في الخريف عندما يكون مدى التعرُّض لضوء الشمس ، أقصر منهُ في الصيف . فهذا النبات يزهر في الصيف اذا وضعتهُ في مستنبت معتم وعرضتهُ للضوء مدى تعرضه ، لضوء الشمس في الخريف

وقد أثبت باحثان يدعيان جارنر Garner والارد Allard وهما من رجال وزارة الزراعة الاميركية بالتجارب المتعددة أنهما يستطيعان ان يحملا نباتات شتى على الازهار بضبط ساعات تعرضها

---

(١) وفي مقدمتهم صاحب هذا الفصل المنشور في الكتاب السنوي للمعهد السمثصوني الاميركي واسمه أرل جونستون الباحث في قسم الاشعاع والاحياء بالمعهد المذكور

للضوء وذلك بوضعها في مستنبتات معتمة وتعريضها لضوء الشمس عدداً معيناً من الساعات

وقد اثبت هذان الباحثان ان النباتات المزهرة ثلاث طبقات من حيث تأثرها بمدى تعرضها لضوء الشمس، فالطبقة الأولى تبدأ الإزهار عند ما يكون النهار قصيراً، واخرى تبدأ الازهار عند ما يكون النهار طويلاً، وثالثة بين بين لا تتأثر تأثراً ظاهراً بطول مدة معينة من التعرض لضوء الشمس. وقد طبقت هذه الحقائق تطبيقاً عمليًّا على احد اصناف نبات التبغ Tobacco الذي ينمو في ولاية ماريلاند الاميركية. وقد كشف هذا النبات في جنوب الولاية، وهو ذو اوراق ضخمة فالعناية بإنباته لها فائدة اقتصادية لا ريب فيها. ولكن ثبت انهُ لا يزهر ولا يولّد بذراً في أيام الصيف الطويلة. فجرّبت التجارب به في مستنبت في فصل الشتاء فأزهر وأبذر وزرع في جنوب فلوريدا فأزهر وأبذر في فصل الشتاء. واذا كان النهار القصير لا يكفيها ضوءه للازهار والابذار أكمل عمله بتعريضها مدة معيَّنة إضافية للضوء الكهربائي

ومن أغرب ما أسفرت عنهُ هذه التجارب، ان نبتة من صنف خاص يزهر في الخريف — أي عند ما تكون الأيام قصيرة — عرض جزؤها الأعلى وجزؤها الأسفل مدى عشر ساعات للضوء بينما جزؤها الاوسط عُرّض للضوء طول النهار في الصيف. فأزهر الجزآن الأعلى والأسفل ولم يزهر الجزء الاوسط ولكن الحيوية فيه بقيت مستكنّة، حتى أتيحت لهُ البيئة التي تؤاتي الإزهار أي التعرّض للضوء مدى معيناً غير طويل

وقد حاول باحث يدعى ونثرو Winthrow ان يكشف أيّ الأمواج في الضوء الكهربائي المنبعث من مصباح مازدا mazda يؤثر في حمل النبات على الإزهار فجرَّب تجاربهُ بنباتات تزهر في الخريف والشتاء اي عند ما يكون النهار قصيراً وباخرى تزهر في الربيع والصيف عند ما يكون النهار طويلاً. فوجد ان اعظم الفعل في النباتات الصيفية الربيعية هو للاشعة الحمر التي يتفاوت طول موجتها بين ٦٥٠٠ انجستروم و٧٢٠٠ انجستروم وان النباتات الخريفية الشتوية يقل إزهارها عند ما اضيف الى الضوء حزمة اخرى من الاشعة الحمر

ومن المشهور ان السنط الحسَّاس يطبق ورقهُ في الليل وينشرهُ في الصباح، وهذا عائد الى تأثره بالضوء والظلام. وتثبت هذه العادة في جبلّة النبات، حتى اذا وضع في مكان مظلم، مضت الأوراق تنطبق وتنفتح بضعة أيام ولكن الفعل يضعف حتى يسودها التأثر بالظلام فتبقى مطبقة

واذا صرفنا النظر عن مدى التعرض للضوء وجدنا ان لشدته أو خبوّه تأثيراً في نمو النبات. وليس في الأرض مكان تبلغ فيه شدة الضوء أو ضعفه مبلغاً يمنع النبات من النمو. ففي الصحارى نبات ينمو مع ان الضوء شديد متوهج ولكنهُ لاءم نفسهُ لذلك. وفي الكهوف والاغوار حيث يقل الضوء حتى يكاد ينعدم اصناف خاصة من النبات لاءمت نفسها للمعيشة والنموّ فيها. ومنها اصناف من الطحالب Moss

اما النباتات المعرضة للضوء المتوهج فقد استجابت لذلك استجابات متفاوتة بتفاوت النبات . فنبات « الايفي » الانكليزي (حبل المساكين : عيسى) Hedera Helix يرتب اوراقه في شكل يشبه الفسيفساء حتى تتعرَّض اكبر مساحة منها للضوء . و نبات الخس البري Latuca Scariola يرتب اوراقهُ بحيث يكون احد حرفيها متجهاً الى فوق والآخر متجهاً الى تحت ، فتستقبل ضوء الشمس في الصبح او المساء كاملاً عند ما يكون ضعيفاً غير متوهج ، فاذا ارتفعت الشمس الى السمت وتوهَّج ضوءها سقط على حروفها العليا فلا تتعرَّض إلاَّ لجزء يسير منهُ . اي ان اتجاه الورق يكون عموديًّا تقريباً لأشعة الشمس في الصبح والمساء ، موازياً تقريباً لأشعتها عند الظهر

وقد يقع تغيير في خلايا ورق النبات وفقاً لشدة الضوء أو ضعفه

وشدَّة الضوء تتفاوت من صفر في الليل الى توهج يمثله ضوء عشرة آلاف شمعة على بعد قدم منها في يوم رمضاء . ومعظم النبات ينمو نموًّا سويًّا في ضوء يقلُّ توهجهُ عن الضوء الممثل في عشرة آلاف شمعة. وقد اسفرت تجارب علمية خاضعة لسيطرة المجرّبين ، بنور صناعي عن نموّ نباتات نموًّا حسناً في ضوء تتفاوت شدتهُ من ألفيْ شمعة الى ثلاثة آلاف شمعة. والنتيجة العامة ان النباتات تزداد نموًّا في أحوال الجوّ العادية بازدياد شدة الضوء الى ان تبلغ هذه الشدة درجة معينة . فاذا تعدتها لم يزد نمو النبات او فعل التركيب الضوئي في أوراقه

أما والتركيب الضوئي لهُ المنزلة التي قدمنا ذكرها في صدر المقال فليس من العجب ، أن يسأل سائل ولماذا لا نستطيع أن نزيد فعل التركيب الضوئي في نباتات خاصة ، إذا كنا لا نستطيع أن نجاريهُ حتى الآن بالاساليب الكيميائية. والجواب سهل إذا فحصت عناصر فعل التركيب الضوئي فحصاً دقيقاً

إن التركيب الضوئي قوامه إتحاد ثاني أكسيد الكربون بالماء بفعل الضوء فيتولد السكر والأكسجين والعبارة الكيميائية كما يلي

٦ ثاني أكسيد الكربون + ٦ ماء + ضوء = ٦ سكر + ٦ أكسجين

فالخامات التي تدخل في هذه العملية الكيميائية هي ثاني أكسيد الكربون والماء

والهواء السويُّ يحتوي على قدر من ثاني اكسيد الكربون يبلغ ٠٫٠٣٥ في المائة ، وهذا يبين لنا ان عملية التركيب الضوئي لا يمكن ان تمضي في ازدياد متصل بزيادة قوة ضوء الشمس لأن هذا الازدياد يبلغ درجة لا يكفي عندها مقدار ثاني اكسيد الكربون الذي في الهواء لانجاز عملية التركيب ، ولكن اذا كان في الوسع زيادة مقدار ثاني اكسيد الكربون في منطقة معينة بوسائل كيميائية ، فمعدَّل سرعة التركيب الضوئي تزداد اذا توافر الضوء

وهذا هو ما فعلهُ جونستون الاميركي في سنة ١٩٣٥ في صيفين متواليين في منطقة محدودة مزروعة حنطة (قمحاً) . فقد اتخذ جونستون أساساً لتجربته ثلاث مساحات متساوية مزروعة

حنطة من صنف واحد ، فترك احداها مطلقة للهواء ، وأحاط الاثنتين الباقيتين بجدران من الزجاج علوها خمس أقدام ونشر فوقها شبكة من السلك الدقيق ليمنع تأثير هبوب الريح . ومدَّ في كل منهما أنبوباً ودفع فيهما عن طريق الأنبوب مقداراً من ثاني اكسيد الكربون يجعل معدَّلهُ في هواءِ المستنبتين أكبر من معدَّلهِ في الهواءِ الطلق . ثم قابل بين غلة هذه المناطق الثلاث . فاذا سوق القمح وسنابلهُ وحبوبهُ في المستنبتين أعلى وأكبر من سوقهِ وسنابلهِ وحبوبهِ في المنطقة التي تركت طلقةً في الهواء

بقي ان نقول كلة في العامل الثالث وهو قوام الضوء وتأثيره في نمو النبات

ليس ثمة ريب في ان الفعل الكيميائي المنطوي في التركيب الضوئي هو أعظم فعل كيميائي في العالم على بساطتهِ ، ولكنهُ لا يتمُّ إلاَّ بتأثير الضوء على ما نعلم . إلاَّ ان هناك عوامل متعددة تدخل فيها كالأنوار النباتية ، والمواد الفروية في المادة الحية ، والخمائر وما أشبه وهذه موضوعات لم تستوف بحثاً ، بل لم يكد البحث العملي يمسُّ إلاَّ أطرافها

ولكن اذا حصرنا نظرنا في الضوءِ ، وتأثيره في هذه العملية الكيميائية العظيمة الشأن ، فان السؤال الأول الذي يخطر لنا ، هو هذا — أيُّ الأشعة التي يتألف منها ضوء الشمس أفعل في إحداث هذا الفعل الكيميائي . وقد بحث الباحثون نواحي مختلفة من الموضوع بغية التحقق من تأثير الأمواج المختلفة في اسراع التركيب الضوئي او ابطائهِ . ولكن النتائج الكمية ولا سيما النتائج الكمية الخاصة بالنباتات الاقتصادية ، لا تزال قليلة لا يصح بناء احكام عامة عليها

وفي مقدمة هؤلاء الباحثين رجل يدعى هوفر (وهو غير الرئيس الأميركي السابق) . فقد أجرى أبحاثاً كمية دقيقة لمعرفة أي الأمواج أشد تأثيراً في حمل الحنطة على تمثيل ثاني أكسيد الكربون بعد انتزاعهِ من الهواء . وقد أحاط تجربته بجميع ما يلزم لاخضاع شتى عواملها لسيطرته كالتدقيق في معرفة الضغط الجوي ومقدار الرطوبة في الهواء وقياس مقدار ثاني اكسيد الكربون في الهواء ، وفرز الأشعة المختلفة التي في ضوء الشمس بعضها عن بعض بمصفاة لونية اخترعها باحث يدعى ما كليستر . وقد أجرى ثلاث طوائف من التجارب ، كان مصدر الضوء في احداها مصابيح مازدا الكهربائية ، وفي الثانية مصباح القوس الزئبقي ، وفي الثالثة ضوء الشمس ، فاتفقت النتائج التي أسفرت عنها التجارب جميعاً وهي ان الأشعة الحمر أفعل الأشعة اطلاقاً في حمل نبات القمح على تمثيل ثاني اكسيد الكربون المنتزع من الهواء وتليها الأشعة الزرق . أما الأشعة الخضر والصفر فلها تأثير يسير ، وأما الأشعة التي تحت الأحمر وفوق البنفسجي فليس لها تأثير ما في هذه العملية الكيميائية العظيمة في القمح

هذا بعض ما يتسع له المجال الآن ، وهو يبين عن نواح من البحث العلمي الفاتن في مسائل حيوية للحضارة والحياة على الأرض

هجرة الطيور (١)

بواعث الهجرة وأسرارها

لاحمد حماد الحسيني

كثيراً ما يشاهد الانسان في الربيع والخريف خاصة أسراباً من الطيور تحلق في السماء وقد انتظمت صفوفاً طويلة يتبع واحدها الآخر بدقة متناهية ونظام عجيب ، ونحن اذ نلاحظها يدهشنا منها اجتماعها على هذه الصورة ، وطيرانها المنتظم وهي مولية شطر الجنوب أو الشمال ، تلك الأسراب هي لطيور تسعى ، إما في رحلة الشتاء وإما في رحلة الصيف ، أي في سفرها الى مصيفها أو مشتاها بحسب ما يتوافر فيهما من عوامل الحياة البهيجة السهلة

ولكن الطيور كلها لا تقوم بهاتين الرحلتين ، بل ان منها ما هو مقيم ، لا يبرح مسكنه صيف شتاء ، كالغراب والحدأة واليمام وعصفور النيل وغيرها ، وهذه نسميها الطيور المقيمة أو الأوابد ، أي غير المهاجرة ، أما تلك الطيور التي تهاجر من مكان الى آخر ، فنسميها الطيور المهاجرة أو القواطع ، ومن أمثالها كثير من أصناف البط البري ، والأوز العراقي والعنز ، والوروار الأخضر ، والسماني (والسماني هي السلوى التي كان ينزلها الله على بني اسرائيل في عهد موسى عليه السلام)

وتكثر أمثال الصنف الأول في المناطق المعتدلة المناخ ، كأرض مصر ، وأما الثانية فتعيش في بيئة متقلبة ، يصعب على الطير أن يبقى تحت أنوائها ، كالمنطقة الشمالية البعيدة ، حيث يتجمد الماء في الشتاء وينضب معين القوت الضروري لحياتها ، فترغم على ترك أوطانها ، لتولي شطر الجنوب كي تبحث عن مشتى آخر ، حيث يطيب الهواء ويتوفر لها الرزق

عند ما تبدأ الطيور المهاجرة رحلتها ، تجتمع في جماعات كبيرة من مختلف الأصواب ، وتبدأ رحلتها الشاقة ، الى حيث تولي ، لا تأبه بمحيط ولا بحر ، لا أمل لها الا غايتها المنشودة ، رغماً عما يهلك منها بالمئات ولكنها لا بدَّ واصلة ، رغم بعد السفر ، ومشقة الطريق ، حتى ان بعضها ليطير ألفين من الأميال دفعةً واحدة فوق المحيط !

---

(١) من كتاب سلسلة أحاديث كلية العلوم عن العلوم المبسطة . راجع ما كتبناه فيه في مكتبة المقتطف جزء دسمبر ١٩٤٠

ربما سأل سائل أين لهذه الطيور الوديعة الصغيرة القوة التي تكفل لها الوصول الى مشتاها البعيد؟ فهي في ضعفها والاستهانة بقوتها أصبحت مضرب الأمثال، ولكننا في الواقع لو نظرنا الى صفاتها التشريحية نظرة الفاحص المدقق، لوجدنا ان الطبيعة قد حبتها بميزات كثيرة قهرت بها الهواء، وأصبحت على صغرها من أنشط الحيوانات وأشهرها حركة. فنحن لا نكاد نلمح عصفوراً مستكيناً في عشه، حتى نراه متنقلاً من فنن الى فنن، في تجواله اليومي او مفتشاً عن حبة، أو متطلعاً ببصره الى السماء والأرض مترقباً عدواً. وان كثيراً من الطيور لتطير، لا لشيء الاّ حبّاً في الطيران لذاته، فتمارسه رياضة يومية جميلة ساعتين أو يزيد. وقد تبلغ سرعة بعض الطيور رقماً يزيد على المائتي ميل في الساعة، كما في الطير المسمى بالسمامة أي السريعة. كل هذا المجهود يحتاج الى قوى كبيرة، تتحقق باتساع سطح التنفس، فالرئتان تتكونان من شعب عديدة، تنتهي بعضها بأكياس هوائية كبيرة، تنتشر في العنق، والابط، والصدر، والبطن وهذه بدورها تتصل بفجوات، تتخلل جميع العظام، الاّ القليل منها، وهذا مما يجعل الأنسجة في اتصال مباشر بالهواء، فيحدث التبادل التنفسي المعروف بين الدم والهواء بنشاط زائد، حتى ان درجة حرارة جسم الطائر لتتراوح بين ٣٨—٤٤ درجة مئوية. واذا أضفنا إلى هذه القوة الكبيرة الناتجة من التنفس، كبر الجناحين، وخفة الريش، الذي يكسو الجسم، وتخلل العظام بالهواء، واختزال كثير من الأعضاء الداخلية لتخفيف الجسم، وغير ذلك، سهل علينا تصور ما للطيور من المقدرة الفائقة في قهر الهواء، واتخاذه مطية سهلة ميسورة.

***

وهجرة الطيور تتطلب قوة إبصار كبيرة، لتسهل للطيور المهاجرة استطلاع الطريق، في المسافة البعيدة التي تقطعها، وذلك نجده في تكوين عضو داخلي في العين، يسمى المشط، يساعد على تكييف البصر بسرعة عظيمة

والطيور عند هجرتها، تجتمع صغارها وكبارها، من غير أن تكون الصغار قد مارست الهجرة من قبل، فلا بد لها إذن من قوة إدراك كبيرة ترى بها لزوم الهجرة والاقدام عليها بما فيها من خطورة — وقد وجد من الصفات التشريحية للمخ، أن مراكز الغريزة تصل إلى حدٍّ أقصى عند الطيور — ومن طريف ما يروى في موضوع غريزة الطيور أن تنظيف العش من براز الصغار غريزة في الأبوين يقومان بها — وقد حدث مرة أن نقلت البراز يدٌ بشرية من عش طائر أثناء غيبته، فلما رجع إلى العش، أخذ ينقل من العش مادة بنائه التي جمعها بعد كدٍّ وتعب. فهو إذن قام بهذه العملية، بحركة آلية غريزية بحتة، من غير أن يتبصر فيما هو مقدم عليه..

والهجرة واحدة من هذه الغرائز، ولدت معهُ من قديم، وتوارثها عن أبٍ وجد، ولم يتعلمها

عن حس وإدراك — ولأتحدث الآن عن العوامل التي أمكن استنتاجها ، لمعرفة الأسباب التي تدفع الطيور الى الهجرة ، وهذه العوامل كثيرة نورد منها ما يأتي :

أولاً — انقلاب البيئة الجوية، انقلاباً يتعذر معهُ على الطاير أن يصمد تحت أهوالها، فباقتراب فصل الشتاء تبدأ درجة الحرارة في الانخفاض تدريجيًّا ، فيتجمد الماء وتكسو الأرض طبقة كثيفة من الثلج

ثانياً — في هذه البيئة الشتوية القارسة ، تتساقط أوراق الشجر ، ويذبل النبات والزرع ، وينقطع دبيب الحياة ، فلا تكاد نلمح إلاَّ أصقاعاً مترامية خاوية

ثالثاً — وبمقدم الشتاء ، يقصر النهار ويطول الليل

رابعاً — قلة الأشعة فوق البنفسجية ، وهي تقل من الجنوب إلى الشمال ، حتى تنعدم في فصل الشتاء كليةً من هذه البقاع النائية ، فهذه البرودة التي تكتسح تلك البقاع ، وتصيب معين الرزق ، تدفع الطيور الى البحث عن مكان آخر، حيث يعتدل المناخ ، ويتوفر لها القوت ، وإلاَّ فهي إذا اكتنفت في مثل هذه الظروف ، عانت زمهريراً لا طاقة لها عليهِ ، ووقعت في مجاعة لا بد تقضي عليها ، كما أن قصر النهار يؤثر في طرق حياتها ، فلا تستطيع العثور على قوتها في ظلمة الليل، وذلك نحسهُ نحن ويتجلّى في حياتنا، فنغير نظم معيشتنا الحيوية والاجتماعية . كما أن الأشعة فوق البنفسجية ضرورية للحيوان ، لازمة لحياتهِ، فقد وجد أن لها الأثر الأكبر في بناء الفيتامين ، وكلنا يعرف ما لهذه المواد من تأثير في الظواهر الحيوية للكائن الحي . وفي تلك الأصقاع الشمالية ، يستعيض الانسان عن هذه الأشعة بزيت كبد الحوت ، الذي يحتوي على قسط كبير من الفيتامين ، ولكن من أين تحصل عليهِ الطيور ، ومعظمها يعيش على أكل الحبوب ؟ . إذن فهي تعتمد الاعتماد كله على هذه الأشعة لبناء ذلك الفيتامين ، فترحل الى الجنوب حيث تتوفر الأشعة ، لتبقي على حياتها من الضياع ، وقد حجز بعض العلماء أفراداً من طيور مهاجرة في فصل الشتاء ، ومنعها من الهجرة ، فبدأ يعتريها الهزال ، وأخذ منها الضعف مأخذه ، وختمت التجربة بمأساة موتها

***

ولو فرضنا جدلاً ان جميع هذه العوامل غير كافية لارتحال الطيور ، فاننا نجد انهُ من الخير لها ان تهاجر ، لأنها لو كانت في مكانها لاتبرحه ، تزيد عدداً في كل عام ، حتى يأتي زمن تصل فيه الى حدٍّ أقصى — هناك تعبث بها الأوبئة والأمراض ، ويساعد اختلاطها على تفشيها ،

فتعمل فيها كالسيف الماضي ، وتبيدها بالمئات والألوف ، وتعاني بعد ذلك أزمة شديدة من قلة التعداد . نخيراً تفعل الطيور ، لكي يفنى أثناء رحلتها الضعفاء منها ويبقى الأصحاء التي ترجع الى وطنها ، وهي ممتلئة نشاطاً ، لاكثار نسلها ، فيحيا حياة ملؤها الصحة والجد

***

ومن غريب ما نلاحظ على الطيور المهاجرة ، انها تتبع نفس الطريق في سنين متعاقبة ، كأنها على دراية بتخطيط الأرض ، وليس هذا فحسب ، بل إن للطيور مجالاً مغناطيسيًّا تنجذب اليه بواسطة حاسة خاصة ، أي أنها تصل الى نقطة محددة ، من بقعة معلومة تختلف باختلاف نوع الطائر ، وباختلاف المكان الذي يعيش فيه ، فهي إذن غريزة موروثة ، لولاها لهلكت هذه الطيور ، في تخبطها في طرقات الجوّ بغير هدى

تأتي الطيور من الشمال الى الجنوب ، حيث تقضي سحابة فصل الشتاء ، ولا يكاد ينتهي هذا الفصل حتى تحشد جنودها فتأتي من كل فجٍّ عميق ، لتولي وجهها شطر الشمال ، متخذة طريقها الاول ، حتى تصل الى موطنها الأصلي ؛ فكأنها تهاجر مرتين في كل عام ، بين الشمال والجنوب . وقد وجد بالمشاهدة ان كل نوع منها يترك مصيفه في تاريخ محدد ، ويصل مشتاه في يوم ثابت ، بدقة متناهية وتقويم عجيب . ولكن ما الذي حدا بهذه الطيور الى الرجوع ، ولم يبخل عليها المصيف بما تحتاج اليه ؟ إذن لا بد ان تكون هناك عدة عوامل ، تضبط هذه الظاهرة الحيوية ، حتى تنجح الخطة المرسومة النجاح كله

***

ربما تكون شدة البرودة وما يعقبها من تجمد المياه ، ونقص في الغذاء ، هي الباعث لها على الهجرة ، ولكن وجد ان في بعض السنين كثيراً ما يتأخر الصقيع عن ميعاده ، او يتقدم عليه وفي كلتا الحالتين تتناسب موارد الغذاء تناسباً عكسيًّا ، غير ان الطيور تترك مكانها في وقتها المحدد ، غير آبهة لرداءة البيئة ، او اعتدالها ، او قلة الغذاء او وفرته

ثم قال آخرون ، إن تغير لون أوراق الشجر ، من الأخضر الى الأصفر ، هو الذي يبعثها على الهجرة ، ولكن وجد بالمشاهدة ان بعض الطيور المهاجرة ، تترك الشمال قبل ان تصفر الأوراق ، أي أنها لا تعرف اللون الأصفر ، فلا سبيل له إذن للتأثير فيها . ثم تجيء الأشعة فوق البنفسجية ، ولكننا لا نعرف بأي شكل تحس بها الطيور ، اذا زادت هذه الأشعة او قلّت . ويلي ذلك اختلاف طول النهار . وقد أجرى العالم « روان Rowan » تجارب على طائر الجنكس ، وهو طائر مهاجر ، وحجز منهُ عدداً قبل ارتحاله الى الجنوب ، فعرض بعضاً منهُ لاضاءة كهربائية مدة من الزمن ، تعادل طول النهار في الجنوب ، ثم أخذ يزيد في الزمن

تدريجيًّا ، بحسب ما يحدث في تلك البقاع ثم أطلقهُ ، فلما أحسَّ الفارق بين البيئتين ، لم يطق صبراً على المكث ، فرحل توًّا الى الجنوب ، أما تلك التي لم يعرضها لضوء صناعي ، فلم تشعر بتغير ما في بيئتهـا ، التي تعوَّدتهـا ، فلم ترحل ، إذ قد فات أوان الرحيل ، ولو كان في ذلك هلا كها

وهذا دليل على أن طول النهار عامل خارجي مهم ، يسيطر على هذه الظاهرة الحيوية .

وأخيراً نصل الى مسألة الهرمونات الجنسية التي تفرزها الغدد التناسلية الخصيتان في الذكر والمبيض في الأنثى — وهذه الهرمونات ، هي التي تسيطر على الحياة الجنسية بين الشقين ، الذكر والأنثى — وقد وجد أن مقدار إفراز هذه الهرمونات ، يقل في الطيور إذا بدأ فصل الشتاء ، ثم يقل في فصل الهجرة ، أما بعده فيأخذ في الازدياد تدريجيًّا إذا حلَّ فصل الربيع ، وبازدياد الهرمونات يشتد الميل الجنسي ، فتبدأ الطيور بتأثير هذا العامل بالرجوع يزجيها حنين الى الوطن حيث تتناسل وتتكاثر

أي أن الهرمونات الجنسية ، تقل حين تبدأ الهجرة من الشمال الى الجنوب ، وتزداد عند كرّ العودة من الجنوب الى الشمال ، ومعنى هذا أننا لو استأصلنا الغدد التناسلية لطائر مهاجر لما كان هناك تأثير ما يدفعهُ الى الهجرة — وقد برهنت التجارب على صحة هذا الاستنتاج — وقد يحدث هذا في الطبيعة ، لمرض يصيب الغدد التناسلية . فيعطلها عن إفراز الهرمونات الجنسية وعلى ذلك يعجز الطير عن الهجرة — وقد شوهد عدد غير قليل من غربان أميركا الشمالية المهاجرة ، ولم تضرب مع عشيرتها عند الرحيل ففحصها المختصون فوجدوا غددها التناسلية معطلة بمرض أصابها

***

مما تقدم ، نستنتج أن طول النهار هو عامل البيئة الخارجي ، بينما الهرمونات العامل الفسيولوجي الداخلي ، في الهيمنة على هذه الظاهرة الحيوية

ومع أن هذا صحيح في كثير من حالات الطيور المهاجرة ، غير أنهُ لا ينطبق في الحقيقة على بعضها ، وأملنا في القريب أن يتوصل العلماء الى حل يوفق بينها جميعاً . وفي الواقع تقوم بعض المعاهد ، في مختلف بلدان العالم ، بدراسات طويلة حول هذا الموضوع الخطير ، ولمصر نصيبها منهُ عن طريق رجال حدائق الحيوان بالجيزة ، الذين يرتادون الصحراء في مواسم الهجرة لدراسة الطرق التي تسلكها الطيور المهاجرة ، وإننا لنرجو أن يتوصل أولو العزم الى ماينير لهم الطريق لفهم هذه الظاهرة الحيوية فهماً تامًّا

الجهاز الرحوي

ومنزلته في غزو معقل الذرة

حقائق جديدة يكشفها استعماله

قد يكون الارتقاء في علمٍ من العلوم ، مبنيًّا على كشف جديد ، كمباحث الذرة التي ترتدّ الى كشف الراديوم ، او على فهم جديد لحقيقة قديمة كالبحث في الغدد الصم ، او على اتصال لاعهد للباحثين بهِ من قبل بين علمين او أكثر من العلوم ، كاتصال الطبيعة والكيمياء ، او الفلك بالطبيعة ، اوعلى استنباط آلة جديدة كاستنباط المطياف وما بني عليهِ كالمطياف المصور . ومن هذا القبيل يرتدّ جانب كبير من التقدم الحديث في علم الذرّة ، الى استنباط الجهاز الرحوي (السيكلوترون)

فمن إحدى عشرة سنة ، كان أستاذ مساعدٌ شابٌّ في جامعة كاليفورنيا ، يدعى أرنست اورنس ، يطالع رسائل وضعها الباحثون في مختلف الأقطار ، في الفرع الذي توفر عليهِ من فروع علم الطبيعة ، وكان معظمها لا جديد فيهِ ، لأنهُ عرفهُ بالاختبار او درسهُ في الكتب او طالعهُ في المجلات الخاصة بالطبيعة

ولكنهُ عثر في إحدى هذه الرسائل على شيء استوقف نظرهُ . كان الباحث قد وصل أنبوبين مفرغين أحدهما بالآخر ، فنشأ عن ذلك ان سرعة الكهيربات في الأنبوب الثاني كانت أسرع منها في الأول . فكان الخاطر الاول الذي خطر للورنس :— ولماذا نكتفي بأنبوبين ؟ قال هذا وهو يرى بعين عقلهِ انهُ اذا استعملت سلسلة من الأنابيب المفرغة متصلة بعضها ببعض وكانت سرعة الكهيرب تزداد في كل لاحق منها عنها في السابق ، فيجب ان يكون في الوسع ، زيادة سرعة الكهيربات بهذه الطريقة حتى تبلغ طاقة حركتها ملايين من الفولطات ، وعندئذٍ تغدو قادرة على اختراق الذرة وتهشيم نواتها ، وهذا غرض من أغراض الباحثين في الذرّة

ثم خطر لهُ خاطر آخر ، رائدهُ الخيال وقد أمسك العقل بزمامهِ ، فقال :— لماذا لا نصنع أنبوباً واحداً مستديراً بدلاً من سلسلة من الأنابيب المتصلة ثم نستعمل قطبين كهربيين من النحاس يتردد بينهما تيار كهربيٌّ متذبذب . ويوضع في وسط الحلقة مغنطيس يجعل الكهيربات تدور في الأنبوب دوراناً رحويًّا ، فاذا صحّ الرأي ، فتتعرّض الكهيربات الدائرة في الأنبوب

مرة بعد مرة للضغط الكهربي من القطبين، يدفع الكهيربات دفعاً جديداً كلما تعرّضت له، فتزداد سرعتها قليلاً قليلاً، ولكن توالي الازدياد يكون سريعاً، حتى لقد تبلغ طاقتها درجة عالية، تمكنها من اختراق نطاق الذرة الى نواتها وتهشيمها

وكذلك ولد الجهاز الرحوي (السيكلوترون) الذي أصبح ولا غنى عنهُ في معامل الطبيعة لبحث الذرة . وقد منح لورنس جائزة نوبل الطبيعية جزاء لهُ على ما نفح بهِ علم الطبيعة

وقد صنعت عشرات من هذه الاجهزة لمختلف معامل البحث الطبيعي في اميركا واوربا ولكن لورنس معنيٌّ الآن بصنع جهاز رحويّ يفوق اكبر جهاز صنعهُ من هذا القبيل عشرين ضعفاً

ذلك ان هذا الجهاز الذي يرتدُّ الى بحث دقيق في العلم المجرَّد، أصبح وسيلة عملية، يعتمد عليها رجال الطب والكيمياء وعلم الحياة وعلم الحشرات وعلم النبات وغيرهم في النفوذ الى ما كان متعذراً عليهم، ممتنعاً عنهم . ففي احدى الدوائر الطبية يولد هذا الجهاز شعاعاً قويًّا يبحث من ناحية تأثيرهِ في كفاح السرطان، وفي اخرى تسدَّد الاشعة المنبعثة منهُ الى مواد غذائية شتّى فتكتسب خواصّ جديدة عليها سمةٌ من خواص الراديوم فيمتحن تأثيرها في الصحة والمرض، وفي دوائر علم النبات تستعمل الاشعة نفسها في استنباء النبات اسرار الغذاء وتركيب النشاء والسكر في اوراقهِ

وهذه جميعاً فوائد جليلة القدر توسع نطاق معرفتنا باسرار الحياة والصحة، وتمهّد طرقاً للثروة، ولكن لورنس غير مكتفٍ بها ولا قانع، لانهُ ينظر الى ما وراءها، ورجاؤه معقودٌ على كشف سرّ الطاقة الذرية وإطلاقها، وفهم الاساليب التي تمكنهُ ومن يجري مجراهُ من تحويل العناصر بعضها الى بعض، تحويلاً عمليًّا، لا تحويل بضع ذرّات فحسبُ

***

مضت خمسة وعشرون قرناً ورجال العلم يعتقدون ان هناك دقائق مادية أساسية سمّى الفيلسوف ديموقريطوس واحدتها Atom (الجوهر الفرد او الذرَّة) فأُخذت عنهُ . ثم من اربعين سنة تجمعت الأدلة على ان كل ذرَّة عالم قائم بنفسهِ، لهُ نواة تقابل الشمس في النظام الشمسي، وكهيربات تتحرَّك حولها تقابل السيارات، وان جميع الكهيربات متماثلة مهما تكن الذرَّة

ولكن كل عنصر من العناصر لهُ ذرَّة خاصة بهِ، وتختلف عن ذرة غيره من الايدروجين الى الأورانيوم . فأثبت البحث الحديث ان سر الاختلاف مستقرٌ في عدد الكهيربات التي حول نواة الذرة . فذرَّة الايدروجين لها كهيرب واحد حول نواتها، وذرة الأكسجين ثمانية كهيربات وذرة النحاس تسعة وعشرون كهيرباً، والقصدير خمسون، والذهب تسعة وسبعون

والراديوم ثمانية وثمانون وذرة الأورانيوم أثقل العناصر وزناً لها حول نواتها اثنا وتسعون كهيرباً

والعناصر تعرّف في كتب الطبيعة الحديثة بعدد الكهيربات التي حول نواة كل ذرّة م ذراتها ، وهذه الاعداد تعرف باسم «الأعداد الذرية »

ومن بواعث الاستغراب أن العلماء وجدوا ان تجريد ذرات عنصر ما من بعض كهيرباتها لا يغ من طبيعتها ، فذرة الذهب تبقى ذهباً . وذرة الحديد تبقى حديداً . فقال العلماء لا بدَّ أن يكو في نواة الذرة أشياء محجوبة عنا فيها سرُّ التحوُّل فوجّهوا مدافع العلم الى معقل الذرة بغية فتحه هل النواة ذرّية التركيب ، أو هي دقيقة لا تتجزأ ؟ وبعد بحث دقيق وجدوا أن النوا قوامها بروتونات ونوترونات. فقالوا إذن هنا لبنات الكون المادي . كل ما فيه، من لحم وبرتقال وذهب وحديد ، وزيت وماء ، يرتدُّ عند تحليله التحليل التام الى الكهيربات والبروتونات والنوترونات مرتبة في صور شتى . ولا يزال هذا القول غالباً على دوائر العلم الطبيعي ، ولكن ليس بالمستحيل أن يكون عند لورنس شيء يضيفهُ اليهُ عندما ينجز صنع جهازه الرحوي الضخ

***

من السهل تجريد بعض الكهيربات من ذراتها وقد فعل الأقدمون ذلك بغير أن يدروا فعلوه عندما جربوا التجربة الكهربية الأولى في التاريخ ، أي عندما فركوا كرة من الكهرمان بخرقة من الصوف ، فأصبحت الكرة قادرة على جذب قشة اليها ، بعد ان ولد الفرك فيم طاقة كهربية

ولكن إختراق معقل النواة ليس بالأمر الميسَّر . ففي مدى نقطة (الفاء) في هذه الكلم تحتشد مليونا ذرة في خط مستقيم . والنواة في كل ذرة منها لا تزيد على ذبابة في معبد كبير . ث ان البروتونات والنوترونات الداخلة في تركيب النواة ، متماسكة بقوة عظيمة جدًّا . ففصلم بعضها عن بعض يقتضي طاقة عظيمة . ولكن الجائزة التي يظفر بها من يفوز بفصلها بعضها عن بعض واطلاق طاقتها ، جائزة عظيمة تغري بالتجريب وتدفع الى المغامرة . لأن في هذه الطاق التي تربط اجزاء النواة بعضها ببعض مصدراً لا ينفد لطاقة لا تحد

هذه الاعتبارات حملت لورنس في سنة ١٩٢٩ — أي من احدى عشرة سنة عندما كان يطالع في مكتبة جامعة كاليفورنيا — على التوق الى أن يكون رهنَ يديهِ طاقة قدرها مليون ڤولط ، لكي يحاول ان يهشّم نواة الذرة بها

وكان العلماء متفقين على ان في الوسع استعمال ذرة لتهشيم ذرة أخرى ، ولكن ذلك

يقتضي ان تقذف الذرّات قذفاً سريعاً قويّاً فتتحول الى قذائف قد تصيب ذرات المادة الموجهة اليها فتهشم بعضها . وكانت المشكلة التي تواجههم ، اين نستمد الطاقة اللازمة لقذف الذرات بهذه السرعة

كانت القذائف الأولى التي استعملها العلماء لتهشيم نواة الذرة منبعثة من تلقاء نفسها من انحلال العناصر المشعة كالراديوم ولكنها قذائف تستمد طاقتها وزخمها من الطبيعة فليس للعلماء يد في اطلاقها أو زيادة طاقتها . وما لبثوا حتى أدركوا ان توسيع نطاق معرفتهم ببناء الذرة وتحويل العناصر ، يقتضي قذائف اخرى متنوعة . وكان معروفاً ان اطلاق تيار كهربي في غاز لطيف ، يخرج منه مقذوفات منوعة من ذرات وجزيئات ودقائق سريعة الا اطلاق قوية الزخم فاذا زيدت سرعة هذه الدقائق المنطلقة بامرارها في فراغ معرض لفعل الضغط الكهربي فقد تصبح سرعتها كافية لاطلاقها على نوى الذرّات بغية تحطيمها

واتجه الرأي الى أسلوبين رئيسيين في اطلاق هذه القذائف المادية أحدهما خزن مقادير كبيرة من الطاقة الكهربية واطلاقها بين قطبين ضخمين . ولكن ظهر بعد التجربة أنهُ اذا ارتفع الضغط الكهربي في القطبين وبعدت المسافة بينهما تعذر وجود أنابيب تصلح لمرور الشرارة الكهربية العظيمة بين القطبين. وقد صنع فعلاً جهازمن هذا القبيل في معهد ماستشوستس التكنولوجي الأميركي قبل خمس سنوات ، وفيهِ تنطلق الشرارة الكهربية بين القطبين بطاقة سبعة ملايين ڤولط ولكنه لم يستعمل على ما نعلم لتعذر صنع أنبوب يصلح لمرور الشرارة الكهربية فيه

وأما الطريقة الثانية فهي طريقة لورنس وقاعدتها استعمال طاقة كهربية من قدر متوسط فتستعمل طاقة قدرها عشرات الألوف من القولطات مثلاً بدلاً من الملايين ولكن الدقائق المادية تتعرض لفعلها مرة بعد أخرى فتزداد سرعتها ويرتفع مقدار زخمها . فاذا بلغت طاقتها مرتبة ملايين من القولطات وجهت الى مادة يراد تهشيم النوى في ذراتها

كانت القاعدة التي بنى لورنس عليها جهازهُ الرحوي غاية في البساطة، ولكنهُ أصاب من النجاح فوق ما كان يتوقعهُ. فالقذائف المنطلقة منهُ على الصوديوم — رقمهُ الذري ١١ — حوّلتهُ الى مغنيزيوم — رقمهُ الذرّي ١٢ — وذلك بانتزاع نترون من القذيفة التي أصابت نواة ذرّتهِ. وكانت القذيفة نواة الايدروجين الثقيل (دوتون وقوامها بروتون ونترون) . والالومنيوم — رقمهُ الذرّي ١٣ — تحوّل إلى فصفور — رقمهُ الذرّي ١٥ — وذلك بعد اطلاق قذائف نوى الهليوم عليهِ . والنتروجين — رقمهُ الذري ٧ — تحوّل الى بورون — رقمهُ الذري ٥ — بالتخلي عن نواة هليوم ، وذلك بعد اطلاق نترونات عليهِ

وعلى هذا المنوال تعدَّدت وجوهُ التحوُّل في العناصر ، ومنها ما هو معقد شديد التعقي فقد وجد أعوان لورنس مثلاً انهم يستطيعون ان يصنعوا من عنصر ما خمسة نظائر باحداث ت في نواته بفعل قذائف منطلقة عليها من الجهاز الرحوي

ثم بدت ظاهرة عجيبة وهي ان بعض العناصر الخفيفة ، تطلق بعد اصابتها بقذائف الجِ الرحوي ، أشعة تشبه الاشعة التي تنطلق من الراديوم والعناصر المشعة المشابهة له. أي ان ه العناصر الخفيفة أصبحت مشعة بفعل طبيعي في قدرة العالِم ان يسيطر عليه

وتفسير ذلك انهُ اذا اصطدمت قذيفة منطلقة من الجهاز الرحوي بنواة ذرَّة فانها تهشه اي تفقدها استقرارَها مدى لحظةٍ عابرة ، بفعل الصدمة واضافة دقيقة اليها او حذف دقيقة ، أو الاثنين معاً ، ثم لا تلبث ان تميل النواة الى الاستقرار على نحو جديد . خذ مثلاً على ذلك ذ البورون . فنواتها في عرف الطبيعي خمسة بروتونات وخمسة نوترونات. فاذا قذفت دوتوناً ع السرعة والطاقة عليها ، اندمج في النواة وقوامهُ بروتون ونوترون ، فتصبح النواة ستة بروتونا وستة نوترونات وهذه هي نواة ذرَّة الكربون . فعنصر البورون تحوَّل كربوناً . ولكن الكربون الحامي بفعل الاصطدام يقذف نوتروناً في سعيه الى الاستقرار ، كما يقذف الماء بخا عند امتصاص الحرارة . ومع ذلك يبقى في الذرَّة الكربونية بروتون زائد ، وهذا يقذ بعد أمد متفاوت طولاً وقصراً وقذفهُ هو الاشعاع المستحدث

وما ثبت ان الجهاز الرحوي يحدث الاشعاع في العناصر حتى أقبل الأطباء عليه ، لأ الراديوم نادرٌ وغالٍ ، وفيه فائدة ومنهُ ضررٌ . والعناصر المشعَّة اشعاعاً مستحدثاً أقصر عم — اي مدى اشعاعها أقصر جدًّا من مدى اشعاع الراديوم — فاستعمالها باطنيًّا بغير تعريض العل للخطر أسهل . ونفقتها أقل كثيراً فتعريض حفنةٍ صغيرة من ملح الطعام لقذائف الجهاز الرحو يولد صوديوماً مشعًّا يستطيع ان يطلق اشعاعاً لا يطلقهُ من الراديوم إلاَّ مقدار ثمنـهُ عشرا الألوف من الجنيهات

***

وفي جامعة كاليفورنيا وحدها عشرون قسماً من أقسامها تستعمل المواد المشعة التي يولد الجهاز الرحوي في دراسة نواحٍ شتى من العلوم البيولوجية والصناعية . ويعنى لورنس الآ بصنع جهاز رحوي ضخم يفوق اكبر جهاز صنعه حتى الآن عشرين ضعفاً وستبلغ نفقته ٠٠ الف جنيه ويستغرق صنعه ثلاث سنوات ويولّد مائة مليون « كهرب ڤولط » وسيقفه على البح الأساسي في أسرار القوة الذرية

شعر البارودي

حياته وصورة عصره (١)

لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

— ٣ —

عاد البارودي من حرب البلقان وقد أدرك الأربعين ، وبلغ من الرتب العسكرية أسماها فعين مديراً للشرقية، فحافظاً للعاصمة . وبينما هو في هذا المنصب ترك اسماعيل حكم مصر بعد تدخل الدول الأجنبية في شؤونها ، فكان ذلك نذيراً بتجهم الحظ لبلاده ، وللشاعر الفحل الذي شدا بجمالها وتغنى بمجدها

ولكن النهضة التي بثها اسماعيل في مصر ، تركت في نفس الشعب أثراً لا يسهل التغافل عنه أو القضاء عليه . يستطيع السلطان العثماني أن يصدر فرماناً بتولية توفيق، ويستطيع اسماعيل أن يغادر بلاده الى ايطاليا ، ويستطيع توفيق أن يجلس على عرش أبيه ؛ ذلك كله يسير ، لأنه يصدر بأوامر رسمية وينفذ طوعاً لهذه الأوامر . لكن النبات الذي وضعت بذرته في التربة المصرية من عهد محمد علي ، والذي تعهده إسماعيل بعنايته ، وبذل الجهد والمال لتقويته ، لا يمكن أن تنزعه الأوامر ، أو يذهب به تغيير الجالس على العرش . فكان طبيعياً أن تثير هذه الأحداث عواطف الشعب المصري على التدخل الأجنبي ، وأن تلهب في النفوس شرارة القومية ، وأن تدفعها الى التشبث بالشورى والحكم النيابي وسيلة لاقامة العدل ومتابعة الاصلاح

وزاد إرتقاء توفيق عرش مصر رجاء الشعب في بلوغ هذه المطالب ، فازداد بها تشبثاً ذلك أن توفيقاً كان متصلاً بالسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وبالدعاة الى الاصلاح والى الشورى ، على أنه لم يلبث حين آل اليه الأمر أن أعاد المراقبة الثنائية ، وأصدر قانون التصفية ، وخاصم الحكم النيابي ، وأعاد السلطة المطلقة . وهو لم يفعل ذلك تمرداً منه على المبادىء التي قال من قبل بها، وإنما فعله ضعفاً أمام التدخل الأجنبي الذي إزداد في عهده على ماكان في عهد أبيه فكان للاجانب في الواقع زمام الأمر ، وإن أرادت المظاهر الرسمية أن يكون توفيق الممسك بهذا الزمام

(١) تتمة مقدمة الطبعة التي أخرجتها وزارة المعارف وقد وصفت في باب المكتبة في مقتطف نوفمبر ١٩٤٠

وكان سامي البارودي من أنصار الحركة القومية ومن المقربين لذلك الى توفيق في الزمن الأخير من عهد أبيه والفترة الأولى من عهده . ولقربه منهُ عينه مديراً للاوقاف ، فأصلح فيه ماوسعهُ الاصلاح . على أن إطراد التدخل الأجنبي ومقاومتهُ لفكرة الحكومة النيابية في مصر حال دون مايحتاج اليهِ الاصلاح من هدوء وإستقرار وقد أحسَّ المستنيرون من المصريين بأن عليهم واجباً لأنفسهم ولبلادهم ان يقاوموا تيار هذا التدخل وكان المستنيرون يومئذٍ هم رجال الجيش كما سبق القول . لذلك إنتقلت حركة المطالبة بالشورى والاصلاح من أيدي المدنيين الى أيدي العسكريين

آذن هذا الانتقال باثارة مشكلة جديدة لم تكن بادية للعيان في عهد إسماعيل ، على رغم ما كان من نشاطها أثناء استخفائها . تلك حركة المصريين في الجيش فقد كان رؤساء الجيش من الجراكسة والترك ، ولم يكن يرقى الى الصفوف الاولى من المصريين أحد . وكان هؤلاء الرؤساء على جانب عظيم من الغطرسة والبطش . أما ومصر تريد أن يكون أمرها لبنيها ولا تريد للاجنبي سلطاناً ، فمن الحق أن تكون رآسة الجيش للمصريين ، وألاَّ يكون لهؤلاء الرؤساء الأجانب مالهم من سلطان

لم تكن هذه الفكرة واضحة في النفس المصرية هذا الوضوح في عهد إسماعيل ولا أوائل حكم توفيق . ولعلَّ التدخل الأجنبي هو وحده صاحب الفضل في تحريكها وإظهارها من بعد بجلاء وقوة . انما كانت الشكوى قبل ظهورها مقتصرة على طلب العدل ورفع الظلم . لذلك كان نحو سامي البارودي وهو جركسي كغيره من الجراكسة ، محبوباً من المصريين محبًّا لهم ، بل كان موضع رجاء العسكريين منهم في رفع الحيف النازل بهم وكيف لا يحبهُ المصريون جميعاً وقد تغنَّى بحبِّ مصر ما تغنَّى ، وقد وصف من جمال مصر ما لم يسبقهُ أحد إليهِ ، وقد صوَّر هذا الجمال في دقَّة تدلُّ على إخلاصهِ وصدق محبته . فلما ثار العسكريون المصريون بناظر الحربية عثمان رفقي فاستقال ، أسند توفيق هذه الوزارة إلى البارودي مع ديوان الأوقاف

على أن إسراع توفيق إلى الاتعاظ بالحوادث وإذعانه للتدخّل الاوربي وظهوره بتأييد الحكم المطلق وقف البارودي موقف الحيرة : أيظلُّ على ولائه لصاحب العرش ، أم على وفائهِ للشعب الذي اختصَّه بمحبته . ورأى رياض باشا ، رئيس الوزارة يومئذٍ ، إيثار البارودي للشعب فدسَّ عليهِ عند توفيق ، فاضطره إلى الاستقالة من الأوقاف والحربية ، ودفعهُ إلى اعتزال الحياة السياسية والعيش بعيداً عن جوِّ القلق والاضطراب

رأى توفيق حركة الجيش تكبر ، فنحَّى رياضاً وأسند الوزارة الى شريف باشا ، ولم يقبل البارودي العود إلى الحكم حتى ألحَّ عليهِ توفيق وأقسم له أن ليس في نفسه منهُ شيء . واستقال

شريف فاضطر البارودي أن يؤلف الوزارة ، بعد أن أصبح زمام الأمر في مصر إلى الضباط الذين يعتبرون الجراكسة أجانب كغيرهم من الأجانب

وكان البارودي يرجو أن يتلافى هذه الحركة ، وأن يصل بحسن رأيه إلى إقامة العدل والإصلاح في مصر على أساس من مبادىء الثورة السلمية التي انتشرت دعايتها في البلاد ، لكن الأمور سارت على غير هواه ، واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق . وقد نازعته نفسه يومئذٍ إلى مكان المجد وتحركت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر. وقصيدته التي مطلعها :

قلّدت جيدَ المعاني حليةَ الغزلِ وقلت في الجدّ ما أغنى عن الهزل

لا تبرئه من هذا التفكير ، وان ذكر في الديوان أنها قيلت في عهد إسماعيل . لكنهُ رأى انكلترا وفرنسا تتدخلان وتبعثان بمذكرتهما المشتركة إلى الحكومة المصرية ، فأحسّ الخطر، ورأى أن لا طاقة لمصر بمواجهة هذا الموقف . ولقد حاول أن يتخلص منهُ بالاعتزال في مزارعه ، وذلك بعد ان نصح للعرابيين وصارحهم برأيه ، لكن اندفاعه في حركة الضباط من بداءتها حال بينهُ وبين التخلص منهم ، فلم يكن له بدٌّ من أن يسير معهم ، وان يربط حظه بحظهم

وهذا الموقف الذي وقفه البارودي هو الذي جعله لا يبرز في الصف الأول من صفوف الثورة العرابية ولا يتولى زعامتها. ولو انهُ كان مؤمناً بها إيمان عرابي وأصحابه لكان الطبيعي أن يتقدمهم وأن يدعو بدعايتهم. فهو قد اشترك في حروب أقريطش والروسيا وأبلى فيهما بلاء يجعله اقدر ضباط الثورة جميعاً على قيادتها ، وهو قد كان لا ريب اكثرهم ذكاء وأعلاهم ثقافة وأعرفهم بشؤون الحياة الدولية . أما وقد سايرهم إذعاناً لحكم الأحوال فقد رجع إلى الصف الثاني من صفوف الثورة . فلما أخفقت وحوكم زعماؤها حكم عليهِ معهم ، لانهُ شجعهم اول أمرهم، ولأنهُ لم يتنصل عنهم حين لجوا في عصيانهم

ونُفي مع زملائه زعماء الثورة إلى سيلان فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام. ولقد أقاموا جميعاً في كولومبو سبعة أعوام طاف البارودي خلالها بيئتهم إذ دبّت الشحناء بينهم وانقلب كلٌّ يلقي على زملائه تبعة ما حلَّ بهِ . ولم يكن ذلك ديدن البارودي . ولا كان من خلاله . لذلك انتقل إلى كندي حيث قضى عشرة أعوام أخر تعلَّم خلالها الانكليزية ، وعلّم بعضَ أهل كندي الدين الاسلاميَّ واللغة العربية ، واستطاع أن يتسلّى ، وإن لم يسلُ يوماً وطنه وأهله ومجده

لمن يبث شكواه أو يعلن أساه ؟ لا خير في اصطفاء زملائه وكلهم طائر اللب مروع القلب، ولا خير في التحدث الى أهل البلاد وقلَّ منهم من يفهم حديثه ، وأقل من ذلك من يعرف قصته . لا معين لهُ على الشكوى اذاً الا ربة الشعر . فليشركها معه ، وليترنم وإياها بهمومه ،

وليستعن بها على التصبر ان لم يجد الى الصبر الوسيلة ، وليتخذ منها رسوله الى النائين عنه بمصر ممن يذكرونه ويتحسرون على مصابه حسرة على الشعر أن يقسو به القدر كل هذه القسوة

وكانت ربة الشعر نعم العزاء . مدت اليه قيثارتها ، وألهمته أبلغ آياتها ، يوقعها عليها ليصعد في أنغامها كربة نفسه وهم قلبه . يراجعه الحنين الى الوطن فيشكو النوى ويصور الوطن أروع صورة في أبرع عبارة ، ويثور على الحنين وعلى الوطن فيلعن مصر ويهجو ناسها ، ويحز الأسى في نفسه فيتوجع ، وتراجعه جركسيته ويثور في عروقه دم المماليك فيعود الى الفخر ، وتبلغه الأنباء بوفاة الأهل والأصدقاء ، فيرثي ويبكي ويسلم أمره الى الله ، وينخرط في الأسى وفي الألم ، فيتخذ الزهد ملجأ من أساه ومن ألمه ، ويقصر الزهد فلا يأسو جراح نفسه ، فيثور ويبلغ بالثورة أقصى الحدود ، ويشعر بذهاب الشباب وبالأجل المكتوب في الغربة والنأي عن الاخوان والأهل فيستسلم للقضاء . وربة الشعر في هذه الحالات جميعاً مسلمة اليه نفسها مسلسة له قيادها مادة اليه قيثارتها تلهمه وتقول معه وتعينه في هذا المنفى على أن يعيد الى الشعر العربي جدة لا تبلى ، ويجعل من آلامه وحسراته وثوراته وحنينه وضعفه وبكائه أداة هذه الجدة ، ومصدر هذا البعث ، بعد أن ظلت اللغة السليمة والأدب الرفيع ملتفين في أكفانهما قرابة الف عام

ونحن نحاول اليوم أن نتلمس الجديد في شعر البارودي ، ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة في عهد الأولين ممن بعث لغتهم وشعرهم ، وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه ، وما يتصل بالحاضر مما جعله الشعرُ الاوربي أغراضه ، فيأخذ بألبابنا ما في ديوانه من الشعر السياسي ، ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية والحياة المصرية . أما ما خلا ذلك فلم يعدُ البارودي فيه مقاصد المتقدمين من شعراء العرب ، ولم يعدُ أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم ، لم يفكّر في الملاحم الكبرى كما فكّر هوميروس في الإلياذة ، ولا فكر في المسرحيات الشعرية كما فكّر شكسبير في مسرحياته ، وكما فكّر دانتي في الكوميديا الإلهية . وهو في الحق لم يتّجه بالشعر العربي غير وجهة الأقدمين الذين عارضهم وراض القول على مثالهم ، وإن كان من الحق كذلك أنهُ لم يَفْنَ فيهم ولم يقصر همهُ على النقل عنهم ، بل بدت شخصيته بارزة في شعرهِ وبدا شعره مرآة بيئته وزمانهِ . فلو أنهُ عاصر الأقدمين وعاش بينهم لكان له ما للأخطل وللفرزدق ولأبي فراس ولبشّار من ذاتية يمتاز بها عن غيره ، ويقف بها في الصف الأول من هؤلاءِ الأقران المبرزين

لكننا يجب أن نعدّل هذا الرأي اذا أردنا أن نبلغ النَصَفَة حين البحث عن الجديد في شعر البارودي ، وأن نقول إن هذا الشعر كان في عصره جديداً كله . كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة . فقد هوى الشعر العربي قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسياً منسيّاً ، وجعلنا نكاد نسقط من حسابنا هذا الألف الذي انقضى من السنين بين الشعر العربي بدء انحلاله ؛ وبين هذا الشاعر

الذي بعث الشعر العربي إلى الحياة من جديد . ونحن جميعاً مقلدون في اكثر ما نعرض له من شؤون الحياة : مقلدون في الفن والأدب والشعر والعلم لأنها من شؤون الحياة. وإنما نجدد بقدر في حدود ما يصلح فساد الماضي ويضيف إلى الصالح منهُ ما يزيد حياته ريقا وما يزيده على الحياة قوة . فاذا كان البارودي قد بعث الشعر العربي واللغة العربية من مرقدهما وردّ اليهما حياة ذوت وذبلت قروناً متعاقبة ، فعمله هذا خلقٌ لا ريب ، وهو في عصره جديد كله ، وهو جدير لهذا أن يتسنم ذروة المجد وان يجلس بين الخالدين

واذا كان لم يعرف وحدة الغرض في القصيدة الواحدة كما نفهمها اليوم ، وكما يفهمها أهل الغرب ، وكان يتنقل من الغزل الى المدح الى الفخر الى الحماسة الى الحكمة ، كما كان يفعل البحتري وأبو تمام والمتنبي وغيرهم من كبار الشعراء ، فذلك لأن رسالته لم تكن تجديد الشعر العربي في حياته المتدفقة الفياضة ، بل كانت بعث الشعر العربي من مرقده وتمزيق الأكفان التي احتوته مئات السنين . وما وفق له البارودي من هذا البعث لا يزال حتى اليوم أعظم تجديد تمَّ في حياة الشعر العربي منذ نهض البارودي به ، لا يقرن اليه الا ما وفق له شوقي حين وضع مسرحياته الشعرية الخالدة : مجنون ليلى ، ومصرع كليوبترا ، وما اليهما

ولعلك لا تعثر في شعر البارودي على فلسفة ظاهرة ، ولقد تعثر فيه على زلات غير قليلة في اللغة كما يريدها المتزمتون ، وقد يقع لهُ أحياناً ان يسيء الانتقال من غرض الى غرض أو أن تضم القصيدة الواحدة من قصائده أبياتاً بالغة غاية القوة والجزالة ، وأخرى متخاذلة منحلة ، أو ضعيفة النسج نابية في استعمال بعض المفردات ، وقد تراه متناقضاً في القصيدة الواحدة : زاهداً في أولها مسلماً أمره للمقادير ، ثائراً في آخرها مالئاً ماضغيه فخراً بنسبه وفعاله وشجاعته وشعره ، كما تراه يغرب في اللفظ حين يعارض الأقدمين ، ثم لا يمنعه ذلك من ان يسيغ بعض الألفاظ العامية التي تأباها المعجمات وينبو بها رجالها ، لكنك تجد له العذر عن ذلك كله حين ترجعه الى أسبابه ، وتجد لهُ عذراً أبلغ حين تذكر أن العبقرية التي تحلق بصاحبها في سموات تتعلق بها القلوب والعقول في اعجاب وتقدير ، هي التي تستبيح ما يؤاخذ الناس المجيدين به ، وما يحذر هؤلاء المجيدون الوقوع فيه لأنهم لا يجدون عوضاً عنهُ في سمو صاحب الموهبة بعبقريته الى حيث لا يلحقهُ أحد

وللبارودي مع ذلك عذره عن كثير من هذه المآخذ التي يتغاضى عنها كثيرون ويرون بعضها ضعيفاً وبعضها يشوبه الخطأ . فعذره عن اخطائه اللغوية هو عذر الفحول الأولين من كبار الشعراء الذين يستشهد بهم في كل خروج على قواعد اللغة . فهم لم يكونوا يتقيدون بها وقد كانت حديثة الوضع في عهدهم ، وكانت أقوالهم حجة لذاتها . وهذا عذر ناهض للبارودي ، وهو كما رأيت لم يتعلّم النحو والصرف والعروض والقوافي ، وهو قد قال الشعر طوعاً لموهبته بعد أن

قرأ الشعراء الأولين وحفظ عنهم كل ما اطمأنَّ اليهِ من أقوالهم ، وأنت لذلك تستطيع أن تقول إنهُ عاصرهم وعاش معهم . فلم يكن أبناء زمانهِ من المصريين يعرفون اللغة العربية ، وإنما كانوا يتحدثون بلغة أخرى هي العامية . فحياة البارودي المتصلة باللغة العربية كانت بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصرين الأموي والعباسيّ . من ثمَّ صارت لغتهم لغته ، وصارت سليقة له كما كانت سليقة لهم، فكان يقولها ويتصرف فيها كما كانوا يقولونها ويتصرفون فيها . فإذا هو سما بسليقته في اللغة كما سموا ، ولم يتقيد بما يتقيد بهِ غيره من قواعدها فلا تثريب عليهِ ، ولا شيء في ذلك يؤاخذ بهِ ، وإن وجب التنبيه اليهِ

أما ما يقال عن سرقات البارودي فلا ينهض مأخذاً عليهِ . وهو قد أسلف العذر عن محاكاة الأقدمين ، إذ نصَّ في تقديم بعض قصائده على أنها معارضة لقصيدة قديمة معروفة، أو أنها رياضة للقول على طريقة العرب . هذا إلى أن رسالة البارودي في الشعر كانت رسالة بعث كما قدمنا . وقد اتهم الفحول من الشعراء الأقدمين قبله بالسرقة ، فاعتذر رواتهم وأنصارهم عنهم بأن ما نسب اليهم من ذلك إنما هو توارد الخواطر « كما يقع الحافر على الحافر » على حد تعبيرهم والبارودي أبلغ عذراً فقد كان محفوظهُ من الشعر القديم ضخماً، وكان شعره هو ضخماً كذلك، وأنت تصادف في ديوانه أبياتاً له مذكورة في أكثر من قصيدة ، فلا عجب إذا ظنّ بيتاً محفوظاً لغيره بعض ما قاله فأدمجه في قصيدة من القصائد على أنهُ له

والحق أن البارودي ما كان بحاجة الى السرقة وعبقريتهُ الشاعرية ما عرفت ، وديوانهُ تربي فيهِ القصائد على المئات ، والابيات على الألوف ، وما ينسب اليهِ أنهُ نقله عن الاقدمين قليل ، كقوله :

عليَّ طلاب العزّ من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادرُ

وهو صورة في لفظهِ ومعناه من قول أبي فراس :

عليَّ طِلاَب العزّ من مستقرّه ولا ذنبَ لي إن حاربتني المطالب

هذا التطابق البين على قلتهِ في شعر البارودي ، قد أوخذ غيره من الفحول بمثله . وإنما يفسره أن روح البارودي متصلة بالأقدمين كل الاتصال . وما قاله في الحكمة وكثير مما قاله في الفخر ليس إلاَّ ترديداً لما قالوا ، لأنهُ لم تكن له فلسفة خاصة كما قدمنا ، ولأنهُ كان يبعث معاني الأقدمين كما كان يبعث لغتهم

وأنا لا أسيغ تسمية هذا البعث سرقة . والشعراء والكتاب في كل امة وعصر يتداولون المعاني بينهم. ثم يمتاز المبرِّز منهم بسطوع معانيه وقوتها ، وبوضوح شخصيته في اغراضهِ وأسلوبهِ. وللبارودي من هذا التبرز حظٌّ قلَّ نظيره . وأنت لا تجد هذا التبرز في قصائد المدح القليلة التي قالها ، لأنهُ قال هذه القصائد مجاملة ،أو نزولاً على حكم الأحوال ، فلم تكن متصلة بنفسهِ

ولا صادرة عن وجدانه الأبي المتعالي بفضله ومجده على كل مَنْ سواه . أما في الاباء ، وفي الفخر ، وفي الحنين ، وفي الرثاء ، وفي وصف الوقائع ووصف الطبيعة ، فقد سما البارودي إلى حيث لا يلحقه إلاَّ الأقلون من اكبر الشعراء فحولةً واكثرهم تبرزاً

ويرجع تبرزه في هذه الأغراض إلى انهُ كان يعبّر بها تعبيراً صادقاً عما تنطوي عليهِ جوانحه ويتردَّد في أعماق قلبهِ ، أو عما شارك بنفسهِ فيهِ وكان له منهُ نصيب يرضاه . وهذا سرّ قوتهِ في وصف الحرب ووقائعها ، وسرّ دقتهِ في التصوير السياسي لحال بلاده ، وهو السر في عظمة ما قال في المنفى من مختلف ضروب الشعر في مختلف الأغراض ، وفي تفرده بالقول في أغراض لم يعرفها معاصروه ، لأنهُ لم يكن من طرازهم نسباً ولا ثقافة ولا طموحاً في الحياة . فهو قد رأى من بهجة الدنيا ومن صروف الحدثان ومن عبرة المنفى ما لم يروا ، وهو قد قال الشعر مخلصاً للشعر ، محبًّا إياه ، لا يبتغي بهِ إلاَّ رضا نفسه ورضا الفن ، مؤمناً بأنهُ وسيلته إلى الخلود في ضمير الأجيال

وهذا الايمان بالشعر هو الذي جعله يتوفّر عليهِ في المنفى ويجعله بغية الحياة فيهِ. فلقد أيس من العود إلى الوطن ، إذ أبت عليهِ نفسه أن يضعف فيسترحم كما فعل زملاؤه . بل إن له في هذه الفترة لأبياتاً ثائرة لا تقلّ عنفاً عن أشد الثورات المسلّحة. وليس طبيعيًّا أن يكون هذا الشعر الثائر وسيلة للعفو عنهُ من ذلك قوله :

فحتّام نسري في دياجير محنة	يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت	عليهِ فلا يأسف إذا ضاع مجده
عفاء على الدنيا إذ المرء لم يعش	بها بطلاً يحمي الحقيقة شدُّه
وإني امرؤ لا أستكين لصولة	وإن شدّ ساقي دون مسعاي قده

بل لقد كانت هذه الأبيات وأمثالها أدنى الى اثارة حفيظة الانكليز وحفيظة صاحب العرش في مصر عليه. وما كان زهده وإسلامهُ أمره الى الله ليمحوا أثرها أو لينهضا حجة على أنهُ ضعف فتاب عما قدم وندم على ما انطوت عليهِ نفسه من حب المجد وطلابهِ

وطال بهِ النفي سبعة عشر عاماً كان قول الشعر كما كان إختيار أجود ما قاله الاقدمون سلوته فيها . فلما تقدمت به السن وطال بهِ النوى وتخطف الموت أثناء ذلك ابنته وزوجهُ وأصحابهُ بدأ بصره يضعف ، وصحتهُ تضمحل ، ونذر الفناء تدب اليهِ. هنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون من سيلان الى بلادهم وعاد البارودي مهيض الجناح محطماً ليس فيهِ « إلاَّ أشلاء همة في ثياب » لـكنهُ عاد يحمل معهُ كتاب الخلود الذي لا يبلى ذلك هو ديوان شعره الذي نقدمهُ للقراء

للاقدار سخرية يا لها من سخرية ! فهذا الرجل الذي بعث العربية في أفصح لفظ وأمتن

ديباجة وخلع عليها من الجلال والجمال ما ردَّ اليها كل قوتها وكل بلاغتها ، قد عفا عنهُ خديو مصر بأمر كريم هذا نصه

بناء على الانهاء المرفوع لنا من محمود سامي بالتماس الاحسان عليهِ بالتمتع بالحقوق الوطنية قد إقتضت مكارمنا منح الموحى اليهِ بالتمتع بالحقوق الوطنية . وعلى ذلك فيجوز له من الآن إمتلاك أي ملك من أي نوع كان في الاقطار المصرية بطريق الارث أو الهبة أو البيع أو بأي طريقة كانت الذي كان محروماً منهُ بمقتضى الأمر العالي الصادر في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ (٣٠ صفر سنة ١٣٠٠) وأصدرنا هذا لعطوفتكم لإِجراء مقتضاه » عباس حلمي

وتاريخ هذا الأمر ١٨ محرم سنة ١٣١٨ (١٧ مايو سنة ١٩٠٠)

فلما صدر هذا الأمر وردَّتهُ السفينة إلى وطنهِ ، كان أول ما قاله إثر عودتهِ قصيدتهُ التي مطلعها :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر فإني أرى فيها عيوناً هي السحر

ونزل البارودي مصر ، فكانت أوبته اليها عيداً نشر البشر في عالم الأدب كله . أصبح منزله ندوة الأدباء والشعراء وذوي المكانة ، يأنسون اليهِ ويأنس اليهم ، ويستمتعون بحديثهِ ، ويرى في مجالستهم ما يأسو الجراح التي أدمت قلبهُ سنوات النفي الطوال . فإِذا خلا إلى نفسهِ رتّب مختاراته وعُني بتنقيح ديوانه يريد إعدادها للطبع . ولقد بذل في ذلك مجهوداً يدلّ على حبه شعره وإيمانه بهِ . وأصول الديوان تشهد بهذا المجهود . فأنت ترى الأبيات التي حذفها من بعض القصائد ، والأبيات الأخرى التي غيرها كلها أو بعضها ، شهيدة على صدق إيمانه بأن العبقرية مجهود متصل في سبيل الكمال

وقضى في مصر أربع سنوات ذهب أثناءها ما بقي من بصره ، فإِذا ربع الوطن ووفاء بنيه يعزيانه عن نور البصر وعن كل ما في الحياة . فلما كانت الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٤ (السادس من شوال سنة ١٣٢٢) لبى داعي ربهِ تاركاً لمصر وللعالم العربي هذا التراث الذي لا يبلى ، ولا يعدو عليهِ الموت ولا يجني عليهِ النسيان

لبى نداء ربهِ ولم يكن قد طبع المختارات ولا الديوان ، فتولت أرملتهُ التي تزوجها بمصر نديب(١) طبع المختارات وطبع الجزأين الأول والثاني من الديوان (الى آخر قافية اللام)

وحسب البارودي ديوانه آية لمجده وتراثاً للاجيال بعده . فهذا الديوان تمثال عبقرية خالدة وهو باق لذلك بقاء الأبد أيّا كان الشاعر الذي ينسب اليهِ . فما بالك وهو صورة صادقة لحياة صاحبه ! أو تستطيع الفنون مجتمعة أن تقيم تمثالاً يخلد من هذا الشاعر الملهم ما يخلده شعره النابض بالحياة وأنغامها . والذي بعث العربية خلقاً جديداً ؟ أدع الجواب لأرباب الفن ولقراء الديوان

(١) ابنة يعقوب سامي أحد زعماء الثورة

خلد الماء

او « أنف الطير »

أعجب الحيوان خلقاً : فهو يلقي بيضاً كالطيور والزواحف ، ويرضع أولاده لأنهُ من الثدييات (ذوات الثدي) ويغشى الماء واليابسة كالبرمائيات (الحيوانات البرية المائية) ، وأنفه كمنقار البط ، وأقدامه مغشاة كالسوابح من الطير ، ولهُ مسلك واحد منهُ يبول ومنه يتبرز ومنهُ يتناسل ومنه يبيض

***

الحيوانات الثديية أرقى ذوات الفقار . فهي أرقى من الأسماك ومن البرمائيات (الحيوانات البرية المائية) ، وأرقى من الزواحف . والرئيسات التي منها الانسان والقردة البشرية والسعادين ارقى ذوات الثدي . أما المسلكيات التي يمثلها خلد الماء أو أنف الطير الذي اخترنا أن نجعله موضوع كلامنا في هذا المقال ، فهي أدنأ طبقات ذوات الثدي . وانك لواجد في ذوات الثدي من التضارب والاختلاف ما لست تجد لهُ نداً في بقية طبقات الحيوان . فنها اللواحم التي تعيش على اللحوم ومنها درداوات صغرت أسنانها حتى لحقت بالدردر من اللثة . ومنها حشريات تأكل الهوام ومنها قواضم تأكل بأطراف اسنانها ، ومنها أناعيم ، ذوات الأظلاف جزء منها ، وذوات الحافر جزء ثان ، وذوات الخف جزء ثالث . ومنها حيوانات بحرية كالحيتان والحيتان : تلد وترضع صغارها في قرارة الماء ، وعلى قمة هذه المجموعة التي منها الخفافيش والجرابيات (ذوات الكيس) يقف أرقى الخلق جميعاً ، أي الانسان العاقل . يقف هنالك بجثمانه ، فاذا به الضئيل البئيل الى جانب البال والفيل ، فاذا تمطى هنالك بعقله فهو العملاق الجبار الثابت الأصل ، المرتقي بفرعه في السماء

فخلد الماء أو أنف الطير ان دنت طبقته في عالم الثدييات ، والانسان وان تربع على قمة الهرم الذي يكون لبناته طبقات ذوات الثدي ، كلاهما ينطوي في عرف المواليديين تحت عنوان واحد هو «الثدييات» . فالثدييات من الوجهة العلمية أرقى أمم الحيوان جميعاً . فاذا رَكَّبْتَ من هذه

الأم شكلاً هرميًّا كان خلد الماء ، الذي يمثل شعب المسلكيات أو ذوات المسلك ، هو القاعدة، وكان الانسان ، الذي يمثل شعب الرئيسات هو القمة . واذن يكون لنا نحن الآدميين صلة نسب بأنف الطير. ولكنهُ نسب لم يستبن العلم من علاقاته الا صفة ان هذا الحيوان يرضع صغاره ،كما ترضع الأمهات الآدميات اولادها . أما بقية العلاقات فقد درست متطورة في منظومة من الصور تدرجت في طبقات الثدييات تدرجاً متصاعداً نحو الكمال الانساني . أما الفواصل التشريحية والوظائفية والعقلية التي تصل بين أنف الطير والانسان فيكفي لكي نعرف مقدارها الحقيقي ان تعرف ان بين هذا الحيوان وبينك هوَّة زمانية لا تقدَّر بألوف السنين ولا بمئات ألوفها ، ولكن بالملايين ثم الملايين من دورات الارض حول الشمس

ولا يدلك على مقدار ما أثار هذا الحيوان من عجب المواليديين من شيء قدر ما يدلك ما وضع له من الاسماء. فقد سمي مرة في دارج الكلام — Water mole او Aquatic mole أي خَلَد الماء . وسمي مرة أخرى — Duckbill — ومعناه الحرفي « منقار البط » . ولكنني اخترت ان اسميه « أنف الطير » ، فالى هذا قصد المواليديون . وعبارة أنف الطير أسلس في الاستعمال ، وفيها غرابة تجريها مجرىً خاصًّا يسهل معها تعيين دلالتها . وقد سمي في اللسان العلمي Platypus وهو لفظ مولد في اللاطينية وأصله من لفظين يونانيين : الاول معناه «مسطوح» والثاني معناه « قدم» وتأويله «مسطوح القدم». لأن أصابعه مثبتة في أدمة او غشاء او وترة كتلك التي تراها في أقدام السوابح من الطير،وسمي أيضاً Ornithorhynchus وهو كسابقه لفظ مولد في اللاطينية وأصله من لفظين يونانيين : الاول معناه « طير » ، والثاني معناه « خرطوم او فنطيسة » . وتأويله « خرطوم الطير » او « فنطيسة الطير » . ومن هنا خطر لي ان اسميه « أنف الطير » . ولعلي أكون قد وفقت في هذا الاستعمال الى ما يصلح ان يكون اسماً دارجاً لهذا الحيوان . ولا يفوتني ان أثقل على القارىء في هذا الموطن ببعض الشيء بالكلام في مسألة لغوية . فاذا أردنا مثلاً ان نضع اسمين علميين ليقابلا الاسمين العلميين عند الفرنجة وليكونا عمدتنا في تصنيف المسلكيات فماذا نعمل ؟ ينبغي لنا أولاً ان نعرف انهُ من أوائل القواعد التصنيفية ان يكون للاجناس أسماء تجري في كل اسم من اسماء الأنواع ثم يعين النوع بصفة تميزه . فاذا قلنا مثلاً جنس السنانير وأردنا ان نفصّل الأنواع التابعة له قلنا : السنور الأسد ، السنور النمر ، السنور الببر ، السنور الثعالي ، السنور الأهلي وهكذا . وكل هذا احكام لتمييز الطبقات. فاذا أردنا مثلاً ان نضع اسماً علميًّا في العربية يقابل لفظ : Platypus انبغى لنا ان نقول فيه « الطَّوْدَم » نحتاً من مسطوح + قدم : م س ط[1] و[2] ح + ق د[3] م[4] = طَوْدم ، واذا أردنا ان نضع اسماً علميًّا في العربية يقابل لفظ Ornithorhynchus قلنا

« النَّفـطير » نحتاً من أنف + طير : أن¹ف² + ط³ي⁴ر⁵ = نِفـطِير ، ويكون الأول وزان « فَـوْعَـل » والثاني وزان « فِـعْـلِـيل »

وإني لأعجل بالخروج من هذا البحث اللغوي وإن كان لي بعض العذر في الالماع اليه لأتخذه دليلاً على مقدار عناية المواليديين ببحث هذا الحيوان . ولكن هذا الحيوان بعاداته الحيوية قد استعصى درسه على المواليديين الدرس الكامل ، فهم إن عرفوا تشريحه ووظائف اعضائه وبخاصة أعضاءه التناسلية ، فانهم لم يعرفوا من أحوال حياته الاّ طرفاً يسيراً ، غير ان ذلك لا يحول دون ان نضع أمام القارىء في هذه الصفحات أخص أوصافه الظاهرة ، ونلمع الى ما نقف عليه من صفاته الحيوية

فالذكر البالغ من هذا الحيوان لا يتجاوز عشرين بوصة مقيساً من خطم الأنف الى نهاية الذنب . أما الخطم نفسه وإن شئت فقل الفنطيسة ، وتجاوزاً قل المنقار ، فهو مفلطح منبسط ، والفكان : الأعلى واسمه الحكَمَة ، والأسفل واسمه الضبّة ، فيغشيهما ما يشبه منقار البط . فاذا اطلعت عليه في جثة منهُ محنطة في متحف ، كان صلباً أسود اللون ، ولكن الغالب ان يكون ليناً مشبعاً بالرطوبات حال الحياة . ويحيط بهذا المنقار جليدة عارية حساسة ، تكون أشبه بلفيفة تستوي عند قاعدة الفنطيسة . أما المنخران ، أي فتحتا الأنف ، فتستويان بمقربة من نهاية ذلك المنقار الى الأمام

ولهذا الحيوان شَعَر كالثدييات كأنهُ فِراء الخلد الأرضي ، وهو حيوان من القواضم . ويتألف من شعرات طوال تكسو فراءً صوفيًّا يكون ملاصقاً للجلد . وليس له أذنان ظاهرتان ، وعيناهُ صغيرتان جهد الصغر ، حتى انهما قد لا تريان بسهولة حال الحياة . اما اقدامه ، وبخاصة القدمين الاماميتين فوتَّرة أي يجمع بين أصابعها وترة تنفرش عليها الاصابع ، كأنهُ طير من طيور الماء . وبهذا الجهاز يستطيع الحيوان السبح بسهولة

ويقطن هذا الحيوان قارة الجنوب (أوستراليا) ويقصر ذيوعه فيها على أرجائها الجنوبية والشرقية ، كما يقطن جزيرة طسمانيا ، حيث يكثر وجوده في الاماكن التي تلائم حاجاته الحيوية . ومن أجل ان هذا الحيوان مائي العادات ، ولا يغشى غير المياه العذبة ، تجدهُ شديد العزلة متباعداً عن الظهور نفوراً ، وقلما يرى اللهمَّ الاّ عند قدوم الغسق حيث يطفو على سطح الماء فيخيل اليك أن بالماء قنينات سوداً تطفو رقابها على صفحته . ولكن اذا حدث ما يزعج ، فإن هذه الرقاب تغوص في الماء توًّا كما لو ضربتها عصاً سحرية

وعلى الرغم من أن هذا الحيوان يعيش عيشة صوارية (أي يكون أرسالاً وجماعات) اذا ما كان في الماء ، فانهُ في البر يعيش زوجاً بزوج في انفاق يحفرها على مجاري الأنهار والغدران

الصغيرة وأوفق ما يلائمه من الأماكن حيث تتسع مجاري الماء ولا تعمق ، أي تكون ضحضاحاً قليل الغور . فاذا حفر الحيوان نفقاً جعل له مدخلين : أحدهما تحت مستوى الماء ، والثاني فوق مستواه مخفياً هذا في دغل من الأعشاب لئلا يُرى . ويجري النفق بانحراف إلى أعلى مبتدئاً من الماء مسافة طويلة قد تبلغ في بعض الأحيان خمسين قدماً في ثرى الشاطىء ، وينتهي بغريفة دثّرت بالحشائش الجافة وما شابهها من المواد وهنالك يفقس البيض عن الصغار وتربّى . فاذا أراد أنف الطير ان يبيض لجأ الى هذه الغريفة ووضع بيضتين اثنتين ولا يزيد . وخلية البيضة مُجَدَّرة بقَيض (قشرة البيض) قوي مرن أبيض اللون ، ولا تزيد على ثلاثة ارباع البوصة طولاً ، وعلى ثلثي البوصة عرضاً ، ويشبه بيض هذا الحيوان بيض الطير في كبر مُحّه (صفار البيض) ، ولا يشترك في تكوين الجنين غير جزء صغير من هذا المحّ ، أما الباقي فيختزن غذاء له في داخل القيض منهُ يستمدُّ حتى تنقف عنهُ البيضة . فاذا خرج الجنين ألفيتهُ مكفوف البصر أملط الجسم ، وله منقار جد قصير كأنما هو فم مستدير تحوطهُ شحمات لحمية تساعده على امتصاص اللبن من الغدد اللبنية في الأم

ويغتذي أنف الطير بأنواع مختلفة من صغار الحيوانات المائية كالحشرات والقشريات والديدان ويحصل على قوته بان يضرب منقاره في الطين اللازب أو الرمل باحثاً عن رزقه . فاذا حصل على شيء خزنهُ في جيبين شدقيين (كبعض السعادين) ثم أكله بعد ذلك بحسب رغبته

ومن عجائب هذا الحيوان ان كفيه الاماميتين من أخص اجهزته الجسمانية التي تساعده على السبح والغوص في الماء . ومن الظاهر أن هذا الحيوان قلما يغادر الماء الاَّ ليلجأ الى نفقه ، فاذا آواه النفق التف على نفسه فلاح كأنهُ كرة كاملة . اما اذا حاول المشيَ على الأرض كان متثاقلاً ضعيف الحركة ، على الضد مما تراهُ اذا كان في الماء . ويصيده سكان اوستراليا الاصليون بان يحفروا حفراً على مسافات متباعدة فوق النفق حتى يصلوا الى الغُرَيفة حيث يجدونه

ولعلَّ الأقدار قد شاءت أن يكون لمعرفة علماء المواليد بهذا الحيوان أقصوصة غريبة، لتتفق كل الغرائب فيه، فان هذا الحيوان كان من أول الحيوانات التي عرفها أهل الذكر من المواليديين في أوربا . ولكن على الرغم من ذلك ظلت حياتهُ لغزاً وعاداتهُ طلسماً غامضاً عليهم . فان مرابيه كانت قصية بعيدة عن الأقطار المعمورة ، وما كان يراه غير الوطنيين الذين يرون فيه شيئاً عادياً بعيداً عن أن يثير فيهم فكرة أو يلهمهم حقيقة . أما الذين أسعدهم الحظ بأن يروه من أهل أوربا ، فكانوا يؤخذون بما يلاحظون في خلقه من تنافر الطبائع وإختلاف العناصر ، ويصفونهُ بألفاظ لا تدل على شيء إلاَّ على ما أحدث مرآه في نفوسهم من شعور بالتناقض ، فمنهم من سماه « الأنفي الطير » ومنهم من دعاه « لغز الحياة » . ولم يقف أمر العجب من هذا الحيوان عند

الرجل العادي ، بل إن خاصة أهل العلم لمّا سمعوا أن هذا الكائن الذي له جسم « القندس » إنما هو حيوان ثدني يرضع صغاره ، وأن له منقاراً كمنقار الطير وأنهُ يلقي بيضاً كالبرمائيات البيوض كانت هذه الحقائق وحدها كافية لأن تبعث فيهم حيرة شديدة حتى لقد أنكر بعضهم رواية المنقار، وشكَّ بعضهم في أقدامهِ الموترة وأصابعهِ المخلبة. أما أنهُ يبيض فرواية أجمع المواليديون عهداً طويلاً على أنها من نسج الخيال

ومن الأشياء التي يصح أن تتخذ دليلاً على أن الانسان كثيراً ما ينخدع عن الحقائق لغرابتها وان كان عالماً مثقفاً، أن باحثاً إستطاع أن يحصل على أنثى من أنف الطير ومعها صغيران ترضعهما . فاحتفظ بها وبصغيريها زمناً ووصف مارأى من تصرفها في الأسر وعرف شيئاً من عاداتها النهارية والليلية ، ولكنهُ مع ذلك لم يصدق أن هذا الحيوان بيوض كالطيور . وتلاه باحث آخر عرف قارة الجنوب وجاب أقطارها ودرس طبائع الكثير من حيوانها ونباتها،وكان بطبعهِ شديد الشك في كل شيء حديد البصيرة ثاقب النظر ، وتكلم عن أنف الطير فكان مما قال فيهِ : ان أهل القارة الجنوبية الأصليين قد دلوا على جهلهم التام بطبيعة هذا الحيوان.ذلك بأنهم يعتقدون أنهُ بيوض ، وأن صغاره تخرج من بيض

أما التاريخ الحقيقي للمعرفة بحقيقة هذا الحيوان فقد انتهى بأقصوصة طريفة من الأقاصيص العلمية وكان ذلك في أول سنة عقد فيها المجمع البريطاني دورتهُ السنوية في كندا ، كما كانت هذه الدورة أول دورة يعقدها المجمع في خارج الجزر البريطانية . واذ كان رجال المجمع في مدينة مونتريال وصلت برقية من انجلترا لرئيس قسم التاريخ الطبيعي ، فيها ان ابنه مريض ، وسرعان ما اجاب ببرقية يطلب فيها تفصيلاً عن مرض ولده ، ثم سافر مع أعضاء المجمع الى جهة من كندا فلما رجع وجد برقية في إنتظاره . ولقد أمّل أن تكون البرقية تحمل اليهِ خبر أن ولده أحسن حالاً فناولها لزوجهِ ليكون سرورها بالخبر أعظم . ولكنها ما فتئت أن تغيرت ملامحها وبدى على وجهها إمارات العجب ، فانها بدلاً من تقرأ شيئاً فيهِ ما يطمئنها على ولدها قرأت النص الآتي : « إن أنف الطير حيوان بيوض »

وجلية الأمر أن الجمعية الملكية البريطانية لعلم الحيوان كانت قد أوفدت رسولاً جاب نصف كرة الأرض وجاب خمسة بحار العالم ليصل الى قارة الجنوب لا لشيء الاَّ ليدرس «أنف الطير» فلما وصل تلك القارة عكف على مهمته وكان له الشرف الأول في أن يعلن على العالم ان هذا الحيوان الذي هو في الحقيقة بقية باقية من آثار حيوانات وبادت منذ دهور موغلة في القدم، انما يبيض رغماً عن صفاته الثديية الثابتة. ولقد رغب خزنة الجمعية الملكية أن يعلنوا هذا الخبر الهام لاهل العلم، فأرسلوا تلك البرقية التي تلقتها أم جازعة تنتظر اخبار ولدها المريض *

في أصول الاصلاح الاجتماعي

خلائق تنقصنا

لاسماعيل مظهر

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

[قرآن كريم]

قد يكون من الأشياء التي أهملها جميع الذين تكلموا في الاصلاح الاجتماعي، نقد الأسس الاخلاقية التي يقوم عليها نظامنا الاجتماعي. ذلك بأن الذين تناولوا موضوع الاصلاح الاجتماعي في مصر لم ينظروا في وجوه ذلك الاصلاح على اعتبار ان مختلف تلك الوجوه انما هي مظاهر لجوهر يكمن من ورائها ومجلى لأصل واحد اليه تعود . فكما أن الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط انما هو صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك نقائصنا الاجتماعية التي نحاول اصلاحها ، انما هي مظاهر لعنصر او أصل واحد ينحصر في ضعف الأسس الاخلاقية التي تختفي وراء نظمنا الاجتماعية . وكما أنك لا تستطيع بحال ان تغير شيئاً من تفاصيل ذلك الشبح الذي ينعكس عن العدسة على الحائط إلا اذا استطعت ان تغير تفاصيل ذلك الشبح في داخل العدسة، كذلك أرى ان الاصلاح الاجتماعي في مصر لن يكون له ثمر ثابت الفائدة الا اذا تناول أولاً وقبل كل شيء الأسس الاخلاقية التي هي أشبه بالشبح الذي تتراءى فيه نظمنا الاجتماعية ، اذا ما انعكس على صفحة الحياة

***

خذ مثلاً نظامنا السياسي . فقد نشكو من مظاهر فيه ونحاول ان نعلل أسباب هذه المظاهر بضعف النظام الحزبي ، وننسى العامل الاخلاقي . وقد نصرخ الصرخات العاليات من حال التعليم في المدارس او الجامعة ونحاول ان نصلح التعليم في أدواره باصلاح في البرامج او تعديل في المواد ، وننسى العامل الاخلاقي . ونشكو من ان دولاب الحكومة لا يدور الا بعدد من الموظفين زائد عن الحاجة ونحاول ان نعالج هذا النقص إما بالاقلال من الموظفين وإما بخفض

مرتباتهم ، ثم ننسى العامل الاخلاقي . وهكذا اذا نظرت في كل ما يبعثنا على الشكوى مما نقول انهُ في حاجة الى اصلاح اجتماعي ، فانك تجد أن أنظارنا قد اتجهت الى الأسباب الظاهرة دون الأسباب الخفية ، وتلفي أننا قد مضينا نبحث في الاصلاح الاجتماعي عن الأعراض محاولين اصلاحها فنخفق ، لأننا لم نحاول اصلاح الجوهر الذي يحمل في ما هيته تلك الأعراض. فاذا لم نحاول اصلاح الجوهر كان مثلنا كمثل من يحاول ان يعدل الظل المرسوم عن عود أعوج. أما اذا استقام العود فلا بد إذن من ان يستقيم الظل

***

أما اذا اعتقدنا ان الاصلاح الاجتماعي لا يزيد عن انهُ صرخة يبعثها في نفوسنا وعلى ألسنتنا شعورنا بالنقص واننا نبغي الكمال ، كان ذلك وحده دليلاً على ان نفوسنا بدأت تتحرك وأن أرواحنا بدأت تستيقظ . غير ان الصرخة العالية التي نصرخها منادين بضرورة الاصلاح الاجتماعي سوف تذهب مع الريح اذا نحن لم نواجه نقائصنا بخلق جديد يكون فيهِ من القوة والصرامة والحزم ما يكفل لنا معالجة مشاكلنا الاجتماعية بما يلزم لعلاجها من وسائل حقيقية . أما اذا ظللنا نعدد تلك النقائص نقيصة نقيصة ، ونصف مظاهرها مظهراً مظهراً ، ونعين لكل منها العلاج الذي يمليه علينا العلم او يوحيه الينا الخيال ، من غير أن نفكر مرة فيما ينقصنا من الأخلاق التي تكفل لنا بالمرانة عليها ورياضة النفس بها ، بتحقيق ذلك الاصلاح المنشود ، فاننا ولا شك سوف نخفق فيما نحاول من اصلاح اجتماعي ، زاد شعورنا بالحاجة اليهِ قيام الأحوال العالمية التي تكتنفنا في هذا الوقت الدقيق

***

أما اذا أردنا ان نعدّد الخلائق التي تنقصنا والتي يجب علينا ان نتسلح بها لكي نصلح اصلاحاً اجتماعيًّا ثابت الأركان قريب الثمر ، فاننا ولا شك ينبغي ان نقلع عن الطريقة التي اتبعت حتى اليوم في نقد نقائصنا. حتى لقد نتهيب ان نمس بعض النواحي بأي نقد او اشارة ، وقد نخشى ان نلم بطرف من نقائص طائفة من طوائف الأمة أو طبقة من طبقاتها حذر أن يثير المامنا بشيء من نقائصها عاصفةً من الكبر الفارغ يكون من نتائجها تكدير حالة الاستقرار التي تنشدها ادارة الأمن العام مثلاً . وانك إن وجدت الكاتب ذا الجرأة الذي يتناول مثل تلك الاشياء بالنقد فانك قد لا تجد الصحيفة التي تنشر ما يكتب . هذا مثل يدلنا على أن العجز عن الاصلاح الاجتماعي ليس براجع الى جهلنا موضع العلة ولا صفة العلاج وانما يدلنا على أن هنالك خلائق تنقصنا كالصراحة والجرأة وضبط النفس والحزم في معالجة مختلف الموضوعات

والمشاكل التي تشغلنا . وهذه الخلائق لا ينبغي أن تقصر على الناقد وحده بل ينبغي أن تكون في الناشر وفي المصلح وفي اعضاء الطائفة أو الطبقة المنقودة وبخاصة في الرجال القائمين على المؤسسات التي هي العمد الأولية لصرح البناء الاجتماعي . ذلك بأن التعاون على الاصلاح الاجتماعي لن يتحقق الاَّ بوسيلة واحدة هي ألاَّ ننفر من الحقائق بل نواجهها ، وألاَّ ننكمش عن البحث وراء الحقائق اذا جهلناها . ينبغي أن يشعر كل فرد منَّا شعوراً ثابتاً قويًّا بأن نقائص المجتمع انما هي نقائص فيهِ بالذات وان المجتمع اذا كملت نظمه واتسقت أحواله وكانت أقرب الى المثل العليا فذلك دليل على قربه هو من الكمال وتدرجه نحو المثل الأعلى من النظام الانساني . فخليقة التضامن على الاصلاح الاجتماعي ينبغي أن تقوم على شعور الفرد بأنهُ جزء لا يتجزأ من المجموع ، وشعور الجماعات بأن الأفراد وحدات لها منها تتكوَّن وبصلاحها تصلح وبفسادها تفسد . أما اذا اشتد شعور الفردية في الأفراد وقابله من جانب الجماعات شعور بانها فوق الفرد ، فذلك هو التفكك الاجتماعي بعينه . وتلك حالة تشعر بانها شديدة الوطأة علينا في الصد من كل محاولة حاولناها في الاصلاح الاجتماعي

* * *

وليس ينقصني الدليل على صحة ما أقرر هنا . وانما استمد الدليل من مشاعري وأنا عاكف على كتابة هذه الأسطر . فاني أشعر اني اكتب بتحفظ ، واشعر أني اميل الى أن أمسَّ الموضوع مسًّا ولا أعالجهُ علاجاً فيهِ بعض العنف ، وأشعر أن هنالك قوات تكتنفني أخشى أن تغضب أو أن تثور ، وأشعر بان جماعات قد تقف مني موقف العداء ان مسستها بنقد ، واشعر بان افراداً قد يرون في ما أعالج من نقد افتئاتاً على حق لهم موهوم . اما اذا اردنا أن نصلح اصلاحاً اجتماعيًّا صحيحاً فعلينا أن نتزود أفراداً وجماعات وطوائف وطبقات ، بالكثير من الشجاعة وبالكثير من حرية الرأي وضبط النفس ، وان نشعر بأن الاصلاح الاجتماعي لن يتأتى لنا الاَّ بالتعاون الوثيق بين المفكرين وأهل السلطة منا ، وان الناقد اذا نقد فانما ينقد ابتغاء الاصلاح ، وان الرأي ينبغي ان يوزن بما فيه من قيمة ذاتية لا بما لقائله من قيمة في المجتمع ، فقد ينطق الصغير بالحكمة وقد ينطق الكبير بفائل الرأي ، وان نعتقد جميعاً وفي طليعتنا النقاد والمفكرون ان التكبر على أهل الكبر صدقة يتصدق بها عليهم لوجه الله وابتغاء الاصلاح ليرعوي أهل الكبر منا عن كبريائهم ، وليعلموا ان في هذه الأمة رجالاً أحرار الفكر مستقلي الرأي يعملون للأمة ولمستقبل الأمة

وما اقصد بالخليقة هنا الاَّ مفردات الخلق ووحداته . فاذا اعتبرنا الخُلُق كلاًّ ، كانت

الخلائق وحدات ذلك الكل . وما كان لنا أن نعدد النقائص التي نشهدها في اخلاقنا و نبحث كل منها و نندد بما كان لها من الآثار السيئة في نهضتنا وفي تضامننا الاجتماعي ، وانما نحاول في هذه النقود ان نتناول بعض النواحي التي كان لتلك النقائص أكبر الأثر فيها . وإنّ نقيصة واحدة من نقائصنا إنْ نحن ذكرناها وأردنا أن نعدّد آثارها في مجتمعنا ، لوجدنا ان أثرها قد يمتد ويتشعب إمتداداً قد يصل الى غايات بعيدة نصية ، حتى ليخيل اليك أن تلك النقيصة بذاتها هي السبب فيما نشعر من تخلخل في كياننا . فاذا قلنا مثلاً أن الصراحة تنقصنا ، وأنها لا تنقص أصحاب المناصب الكبرى لاغير وإنما تنقص الرجال الذين هم بطبيعة عملهم أحوج الى الصراحة ليقوموا بواجبهم للمجتمع كاملاً ، كفى ذلك أن يكون أصلاً تتشعب فروعه الى أبعد أغوار حياتنا الاجتماعية . وإنما أريد بهذه البحوث أن أتناول بعض النواحي التي نشعر بأن نقائصنا الخلقية كانت السبب المباشر في صدنا عن أن نصل الى القمة في أسباب الاصلاح الاجتماعي

ولقد تبادر الى بعض الباحثين أن الاصلاح الاجتماعي إنما يقصد به إصلاح الفروع لا الاصول . ولم أر كاتباً واحداً امتدّ نظرة الى الأصول ليقول أن الأصل الذي يقوم عليه التعليم فاسد وينبغي تبديله مثلاً ، وإنما رأينا أن كل محاولة للاصلاح من التعليم قد إقتصرت على الكلام في الفروع . فالبرامج فرع ومواد الدراسة فرع واللامركزية فرع . أما الأصل وأما الأرومة فلم نتناولها بشيء من الاصلاح . فلم نحاول مثلاً إصلاح المعلم ولا حاولنا إصلاح الطالب ولا نظرنا في المرمى الحقيقي الذي نرمي اليه من تعليم أولادنا ولا حسبنا حساباً لثقافتنا التقليدية التي ينبغي أن تكون الأصل الأول الذي نسترشد به في إقامة أساس جديد للتعليم والتربية وهنا نشعر بأن خليقة تنقصنا، هي خليقة الاقدام على الاصلاح بتناول الأصول وتحويلها وفقاً لما يلائم مصلحة الأمة ومزاجها أو تقويضها تقويضاً تامًّا والتبدل منها بأصول أخرى تلائم طبعنا وتقاليدنا الموروثة

***

وإني إنما ضربت المثل بالتعليم لأنهُ أهم ما يشغل بالنا في هذه الأيام . ولكن ما قولك باقتصادنا وأحزابنا وصحافتنا وجمعياتنا ومؤسساتنا العملية وغير ذلك مما يقوم عليه صرح عظمتنا الاجتماعية ؟ هذه أشياء ينبغي أن نعالجها بأن نكمل نقائصنا الاخلاقية ، ولا نستطيع أن نكمل نقائصنا الاجتماعية إلاَّ بأن ننقد هذه النواحي نقداً صريحاً به نعرف أي الخلائق تنقصنا فنعمل على التكمل به ليكون الأساس الثابت لكل إصلاح نحاوله

معجم اللسان الضادي

أمنية تتحقق

لابراهيم ابراهيم يوسف

من أوابد ما تكلم بهِ الأقدمون : « الإنسان حيوان ناطق » . ومعنى ناطق إذا قصرناه على المعنى اللغوي الصّرف ، متكلّم بصوت وحروف تُعرف بها المعاني ، كما يقول الفيروز ابادي. ولو شئنا تفسير تلك الآبدة والنظر فيما ترمي اليهِ من معنى لقلنا : إن المقياس الصادق لإنسانية كلّ فرد هو قدر معرفته للغته ، كما انّ مبلغ جهله بها يتساوى بمقدار حيوانيته . وإذاً فحب اللغة متأصّل في النفوس ما لم تكن مريضة . ونحن نعلم أنْ كان للعرب فتوّة ولا فتوّة مع مرض . ومن لزوميات الفتوّة الحب . وقد أحبَّ العرب لغتهم حبًّا جمًّا . ويفسّر أبو منصور الثعالبي حبّ اللغة بقوله : « من أحبَّ العربية عُني بها وثابر عليها وصرف همته اليها » (١) . وها نحن أولاء نرى من تراجم عشاق اللغة في الأزمنة السالفة — الأمر الذي نغتبط بهِ أيّما اغتباط — ماجعل أبا منصور الثعالبي يحمد الله أنْ « تيّض للعربية حفظة وخزنة من خواصّ الناس وأعيان الفضل وأنجم الأرض فنسوا في خدمتها الشهوات وجابوا الفلوات ونادموا لاقتنائها الدفاتر وسامروا القماطر والمحابر وكدّوا في حصر لغاتها طباعهم وأسهروا في تقييد شواردها أجفانهم وأجالوا في نظم قلائدها أفكارهم وأنفقوا في تخليد كتبها أعمارهم » (٢)

وبفضل علم هؤلاء الأفذاذ وبركة جهودهم المثمرة — وقد استبان لنا ذلك اليوم بعد أن ثبّتهُ الفحص واستقرّ عليهِ الرأي — « لا يوجد شعب آخر ، إذا استثنينا الصين ، يحقّ لهُ الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكّر بحاجته الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب » (٣)

(١) و (٢) من كتابه فقه اللغة وسر العربية ، طبع المدارس الكلية بالقاهرة

(٣) من مقدمة الاستاذ الدكتور أ . فيشر في معجمه اللغوي التاريخي ، وهو رهن الطبع

وإذا كان الأمر كذلك فلا ً بناء العروبة عذر أن يعتقدوا اعتقاداً راسخاً ان « العربية خير اللغات والألسن » . نعم ليس عليهم منّ حرج حين يتفاخرون بذلك في عصور أنجبت من أعلام اللغويين أئمّة عنوا بتصنيف المعاجم وكتب مفردات اللغة أمثال الخليل بن أحمد (المتوفي سنة ١٧٥ هـ) وابي عمرو الشّيباني (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) وابي عبيد (المتوفى سنة ٢٢٣هـ) وابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) والفارابي (المتوفى ٣٥٠ هـ) والقالي (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ) والأزهري (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) والصاحب بن عبّاد (المتوفى سنة ٣٨٥هـ) وابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ) والجوهري (المتوفى سنة ٣٩٧ هـ) والهرَوي (المتوفى سنة ٤٠١ هـ) وابن التيّاني (المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) وابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) والزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) والمُطَرّزي (المتوفى سنة ٦١٠ هـ) والصّغاني (المتوفى سنة ٦٦٠ هـ) وابن منظور (المتوفى سنة ٧١١ هـ) والتّنوخي (المتوفى سنة ٧٢٣هـ) والفيومي (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ) والفيروزاباذي (المتوفى سنة ٨١٦ هـ) رضوان الله عليهم جميعاً [٤] . ولكن سرعان ما انتابت العربية من بعد هؤلاء الأعلام سنون عجاف عدّتها حتى اليوم ثلاث وأربعون وخمسمائة سنة . وحين نتفحّص الماضي وننقد الحاضر نرى أننا بقينا مدى تلك الحقبة المديدة من الدهر على إرث او بعض إرث أجدادنا في لغاتهم وآدابهم . وما ان انقضت تلك السنون القمساء حتى أخذتنا رجفة من هول ما حالت أحوال «ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع الى مواضع أخرى[٥]» ، وعفى الدخيل الأصيل اوكاد ، وهزم غيرُ الفصيح الفصيحَ إلاّ قليلاً . فتبلبلت الألسن إلاّ ما عصم ربك وتجهّم أقوام للعربية سرًّا وعلانيةً ، بل وظهر في الناس من سوّلت له نفسه بثّ دعوى أن العربية لغة دخيلة على بلاد لا يعرف أهلها من الألسن وغيرها

***

هذا ما آلت اليه اللغة رغم دعوى عرضها الفضاء تدوّي ان البلاد العربية من مشرقها الى مغربها تتمخّض صدقاً لا كذباً عن نهضة مباركة . وقد فاتنا ان لا قيام لنهضة فكرية ما لم تبدأ

(٤) كان في الوسع أن نقرن هؤلاء الجهابذة بأفذاذ من علماء اللغة أمثال يعقوب وثعلب وابي حنيفة والفراء والاصمعي وابي زيد وابي حاتم والمبرد وقراع والنضر والمفضل وابن الاعرابي واللحياني وابن قتيبة وابي بكر الانباري وابي علي الفارسي وابي سعيد السيرافي وابي الفتح بن جنى وابي الحسن علي الرماني وابي بكر محمد السري وغيرهم . ولكن ارجأنا ذلك الى بحث خاص يتناول اشهر اللغويين وآثارهم . وقد ضربنا صفحاً عن الزبيدي اذ ان جل تاج عروسه يرتدُّ الى لسان العرب لابن منظور والمحكم

(٥) من كتاب الصاحبي لابن فارس

بإنهاض اللغة ، وأننا ما زلنا بعيدين عن ان توصف نفوسنا بخصب إيمانها ، إيماناً صحيحاً بأن لا قوام لعلم او دين بغير لغة. وعندما ترسخ هذه العقيدة ويثبت هذا الايمان نكون قد خطونا خطوة أبجدية في إنهاض العربية

***

أما خطوتنا الثانية فلن نوفق فيها توفيقاً يكفل لنا إنهاض العربية على وجه مرض ما لم نجند جلّ علماء اللغة من عرب ومستعربين ومستشرقين ، كما نجند أعيان المتأدبين والمتفقهين في مختلف العلوم والفنون عرباً كانوا او مستعربين ، ليعملوا جميعاً متآزرين في فرقتين أساسيتين لهما هدف واحد هو وضع معجم للغة العربية الفصحى ملائماً للتطور العلمي في العصر الحاضر ، وهنا ينشأ السؤال : كيف يكون هذا المعجم ؟ « الجواب : يجب ان يشتمل المعجم على كل كلمة بلا استثناء وجدت في اللغة.... وان يوضح هذا المعجمُ التطورَ التاريخي لمعنى الكلمة .... ، وان يبحث أصل الكلمة ونسبتها ...، وان يورد تعريف الافعال والأسماء وغيرها ... ، وان يحقق معنى الكلمة او معانيها ويرتب هذه المعاني على حسب علاقتها التاريخية والعقلية ... ، وأن يوضح جميع الصلات القويّة التي تربط كلمة بأخرى...، وان يبيّن علاقات الكلمة التي استشعر منها أنها لازمة لها دائماً ...، وأن يحدد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة أو التعبير او التركيب استعمالاً عامًّا او خاصًّا ... » (٦) ومعنى ذلك « ان اعرض الكلمة على حسب وجهات النظر السبع التالية : التاريخية والاشتقاقية والتصريفية والتعبيرية والنحوية والبيانية والأسلوبية » (٧) وقصارى القول يجب ان يكون غرض الفرقتين المشار اليهما الاشتراك في وضع معجم لغوي تاريخي . وتصرف الفرقة الأولى منهما همّتها الى تصحيح وتنقيح جميع ما سيتناوله بحث الفرقة الثانية من كتب وإعادة طبعها طبعات علمية متقنة . كذلك طبع أهم المخطوطات بعد دراستها دراسة وافية — ولنا في ذلك ببعض آثار المستشرقين أسوة حسنة . ولأعضاء هذه الفرقة حق العمل فرادى أو جماعات على أن يكونوا ممن لا يرتقي الشك اليهم بحال، وأن يبدأوا العمل منذ الآن

***

أما الفرقة الثانية فيحسن أن تؤلف من شعبتين ، كلّ شعبة مستقلة في عملها عن الأخرى وتتكوّن الأولى منها ممن تفقه في علوم اللغة ، ودرس العربية الفصحى لعصرها الذهبي — ويبتدىء من أيام الجاهلية الأولى وينتهي بنهاية القرن الثالث الهجري — ، وحذق اللغات السامية الأخرى ، وكذا الفارسية والتركية واليونانية واللاطينية واللغات الأوربية الواسعة الانتشار. وتصرف همة هؤلاء جميعاً الى شد أزر العلامة الدكتور ا . فيشر في تصنيف معجمه

(٦)و(٧) من مقدمة الاستاذ الدكتور أ . فيشر في معجمه اللغوي التاريخي ، وهو رهن الطبع

اللغوي التاريخي . وكان مجمع فؤاد الأول للغة العربية قد هيأ له أسباب العمل منذ شتاء سنة ١٩٣٧ م . ومتى سارت هـذه الشعبة في عملها فسوف يتسنى للدكتور أ . فيشر ، متى عاد الينا في المجمع إن شاء الله ، ان ينتج أضعاف أضعاف ما انتج ، ويتمم لنا معجمه الفرد في زمن أقل مما قدر له . ولعلّ المبادرة بطبع القسم الأول من هذا المعجم واظهاره للناس أشحذ لهم اللغويين والمتأدبين وأدعى لتطوعهم بالمساعدة في هذا العمل الجليل ، خاصة اذا وقفوا على أسلوبه العلمي الحديث الذي انتهجه في تأليف هذا المعجم . وهو ، على عكس ما تصوره البعض ليس سرًّا من الأسرار . « فالمعجم يتناول بقدر الامكان بحث تاريخ كل الكلمات التي جاءت في الآداب العربية مبتدئاً بالكتابة المنقوشة المعروفة بكتابة النمّارة من القرن الرابع الميلادي ، ومنتهياً بنهاية القرن الثالث الهجري أي منتهى ما وصلت اليه اللغة العربية من الكمال . أعني أنهُ يتناول الكلمات الموجودة في القرآن والحديث والشعر والأمثال والمؤلفات التاريخية والجغرافية وكتب الأدب والكتابات المنقوشة والمخطوطات على البردي وعلى النقود . . . وقد بُني المعجم على المتون التي لها دخل بهذا . ويتبيَّن من المتون وحدها معنى الكلمة ومكانها من الجملة » (٨) كذلك يجب ان لا يغرب عن البال هنا ما أوردناه فيما يجب ان يكون عليه المعجم اللغوي التاريخي . ومن هذا وذاك يتضح انا الى حد كبير أسلوب العمل . بيد أن ليس هنا مجال تحديد أسلوب العمل في معجم فيشر ولا وسائله . كذلك ليس هذا ميدان عرض الصعوبات التي تكتنف طبيعة العمل ودقائقه . وقد أردت ذكر بعضها ، خاصة للذين لم يعانوا مشقة تأليف المعاجم ، حتى لا يتسرب الى الاذهان أن هذا العمل يسير غاية اليسر فأذكر (١) « انه ليس في مقدورنا اليوم الحصول على تلك المادة اللغوية من لغة الكتابة ولغة الكلام التي انتهت الى الأوائل ممن عاشوا حتى نهاية القرن الثالث الهجري » (٩) (وقد نعثر على عدد من هذه المواد كلما تصفحنا المعاجم العربية الكبيرة) ، و (٢) « إن الكثير من كتب الأدب عامة ودواوين الشعر خاصة وما كان منها للمتقدمين على الأخص به أغلاط غير قليلة ترجع الى خطأ في الحكم أو الى تصاحيف وتحاريف . كذلك الشأن في المعاجم العربية التي صنفها العرب والمستشرقون إذ هي لا تخلو من أغلاط » (١٠) (وقد وضعت طائفة من الكتب والرسائل في إيضاح تلك الاغلاط والتنبيه عليها وتصحيحها) ، و (٣) « أن اللغويين المتقدمين قد تضاربت آراؤهم في الحكم على ما هو الفصيح من الكلام » (١١) (وقد وردت آراؤهم هذه في مختلف الكتب التي وصلت

---

(٨) و (٩) و (١٠) و (١١) من مقدمة الاستاذ الدكتور ا . فيشر في معجمه اللغوي التاريخي ، وهو رهن الطبع

الينا عنهم) وهذه الصعوبات كما نراها — وهي بعض من كل — كفيلة بأن تعوق العمل في المعجم الى حد يقارب اليأس من التقدم فيه، ورغم هذا كله فقد قطع الاستاذ الدكتور أ . فيشر شوطاً كبيراً في عمله لاخراج معجمه كما يشتهيه كل غيور على اللغة . ومما يزيد في قدر هذا المعجم أن وضع لكل كلمة معناها الانكليزي والفرنسي .

***

أما الشعبة الثانية فيجب أن تشكل على غرار الشعبة الأولى لتقوم بوضع معجم تاريخي كبير للغة العربية في جميع عصورها . وهو ما فرضه المرسوم الملكي على مجمع فؤاد الأول للغة العربية كغرض من أغراض انشائه . ولا شك أن هذه الشعبة ستنتهج ان شاء الله نفس الأسلوب العلمي الحديث الذي جرى عليه الأستاذ الدكتور ا . فيشر في معجمه . ولا شك انهُ عمل خطير . ولكن ما كان تأليف معجم لغوي تاريخي بالأمر الهين ، بل لي أن أقول بأنهُ من أشق الأعمال وأضناها وأقلها حمداً وبركة . وقد عرف ذلك الأقدمون . ويقول في ذلك الاغريق « ان الكتب المفصلة الموسوعة نقمة على أصحابها » . ولهذا تنحى علماء اللغة جيلاً بعد جيل عن أن يؤلفوا معجماً يلائم روح العصر الذي عاشوا فيه . ولما كانت المعاجم التاريخية — وهي والحق معاجم قومية — تستنفد السنين الطوال والجهود الجبارة في وضعها فقد استعان كل من الانكليز والفرنسيين والألمان والطليان بمئات من العلماء اللغويين في وضع معاجمهم القومية. وتكفي هنا الاشارة الى معجم اكسفورد للغة الانكليزية الذي بدىء به في سنة ١٨٥٧ وقضي في طبعه من سنة ١٨٨٤ الى سنة ١٩٢٤ وقد تعاون في وضعه مئات من العلماء يؤيدهم جيش من المتطوعين متأدبين ولغويين . واذا كان هذا حال الغربيين فالأجدر بأبناء العروبة ، وقد ترعرع معهم الكرم والنخوة وحب اللغة ، ان يبادروا بالتطوع في أعمال معجمنا القومي ليساهموا بقسط يليق بالنهضة التي نرتجيها ويبغيها كل منا

* * *

ولي أخيراً ان أعتبر أبناء هذا الجيل سعداء وأي سعداء ، اذ سيكون لهم شرف الانتساب الى عصر جدَّ فيه الجد لإتمام المعجم اللغوي التاريخي للدكتور ا. فيشر والبدء بوضع تصميم العمل في المعجم اللغوي التاريخي الكبير والشروع في تأليفه . ومتى بلغنا النهاية من هذين المعجمين نكون قد علمنا من أمر لغتنا ما نحتاج الى علمه في زماننا . والله الميسر والمعين

العقم والفيتامين

التجارب التي أسفرت عن كشف
فيتامين E الواقي من العقم

كان الرأي الى عهد قريب ، بين الباحثين المختصين ببحث الغدد الصمّ وأتوارها ، أن بأيديهم وحدهم مفتاحَ العقم والخصب في حفظ النوع ، في الانسان والحيوان ، ولكن الباحثين المختصين بموضوع الفيتامين اقبلوا على هذا الموضوع ، ونشطوا فيهِ ، فكشفوا عن حقائق غريبة، أفضت الى تطبيق عمليٍّ ناجح

ومن هؤلاءِ جماعة من الباحثين تهتدي الى حقائق الفيتامين ، بتركيب أغذية شتى ، وتغذية الجرذان بها ، ثم ملاحظة ما تأثير هذا الغذاءِ فيها . وملاحظة التأثير لا تقتصر على جيل واحدٍ من الجرذان بل تتعدَّاها الى أجيال كثيرة متوالية ، وتصنع لكل جرذ لوحة خاصة تدوَّن فيها آثار هذا اللون من الغذاء في صحتهِ ومرضهِ ، وبناء أنساجهِ ووظائفها . وبالموالاة والتنويع الخاضع للسيطرة العلمية الدقيقة ، قد يتاح للباحث ان يكشف نوعاً من الغذاء ، يفضي الى مرض او الى اضطراب في وظائف الأعضاء ، فيكون ذلك أول الطريق الى كشف علمي طبي مفيد ، اذا حالفهُ التوفيق

وفي مقدمة هؤلاءِ العلماء الذين عنوا بناحية العقم والخصب في الحيوان والانسان ، وصلتهما بالغذاء باحثان أميركيان أحدهما يدعى افانز Evans والآخر بور Burr . فقد وفقا في بحثهما الى غذاءٍ يحوي كل ما هو معروف من عناصر الغذاء الأساسية من نشويَّات وأدهان وزلاليات وفيتامينات (ا) و (ب) و (ج) و (د) ولكنهُ مع ذلك كان يعوزه عنصر آخر كان مجهولاً فكشفاه

ذلك بأن الألواح التي سجلت فيها ملاحظات الباحثين عن تأثير هذا الغذاءِ في الجرذان أسفرت بعد موالاة التغذية ومراقبة تأثيرها عن شيء استوقف النظر، وهو ان الجرذان تضعف قدرتها على التناسل ثمَّ تفقدها تماماً . ومع ذلك لا يبدو على الجرذ عرَض مايدلُّ على هذا التغير الخطير في حالتهِ الاَّ تبدل يسير في مظهر الجلد

فهي تنمو نموًّا سويًّا ، وتنشط لكلما تنشط لهُ الجرذان التي تتغذى غذاءً طبيعيًّا ، فاذا

جاء فصل المزاوجة تحركت شهوتها الجنسية فتزاوج تزاوجاً طبيعيًّا لا شذوذ فيه

ولكن لا تنقضي فترة قصيرة حتى يظهر ان الإناث أخذت تتبدل . فحملها الأول ينتهي الى ولادة جرذان احياء ، ولكن حملها الثاني يفضي الى ولادة جرذان أكثرهم أو جميعهم أموات وبعد ذلك اذا زوجت هذه الإناث بذكور أسوياء تأكل الأكل العادي الكامل — لا الأكل الخاص الناقص — فانها لا تلد شيئاً . إلاَّ ان عجزها عن الولادة لا يعني عجزها عن الحمل . لأنها تحمل فعلاً ، ويتكون الجنين في رحمها وينمو فترة من الزمن ، ثم يختفي بغير ان يخلف أثراً . ثم يجيء فصل المزاوجة التالي فتتزاوج هذه الأناث كالعادة ولكنها تحمل ولا تلد

هذه حالة عجيبة يجب أن يفصل فيها بالتشريح الدقيق . وقد أسفر التشريح عن ان الأجنة بعد تكونها ، تتحوَّل تحولاً غريباً فتمتصها أنساج الوالدة أي أن الأجنة لا تموت في الرحم وتسقط، بل يمتصها جسم الأم فيضاف نسيج الجنين الى أنساجها . ثم ثبت أنه اذا زوّجت أناث سوية بذكور اقتصر غذاؤها على هذا الطعام الناقص ، فان الأناث لا تحمل ، لأنهُ بعد أن تنقضي على الذكور ستة أشهر وهي تغتذي بهذا الطعام تصاب بالعقم أي تغدو عاجزة عن التناسل

وتلا ذلك كشف الاسلوب الذي يمنع هذه الحالة العجيبة في جسم الأم ، اي حالة عدم اكتمال نمو الجنين وامتصاص انساجها لنسيجهِ . وقوام هذا الاسلوب اضافة بضع ورقات من الخس او عصير البرتقال الى الغذاء ، فلا تنشأ الحالة المذكورة . وهذا ينطبق على الانثى لاغير ، لانهُ اذا أصيب الذكر بالعقم وفقد قدرتهُ على التناسل فلا الخسُّ ولا البرتقال يعيدهُ سليماً سويًّا

هذه المباحث اقنعت الباحثين بان في الخس والبرتقال عنصراً مجهولاً لا غنى عنهُ للتناسل ، وفقدهُ من الطعام يفضي الى العقم . ومضيُّ اناث الجرذان وذكورها في التغذي بغذاء يعوزهُ هذا العنصر ، يفضي حتماً الى عقم الذكور وعجز الاناث عن الولادة

فدعي هذا العنصر ڤيتامين E

وبعد ما كشف في ورق الخس وعصير البرتقال ، كشف كذلك في الاوراق الخضر في معظم النباتات وفي جميع الثمار ثمَّ في جنين الحنطة وكذلك في اللبن واللحم الأحمر لأن الحيوانات تستمدُّ هذا العنصر الحيويّ من العشب أو العلف الذي تأكلهُ

ويختلف ڤيتامين E عن سائر أنواع الفيتامين في ان الحرارة دون الدرجة ٢٥٠ مئوية لاتؤثر فيهِ . وسعى العلماء الى استخلاصهِ نقيًّا بالأساليب الكيميائية فاصطدموا بعقبات شتى الى أن تمَّ ذلك في معامل أميرسن بجامعة غوتنجن . وبعد استخلاصه أثبت التجريب ان مقدار ثلاثة مليغرامات من الخلاصة تكفي لردّ شبح العقم عن الجرذ . ثم ثبت ان اضافة مقادير يسيرة الى طعام المرضع، او الى طعام الرضيع، يقي الصغار من الاصابة بما يصاب بهِ الصغار عادة من الأدواء

راحيل امام الله

اسطورة

للكاتب النمساوي ستيفان زويج[1]

نقلها الى العربية : صديق شيبوب

قصة زواج « راحيل » من « يعقوب » كما روتها التوراة معروفة وهي أنهُ لما أضمر « عيسو » الشر لأخيهِ يعقوب لأنهُ ابتاع منهُ حقوق البكورية بصحفة عدس ومكر بأبيهِ « اسحق » فأوهمهُ انهُ عيسو فباركهُ ودعا له، خافت أمه «رفقة» عليهِ بطش اخيهِ فأرسلتهُ الى شقيقها « لابان » حيث علق بحب « راحيل » صغيرة ابنتي خاله، وكانت حسنة الصورة ، بهية المنظر ، فخدم خاله سبع سنوات على ان يزوجهُ بها ، ولكن لابان خدع يعقوب فأدخل عليهِ مساء الزواج « ليئا » كبيرة ابنتيه ، وكانت عيناها ضعيفتين ، فلما أصبح يعقوب احتجَّ لدى خاله ، فوعده اذا هو خدمهُ سبع سنوات اخرى ، ان يزوجهُ براحيل. وهكذا كان

وقد نسجَ الكاتب النمساوي المعروف « ستيفان زويج » أقصوصة بناها على رواية التوراة رأينا ان ننقلها الى العربية عن الترجمة الفرنسية للفكرة الانسانية التي تنطوي عليها والوصف الجميل الذي حوتهُ

---

(١) Stefan Zweig : Rachel contre Dieu (Légende)

عاد شعب أورشليم المتعنت المتقلب من جديد الى تنامي التحالف الذي اقسم على احترامه كما عاد من جديد الى ذبح القرابين للاصنام النحاسية المجلوبة من « صور » و « عمون » ولم يكفه ان أقام الهياكل وحرق البخور لآلهة مزيفة ، فوضع « البعل » في بيت الله الخاص ، في الهيكل الذي بناه خادمهُ سليمان والذي دنستهُ دماء الذبائح الخاطئة ودخانها المتصاعد

عند ما رأى الله أنهم يسخرون منه في هيكله المعد لعبادته استشاط غضباً فمد يده اليمنى فاهتزت السموات طويلاً لصوته ، ذلك انهُ كان قد نفد صبره واستقر رأيهُ على ان يقضي على المدينة التي تمرغت في حمأة الخطايا وان ينثر ساكنيها كما ينثر الزوان في أنحاء العالم الواسع . فدوّى قضاؤه كالرعد القاصف من أقاصي اللانهاية الى أقاصيها

ارتعشت الأرض والسماء خوفاً من غضب الله ، وأمعنت الأنهار في الهرب، وانحنت البحار وتمايلت الجبال كما يتمايل السكارى ، وحنت الصخور رؤوسها ، وسقطت العصافير صرعى على وجه الأرض ، وأخفت الملائكة رؤوسها تحت أجنحتها الواسعة . والملائكة تجهل الألم ولكنها لا تستطيع احتمال منظر الغضب ماثلاً في عينيْ الله . وكانت رعدة صوته قد اخترقت الآذان كأنها حراب

لم يبق على وجه البسيطة سوى أهل المدينة المقضي عليها ، فقد ضربوا على آذانهم بالصمم وظلوا يجهلون قضاءه عليهم . الاَّ انهم شعروا فجأة بان الارض تزلزل ، وان ضياء الشمس قد خبا وسط النهار ، وان عاصفة شديدة قد قامت فاقتلعت أشجار الأرز وحطمتها كانها أعواد من القش، وجعلت الغابات تلتف على نفسها كأنها حيوانات صغيرة ، ولم تلبث الغيوم ان جاءت محمولة على أجنحة الرياح فغطت وجه السماء بنقاب قاتم . وكان الويل مخيماً على رؤوس الكفرة بينما الأرض تميد تحت أقدامهم كأنما صارت مياهاً

فاستولى عليهم الذعر واندفعوا الى خارج مساكنهم مخافة أن تنهار السطوح على رؤوسهم وازدادوا خوفاً وذعراً حين رفعوا أبصارهم الى السماء لان الغيوم المتلبدة فيها كانت أشد تهديداً من الصخور ، وكان الهواء المحرق يترك في أفواههم طعم الكبريت . وعبثاً أخذوا يمزقون ثيابهم ، كما يفعل المجانين ، وينثرون الرماد على رؤوسهم . وعبثاً أخذوا يرتمون على الارض متضرعين الى الرب العزيز القدير ليسألوه الصفح والمغفرة . ولكن نداءهم ذهب سدًى لان الغيوم كانت تشتد تلبداً وتطفىء كل ضياء يجلب النور للبلاد

ظهر غضب الله تعالى شديداً قويًّا فاستيقظ الأموات من رقادهم ، وخرجت أرواح الراحلين من سباتها العميق لانهُ اذا كان الموتى لا يرون وجه الله ففي استطاعتهم أن يسمعوا صوت النفخ في الصور يوم القيامة وان يتبينوه . وهكذا فانهم انتصبوا وقوفاً في قبورهم، وخرجوا من الأرض التي كانوا مدفونين فيها ، واجتمعت أرواح الآباء والأجداد فكان صوت حفيف

أجنحتها كصوت الطيور التي تقاوم عاصفة شديدة ، وتقدموا الى الله ضارعين بأن يرد نقمته عن أبنائهم وبيوتهم والمدينة المقدسة . واحتشد ابراهيم واسحق ويعقوب ومن اليهم من الانبياء الأقدمين ورفعوا تضرعاتهم ، ولكن الرعد القاصف مزّق أصواتهم وغطّى عليها ، وكلمة الله القدير العزيز ازالت لجلجة الفاظهم : لقد احتمل سبحانه وتعالى طويلاً نكران الجميل من الذين كفروا بنعمته ، أما الآن فقد قرر هدم الهيكل كي يعرفه في مظاهر غضبه اولئك الذين تجاهلوه عند ما كان يسبغ عليهم نعماءه وعطفه وحبه . ولما فشل هؤلاء الأنبياء في ضراعتهم تقدم الأنبياء المرسلون كموسى وصموئيل وإيليا واليشع ، اولئك الذين جرت على ألسنتهم كلمة الله وعبروا عن افكاره ، فرفعوا رجاءهم الحار ولكن الله لم يصغ اليهم وردّت الرياح الى الحاهم الكلمات التي تلفظوا بها . وكان البرق يشتد قوةً وعنفاً والنار تتأهب لتلتهم الهيكل

وكان الصالحون قد خارت عزائمهم،وكانت أرواحهم الذليلة ترتجف عاجزة امام الله . ولزموا الصمت مخافة ان يتحدّوا غضبه . وعند ما سكنت جميع الاصوات على الأرض فرقاً ، تقدمت «راحيل» أم بني اسرائيل اذ اجترأت وحدها على ان تفلت من بطش غضبه . لقد سمعت هي ايضاً من قبرها في بلدة «راماح» صوت غضب الله فجرت الدموع من عينيها حين فكّرت بمصير أحفادها ثم تسلحت بإرادتها وتقدمت نحو غير المنظور وجثت أمامه وبسطت يديها ورفعت اليه هذه الكلمات :

« اللهمَّ أيها العزيز القدير ، ان قلبي ليرتعد حين أخاطبك ، ولكن لماذا منحتني قلباً اذا كان عليه ان يضطرب امام غضبك ؟ ولماذا أعطيتني شفتين اذا كانتا لا تستطيعان ان تصدرا في صلواتهما الاّ عن الخوف ؟ اني أخشاك ولكني اتقدم اليك بنداء حار باسم الحب . ان المحنة التي وقع فيها ابنائي تدفعني لأرفع صوتي المتواضع الى عزتك السرمدية . انك لم تمنحني الذكاء ولا الخادعة فلا أجد شيئاً يهدىء من ثورة غضبك ، غير أن أتحدث اليك عن نفسي أنا التي عرفت في بعض أيام حياتي كيف أكظم غيظي . انك لا شك عليم بما سأقوله لك قبل ان أتلفظ به ، لأن كل كلمة كائنة فيك قبل ان تصير صوتاً تتلفظ به شفة بشرية ، وأنت تعرف كل حركة قبل ان تبدو على يد مخلوق . ولكني أضرع اليك ان تصبر وتصغي اليّ حبّاً بالخطاة الهالكين . »

ونكست راحيل رأسها بعد ان تلفظت بهذه الكلمات . ولكن الله تعالى رأى وجهها ودموعها فأمسك غضبه ليصغي الى المرأة التي تتألم

واذا أصغى الله في سماواته الى أمر ما،خلت الأجواء،وتوقف الزمان عن سيره ،وسكنت الرياح ، واختنق الرعد ، ولم تزحف الحياة ، ولم تعاود العصافير طيرانها ، ولم تخرج بعد ذلك نسمة من فم أحد . أما الساعات فقد أصبحت خرساً ، والملائكة كأنما جمدوا ، لأن انتظار الله يوقف كل تنفس ، ويخفت كل ركز في السماء . فالشمس نفسها تجمد والقمر يلزم السكون وجميع الأنهار تشاطر انتظاره وتتوقف عن المسيل

وكان القوم على الارض يختفون حيث يجدون ملجأ جاهلين ضراعات « راحيل» في سبيلهم والتفات الله الى كلامها . والناس يجهلون عادةً ما يجري في السماء ، فلم يفطنوا الا لأمر واحد وهو ان الزوبعة هدأت فجأة . على أنهم حين عاد اليهم الأمل ورفعوا أعينهم الى السماء وجدوا أنها لا تزال ملبدة بغيوم أشد ظلاماً من القبور ، وأنها لا تزال تنذر بويل شديد بالرغم من صمتها ، فعاودهم الوجل وأحسوا بأن هذا الصمت يحيط بهم كالكفن

أما « راحيل » فقد شعرت بأن الله قد أصغى اليها فرفعت وجهها المبلل بالدمع ووجدت في نفسها المقدرة على الكلام بالرغم من خوفها فقالت : —

« تعلم يا الٰهي أنني ابنة « لابان » ، وانني كنت راعية في بلاد « حاران » أحرس غنم والدي طوعاً لأوامره »

« وبينما كنت أرِدُ الماء مع الغنم ، وكانت الخادمات عاجزات عن تحريك الحجر العظيم الذي يغطي فتحة البئر ، جاءنا شاب غريب فأعاننا وأدهشنا بقوة ساعديه . وكان ذلك الشاب « يعقوب » الذي أرسلتهُ الينا ، وهو ابن أخت أبي . فلما ذكر لي اسمهُ استصحبتهُ الى منزلنا . ولم ينقض على تعارفنا ساعة من الزمان حتى كانت عينانا تتقدان ، وحتى شعر كل واحد منا بظمأ نحو الآخر . كنت استيقظ في الليل لأفكر فيه . ترى اللهمَّ إني لا استحي من الدم الذي كان ينبض في عروقي ، ألست أنت الذي خلقت فينا هذه الأعجوبة ؟ ألست أنت الذي أوقدت في قلوبنا جذوة الحب ؟ أنت يا الٰهي وحدك الذي شئت ان تقدم العذراء نفسها للرجل ، وان تلتقي العيون والأجسام فتتصل في نزق وحرارة . لذلك لم نقاوم الجذوة التي اتقدت فينا فتعاقدنا أنا ويعقوب ، منذ اليوم الأول الذي تقابلنا فيه على الزواج

ولكن والدي « لابان » ، كما تعرفهُ ، رجل شديد الوطأة ، قلبه قاسٍ كالارض التي حرثها ، قاسٍ كقرون الثيران التي استعبدها . وعندما أخبره يعقوب برغبته في الزواج بي شاء ان يجرب مواهبه ليعرف هل هو ، كما يريده ، ذو مثابرة على العمل وصبر في الحياة . فاشترط عليه ان يعمل في خدمته سبع سنوات ليبرهن على انهُ أهل لأكون زوجة له . وعند هذا الشرط سرت في جسمي رعشة كما ان دم « يعقوب » جمد في عروقه ، ورأينا ان فترة الانتظار طويلة لانهاية لها . إني أعرف ان سبع سنوات كقطرة ماء في بحور أبديتك ، او طرفة عين من نظرك السرمدي لأن الزمان يجري كأنهُ الدخان في لا نهاية سمائك . ولكن اللهمَّ انظر الى قصر حياتنا ، سبع سنوات تمثل عشر عمرنا لأنه لا تكاد عينانا تتفتحان لنورك المقدَّس حتى تدركهما ظلمة الموت . فحياتنا تجري بسرعة النهر في فصل الربيع ، ولا تستطيع الأمواه المنحدرة ان تعود الى نبعها الذي صدرت منه . لذلك ظهرت لنا هذه السنوات السبع كأنها الأبد الذي لا يحد . سبع سنوات نظل فيها مفترقين بينما جسمانا المتقاربان ينتظر أحدهما الآخر ، وشفاهنا تجف في انتظار القبلات

« على ان يعقوب رضي بالشرط ، وامتثلت لمشيئة والدي . وشدّ كل واحد منا على قلبه ليرغمه على الطاعة والصبر »

« ما أشد وطأة هذا الصبر على مخلوقيك لأنك جعلت فيهما قلباً ينبض بالحياة وغرست فيهما روحاً يخيفها قصر الحياة وفوات العمر . اللهمّ اننا نعرف ان الربيع قريب من الخريف ، وان صيف الحياة قصير المدى ، فلا غرو اذا اضطربت دماؤنا لطول الانتظار ، وشعرنا برغبة ملحة في ان نصل الى ما نشتهيه وتتم بالزمان الذي يمر مسرعاً . كيف نتعلم الانتظار ونحن نعرف ان كل يوم يمر يدنينا من الشيخوخة ، او نستطيع الصبر بينما نرى حياتنا تخبو كل ليلة ، وكيف لا نحترق بينما نرى النار تلتهم الزمان وتفنيه شيئاً فشيئاً ، ثم كيف لا نسرع بينما الموت لاحق بنا يطاردنا . بالرغم من ذلك فاننا استطعنا ان نتغلب على نفسينا وان نقاوم حبنا ، بينما كل يوم يمضي كأنه الف يوم أمام ما كنا نشعر به من حنين وحب . على أنهُ حين انقضت هذه السنوات السبع حسبناها كأنها يوم واحد . اللهمّ هكذا انتظرت يعقوب الذي كان يحبني

« عند نهاية الموعد ذهبتُ فرحة الى والدي «لابان» أسأله أن يعين يوم الزواج، ولكنه أبى أن ينظر الى غبطتي وسروري فأظلم جبينه وظلّ صامتاً ثم أمرني ان أنادي شقيقتي «ليّا»

«اللهمّ انك تعلم ان « ليّا » أكبر مني لأنها خرجت من بطن أمها وسبقتني الى الدنيا بعامين وقد أعطيتها وجهاً غير مليح لا يلفت اليه انظار الرجال . وكان يحزنها أن أحداً لا يرغب في الزواج بها . وكان حزنها ولين أخلاقها قد جعلاها حبيبة الى نفسي . ولكنهُ حين أمرني والدي ان أناديها ثم أخرجني من حضرته عند ما دخلت عليه ، شعرت انهما يأتمران بسعادتي وانهما يخفيان شيئاً عني ، فاختبأت بحيث أسمع ما دار بينهما من حديث . سمعت أبي يقول لها :

«اسمعي يا «ليّا» ، لقد انقضت السنوات السبع التي «اشترطت على ابن اختي « يعقوب » «إن يعمل اثناءها في خدمتي لأزوجهُ من «راحيل»، ولكنني لا أريد هذا الزواج من أجلك «اذ ماذا يحدث لو أن الصغيرة غادرت المنزل قبل الكبيرة ، وظلت الكبيرة مقيمة بلا زواج «عرضة لسخرية الخدم . إن أمراً كهذا لا يرضى به الله لأنهُ حرام وغير رشيد . خلقنا الله «في بدء العالم وفي فجر الأرض لكي نملأ الأرض بالمخلوقات حتى يصيروا في المستقبل الوفاً «مؤلفة يسبحون باسمه، انهُ لا يريد ان تظل أرضه غامرة وان تفنى المخلوقات التي نفخ فيها «الحياة بدون ذرية ونسل . ليس عندي غنمة أو بقرة لم تلد ، فكيف أسمح أن تظل ابنتي « بكراً وان تعيش في الذل والعار . فاستعدي يا « ليّا » لكي تلبسي نقاب العرس واجتهدي « بأن تخفي بهِ جيداً وجهك حتى لا يعرفك « يعقوب» عند ما أقودك اليه بدلاً من راحيل »

«هكذا تحدّث والدي الى «ليّا» التي كانت تضطرب وجلاً ولا تحير جواباً . وعندما سمعت هذا الحديث الذي خيب آمالي شعرت بنار الغضب تتقد في قلبي ضد أبي «لابان» واختي «ليّا»

أغفر لي اللهمَّ ولكن أرجو أن تذكر أن « يعقوب » لم يخدم سبع سنوات الاَّ لأجلي ، واننا تألمنا سبع سنوات كاملة كنا فيها منفصلين ، ثم وجدت ان من أحبه أكثر من نفسي ، سيضم بين ذراعيه اختي بدلاً مني . فطار عقلي وثرت على والدي كما ثار أولادي عليك ، أنت ابوهم الحيُّ القيوم . ألست اللهمَّ الذي جعلتنا نضطرم غضباً عند ما نتألم لظلم يلحق بنا . لذلك ذهبت سرًّا الى « يعقوب » وهمست في أذنه أن يأخذ حذره لأن والدي سوف يخدعه ، وانهُ سيبدلني بأخرى . ولكي أقيهُ من الوقوع في الشرك المنصوب أعطيته علامة ليعرفني بها وهي انني ، إذا كنت أنا المزفوفة اليهِ ، أقبله ثلاثاً في جبينه قبل ان أدخل خيمته

« عند ما جاء المساء قدَّم والدي نقاب العرس لاختي فأسدلته على وجهها حتى لا يتبينه يعقوب . أما أنا فأدخلني والدي أحد الأهراء حتى لا يراني الخدم فيخبروا « يعقوب » بما دبره

« قبعت في مكاني كأني عصفور من عصافير الليل . وكنت كلما مرت ساعات الليل شعرت بالضغينة تشتد في نفسي حتى خيِّل اليَّ ان قلبي ينازعني صدري لشدة الألم لأنك تعرف يا الهي بأني كنت لا أستطيع الرضى بزواج اختي بيعقوب . وكنت أعض يدي بينما كانت الصنوج والطبول تضرب في الدار . وكان قلبي فريسة لألم وغيرة كأنهما أسدان ينهشانه

« وهكذا كنت ألتهم غيظي وأنا في عزلتي سجينة منسية . وكانت الظلمة التي سادت الغرفة تحكي الظلمة التي قامت في نفسي حين سمعت الباب ينفتح ببطء . لقد كانت يا الهي اختي « ليَّا » التي خفَّت اليَّ سرًّا قبل ليلة العرس . لقد عرفتها من وقع قدميها ، ولكني أشحت بوجهي عنها كأني لم أتعرَّفها ، لأن قلبي لم يكن راضياً عنها . على أنها اقتربت مني ملاطفةً وداعبت بأصابعها شعري في رفق وحنان . وعندما رفعت نظري رأيت حدقتي عينيها تضطربان جزعاً ، وقد تعكر ريقهما استطيع ان أقول يا الهي أني شعرت وقتئذٍ بالشر يتغلب على نفسي ، واني أحسست بالسرور أمام اضطرابها وحيرتها . واغتبطت كما يغتبط المنتقم حين لاحظت أن ذلك اليوم كان أيضاً في فمها مرَّ المذاق . ولكن المسكينة لم يداخلها شك فيما فاض بهِ قلبي من السرور الشرير ألم نرضع من ثديي أم واحدة ، ألم نتبادل الحب منذ نعومة أظفارنا ، لقد جاءت إذن واثقة بعواطفي وطوَّقت جيدي بذراعيها ، وكانت شفتاها صفراوين مضطربتين عند ما وجهت اليَّ الكلام بصوت حزين قائلة :

« ما العمل ياأختي « راحيل » إني أتألم كثيراً مما أبرمه والدي . لقد انتزع منك حبيبك « ليدفع بهِ إليَّ . ولكني أشعر بخجل عظيم لاني سأخدع رجلاً سليم الطوية مثله . فكيف « أجرؤ على أن أذهب اليهِ بينما هو ينتظرك ، وكيف أستطيع الزواج بهِ ؟ أشعر أن رجليَّ تأبيان « حملي ، وأن قلبي ينصحني بأن لا أفعل ، إني خائفة ياراحيل ، لأنهُ من المستحيل أن لا يعرفني « من النظرة الأولى ، وأي خجل يستولي عليَّ إذا طردني في الحال من منزله . سيسخر

« الأطفال الصغار مني الى الجيل الثالث ويقولون : كانت « ليـا » قبيحة المنظر فشاءت أن ترمي
« بنفسها في أحضان رجل أباها وطردها كما يطرد الكلب الجرب . فكيف العمل يا « راحيل »
« ساعديني يا أختي العزيزة . هل أرضى بالمغامرة أم أعصى مشيئة والدي الشديد الوطأة . ماذا
« أصنع كي لا يعرفني يعقوب ، أو كي لا يعرفني قبل الأوان لئلاً يلحق العار ببريئة . ساعديني
« يا « راحيل »، أضرع اليك باسم الله الغفور الرحيم »

« اللهمّ كانت ثورة غضبي لاتزال في كمال اضطرامها ، وكانت تتراوح في رأسي أفكار شريرة بالرغم من حبي لأختي . كنت أفرح باضطرابها فرحي بأكلة شهية . ولكنني عندما سمعتها تتلفظ باسمك القدوس ، اسمك المقدس بين كل الأسماء ، عندما سمعتها تذكر رحمتك شعرت كأن شعاعاً من نار يخترقني ، وأن قلبي يتسع ، وان صلاحك العظيم وفيض كرمك ينفذان الى الصميم من نفسي المظلمة . لأن من معجزاتك الخالدة أن تزول الحواجز التي أقمناها بيننا وبين العالم عندما نرى غيرنا يتألم وعندما نشعر بمحنته

« شعرت فجأة بأوجاع أختي كما لو كانت أوجاعي فلم أعد أفكر بنفسي ، ولم أعد أصغي الاّ الى إستغاثتها فرثيت لشقائها وأشفقت عليها — اصغ جيداً يا الهي لأقوال عبدتك المجنونة — لقد أشفقت عليها عندما رأيتها تذرف الدموع كما أذرفها أمامك اليوم ، أشفقت عليها عندما توسلت اليّ أن أرحمها كما تتوسل اليك اليوم شفتاي الحارتان الطالبتان منك الرحمة ، فعلمتها بالرغم من نفسي الغارمة أن تخدع يعقوب ، وأطلعتها على علامة التعارف بيننا ، وقلت لها أن تقبّله ثلاثاً في جبينه قبل دخولها خيمته . وهكذا يا الهي من حبي لك ، استطعت أن أتغلب على الغيرة التي كانت تتقد نارها في نفسي كما استطعت أن أخون يعقوب وحبي له

« أصغت « ليّـا » لحديثي ثم لم تستطع أن تضبط عواطفها فترامت على قدمي تقبل يدي وأذيال ثوبي . هكذا جعلت مخلوقاتك: كلما ظهر لهم دليل على صلاحك المقدّس استولى التواضع عليهم وتحركت نفوسهم مدفوعة بعوامل معرفة الجميل فارتمت كل واحدة منا بين ذراعي أختها نتبادل القبل وابتلّ خدّاً كل واحدة بدموع الأخرى . عادت « ليّـا » الى هدوئها الطبيعي ورضيت أن تذهب الى خيمة يعقوب . ولكنها عند ما أرادت النهوض عاودها الاضطراب فأظلمت عيناها وارتجفت شفتاها وعلاها الاصفرار وقالت لي :

« أشكر لك يا أختي طيب معاملتك لي ، أشكرك وسوف أفعل كما أمرت ولكن ماذا أفعل
« إذا لم يقع يعقوب في الفخ المنصوب له . تداركيني بنصائحك يا أختاه وأرشديني . قولي لي ماذا
« أفعل إذا تحدث اليّ كما يتحدث اليك . هل أستطيع أن التزم الصمت عندما يخاطبني كما يتحدث
« الخطيب الى خطيبته ، إن هذا أمر محال لأنهُ إذا سمع صوتي أدرك خديعتي له . فماذا أفعل
« إذا كلمني ، استحلفك بالله الرحيم ان تسعفيني بحكمتك وشورتك »

« ومرة أخرى يا إلهي عندما سمعت اسمك المقدس شعرت كأن نوراً ملتهباً يخترقني فأخمدت ما في قلبي من قسوة وفتحت نفسي للصلاح والرحمة وأشفقت عليها في محنتها . ومن جديد عنفت قلبي المكلوم وتغلبت على عذابي . وكانت الرحمة قد جعلت مني شخصاً مستعداً لقبول كل التضحيات . فقلت لها :

« اطمئني يا « ليـا » واطردي عنك الهموم ، فحبًّا بالله القيوم سأفعل ما يجب فعله كي لا يفهم يعقوب شيئاً قبل ان يعرفك. اصغي اليَّ جيداً : بعد قليل سأدس نفسي في خيمته قبل ان يقودك والدنا اليها وأقف في أحد أركانها المظلمة بالقرب من مضجعكما فاذا تحدث يعقوب أجبته بدلاً منك فيسمع صوتي بحيث تزول شكوكه اذا كانت لديه شكوك تساوره فلا يتردد ان يضمك بين ذراعيه . . . سأفعل ذلك يا « ليـا » مدفوعة بالحب الذي تبادلناه منذ طفولتنا ، ومدفوعة كذلك بحب الاله الحي الرحيم الذي توسلت اليَّ به لـكي يشمل برحمته أبنائي وأحفادي عندما يحتاجون بدورهم إلى أن يتوسلوا باسمه المقدس

« فعانقتني أختي من جديد وقبلت شفتي . وكانت قد تبدَّلت حالتها فكأنَّ امرأة اخرى حلت محل تلك التي ارتمت على قدمي . وذهبت بعد ذلك مطمئنة وتقدَّمت الى يعقوب محجبة بنقابها . أما أنا فوفيت بما وعدت به وتسللت سرًّا الى خيمة يعقوب واختبأت بالقرب من السرير . سمعت بعدئذٍ صوت الصنوج المفرحة التي كانت تدق لخطوات العروسين . لقد وصلا الى باب الخيمة ، وعند مدخلها تردَّد يعقوب قليلاً منتظراً اشارة التعارف المتواضع عليها بيننا . وعندئذٍ قبَّلته « ليـا » ثلاثاً في جبينه . فسر يعقوب وحسبها انا ، فضمها اليه في حرارة وقادها الى مضجع العرس بالقرب من شفتيَّ المضطربتين . وقبل ان يضمها اليه سألها : « هل انت حقيقة « راحيل » التي اشعر بها بقربي » عندئذٍ كانت التجربة قاسية حقًّا كما تعرف ذلك يا الهي العليم بكل شيء . ولـكني استطعت ان اسمعه صوتي وان أتمم في ألم كما لو انتزعوا مسماراً مغروساً في جسمي ، وقلت : « اني انا زوجتك يا يعقوب » فاطمأن الى كلامي وعانق أختي مواصلاً بكل ما في حبه من قوة . اللهمَّ ان نظرك خارق كما ان حد المنجل قاطع ، فأنت تعلم كيف بقيت بالقرب منهما بحيث أكاد ألصق بهما ، لا أبدي حراكاً ، بينما كنت كأني على جمر الغضى لأني أعرف أن يعقوب لا يبدي هذه الحرارة في حبه لـ« ليـا » إلاَّ لانه يتوهم اني أنا التي يضمها بين ذراعيه ، أنا التي كنت اشتهيه بكل حرارة دمي . اذكر يا الهي الحاضر في كل مكان ، تلك الليلة التي قضيتها بقربهما ، وقد أدميت ركبتاي ونفسي ، مرغمة أن أسمع ما يجري بينهما ، ذاكرة اني محرومة من كل هذا الحب الذي كان يعقوب يغمر به « ليـا » والذي يجب ان يكون من نصيبي . فقد ظللت راكعة بقربهما سبع ساعات ، بل سبع أبديات ، ممسكة انفاسي ، مخمدة الأصوات التي كانت تتردد في صدري ، مصارعة نفسي كما صارع يعقوب فيما مضى ملاكاً . أنك تعلم ان هذه الساعات

السبع خلتها أطول من سنوات الانتظار السبع التي أرادها والدي . على أني لم أكن لأستطيع احتمال تلك الليلة الرائعة ، ولم اكن لأستطيع احتمال آلام كالتي قاسيتها فيها ، لو لم اذكر طيلتها اسمك المقدس ولو لم تتداركني فكرة صبرك الطويل الذي لا يفنى فتشد في عزيمتي وتقويني

« هذا ما فعلتهُ اللهمَّ ، وهو العمل الوحيد الذي افتخر بهِ في حياتي على هذه الارض لأني تشبهت بك في صبرك ورحمتك ، لان احزان نفسي كانت تفوق طاقة البشر . لا أدري هل أجريتَ على امرأة محنة هائلة كالتي عرفتُها في تلك الليلة المفجعة التي كانت أطول الليالي على أني ثبتُّ لها . وعندما سمعت صوت صياح الديك نهضت من مكاني منهوكة الجسم بينما كانا هما ايضاً قد استسلما للتعب وناما . فأسرعت نحو منزل والدي لان الحيلة صارت قريبة الانكشاف . وكانت أسناني تصطك عند ما أخذت أفكر فيما قد يحدث وقتئذٍ . ولم أكد أستلقي على مضجعي حتى سمعت صياح ذلك الذي خُدع وشتائمه . وقد جاء في اندفاع الثور الهائج حاملاً بيده فأساً ليضرب بهِ « لابان » والدي الشيخ الذي صُعق في مكانه خوفاً ووقع على الارض هاتفاً باسمك . وعند ما سمعت النداء باسمك المقدس تشجعت وهرعت للاقاة يعقوب لأحوّل غضبه نحوي. وكان الغضب قد أعماهُ ، فعند ما رآني ، انا التي ساعدت على خدعه ، اندفع يلطمني على وجهي حتى ارتميت أرضاً . ولكنني لم اشكُ لانني كنت أعرف أن غضبهُ دليل على حبهِ العظيم . ولو أنهُ قتلني ، وكان في ثورته قد رفع الفأس ليهوى بها عليَّ ، لو انهُ قتلني يا إلهي لما تقدمت الى عرشك الابدي شاكية لاني اذا كنت قد خدعته لأعالج حزناً عظيماً فقد كنت أعرف كذلك أن غضبهُ نتيجة حب عظيم

« وعندما رآني يعقوب مرتمية على الارض دامية الوجه مطبقة العينين أحسَّ هو أيضاً بالرحمة فهوت من يديه الفأس التي رفعها ليضربني بها وانحنى عليَّ وقبَّل شفتيَّ الداميتين . ولم تقتصر رحمته عليَّ بل شملت والدي « لابان » فغفر له حبَّا بي ، ولم يطرد « ليئا » من خيمته ، واتفق مع والدي على خدمته سبع سنوات أخرى أخذني بعدها زوجاً ثانية فولدت له أولاداً غذيتهم بلبن جسمي وبالايمان بك ، أولاداً أوصيتهم ان يتوجهوا في جرأة وفي ساعات المحن الكبيرة اليك ، اللهمَّ أيها الشفيق الرحيم . فباسم رحمتك أتقدم اليك اليوم في هذه النكبة الكبرى فافعل كما فعل يعقوب . دع فأس غضبك يسقط من يديك وبدد غيوم نقمتك ، اللهمَّ كن رحيماً لأن « راحيل » كانت رحيمة . اظهر صبرك لأني برهنت عن صبري ، واستبق المدينة المقدسة . ترفق اللهمَّ بأبنائي وسلالتي ، وجنّب أورشليم الدمار »

كانت « راحيل » قد رفعت صوتها حتى كأن عليهِ ان يخترق السبع الطباق . ولكنها بعد ابتهالتها الصاعدة من قلبها خارت قواها فسقطت ساجدة وحنت رأسها الى الارض فتموَّج شعرها على جسمها المرتجف كأنهُ موج سيل أسود . وكانت « راحيل » في سجدتها ترتعد فرائصها في انتظار جواب الله

ولكن الله ظلّ صامتاً ، ولا شيء أشد هولاً في السماء وعلى الارض من سكوت الله . فهو اذا لزم الصمت وقف الزمان ، وخبا الضوء ، واختلط النهار بالليل فصارا شيئاً واحداً ، وشاع في فضاء اللانهاية فراغ كالذي كان قبل الخليقة . عندئذٍ تقف كل حركة ، فلا تجري الأنهار ، ولا تزهر الأشجار ، ولا يتحرك البحر اذا خلا من صوت الله الذي يهبه نغمه لا تستطيع أذنٌ بشريةٌ احتمال هزَّات هذا الصمت ، ولا يستطيع قلب بشريٌّ مقاومة ضغط هذا الفراغ الذي لا يوجد فيه غير الله . بل انه نفسهُ ، وهو ينبوع كل حياة ، لا يكون الاله الحي ما دام صامتاً

ولم تكن راحيل على قوة صبرها لتستطيع أن تحتمل صمت الله أمام تضرعاتها في محنتها الصارخة . فرفعتْ عينيها مرة أخرى نحو غير المنظور وبسطت يديها نحو السماء وقذفت بهذه الكلمات النارية في ثورة غضب

« ألم تسمعني يا إلهي العليم بكل شيء ? ألم تفهم قولي أنت الذي لا تخفى عليك خافية ، أم يجب أن أفسر عباراتي ، أنا خادمتك الجاهلة . أصغ إليَّ يا الله ذا السمع الثقيل . عرفت أنا الغيرة أيضاً ، الغيرة عندما ضاجع يعقوب أختي كما تعرفها أنت اليوم عند ما ترى أبنائي يحرقون البخور لآلهة غيرك . ولكنني أنا المرأة الضعيفة عرفت كيف أتمالك غضبي ، كنت رحيمة حبًّا لك أنت الذي كنت أؤمن بأنهُ رؤوف رحيم . لقد أشفقتُ على « ليئا » وأشفق يعقوب عليَّ ، فلا تنسَ ذلك يا الله . نحن الذين ليسوا سوى أشقياء فانين تغلبنا على شر الغيرة . أما أنت أيها الاله القدير أنت الذي خلقت كل شيء وسوَّيتهُ ، أنت أول كل شيء وآخره ، أنت الخضم العظيم ، بينما نحن لسنا سوى قطرات ماء في محيطك ، ألا تريد ان تعرف الرحمة سبيلاً اليك ? اعلم ان أبنائي شعب شرس معاند ، وانهم كثيراً ما يثورون بالنير المقدس الذي فرضته عليهم . ولكنك الله العادل الحكيم . أفلا يجب ان يكون صبرك أعظم من كبريائهم ، ورحمتك أبعد من اخطائهم . ليس من الجائز يا آلهي ان توجد مخلوقة تستطيع ان تجعلك تستحي أمام ملائكتك ، فيقال : عاشت مرة على وجه الارض امرأة ضعيفة تدعى « راحيل » عرفت كيف تكظم غيظها بينما الله — ربُّ جميع الناس والأشياء — يخضع لثورة غضبه كما يخضع الخادم لسيده . كلاَّ يا إلهي ان هذا مُحال ، لأنهُ اذا كان الأمر كذلك لم تعد رحمتك لا نهاية لها ، وزالت عنك صفة اللانهاية ، بل زالت عنك صفة الألوهية . أجل لم تعد ذلك الاله الذي تمثله في أحزاني ، ذلك الذي سمعت صوته في صراخ اختي المفجع ، صرت الهاً غريباً ، آله غضب ، آله قصاص ، آله انتقام . أما أنا «راحيل» ، أنا التي لم أخدم غير آله محبة وصلاح ، أنا «راحيل» أجحدك أمام ملائكتك انهم يستطيعون أن يخفضوا رؤوسهم ، وأن يحذو مختاروك وأنبياؤك حذوهم . ولكن انظر ! انا «راحيل» ، الأم ، اني لا أحني رأسي وأظل منتصبة أمامك ، وأتقدم اليك قبل أن تقتص من ابنائي وأتهمك بأن أقوالك تتعارض مع طبيعتك ، وان كلمات الغضب التي ينطق بها فمك

تتعارض مع قلبك . احكم اذاً يا الهي بينك و بين أقوالك . فاذا كنت حقاً الـه الغضب الذي تنذر بهِ فارمني في ظلمات الجحيم مع ابنائي لأني لا أريد أن أراك على هذا الوجه . اني أكره شدة نقمة غيرتك . أما اذا كنت الـه الرحمة الذي أحببته منذ الأزل والذي عشت وفقاً لتعاليمه فاظهرْ بهذه الصفة،وأنِرْ وجهي بنور صلاحك ، وجنِّب أولادي والمدينة المقدسة الهلاك »

***

عندما قذفت راحيل نحو السماء بهذه العبارات المرّة خانتها قواها من جديد فهوت على ركبتيها ورمت رأسها الى الوراء في انتظار جواب العلي

وكان الهول قد أخذ مأخذه من الأنبياء والشيوخ فابتعدوا عنها لأنهم ظنوا أن برقاً سيصعق الكافرة التي تجرأت على مخاصمة الله . ثم أخذوا يجولون بأبصارهم في الفضاء في حيرة ووجل ولكنهُ لم تظهر أية إشارة في السماء

وفي أثناء هذا أخذ الملائكة الذين أخفوا رؤسهم أمام غضب الله ، ينظرون من خلال أجنحتهم في رعشة واضطراب الى هذه الجريئة التي سمحت لنفسها ان يداخلها الشك في انهُ تعالى على كل شيء قدير ، فرأوا فجأة نوراً يشعُ على وجه « راحيل » ويضيء جبينها . كان كل جسمها يسطع نوراً ، وكانت دموعها المنحدرة على خدي هذه الأم تلمع كأنها ندى الصباح. فعرف الملائكة بهذه الظاهرة ان الله قد نظر الى وجه « راحيل » وان حبه يضيء عليها فيجعلها تشع نوراً ، ووثقوا و قتئذٍ بان الله يحب تلك التي تنكر قوله الإلهي مدفوعة بشدة ايمانها وفراغ صبرها اكثر من حبه لأولئك الذين يخدمونهُ في تقوى واستسلام ، فزال خوف الملائكة ورفعوا انظارهم مطمئنين ولاحظوا ان وجود الله قد أعاد الضياء وردَّ الى الاشياء جمالها ، وان زرقة ابتسامته المطمئنة تنعكس على لا نهاية الفضاء . فبسط الملائكة اجنحتهم في حفيف يصحبه تفغيم الهواء الفضي فانبعثت عن هذا جميعه موسيقى ناعمة في بياض السماوات ، وصار الضياء المشعُ من وجه الله نبع نورٍ لا ينضب معينه ، وانتشر في القبة الزرقاء ، وارتفعت بانغام منسجمة اصوات الملائكة والموتى والذين لم يولدوا بعدُ على هذه الارض ، كل هذا استحال الى غناء عظيم ينبعث من نسمة مقدسة .

أما الناس الذين على الارض ، والذين يظلون ابداً جاهلين لأصوات الله ، فانهم لم يفطنوا الى مايجري في السماء. فقد ظلّوا متدثرين بأكفانهم ، ساجدين ،حانين رؤوسهم الى الأرض في حزن وألم . وفجأة شعروا ، الواحد بعد الآخر ، كان نسمات الربيع تهب فوق رؤوسهم فرفعوا انظارهم والشكُ يملأ نفوسهم وبهتوا لما رأوه . انهم رأوا على جدار الغيوم المتصدع قوس قزح بديع جاء يحمل الي أمّهم « راحيل » بألوانه السبعة وبريق لمعانه النبأ السارّ يبشرها بأنهم قد اصطلحوا مع الله

رحلة ابن بطوطة[1]

وما تنطوي عليهِ من نبات وشجر

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ١ —

ذكر ابن بطوطة في كتابه المشهور باسم « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » بعض نباتات وصفها كما شاهدها في البلدان التي زارها في رحلته الطويلة وبما أن أغلب اسمائها غير معروف عند الكثير منا ويتعذر فهمه لهذا عُنيت بالتعليق على بعض ما أورده رحالة القرن الثامن الهجري من قبيل الاشادة بذكراه في العصر الحاضر خدمةً للعلم مراعياً تحرير اسماء تلك النباتات وما يقابلهـا في بعض اللغات الأجنبية وذكر أوصافها وخواصها بما يتفق وكتب النبات الحديثة وذلك في مقالات سأنشرها تباعاً . فقد قال عن أشجار بلاد الهند وفواكهها ما نصه : —

١ — « فمنها العَـنْـبـة[2] وهي شجرة تشبه أشجار النارنج الا أنها أعظم اجراماً وأكثر أوراقاً وظلها أكثر الظلال غير أنهُ ثقيل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه وجعلوا عليهِ الملح وصبروه كما يصبر الليم[3] والليمون ببلادنا وكذلك يصبرون ايضاً الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفُلفُل ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيراً من هذه المملوحات فاذا نضجت العنبة في اوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصاً وهي حلوة يمازج حلاوتها

---

(١) هو الامام المؤرخ الرحال شمس الدين ابو عبد الله محمد بن علي اللواتي الطنجي عاش من (٧٠٣هـ—٧٧٩هـ) (٢) أو العنبا معرب (amba) بالهنـدية وهي المعروفة في مصر بالمنجة كما في الافرنجية ولغة اهل الملايو manga

(٣) هو المعروف عندنا بالليمون الحلو واسم شجرته باللسان النباتي (Citrus Medica var. Limetta) وبالانجليزية (sweet lime) وبالفرنسوية (lmonier doux) و citron doux

يسير حموضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها »

وأقول إن ما ذكره في بيانه صحيح لا غبار عليهِ واسم المنبـة باللسان النباتي (Mangifera indica, L.) وبالانجليزية (mango tree) وبالفرنسوية (manguier) وفصيلتها البلاذرية (anacardiaceae) وقد سبق لي أن وصفتها في مفردات النبات التي نشرتها في مقالات بالمقتطف الأغر فليرجع اليها من يشاء . وقال : —

٢ — « ومنها الشكي (١) والبركي وهي اشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منهُ بالأرض فهو البركي وحلاوته أشدّ ومطعمهُ أطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فاذا اصفرَّ في أوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير واذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول اذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى الى سنة اخرى وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند »

وعندي ان هذا الوصف على دقته لا غبار عليهِ كما يتضح مما يأتي : فالشجرة تسمى باللسان النباتي (Artocarpus integrifolia, L.) وبالانجليزية (jack, jack tree) وبالفرنسوية (jacquier و jaquier) وفصيلتها التوتية (Moraceae) مستوطنة الهند وجزائر الهند الشرقية وتبلغ ثلاثين قدماً في الارتفاع وهي ذات عصارة لبنية أوراقها كثيرة التباين طول الواحدة منها اربع بوصات الى ست فما يوجد منها على الفروع المثمرة شكله بيضي منعكس تقريباً وحافته كاملة وما يوجد على الفروع العليا شكله بيضي منعكس لكنهُ مستطيل أما أوراق الأفرخ الصغيرة فالواحدة منها ضيقة ذات فصين أو ثلاثة . والثمرة طولها ثماني عشرة بوصة أو يزيد وزنتها ثلاثون رطلاً أو اربعون وتشبه ثمرة شجرة الخبز (٢) لكنها اضخم وأخشن ولا يأكلها عادةً الاَّ أهالي الملايو والهندوس يهيئون منها طعامهم الرئيسي . ومما ذكره : —

(١) معرب (chakka) بلغة أهل الملايو (٢) سبب التسمية ان لحم ثمرتها يشبه الخبز من حيث التركيب وفي الغالب يؤكل مشوياً أو مطبوخاً كالخضر وتسمى باللسان النباتي (Artocarpus incisa, L.) وبالانجليزية (bread fruit tree) وبالفرنسوية (arbre à pain)

٣ — «ومنها ألتَنْدُو وهو ثمر شجر الأبنوس وحباته في قدر حبات المشمش ولونها شديد الحلاوة» وأقول إن تندو معرّب (tindoo) بالهندية وسبق لي وصف شجر الأبنوس الهندي في مفردات النبات والاشارة الى أن ثماره تؤكل فليراجع . وقال : —

٤ — «ومنها الجُمُّون [١] وأشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون» وأقول ان هذا الوصف صحيح فشجرته مستوطنة في الهند وجزائر الهند الشرقية تغرس بقرب القرى لثمارها واسمها باللسان النباتي (Eugenia Jambolana, Lam.) وبالانجليزية (black plum و jambolan و jaman و Java plum) وبالفرنسوية (arbre aux jambolones) وفصيلتها الآسية (Myrtaceae) الورقة منها ثخينة لامعة مستطيلة عريضة لا سيما من قنتها طولها بين بوصتين ونصف بوصة الى خمس بوصات وعرضها بين بوصة وثلاثة أرباع البوصة الى أربع بوصات . وثمرتها كالعِنَبَة السوداء أو في حجم بيضة الحمام تؤكل على الرغم من حموضة مذاقها وعدم جودتها . وقال : —

٥ — «ومنها النارنج الحلو وهو عندهم كثير وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنهُ صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جداً وكنت يعجبني أكله» وأقول إن النارنج الحلو هو المعروف عندنا بالبرتقال واسم شجرته باللسان النباتي (Citrus Aurantium, L.) وبالانجليزية (orange tree) وبالفرنسوية (oranger) واسم شجرة النارنج الحامض باللسان النباتي (Citrus Aurantium var. amara) وبالانجليزية (bitter orange و Seville orange) وبالفرنسوية (bigaradier) وأما الصنف الثالث الذي لم يسمه ويكون بين الحلو والحامض فالراجح انه المعروف عندنا بالليمون الهندي واسم شجرته باللسان النباتي (Citrus Decumana, Murr.) وبالانجليزية (shaddock) [٢] وبالفرنسوية (pamplemousse) [٣] . وقال : —

٦ — «ومنها المَهْوَا [٤] وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز إلاّ ان فيها حمرة

(١) أو الجمون (jamun) اسمه بالهندية (٢) باسم الضابط الذي أدخله في جزائر الهند الغربية (٣) أخذاً عن اسمه (poomplemoos) بجزائر الملايو (٤) معرّب (Mahua) بالهندية

وصفرة وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفي أعلى كل حبة منهُ حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كطعم العنب الاّ ان الاكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعاً ومن العجب ان هذه الحبوب اذا يبست في الشمس كان مطعمها كطعم التين وكنت آكلها عوضاً من التين اذ لا يوجد ببلاد الهند وهم يسمون هذه الحبة الأنكُور وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بأرض الهند عزيز جدًّا ولا يكون بها الاّ في مواضع بحضرة دهلي وببلاد أخر ويثمر مرتين في السنة ونوى هذا الثمر يصنعون منهُ الزيت ويستصبحون بهِ » وأقول إن ما ذكره صحيح فالموا تسمى باللسان النباتي (Bassia latifolia, Rox.) وبالانجليزية (mahwa) وبالفرنسوية (bassie à larges feuilles) وفصيلتها الصابوتية (Sapotaceae) وهي شجرة كبيرة يبلغ ارتفاعها اربعين قدماً توجد في غابات غرب بلاد البنغال والهند الوسطى وتغرس من أجل أزهارها وبذورها وخشبها في المقاطعات الشمالية الغربية لكثرة فوائدها فزهراتها تجفف وتغتذي بها الطبقات الفقيرة وعلى الأخص القبائل المتوحشة القاطنة في غابات الهند الوسطى وهي حلوة المذاق وبسبب رائحتها القوية جدًّا لا يقبل عليها الاّ من كان متعوداً على أكلها وقد يتحصل من الشجرة الممتازة على عشرين قنطاراً من الزهر أو يزيد ومنهُ يصنع عرقيّ يتعاطاه كثير من الهنود ويقال إنه اذا استقطر بعناية كان مذاقه شبيهاً بالوسكي الايرلندي الجيد ويتحصل من اعتصار البذور على زيت متجمد مصفر أو مخضر يشبه الزبد يستصبح بهِ ويصنع منهُ صابون ويستعمل من الظاهر مليناً أو محللاً . وقال : —

٧ — « ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا يحفرون عليها الارض وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل » وأقول ان نباتها يسمى باللسان النباتي (Scirpus kysoor, Rox.) وفصيلته السعدية (Cyperaceae) وهو حشيش ينبت في الهند على شواطيء المستنقعات والانهار طول ساقه ثلاث أقدام الى تسع وهي غليظة من قاعدتها التي تنشأ منها الأوراق وإزهاره مشطي كبير مركب وجذره ليفي قد يضخم في بعض اجزائهِ فيكوّن درنات الواحدة منها في حجم جوزة الطيب سوداء البشرة وهذه الدرنات قابضة تمنع الاسهال والقيء وفي فصل البرد تستخرجها عامة الهنود بكميات كبيرة وتقطعها شرائح وتأكلها نيئة لمذاقها الحلو ونشويتها وتعتبرها مغذية جدًّا ومرطبة

أمين الريحاني

لخليل مطران

الشرق طال سباته الروحاني | هل أيقظته صيحة الريحاني
أي الهداة الراشدين عناه ما | رمزت اليه من كبير معان
وعلام أجمع أمرهم من واجب | تدعو اليه سلامة الأوطان
ما من أمان في الحياة وأين من | يقضي الحياة جميعها بأمان
فطن الحكيم لما الحوادث خبأت | فنضا حجاب الغيب قبل أوان
واليوم صدقت الكوارث قوله | كيف الشعوب طليقها والعاني
وعزيزها بسلاحه وكفاحه | وذليلها بالحق والبرهان
قد مالأ العلم الغريزة فهي لم | تترك لغير السيف من سلطان
ردت اليه الرأي في عمران ما | يهوى وفي التفويض من عمران
فتطيرت من حكمها آباؤنا | وتحيرت في حكمة الرحمن
يا من لقيت الله ما في علمه | من غاية لتحول الانسان
جزع المحابر والمنابر انها | قد بدلت من عزها بهوان
كانت اداة السلم دهراً والهوى | ففدت اداة السلب والعدوان
هرع الزمان بنا فما من مهلة | للوادع الراضي ولا للواني
وسطا جديد نظامه بقديمه | ورمى الجمود بصاعق النيران
فهو المصدع بعد طول رسوخه | وهو المروع بعد طول أمان
لا ينقض الباني يداً الا وقد | نقض البناء وقال رأي الباني
وبأي خسف عوقب القوم الأولى | عاقوا شموسهم عن الدوران
غلت الحياة فان تردها مرةً | كن من أباة الضيم والشجعان
واقحم وزاحم واتخذ لك حيزاً | تحميه يوم كريهة وطعان

لا حقَّ الا أن تنافح دونهُ ... ان القناة عصا بغير سنان

***

يا من نودعهُ وكل مودِّع ... دامي الفؤاد مقرَّح الأجفان
أعظم بخطبك في البلاد وانما ... عظم المصاب يقاس بالحرمان
كم في حياتك من مثال واعظ ... للناس من شيب ومن شبان
شتى مزاياك التي أبرزتها ... برعاية المتعهد اليقظان
وعزيمة قرنت بصبر لم تدع ... لك في مجال السبق من أقران
جابت بك الآفاق تستوفي بها ... ما شئت من أدب ومن عرفان
فالأرض روض والجنى متنوع ... وحجاك مشتار وفكرك جان
أودعت في الكتب التي صنفتها ... أزكى ثمار العلم للاذهان
ونثرت بين كتابة وخطابة ... ما لا يجود بدره البحران
وخصصت بالعرب الكرام مباحثاً ... أحسنت فيها غاية الاحسان
أخبارهم آدابهم أخلاقهم ... صوَّرتها في أصدق الألوان
فلصنعك المشكور أكرم موقع ... من كل قلب في بني عدنان
جُهلت مفاخرهم وراء مكانها ... واليوم قد عرفت بكل مكان
ان المعريَّ الذي ترجمته ... فرفعت بين اللسن خير لسان
وأبنت للاقوام ما بالضاد من ... حكم جلتها في بديع بيان
ليبارك الزمن الذي رجحته ... فضلاً على متقادم الأزمان
لا بدع ان بُلِّغت ما بلغتهُ ... شرقاً وغرباً من عزيز الشان

***

سبحان من وهب النبوغ مميزاً ... بعلاه بلداناً على بلدان
لبنان بين جباله ورجاله ... طالت ذراه أوج كل عنان
لو تجتلي عين معاني مجده ... لرأت رهاناً توجت برهان
يا ابن الفريكة نم منامك ناجياً ... فيه من الفجعات والأحزان
تحنو عليك صلادهُ بظلالها ... وتقر في واد من التحنان
ان المصير الى الثرى واخاله ... أندى وأرفه في ثرى لبنان

الجديد

في الطب الاجتماعي

الألعاب الرياضية ، المخابىء والأمراض ، اللبن والخب

للدكتور حسن كمال

١ — «الألعاب الرياضية» أنشئت حديثاً ببلاد الانكليز مراقبة خاصة بالألعاب الرياضي للجنسين الذكور والأناث . وأعلن ذلك أخيراً في مجلس النواب . واشترط في هذه المراقبة أن تعمل بالاشتراك مع وزارة الحربية وان يشمل الاشراف الشبان والشابات من سنة ١٤ الى ١٨ سنة من العمر . هذه خطوة جريئة وحميدة لاصلاح النشء الحديث . واذا أضفنا الى ذلك ان الاندية الرياضية كثيرة ومنتشرة بتلك البلاد انتشاراً يفوق الوصف واذا علمنا ايضاً ان التدريب الحربي يبدأ هناك من سن ١٨ سنة أدركنا أن ذلك المجهود الجبار سيكون له تأثير كبير في النشء الجديد بتلك البلاد الراقية . وهكذا بدأنا نرى ان الألعاب الرياضية نشأت وترعرعت وفقاً لرغبة الأهالي وتشجيع الهيئات ثم أضحت اجبارية بقرار الحكومة لما اتضح لها من أثر مفيد في صحة المجتمع . الا أن الحكم الاجباري لامفر فيه من الاستثناء والحكم الخاص وذلك للوقاية ، مثله في ذلك مثل صمام الأمان في كل آلة بخارية . نعم ان هذه الألعاب او التمرينات الرياضية الاجبارية أوجبتها الحرب الحاضرة الا ان المنتظر في شأنها أن تستمر الى ما بعد انقضاء الحرب لأنه اذا اتبع النظام الصحي في هذه الألعاب أسفرت عن فوائد عظيمة لا تقدر بثمن وقد ثبت هذا ثبوتاً عملياً . لذلك رؤي ان يوجه النظر الى اربع مسائل هامة حتى تكون التمرينات الرياضية مفيدة الى أقصى حدود الفائدة . وهذه المسائل هي : —

اولاً — يجب أن تكون الألعاب الرياضية في المجتمعات وان لا تكون قاصرة على الشخص بمفرده . لأن تدريب الجمع أهم كثيراً وأفيد بمراحل من تدريب الفرد . خصوصاً اذا لاحظنا ان الغرض الأول من الالعاب الرياضية هو تقويم الخلق وانماء الذاكرة وتوسيع نطاق المعرفة علاوة على تصحيح الابدان وتنشيطها وزيادة مقاومتها للأمراض والعلل

ثانياً — يجب ان يخصص لكل سن وكل مهنة ما يوافقها من التمرينات الرياضية فللاطفال تمرينات غير تمرينات الشبان . وللمزارعين تمرينات غير تمرينات الكتاب أو عمال المنازل.

ثالثاً — يجب ألاّ تكون هذه التمرينات قائمة على أساس حربي . نعم ان الأحوال الحاضرة هي التي أظهرت قيمتها الاّ أن هذه الأحوال عابرة وسينتهي أمرها قريباً فتبقى انظمة التمرينات الرياضية سائرة . فيجب ان يلاحظ من الآن ان تكون هذه الألعاب عملية بعيدة عن الروح العسكري الصميم حتى تكون مفيدة مدى العمر

رابعاً — يجب ان تكون التمرينات الرياضية المشار اليها تحت اشراف طبي . فلا يكلّف ممارستها الاّ السليم المعافى . ولا يرهق بها صاحب الجسم الضعيف . وان تقسم درجات ومراحل يتدرج فيها الشخص الضعيف وفقاً لما يتمشّى مع حالته الصحية

٢ — ﴿ الاعشاب الطبية ﴾ ما اكثر ما تستورد مصر من العقاقير الطبية من البلاد الاجنبية وما اكثر ما يوجد بهذا القطر من أعشاب طبية غير مستثمرة . خذ مثلاً صناعة زيت الخروع والجلسرين (من الزيوت) الخ . كل ذلك واجب تحضيره داخليًّا بدلاً من استيراده بآلاف الجنيهات سنويًّا . وكثير من الاعشاب الطبية تسهل زراعتهُ في هذا القطر وكل مايحتاج الأمر اليه اشراف بسيط من الاخصائيين من وزارة الزراعة ووزارة المعارف (الجامعة) . ولقد تألفت في بلاد الانكليز هيئة تقدم جميع المعلومات اللازمة لأنماء هذه الأعشاب هناك تسهيلاً لكل من اراد ذلك وعنوانها Wholesale Drug Trades Association 28 Gordon Square W. C. I.

٣ — ﴿ المخابىء والامراض المعدية ﴾ تمتاز هذه الحرب بويلاتها المدنية امتيازها بويلاتها الحربية فالاماكن الآمنة كالمنازل والمستشفيات اضحت هدفاً للقنابل كأنها قلاع محصنة . والاهالي العزّل من السلاح من نساء واطفال وكهول اصبحوا معرضين لفتك الطائرات تعرُّضاً يفوق تعرُّض رجال الجيش والاسطول . وبدأت الحكومات تنظر في حلٍّ لهذه الحالة غير الانسانية والشاذة . وقد كان السعي اولاً موجهاً الى الغازات الخانقة والغازات الكاوية على اعتبار ان هذه الغازات ستكون اداة الفتك بالآمنين من السكان . وظهر بعدئذٍ ان القنابل المحرقة والشديدة الانفجار هي الآن المختارة والمفضّلة لهذا الغرض . ومن ثمَّ بدأت الحكومات في انشاء مخابىء لوقاية الأهالي المدنيين من أخطار القنابل والحرائق . والخنادق على نوعين مسقوف وغير مسقوف . وأخذت الحكومة الانكليزية اخيراً ببناء مخابىء تحت الارض لا تؤثر فيها القنابل وأثبتت في جوانبها اسرة اشبه بنظام الأسرة في السفن . وبها آلات لتكييف الهواء وغير ذلك . كل هذا يقتضي مبالغ جسيمة توفرها الهيئات المسؤولة . لكن هناك واجب آخر يجب على المدنيين ان يقوموا بهِ ايضاً . فالمعروف ان كل اجتماع للمدنيين يشتد فيهِ الضغط ويكثر فيهِ العدد يكون بؤرة ينتشر منها المرض المعدي . والمخابىء في أوقات الغارات الجوية هي أوفق بقعة لانتشار الامراض المعدية . وواجبٌ على الاهالي المرضى وقاية الاصحاء فلا يزيدوا الطين بلة ولا يكثروا من الحمل الواقع على كاهل الحكومة . لذلك وجب أن يوجّه النظر الى مايجب اتباعه من الآن

حتى يقل خطر العدوى ما أمكن وقت الالتجاء الى المخابىء

هناك امراض معدية مزمنة كالدرن الرئوي تنتقل عدواه بالرذاذ وغيره والمصابون بهذا الداء أوفق لهم أن يهجروا المدن المعرضة للغارات وان يسكنوا الأماكن غير المعرضة حفظاً لهم أولاً ووقاية لغيرهم ثانياً . ولاسيما ان هذا المرض وأمثاله يحتاج الى الراحة الجسمية والنفسية

وهناك أمراض أخرى يسهل توقيها بالتطعيم كالجدري والدفتريا والتيفودية فيجب على كل شخص ان يطعم نفسه وأولاده بالطعم الواقي هذه الأمراض

وهناك أمراض تنتقل بالرذاذ كالحصبة والسعال الديكي وهذه يجب عزلها بمستشفيات الحميات ووضع كمامات من القماش على أفام المخالطين لمنع تسرب الرذاذ الى الغير وقت الغارات الجوية

وهناك أمراض تنتقل بالحشرات كالقمل والبرغوث مثل حمى التيفوس والطاعون وغيرها وهذه تقاوم بالنظافة الشخصية ، وتغيير الملابس وغليها عقب الفراغ من الغارة حتى يقتل كل ما علق بها من حشرات

هذه ناحية من نواحي ويلات الحرب يجب الاهتمام بها ، وهي حالة لا يمكن ان يكون مسؤولاً عنها شخص او هيئة لان مثل هذه الحالات لم تكن تخطر لأحد قبل هذه الحرب وعلى كل حال فأتباع الاجراءات السابقة يقلل كثيراً من انتشار المرض المعدي بين المدنيين

ولنا رجاء كبير في ان يعتنى قريباً بانشاء مركز طبي علاجي بالقرب من كل مخبأ أو طائفة من المخابىء المتجاورة لمعالجة الحالات الجراحية الفجائية

٤ — ﴿ لبن المعز والنعاج ﴾ المعز والنعاج حيوانات أليفة كثيرة الوجود بالقطر المصري سهلة التربية قليلة التكاليف من حيث الغذاء صغيرة الحجم من السهل اقتناؤها بالمنازل الريفية وبعض المدن والمراكز وهي فوق هذا وذلك غزيرة اللبن كثيرة اللحم

هذه جميعاً مزايا لها قيمتها الهامة وقت الحروب وغير الحروب . اما وقت الحروب فلتعذر الحصول على الاغذية اللبنية في بعض المواقع لأسباب حربية او اقتصادية . واما في غير أوقات الحروب فلأن المباحث الحديثة الخاصة بالغذاء في القطر المصري قد أثبتت ان أهم مادة ضرورية لسد النقص الغذائي الحالي بين طبقة العمل والفلاحين هي اللبن

فاذا كان الأمر كذلك فلمَ لانهتم بتربية هذين الحيوانين وانتاجهما حتى يكثر مقدار الألبان بمصر ويكثر مقدار اللحم أيضاً فيقل الثمن ويسهل على الفقير شرب اللبن وأكل اللحم . أظن ان هذه المسألة تستحق العناية بها

حقيقةً ان المعز والضأن يصابان بميكروب الحمى المتموجة (المعروفة بالمالطية سابقاً) الاَّ أن هذه الحيوانات المصابة يمكن اعدامها ومنع انتشار عدواها للغير . وهي على كل حال قليلة جدًّا في مصر

هذه ناحية هامة من نواحي التغذية في هذا القطر المملوء أمراضاً من حيث النقص الغذائي

وغير النقص الغذائي . واظن انهُ لو اهتم اولو الأمر بها لجنى الأهالي فائدة لا تقدر بثمن

بقيت هناك مسألة جواز اصابة هذه الحيوانات بالدرن ولـكن شأنها في ذلك شأن البقر والجاموس من حيث التطعيم والوقاية وخلافه . وعلى كل حال فغلي اللبن فيه الـكفاية لقتل جلّ الجراثيم المرضية

٥ — ﴿ الخبز ﴾ بدأت تظهر حملة علمية اجتماعية أخيراً خاصة بالخبز وطريقة تحضيره وعلى الأخص فيما يتعلق بطحن دقيقه . ولهذا الموضوع شأن طبي اظهرت المباحث الحديثة ضرورة العناية به . إذ عليه تترتب وقايتنا من امراض غذائية هي الآن قليلة في بعض البلدان وقد تصبح متفشية غداً . إن طريقة الطحن المتبعة الآن في هذا القطر ومعظم الأقطار الأخرى طريقة تسلب الدقيق جزءًا هامًّا من مواده الغذائية وتعرّض آكليه لأمراض كثيرة متنوعـة . وينطبق هذا الوصف بالأخص على الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الناصع ، وللأخير طعمه اللذيذ ولين مضغه بخلاف الخبز الأسمر (السن) الذي يمتاز بقلة طعمه وخشونته. ولهذا ابتكرت حديثاً طريقة لطحن القمح يستخرج بها دقيق ابيض حاوٍ لمحاسن الدقيق الأبيض والأسمر معاً . وتعرف هذه الطريقة بطريقة (كلارك) إبتكرها انكليزي يحمل هذا الاسم ،وتتلخص طريقتهُ في قطع القمح قطعاً دقيقة ثم فرقعة محتوياته فتستخرج بذلك كل محتويات الحبوب بما فيها الجنين وهكذا أمكن الحصول على دقيق يحوي كل المواد الغذائية الـكائنة في الحبوب

والطاحون الخاص بذلك يحوي عدة أسلحة حادة متقاربة وموضوعة بشكل خاص . تدخل الحبوب من خلال هذه الأسلحة فتتقطع قطعاً صغيرة حتى إذا تمّ هذا التقطيع أرسل تيار هوائي ضاغط بشدة يفرقع القطع الدقيقة ويخرج محتوياتها بأجمعها . وتتكرر عمليات القطع ثم الضغط ثم الفرقعة مراراً وتكراراً حتى تتحول الحبة الى دقيق ناعم للغاية

وتمتاز هذه الطريقة بعدم تسخين الدقيق وقت الطحن كما يحصل في الطواحين المستعملة الآن. وقد دلت التجارب على أن رفع حرارة الدقيق يتلف مقدار الغلوتين Gluten فيه ويضيع جزءًا كبيراً من الفيتامين منهُ . اما طريقة محلان فلا يصحبها ارتفاع يذكر في حرارة الدقيق . وتمتاز هذه الطريقة بان الدقيق المستخرج بها يحوي كل اجزاء الحبة ما عدا ٥ ٪ من رطوبتها . وعليه فالدقيق المستخرج بها يحوي (الردّة) مسحوقة سحقاً دقيقاً وممزوجة مزجاً كليًّا مع سائر اجزاء الدقيق فينجم من ذلك خبز كثير المسام اسفنجي المادة لذيذ الطعم فيه كل الخواص الصحية . ومن أهم هذه الخواص تنبيه الامعاء الدقاق والغلاظ فلا يصاب آكل مثل هذا الخبز بالامساك المزمن

أليست هذه مزايا تحملنا على النظر في ادخال هذه الطريقة الحديثة للطحن وتعميمها ان لم يكن الآن ففي القريب العاجل وان لم يكن دفعة واحدة لـكثرة نفقتها فبالتدريج مع الاقتصاد

الشرق

لفقيد الشرق امين الريحاني

— ١ —

أنا الشرق

أنا حجر الزاوية لأول هيكل من هيا كل الله ولأول عرش من عروش الانسان لذلك تراني محني الظهر ، ولكني قويم الرأي ثابت الجنان

أنا جسر الشمس

من أعماق ظلمات الأكوان الى الافلاك الدائمة الأنوار تصعد كل يوم على كتفي وتكافئني مكافأة جميلة

أجل ان في جيوبي ، وفي يدي ، وفي نفسي،من ذهب الفجر ما لا نظير له في معادن الارض كلها

تزوّدني الشمس للترحال ، وتزوّد مني البصر أيضاً والجنان ، وأنا على ثباتي في رحلة دائمة كالكواكب لا تبصر حركاتها

إن أول القافلة ، قافلة نفسي ، ليتصل بالجوزاء

وإن آخرها — لست أدري اليوم أين آخرها ؟

قد يكون واقفاً مستكشفاً في أبواب ليفربول

أو نائماً تحت عرائش الياسمين في سمرقند

او جاداً على ضفاف النيل

او ضائعاً في المادة البيضاء في نيويورك

ولكنني قنوعٌ رضيٌّ مطمئن ، لأني وإن كنت لا أرى ساقة القافلة فإني مبصرٌ قادتها

وإني لأسمع طنطنة الأجراس عند المساء

وصوت الرسول يجيئني كل صباح مسلماً
وفي يده ثوب جديد ألبسهُ ليومي
نسج من لاينسج إلاّ لصاحب الجلال ربّ الليل والنهار

— ٢ —

أنا الشرق
وقد جئتك يا فتى الغرب رفيقاً
فكن صبوراً اذا كنت لا تحسن السكون
إني مثقلٌ احمالاً لاتراها العين التي ترى الاقطان وتشتهي الثروة والجاه.
ولو رأت عيناك بعض ما أنا حامل لخررت ساجداً ولرحت شاهداً

وفي جيوبي أيضاً وفي يدي أشياء من حقول النفس ومن جبالها، وأشياء من أغوار الحياة

أشياء ترضي الله وترضي الانسان، وأشياء لا ترضي لا الانسان ولا الله. منها ما أودُّ نبذه لو استطعت ذلك دون أن أضرَّ بجاري صاحب الجنود والمدرعات. ومنها ما أودُّ إخفاءه لو اني لا استحي من نفسي الباصرة. ومنها ما أود اصلاحه لوكان لصناع هذا الزمان ضمير يشفع باليد الرجفة والبصر الكليل

وهناك أشياء يا فتى الغرب، لك فيها الحبور والسعادة. عندي ما يسكن نفسك المضطربة وينعشها. عندي ما يشفي ما في قلبك من أمراض التمدن. عندي ما يبعث فيك عدلاً يتجاوز استياءك وحرمة لما يقدسه سواك

عندي ما يقيدك رجلاً ويداً لتهدأ وتستريح فترى الكون اذ ذاك والعقل منك مطلق، والقلب مطمئن، وتتأمل كذلك أسرار الوجود

— ٣ —

أنا الشرق
لي عروس في الليل القديم البهيم لا تفارقني أبداً
ولي أيضاً في كل يوم بكرٌ من الحسان
تجيئني ممتطية جواد الفجر

لتخبر البصر مني والجنان
أراها فتهتز جوارحي طرباً
وأرى صباي أمامي يهتف للفجر
لجلال الفجر الذي يجري في النفس مثل سلسبيل فضيٍّ في الجبال فتبدو خلاله الأعشاب الخضراء وهي تعانق الحجارة والصخور فتبعث فيها روحاً يستحيل التجويد عندها نشيد حب وتشويق ، بل نشيد وطن يستفيق

— ٤ —

أنا الشرق
أنا شبحٌ يا فتى الغرب الباسل
شبحٌ في موكب الزمان — في موكب الحياة الدنيا
ولكن للشبح صوتاً بل أصواتاً تسمع شيئاً منها اليوم وستسمعها مليًّا غداً
أصواتٌ متضاربةٌ متنافرة ، إلاَّ أنها من قلب واحد لها صدى في هياكلي كلها ، ولها صدى في كليات بلادك
صوت يضجُّ في الخلوات ويتراجع في الأماكن المقدسة
وصوت يحدو في الصحراء ويملأ جبال تقواي سكوناً طيباً
وصوت يهمس في أذن أدواتك رغبة جديدة مستطلعاً قصدها ومغزاها
وصوت يتماوج سلاماً على وجه المياه في الأنهر المقدسة
وصوت يحسُّ شوقاً في ظلال الحرمين
كما انهُ يئنُّ ويطنُّ في المنابر الجديدة منابر الوطن
صوت ينشد « نرڤانا » لآلهة من ذهب ذات عيون من زمرد جاحظة
ويتغنى « بـ « كرما » وبالقضاء والقدَر في أكواخ البؤس والإثم والشقاء
وصوت يهتف استحساناً في ملاهي بلادك ، يا فتى الغرب ، وفي مراقصه
كما أنهُ يحدث في قهوانك ، حول كاس من الخمر ، بأحدث رأي علمي في الجاذبية ، وبأحدث رأي سياسي في عصبة الأمم

— ٥ —

أنا الشرق
أحتمي من العالم بنفسي
أستعيذ من العالم بالله
« أم ، أم ! » — الله ! الله !
ساعة ، ثم سكرة ، ثم آية
إلهه عينه سوداء[1] ، وشيطان عينه حمراء[2] وملك عينه زرقاء[3] ، يبلسون الحياة ويعيدون إليّ قديم الحياة
يرقصون في ظلال البنيان والنخيل
ويحرقون البخور في هيكل أحلامي
ويهمسون ، وينشدون ، ويصيحون طالبين الإطلاق —
الإطلاق — إطلاق النفس والعقل والروح والجسد
يهمسون : « وآه ، وآه ، وآه » ويرقصون
يصيحون : « لبيك اللهمَّ لبيك ! » ويسجدون
ثم في ساحات المدينة يخطبون ، وبالأبواق ينفرون
وعلى الثورة يحرضون
« لبيك اللهمَّ لبيك ! »
« واذكروا الرجيم الأجنبي وإن كان حاملاً انجيلاً »
« ولا تخافوه وإن كان حاملاً مدفعاً رشاشاً »
« ولا تعاملوه وإن كانت بضاعته هبة »
« وآه ، وآه »
« لبيك اللهمَّ لبيك »
ساعة من الابتهاج الروحي حول سرير الوطن يتلوها استسلام طويل تحت

---

(١) الدين (٢) السياسة (٣) الادب

عرش الله . ساعة ثم سكرة ثم أعجوبة

أبحث عن ذي العين السوداء ، وذي العين الحمراء ، وذي العين الزرقاء فلا أجدهم بل أسمع مايشبه أصواتهم في سراب ال « كرما » وفي فيافي القضاء والقدر

أنغاماً شجية روحية تذيب الشهوات أشواقاً ، وتحوك للنفس أحجبة من خيوط الشمس وتغرس لها طريق الفرقدين أزاهر سرمدية ولكني ، وأسفاه ، استغرب هذه الأنغام اليوم ولا أستحبها ، وبالأخص عندما أطالع ، يا فتى الغرب صحافة بلادك الفضاحة التي تنبئني بما لطياراتك من الصولة والاقتدار ، وكيف يمكنها ان تنسف أساطيلك البحرية وتبيدها

— ٦ —

أنا الشرق
عندي فلسفات ، وعندي أديان
فمن يبيعني بها طيارات ؟
أتحسبها سفاهة مني أو تظنها تجديفاً ؟
قد يكون ذلك ، قد يكون
أنا نفسي أجهل اليوم صوت نفسي
صوت المجالس ، وصوت المنابر ، وصوت الصحافة
أجل أن لي أيضاً صحافة فضاحة يا فتى الغرب
ولي منابر لا ترضى بها آلهة أجدادي

ولكنها منابر جديدة ، حريتها فتاة لا تعرف التمويه فلا تسمعك ما يسرُّ إن لم تجئها بما تريد

وهناك سرٌّ أهمسه في أذنك يا فتى الغرب
ليست الأديان والفلسفات ما تظنها
وليست ما تظنُّ أني أظنها
فلا للحراثة هي ولا للتجارة ، ولا للسياسة ولا للتقشف

إنما الأديان والفلسفات كمصافي الماء
هي مصافي الحياة تصفيها في الأقل من بعض الحشرات والجراثيم

— ٧ —

أنا الشرق
عندي تذوب الألوان كلها وتمتزج
فتماوج نوراً بعضها في بعض تحت ريشة الزمان
ألوان الغروب ، وألوان الفجر ، وألوان الليل السرية . لها كلها أفق واحد عندي ، وبسام واحدة
من الاخضر الناضر لذي النبوة التي تزرع الثريا بذورها
الى الأصفر الفاقع لذي السر الذي يخلع العذر والعذار
الى الأحمر القاني الذي ارادته لا تذعن لبشر أو جن
الى الأزهر الباهر لخيال يسحر الساحرين بياناً
هذا سلم من النفسيات لا تجده عند سواي
وهناك الأرجوان لسفاهة تجلس على العرش ، والزعفران لمجد هوت عروشه والجلنار يتماوج ظلالاً حول عرش الأهواء والشهوات
والرماد المنتثر لما كان في سماء الفكر كوكباً نيراً
والأسود القاتم لدمقراطية شابة تحمل عصا التأديب
والأبيض الناصع لمصرية تحمل غصناً من النخيل
كلها تمتزج في آفاق نفسي ، وتذوب في سماء آمالي وتستحيل خمراً في كأسي
أجل ، ان خمر الأجيال الغابرة ، وخمر الأجيال الحاضرة التي لم يحسن تصفيتها الزمان لتملأ الكأس التي أشربها كل يوم
فتعيد اليّ روح النبوّة القديم المجيد ، وتثير فيّ ألم الذكرى ، وتجدّد فيّ حب الجهاد

حكمة الطبيعة في الثمر

عندما ننظر الى الأثمار الفضة والفضرة والريانة وغيرها كالمشمش والعنب والبرتقال والتين نظن ان هذه الأثمار مقصودة بالذات في الطبيعة ، ونحسب على شدة غرورنا ، أنها انما خلقت لتكون غذاء للانسان . ولكنها في الواقع ليست مقصودة بالذات ،ولا الانسان غايتها الأخيرة بل ان الطبيعة ابتدعتها لغرضين ، الأول وقاية لبذور النبات حتى يتمّ نضجها . وثانياً ان تكون وسيلة لتفريق بذور النبات . فلون البذور والاثمار وشكلها وطرق انشقاق الثمرة كل ذلك مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بأساليب نثر البذور وتفرقها . وأشهر هذه الوسائل مايلي : أولاً ان تكون وسيلة ميكانيكية في قاعدتها ، والغالب ان تكون البذور متعددة في قرن كقرن الفاصوليا او البسلة فينبرم القرن عند نضج البذور وينفتل وينشقُ فتنثر البذور . والثانية ان يكون الماء وسيلة لتفريق البذور وأشهر مثل على ذلك جوز النارجيل او جوز الهند الذي يطفو على النهر. وهناك نبات آخر يدعى زنبق الماء لبذوره نسيج اسفنجي يحيط بها ويمكنها من أن تطفو مسافة غير قصيرة قبل أن تبتل وتغرق . والثالثة ان تكون الريح وسيلة لتفريق بذور النبات . وللرياح المزية الكبرى في ذلك فانها تحمل البذور المعدة من قبل الطبيعة لذلك على عاتقها وتعبر بها الأنهار والبحار. ومن المعلوم ان الرياح لا تستطيع ان تحمل الا الخفيف من البذور أو ما لهُ شعر أو زغب أو أجنحة . ورابعاً ان يكون الحيوان وسيلة لتفريقها . فنها ما يكون حلو الطعم جميل المنظر فتأكله الطيور وتلقي بذوره بعيداً عن امّاته . ومنها ما يلصق بطعام الحيوان ويدخل جوفه ويخرج سليما مع برازه فينمو حيث يقع . وقد روى داروين اثني عشر نوعاً من بزور النبات التي وقعت في بستانهِ من زرق الطيور مدة شهرين فقط فزرع بعضها فأفرخ . وهذا علاوة على ما يلصق بصوف الحيوانات وريش الطيور وقوائمها.وقد روي أن عالماً يدعى الأستاذ نيوتن وهو غير الفيلسوف اسحق نيوتن ، اصطاد حجلاً فوجد برجلهِ كرة من الوحل لاصقة بها فحفظت هذه الكرة ثلاث سنوات ،ثم بلّلت ووضعت تحت أناء زجاجي فنما فيها ٨٢ فرخاً

وكذلك نتبيّن ، ما في الطبيعة من المفاتن والروائع . فاذا سرحنا النظر في الحدائق، ورأينا الأشجار والأزهار والأثمار والبذور والهوام والحشرات والطيور، وكان لنا من القواعد الأساسية في التاريخ الطبيعي عدّة ، نفذنا بها الى ما وراء الظواهر ، وجمعنا الى اللذة النفسية والمتعة الفنية اللتين تختلجان في صدورنا عند ما نشاهد الألوان أو نشم العطور، لذة عقلية مردُّها الى ما نجتليه من الأسرار التي ركّبها الله في الطبيعة من أدنى الكائنات الى أعلاها



العناصر الاقتصادية والصناعية

فى موقف ايطاليا الحربى

ماوراء أسباب الحرب

وما بعد نهايتها

لنقولا الحداد

العناصر الاقتصادية والصناعية

في موقف ايطاليا الحربي

جت ايطاليا من الحرب العالمية الاولى في صف الدول الظافرة ، مع ان حلفاءها ، ان يبعثوا بقواتهم الى ميدانها الشمالي ، ليمنعوا ما كادت تصاب بهِ قواتها من انهيار. وكان ضي أن يردها ظفرها بعون حلفائها دولة راضية، ولو لم تبلغ مغانمها ما كانت تطمح اليهِ. مؤتمر الصلح ردها دولة ناقمة . فهي بحكم العامل الاول يجب ان تؤيد التسوية بعد الحرب الكبرى . الاّ انها بحكم العامل الثاني ، كانت ترمي الى تنقيح معاهدات بغية ان تفوز بما كانت تطمع فيهِ وتطمح اليهِ . ذلك بأن قابليتها أرهفت بالحرب ، بالصلح

ا قام النظام الجديد فيها، نظام القمصان السود ، و« الدولة الكلية » اتخذ زعيمه السنيور ي،من رؤيا شاعر ايطالي مبدع ، أساساً لسياسة خارجية ، كانت الحكمة تقضي بأن تستند ائق والوقائع ، دون أحلام الشعراء . ذلك بأن دانونزيو الشاعر والكاتب الايطالي أنشأ قبل الحرب الماضية مسرحية عنوانها « السفينة » فكانت اعراباً شعريًّا عما يضطرب من رغبة في ان يرى ايطاليا سالكة طريق التوسع الأمبراطوري . فلم تلق عناية كبيرة ب حينئذٍ. الاّ ان الشاعر مجّد البحر المتوسط فيها متخيلاً اليوم الذي يصبح فيهِ هذا يرة ايطالية ، أو « بحرنا » (ماري نوستروم) على ما كان عليهِ في أيام أباطرة الاقدمين

ه الصورة الشعرية اتخذها زعيم النظام الجديد في ايطاليا ، أساساً لسياسته الخارجية تتوافر له العوامل الأساسية التي لا بد من مؤاتاتها وتوافرها لتحقيق هذا الحلم ، فهي هن يديهِ ولا طوع أمره . فكانت النتيجة ، سياسة الطغيان ضد عرب لوبيا ، وخطة على الحبشة ، ثم التدخل في اسبانيا ، ثم احتلال البانيا . وكان يبغي قبل ظهور تلميذه شريكه الأكبر ثانياً في الشمال ، أن يسيطر على منطقة الدانوب . وهذا مدلول عليهِ جمهورية النمسا ركناً من أركان هذه السيطرة ، لذلك قال في خطبة له في ميلانو في سنة ١٩٣٤ بعد انقضاء شهرين ونصف شهر على مصرع مستشارها دولفوس بأيدي النازي : « لقد دافعنا عن استقلال النمسا، وسندافع عنهُ في المستقبل كذلك» . وفي السنة نفسها

قال في خطبة له : « سأوجه انظاركم الى أهداف تاريخية يجب أن يتجه اليها جيلنا التي تليه . هذه الأهداف تحمل اسمين وهما : آسيا وأفريقيا »

ومن ثم ّر نا ببصره الى السيطرة التامة على البحر المتوسط . ففدت اسبانيا ، وآ ومصر ، واليونان ، وشمال افريقيا ، والشرق الأدنى ، أهدافاً لسياسة الفاشيز وخطتهم الحربية . فكان « النظام الجديد » في ايطاليا بهرته صورة الامبراطورية في عهد الامبراطور أغسطس فأراد رجاله ان يبعثوها بعد انقضاء ألفين من السنين

وعندما عرضت الجيوش الايطالية في روما . في مايو سنة ١٩٣٦ ، بعد سقوط خطب السنيور موسوليني في الجماهير من شرفة قصر البندقية فقال : « إن عقبان ا القديمة محلقة مرة أخرى فوق آكام روما التاريخية ».وصنعت الخارطات ووزعت لتَ مجسماً لما يريد ، فاذا هي تحتوي كل أوربا الوسطى والجنوبية الغربية ، والجنوبية وآسيا الصغرى ، والشرق الأدنى ، ومصر ، وشمال أفريقية . وكان البحر المتوسط الخارطة ، بحيرة ايطالية في نطاق هذه الامبراطورية المترامية الأطراف

***

هذه هي صورة الشاعر ، مترجمة في ألفاظ السياسي ، ولكن هل ينهض مر الجغرافي الحربي ، هل يرتفع اقتصادها القومي الى مستواها ؟

تملكت الصورة خيال ايطاليا الفاشستية ، فخرجت سياستها عن حدود العقل وا تريد ان تنشيء امبراطورية واسعة الجنبات ، مترامية الأطراف ، فزاحمت بالمناكب للا بلدان لا تنتج او يتعذر فيها الا نتاج. فالعمال والفلاحون الذين أمّوا الحبشة، تستخفهم الآ الحال وحسن المآل ، لم يلبثوا طويلاً فيها ، حتى بدأوا يعودون ، وأمائر الخيبة م جباههم . كان عددهم فيها في مارس سنة ١٩٣٧ مائة وخمسة عشر ألفاً ، فلم يزد في السنة التالية (١٩٣٨) على ثمانية وعشرين ألفاً لا غير . أما في لوبيا ، فالارهاب الا فرّق شمل السكان ، وأما أسبانيا ، فلها من تاريخها المجيد ، وتقاليدها العريقة ، وط ما يمنع أقدم دولة مستعمِرة في أوربا ، ان تصبح مستعمَرة لأحدث دول أوربا الكبير مهما نموه الصلة بين الدولتين وتطلّ وتزوّق . وسائر بلدان البحر المتوسط على هذا

والخطأ الأساسي في كل هذا المسعى ، هو التطلع الى انشاء امبراطورية عظيمة م سواحل البحر المتوسط ، بغير ان يكون مركز هذه الامبراطورية ، متقلداً سيادة هـ أو مالكاً زمام العناصر اللازمة لهذه السيادة

نة ١٩٣٨ أعربت ايطاليا ، اعراباً لاريب فيه ، عن أغراضها المباشرة في هذا البحر وشمال أفريقيا الفرنسي . وقد طالبت بتونس وكورسيكا ، لأنهما تمكنانها من مواقع سيطرة التامة المطلقة على وسط هذا البحر فتمنع في حالة حربٍ الاتصالَ بين غربه ي ان ايطاليا ترمي الى قلب ميزان القوى في البحر المتوسط قلباً تامّـاً باخراج فرنسا نه

ن تحقيق غرض من هذا القبيل يقتضي « حرباً كلية » وان خوض ايطاليا حرباً بيل ، يثير مسائل متعددة في مقدمتها مسألتان :

— ما هي الموارد المادية والاقتصادية والصناعية التي تعتمد عليها دولة تنوي ان تأخذ على خطيراً هذا مداه ، وهو عمل يقتضي قوة عظيمة في البر والبحر والجو ، ومن ورائها والمناجم والمزارع

— ما تأثير سياسة خارجيـة من هذا القبيل ، وحرب كلية من هذا النطاق ، في حالة خلية

***

حث الدقيق المنزّه عن الهوى ، يدل دلالة قاطعة على ان البون شاسع والفرق عظيم اف المتوخاة ، والقدرة اللازمة لتحقيقها . وفي هذا قبل غيره يجب ان تلمس حيح لسلسلة النكبـات التي أصيبت بهـا ايطاليـا او الحوادث التي حدثت فيها في نير

نوة الحربية التي تتمتع بها دولة عظيمة في هذا العصر تنهض على ثلاثة أركان اقتصادية رئيسية : : صناعات ثقيلة وافية . ثانياً : موارد كاملة أو قريبة من الكاملة للخامات الصناعية تعددة . ثالثاً : الصناعات الهندسية . فلنلق نظرة عاجلة على كل منها على حدة

، الصناعات الثقيلة ، الفحم ، والحديد الصب ، والصلب . وللفحم شأن خاص ، آخذ ع ، على الرغم من احلال البترول محله في السفن التجارية والحربية ، ومركبات ديزل لات الحديدية . فلا غنى عنهُ في صناعة الحديد ، ولا غنى عنهُ وقوداً في كثير من لكبيرة . وقد أخذ شأنه يسمو في العهد الأخير ، لاستعماله واستعمال قطرانه في صنع الكيميائية ، مثل البترول من الفحم ، والأصباغ من القطران وهكذا . وموارد ايطاليا أقل من موارد أية دولة كبيرة أخرى في أوربا منه ، بل أقل من موارد أية دولة رى تنتج الفحم على الاطلاق . وانتاجها منهُ يبلغ مليون طن في السنة بينما بلغ لمانيا سنة ١٩٣٨ ، ٢٣٢ مليون طن ، والمانيا ١٨٦ مليون طن ، والاتحاد

السوفيتي ١٣٠ مليون طن ، وفرنسا ٤٥ مليون طن . فانتاج ايطاليا اقل من نصف المئة من انتاج بريطانيا وأكثر قليلاً من نصف واحد في المئة من انتاج ألمانيا . و الى الدول الاخرى وجدنا انتاج بولونيا يفوق انتاجها ثلاثين ضعفاً وكذلك انتاج وانتاج تشيكوسلوفاكيا يفوق انتاجها ٢٠ ضعفاً ، وانتاج هولندا عشرة اضعاف

وحاجة ايطاليا في السنة العادية الى نحو ٢٠ مليون طن من الفحم في السنة فانتاج من حاجتها اكثر من ٥ في المائة

وأدهى من ذلك انها كانت تستورد ما تحتاج اليه من بريطانيا والمانيا وبولونيا ، أوصد البحر في وجهها كما اوصد الآن ، فيجب ان يكون النقل بسكك الحديد . والسـ في اوربا لا بد ان تكون في حالة حرب ، مرهقة بنقل اشياء كثيرة ، علاوة على تعر والتعطيل بفعل قنابل القاذفات . فلا يبقى امام ايطاليا في حالة كهذه الا ان تعاني القل حيوية كهذه المادة

أما انتاج ايطاليا من الحديد الصب في سنة ١٩٣٨ فبلغ ٥ في المائة من انتاج الم في المائة من انتاج بريطانيا . و١٤ في المائة من انتاج فرنسا . وكانت كل من بلجيكا وبو لـكسمبرج ، تفوقها فيه . وانتاج الصلب يماشي ما تقدم . فانتاجها منهُ في سنة ٩٣٨ في المئة من انتاج المانيا و١٢ في المئة من انتاج روسيا . و٢٢ في المئة من انتاج بريطا ما تنتجه ايطاليا من الحديد الصب والصلب لا يعطي الا ثلث ما تحتاج اليه منهما عل وما يصدق من شؤون النقل وعقباته على الفحم ، يصدق بوجه عام على الحديد فالأساس الذي تقوم عليه الصناعات الثقيلة فيها ، واه لا ريب في ذلك

***

أما فيما يتعلق بالركن الثاني ، وهو موارد الخامات الصناعية والحربية ، فليس أحسن حالاً منها فيما يتعلق بالفحم والحديد والصلب . فهي تحتاج الى استيراد كل ما تستهلكه من البترول ومشتقاته ، والمطاط ، ومعادن اخلاط الصلب اللازمة للصناعة وكذلك خامات صناعة المنسوجات كالصوف والقطن . ومعظم هذا الذي كانت تسـ يجيئها على الأكثر عن طريق قناة السويس ، او جبل طارق ، وهو الأكثر او من البحـ عن طريق الدردنيل وسائر بلدان البحر المتوسط . ومعظم هـذا قد قطع الآن بـ البحري . ولا ريب في ان الحكومة عمدت في خلال التسعة الأشهر الأولى من هذ عندما التزمت موقف دولة غير محاربة ، الى تخزين ما طالته من الخامات الصناعية ولكن كل مخزون الى النفاد ، ولا سيما ان قدرتها على التخزين كانت محدودة بقلة

أجنبي لتوفية الثمن. وتعويض معظم مايعوزها مما قطع عنها متعذر اوصعب، لأن منها مواد
أراضي جاراتها على بر القارة الأوربية ، كالمطاط ومعظم معادن الاخلاط ، ولأن
الحديد خاضع لما سبق القول فيه من ارهاق السكك الحديدية وتعرضها للعرقلة بفعل
ذفات

ركن الثالث وهو الصناعات الهندسية ، فالايطاليون يجيدون فيها، ومصانعهم تصنع السفن
الحربية والسيارات والطائرات وقاطرات السكك الحديد ومركباتها . ولكن انتاج
عات محدود في حالة الحرب بحدود قلة الخامات اللازمة وقد تقدم ذكرها

ف الى كل ما تقدم ان تفرق البلدان التي يجب ان تدافع عنها وراء البحار ، يجعل كل
بات التي تحميها ، او التي تنوي ان تستعملها قواعد للهجوم على غيرها ، مرتبطة بقدرتها
البحار ، لان النقل الجوي وحده لا يكفي الا لنقل عدد محدود من الرجال ، ولا بد
على نقل الاسلحة الخفيفة . اما مقادير الزاد والماء الكبيرة ، أما الأسلحة الثقيلة من
ضمة ودبابات وما اشبه ، فنقلها متعذر ان لم يكن على اطلاق القول ، فهو متعذر — او
لشاق — على ايطاليا

هنا نفهم الموقف الحرج الذي زجت فيه جزائر الدوديكانيز بعد نشوب الحرب الايطالية
وإتاحة كريت قاعدةً للسفن الحربية والطائرات البريطانية. واستقالة حاكمها العام وقائد
ال ده فكي يفسر بعض التفسير بهذا . ومن هنا كذلك ماروى عن احجام المارشال
عن الهجوم الذي مهد له بتقدمه الى سيدي براني . وأخيراً عجزه عن الاحتفاظ بهذا
ا بذل جهداً عظيماً ونفقة كبيرة في تحصينه وتحويله معقلاً منيعاً . أما القوات الايطالية
والاريترة ، فخذلانها رهن بنفاد جانب مما خزن فيها من سلاح وذخيرة ، لأن صلة
ليا مقصومة الا عن طريق الجو

الحرب الفنيون يدركون قيمة هذه الحقائق في كل تأهب حربي ، والشعب يحسها
فطرته وبقليل من تبصره، ولذلك كان الشعب راغباً عن خوض غمار الحرب، والقيادة
مة عن الموافقة على بعض نواحيها . ولكن الحكومة تأخذ بالاعتبارات السياسية ،
التقدير النفسي ، ومجال الخطأ في هذه النواحي واسع ، ومن هنا تقع التبعة عليها ، فيما
على اسناد جبال البانيا، وفي رمال صحراء مصر الغربية، وفي دوائر الجيش والاسطول
س الشعب ونفوس الناس (١)

ما وراء اسباب الحرب

وما بعد نهايتها

لنقولا الحداد

وراء الاحداث الظاهرة التي نراها عوامل طبيعية سببية قد لا نراها وانما نستدل
تتبعنا سلسلة المسببات والاسباب . مثلاً نرى المطر ينهمل بعد انخفاض درجة الحرار
البارومتر ينبئنا بكثافة الجو . إلاّ أنّ هناك سبباً اقصى وهو اقتراب الارض في فلك
الذنب حيث تكون أبعد عن الشمس . فالحرارة الواقعة من الشمس عليها تكون اقل ف
ويسقط بخار الماء الذي فيه مطراً

والاعتقاد الشائع بناء على الظواهر الاجتماعية ان بذرة الحرب الحالية زُرعت
فرساي . ولهذا كان هتلر كلما رام أن يهيج غضب الشعب الالماني يضرب على وتر ة
أفضت اليها الحرب السابقة . فمعاهدة فرساي كانت نتيجة الحرب السابقة التي أثار
نفسها وانغلبت فيها فعوقبت بتلك المعاهدة . فليس لهتلر ان يتذمّر منها

دعنا من هذا الجدال . نسلّم أن معاهدة فرساي سببت هذه الحرب الحاضرة .
سبّب الحرب السابقة التي افضت الى معاهدة فرساي ؟ قد تردّ سببها الى حرب ا
انغلبت فيها فرنسا فأملى بسمرك حكمه عليها في فرساي نفسها . ثمّ ما الذي ..
السبعين ؟ اذا تماديت في التعليلات التاريخية فلا تقف عند سبب تعدّه سبب
للحروب المتعاقبة بل تجد سلسلة او سلاسل من الاسباب لا اول لها حتى ولا مقتل ..

كل حرب مصحوبة بتطور اجتماعي جديد

اذا راجعت تواريخ الحروب منذ القديم الى الآن ودققت في طبيعة البواعث لها
وجدتها مصحوبة بتطورات اجتماعية أو سياسية متجدّدة أو مستجدّة . والنُّظُم الأ..
والقوانين الدولية ايضاً انما هي صور هذه التطورات . كان نظام المشيخة عند بني ا..
توغّلهم في ارض الميعاد نتيجة لحروبهم مع الكنعانيين . فقد رأوا ان نجاحهم
وفي حياتهم الاجتماعية لا يكون الاّ بنظام حكم الشورى فاتخذوه

ونظام الاقطاع لم ينشأ ويعم اوربا الاّ باستمرار الحروب بين ملوكها تنازعاً لبسـ

اولئك الملوك ليحصلوا على جنود الاً بواسطة قوّاد امراء حرب. فكان الملوك يُقطعون لامراءِ القواد الامارات لكي يجمع هؤلاء لهم الجنود ويجبوا لهم الاتاوات للإنفاق على . وما انقطع دابر الاقطاع الاً لما نشأت طبقة الصناع واهل الفنون والتجار. فقلّ في املاك الامراء واضطرّ هؤلاء ان يبيعوا املاكهم وطفقت ثروة الاراضي تتوزع ملين رويداً . ثم شرع نظام الاحكام الفردية المطلقة الاستبدادية ينهار، وطفق نظام الشعبي (الديموقراطي) يقوم مقامه تدريجيّاً. جميع هذه التطورات الاجتماعية كانت مصحوبة ، طاحنة . وما انتهت حرب الاً بتطور اجتماعي جديد كانت تهيؤه « روح الاجتماع » ، عوامله على اثارة الحرب لكي تهدم النظام القديم وتبني على انقاضه النظام الجديد نعني بروح الاجتماع اختمار عقول الجمهور بفكرة واحدة أو عقيدة واحدة أو مبدأ سياسي سادي واحد كفكرة الديموقراطية مثلاً. وشيوع فكرة ما أو عقيدة ما في الجمهور يحدث ، مختلفة لا محل لتفصيلها هنا . (نوجه انظار القراء اليها في كتابنا علم الاجتماع)

كلما تغيرت العوامل الاجتماعية بما يستجد من مبتكرات العقل البشري التي تتغير بها مجاري الاجتماعية والفردية كالمخترعات ونحوها حدث تطور جديد في النظم الاجتماعية . ولا ن يحدث هذا التطور الاً بهدم نظام قديم وبناء نظام جديد . والحرب هي معول الهدم لك لأن النظام تقليد (Tradition) اجتماعي . فاذا التقى التقليد (النظام) الجديد بالتقليد تصادما حتماً . لأن التقليد القديم عنيد لا يسلم للجديد بسهولة بل يقاومه بعنف وشدة ، ينصرع أحدهما . ومعنى هذا ان للتقليد القديم انصاراً يناضلون عنه ، وخصومه هم انصار الجديد . فيحاولون هدم القديم . ويقع القتال بين الفريقين . فان فاز انصار الجديد القديم وبنوا جديدهم على انقاضه . والاً بقي القديم حيناً آخر الى ان يكثر انصار الجديد ووا أو يستأنفوا القتال

ثال ذلك الديموقراطية قامت خصماً للحكم الفردي المطلق منذ عهد طويل . وانما كان ها أضعف من أنصار الحكم الفردي ، فلم ينجحوا في جهادهم ضده الاً بعد ان كثروا ووا . وحاصل القول ان المجتمع في خلال تطوره يحبل بنظام جديد تلقحهُ بهِ « روح اع » هذه التي نحن بصددها . والحرب انما هي مخاض المجتمع بالنظام الجديد

لحرب الماضية تمخضت بجامعة الأمم لأن العوامل الاجتماعية التي سبقتها كانت تعد الأفكار لجامعة كضمان للسلام . وقد سبقتها محكمة العدل في الهاي ، ومؤتمرات سلام متعاقبة. وكانت هذه نظماً غير ناضجة فما نجحت . وتمخضت حرب البوير باتحاد مستعمرات جنوب ا . وحرب تحرير اميركا الشمالية تمخضت باتحاد الثلاث عشرة ولاية الأولى التي كانت

في ذلك الزمن تحت السيطرة الانكليزية . فلننظر في ضوء هذا الشرح فيما هو السبب المتواري وراء الأسباب الظاهرة لهذه الحرب . وفيما هو النظام الجديد الذي تتمخض

هل السبب « نريد ان نعيش »

المحرض الطبيعي لاي حرب هو الحرص على حاجيات الحياة . ما الحرب الا تنازع (تنازع البقاء) . البواعث الأولى لاية حرب انما هي اقتصادية اولا . هتلر يقول مستعمراتنا لكي نعيش » . موسوليني يقول « بلادنا ضاقت بنا نريد التوسع (الاستعمار) لكي نعيش » . الدعوى صادقة الى حدٍ ، وكلٌ منهما يتذرع بها الى كرسي لا الى رفاهة قومه، لأن قومه لم يترفهوا حتى الآن ، بل هم في ضنك من الجهاد في الا شظف العيش . صراخ العمال العاطلين قبل الحرب الماضية وبعدها « نحن جياع لكي نأكل » يؤيد صدق تلك الدعوى ظاهراً او الى حدٍ ما

كان هتلر في خطبه النازية يستثير العامة بصراخه : «ان معاهدة فرساي التي اخذ المانيا مستعمراتها كانت سبب بطالة العمال» وكان يلم حوله جمهور الغوغاء بوعوديبذلها لهم بأ المستعمرات ويسر الأعمال للعاطلين . ولما نجح في الوصول الى كرسي الحكم صار يمني الا أيضاً بتيسير الوسائل لهم لتثمير أموالهم . وهكذا خدع العمال وتملق أصحاب الاموال اذ الفريقين للتسلح

دعنا من شعوذة هتلر التي استمكن بها من القبض على عنق أمته ولنبحث في السبب لصراخ الغوغاء الجائعين في طلب الرزق . أحقيقي أن بلادهم ضاقت بهم وشحّ ا

هل كانت المانيا بالحقيقة فقيرة ؟ هل كانت ايطاليا في فاقة حقيقة ؟ حتى لا يبقى في لفريق العمال ؟؟ إذن ، من اين جاءت تلك المعدات الحربية الهائلة ؟ أربعة آلاف منها قلعة متحركة ، ملايين المدافع الضخمة ، ملايين ملايين القنابل ، اسطول ، مائة غواصة ، ٤٠ الف طيارة ، ثمانية الى عشرة ملايين جندي مدججين بالسلاح . نا الملحقات التي لا تحصى اللازمة لهذه المعدات من مؤونة وملابس ومطارات وحياض اليست كل هذه ثروة عظيمة ؟ أما كانت تكفي العمال عاطلين وغير عاطلين خبزاً ولحماً تمتعاً بملذات الحياة كل هذه العشرين سنة التي مضت بعد الحرب السابقة ؟ أما كانت تمكن أن يعيشوا في يسر وبحبوحة من العيش بجهاد أقل وفي هناءة أعظم ؟؟؟

بلى . وانما انفقت جهود العمال في سني هتلر النازية في الاستعدادات الحربية الهائلة لتخلص المانيا (وايطاليا مثلها) من الفقر والجوع — فما هي جائعة — بل لكي يتهدّ

الاجتماعي في أوربا خاصة توطئة لنظام آخر أصح ، لأن النظام الحالي لم يعد موافقاً
ىناعي العظيم ولا مجارياً له

ير القضاء الاجتماعي

، من يجهل قط ان النظام الاجتماعي الحالي كان سبب بطالة العمال ،وكان سبب الأزمات
ية المتوالية ، وليس من يجهل ان النظام الحالي كان سبب تقلقل السلام وسبب تعاقب
حيناً بعد آخر . فهذا النظام هو نكبة البشرية الآن . وهذا النظام المرضوض خوّل
مفتون مثل هتلر ان يرتقي الى سدة الحكم في أمة عامتها مثله لا يفقهون أي
ـكبون
هناك وراء هذه الحوادث الاضطرابية التي قوضت بناء الأمن والسلام « يد القضاء
ي » التي سخرت هتلر وأعوانه ونازيته لتهديم هذا النظام الذي لم يعد صالحاً للمجتمع
وانما لن تخولهم ان يبنوا نظامهم الخاص على انقاضه . فلو لم يقم هتلر لقام مفتون آخر
ه الشنيعة مثله
ـ كان ذلك القضاء ؟
ـت الرأسمالية التي تنازع الحياة العملية البقاء توجس شراً من تذمر طبقة العاملين في
لتهم . كما ان هذه البطالة نفسها سببت تقاعد الرأسمالية عن الاستغلال ورسوب الأموال
ف من غير جدوى
، الفتح والاستعمار هما السبيل للاستثمار . ولا بدّ من الحرب للحصول عليها ، فالحرب
أسماليين وطرين في وقت واحد : أولاً تشغل العمال العاطلين في التجنيد والتسليح
عن تهديد الرأسمالية . وكلا التجنيد والتسليح يحتاجان الى المال المباشر . فالمتمولون
الظرف الذي يثمرون فيه أموالهم ، ومعامل التسليح في المانيا وايطاليا كافية لتشغيل
مال اشتغلوا والتهوا عن التذمر والشكوى والثورات. والمتمولون وجدوا الظرف المنشود
والهم

اختلال التوازن في نظامين

توازن النظام الاقتصادي قد اختلّ واضطرب أيما اضطراب بسبب نزول الآلات
؛ الى ساحة العمل إذ امتطاها الماليون ورفسوا الجانب الأعظم من العاملين الى الوراء
لانتاج واستغله الماليون ، ولم يفضل منهُ للعاملين شيء يسد الرمق

ثم ان النظام الاستغلالي نفسه خوّل ذوي الأموال الوافرة احتكار الاستغلال ووراثهم المتمولين الصغار ، وهكذا أصبحت التجارة نصيب كبار الماليين. وحثالتها نصيب والعمال . فهبطت كفة الميزان بالماليين وارتفعت بالعاملين . اختلّ التوازن الاقتصاد اختلاله سبباً لاختلال الأمن وتقلقل السلام

ليس هذا فقط . بل هناك نظام آخر أخرق أيضاً عاون النظام الاقتصادي (على قلقلة السلام ، هو النظام السياسي المتداعي — متداع لأن التوازن السياسي ا كان يحميه من السقوط الى أجل قصير قد زال . زال بسبب زوال التوازن الاقتصا اختلّ ذلك التوازن السياسي في معاهدة فرساي

وكان من نتائج اختلال هذا التوازن ان التعصب للوطنية اشتدّ واضطرم . الكتلة « الأممية » التي يسميها الأجانب انترناشينالزم Internationalism بعد ان تتجمع بها الأمم وتتكتّل . اشتدّ الحنق والحقد بين الأمم . أقيمت الحواجز الممالك . تعذر الاختلاط بين الشعوب على الرغم من توافر وسائل المواصلات. تعرقلت التجارية . تعرقلت بسببها وسائل الانتاج . تعقدت المعاملات الداخلية والخار الضائقات الاقتصادية . علا النداء للقتال في سبيل الاستعمار. اشتدّت المخاوف بين ال الأمن الدولي خيالاً لا قوام له. أصبحت العلائق الدولية تهدد العالم كله بالحرب المدمرة تزايدت الضرائب لاجل نفقات التسليح — حدثت الحرب التي كانت الدول تتخوف

لماذا ؟

لان النظام السياسي الحالي كالنظام الاقتصادي أصبح مزعزعاً، لانهُ قائم على ا الذين يعانون من عدم صلاحيته بل من عسفهِ . فهم يبتغون ان ينفضوه عن عواتق الانتفاض هو الحرب التي تدكه الآن الى الحضيض

روح الاجتماع تنتفض

اذن هذه الحرب لم يثرها بالحقيقة لا هتلر ولا موسوليني . بل هما أحقر من اثارتها . وانما هناك يدخفية أثارتها من وراء الستار. هي يدُ «روح الاجتماع» التي هذا النظام الاجتماعي الخانق لها . فهي تدمّر هذا النظام الذي لم يعد مصاقباً للتقد العام — التقدم الصناعي والاقتصادي والاداري . تدمّره لكي تمهد الأساس لنظام يُجاري الميول الانسانية الجديدة وتطمئن فيهِ روح الاجتماع نفسها

و هذا النظام الجديد ؟
لجانب الاقتصادي منهُ فأصبح متداولاً على ألسنة الطبقتين : الطبقة المسماة بالوسطى زي) وطبقة العمال. وهم يتصايحون بهِ من قبل الحرب السابقة الى الآن . وقد شرعت ل تتقلده منذ شروعها بالتأهب للحرب . فالمانيا وضعت جميع مرافق الامة من مصانع مشروعات صناعية تحت سلطة الحكومة. وهذه تتحكم بدخلها وخرجها وتنفق منتجاتها مدادات الحربية . وايطاليا على غرارها
تحققت انكلترا ان هتلر يجدُ ولا يهزل فعلت كذلك . فسيطرت الحكومة بموافقة البرلمان لشروعات الانتاجية في البلاد على اختلاف انواعها لكي تستغلها لحساب نفقات الحرب ثلاث دول كانت مقاومة للنظام الاشتراكي ، والآن تلجأ اليهِ بعينهِ لتستعين بهِ في الحرب.
في هذا الاتجاه ان الأمة كتلة واحدة متضامنة الأجزاء أو هي شخص واحد (Or متضامن الأعضاء يجب ان تشترك جميع ذراته في العمل لحياته وبقائه — والدفاع و نوع من العمل
ـاً للحرب التي غصبت هذه الحكومات على تقلد النظام الاشتراكي . ولكن، وأسفاه، ن روح الاجتماع من الاشتراكية تبديد مجهودات الأمة في معدات القتال . بل بغيتها ؛ جميع اجزاء الامة في الانتاج وفي التمتع بثمرات هذا الانتاج على السواء . فاذا ذا النظام في هذه الدول حتى بعد الحرب لهذا الغرض كان من شر الحرب شيء من الخير

الاتحاد الدولي

: الى الجانب الاداري من النظام الجديد الذي ترمي اليهِ روح الاجتماع ونعني بهِ النظام ، فهو انضمام الدول في اتحاد واحد عام كانضمام الولايات المتحدة الاميركية والولايات بة وولايات جنوب افريقيا وولايات كندا
مشروع عظيم الشأن . ولا ريب في ان روح الاجتماع ترمي اليهِ من قبل الحرب السابقة . ك الحرب تمهيداً له فتمخضت بهِ وولدت « جامعة الأمم » . ولكن وأسفاه ولدت سقطاً أمم » لا « جامعة الأمم » ولذلك لم يطل عهد السلام على الارض . فشبت الحرب الحالية خض باتحاد دولي جديد . فان ولدته سليماً دام السلام على الارض مادام الوليد سليماً ، . وان ولد سقطاً كما ولد أخوه قبله بقي السلام مفقوداً الى أن تتمخض بهِ الهيئة ة في حرب أخرى باتحاد دولي سليم
ع هذا الاتحاد الدولي يتكوَّن في ضمير المجتمع منذ زمان طويل . وقد تكوَّن جثمان

حينئذٍ في القرن الماضي . وفي هذا القرن اتضحت صورته في فكر المجتمع
تألفت جمعيات له بعد الحرب الماضية في أميركا واوربا منها ما يعرف باسم « جمعية
الجديد » ومنها باسم « حرية الانسان » . وفي هذا العام أو ماقبله تألفت جمعية باسم
الممالك « Federal Union . ولها مقرٌّ في انكلترا بهذا العنوان : — --
Federal Union 44 Gordon Square London W. C. 1
لمن يشاء ان يستمد معلومات منها عن حركة هذا المشروع العظيم
وقد قرأت بضعة كتب في هذا الموضوع تبسط البراهين السديدة على امكان تحقيق
الاتحاد و تشرح كيفية انعقاده ، وتفند حجج أضداده الى ما هناك مما يحف بالموضوع
وجميع الباحثين في الموضوع يدعون الى اتحاد جميع الدول على نمط الاتحاد الأ
و « جمعية الفدرالد يونيون » تدعو جميع الدول الديموقراطية الكبرى الى إنشاء هذا
أولاً ، ثم يرحب الاتحاد بكل دولة تريد الانضمام اليه
وقد اقتبست الجمعية المذكورة له دستور الولايات المتحدة الأميركية نفسه بتعديل قلي
يطابق الحالة الدولية العامة
والقرّاء يذكرون جيداً ، والعهد قريب ، ان بريطانيا العظمى كانت على أهبة
نواته هي وفرنسا معاً إذ أعلن مشروع انضمام انكلترا وفرنسا في دولة واحد
حكومة واحدة وميزانية واحدة الخ . ولكن فرنسا انهارت قبل ان يخرج هذا المشرو
الى حيز الوجود
والآن يتملق هتلر العالم أجمع بمشروع تنظيم اوربا على نمط الاتحاد الفيدرالي (كما ي
ولكن لسوء حظه وحظ العالم انه لا دول اوربا ولا العالم بأسره يثق بنظام يخرج من دما
مهما يكن شكله
وحاصل ما تقدم ان سبب هذه الحرب ليس السبب المباشر الذي يتراءى لنا وهو العد
المانيا وايطاليا من ناحية وانكلترا وفرنسا من ناحية أخرى . وانما هو تداعي النظام الا
القديم (اقتصاديًّا وسياسيًّا) واشتياق روح الاجتماع الى نظام اتحادي جديد تشم
جميع الامم على قدم المساواة ، والى نظام اقتصادي جديد يتمتع بهِ جميع الافراد بنتاج أ
فان تمخضت هذه الحرب بهذا النظام الجديد دام السلام على الارض ما دام
الجديد سليماً غير مريض ، والاَّ كانت نهاية هذه الحرب هدنة قصيرة الأجل تعقبها حرب
أفظع قد تتمخض بهذا النظام او لا تتمخض بهِ ، أي انهُ لا يستتب السلام على الار
بقيام هذا النظام . ومن يعش يره

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور



نقلها الى العربية : كامل محمود حبيب

الإهداء

— إلى الذين داخوا في ظلمات الضلالة لا يهتدون

— إلى الذين أفنوا العمر يفتشون عن الحقيقة فينأون عنها وهي إلى جانبهم

— إلى الذين ضعفت عقولهم فتخبطوا وراحوا يعبدون الشيطان على طريقة الصا

— إلى الذين تفرقوا بَدَداً بين الدين والفلسفة فخسروا الدين وعموا عن الف

— إلى الذين أضناهم الجهد وأكدّهم النصب فآمنوا إيمان العجائز

— إلى الذين أحبوا الجمال والجلال في الخالق سبحانهُ وتعالى

— إليهم جميعاً أهدي بعض عقل طاغور الصوفي ليذكر قلبٌ أو يخشى

كامل



قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ١ —

مُرْني فأقطف ثماري وأحملها الى فنائك في سلال ملأى ، ولو ان بعضها والبعض لم ينضج بعد

فالموسم يبدو مسرعاً بفيضها ، وهنا ناي الراعي الحزين تحت الفيء

* * *

مُرْني فأبحر على النهر

إن رياح مارس المتناوحة تداعب الأمواج الفاترة فينبعث منها أنين

لقد آتت الحديقة أكلها ، وفي الأمسيات الكليلة يبلغني نداؤك صادراً من دارك ... من لدن الشاطىء المنغمر في الغروب

— ٢ —

في ريّق الشباب كانت حياتي كزهرة ... زهرة نزلت عن ورقة أو ورقتين ثرائها حين أقبلت أنفاس الربيع تداف لدى بابها تستجدي ، ثم لم تستشعر فقدها والآن ، حين أوشكت نضرة الشباب تذوي ، أصبحت حياتي كثمرة ... ثمرة بد ما تضن به ، وهي تنتظر لتهب نفسها كاملة وما تضم عليه من حلاوة

— ٣ —

أفيضم مهرجان الصيف الأكمام اليانعة فحسب ويذر الأوراق الذابلة والأزهار الذاوية

أفيوقع ألحانه على نغم الأمواج المرتفعة فحسب ؟

ثم لا يرتل ترانيم الأمواج الهابطة ؟

إن الجوهر يزين بساطاً يقف عليه مليكي ،وهناك حصوات صابرة تترقب لمسة من ق
وقليل ممن يجلسون بازاء سيدي هم الحكماء والعظماء ، ولكنهُ يلم الحقو
ذراعيه ، وهو اصطفاني لأكون خادمه الى الأبد

— ٤ —

حين استيقظتُ في الصباح ألفيتُ رسالته
فما استطعت أن أفك رموزها لأنني أميّ
سأذر الفيلسوف وحده يجلس الى كتابه ، ولن أفزعه ، فمن يدري
لا يستطيع ان يفتح مغاليق هذه الرسالة

* * *

دعني ألمس بها جبيني وأضمها الى صدري
وحين يهدأ الليل ، وتتراءى الكواكب كوكباً كوكباً ، أنشرها على
وأجلس في صمت
إن حفيف الأشجار سيقرؤها لي في صوت مرتفع،والغدير المتدافع سير
والأفلاك الحكيمة السبعة ستوقع لي لحنها في ضمير السماء
لا أستطيع ان أجد ما أفتش عنه ، ولا أستطيع ان أفهم ما أريد ان أ
غير أن هذه الرسالة التي لم تقرأ خففت من أثقالي ، وأحالت خواطري الى

— ٥ —

إن قبضة من تراب تستطيع ان تطم على آثارك حين لا أدرك معناها
لقد قرأتها من أسطر الغيب لأنني الآن أرجح عقلاً من ذي قبل
إنها منقوشة على أوراق الزهر ، وهي تلمع بين زبد الموج ، ثم هي
فوق قنن التلال
لقد طويت وجهي عنك ، لهذا قرأت رسائلك الملتوية فما وعيت منها ش

— ٦ —

حيث الطريق لاحب ، ضللت أنا السبيل
إن طريقاً لم يخطّ على صفحة الماء المنبسط ، ولا على السماء الزرقاء
ولكنهُ يتوارى تحت أجنحة الطير،وفي وهج النجوم،وخلاف الفصول
وأنا أسأل قلبي : أيحمل في دمه حقيقة الطريق الذي لا يرى

— ٧ —

وا أسفاً ! إني لا أستطيع ان أتلبث في داري،فأنا أصبحت غريباً عن وطني،
(الغريب) الأبدي يناديني وهو يدلف على الطريق
إن وطء قدميه يصك صدري ، فيؤلمني !
وإن الرياح تثور والبحر يزجر
وأنا أطوّح بشواغلي وشكوكي لأنطلق الى المهرجان اللامكاني. لأن(الغريب)
ني وهو يدلف على الطريق

— ٨ —

كن على الأهبة لأن تنطلق على سفنك ، يا قلبي ، ودع سواك يتلكأ
لأنك نوديت من جانب لمة الإصباح
فلا تنتظر شيئاً

* * *

إن غاية الكمّ أن يجد الليل والندى ، أما الزهرة المتفتحة فتجنّ إلى حرية
حطم قيودك ، يا قلبي ، وتعال الي

— ٩ —

حينما كنت أضطرب في أضعاف كنزي المدّخر ، كنت أشعر كأنني حشرة
ب في الظلام وتتغذى على الثمرة التي فيها ولدت
ثم نزعت عن سجن الفناء هذا
فأنا لا أطمئن إلى السكون المضني لأنني أفتش عن الشباب الأبدي ،
لل من كل ما يناقض حياتي ، ومن كل ما لا يشع رقة كما تفيض ابتساماتي
لقد جُست خلال الزمن ، وفي عربتك — يا قلبي — شاعر يرقص ويغني
في رحلته

— ١٠ —

أنت جذبتني إلى جانبك ، واجلستني أمام الناس في مقام عالٍ فاعترتني هزة
ف ، فما استطعت أن أنهض لأنطلق الى غايتي ، وبدت في خطواتي سمات الشك
ية ، خشية أن أدوس على شوكة من أشواك احتقارهم

وأخيراً وجدتُ حريتي

لقد بلغتنا الصيحة ، وارتفعت نقرات ناقور الإنذار ، ثم انحطَّ مجلسي ال

التراب وانفرج أمامي الطريق

* * *

لقد كانت رغبات السماء تضطرم في جَناحيَّ

فاندفعت أريد أن أصاحب نجوم السُّدفة ، وأن أنغمس في الظلام الدام

إنني كسحابة صيف تلفها عاصفة ، فهي حين تلقي بتاجها الذهبي تسل صاع

كالسيف على سلسلة البرق

وفي ساعة المرح الطائش ، أنطلق أنا على طريق الهوان الترب ، لأكو

الى جانبك فأحييك التحية الأخيرة

* * *

الطفل يجد أمه حين ينفلت من بطنها

وأنا حين فصلت عنك ، حين نأيتُ عن دارك، وجدتُ القدرة على أن أنظ

إلى وجهك

— ١١ —

هذه القلادة المحلاة تزينني لتهزأ بي

إنها تسحقني حين أعلقها في عنقي ، وهي تخنقني حين أحاول أن أحطمها

وهي تعصر عنقي ، وتطم على أغانيَّ

* * *

أفأستطيع أن أهبها لك ، يا إلهي فأجد الأمان

خذها ، وعوِّضني عنها بأن تصل بينك وبيني بحبل من الزهر، لأني أستش

الخجل حين أقف أمامك وهذه القلادة المحلاة في عنقي

— ١٢ —

هناك في المنخفض ينساب نهر الجومنا في هدوء وصفاء ، ومن فوقه يشرف

الشاطئان في عبوس

والهضاب تنسدل عليها ظلماء الغابة ، ومن حوالها تلتف آثار السيول

هناك ، على الصخرة ، جلس جوفندا ، الأستاذ الأكبر ، يقرأ الأساطير ،
أقبل تلميذه راجونات فخوراً بثرائه . . . أقبل فانحنى ثم قال « لقد جئتك بهدية
فيرة لا تستحق منك القبول

* * *

قال ذلك ونشر على عيني أستاذه سوارين من ذهب رصعا بالأحجار الكريمة
خذ الأستاذ واحداً وأداره حول أصبعه فانبعثت من أحجاره الماسية فنون من
أشعة وعلى حين فجأة أفلت السوار من يده ، واجتاز الشاطىء ليغتمر في الماء

ففزع راجونات صائحاً « وا أسفا ! » ثم وثب الى النهر

واطمأن الاستاذ الى كتابه ، أما المياه فقد ضمت ما أخذت واخفته بين طياتها

انطلقت وحين اكتهل النهار عاد راجونات الى استاذه متعباً يرفض عرقاً

لقد كان يسيطر عليهِ البُهر حين قال « مازلت آمل أن أجد السوار لو أنك
ديتني الى حيث سقط »

فأخذ الاستاذ السوار الثاني وقذف بهِ الى الماء وهو يقول « أنهُ هناك »

— ١٣ —

إن الحركة معناها أن ألقاك كل لحظة ، يأيها المسافر

وأن أغني لحن وقع قدميك

فان الذي تلمسهُ أنفاسك لا ينطلق الى الشاطىء الأمين

بل ينشر شراعاً قويًّا ويركب الماء الهائج

* * *

إن الذي يذر بابه مفتوحاً وينطلق قُدُماً يفوز بتحيتك

إنهُ هو الذي لا يتلبث ليحصي ربحه او ليأسى على خسارته ولكن قلبه يدق
م خطواته لأنهُ يرافقك ... أيها المسافر

— ١٤ —

إن يديك ستحبواني بنصيبي الجميل من الحياة ، هكذا وعدتني

لهذا فنورك يلمع في عبراتي

إنني أخشى أن يقودني سواك حين أخطئك وانت تنتظر على حيد الطريق .
كون قائدي

إني أنطلق الى حيث يحلو لي لكي تجذبك حماقتي الى بابي
لأنك وعدتني بأن يديك ستحبوانني بنصيبي الجميل في الحياة

— ١٥ —

إن لغتك سهلة ، يا إلهي ، وهي على نقيض لغة الذين يتحدثون عنك
إنني أعي حديث كواكبك وصمت أشجارك .
وأنا أثق بأن قلبي سيتفتح كالزهرة ، وأن حياتي أترعت نفسها من ينبوع

* * *

وأغانيك ، كأنها طيور الجهات الثلجية النائية ، تدف تريد أن تشيد أعشـ
في قلبي لتستشمر دفء أبريل ، وأنا أرقب بهجة هذا الفصل في رضا

— ١٦ —

لقد اهتدوا الى الطريق فانطلقوا يفتشون عنك في الزقاق الضيق ، غير
ذهبت أضرب في تيهاء الظلام لأنني كنت في عماية من أخرى
إنني لم أتعلم العلم فيبذر فيَّ غراس الخوف منك في الظلام ، لهذا دلفـ
عتبة بابك في غير رقبة
فأنبني الفيلسوف وأمرني أن أنأى لأنني لم أطل عن طريق الزقاق الضيق
وانقلبت في ريب ، غير أنك أمسكت بي في سرعة ، فانطلق احتجاجهم صا

— ١٧ —

لقد أخرجتُ مصباحي الارضي وناديت « تعالوا ، أيها الأطفال، لأنير
الطريق »
ثم عدت والليل ما يزال في ظلماء ، والطريق من ورائي ساكن . . .
وأنا أنادي « أنيري لي ، أيتها النار ، فلقد سقط مصباحي الأرضي في اا
فتحطم »

— ١٨ —

لا ، ليس لك أن تفتح الكم عن زهرة
هزّ الكم أو ادفعهُ فانهُ يعجزك أن تجعل منهُ زهرة
إن لمساتك تدنسهُ ، وأنت تمزق أوراقه وتقذف بها الى الرغام

ثم لا يبدو اللون ولا ينتشر العطر
آه ، إنهُ لست أنت الذي تفتح الكم عن زهرة

* * *

إن الذي يستطيع أن يفتح الكم يفعل ذلك في سهولة
إنهُ يحبوها بنظرة واحدة فيتدفق رحيق الحياة في عروقها
وعندما يرسل أنفاسه تنشر الزهرة أجنحتها وتخفق في هبّة الريح
ثم يشرق اللون فيها كأنهُ هوى القلب ، وتنبعث من العطر حلاوة خفية
لأن الذي يستطيع أن يفتح الكم يفعل ذلك في سهولة

—١٩—

لقد قطف سوداس البستاني آخر زهرة من زهرات اللوتس استطاعت أن تفلت من بين يدي قسوة الشتاء، وانطلق الى باب القصر ليبيعها الملك

وهناك اعترضهُ سائح فقال له « سلني ثمن آخر زهرة من زهرات اللوتس فأنا أريد أن أقدمها قرباناً للإله بوذا »

فقال سوداس « إذا دفعت جنيهاً ذهبيًّا فهي لك »

فدفع السائح ما طلب البستاني

* * *

وفي هذه الأثناء أقبل الملك يبتغي الزهرة ، لأنهُ كان في طريقه الى الإله بوذا ، أقبل وهو يحدث نفسه « ما أجمل ان أضع عند قدميه زهرة من زهرات اللوتس تفتحت في الشتاء»

وحين قال البستاني انهُ تقاضى ثمنها جنيهاً ذهبيًّا ، قدَّم له الملك عشرة ، غير ان السائح ضاعف الثمن

وتراءى للبستاني الشره الثراء الذي يستطيع ان يظفر به من ذلك الذي يتطاحنان من أجله ، فانحنى ثم قال « إنني لا أستطيع ان أبيع هذه الزهرة »

وفي ظل غابة المانجو الصامت ، بإزاء سور المدينة ، وقف سوداس أمام الإله بوذا ... بوذا الذي ارتسمت على شفتيه سمات صمت الاخلاص ، ومن عينيه شعت علامات السلام كأنها نجم الصباح غسلته أنداء الخريف



فنظر سوداس في وجهه ، ووضع الزهرة عند قدميه ، ثم انحنى حتى مس جبينه الثري

فابتسم بوذا وقال « ماذا تأمل ، يا بنيّ ؟ »

فهتف سوداس قائلاً « اللمسة الضئيلة من قدميك ! »

— ٢٠ —

اجعلني شاعرك ، أيها الليل ، أيها الليل المقنّع !

إن ناساً كثيرين قضوا في ظلامك أجيالاً صامتين ، فدعني أرتل أغانيهم

* * *

خذني على عربتك وانطلق في غير جلبة من دنيا الى دنيا . أنت يا مليكاً قصر الزمان . انت أيها الجمال المظلم

* * *

إن كثيراً من العقول المرتابة تسللت الى فنائك،وجالت في أنحاء دارك المع يفتشون عن هدى

إن كثيراً من القلوب ، التي أصابها سهم المرح المنطلق من يد الله ، تفجر عن أغاني مطربة ترتج لها الظلماء من قرارها

وإن تلك الأرواح اليقظى تحت أضواء النجوم ، تحدق — في دهشة — الـكنز الذي عثرت عليه على حين فجأة

فاجعلني شاعرهم ، أيها الليل ... شاعر صمتك العميق

— ٢١ —

سأتلاقى — يوماً — أنا والحياة التي تتأرّث فيّ ، أنا والمرح الذي يتوار في حياتي . هذا رغم ان الأيام تشوّه طريقي بترابها الغث

لقد عرفتها في لمحات ، وأنفاسها المضطربة تغمرني فتتأرج بها خواطري سا من زمان

سنتلاقى — يوماً — أنا والمرح النائي عني ، المرح الثاوي خلف أسن النور ... ثم أقف في الوحدة الفياضة حيث تبدو الأشياء عارية كيوم خلقت

— ٢٢ —

إن هذا الصباح الخريفي يضنيه فيض النور، فاذا راحت ألحانك تتثاءب وتتفتر
رني نايك ساعة

سأعزف عليهِ لحناً كما ضمني هوًى . . . فالآن آخذه على حجري ، وألمسه
فتي ، ثم أضعه الى جانبي على الحشائش

غير أني سأقطف الزهور في غسق الليل وهدأته لأهيء منها بعض الأكاليل،
أفعمها بالعطر ، وأصلي لها على ضوء المصباح

ثم أقبل في الظلماء لأردّ لك نايك

فتعزف انت عليهِ لحن نصف الليل،على حين يضطرب الهلال وحيداً بين النجوم

— ٢٣ —

إن عقل الشاعر يسبح ويرقص على أمواج الحياة، بين زفيف الريح وخرير الماء
والآن حين تنطلق الشمس الى خدرها وتنسدل الأستار المظلمة على البحر
انسدل جفن على عين معنّاة . . . حين ذاك يحين له ان يمسك بقلمه ويرسل
اطره لتنغمر في أعماق سر السكون الأبدي

— ٢٤ —

الليل ساج ، ومحبتك في سكون حياتي عميقة

فاستيقظي ، يا آلام الحب ، لأنني لا أعرف كيف أفتح الباب فوقفتُ بإزائه

* * *

إن الزمن يستأني ، والكواكب ترقب ، والرياح نائمة . ولكن هذا الصمت
ل على قلبي

فاستيقظ،أيها الحب،استيقظ،واترع كأسي الفارغة-وأزح الليل بأنفاسك الغنائية

— ٢٥ —

إن ديك الصباح يصيح

لقد راح يتحدث عن الصباح قبل ان يتصدع عامود الظلام ... حين كان مارد
ل ما يفتأ يلف السماء في ملاءته السوداء الباردة

* * *

خبّرني ياديك الصباح . كيف استطاع رسول المشرق ان يجد طريقه الى

أحلامك من خلال طيات ظلام السماء وظلام أوراق الشجر

إن العالم لا يكاد يصدقك حين تصيح «أن الشمس تحبو الينا ، وان الليل يتداع

فاستيقظ أيها النائم

احسر عن جبينك وانتظر أول لثمات الضوء . وغرّد في مرح مع طير الص

— ٢٦ —

إن الشحاذ الذي فيَّ يرفع يديه الضعيفتين صوب السماء الصافية ، ويه

بصوته الغرثان في أذن الليل

لقد كانت صلواته للظلام الأعمى المنشور كانهُ إله سقط في سماء موحشة أقفر

من الأمل .

ولكن صرخة الرغبة تلف ثغرات اليأس كما حام طائر شجي حول عشه الخ

* * *

وحين يلقي الصباح رحله عند حافة المشرق يهتف الشحاذ الذي فيَّ

« باركني ، أنا من نبذني الليل الأصم ... الليل ذو الجوف الخاوي »

فيصيح الصباح « أيتها الحياة ، أيها النور ، أنتما كنز ثمين ! ويا ما أبهج المر

حين يهتدي اليكما ! »

— ٢٧ —

لقد كان ساناتان جالساً على شاطىء نهر الجانج يسبح حين أقبل براهمي

أسماله يقول « ساعدني ، فأنا فقير ! »

فأجابه ساناتان « إن جفنات الصدقة هي كل ما أملك ، أما أنا فقد نزلت

كل مالي »

فقال البراهمي « ولكن الإله سيفا أوحى إليَّ — فيما يرى النائم —

أنطلق اليك »

وعلى حين فجأة ذكر ساناتان انه كان قد التقط حجراً كريماً من بين حد

الشاطىء ودسه بين ثنايا الرمل ، وفي نفسه أن انساناً سيحتاج اليه

فدلَّ البراهمي على مكانه ، وراح هذا يبحث عنه

ثم جلس البراهمي على الارض وحده يفكر حتى توارت الشمس بالح

ف الاشجار ، وحتى أخذ رعاة البقر يتوافدون هم وقطعانهم الى الدور
فهب يهفو نحو سانتان في أناة ويقول « ياسيدي ، امنحني ذرة من الثراء الذي
ي بكل الثراء الأرضي »
ثم قذف بالحجر الكريم في الماء

— ٢٨ —

إني أهفو نحو بابك في الفينة بعد الفينة ، رافعاً يدي ، سائلاً المزيد والمزيد
وأنت تهب وتهب ، مرة بقدر ومرة في فيض
وأنا آخذ شيئاً وأذر أشياء ، فبعض ينوء بكفي وبعض أعبث بهِ كأنهُ لعب، ثم
طمهُ حين يعتورني الأين ، ثم تتكدس هداياك حطاماً فتواريك عن الانظار،
أن الأمل الدائم يسحق قلبي
إن صيحاتي الآن هي : خذ ، أوه خذ
بعثر كل ما في جفنة هذا السائل ، وأطفئ مصباح هذا الحارس المضني ، وخذ
ي وارفعني من بين أكداس هداياك العارية اللانهائية ... ارفعني لأكون في
مرتك الهادئة .

— ٢٩ —

لقد قذفت بي بين هؤلاء المغلوبين
وأنا أعرف أنهُ ليس لي أن أربح ولا أن أفزع عن المخاطرة
فسأغتمر في الوهدة ولو أنني قد أهبط إلى قرارها
وسأقامر بحياتي

* * *

سأخاطر بكل ما لديَّ من مال ، وحين أخسر آخر بنس سأخاطر بنفسي، وإذن
ى لي أنني سأربح من خلال غلبتي الماحقة

— ٣٠ —

لقد شاعت ابتسامة السرور على وجه السماء حين ألبستَ قلبي أسماله وأرسلتهُ
الطريق يستجدي
لقد انطلق من باب الى باب — يستكف ، وكلما أوشكت قصعته أن تفهق وجدت
يسرقها

وفي آخر اليوم المضني أقبل لدى باب قصرك يحمل قصعته البائسة، فجثت أ
اليه وأمسكت بيده وأجلسته بجانبك على العرش

— ٣١ —

حين جرفت المجاعة شراڤاستي،قال بوذا يخاطب تلامذته «من منكم يستطيع أ
يطعم الغرثى ؟ »

فصعّر راتنا كر الصيرفي خدّه وقال « ان خزائني لتنوء بحاجات الجياع !
وقال جايسن قائد جيش الملك « بودي أن أبذل دماء حياتي ، ولكن دار
ليس فيها من الغذاء ما يكفي »

وقال دارمابيل في أنين ، على حين أنهُ يملك الضياع الواسعة « إن شيط
الجدب قد ضرب ضياعي بالجفاف فلست أدري كيف أدفع ضرائب الملك »

فهبت سوبريا ابنة الشحاذ

وانحنت أمام الجمع وقالت في سذاجة «سأقوم أنا على حاجات الجياع»

فصاح الجميع في دهشة « كيف ! كيف تستطيعين أن تنهضي بهذا النذر ؟ »

فقالت سوبريا « إنني أشدكم فقراً ، تلك هي قوتي .إنني أجد خزائني ومتا
في كل بيت من بيوتكم »

— ٣٢ —

لقد كنت أجهل ما أملك ، لهذا خيل اليّ — حين طلب مني الخراج — ا
أستطيع أن أتوارى فلا أدفع ديني

فطرت ثم طرت أستتر في مشاغل النهار وأحلام الليل

غير أن رغباته انثالت عليّ كلما تردد نفَس

لهذا أدركت أنهُ يعرفني ، وأن مكاناً على الأرض ليس لي وحدي

* * *

والآن تدفعني الرغبة الى أن ألقي بكل ما أملك عند قدميه لأجد مَ
في ملكه

— ٣٣ —

حينما عنَّ لي أن أصنع لك من حياتي تمثالاً يتعبده الناس . . . حينذاك ه

اب والرغبات وأوهامي المتألقة وأحلامي

وحين سألتك أن تهيء من حياتي تمثالاً تبعثه من قلبك لينال رضاك . . .
ذاك جئت بالنار والقوة والحقيقة والحب والسلام

—٣٤—

لقد راح الخادم يحدث سيده الملك « ياسيدي ، إن الأب ناروتام لم يدخل دك الملوكي أبداً

« ولكنهُ يرتل صلوات الله تحت شجرة على حيد الطريق والمعبد خالٍ من لمين

« إنهم يتزامرون حوله كأنهم النحل حول زهرة اللوتس البيضاء على حين قد لوا جرة العسل الذهبية »

* * *

فتضرَّم الملك غيظاً وانطلق الى حيث ناروتام يجلس على الحشائش
ثم سأله « يا أبت لماذا نزعت عن معبدي ذي القبة الذهبية لتجلس هنا على ى تستندي رضا الله ؟ »

فأجابهُ ناروتام « لأن الله ليس في معبدك »

فعبس الملك ثم قال « أتعلم أن عشرين مليوناً من الجنيهات الذهبية بذلت في اقامة ه العجيبة الفنية ، وهي قد نذرت لعبادة الرحمن ؟ »

* * *

فأجاب ناروتام « نعم ، إنني أعرف هذا ، فانهُ كان في السنة التي احترقت بيوت الآلاف من رجالك ، فاندفعوا الى بابك ، وعبثاً حاولوا ان يسألوك الغوث

فقال الله : إن هذا المسكين الذي يأبى أن يعصم أخيهِ سيشيد لي بيتاً !

« ثم أخذ مكانه بين من لامأوى لهم ، على حيد الطريق ، تحت الشجرة

« فبدت كل هذه الاشجار الذهبية خاوية من كل شيء إلاَّ لظى الكبرياء »

فصاح الملك في ثورة « إذهب بعيداً عن ملكي »

فأجاب القس في هدوء « لاضير ، فأنت تنفيني حيث نفيت الرب »

[يتبع]



باب المراسلة والمناظرة

شجرة البانيان وفصيلة التين

صديقي الفضال رئيس تحرير المقتطف الغراء

بعد التحية والسلام : قرأت كلمة حضرة المحترم محمود مصطفى الدمياطي بعنوان « البانيان وفصيلة التين » في عدد ديسمبر ، ولما كان لي عليها بعض الملاحظات فأرجو منكم بافساح المجال لها ولكم الشكر الجزيل

***

أولاً — كتب حضرته في كلمته بصيغة جازمة ان التين وشجرة « بَـرْ » (لا أر لأن اسميها بلغة أجنبية ما دامت هي من بلادي ولها اسم في لغتي) من جنس واحد واحدة » وقرر أنهُ هو الحقيقة ولم يقم لنا دليلاً على ذلك غير « الشبه بين زهراتها و: وهو ما قررتهُ أنا أيضاً في ملاحظاتي لتعليل الحكم الغربي . ولكن الحكم المبني على في الحقيقة لا يعطي لنا علماً يقينيًّا في حقيقة الشيء بل علماً ظنيًّا،لأن الشبه ناحية من ا المختلفة التي عليها ينبني الحكم لمعرفة حقيقة الشيء وليست جميعها

***

ثانياً — أورد حضرته في كلمته غير واحد من الأسماء للشجرة بالانكليزية وا وغيرها دليلاً على ما قرر مع أنهُ لا يثبت ذلك ، وقد كان في وسعي أيضاً ان أورد تلك وأزيد عليها من اللغة الألمانية والايطالية كذلك ولكن غرضي من ملاحظاتي السابقة ذلك بل تبيين ما قرره أهل العلم في الهند . فهم لا ينزلون الحكم المبني على الشبه منزلة في حقيقة الشيء بل لا بدَّ ان يعتمدوا فيه على فحص النواحي المختلفة الأخرى أيضاً مثل

بخواصه وفوائده وغيرها عمليًّا ونظريًّا . ولم يثبت في فحصهم العملي والنظري ثبوتاً اليقيني ان شجرة « بَـرْ » من فصيلة التين . ولا يخفى ان للفحص العملي لديهم مجالاً عند أهل البلاد العربية ، فان الطب الهندي (المسمى بالهندية آريوويدك) الذي نقله عهد العباسيين الى اللغة العربية لا يزال حيًّا ، كذلك الطب العربي الاسلامي الذي العظام ابن سينا وابن البيطار والرازي ، والذي أصبح الآن في مهده ووطنه أثراً بعد يزال في الهند حيًّا ، يمارسه المسلمون كصناعة محترمة ومعترف بها عند الشعب والحكومة وا قصارى جهدهم في النهوض به على الأساليب العلمية الحديثة حيث بان شأوهم في . من المجاراة على الأطباء المتخرجين من معاهد أوربا اذا استثنينا فن الجراحة الحديث ولة تلك الصناعة يعتمد هؤلاء على العقاقير والنباتات المحلية الوطنية فيتسنى لهم المجال فحصاً أكثر استيعاباً وأوفى وجهاً

***

— لا يوجد لشجرة « بَـرْ » في الهند قسمان كما قرر حضرته ، وما نقل حضرته مان النباتي» فهو اسم لنفس الشجرة ذكر بوصفين ، فان بنجال Bengal, Benghal من المقاطعات الهندية ولذلك فهو منزلة قول « جلال الدين الأسيوطي » ل الدين المصري » أو « ابن منظور الافريقي » و « ابن منظور المصري » . ولا يدل ان « جلال الدين الأسيوطي » و « ابن منظور الافريقي » غير « جلال الدين » و « ابن منظور المصري » . فان أسيوط مقاطعة من مقاطعات مصر كما ان مصر أفريقيا

***

أ — ان ركون علماء النباتات الغربيين الى الحكم على الشبه ليس لاظهار حقائق لأصلية بصورة قاطعة بل لتقسيمها وترتيبها ، وكثرة أنواع النباتات على سطح الأرض لهم هذا

، فاذا عدوا النباتات المختلفة ، من طائفة واحدة لشبه بسيط بينها فهو لا يدل على ها أيضاً « من فصيلة واحدة » وهذا الشبه لا يمنحنا علماً يقينيًّا فيه

القاهرة السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي



قناطر محمد على

افتتح حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم قناطر محمد علي في احتفال رسمي فخم يوم الخميس في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٠ وحضر الحفلة صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي وأعضاء الوزارة المصرية وأعضاء مجلسي الشيوخ والنواب ووزراء الدول وقناصلها ورجال الدين والآباء الروحيون والوزراء السابقون ووكلاء الوزارات ومديرو المصالح ومحافظ الاسكندرية ومديرو الشركات الأجنبية وفريق من كبار قواد الجيش البريطاني وسلاح الطيران وكبار الأطباء والموظفين والأعيان وممثلو الصحافة المصرية من عربية وأفرنجية

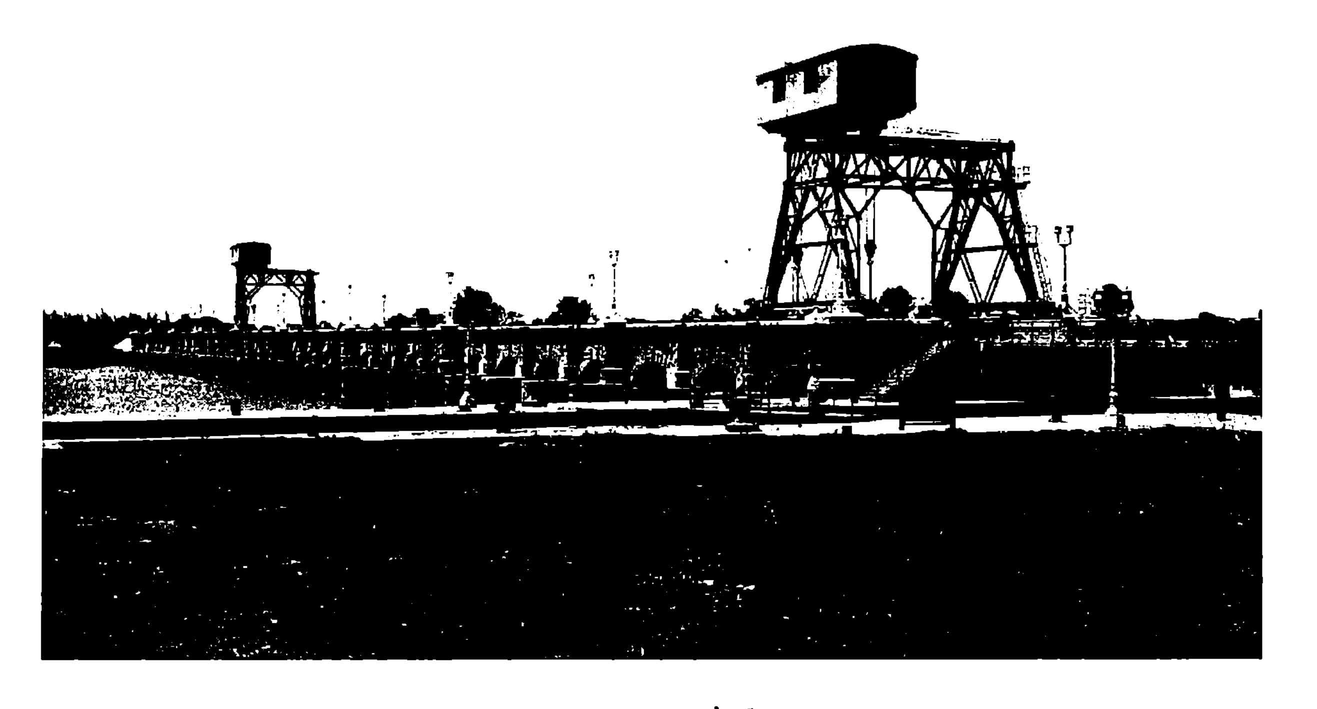
وقد خطب حضرة صاحب المعالي عبدالقوي أحمد باشا بين يدي جلالته خطبة بليغة ألمَّ فيها بما للريّ وتنظيمه من شأن في حياة مصر مشيراً الى القناطر الخيرية وتاريخها وهي القناطر التي حلّت قناطر محمد علي الجديدة محلَّها في تأدية مهمتها الحيوية . ومما قالهُ فيها « وكذلك تقدم المغفور لهُ (. الاشارة الى ساكن الجنان محمد علي باشا) باقامة القناطر الخيرية فكفت من عدوان النيل وكفلت لشمال الوادي كلهِ (وهو ما يعرف بالدلتا) الريّ والخصب والإثمار في كل عام وهيأت أرضها للزروع الصيفية وأخصها القطن الذي ما برح

عمدة الثروة في هذه البلاد ، ‌ا
القناطر أول عمل صناعي على ا
الطراز كما كان في الوقت نفسه
أعمال الريّ الصناعي في العالم ك
التاسع عشر »

ثم أشار الى المغفور لهُ الم
صاحب العرش جلالة الملك ف
بالكلمات التالية « من يوم تبوَّأ
عرش أبيه وجدهِ جعل يذك
مختلف وجوه الحياة ويدفع بشئ
والحضارة واحداً اثر واحد، فا
متفقدها كلها بشخصه حتى اذ
اختياره لجواره لحق بالرفيق الأ
العين مطمئن النفس الى انَّ آ
لا تنحدر عن يدٍ مصلحة إلاَّ الى
ولا تنحسر عنها عناية عالية إلاَّ
عالية ، ولا غرو فان هذا الشبل
الأسد وها هو ذا أضخم الأعما
سيد الأشبال »

نبذة عن انشاء القنا

من أبرز ما امتاز بهِ عهد
المغفور له محمد علي باشا عنايته
الري وتزويد البلاد بما كان منها
مواردها الزراعية واتساع رقعا



قناطر محمد علي

قنطرة فرع دمياط من الجهة الأمامية (راجع باب الأخبار العلمية صفحة ٩٦)

(راجع باب الأخبار العلمية صفحة ٩٦)

كانت الاراضي الزراعية تعاني وتتشذر متاعب كبيرة بسبب عدم اعدادها بكفايتها من ماء الري رغم ما كان يبذل في هذا السبيل من جهد ومال رأى المغفور له ساكن الجنان بثاقب فكره أن ينشىء القناطر الخيرية عند رأس الدلتا لترفع ماء النيل في فترة الصيف الى الدرجة اللازمة لامداد الرياحات بالمقادير والمناسيب الكافية لري الأراضي. وقد بدىء إنشاؤها عام ١٨٤٣ ولكن العمل فيها لم يكمل الا في سنة ١٨٦٣ لما صادفه من صعوبات جمة عطلته زمناً ليس بالقليل

الغرض من انشاء القناطر

وقد استمرت القناطر الخيرية حتى أمس تؤدي الغرض منها على الوجه المطلوب غير أن الصعوبات التي صادفت بناءها كان لها تأثيرها في ضعف أساساتها ضعفاً دعا الى استعمال الحذر في تحميلها ضغط الماء والا لتجاء الى اتباع قاعدة خاصة في الحجز عليها من شأنها الاضطرار الى تصريف مقادير كبيرة من الماء خلفها بفرعي النهر تبلغ ملايين الامتار المكعبة حيث تذهب هباء الى البحر في وقت تكون في أشد الحاجة فيه الى كل قطرة منها

لما اكتملت أعمال الخزن الاخيرة بتعلية خزان اسوان للمرة الثانية وبناء خزان جبل الاوليا لسد حاجة التوسع الزراعي بالقدر الذي يلائم الزيادة المستمرة في عدد السكان وضرورة الفسح لهم في المجال الزراعي كان لا بد من إمداد اراضي الوجه البحري بنصيبها من تلك الزيادة في الموارد المائية بزيادة الحجز على القناطر الخيرية بقدر لم تكن لتحمله وهي بحالها الراهنة. ولهذه الاعتبارات قررت الوزارة انشاء قناطر جديدة باسم «قناطر محمد علي» تحل محل القناطر الحالية في أداء واجباتها المستقبلة بعد ان وثقت بأن تقوية القناطر الخيرية غير مأمونة العاقبة

تصميم القناطر وملحقاتها

وقد صممت قناطر محمد علي مشتملة على قنطرتين تتحمل كل منهما حجزاً قدره ٣ر٨٠ متر احداهما على فرع رشيد وتتكوّن من ٤٦ فتحة عرض الواحدة منها ثمانية أمتار ومنسوب عتبها ١١ متراً ومن هويس طوله ٨٠ متراً وعرضه ١٢ متراً. والأخرى على فرع دمياط وتتكوّن من ٣٤ فتحة عرض كل منها ثمانية أمتار ومنسوب عتبها ١٢ متراً ومن هويس طوله ٨٠ متراً وعرضه ١٢ متراً

ولم يقتصر مشروع انشاء قناطر محمد علي على اقامة القنطرتين الرئيسيتين وحدهما وانما شمل أعمالاً ملحقة أخرى تلخص فيما يلي :

١ — انشاء قنطرة فم جديدة وهويس لرياح البحيرة

٢ — تعديل قنطرة فم الرياح التوفيقي وتقويتها

٣ — انشاء قنطرة فم جديدة لترعة النجايل

٤ — انشاء كوبري من الخرسانة المسلحة فوق ترعة دروه وآخر على مجرى الابحاث المائية

٥ — انشاء معمل للابحاث المائية بالجهة الغربية بفرع دمياط

٦ — اقفال عشر العيون الغربية من قناطر دمياط القديمة مع اصلاح وانشاء جسر النيل حولها

٧ — الأعمال الحديدية الخاصة بعيون القناطر والأهوسة

٨ — انشاء طريق بالكدام والاسفلت يمتد من قنطرة فم الرياح التوفيقي شرقاً الى قنطرة فم رياح البحيرة غرباً

انشاء القناطر وملحقاتها

أسندت عملية انشاء القناطر وملحقاتها الى شركة ماكدونالد وجبس وشركاهم وأتمتها في ثلاث مراحل كل منها سنة كاملة طبقاً للبرنامج الذي وضع لهذا الغرض إذ صدر لها أمر البدء في العمل بتاريخ ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٦ وفرغت من اتمامه في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩ ونهضت هذه الشركة بجميع الأعمال المطلوبة من أعمال ترابية ومبان وطرق وغيرها وعاونها في الأعمال الحديدية شركة رانسوم ورابيروشركاهم وشركة ميد ورايتسون وشركاهم الأولى لبوابات الفتحات وآلاتها الرافعة والثانية لأبواب الاهوسة والكباري المقامة عليها

وقد أقيمت قناطر محمد علي والقناطر الأخرى الملحقة بها على فروشات من الخرسانة العادية المكونة من الرمل والزلط والاسمنت تعلوها الدعائم والاكتاف وحوائط الاهوسة وقد بنيت جميعها من الخرسانة العادية أيضاً مكسوة أجزاؤها الخارجية بأحجار الجرانيت ثم عقود القناطر وقد بنيت من خرسانة الجرانيت العادية وغطيت بحجر الجرانيت وغطيت بهذا الحجر أجزاء الفرش الواقعة داخل الفتحات

الاعمال وتكاليفها

وفيما يلي بيان بمقادير الاعمال المختلفة ونفقاتها

أعمال ترابية ٠٠٠ و٦٤٣ ر ١ متر مكعب
أعمال خرسانة ٦٠٠ ر ٤٢٥ متر مكعب
مبان بالجرانيت ٨٣٠ ر ٤٣ متراً مكعباً
مبان بالحجر الجيري ٠٠٠ر١٨٢ متر مكعب
ستاير حديدية مستديمة ٨٠٠ ر ١٥ طن
أعمال حديدية أخرى ٩٧٠ ر ٦ طناً
أسمنت ٢٠٠ ر ١٠٦ طن

وكان متوسط عدد العمال المشتغلين في جميع نواحي العمل ٧٦٠٠ عامل وفي النهاية العظمى وصل عددهم الى ١٣٦٠٠ عامل

وقد بلغت جملة التكاليف ٢٤٠٠٠٠٠ جنيه مصري تقريباً

[عن مذكرة وزارة الاشغال]

*

هل تعلم

* إن ثمار الباباز تتفاوت وزناً من بضع أواق الى ٢٥ رطلاً

* أن جامعة كراكو وهي تلي أقدم جامعة في أوربا قدماً أوصد الألمانيون أبوابها بعدما بقيت مفتوحة نحو ٦٠٠ سنة بغير انقطاع منذ سنة ١٣٦٤

الزكام او البرد البسيط

وهل يرجى الاهتداء الى علاجهِ

اكتشف العلماء مكروبات كثير من الامراض وعجزوا عن اكتشاف مكروبات غيرها . وفي مقدمة الامراض التي عجزوا عن الاهتداء الى مكروبها الانفلونزا والزكام العادي لانها فرارة تمر في أدق المرشحات

وفي اثناء مباحثهم عرفوا اموراً كثيرة قد تساعدهم على مهمتهم الصعبة هذه فعرفوا مثلاً ان القنفذ يصاب بالزكام او الترشيح وان حيواناً آخر من صنف ابن عرس أو « العرسة » يصاب بالانفلونزا وان القرد المعروف بالشمبانزي يصاب بالزكام . ولم يعرف ان حيواناً آخر يصاب بهِ

والقنفذ لا يراه الانسان الا في حدائق الحيوانات ويسمى في سوريا النيص بكسر للنون والصحيح فتحها أو هو محرَّف عن ينص كما تقول المعجمات . ويستعمل اولاد المدارس ريشه القاسي كالمناخس ايدي ريش للكتابة ويستعمل في انكلترا لابادة الخنافس في المطابخ فلا يترك فيها حيًّا يرزق

ومكروب البرد اكثر المكروبات فراراً كما تقدم ولم يعن الناس بهِ العناية الواجبة الا في الزمان الاخير لما ظهر للباحثين ان الزكام من اكثر الامراض مضايقة لسكان بعض البلدان الباردة كبريطانيا . وقد قدروا ان الزكام يكلف الانكليز مالاً طائلاً في السنة حتى سماه بعض وزراء الصحة عندهم « عدو الصحة رقم ١ » ووعد من يكتشف دواءً له بكل اكرام يطلبهُ

وقد جرب طبيب اميركي اخيراً تجربة فحواها انهُ وضع سبعة اشخاص مزكومين وسبعة سالمين في غرفة واحدة مدة اربعة ايام فلم يعد المصابون السالمين . فحكم بان هذه المناعة نشأت عن بقاء حرارة الغرفة ودرجة رطوبتها واحدةوان تغير درجة الحرارةهوسبب الزكام

وهذا معروف منذ زمان طويل ولكنهُ لا يقربنا قيدأصبع من الاهتداء الى دواء الزكام اذ لا غنى لكل منا من الخروج والدخول في أي وقت اراد

ولم ير عالم باحث مكروب الزكام لشدة صغره كما تقدم القول ولكن يظن ان هذا المكروب ليس من صنف واحد ولهذا يصعب البحث عنهُ وقد عولج بالتطعيم فنجح فيهِ بعض النجاح ولكن مدة المناعة وجيزة لا تزيد على ثلاثة أشهر. ومن اللقاح ما لا يؤثر في كثيرين من الملقحين بهِ . وكون الزكام قد يعود بعد مدة وجيزة من التلقيح دليل على ان الزكام انواع وليس من الممكن منح المرء مناعة عنها كلها

وقد شاع انهم اكتشفوا في اميركا مجهراً (مكرسكوباً) نرى بهِ الاشياء الصغيرة وطولها لا يزيد على جزء من عشرة آلاف من المليمتر ولكن مكروب الزكام أقصر من هذا وهم يرجون أن يشاهدوه على صغره

وقد تقدم الباحثون في كشف مكروب الانفلونزا أكثر من تقدمهم في كشف مكروب البرد أو جرثومتهِ فقد اهتدى بعضهم من سنين الى مكروب سماه باشلس الانفلونزا ووجد هذا المكروب في اصابات كثيرة من الانفلونزا والزكام ولكنهم يقولون الآن انهُ ليس وحده المسبب لهذين المرضين فقيل لذلك أن الانفلونزا ناشئة عن المكروب وسمهِ وأن فعل المكروب يمهد فعل السم وثبت أن هذه هي الحالة في الحيوانات التي جرّبت التجارب فيها

وعملت أخيراً امتحانات في انكلترا تبشر بقرب قهر داء الانفلونزا فيكفي العالم شر وباء إجتاح العالم سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ وفتك بهِ فتك شر الأوباء ولكن قهر الانفلونزا لا يعني قهر الزكام . ومن رأي البعض أنهُ لا بد أن يقهر في خلال سنتين . وكان بعضهم قد أنبأ بقهره سنة ١٩٣٧ وقيل في الصيف الماضي أنهُ لا بد أن يقهر في خلال ٥ سنوات

ولكن من رأي عالم بريطاني تكهن عن مستقبل انكلترا بعد مئة سنة أن انكلترا سوف تكون حينئذٍ مكاناً للنعيم المقيم ماعدا الزكام وهو كما يعرف الجميع مرض معدٍ وشديد الاعداء حتى قال بعضهم عنهُ « أنهُ أكثر إعداء من الجدري بصنفيها » وحتى قال بعضهم أنهُ يحسن بالحكومات أن تتخذ أشد التدابير ضد الزكام وتجعل اختلاط المزكوم بالاصحاء ذنباً يعاقب القانون عليه

وفي خبر أخير أن الدكتور ستوك الانكليزي صنع جهازاً للراديو يضعه المزكوم على رأسهِ فيشفى من زكامهِ في أقرب وقت ويشعر والجهاز على رأسهِ بأن زكامهُ يزول عنهُ وعرض على المعهد المسمى « المعهد الوطني للبحث الطبي » فأبى أن يبدي رأيهُ فيهِ قبل امتحانهِ

*

العلم والطيران الحربي

طائرات أميركية

اذيع من أيام ان مصنع كرتس الأميركي وقف ما يصنعه من مطارداته المشهورة على بريطانيا وعدد ما يصنع منها في اليوم الواحد سبع طائرات . وهي طائرة مطاردة ذات سطح واحد تبلغ سرعتها ٣٦٠ ميلاً في الساعة أو أكثر قليلاً . وتحريكها في الجو سهل وهذا يجعلها من أصلح ما يكون لمقابلة المطاردات الألمانية التي من طراز مسرشمدت التي قيل في وصفها ان تحريكها في الجو وهي مندفعة بسرعة كبيرة ليس بالأمر الميسر . ومدافع الكرتس الرشاشة ستة تقابلها ثمانية في السبتفير أو الهاريكان

ومن الطائرات الأميركية التي بدأت تصل الى بريطانيا مطاردة أخرى تدعى «بل اروكوبرا» ويقال ان سرعتها نحو ٤٠٠ ميل في الساعة وهي مسلحة بستة مدافع رشاشة ومدفع يقذف قنابل

ومن الأوصاف الغريبة التي تتصف بها هذه المطاردة ان محركاتها مركبة وراء مقعد الطيار فنظره أوسع مدى واشرافه على ما أمامه وحواليه أتم

وهناك أصناف مختلفة من القاذفات الأميركية يتوالى وصولها الى بريطانيا. والمفهوم بوجه عام ان الانتاج الأميركي في الطائرات سوف يبلغ في أواخر ١٩٤١ معدل ستة وثلاثين ألف طائرة في السنة أو ثلاثة آلاف في الشهر وينتظر أن يكون نصيب بريطانيا منها من النصف الى الثلثين

لماذا تضرب مانهيم

توالى ذكر « مانهيم » في بلاغات سلاح الطيران البريطاني اذ هاجمتها الطائرات البريطانية ثلاث ليال متوالية في الأسبوع الثالث من دسمبر وهي مدينة صناعية عظيمة الشأن في غرب المانيا الجنوبي ومنزلتها في المانيا الصناعية والتجارية مردها الى كثرة مصانعها ولا سيما المصانع الكيميائية التي فيها وحواليها ثم الى كونها نقطة رئيسية في الملاحة النهرية بألمانيا. ومما اشتهرت به منطقة مانهيم من المصانع مصانع الأصباغ الكيميائية المشهورة ومصانع تثبيت النتروجين من الهواء أي صنع الامونيا. وهذا المركب أساس صنع الحمض النتريك او ماء النار وهو مما لا يستغنى عنهُ في صناعة المفرقعات أو المتفجرات الحربية

فقبل الحرب العالمية الأولى كان الاعتماد على ملح البارود الطبيعي في صناعة المتفجرات الحربية وكان يستورد من جمهورية شيلي فلما نشبت الحرب قطع وارده على المانيا بفعل الحصر البحري البريطاني فعانت المانيا الأمرين من نقصه وقرب المخزون منه الى النفاد الى ان أتيح للعالم الألماني اليهودي هابر كشف طريقة يثبت بها نتروجين الهواء فتصنع الامونيا ومنها الحامض النتريك وهو أساس في صناعة المتفجرات والأسمدة الكيميائية. ومن سخرية القدر ان الرجل الذي أسدى هذه الخدمة لألمانيا اضطر الى هجرتها بعد قيام النازي ومات في انكلترا

فعناية سلاح الطيران البريطاني بضرب هذه المصانع في غارة دامت سبع ساعات مساء الاثنين الماضي ١٦ ديسمبر ١٩٤٠ ثم في غارتين متواليتين ليست غريبة ولا سيما ان تدمير الأهداف الخاصة بالنقل النهري من شأنه ان يعرقل المواصلات النهرية كما يعرقل ضرب المحطات المواصلات بالسكك الحديد

الطيران الحربي والتصوير الضوئي

تدل الصور الفوتغرافية التي صورها رجال سلاح الطيران البريطاني لقاعدة كيل

البحرية دلالة لا شك فيها على حسن تسديد القنابل الى أرصفتها والسفن الراسية . ويقول الخبراء في استطلاع طلع هذه الصور ان رؤية الأفلام أهدى الى الحقيقة من رؤية الصور المطبوعة عنها . والأفلام لا ينظر اليها عند فحصها بالعين المجردة بل بالمنظار المجسم وعند ذلك تتضح الأشباح وتتجسم فتصبح وكأنها ناطقة

ويؤخذ من أقوال الخبراء الذين فحصوها على هذا المنوال ان من الاهداف التي القيت القنابل عليها في قاعدة كيل البارجة شارنهورست الكبيرة وهي في الحوض الجاف لترميم ما أصيبت من عطب في أثناء معارك نروج وكذلك ثلاثة طرادات وحاملة طائرات جديدة ومجموعة من المدمرات والغواصات ومحطة توليد الطاقة الكهربائية وهذه الأخيرة أصيبت اصابة مباشرة . وعلى كل حال فان هذه الصور تثبت دقة القاذفات البريطانية في مهاجمة الأهداف التي تتوخاها وبراعة الطائرات البريطانية المستكشفة في تصويرها

الطيران الحربي واحوال الجو

وأخيراً يؤخذ من بلاغات وزارة الطيران البريطانية ان الغارات الالمانية على لندن وغيرها من المدن الانكليزية كانت قليلة في الاسبوع الثالث من دسمبر . وقد انقضى يومان في هذا الاسبوع لم تغر فيها الطائرات الالمانية على لندن . وقد يكون لهذه الحالة سرّ له صلة بالسياسة والخطط الحربية لا ندريه . ولكن مما لا ريب فيه ان حالة الجو لا تساعد كثيراً على الغارات الجوية في شمال اوربا الغربي في هذا الفصل من السنة

فالذين اعتادوا السفر الجوي في تلك المنطقة من اوربا يعلمون ان خطوط المواصلات الجوية تنقطع أو تضطرب في هذا الفصل من كل سنة عند ما يكثف الضباب وتشتد العواصف . والطيارون الذين يقودون السفن الجوية التجارية مشهورون ببراعتهم لطول خبرتهم . وقلما يجاريهم فيها الطيارون الحربيون

***

نعم ان الطيارين الحربيين أميل الى المغامرة وفي طائراتهم ادوات وأجهزة تمكنهم من « الطيران الاعمى » ولكن النزول الى المطارات في جو عاصف عمل محفوف بالصعاب والخطر، والمساعدة التي ينالها الطيار من رجال المطار في هذه الاحوال يسيرة لا فائدة كبيرة منها

وكذلك تصبح الغارات الجوية في مثل هذه الاحوال أدعى الى الخسارة منها الى الربح وبدلاً من ان تكون الغارات منتظمة متوالية تأتي هبات متفرقة ولكنها لا تنقطع تماماً . فاذا جرى الضباب الانكليزي المشهور على مأثور عادته في كل شتاء واضطربت الاحوال الجوية فان ذلك يواجه الطيارين الالمانيين بصعاب غير يسيرة



مكتبة المقتطف

العقد الفريد لابن عبد ربه

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الجزء الاول ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته
ورتب فهارسه الاساتذة احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري
٤٧٧ ص ، ٢٨ × ٢٠ سنتمتراً ، مصر ١٩٤٠

مراجعة ونقد : للدكتور بشر فارس

تلك يد جديدة تسديها لجنة التأليف والترجمة والنشر الى قراء العربية ، في عهد أصبح الطبع فيه متعذراً ، والنشر كافة . وكان اللجنة يشق عليها أن يردها رادّ عن الاضطلاع بما حبست عليه همتها العالية، ومقصدها بث الثقافة على ألوانها وأنواعها ورفع شأن الأدب وتعزيز قدر العلم . ويحلو لهذه المجلة أن تحيّيها

لكتاب العقد الفريد طبعات شتى ، أشهرها وأكثرها تجاذباً طبعة بولاق (مصر ١٢٩٣). ومما يورث الأسف أن جميع الطبعات على جانب عظيم من التحريف والتصحيف ، في حين العقد الفريد على ذلك القدر وتلك المنزلة بين دواوين العرب وأمهات التصانيف ، ولا حاجة بي الى التنويه والاسترسال في التنبيه

رأت اللجنة —وأصابت فيما رأت — أن تعيد طبع العقد الفريد على أسلوب علمي ، كله تدبر واستقراء ، ومراجعة واستقصاء ، فاستقدمت من الآستانة ، بعد استشارة المستشرق الألماني Ritter ، نسخة مخطوطة مأخوذة بالتصوير الشمسي عن أصح نسخ الآستانة، وهي تعد أقرب النسخ الى الصحة وفيها زيادات كثيرة . ثم ضمت الى تلك المخطوطة مخطوطة أخرى محفوظة في دار الكتب المصرية كنتُ قد اطلعت عليها وهي موفورة التحريف والنقص . وذلك فضلاً عن النسخ المطبوعة . ومما عوّل عليه الناشرون ايضاً جزءان كبيران من العقد الفريد أخرجهما الاستاذ محمد شفيع استاذ العربية في جامعة بنجاب بالهند

وقد استوفى اخراج هذا الجزء شرائط تحرير النصوص . فمن معارضة الأصول بعضها ببعض ومضاهاة الأصول بتواليف أخرى مثل عيون الأخبار والكامل وشرح ديوان الحماسة ، ثم من

شرح للغامض وضبط للفظ المشكل وتكميل للناقص وتوفية للخبر الواحد ، ثم من تغليب رواية على رواية

وقد عني الناشرون — فوق هذا — ببذل الفوائد. فكتب الاستاذ احمد أمين عميد كلية الآداب مقدمة مسهبة عرف فيها بابن عبد ربه ، وقدم عقده ، وذكر عناية العلماء بهما أمثال الاستاذ جبرائيل سليمان جبور والاستاذ فؤاد افرام البستاني في لبنان والاستاذ محمد شفيع بالهند . وهنا فات الاستاذ أن يذكر رسالة للمستشرق الألماني Richter في صلة العقد بعيون الأخبار[1]. ثم إن في آخر الجزء مسارد وافية (ويسميها الناشرون « فهارس ») لرجال السند ، والشعراء ، والأعلام ، والقبائل ، وأسماء الاماكن ، وأسامي الكتب ، والقوافي ، و « أنصاف الابيات » والايام ، والامثال ثم الموضوعات

فأنت ترى من ذلك كله إن الناشرين لم يدخروا جهداً ولم يكلّوا ، وإنّا لنقدر همّتهم ونشكر للجنة يدها . غير أننا نأسف الأسف كله على قناعة الناشرين بمخطوطٍ واحدٍ اصطفوه من خزانات الآستانة الى جنب مخطوط حقير الشأن سقط اليهم من رفاف دار الكتب المصرية . وأما تعويلهم على النسخ المطبوعة فضلاً عن ذينك المخطوطين ، فما لا يعتدُّ بهِ ، إذ هذه النسخ — على قول الاستاذ احمد أمين نفسه (المقدمة ص.ل) — « كلها في العيوب سواء ، لا تمتاز منها طبعة عن طبعة الا بجودة الورق اوحسن الحروف ، أما التحريف فيها فقدر مشترك » . وعلى هذا فإن الجهد الذي صرفهُ الناشرون انما صرف في عمل لم تكمل عدّته ولم تستوف بضاعته . وهأنذا أراجع « تاريخ الآداب العربية وتكملته لبروكلمان » فأصيب فيها سرداً لمخطوطات العقد الفريد وإذا هي كثيرة وموزعة بين دور الكتب في العالم : في برلين وجوته وفينة ومنيخ وأكسفرد والمتحف البريطاني والاسكوريال وباريس والآستانة ودمشق وغيرها . ومن المستحسن بل الواجب إذن ان يختار من هذه المخطوطات أقدمها عهداً وأصحها نسخاً فيعوّل عليها ويعارض بعضها ببعض . على هذا النحو يسلم اخراج كتاب من الكتب من الطعن ويعلو عن الشك . وما أظن الناشرين يعدون اخراجهم لهذا الجزء توطئة او تجربة لاخراجٍ آخر تكمل فيه العدة ، لأن الجهد الذي بذلوه والمال الذي رصدوه لا يقبلان التكرار . فلعلَّ الناشرين يستندون ، في الأجزاء المقبلة ، على غير نسخة الآستانة مهما صحت وغير نسخة مصر المبتورة

***

وبعد فقد لحظت في هذا الجزء أشياء استأذن الناشرين في عرض بعضها . وأملي ان لا تثور الثائرة كما حدث يوم نظرت في كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (مجلة الرسالة ، العدد ٣٣٧) وهو الكتاب الذي نشرتهُ اللجنة على أيدي الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين .

(١) Studien zur Geschichte der aelteren arab. Fuerstenspiegel

فمن السفه ان يظن ظانٌ انهُ ينبغي للناقد ان يلزم التصفيق ، فلولا التنبيه ما خطا العلم خطوة ولأمن المخطىء — وكلنا يخطىء — أخذ الآخذ :

— ص ٣٨ : « قال العباس بن الأحنف :

قلبي الى ما ضرَّني داعي   يكثر أحزاني وأوجاعي »

وفي الحاشية أن في مخطوطة الآستانة : «أسقامي» بدلاً من «أحزاني» . فآثر الناشرون كلمة « أحزاني » . ولعلَّ الأقرب الى الصحة « أسقامي » . فهكذا ورد البيت في ديوان العباس بن الأحنف نفسه (طبعة الجوائب ١٢٩٨ ص ١٠١) ، وفي كتاب الأغاني طبعة بولاق ج ٨ ص ٢٠ وطبعة دار الكتب ج ٨ ص ٣٦٣

— ص ٦٤ : ٦٥ : حدَّث مالك بن أنس أن المنصور بعث اليهِ والى ابن طاوس[1] فدخلا عليهِ ، ولما اشتد ابن طاوس في الكلام على المنصور فزع مالك فأخبر : «فضممت ثيابي من ثيابهِ (ثياب ابن طاوس) مخافة أن يملأني من دمهِ (أي مخافة أن يأمر المنصور بضرب عنق ابن طاوس فيتطاير الدم حتى ثياب مالك) » . وبعد خمسة أسطر جاء الحديث نفسه فأخبر مالك : « فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابي من دمهِ»

وفي الحاشية أن في مخطوطة الآستانة ونهاية الأدب : « يملأني من دمه » . والغالب على الظن أنها الرواية الصحيحة ، والدليل أنها جاءت هكذا قبل خمسة أسطر ، في النص ذاته

— ص ١٦٤ : قال الفرَّار السُّلَمي :

وكتيبة لبَّستُها بكتيبةٍ   حتى اذا التبست نفضتُ لها يدي

وتركتهم تقِصُ الرماحُ ظهورهم   من بين مقتول وآخر مسندِ

وشرح الناشرون قوله : « نفضت لها يدي » بقولهم « كناية عن الإعراض عنها »

وفي الحاشية ان تلك رواية عيون الاخبار وشرح ديوان الحماسة ، وأن الذي في الاصول :

(١) رسم هذا الاسم بواو واحدة مرتين وبواوين مرة في سياق القصة (؟) — وكذلك رسمت كلمة « المئونة » هكذا على نبرة ، ثم بهمزة على واو : « مؤونة » في الصفحة الواحدة ٢٣٣ . هل هذا في الاصل ، فأين التنبيه على ذلك اذن ، وما الوجه في الرسم ؟

وفوارس لبستها بفوارس حتى اذا التبست أمَلْتُ بها يدي

والذي أراه أن رواية الأصول صحيحة، فليس من حق الناشرين أن يعدلوا عنها الى غيرها. فقول الشاعر — كما ورد في الأصول — « أملت بها يدي » يفيد الفرار والا نطلاق بالفرس، والعرب تقول : « أملت بالفرس يدي بمعنى أرخيت عنانه وخليت لهُ عن طريقه (عن أساس البلاغة، مادة م ي ل)

— ص ١٦٧ : قال أيمن بن خُرَيم :

إن للفتنة ميطاً بيّنا فرويدَ الميطَ منها يعتدل
فاذا كان عطاء فأْتهم واذا كان قتال فاعتزل

وفي الحاشية أن الذي في الأصول : « فانتهز » ، وأما « فأْتهم » فمن عيون الأخبار . والذي أراه أنه ليس من حق الناشرين أن يتحكموا في نصٍّ لاغبار عليه فيصححوه برواية جاءت في كتاب آخر، بل كلمة « فانتهز » خير من كلمة « فأْتهم » وذلك لملاءمتها كلمة « فاعتزل » من ناحية الصيغة

— ص ١٧٦ : فتح الناشرون اللام من أحلُم (مضارع حلم بمعنى رأى في المنام) . وحلم بهذا المعنى ، فيما أدري ، من باب قتل فضم اللام منهُ (عين المضارع) واجب

— ص ٢٢٦ — ٢٢٧ : قال الربيع بن يونس للمهدي : « ...فاذا ارتأيت من محكم التدبير ، ومبرم التقدير، [ولباب الصواب] ، رأياً قد أحكمه نظرك ، وقلّبه تدبيرك ... »

وفي الحاشية أن في مخطوطة الآستانة « وقلبه فكرك » . والراجح في الرأي ان هذه الرواية هي الصحيحة ، لأسباب — الأول : جاء في قول الربيع ايضاً بعد ستة أسطر « ولكن الرأي لك ايها المهدي ان تصرف اجالة النظر وتقليب الفكر » — الثاني : ان في الجملة سجعاً : « من محكم التدبير ، ومبرم التقدير ... احكمه نظرك وقلبه فكرك » (واما لباب الصواب فزيدة)— الثالث : ان التقليب انما يغلب على الفكر ، وأما التدبير فيحكم كما جاء في قول الربيع نفسه أو يبرم لأن التدبير سياسة او حيلة

— ص ٢٣٢ : قال موسى للمهدي يشير عليه في حرب أهل خراسان : « الحال من القوم تنادي بضمرة شر وخفية حقد قد جعلوا المعاذير عليها ستراً . . . رجاء ان يدافعوا

الأيام بالتأخير والأمور بالتطويل فيكسروا حيل المهدي فيهم ، ويثنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق مادتهم وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم . . . فليشدد المهدي أزره لهم ويكتب كتائبه نحوهم . . . »

والذي أراه ان جملة « تستفحل حربهم » نابية في السياق، وذلك ان أهل خراسان لم يكونوا بعد في حرب مع المهدي حتى تستفحل ولكنهم كانوا عصاة فقط إذ « كسروا الخراج وطردوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ...» (راجع ص ٢٢٤) . فالأولى ان يقال : « ويستفحل حزبهم »، فيكون هنالك تصحيف . وهذا القول يدل على التأهب والتوثب بجمع الشمل والتحزب

— ص ٢٣٧ : قال هارون للمهدي في تلك القصة : « فانما المهدي وأمته وسوادَ أهل مملكته ، بمنزلة الطبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعي الحدب ، الذي يحتال لمرابض غنمه ، وضوالّ رعيته ، حتى يبرىء المريضة من داء علتها ، ويرد الضالة الى أنس جماعتها »

وفي الحاشية ان «الحدب» رواية مخطوطة الآستانة ، والذي في سائر الأصول: «المجرب» . وأظن المجرب ألصق بمادة النص، ذلك ان الشرح الذي يلي اسم الموصول « الذي يحتال الخ » يفيد الخبرة والاحتيال لا العطف ،« ومعنى العطف قد سبق في جملة « الوالد الشفيق »

* * *

وبعد فلي كلمتان في تحرير النص من حيث الدقة :

الأولى أن الناشرين يذكرون احياناً مصادر الزيادات ، وأحياناً يغفلونها فلا ندري مأتاها (مثلاً ص١٦٥س٢، ٢٣٤ س ٧ ، ٢٤٩ س ١٢ — ١٣)

والكلمة الثانية ان الترقيم ربما جاء على غير وجهه ، وهذا عيب كنت نبهت عليه وأنا أنظر في « الإمتاع والمؤانسة » . الا أن الترقيم هنالك كان جدّ مضطرب . وأما هنا فحسبي مثلاً على ذلك جملة أوردتها فوق هذا الكلام من صفحة ٢٣٧ . فراجعها واحذف الشولة التي بين « مملكته » و « بمنزلة » لأن جملة « بمنزلة . . . » خبر للمبتدإ « المهدي » ، فمن الخطأ فصل المسند عن المسند إليه ، وإذا اعتبرت جملة « وأمته . . . » معترضة فعليك إذن أن تضع شولة بعد« المهدي » فلا تجتزىء بالشولة التي قبل « بمنزلة ». هذا واحذف الشولة التي بين« الحدب » و« الذي »، لأنه لا يفصل بين الصفة وتكملتها البيانية وهي اسم موصول بشر فارس

فهرس الجزء الاول

من المجلد الثامن والتسعين



Franklin D Roosevelt

الرئيس فرنكلن ديلانو روزفلت

امتخب اولاً للرآسة في نوفبر ١٩٣٢ وتولاها في مارس ١٩٣٣ ثم
امتخابهُ في نوفبر ١٩٣٦ ثم ثالثة في ٥ نوفبر ١٩٤٠ واحتفل بتنصيبه الثالث
يناير ١٩٤١ ويجد القارىء ملخصاً وافياً للخطبة التي اذاعها من البيت الا بي
٢٩ دسمبر ١٩٤٠ في صفحة ١٧٣ من هذا الجزء بعنوان «ترسانة الدمقرا

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثامن والتسعين

... سنة ١٩٤١ — ٥ محرم سنة ١٣٦٠

هل هناك عناصر

وراء عنصر الاورانيوم

... سنة ١٩٣٩ تلقت الدوائر ... بأن فريقاً من العلماء كشف ... إطلاق الطاقة من الذرة . وكان ...ة يحمون قبل ... مقادير الطاقة ... الذرة عظيمة ...لآن الى الأخذ ...طلقة من ذرات ...شطارها تعدل ...ن من المرات ...لطاقة المنطلقة ...ناً بوزن . فاذا أخذت قطعة ...وم بحجم نصف القرش وأطلقت ...ة ذرية بطريقة الانشطار كان ما ينطلق منها معادلاً لطاقة خمسة عشر الف صفيحة من البنزين

وهذا البنزين كاف لدفع سيارة متوسطة مليوناً ومائتي الف من الأميال .

ولو كانت طاقة الاورانيوم متاحة لنا في صنع سيارة جديدة لأغنتنا كتلة منهُ بقدر بذرة البرتقال عن خزان البنزين وحرق ما يملأ صفائح منهُ ، اذ تكفي طاقة البذرة لدفع السيارة مائة الف ميل قبل ان تتلاشى . وقلما تستعمل السيارة الجديدة لقطع أكثر من مائة الف ميل على المتوسط . وهذه الطاقة المخزونة في الذرة

ألقى الاستاذ فندرسول استاذ الطبيعة في جامعة القاهرة الاميركية محاضرة نفيسة باللغة الانكليزية على طائفة من اساتذتها في هذا الموضوع وأتاح لنا استخلاص هذا المقال منها . فله الشكر الجزيل

لازمة لحفظ الجسيمات الصغيرة التي تتألف منها ذرات الاورانيوم مترابطة متماسكة

ولا يخفى ان ذرة الاورانيوم تحتوي على ٢٣٨ دقيقة من الكتلة و ١٤٦ كهيرباً محشو
النواة . وحول النواة أفلاك اهليلجية تتحرك فيها كهيربات . في أقرب هذه الأفلاك ا
يتحرك كهيربان . ثم يليه فلكان في كل منهما ثمانية كهيربات ثم فلكان في كل منهما ثما
كهيرباً ثم فلك فيه اثنان وثلاثون كهيرباً ثم فلك فيه سبعة كهيربات (٢، ٨، ٨، ١٨، ١٨، ٢

ترتب العناصر في الجدول الدوري وفقاً لاوزانها الذرية أو وفقاً لأرقامها الذر
الحالين يستخلص العلماء من مواقع العناصر في الجدول حقائق كثيرة عن خواصها و
وصلة طوائفها بعضها ببعض . أما مندليف الروسي فقد رتب العناصر وفقاً لأوزانها ا
سنة ١٨٦٩ وكان ترتيبه لها سابقاً لكشف النظائر والأرقام الذرية . ومنذ ما رتب ا
العناصر ترتيباً دورياً وفقاً لأرقامها الذرية ، أصبح العلماء يجدون ترتيبه اجد
في دراسة العناصر من ناحيتها الكيميائية

وأخصر تعريف للرقم الذري هو « عدد كهيربات الذرة التي ليست في النواة »
العنصر مرتبطة أوثق ارتباط بالرقم الذري اي بعدد الكهيربات التي خارج النواة . ويقاس الر
بقياس الشحنة الكهربية الموجبة على النواة . وهو أصح وأدق . لأن الكهيربات قد تصاب
عن أفلاكها فتكسب الذرة كهيربات من غيرها أو تخسر كهيربات فتكسبها جاراتها
الكهيربات ليس عدداً ثابتاً الا في ذرات العناصر الثابتة المستقرة . ولكن شحنة النوا
أو قلما تتغير . ولما كانت كهربية الذرة متعادلة فشحنة النواة يجب أن تكون موجبة
كهربية الكهيربات التي خارج النواة وهي كهربية سالبة . ومقدار الشحنة على النواة يعادل اا
عدد البروتونات والكهيربات التي في النواة . فاذا كانت النواة مؤلفة من أربعة بروتونات ا
فشحنة النواة الموجبة ٢ فيجب أن يكون حول النواة كهيربان . وهذا هو الرقم الذري

وعلى كل حال أثبت البحث الطبيعي الحديث أننا كثيراً ما نجد ذرات متساوية في وزن
مختلفة في رقمها الذري . وأخرى متساوية في رقمها الذري مختلفة في وزنها الذري . أن
لم يكن يتصور تعقيداً كهذا التعقيد في بناء الذرة . ولو تصوّره أو استشف طرفاً منه
باعثاً على الفوضى والتشويش في عصره

وزن الهليوم الذري ٤ ورقمه الذري ٢ . أما النواة فقوامها أربع وحدات من الكتلة (أي برو
كل منها موجب الكهربية فيحتاج الى أربع وحدات سالبة الكهربية لتعديلها . في النو
من الوحدات السالبة (٢) وخارج النواة وحدتان أخريان . وسواء أخذنا بعدد اا

(١) راجع سيرته في اساطين العلم الحديث فصل « موزلي »

(٢) المقتطف : الغالب في تركيب نواة الهليوم أن النواة قوامها نترونان (النترون بروتو متلاصقان) وبروتونان حران . فيلزم لتعديل البروتونين الحرين الكهيربان اللذان خارج النواة

ة وهو (٢) أو بعدد وحدات الشحنة الموجبة على النواة وهو (٢) فرقم الهليوم الذري

اورانيوم فنواته تحتوي على ٢٣٨ وحدة من الكتلة (أي ٢٣٨ بروتوناً لأن البروتون له
ن للكهرب وزن يذكر) وعلى ١٤٦ كهرباً . وكل كهرب يعدل بروتوناً في النواة.
هُ مشترك معه في جسم نترون. فيبقى في النواة ٩٢ بروتوناً ليس لها ما يعدلها . فخارج
. ٩٢ كهرباً تعدل شحنتُها الكهربية وحدة ، وحدة الشحنة الكهربية الموجبة التي في
٩٢ فالرقم الذري للاورانيوم ٩٢

العناصر التي وزنها الذري أعلى من وزن الرصاص الذري (٢٠٧ر٢١) عناصر مشعة
من تلقاء ذاتها وتطلق نتيجةً لانحلالها ثلاثة انواع من القذائف—الفا وبيتا وأشعة
ل انحلالها الذاتي لا يمكن تغييره بفعل ما طبيعي او كيمياني معروف للانسان فهو
انفاعلات الكيميائية ولا بالضغط العظيم ولا بالبرد او الحرارة ولا بالمجالات الكهربية
بية أو الجاذبية (١)

س المعتمد في قياس معدل اشعاع عنصر مشع هو ما يعرف بمقياس « نصف العمر »
الزمن الذي يفقد فيه العنصر المشع نصف كتلته بالاشعاع . وهذا الزمن متفاوت
ا . ان « نصف عمر » الراديوم مثلاً ١٥٩٠ سنة ونصف عمر ثوريوم C جزء من
ء من الثانية ونصف عمر الرصاص لاحد لهُ أي أنه أكبر من أي قدر حدده العلم
قائق أشعة الفا شديدة الشبه بذرات الهليوم وهو العنصر الذي رقمه الذري ٢ ووزنه
ولكن دقائق الفا تختلف عن ذرة الهليوم في ان الدقيقة ليس لها كهيربان خارج النواة،
ذرة هليوم فقط وتعرّف بأنها ايون ولكنها هليوم على كل حال لأن رقمها
وهو عدد وحدات الشحنة الموجبة على النواة

لواضح انهُ اذا خرج أيون هليوم من مادة ما ، فوزن تلك المادة ينقص ٤ وشحنتهُ
النواة تنقص ٢ (لأن وزن ايون الهليوم ٤ وشحنتهُ الموجبة ٢) . وهذا يعني انهُ
ت دقيقة الفا من مادة مشعّة فالوزن الذرّي لتلك المادة ينقص ٤ والرقم الذرّي
لأن وحدات الشحنة الموجبة على النواة تنقص ٢ وهو مقدار شحنة دقيقة الفا)
شعة بيتا فهي تيارات من الكهيربات . وهي تنطلق من النواة في اثناء الانحلال
طلاقها تزيد شحنة النواة الموجبة وحدة كاملة لكل كهيرب ينطلق . وانقذاف احد
من النواة يختلف عن انقذاف احد الكهيربات الخارجية التي حول النواة . فاذا فقدت

الكهيرب والنواة تأليف هواج Hoag Nuclear & Electron Physics سنة ١٩٣٨

ذرة مغنيزيوم كهربين خارجيين اصبحت ايون مغنيزيوم . ولـكن اذا فقدت ذرة مغنيزيو من نواتها تحوَّلت الى ذرَّة الومنيوم . وعلى المنوال نفسهِ اذا خسرت ذرَّة صوديو كهرباتها الخارجية غدت ايون صوديوم . ولـكن اذا فقدت كهرباً من كهربات نواتها ذرة مغنيزيوم . لأن انقذاف كهرب من النواة يغير مقدار الشحنة الموجبة على النواة الرقم الذري وبتغير الرقم الذري يتغير العنصر . ولـكنه في الوقت نفسه لا يغير الوزن الذ وزن الـكهرب لا يذكر

أما أشعة جما فأشبه بالأمواج منها بالدقائق لا كتلة لها ولا شحنة ولا تهمنا في نطاق هذ

فلناق الآن نظرة على الانحلال الاشعاعي . إن العنصر الذي تنتهي اليهِ سلاسل ا الاشعاعي راديوم G وهو نظير من نظائر الرصاص ، وزنهُ الذري ٢٠٦ ورقمهُ الذر وهذا النوع من الرصاص هو أكثر أنواعهِ شيوعاً . وتمييزاً لهُ عن الانواع الأخر رصاص الأورانيوم ، لأنهُ نتيجة لانحلال أورانيوم (ا) وهو أشهر أنواع هذا العنصر

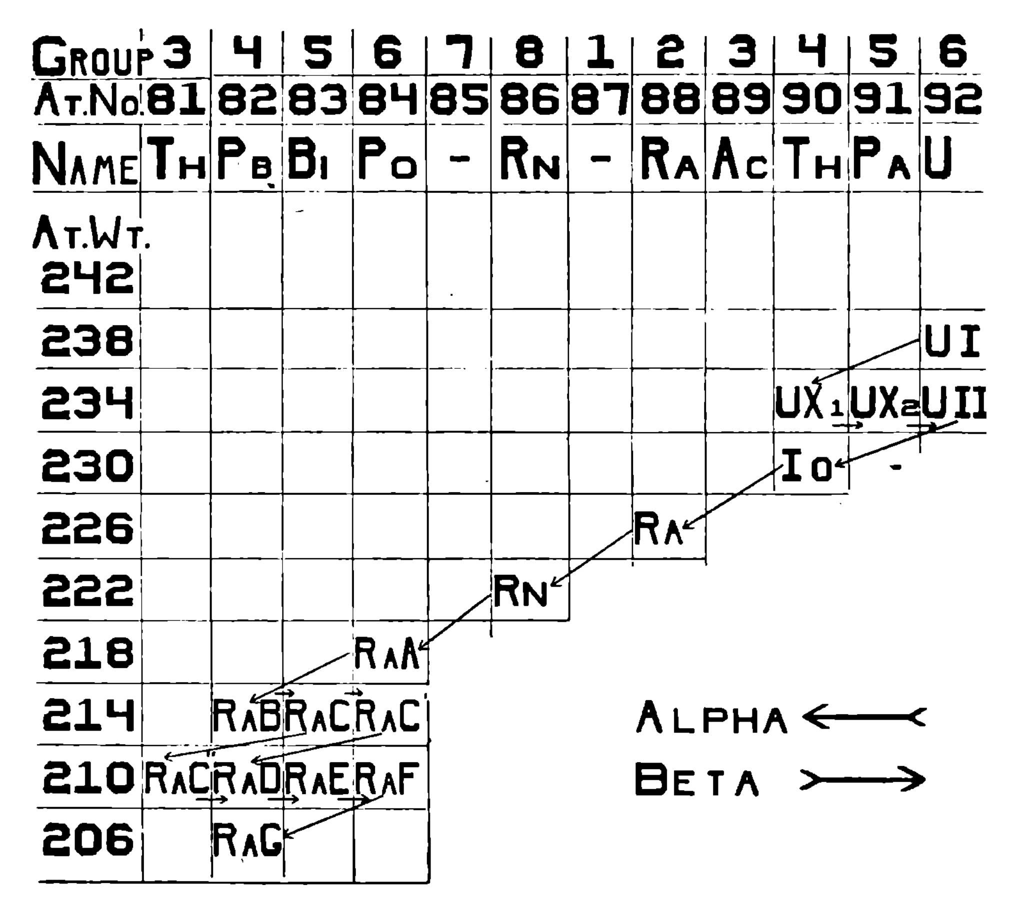
وهناك سلسلة أخرى من التحولات الانحلالية الاشعاعية تبدأ بنوع من الأورانيو الذرّي ٢٣٥ ورقمهُ الذرّي ٩٢ طبعاً لأنهُ لا يكون أورانيوماً إلاَّ اذا كان رقمه الذرّ وتنتهي سلسلة تحوله الاشعاعي الى رصاص وزنهُ الذرّي ٢٠٧ ورقمهُ الذرّي ٨٢ . الرصاص يعرف برصاص الاكتينيوم ، وهو رصاص ولـكنهُ يختلف عن رصاص الأو وثمة سلسلة أخرى تبدأ بالثوريوم (وزنهُ الذري ٢٣٢ ورقمهُ الذري ٩٠) وتنتهي الى الثوريوم وهو رصاص صحيح ولـكن وزنهُ الذرّي ٢٠٨ ورقمهُ الذرّي ٨٢ طبعاً

في السلاسل الثلاث ينتهي التحوُّل الى ثلاث مواد رقمها الذرّي ٨٢ فهي رصاص أوزانها الذرية مختلفة (٢٠٦ و٢٠٧ و٢٠٨) ولذلك تعرف هذه الأصناف الثلاثة من ا بوصف النظائر (isotopes) لأنها تحتل مكاناً واحد في جدول موزلي الدوري وهذا هو مكان العنصر ٨٢

الاَّ ان الوزن الذري للرصاص بحسب كتب الـكيمياء هو ٢٠٧٫٢١ فكيف يكون ذ

عندما عين العلمـاء الأوزان الذرية بعد بحث شاق وتجريب دقيق أذهلهم و يجدوا في بعضها كسوراً . من أين جاءت الـكسور ؟ واذا كانت النظرية الذرية صح الذرات لا تتجزأ فمن أين الـكسور ؟ أو هل هناك خطأ في طريقة البحث والحساب ؟

الاَّ ان العلم الحديث أثبت ان البحث كان وافياً والحساب دقيقاً ولـكنهُ جاءنا الدقيق البسيط ، لهذه الأحاجي . وهو تفسير مبنيٌّ على ظاهرة النظائر . فالرصاص الذي في أعمالنا ، وهو الرصاص الذي بحثه العلماء في مختبراتهم لتعيين وزنهِ الذري ، يشمل



ورانيوم بخروج نوعين من الدقائق ، منه دقائق الفا ودقائق بيتا . في الرأس الى اليمين اورانيوم ١ يتحول
ما الى اورانيوم X ١ ثم يتحول هذا بانطلاق دقيقة بيتا الى اورانيوم X ٢ ثم الى اورانيوم ٢ . وهذا
ريوم وهذا الى راديوم وهذا الى رادون وهذا الى راديوم A وهو نظير للبولونيوم وهذا الى
و نظير للرصاص ثم يتحول هذا بانطلاق دقائق بيتا الى راديوم C وهو نظير للبزموت فالى راديوم C' وهو
. أما راديوم C' فيتحول الى راديوم C" بخروج دقيقة الفا منه وهو نظير الثاليوم . وراديوم C'
يوم D وهو أحد نظائر الرصاص . ثم ان راديوم C" يتحول بخروج دقيقة بيتا منه الى راديوم D فالى
راديوم F وهذا يتحول بخروج دقيقة الفا منه الى راديوم G وهو نظير آخر للرصاص وآخر سلسلة التحول

الرصاص الثلاثة ، أحدها وزنه ٢٠٦ والثاني ٢٠٧ والثالث ٢٠٨ . فمتوسط ما يوجد منها في كتلة من الرصاص المألوف ٢١ر٢٠٧ . قد يزيد مقدار نظير من النظائر الثلاثة فيرتفع متوسط وزن الثلاثة مجتمعة وقد يقل فيقل المتوسط ، ولكن الاحتمال الرياضي يعتمد عليه . ومؤداه ان كل كتلة من الرصاص تحتوي على مقادير من النظائر الثلاثة بحيث يكون متوسط وزنها ٢١ر٢٠٧

وهناك ظاهرة أخرى لا بدّ من الاشارة اليها وهي ظاهرة العناصر التي تتساوى في وزنها الذري وتختلف في رقمها الذري

فهناك في جدول العناصر المشعة راديوم وزنه الذري ٢١٤ ورقمه الذري ٨٢

وراديوم C « « ٢١٤ « « ٨٣

وراديوم C' « « ٢١٤ « « ٨٤

هذه العناصر تعرف باسم «ايسوبار» — بينما النظائر تعرف باسم « ايسوتوب » — وكلٌّ منها عنصر يختلف عن الآخر . فالأول نظير لعنصر الرصاص Pb والثاني نظير لعنصر البزموت Bi والثالث نظير لعنصر البولونيوم Po وسبب هذا انقذاف كهيرب على التوالي من العنصر الأصلي فتزيد الشحنة على النواة أي الرقم الذري أي يتغير العنصر نفسه بغير ان يتغير الوزن الذري

هنا يخطر للباحث سؤالان . اولها لماذا يقف الجدول الدوري عند عنصر الاورانيوم (رقمهُ الذرّي ٩٢) ؟

ومبعث هذا السؤال نظرة رياضية في عدد الكهيربات الخارجية التي حول نوى الذرّات في العناصر المختلفة . فقد تقدَّم معنا ان الذرّات مرتبة في افاق اهليلجية حول النواة وعددها في كل افق يتبع السلسلة الرياضية التالية

$$٢ (١^٢ + ٢^٢ + ٢^٢ + ٣^٢ + ٤^٢) = ٨٦ \text{ كهيرباً}$$

ولو تمَّت هذه السلسلة لوجب ان يكون هناك بعد العنصر الذي رقمهُ الذرّي ٨٦ اثنان وثلاثون عنصر ٢ ($٤^٢$) = ٣٢ ، الرقمُ الذري لكل منها يزيد واحداً على التوالي عمَّا قبله . ولكن ليس في جدول العناصر الا ستة عناصر ارقامها الذرّية ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ . فأين العناصر التي تلي ذلك الى ١١٨ ؟ أين العناصر ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ وما يليها ؟ لماذا وقف جدول العناصر عند هذا الحدّ ؟

اما السؤال الآخر فهو هذا : اذا كان انقذاف دقيقة بيتا (اي الكهيرب) انقذافاً ذاتيّاً من نواة عنصرٍ ما ، يرفع رقمهُ الذري أفلا يفضي قذف كهيرب منها الى النتيجة نفسها ؟ او ليس هناك طريقة اخرى خاضعة لسيطرة البحث العلمي تمكن العلماء من احداث هذا التغيير ، اي هل هناك وسيلة لتحويل العناصر تحويلاً بالقوة ؟

هذه المسألة عولجت بثلاثة أساليب رئيسية

اولاً — في سنة ١٩١٩ وفق رذرفورد الى تحويل النتروجين بإضافة دقيقة الفا الى نواة النتروجين فرفع وزن النواة (٤) وحدات وشحنة النواة وحدتين (٢) أي ان رقم النتروجين الذرّي زاد ٢ . والتعبير البياني كما يلي : —

نتروجين $\frac{14}{7}$ + هليوم $\frac{4}{2}$ ← فلورين $\frac{18}{9}$ ← اوكسجين $\frac{17}{8}$ + ايدروجين $\frac{1}{1}$ وتفسيره :

الرقم الذي تحت الخط هو الرقم الذرّي والرقم الذي فوقه هو رقم الوزن الذري للعنصر. ومعناه أضف الى نواة النتروجين دقيقة الفا (وهي نواة هليوم) تتولد نواة وزنها الذري ١٨ ورقمها الذري ٩ فهي نواة ذرة فلورين ولكنها لا تلبث حتى تنحل مولدة نواة ذرة اكسجين وزنها الذري ١٧ ورقمها الذري ٨ فهي نواة ذرة اكسجين وكذلك ذرة ايدروجين وزنها الذري واحد ورقمها الذري واحد

ثانياً — في سنة ١٩٣٠ قذف بوث وبكر في المانيا أشعة الفا المنطلقة من البولونيوم على الليثيوم والبريليوم والبورون فلاحظا ان نتيجة الاصطدام اشعاع قوي النفاذ يفوق في نفاذه أشعة جمّا المنطلقة من راديوم c ثلاثة أضعاف . وبالحساب قدرا طاقة الفوتون الواحد من هذه الأشعة بخمسة عشر ميجا الكترون ڤولط Mev ، أي خمسة عشر مليون الكترون ڤولط (١)

وفي سنة ١٩٣٢ عنيت ارين كوري (كريمة الاستاذ كوري وزوجه المشهورين) وزوجها الاستاذ جوليو بدراسة هذه الاشعة المنقذفة من البريليوم فسدَّداها الى مواد يكثر فيها الايدروجين مثل مادة البرافين فانقذف من البرافين بروتونات لها طاقة قدرها ٤ ملايين الكترون ڤولط Mev (اي ٤ ميجا الكترون ڤولط) وعلى هذا الاساس عملوا حساباً فوجدوا أن طاقة الاشعة نفسها تبلغ ٥٠ Mev . أي أنهما حسبا لها طاقة تزيد على ثلاثة أضعاف الطاقة التي قدرها لها بوث وبكر (١٥ Mev) ولا تتفق مع طاقة دقيقة الفا البالغة في هذه الاحوال ٥ Mev . هل هناك خطأ في الحساب هنا او هناك ظاهرة طبيعية جديدة ؟

وفي السنة نفسها قال شدوك الانكليزي أن هذه الاشعاعات هي تيارات من دقائق لا شحنة

(١) ان طاقة الكترون — ڤولط ، هي الطاقة التي يكتسبها كهيرب عند ما يزيد ضغط الكهيرب ڤولطاً واحداً وهذه وحدة صغيرة جداً من الطاقة تعدل ١٥٩١ جزءا من عشرة آلاف مليون مليون جزء من الارج ولذلك يستعملون وحدة اكبر هي Mev أي مليون الكترون ڤولط . ونضرب مثلاً على ذلك . اذا وقع نصف القرش مدى عشرة سنتيمترات فأنه يعمل عملا او يفقد طاقة مبلغها ٧٨٤٠٠ أرج . ولكن طاقة فوتون من هذه الاشعة التي كشفها بوث وبكر لا تزيد على جزء من ٤٠٠ الف جزء من الارج . ومع ذلك فان طاقتها هذه — اذا قيست بطاقة غيرها من الاشعة — تحسب عظيمة جداً لان كتلتها صغيرة جداً لا تزيد على جزء من ٠٠٠، ٠٠٠ ٠٠٠ ١٦٠ من الغرام

كهربائية لها ، ولكن لها كتلة تعدل كتلة البروتون وقال أن التفاعل يحصل كما يلي

بريليوم $\frac{٩}{٤}$ + هليوم $\frac{٤}{٢}$ ← كربون $\frac{١٢}{٦}$ + نترون $\frac{١}{٠}$ + طاقة. أي أن اطلاق دقائق الفا (وهي نوى ذرات الهليوم) على البريليوم يحول البريليوم الى كربون ويصحب توليد الكربون انقذاف نترون ومقدار من الطاقة

وليلاحظ القارىء أن وزن البريليوم الذري مع وزن الهليوم الذرى ٤ يعدلان وزن الكربون الذري ١٢ مع وزن النترون الذري ١ (١٣في الحالين) وان الرقمين الذريين في نصف المعادلة الاول اي ٤ر٢ يعدلان رقم الكربون الذري (٦) وليس للنترون رقم ذري

ومُنح شدوِك لاقتراحهِ المعادلة السابقة جائزة نوبل . ولا يخفى ان هذه الدقائق التي وزنها الذرّي كوزن البروتون اي ١ لا رقم ذرّي لها اي صفر اذ ليس لها شحنة على النواة ولذلك دعيت « النترون » اي محايد . فلما فهم ان وحدات هذه الاشعاعات الخفية المنطلقة من البريليوم هي دقائق من الكتلة او جسيمات وليست فوتونات من اشعة جما ، حلت المصاعب الرياضية التي تحيط بما تتصف بهِ من طاقة عظيمة اي قدرة على النفاذ. وثبت ان تقدير بوث وبكر صحيح وان تقدير ايرين كوري وزوجها خاطىء لأنهُ كان مبنيًّا على مقدمات خاطئة عن طبيعة هذه الاشعاعات

ثالثاً — وتدور الطائفة الثالثة من التجارب حول اسم فرمي Fermi الايطالي وهو كذلك احد نائلي جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٨

بدأ فرمي في سنة ١٩٣٤ بحثه باطلاق النوترونات على طائفة من المواد فتوصل الى نتائج لم تكن منتظرة . ذلك بان دقيقة الفا لها شحنة كهربية موجبة فاذا قذفت على مادة ما واخترقت مارة بقرب نواة احدى الذرّات — والنواة كما نعلم شحنتها موجبة كذلك — فان الدقيقتين تتدافعان ولذلك قلما يسهل على دقيقة من دقائق الفا ان تصل الى النواة . ولكن النوترون ليس له شحنة كهربية لا موجبة ولا سالبة فنطاق النواة الكهربي لا يدفعهُ ولا يحرفهُ فاحتمال اصابة النوترونات لنوى الذرات اكبر

وعلى ذلك جمع فرمي السؤالين المتقدمين في سؤال واحدٍ . هل نستطيع ان نقذف جسيمات بيتا (اي الكهربات) من نواة الذرّة بقنابل نولدها نحن فتخضع لسيطرتنا ؟ اذا كان ذلك مستطاعاً فهل نستطيع ان نقذف الاورانيوم بها فنولّد عناصر رقمها الذري أعلى من رقم الأورانيوم الذرّي ؟ أي هل نستطيع ان نولد العنصر ٩٣ أو ٩٤ أو ٩٥ وهلم جرًّا

(١) المقتطف: ذهب الى استوكهلم لتسلم جائزة نوبل ثم سافر الى الولايات المتحدة ولم يعد منها الى ايطاليا

أقدم أولاً على تجربة هذا الرأي في العناصر الخفيفة فأصاب بعض النجاح مما تدل عليه المعادلة التالية

الومنيوم $\frac{٢٧}{١٣}$ + نترون $\frac{١}{٠}$ ← صوديوم $\frac{٢٤}{١١}$ + هليوم $\frac{٤}{٢}$

ثم صوديوم $\frac{٢٤}{١١}$ ← مغنزيوم $\frac{٢٤}{١٢}$ + الكترون . ومعنى هذا ان الكتروناً (كهرباً اي دقيقة بيتا) يقذف من نواة الصوديوم فيرتفع رقمهُ الذري من ١١ الى ١٢ فيصبح مغنزيوم ويبقى وزنهُ الذرّي على ما هو

ولكن ماذا حدث للاورانيوم ؟ أسفرت التجارب في الأورانيوم عن نوعين من التحول. فقد وجد فرمي ان اضافة نترون الى الاورانيوم تحمله على اطلاق جسيمات بيتا أي كهربات

أورانيوم ٩٢ + نترون $\frac{١}{٠}$ ← أورانيوم ٩٢* ← ايكا رينيوم ٩٣ ← ايكا اوسميوم ٩٤

ويؤخذ من المباحث التي نشرت حتى منتصف سنة ١٩٤٠ ان نصف عمر العنصر ٩٣ يومان وثلاثة أعشار اليوم وربما كان نصف عمر العنصر ٩٤ بضعة آلاف من السنين

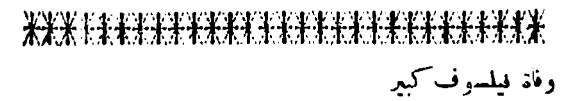
وفي أواخر سنة ١٩٣٩ وردت أنباء من السويد بكشف ما يعرف الآن بظاهرة انشطار الاورانيوم . وهذه الظاهرة تختلف عن الظاهرات التي تقدم ذكرها. ان التحول في الظاهرات السابقة كان يتم بتحول الرقم الذري بنقص وحدة أو وحدتين او زيادتهما أي أن مدى التغيير كان بحذف جزء صغير من النواة او اضافته. أما في الظاهرة الجديدة ظاهرة الانشطار فذرة الاورانيوم نفسها انشطرت أو انفلقت شطرين او فلقتين تكادان تكونان متساويتين بعد القذف بالنترون

أي أن نواة الاورانيوم لم تتخلَّ عن دقيقة الفا بعد قذفها بالنترون بل انشطرت شطرين كل منهما نواة ذرة جديدة كالكربتون (رقمه الذرّي ٣٦) والباريوم (رقمه الذري ٥٦) ومجموعهما ٩٢ وهو رقم الاورانيوم الذرّي . وهذا الانقسام الى قسمين يكادان يتساويان حمل العلماء على وصف هذه الظاهرة بالانشطار بدلاً من التحول. وصحب انشطار كل نواة ١٧٥ مليون الكترون فولط . نعم أن طاقة قدرة الكترون فولط طاقة صغيرة جداً والميجا الكترون فولط يزيد عليها مليون ضعف ومع ذلك يبقى طاقة صغيرة ولكن عندما نذكر عدد ذرّات الاورانيوم في غرام منهُ (وهو عشرون الف مليون مليون مليون) فالطاقة التي تتولد من انشطار ذرات الأورانيوم في غرام واحد لا بدَّ أن تكون طاقة عظيمة (١) إلاَّ ان استخلاص مقدار يسير من أورانيوم ٢٣٥ الذي يحدث فيه هذا الانشطار على أوفى وجه شاقٌ جداً فلا خوف على العالم الآن من هذه الطاقة المنطلقة من ذرّاته

---

* النجمة تشير الى ان دخول النترون جعل ذرة الاورانيوم مشعة على وجه خاص فتطلق دقيقة بيتا فتتحول الى العنصر الذي يلي

(١) ليراجع القارئ في هذا الجانب من الموضوع اي انشطار الاورانيوم الفصل الوافي الذي كتبناه في مقتطف يوليو ١٩٤٠ صفحة ١٢٤



وفاة فيلسوف كبير

هنري برجسون

لعلي أدهم

نعت اخبار فيشي في اليوم الخامس من يناير الى العالم الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت هنري برجسون ، وقد طويت بوفاته صحيفة فيلسوف من كبار فلاسفة العصر ومفكر ممتاز في الطبقة الاولى من اصحاب المذاهب الفلسفية الحديثة والابنية الفكرية الرائعة . وبرجسون مفكر جم الطرافة ، عميق التفكير ، بارع الاداء ، وقد لفتت فلسفته الانظار منذ شبابه الباكر وظهور طلائع مؤلفاته ، ومذهبه مثل سائر المذاهب الفلسفية التي اشتهر امرها وذاع تأثيرها، استهدف لنقدات هادمة واخضع لتحليلات قاسية وتلقى هجمات عنيفة ، وقد قاوم فلسفته في فرنسا نفسها المفكر الفرنسي المعروف جوليان بندا ، ونقدها نقداً بارعاً الفيلسوف المعاصرجورج سانتايانا في بحث مستفيض ، ولم يعفها برتراند رسل من تعقيباته اللاذعة وملاحظاته النفيسة

وقد مات برجسون عن سن عالية فقد ولدفي باريز سنة ١٨٥٩ واسرته من اصل ارلندي ، والموت هو النهاية التي كانت منتظرة له وقد أدى واجبه وابلغ رسالته ، ولكننا كنا نود لهذا الفيلسوف السمح ان يودع الدنيا في احوال أسمح وأقل حلكاً من الاحوال الواقعة التي تعاني فيها فرنسا ذل الهزيمة وألم التخاذل ، وسيتيح موته للمفكرين والباحثين ان يعيدوا النظر في فلسفته ويراجعوا سابق آرائهم فيها ، لانها اكتسبت بوفاته الصورة النهائية التي لا يتلوها تعديل ولا رجوع عن موقف او جلاء بعض المشكلات او دفع بعض الاوهام والاخطاء

وقد يكون من الخيران نذكر في هذا العصر الذي غلبت فيه على بعض الامم الآراء العنصرية الزائفة ان برجسون احد اربعة من ابناء اسرائيل كان لهم تأثير كبير في التفكير الحديث ، والثلاثة الآخرون هم فرويد العالم النفسي الذي قال عنهُ ماكدوجال انهُ أكبر عالم نفسي عرفتهُ الدنيا منذ عهد ارسطو ، واينشتاين صاحب الآراء المعروفة فيالنسبية ، وشبنجلر مؤلف كتاب « تدهور الغرب » الذي كان لهُ تأثير كبير في دراسة التاريخ والموازنة بين الحضارات

ولست احاول في هذا المقال تحليل فلسفة برجسون او ارسم صورة مجملة لها ، وانما اريد ان اشير الى بعض نواحيها البارزة وبعض ما اسفرت عنهُ من الافكار المرتبطة بالاحوال الحاضرة

أوضح برجسون أفكاره الاساسية واتجاهاتهِ الاصيلة في طائفة من المؤلفات ، أشهرها «الزمان والارادة الحرة» الذي ظهر في سنة ١٨٨٨ ، و«المادة والذاكرة» وقد ظهر سنة ١٨٩٦ و«التطور الخالق» وهو أجمع مؤلفاتهِ لفلسفتهِ وأكبرها شأناً وقد ظهر في سنة ١٩٠٧ وهو أقوى دعامة تقوم عليها شهرة برجسون وفلسفتهِ

وفلسفة برجسون التي بسطها في هذه المؤلفات تبدو سهلة يسيرة شائقة العرض بليغة الاسلوب موفقة المجازات والاستعارات بديعة التشبيهات ، ولـكنها قائمة على وجهة نظرة طريفة قد يجد الانسان صعوبة جمة في إدراكها . وكما أن أنصار مذهب الذرائع (البراجمتزم) قد استندوا في فلسفتهم الى قول الفيلسوف اليوناني بروتاغوراس « ان الانسان مقياس كل شيء » فكذلك برجسون يستند في فلسفتهِ الى قول هرقليطس « ان الاشياء في تغير متصل » وفهم هذه الفكرة الهينة في مظهرها هو الصعوبة الـكبرى في فلسفة برجسون ، وسأوضح في ايجاز كيف انتهى برجسون الى هذه الفكرة ثم أبين طبيعتها وأشفع ذلك بالحديث عن الموهبة الموكلة بادراكها

أن الطريقين اللذين أفضيا ببرجسون الى الاعتقاد بأن الاشياء في تغير متصل هما علم الحياة وعلم النفس ، فقد كان المتعارف عند العلماء أن حقائق النشوء والارتقاء إما أن يكون مصدرها التنوعات التي طرأت على الانواع بطريق المصادفة وتكررت وبقيت لملاءمتها للبيئة كما رأى داروين ، وإما أن التكيف لملاءمة البيئة هو العامل الحاسم في النشوء والارتقاء كما رأى لامارك وكلما تغيرت البيئة تبع ذلك تغير في الانواع لمحاولتها الملاءمة بين نفسها وبين التغير الطارىء واكثرها نجاحاً في عملية التكيف يبقى ويصلح والذي يعجز يفنى وينقرض ، وواضح أن هذين المذهبين يرجعان بالتطور الى البواعث الآلية المحضة الخالية من أثر العقل أو تحري القصد

وهذا التصور الآلي للكون يرفضه برجسون ، ويجهد نفسهُ في جمع حقائق شتى من عالم الحشرات وعالم النباتات وعالم الحيوانات لا يفسرها هذا النظر الآلي تفسيراً يصح أن يطمأن اليهِ وملاءمة البيئة أو بقاء الاصلح لا يفسران لنا بجال التنوعات الفجائية التي تطرأ على الانواع ويتساءل برجسون « اذا كان العامل الحاسم في التطور هو الملاءمة للبيئة والتكيف بحسب مقتضياتها فلماذا لم تقف حركة التطور منذ آلاف السنين ؟ »

ولماذا ظلت الحياة تفتنّ في خلق تغيرات جديدة ؟ ولمَ لم تطمئن الى ما وصلت اليهِ من تجاوب ووفاق مع البيئة ؟ أليس معنى ذلك ان خلفها حافزاً يحدوها على اقتحام العقبات والاندفاع الى غايتها المنشودة وهي التزيد من التفوق والاستعلاء ؟ وهذا الحافز هو ما يسميه برجسون الدافع

الحيوي وهو العامل المحرك للتطور ولولاه لغمض أمر النشوء والارتقاء والنوى تفسيره

وحقائق علم النفس كذلك تتأدى بنا الى هذه النتيجة ، وللمذهب الآلي في علم الحياة نظير في علم النفس يحاول ان يعزو كل ما يطرأ على الوعي من الأحاسيس والتأثرات والأفكار الى مايحدث للجسم، وبرجسون ينكر الاكتفاء بذلك ويؤيد رأيه بشواهد متعددة عن حالات نفسية مستقلة عن التأثرات العضوية ، والتفسير الآلي في رأي برجسون لا يعلل لنا وجود « العقل الباطن » ، والمخ عند برجسون شيء غير الوعي ، وليس هو سبب الوعي ، وانما هو مجرد عضو الوعي او الباب الذي ينفذ منهُ الوعي الى المادة

واذا كان الوعي مستقلاً عن المخ ، وانهُ يتخذ المخ وسيلة لأغراض خاصة فكيف نحدد الوعي إذاً ؟ الجواب على ذلك ان الوعي هو « الدافع الحيوي » ، ويحاول برجسون بعد ذلك ان يبين لنا حقيقة الوعي ، وعنده ان الوعي يبدو لنا في بادىء الأمر على أنهُ مكوَّن من حالات نفسية متعاقبة ، كل منها وحدة قائمة بذاتها ، وهذه الحالات مشتبكة ومترابطة بعضها ببعض ويتكوَّن منها ما يسمى « النفس » كما يتكوَّن العقد من الفرائد ، ولكننا اذا استبصرنا ظهر فساد هذا الرأي ، ومصدر الخطأ هنا أننا عندما نسلم بأن حالة من الحالات قد تبدلت وذهبت لطيتها وأفسحت الطريق لغيرها يعزب عن بالنا ان نفس تلك الحالة لم تستقر بصورة نهائية ، وان ما نخاله بقاءها لم يخرج عن كونه تغيراً مستمرًّا ، وأنت اذا لحت شيئاً ثابتاً من زاوية خاصة وفي نفس الضوء ثم كررت الطرف نحوه كرة ثانية كانت اللمحة الأولى مختلفة عن اللمحة الثانية لأن احداها أقدم من الأخرى ، واذا كان ذلك كذلك في مشاهدتنا للمحسوسات الخارجية فهو أصدق في ادراكنا للحالات الداخلية ، فنحن نتغير بدون انقطاع ، والفكر والاحساس والارادة كلها في تغير دائم ما بين طرفة عين وانتباهتها

وليس هناك اذاً فرق حقيقي بين الانتقال من حالة الى حالة او البقاء على ما يسمى « حالة واحدة » ، ونحن نتخيل هذا الفرق لأننا لا نحس هذا التغير الاَّ بعد ان يصير من الوضوح بحيث يجتذب التفاتنا فنعترف حينذاك بأننا قد انتقلنا من حالة الى حالة جديدة ، ونستخلص من ذلك ان هناك حالات عقلية متعاقبة . ومن اجل ذلك نخال انفسنا اشخاصاً ثابتة على الدوام برغم التغير، ولكن الحقيقة ان كل شيء في تغير ، وينتهي برجسون الى اننا انفسنا في تغير متصل وان حياتنا في صميمها هي « التغير » ، والنفس التي لا تتغير غير موجودة ، والواقع انهُ لا حقيقة سوى « التغير » ، فنحن جوهرنا التغير وكذلك جوهر الكون ولب لبابه هو التغير ، والوجود فيض مستمر والتطور هو حركته الدائبة

ولكن كيف ندرك ذلك ؟ ان هذه الحقيقة الكبرى لا تدرك عن طريق العقل وانما تدرك

« بالبصيرة » او « الذوق » . وفلسفة برجسون تشك في العقل وتراه محدوداً قاصراً لا يستطيع الوصول الى الحقيقة لان عمله التجريد والتحليل والتقسيم ، ولا ينكر برجسون ان العقل يوافينا بمعلومات نافعة وضروب صالحة من المعرفة ولكن هذه المعرفة محدودة ضيقة المدى الى حد كبير، وقيمتها متوقفة على فروض لا برهان عليها ولا دليل على مطابقتها للواقع ، ومعرفتنا المستمدة من العقل والتجربة ربما تكون سراباً خدّاعاً ومظهراً زائفاً . وهناك مسائل كثيرة يعجز العقل عن ادراكها ولا يستطيع تفسيرها، ولكي نحصل على المعرفة الحقيقية يلزم أن نعكس أسلوب التفكير ونمسك عن التحليل والتفسير والتعليل. ويقول برجسون في رسالته النفيسة التي اسماها « مقدمة ما وراء الطبيعة » « يوجد طريقان مختلفان لمعرفة اي شيء من الاشياء ، الطريقة الاولى هي ان نطوف بالشيء ونلم بهِ الماماً ، والطريقة الثانية هي ان نخلص اليهِ ، والطريقة الاولى متوقفة على وجهة النظر التي نلمحه منها وعلى الرموز التي نعبر بها عن انفسنا ، والطريقة الثانية لا تتوقف على وجهة النظر ولا تعتمد على الرموز ، والمعرفة الاولى تقف عند النسبي والمعرفة الثانية تنتهي الى المطلق »

وفلسفة برجسون محاولة هادمة لزحزحة العقل عن مكانته وانزاله من عليائه وللعقل وظيفة مفيدة في ذاتها وهي العمل في عالم المادة. ويستبين عجز العقل عندما يحاول ان ينير عالم الروح او يتغلغل الى كنه الواقع ، وقد عمل العقل الحديث في عالم المادة فنجح نجاحاً باهراً وحاول أن يقتحم عالم الروح ففشل فشلاً ذريعاً. ويرى برجسون اننا اذا تخلصنا من سلطان العقل واعتمدنا على البصيرة استطعنا ان نعرف الحقيقة معرفة مباشرة وأرحنا العقل من عمل لا يصلح له. ويتظاهر برجسون بأنهُ لا يريد أن يضيف الى المذاهب الفلسفية مذهباً جديداً وانما يريد أن ينحو نحواً جديداً في التفكير ، وان يعتمد هذا التفكير على البصيرة لا على العقل

من أمثلة ذلك اننا عندما نشاهد صورة من الصور قد نراها عقب النظرة الاولى مجموعة من الخطوط والرسوم والألوان قد رسمها المصور الفنان على اللوحة ، وقد نراها بعد النظرة الثانية مجموعة غير موزعة وندرك ان حقيقتها متوقفة على هذا الكل المتماسك لا على التفصيلات والدقائق ، ونحن بالبصيرة نفهم طبيعة الحقيقة من حيث هي كل لا يتجزأ ، والفنان العظيم يستطيع ان يأتي بالروائع والآيات الفنية لنفاذ بصيرته خلال المظاهر السطحيـة وتغلغلها الى مضمر الأسرار المستقرة خلف المظاهر ، ورؤيته لهذه الحقيقة هي التي تقوم عليها عظمة فنه ، وهو يعيد تصوير هذه الرؤية على اللوحة ، وجوهر الصورة هو حقيقة تلك الرؤية لا الألوان والاصباغ والأشكال والرسوم أو براعة الصناعة والقدرة على الاداء ، وانما يستطيع الفنان العظيم ذلك بالتغلغل العاطف الى صميم موضوعه واكتناه معناه

ولكن ما وظيفة العقل إذن ؟ مجال العقل هو الأغراض العملية ، وهو يشق طريقه خلال فيض الحقيقة المتتابع ، وينحت منها أشياء صلبة تسمى الأشياء المادية ، ويفرق بين الحالات النفسية الطارئة على الوعي،وتنسيقاته وتخطيطاته ليس لها وجود حقيقي وانما هي صور مفروضة على الحقيقة لتلائم أغراضنا العملية ، وهذه المظاهر المنبعثة من نفوسنا تعكسها علينا الحقيقة كما تتراءى الصور في صقال المرآة فنتوهم ان تلك الصور من صنع الحقيقة

وتصوير العقل للحقيقة على هذا النمط له نتائج متناقضة عجيبة تبدو واضحة في مسألة الحركة وهي علة المغالطة المشهورة التي ذهب اليها الفيلسوف اليوناني زينون الايلي تلميذ بارمنيدس وأثبت بها ان الجسم المتحرك لن يبلغ غايته الا اذا قطع أولاً نصف المسافة اليها ونصف النصف وهكذا الى ما لا نهاية ، ولما كان اجتياز اللانهاية ممتنعاً فان الحركة ممتنعة وان السهم كذلك غير منطلق وحجته في ذلك قائمة على ان الزمان مؤلف من آنات غير متجزئة ، واذا راقبنا السهم في مروقه في أية آونة او مكان فهو اما أن يكون حيث هو او لا يكون ، فاذا كان حيث هو غير موجود فهو اذاً لا يتحرك في هذه الآونة. وقس على ذلك سائر الآنات . وقد أدى ذلك بكثير من الفلاسفة الى انكار الحركة جملة وانكار حقيقة الزمن . ويرى برجسون أن مصدر الخطأ هنا هو أن العقل حاول أن يقسم ما هو غير قابل للتقسيم ، والعقل يقسم الزمن الى ساعات ودقائق وثوان ، وأمثال هذه التقسيمات لا أساس لها من الحقيقة ، وهو يشبه العقل بالسينما الذي يلقط مظاهر من حركة الاشياء كل منها يبين حال معينة ثابتة ، فالعقل يقدم لنا مظهراً راثماً للحقيقة

هذه بعض النواحي البارزة والسمات البادية لفلسفة برجسون ويتضح منها أن فلسفة برجسون تناصر النزعة الصوفية وتؤيدها فيما تذهب اليه تأييداً تاماً وتشجع من ناحية أخرى تلك النزعة التي غلبت على العصر الحاضر واعانت على ظهور الفاشية والنازية وما اليهما من المذاهب الرجعية وهي نزعة التمرد على العقل ، ولست بطبيعة الحال أقصد الى أن ألقي تبعة الويلات التي أحاقت بالعالم من جراء أمثال هذه المبادىء على فيلسوفنا الكبير ، وانما أقصد الى ان أبين مدى قوة الأفكار ومقدار سيطرتها على العصور المختلفة ، وخروج برجسون على طرائق العقل وأساليب العلم كان حريّاً بأن يغري أصحاب العقول غير المتزنة بالاسراف في الاستجابة للعاطفة ومنابذة العقل والتعويل على الغريزة والنزوع الى القوة ، ولعل المتطرفين من تلامذته ومريدي فلسفته قد اساءوا اليه اكثر من الذين عملوا على مقاومة افكاره وتصدوا لنقض نظرياته ، وحسب برجسون انهُ قد أحسن القصد وأخلص النية وأبلى جدة شبابهِ وأفنى زهرة عمره وهو يعمل من اجل الفكر في تواضع ملحوظ واخلاص جم وجهد متواصل، وليس في وسع احد منا ان يعلم النتائج النهائية لاعماله او تفكيراته لأن علم الغيب قد تفرّد بهِ علاّم الغيوب

كيف ننهض بالريف (١)

من الوجهة الصحية

للدكتور عبد الواحد الوكيل بك
استاذ علم الصحة والطب الوقائي بكلية الطب

مشكلة الاصلاح في المناطق الريفية وسكانها القرويين حتى في الممالك الأوربية والأميركية الراقية تعتبر المحك الحقيقي لليقظة الاجتماعية والانسانية بين الطبقات المتعلمة في تلك الشعوب كما انها تعتبر ميزان الجدارة الادارية للحكومات

فالطبقات المتعلمة أو أكثر أفرادها على الأقل في الوقت الحاضر تتكون من ابناء الريف وهم بذلك يحملون في أعناقهم ديناً كبيراً للطبقة التي منها برزوا وعلى اكتافها ارتفعوا . ذلك أنْ يكونوا لسانها الناطق وعقلها الباحث . وان يظلوا لها طول حياتهم دعاة اصلاح وطلاب رقي وانهاض

أما الحكومات فان جدارتها لا يمكن ان يكتفى في قياسها بما تقوم به من مشروعات سهلة نسبيًا كخدمة فريق راق من الشعب مثل سكان المدن . أو شق ترعة أو انشاء قناطر أو تجنيد جيش فحسب . بل ان جدارتها العظمى يجب ان تتبدى في رفع مستوى الحياة العائلية والشخصية بين السواد من السكان وهم أهل الريف

ومع ذلك فيجب ان نعترف بأن مشكلة الاصلاح الريفي سواء من الوجهة الصحية او سواها ليست مشكلة هينة التناول ولا هي سريعة الحل. وذلك لعدة أسباب. لعل أهمها ان ذلك الاصلاح هو من النوع المركب لا البسيط إذ يجب ان يتناول رفع المستوى الريفي من عدة جوانب ، أعني رفع المستوى الاقتصادي والمستوى الثقافي والمستوى الصحي في وقت واحد لارتباط كل منها بالآخر ارتباطاً وثيقاً وتفاعل بعضها مع البعض الآخر تفاعلاً مستمراً يجعل منها تسع مشكلات لا ثلاثاً فقط . بل أننا اذا أضفنا اليها ضرورة تعاون الفلاح مع سواه في رفع مستواه صارت المشكلات ست عشرة لا أربعاً فحسب

وقد ساعد على تأخر ذلك الاصلاح في مختلف نواحيه ان السكان الزراعيين يعيشون متناثرين

---

(١) محاضرة ألقاها في قاعة يورت يوم الجمعة ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٠ (بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية)

في زهاء أربعة آلاف قرية وعشرين الف عزبة . أي لا تضمهم بقعة واحدة يسهل فيها الاصلاح دون تكرار للجهود في تلك الألوف من الأمكنة . وانهم أنفسهم لا يكادون يشعرون في فقرهم وجهالتهم بغضاضة كبيرة في أحوال معيشتهم وصحتهم ولا يلحون في طلب اصلاحها كما فعل مثلاً المشتغلون بالصناعة وهي أحدث في حياة الانسان من الزراعة . ومع ذلك فقد نجح أبناؤها حتى في مصر في الحصول على حقوقهم المالية والاجتماعية والصحية مدعمة بالقوانين واللوائح قبل ان يحصل على مثلها أو أقل منها أقاربهم الفلاحون . مستفيدين في ذلك من تجمعهم في المدن وعلى مقربة من السلطات الحاكمة وتحت انظارها

واذا اعتبرنا ان العمال جديرون بمثل تلك العناية الخاصة بحكم تعرض صحتهم وحياتهم في المصانع لأمراض وأخطار كبيرة من اصابات وعاهات وأذى بالغبار والغازات والسموم وبحكم ميل أرباب الصناعة الى استغلال قواهم وجهودهم الى أقصى حد . فانهُ يجب ألاَّ ننسى ان الزراعة في بلادنا الحارة بصفة خاصة يجب اعتبارها كذلك صناعة مؤذية . اذ ان لها نوعاً خطيراً من أمراض المهنة كالبلهارسيا والانكلستوما والملاريا والتعرض للعوامل الجوية الشديدة من البرد في الشتاء الى ضربة الحر والشمس (الرعن) في الصيف . فضلاً عن مشكلات الايجارات والاجور وغير ذلك مما يحتاج الى وقاية صحية وحماية اجتماعية

أما تأخر الاصلاح الصحي بصفة خاصة في الريف فعلينا اذ شئنا معرفة سببه الأساسي أن يحدد اولاً موقف ذلك الجانب بالقياس الى سواه من عوامل المشكلة الريفية . ذلك أننا اذا أنعمنا النظر وجدنا أن أسوأ تلك العوامل وأبلغها تأثيراً في الحالة الصحية هو عامل الفقر . بحيث لا ينتظر بلوغ درجة كبيرة من النجاح الصحي مع بقاء أغلبية الفلاحين في مستواهم الاقتصادي الحالي أي بجرد أجراء يشتغلون للحصول على الكفاف من القوت .

ويكفي لاثبات ذلك ما نراه من ان امتلاك أي فلاح لشيء من الأرض ولو كان فداناً واحداً يرفع في الحال مستواه الصحي ومستوى زوجته وأولاده درجات فوق مستوى جيرانه . وذلك لتمكنه من الحصول على مقدار اكبر من تلك الضروريات الأساسية للصحة الشخصية وأهمها ثلاثة أشياء هي الغذاء الصالح والملبس الكافي والمسكن المناسب ،

فالفقير مهما يكن جاهلاً سواء في الريف أو الحضر ميال بطبيعته وغريزته لتحسين حالته الجسمانية والمعيشية تواق لرفع مستواه بذاته اذا تيسر له قليل من المال . اما اذا بلغ من المتربة القدر الذي عليه فلاحنا اليوم فلن ينتظر لحالته الصحية تحسن ولو كان فلاحاً انكليزيًّا أو اميركيًّا أي في تلك الاقطار المتمتعة بأرقى نظام صحي واكمله

واذا كنا في بلد لا يستطيع أغلب أهليه شراء نعل بقرش ونصف أو قرشين يقيهم عدوى

الانكلستوما ويرفعهم عن طبقة السائمة بحيث يقترح البعض شراء تلك النعال واهداءها اليهم ويخشى آخرون ان يبيعوا تلك النعال بعد توزيعها عليهم كما فعلوا في الصابون الذي وُهبوه في بعض الجهات لغسل ابدانهم فلا يجب ان نتعب كثيراً في وضع اصبعنا على مصدر الضرر وعلة العلل وهو الفقر

واذا كانت الحكومة ومجالس المديريات والمجالس القروية تستطيع توفير سبل العلاج والوقاية الطبية لتلك الملايين فان هذه الخدمات مع ضرورتها لا يمكن وحدها ان تصل الى الهدف المنشود كاملاً اذ ان خزانة هذه الهيئات لا تستطيع ان توفر لهم جميعاً تلك الضروريات الأساسية وهي الغذاء الكافي والملبس والمسكن المناسبين وبدونها لا يمكن في النهاية منع المرض والعيش معيشة صحية أو شبه صحية

فاذا استطعنا تخفيف أثر الفقر في الريف بالعمل على حسن توزيع الثروة الزراعية في المستقبل وحماية ملكية الفلاح لها بتحديد حد أقصى لما يمكن أن يتملكهُ منها الأغنياء ولو في قابل الايام فيضطرون بذلك الى استغلال أموالهم في الشركات والمصانع والمباني وما أشبه ذلك بدل استعمالها في شراء الاراضي الزراعية . واذا عملنا على سرعة اصلاح الاراضي البور وري مناطق أخرى من الصحراء لتوزيع تلك الاراضي على فلاحي المناطق المزدحمة واذا عملنا على تحسين غلة الارض وسرعة ادخال زراعات وصناعات زراعية جديدة وتعميم الجمعيات التعاونية وما الى ذلك مما أتركهُ الى من هم أعلم مني بها بين الباحثين — لو فعلنا ذلك لأستطعنا السير حثيثاً نحو النهضة الصحية بأسرع مما كان ومما ينتظر

وكذلك اذا شئنا توزيع المسئولية الاساسية في تأخر الاحوال الصحية في ريف هذه البلاد وجب ألاَّ نضعها كلها على باب وزارة الصحة . كلاَّ ولا كلها على باب الفلاح ذاته — بل كان الواجب وضع شطرها الأكبر على أبواب أخرى أو على باب وزرائنا ونوابنا الذين يستطيعون بطريقة حاسمة أو تدريجية تغيير نظامنا الاقتصادي وجعله أجدى على الفلاحين الفقراء مما هو الآن . وهو تغيير تمَّ في ممالك عديدة أخرى . معتبرين اياه أساساً للنهضة الصحية الريفية وسواها من النهضات . او بتعبير آخر معتبرين اياه قتلاً للافعى بدق رأسها حيث الرأس هي الفقر ، بينما جسم الأفعى هو الجهل ، وذنبها المرض

ومع ذلك فاننا يجب ألاَّ نجلس صامتين عن تحسين الشئون الصحية الريفية منتظرين تحسين دخل الفلاح او شموله بمثل تلك الرعاية القانونية التي يتمتع بها العمال الصناعيون . فانهُ من يظهر أننا سننتظر طويلاً الى ان يمن الله علينا بمصلح جريء يُسدي هذه الخدمات الجلى للـ ومن جهة أخرى فان سوء الحالة الصحية القروية وان رجع أغلبه الى الفقر فان هناك عو

أخرى مسببة له كاهمال السلطات لشئون الريف مدة طويلة وكتفشي الجهل والعادات السيئة بين سكانه وكخطإ سياسة الري والصرف القديمة وما أشبه ذلك مما يمكن ملافاته سريعاً او تدريجيًّا لرفع المستوى الصحي درجة عما هو الآن

ولتحسين الحالة الصحية في الريف يجب ان يكون أول ما نضعه نصب أعيننا ان الفلاح في حالته الراهنة هو شخص مثقل بأمراض عديدة كالبلهارسيا المصاب بها ٧٥٪ من السكان والانكلستوما المصاب بها ٥٠٪ والديدان المعوية الأخرى المصاب بها ٥٠٪ أيضاً والملاريا المصاب بها ١٥٪ من سكان الدلتا والرمد المصاب به ٩٠٪ والبلاغرا المصاب بها ٧٪ ومرض الزهري المصاب به ٧٪ . يضاف الى ذلك أمراض الأطفال خاصة كالاسهال وغيره وهي مما يسبب أكثر من نصف الوفيات العمومية

ومثل هذا المجتمع المثقل بالأمراض يحتاج منا الى نوعين من الخدمة أولهما اسعافه سريعاً من الوجهة الطبية بتوفير سبل العلاج له من تلك الأمراض . وثانيهما العمل على وقايته من تلك الأمراض

أما النوع الأول من الخدمة الصحية الريفية وهو توفير سبل العلاج لهذا الفلاح المريض فهو نوع أسهل مثلاً من الآخر ومع ذلك فلا يمكننا القول أننا بلغنا فيه درجة تذكر من النجاح. فقد سارت خطة العمل مدة طويلة أي منذ عهد الحكم البريطاني على انشاء مستشفيات عمومية في بنادر المديريات والمراكز لخدمة سكانها وسكان القرى التابعة لها فلما وجد ان الفلاح لا يلجأ الى تلك المستشفيات لبعدها عن مقر عمله هذا ما لم يبلغ درجة اليأس في مرضه صار تعديل تلك الخطة بابتداع مستشفيات متنقلة لمختلف الأمراض كالرمد والأمراض المتوطنة تضع خيامها في جهة ما شهراً أو اثنين أو اكثر ثم ترحل الى سواها ليعم خيرها المزعوم مختلف النواحي والجهات

ويكفي دليلاً على عدم نجاح هذه السياسة العلاجية الريفية النجاح الوافي وعلى ضرورة العمل على تغييرها حتى تماشي حاجة البلاد وزيادة السكان والأمراض فيها ان نسبة الوفيات في الريف لم تنخفض شيئاً في غضون هذه السنين الطويلة بل ان تلك النسبة قد ارتفعت من متوسط ٢٤ في الألف في الخمس السنوات (١٩٢١ — ١٩٢٥) الى ٢٤٫٣ في الفترة التالية (١٩٢٦ — ١٩٣٠) ثم الى ٢٥٫١ في الألف في المدة (١٩٣١ — ١٩٣٥) أي ان الحالة قد زادت سوءاً في الريف بمقدار ٥٪ على الأقل في تلك الخمسة عشر سنة. بينما ان سكان الحضر المصري هبطت وفياتهم في تلك الفترة ذاتها بمقدار نحو ١٠٪. كما لا يستطيع احد القول ان عدد

المصابين بالامراض الهامة من متوطنة وسواها قد انخفض في تلك الفترة الانخفاض اللائق بطب القرن العشرين

كما ان وفيات الأطفال الرضع في الريف قد ارتفعت كذلك في تلك المدة نفسها من ١٢٩ الى ١٣٨ الى ١٥١ لكل الف مولود أي زادت بمقدار ١٧ ٪ بينما ان المدن المصرية سجلت في تلك المدة انخفاضاً بمقدار ٧ر٥ ٪

ولعلَّ في هذه الأرقام برهاناً مقنعاً على عدم سداد الخطة العلاجية التي لا تزال متبعة الى اليوم كتراث من الماضي. فانهُ يجب ألاَّ ينتظر من الفلاح وهو في جهله الحالي واتكاله على القضاء والقدر مع كثرة أعماله الزراعية أن يرحل كيلو مترات عديدة للوصول الى الطبيب في المستشفيات المركزية . كما يجب ألاَّ ننتظر الاَّ أقل فائدة من ذلك النوع الآخر من تلك المستشفيات أي المتنقلة وهي مع ذلك قليلة العدد واذا تحسنت الحال بها طالما أقامت فانها اذا رحلت عاد المرض فاحتلَّ الابدان والاجسام .

ومن عجب انهُ مع ظهور هذه الحقائق ولمس السلطات المسئولة لها من سنوات عديدة لم تبذل الاَّ مساعٍ يسيرة لاتباع خطط اخرى أو تجربتها : من ذلك ما جرب من انشاء مستشفيات قروية رفضها البرلمان فيما بعد لكثرة نفقات انشائها وعدم استكمال فائدتها . ومثل انشاء وحدات صحية شاملة لها برنامج جميل على الورق ولكنهُ غير منفذ فعلاً . كما انهُ يقصد بها خدمة ٣٠ ألفاً من السكان وهو اكثر مما يطيقه طبيب لكثرة المرضى فيهم

كما أن السلطات لم تتعب نفسها قبلاً كي تعرف ما هو متبع في الممالك الزراعية الاجنبية الشبيهة بمصر والتي نجحت نجاحاً بارزاً في رفع المستوى الصحي بين فلاحيها في بضعة سنين

يقال في الأمثال أنهُ إذا لم يتحرك الجبل الى أبي الطيب فان ابا الطيب يتحرك اليهِ . وعلى هدى هذه الحكمة يجب أن تكون سياستنا العلاجية الريفية

فالريف المصري أو اغلبيتهِ على الاقل لا يمكن لسكانهِ الاستفادة من المنشآت أو الخدمات المنظمة في عواصم المديريات بنادر المراكز. ولذا يجب تقسيمهُ وحدات او مجموعات أو مراكز جديدة تختلف كثيراً عن نظام المديريات والمراكز الكبيرة الحالي الذي ورثناه من القرن الماضي مراكز صغيرة لا يتعدَّى سكانها العشرة آلاف نسمة ولا يتعدَّى قطرها بضعة كيلو مترات قليلة تشبهاً بتلك المراكز التي انشأتها الممالك الزراعية الأخرى والتي لا يزيد سكانها عن خمسة او ستة آلاف وقطرها عن بضعة كيلو مترات قليلة

هذه المراكز او الوحدات او المجموعات القروية الصغيرة الجديدة يجب اعتبارها في منزلة الخلية من جسم الامة . وفي هذه الخلية ومنها يجب أن يبدأ الاصلاح الحقيقي لهذه البلاد

اصلاح لا يتناول الفلاحين والفلاحات الحاليين فحسب بل يتناول كذلك أطفال الفلاحين أي الجيل الجديد الذي هو أمة الغد المرجو المأمول

فاذا اقتنعت السلطات بضرورة هذا التقسيم الجديد للاصلاح الصحي والاجتماعي في الريف متشجعة في ذلك بنجاحه في كثير من الامم الزراعية الاخرى كان في الوسع تدبير شئون العلاج للفلاحين رويداً بطريقة ناجحة ومناسبة لهم. بل كان في الوسع كذلك في بضع عشرات من السنين تدبير شؤون الوقاية الصحية وادخال الخدمات الاجتماعية والاقتصادية في الريف عامة بطريقة أنجح وأنجع . لا ارهاق فيها للموظفين الفنيين ولا لجمهور الفلاحين

وفي كل من تلك المراكز أو المجموعات الصغيرة يجب أن تتمثل الخدمات الفنية اللازمة للفلاح . فمن الوجهة الطبية ينشأ مركز صحي دائم يتكوّن من طبيب مقيم متمرن على أمراض الفلاحين العامة وهي لا تزيد عن عشرة أمراض . وعلى شئون الوقاية الطبية من الأمراض المعدية وشئون الدعاية الصحية تساعده دائرة صحية لتوليد النساء ورعاية الأطفال . يجاورها حمام صغير بسيط به خمس فوهات رشاشة او ست لنظافة الرجال والنساء والاطفال . وبضع أسرة لاقامة الوالدات

ولا أقصد بالانشاء ان نقيم بناء فخماً لتلك المراكز الصحية يقتضي الكثير من المال وانما يكفي تأجير أية دار في القرية كما فعلت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية في قريتي المنايل وشطانوف يمكن بقليل من المال ولو على نفقة السكان تهيئتها لتكون مركزاً صحيًّا مناسباً للريف. ويسهل بعد ذلك ربط هذه الوحدات الصحية بسيارات نقالة في المستشفيات لنقل المحتاجين الى عمليات جراحية او فحص طبي خاص بالأشعة او سواها او عناية خاصة في العيادات الداخلية كما يمكن الاكتفاء بذلك الطبيب عن انشاء مستشفيات متنقلة لعلاج الأمراض المتوطنة وكذلك الرمد مع امداده بأخصائي في العيون مرة في الأسبوع او الشهر لمساعدته وارشاده

واذا كنت أورد هذه الخطة اللازمة بصفة أساسية للخدمة العلاجية في الريف فليس ذلك نتيجة التخيل او التوهم. بل لقد كان لي الحظ في مشاهدة عشرات منها بنفسي في ممالك مختلفة بل لقد كان لي الحظ في مشاركة بعض أطبائها العمل وكذلك المبيت في بعضها اثناء تجوالي

ثم كلمة مختصرة بقدر الامكان عن ذلك الجانب الآخر العويص من المشكلة الصحية الريفية وهو مشكلة الوقاية العامة . وصعوبة الأمر في هذا الجانب انهُ يتطلب مالاً وجهداً غير قليلين. فاذا كانت الوحدات او المراكز الصحية التي سبق ذكرها تحتاج الى مال غير قليل بحيث لا يمكن تعميمها الاَّ في مدى عشر سنوات او خمس عشرة سنة ، فان التحسين الصحي العام في الريف سيحتاج في اتمامه كاملاً او شبه كامل الى مدة أطول ومال اكثر . كما انهُ يحتاج الى تعديل

بعض المشروعات المتبعة لتحقيقه في الوقت الحاضر وهي المشروعات التي دلت الدلائل على عقمها او بطئها او عدم ملاءمتها لأحوال الفلاح وعاداته

ولنأخذ مثلاً تلك المشكلات الرئيسية وهي امداد الفلاحين بمياه الشرب النقية . وردم البرك والمستنقعات ومشكلة انشاء المساكن الصحية

أما مياه الشرب فاننا اذا استبعدنا مديرية الفيوم وكذلك الخمسين كيلو متراً الشمالية من الدلتا وهي المناطق التي لا يمكن فيها استعمال الآبار لملوحة المياه الجوفية ويصعب في بعض جهاتها الشمالية توفير مقدار كافٍ من مياه النيل أياماً عديدة لوجودها على أطراف الترع،فاننا نجد في الامكان حل هذه المشكلة بصفة مؤقتة على الأقل . بل ربما كان ذلك بصفة دائمة،بامداد الجهات الباقية من القطر وهي ثلاثة أرباع القرى والعزب كافة أي ما لا يقل عن ثلاثة آلاف قرية و١٥ الف عزبة بمياه جيدة نقية على أهون سبيل وذلك بواسطة حفر آبار عميقة تتراوح نفقة كل منها ما بين ٣٠ — ٣٠٠ جنيهاً

وهذه الآبار لن تكلف الدولة في الغالب اكثر من مليون من الجنيهات يمكن صرفها في غضون اربعة او خمس سنوات بدلاً من الانتظار سنوات لا نهاية لها حتى تتمكن الخزانة العامة من تدبير خمسة وعشرين مليوناً لأنشاء تلك العمليات الكبرى المزمع تعميمها في كافة أنحاء القطر والتي تتكلف كل منها ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات وتحتوي على معدات فاخرة من أوربا او أميركا لتنقية مياه النيل وما لا يقل عن خمسمائة كيلو متر من المواسير وعشرات الخزانات الكبرى والصغرى فوق الأرض وتحتها ، بخلاف نفقات الادارة والصيانة الطائلة

نعم ان كل مصري فلاحاً كان او متحضراً يفضل مياه النيل لشربه كما يفضلها لري أرضه وحيوانه . ولكنهُ ما دامت تلك المياه هي لسوء الحظ في غالب الأحيان مياهاً ملوثة كريهة المنظر مليئة بالمواد المعلقة والميكروبات وتحتاج في تنقيتها الى عمليات كيميائية وميكانيكية غالية الثمن والتكاليف فان انشاء الآبار يجب ان يكون كما ذكرت الحل المؤقت بل ربما الدائم لهذه المشكلة الوقائية الأساسية كما هو متبع فعلاً في مدن كثيرة في الوجه القبلي وكذلك في النصف الجنوبي من الوجه البحري . بل كما هو متبع في عشرات من الممالك الأخرى . ضاربين صفحاً عن عسر تلك المياه أحياناً أي زيادة استهلاكها للصابون بالقياس الى المياه النيلية وهو ما لا يقاس ضرره بتاتاً بفائدة كونها مياهاً نقية من الوجهة البكتريولوجية ورخيصة في الوقت ذاته

أما مشكلة ردم البرك والمستنقعات — وهناك منها ما مساحته زهاء عشرة آلاف فدان ملكاً للحكومة ذاتها بخلاف ما يملكه الأهالي — فقد طال الزمن وسيطول كذلك في التخلص منها ومن رداءة منظرها وما تؤدي اليه من توالد البعوض والعدوى بالملاريا وأمراض أخرى مازلنا

مقيمين على طريقتنا الحالية أي ردم ما تملكه الحكومة على نفقتها والاعتماد على قانون معقد ضعيف لردم ما يملكه الأهالي بمعرفتهم . فها قد مضت خمس عشرة سنة منذ زيادة الاهتمام بالبرك والمستنقعات دون فائدة تذكر . بل ان تلك المياه الآسنة قد زادت في تلك المدة بين القرى وحولها بفضل التلكؤ في تعميم مشروعات الصرف الزراعية

ولعل أسهل السبل لحل هذه المشكلة في سنوات قليلة هو ان توهب برك الحكومة على الأقل الى القرى أو مجالسها القروية مع الزام السكان أنفسهم بردمها في سنتين أو ثلاث مستعملين في ذلك الردم المرتفعات الكثيرة التي يراها الانسان في شوارع القرى وكذلك اراضي الجبانات القديمة الكثيرة بعد جمع العظام منهـا وكذلك مستعملين الأتربة التي تنتج سنويًا من تطهير الترع والمصارف . والأتربة التي يمكن قشطها من سطح الحقول العالية وغير ذلك من مواد الردم الأخرى

* * *

ان الالزام في ملافاة مثل هذه العيوب الصحية الكثيرة الصور لا يحمل في الحقيقة معنى التحكم والظلم والجبروت اذ انه من جهة الزام مؤقت غير دائم كما انه الزام له اجرته المالية . اذ ستنتفع القرى بما يجيء من بيع البرك بعد ردمها بصفتها ارضاً قريبة من المساكن صالحة للمباني او ما يتحصل من ايجارها كارض زراعية . فيمكن للقرى ادخال خدمات عامة أو اقامة منشآت صحية أو تعليمية أو اجتماعية . أي انه الزام كله خير و بركة

وان لنا فيما كان متبعاً من الزام القرويين بحراسة جسور النيل اثناء فيضاناته العالية لعبرة وعظة . فان تلك الطريقة مع مساوئهـا كانت الطريقة الوحيدة لانقاذ البلاد عشرات أو مئات السنين من ذلك الخطر حتى امكن رويداً الاتفاق على رفع مستوى الجسور فأمكن من بضع سنين تحرير القرويين من تلك الخدمة الوطنية الشاقة التي لا يقاس بها تكليفهم ردم برك قراهم في فترات فراغهم من الأعمـال الزراعيـة ذلك الردم المفيد لهم انفسهم من الوجهتين الصحية والمالية

فالاصلاح الصحي وكذلك غيره من شئون الاصلاح هو في الحقيقة سلعة تشترى بالمال .ولا يمكن للمصلحين أن يصلوا الى اهدافهم بقوة الحكومة أو أموالها وحدها بل يجب ان يتعاون معها الاهالي وخاصة اولئك الذين يراد لهم النفع والخير

ويكفي دليلاً على ذلك ما نراه في الممالك الاوربية التي بلغت الدرجة العظمى من التمدين والرقي اذ تكلف كل شخص في الدولة ان يقوم بخدمة مجانية لوطنه في أوقات فراغه فتستخدمه

احياناً في الاجازات بعيداً عن بلده في انشاء طرق او مبان او خدمة مرضى او غير ذلك من الخدمات التي تعود على المجتمع عامة بالفائدة

أما مشكلة المساكن القروية .فيجب أن نطرح من أذهاننا امكان حلها في الوقت الحاضر. وأن نروض أنفسنا على الانتظار عشرين أو ثلاثين سنة أخرى للبدء في معالجتها بصفة جدية أي انتظار ذلك الجيل الجديد من القرويين الذي سيرتفع اقتصادياً وثقافياً وصحياً في تلك المدة بفضل مانأمل من ولاة الأمور ادخاله من إصلاح في غضون ذلك الزمن

فان الدار بالسكان قبل ان تكون بالحيطان . ومسئولية اقامتها موزعة قسمين . قسم ارشاد ومعونة يسيرة تقدمها الحكومة . وقسم مقدرة مالية للانشاء يقع على عاتق صاحب الدار. فاذا كان الأول ممكناً الآن فان الآخر يكاد يكون في حيز المستحيل

وليس في مقدورنا اليوم الا الصبر على قرانا القذرة الرديئة المنظر المزدحمة بسكانها وعيوبها الصحية فهي ظاهرة من نتائج الفقر وصورة من صوره العديدة مكتفين في العشرين أو الثلاثين سنة القادمة بادخال ما يتيسر إدخاله من عادات النظافة المنزلية أو أي اصلاح آخر لا يكلف نفقة ينوء بها حمل ذلك الساكن الفقير

وانه ليحضرني في هذا الصدد مثل مفيد لما يمكن ان يجول في ذهن المصلحين من الامور التي تعتبر بسيطة في ظاهرها ولكنها توجد معقدة متعبة في حلها . ففلاحنا المصري مشهور بميله في منزله الى سد النوافذ اي تلك الكوات الصغيرة العالية المسماة نوافذ . كما انه مشهور بميله الى انشاء أفرانه وايواء حيواناته داخل الغرفة التي فيها يقيم وينام

وقد يظن البعض ان منشأ هذه العادات الصحية السيئة هو مجرد الجهل وظلام التفكير. بينما هي في الحقيقة ترجع الى الفقر اكثر مما ترجع الى الجهل . ترجع الى حاجة الفلاح الى الملبس والغطاء اللذين يدفئانه ويحفظانه شتاء . كما ترجع الى حرصه على بقاء بهيمته تحت انظاره وخشيته من النوافذ الكبيرة التي تخدش حرمة منزله وتعرضه لأذى أعدائه . وهكذا اذا أردنا ان ننشىء اليوم قرى جديدة للفلاحين فيجب إذن ألا ننسى تموينهم معها بالملابس والدثر (البطاطين)

***

ان مجال الاصلاح الصحي الوقائي في الريف لا يشمل هذه المشاكل الرئيسية وحدها أي مياه الشرب وردم البرك وانشاء المساكن الصحية . بل يشمل كذلك اموراً عديدة أخرى أقل مشقة وكلفة منها

ولما كان وقتنا غير مؤات للتوسع في وصفها فانني أجتزىء في ختام محاضرتي بذكر ما أراه منها أعظم شأناً وأوفى بغرض الاصلاح

فالريف المصري محتاج بصفة دائمة الى هيئات محلية تعنى بالشؤون الصحية البسيطة كنظافة المنازل والقرى وتجميلها وردم البرك وابعاد أكوام القمامة ومكافحة الحرائق وما الى ذلك . أي أنهُ محتاج الى تعميم المجالس القروية على إن تعطى تلك المجالس حق تحصيل نسبة معينة من الضرائب للصرف على أغراضها البسيطة تحت اشراف وارشاد الأطباء والمعاونين الصحيين الذين يجب الاكثار منهم للقضاء بصفة نهائية على ذلك النظام الفاسد نظام الحلاقين الصحيين كما ستقضي الزائرات الصحيات على نظام الدايات الجاهلات المؤذيات

وهو محتاج الى تجارب عديدة يشترك فيها الأطباء والمهندسين الصحيون لابتداع أنواع صحية رخيصة من المراحيض القروية تمنع أخطار التبرز في الخلاء ولا تحرم الفلاح في الوقت نفسه من تلك المواد الانسانية التي يعتبرها ثروة سمادية عظيمة لأرضه

والريف محتاج كذلك الى سرعة تنفيذ مشروعات الصرف ليس لفائدة الزراعة فحسب بل كذلك لمنع نشوء برك جديدة ولتقليل تصاعد الرطوبة في جدران المباني مما يدعو لأمراض عديدة . كما انه محتاج الى مراجعة مشروعات الري لمنع شق الترع داخل القرى أو بجوارها لمنع البرك كذلك ولتقليل تلويث مجاري المياه بالبول والبراز مما يدعو لانتشار البلهارسيا وسواها من الأمراض

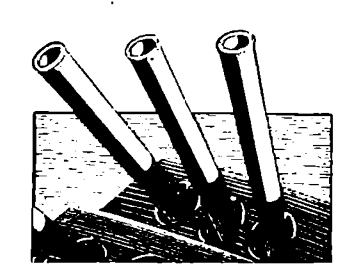
وهو محتاج الى مراجعة السياسة الزراعية لحصر وزراعة الأرز في المناطق الشمالية الباردة أي منعها في المناطق الدافئة الوسطى والجنوبية التي يزداد فيها توالد البعوض وبالتالي انتشار الملاريا الى درجة كبيرة

وسكان الريف محتاجون في النهاية الى دعاية صحية رشيدة مستديمة مدعمة بالآيات والأحاديث والحكم والأمثال التي هي لحسن الحظ مليئة بالحض على منع تلويث المياه والنظافة ونبذ الخزعبلات والتقاليد الضارة

هذه هي نبذة موجزة غير كاملة من العبء الذي نحمله نحن أبناء الفلاحين نحو انهاضهم واصلاح أحوالهم

***

وأشكر لوزارة الشئون الاجتماعية لأنها أتاحت لي فرصة القائها . كما أشكر لكم مشقة حضوركم لاستماعها داعياً الله ان يحقق رجاءنا جميعاً في الوصول الى ذلك الغرض النبيل



مصر والقوة البحرية

عند ما بنت اسطولها في الاسكندرية

صفحة مجيدة من تاريخ محمد علي

[عني حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عمر طوسون منذ عهد بعيد باظهار ما خفي من تاريخ مصر في عهد مجددها الأكبر محمد علي باشا رأس الأسرة العلوية الكريمة . ولم تقتصر بحوثه على ناحية بعينها من نواحي تلك النهضة الكبيرة بل شملت نواحيَ متعددة علمية وعمرانية وحربية. ومما وجه جهده اليه كتابة تاريخ البعثات العلمية في عهد محمد علي ، تلك البعثات التي تعتبر بحق أول عودة لاتصال مصر بالثقافات الانسانية العليا بعد عهد المماليك وعهد نابليون . وكان آخر ما اتجهت اليه عنايتهُ الموفقة اخراج كتاب ضخم في ٢٤٩ صفحة عدا ٧٢ صفحة من الفهارس في « تاريخ مصر في عهد محمد علي — الجيش المصري البري والبحري » أحاط فيه بتفصيل النهضة الحربية في عهد جده العظيم استناداً الى ما كتبه الثقات في ذلك العهد . وفي ما يلي جانب من فصل عن دار الصناعة البحرية بالاسكندرية اسنده كتاب سمو الأمير الى كاوت بك : المقتطف]

شعر محمد علي بحاجته الى دار صناعة بحرية حرية بهذا الاسم منذ اشتبك مع الدولة في حرب الشام ورأى نفسه هدفاً فيها للغارات البحرية حيث كانت تعترض بناية سفنه في ثغور اوربا في ذلك الحين عقبات تدعو الى الابطاء في صنعها وإرسالها اليه ، وظهر له في اثناء ذلك همة دي سريزي بما أنجزه من المنشآت البحرية التي أوصى عليها محمد علي بثغر مرسيليا فعقد النية على إنشاء دار صناعة في مصر وطلب من الحكومة الفرنسية أن تعينهُ على هذا العمل العظيم باشخاص المسيو دي سريزي اليه ليتولاه له

وقد كان ألقي في روع محمد علي استحالة دخول السفن الحربية الكبرى ميناء الاسكندرية وفضلاً عن ذلك فانهُ تحقق شخصيًّا قلة جدوى الآلات البحرية التي لديه وعدم غناء العمال اللازمين لمختلف الصنائع عنده فجعله ذلك لا يفكر في إنشاء السفن الكبيرة التي من نوع القباق ولذا كانت طلباته من قبل للسفن الحربية من الخارج قائمة على هذه الفكرة ولكن لما حضر المسيو

دي سريزي وأطلعه على أفكاره في هذا الشأن اقتنع بآرائه وانضم بكليته اليه ومنذ ذلك الحين رغب في ان يكون حائزاً لأضخم السفن الحربية واستدعت الحال التفكير في انشاء دار صناعة عظمى

وبينما كانت تجهز الأدوات اللازمة بأوربا للقيام بهذا العمل في مصر كان مسيو دي سريزي منهمكاً في فحص أرض الشاطىء لاختيار اكثر المواضع صلاحية للترسانة المزمع تشييدها فوجد على شاطىء مربوط العمق اللازم من الماء غير انهُ وجد هذا الشاطىء عرضة لهجمات الأمواج عند ثوران البحر ورأى إقامة الترسانة عليه تستدعي إقامة حاجز يصد عنهُ هجمات الأمواج ومع هذا فقد شرعت الجنود تمهد أرض هذا الشاطىء المكوَّن من حجر جيري رخو لايجاد المنحدر اللازم لمدّ المنشآت البحرية عليه وأخذوا أيضاً في استخراج الأحجار اللازمة للبناء وكان كل هذا يبشر بالمضي في تنفيذ العمل الذي اقتضتهُ الضرورة للحصول على السفن في أقرب وقت الا أن المسيو دي سريزي كان لا يزال غير مرتاح الى هذا الموضع وكان لا يزال دائباً في البحث عن محل آخر أصلح للمرام فرأى الشاطىء المعد لصنع الفلائك في الاسكندرية في ذلك الحين في مأمن من هبوب الرياح وارتطام الأمواج ولكن كان عمق الماء فيه غير كاف ففكر في حفر الأرض وتعميقها فوجد الصخور على عمق ثلاثين قدماً تحت الماء وانهُ من الممكن رفع الرمل الذي فوقها بواسطة الآلات فوطد العزم على تشييد دار الصناعة بهذا المكان وعدل عن شاطىء مربوط عدولاً تامًّا وبدأ بلا إبطاء ولامهل يخطط مواضع الورش والمحال التي تتحقق بوجودها مشروعات ولى الأمر العظيمة

واستطاع في يوم ٩ يونيه من سنة ١٨٢٩ م أن يقدّم اليه مشروع عمله فلم يلبث أن نال لديه القبول التام وبعد ذلك بساعة واحدة كانت ألوف الجند تشتغل بحفر آساس المباني والآلات الرافعة تستخرج الرمال من ارض الشاطىء والرجال تضع الأوتاد لبناء الأرصفة والاحواض وكان ولي الأمر قد أنفذ أوامره الى مختلف المديريات بجمع الشبان الذين فيهم الاهلية للانخراط في سلك البحرية فأرسلوا الى الاسكندرية تباعاً وعند ما تكامل عددهم أخذ في تقسيمهم الى فئات ووزعوا على الصنائع البحرية من النجارة والحدادة والجلفطة والهندسة الميكانيكية والتخريم والنجارة الدقيقة وصنع الحبال والبكرات وما شاكل ذلك ولما بدىء في تعليمهم انتخب من كل فريق منهم من امتاز بالنشاط والذكاء فجعلوا أومباشية وجاويشية وضباطاً عليهم

واننا نعدُّ هذا الصنيع من المسيو دي سريزي اعظم خدمة أداها لولي النعم وقد دفعته ميوله من قبل الى تعلم استخدام الآلات في مختلف الصنائع وكان ذلك سبباً في اضطلاعه بتدريب العمال بنفسه على ممارسة الصنائع التي انخرطوا في سلكها وبهذا اقترنت بناية العمائر

بصنع الآلات وتعليم الصنائع للمصريين وسارت هذه الأمور جنباً الى جنب في وقت واحد

وفي ٣ يناير سنة ١٨٣١م أنزلت سفينة عليها مائة مدفع الى البحر ومن هذا الوقت انحلت مشكلة البحرية المصرية وأصبح هذا الحلم أمراً واقعاً محسوساً ولكن كان لا يزال باقياً ان يقيم المسيو دي سريزي البراهين على عظم خطإ الرأي الأوربي القائل ان المراكب التي تحمل أربعة وسبعين مدفعاً لا تستطيع عبور بوغاز الاسكندرية

وقد كان المسيو دي سريزي هدفاً لسهام النقد فلما تم صنع هذه السفينة أتهم من جديد بأنهُ خدع ولي الأمر وعبث بما أولاه من الثقة وكفر بما أغدق عليه من النعم فلم يبال بذلك وعكف على تسليح هذه السفينة وبعد ذلك بزمن قليل خرج بها الى عرض البحر فأصبحت مسألة عبور السفن الكبيرة بوغاز الاسكندرية في حكم الشيء المعترف به ومنذ هذا الحين صار موضع إعجاب ولي الأمر وثقته التامة ولأجل ان يظهر مقدار ثقته به وسروره من عمله منحه سلطة لا حدَّ لها فازدادت مطامحه وتوجه بكليته الى القيام بعمل عظيم يصيرهُ أهلاً لمحبة محمد علي فصرف كل مواهبه في تنسيق البحرية المصرية وتنظيمها

وكان أمامه كثير من العراقيل يتحتّم عليه تذليلها فقدومه الى الاسكندرية أفسد على عدد كبير من محال التجارة التي كانت تجني أرباحاً طائلة ما كانت تؤمله من اضعاف هذه الأرباح في أثمان السفن التي ستدعو حاجة محمد علي الى ابتياعها منهم على سنن ما حصل في الماضي بدون أدنى تدقيق في قيمتها أو صلاحيتها. فأذاعوا عنهُ اذاعات السوء ووصموه بكل ما يشينهُ وأوسعوه سبًّا وشتماً وهاجموه من كل ناحية وصوب ولم يكتفوا بذلك بل أضرموا نار الثورة والعصيان بين العمال الأجانب الذين يديرون مختلف الصنائع ويدرّبون المصريين فاختلَّ نظام الورش مراراً ودبّروا المكايد عند انزال السفينة الثانية فقطعت حبال الارتكاز وكان الغرض من ذلك القضاء عليها واستمرَّ العمال المالطيون والليفورنيون يحضون العمال الطولونيين الذين احضرهم المسيو دي سريزي في السنة الثانية من تعيينه بدار الصناعة المصرية على العصيان والتمرُّد لغاية في أنفسهم هي أن يكونوا وحدهم على رأس كل عمل . فكل هذه العراقيل لم تفت في عضده بل قابلها بارادته الحديدية وثباته العجيب وأحبطها الواحدة تلو الاخرى وساعده على ذلك أن ولي الأمر صمَّ آذانه ولم يصغ لسعايات أخصامه ولم يعر التفاته إلاَّ لعمله الذي كان يتدرج في معارج الكمال بهمته ونشاطه

وانهُ لمن الصعب أن نأتي على جميع العراقيل التي اعترضت هذا المهندس الفرنسي العلامة وكافحها كفاحاً متوالياً بدون ملل ابتغاء إتمام مشاريعه العظيمة التي كان يحلم بأنها ستكون يوماً ما حقيقة راهنة وأن مصر ستبلغ بها ذرى النجاح

فقد اضطرَّ في أول الامر أن يستخدم عدداً كبيراً من الأوربيين حتى يحقق أمنية الباشا الذي كان يريد أن تكون له عمارة بحرية عظيمة في أقرب وقت فاقتضى الامر أن يراقب بكل يقظة وانتباه صغار الأمور وكبارها وأن يسرع الى تلافي كل مايحدث من الخلل ويطفىء يومياً نار الثورات التي كان يشب أوارها ويضرب على أيدي السارقين ويكبح جماح المتمردين ويصلح الأغلاط التي كان لا بدَّ من وقوعها في هذا العمل السريع . وبالجملة فقد كان عليهِ أن يسهر على كل أمر ويرقب جميع الاشياء ويوفق بين الميول المتناقضة ويقبض بيد من حديد على زمام الأهواء الجامحة ويعمل من جهة أخرى على تخفيف هذه الاعباء وتدريب المصريين على مختلف الأعمال فمهد له ذلك شيئاً فشيئاً الاستغناء عن أكثر الأوربيين المشاغبين وأوصله ذلك أخيراً الى قيام المصريين بنجاز سائر الأعمال حتى لم تبق له حاجة الا الى فئة قليلة من المعلمين الفرنسيين الذين دعت الضرورة الى استبقائهم للاشراف على العمل ولولا سلاسة قيادة المصريين ودماثة أخلاقهم وما فطروا عليهِ من الذكاء وسرعة الخاطر مع الجلد لما وصل المسيو دي سريزي الى هذه البغية

مباني دار الصناعة — أنشئت دار الصناعة على شاطىء رملي مقفر فقضت الحاجة ان يشاد عليهِ من جديد كل شيء تدعو اليهِ ضرورة العمل فبنيت بهِ اربع مصاطب كبيرة ممتدّة من الساحل الى داخل البحر لتشاد عليها السفن الكبيرة التي من الصنف الأول (القباق) وثلاث مصاطب أخرى لبناء السفن التي من أنواع الفرقاطة والقرويت والغولت والكوتر وغيرها . وشيد بناء كبير ليكون مخزناً عامًّا للذخائر البحرية ومصنع للحبال وعُدّد صنعها ومصانع اخرى لاذابة المعادن والحدادة والخراطة والنشر والميكانيكا والسباكة والتحامة (السمكرية) وصنع الرصاص والزجاج والآلات البحرية والبكر والأشرعة والبراميل ومصانع لبناء القوارب والزوارق ولصنع آلات رفع الأثقال وعجلات النقل والسكانات (الدفات) وبهو لحفظ نماذج رسوم تصميمات أنواع السفن. والأدوات التي تستعمل في تسليحها لتعليم الضباط وسقائف لخزن الأخشاب ولحفظ آلات تنظيف السفن وأدوات ترميم القسم الغاطس منها في الماء وتنظيف أضلاعها وقاعها الخ

وقد أقيم في رشيد مصنع لنسج أقمشة الأشرعة ومصانع اخرى لأنواع الحدادة كي يلجأ اليها عند مسيس الحاجة في الطلبات المستعجلة كما قد أقيم في القاهرة ايضاً مصانع من هذا القبيل تشتغل ايضاً بهذا الغرض .

ولكيلا تجتمع الصنائع جميعها في بلد واحد درَّب المسيو دي سريزي فريقاً من المصريين على صناعة حبال السفن ثم بعث بهم الى قراهم ليقوموا بهذا العمل فيها وليسدّ بذلك حاجة المراكب الى الأمراس بتوفر الصناع على عملها في مختلف البلدان

تحديد أغراض المجمع

مسايرة اللغة العربية للحياة الحديثة

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف

[القى معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا خطبة نفيسة في حفلة افتتاح الدورة الحالية لمجمع فؤاد الأول للغة العربية استهلها بتوجيه الشكر الى معالي رئيس المجمع لدعوته اياه لالقاء كلمة في الحفلة ثم شكر للرئيس والاعضاء ترحيبهم بالاعضاء الجدد — والدكتور هيكل احدهم — ونوه بجهد المجمع الكبير قبل انضمامه وزملائه الجدد اليه وذكر الذين قضوا أجلهم من أعضائه بالخير وطلب لهم من الله مثوبة ومغفرة . ثم قال معالجاً موضوع اغراض المجمع :—]

وليس ينقص من قدر هذا المجهود الكبير أنهُ ما زال في بدايته . أو أن لي أو لغيري بعض ملاحظات عليه يراد بها مزيد من دقة التوجيه الى الغرض المنشود حيناً ، وتبلغ حد النقد في بعض الاحيان . فالغرض العظيم الذي انشيء المجمع لتحقيقه ، والعمل الجسيم الذي لا بد منهُ لبلوغ هذا الغرض يحتاجان الى كثير من الاناة والروية ، والى زمن لا تعد السنون شيئاً مذكوراً فيه. لقد قضى المجمع الفرنسي منذ انشأه ريشليو عشرات السنين قبل أن يضع معجمه الاول للغة الفرنسية . ومع هذه الاناة ، ومع ضخامة المجهود الذي بذل خلال هذه السنين الطويلة ، وجهت الى هذا المعجم الوان كثيرة من النقد كانت موضع اعتبار المجمع وتقديره أثناء مراجعة معجمه . ولا تزال لجنة المعجم في المجمع الفرنسي تراجعه وتضيف اليه وتعدّل فيه تبعاً للتطور اللغوي في تلك البلاد ، متوخية في عملها ان تحافظ على سلامة اللغة الفرنسية وعلى ملاءمتها لحاجات الحياة وتطورها ، مؤمنة دائماً بأن اللغة كائن حي متصل أوثق الاتصال بكل صور الحياة ، يسايرها في نمو ما ينمو وانقراض ما ينقرض وتطور ما يتطور . فالمجمع الفرنسي ، ككل من درسوا اللغة ومارسوها يرى ان اللغة هي صورة الحياة في ادراك الذين يتكلمون هذه اللغة ، وانها لذلك مرآة تقدم هؤلاء القوم أو تأخرهم ، نشاطهم أو قعودهم ، قدرهم الصحيح لحقائق الحياة او توهمهم الباطل لهذه الحقائق

وكيف لانسان ان يغمط المجهود الذي قام به المجمع وقد اقر أكثر من أربعين قاعدة في اللغة تيسرها وتوسع اقيستها ، وتلينها للترجمة عن مستحدثات المعاني ، وقد استخرج آلافاً

من المصطلحات في علوم الأحياء ، والرياضة ، والطبيعة ، والاقتصاد السياسي ، والقانون ، وتاريخ القرون الوسطى ، والموسيقى ، والرسم ، والعمارة ، وقد أقر طائفة جليلة من المسميات الحديثة في الشؤون العامة كأدوات المنازل وأثاثها ، وما تتناقله الألسن والأقلام في الأسواق والأندية والصحف ، وقد بدأ بوضع المعجمات التي تدعو اليها الحاجة ، وقد صحح من الأعلام الجغرافية في مصر وأفريقيا وآسيا عدداً عظيماً ، وقد نشرت مجلته بحوثاً بلغت صفحاتها نحو الف وخمسمائة . هذا وما اليه جدير بتقدير الناس جميعاً وثنائهم ، وان وجه الى بعضه من النقد ما قد يقره المجمع نفسه ،وما قد يدعوه الى ان يعدل عن شيء أقره الى ما يراه خيراً منهُ وأدنى الى تحقيق غايته

سادتي : لقد كان ما يتصل باللغة من شؤون التعليم مما وجه اليه المجمع عناية مذكورة . وأنتم تقرأون في المذكرة التي وضعها المجمع بين أيديكم انهُ وضع نصب عينيهِ أخذ الناشئين بصحيح العربية فيما يتدارسون من العلوم والفنون ، وأنهُ قد وجه جل همه من هذه العناية الى المصطلحات التي تدخل في التعليم الثانوي ، وان بين المعجمات التي يتوفر على وضعها معجماً علمياً صغيراً للتعليم الثانوي في الأقطار العربية ، وآخر تثبت فيه طوائف من المواد والألفاظ والصيغ تغني الطالب الثانوي والمثقف الوسيط عن غيره من المعجمات ، وانهُ وافى وزارة المعارف بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مصطلح لادخالها في كتب التعليم وفي التدريس

ولم يتم بعد وضع المعجمين اللذين أشرت اليهما ليتسنى ابداء الرأي فيهما . وقد سألت وزارة المعارف عما وافتها بهِ ادارة المجمع فعلمت ان هذه المصطلحات لما تعرض على رجالها، وان تجارب الطبع لهذه المصطلحات لاتزال حبيسة في المطبعة الأميرية منذ سنة ١٩٣٩.وقد أرسلت اليّ ادارة المجمع من أيام هذه المصطلحات فعرضتها على الفنيين من رجال الوزارة فأقروا طائفة مما أطلعوا عليه ولم يقروا طائفة أخرى . ثم انني ألقيت على هذه المصطلحات نظرة تجلى ألهمتني ما أريد ان أتحدث اليكم اليوم فيه

جاء في المذكرة التي وضعها المجمع بين أيدينا تمهيداً لهذه الجلسة ان من يترسم آثار المجمع (لا يرتاب في انهُ،في تشدده في المحافظة على لغة العرب ، وبعث ما لا عهد للجمهرة بهِ من قديمها ومجفوها مما يقع عندها موقع الغرابة او ما هو أشد من الغرابة في أول الأمر ، فانهُ من ناحية أخرى لا يفتأ يترخص أعظم الترخص ، وييسر أبلغ التيسير.على ان ترخصه هذا وتيسيره انما يقعان في حدود اللغة ،وما مضى من مذاهب علمائها الأعلام ، فلا سيادة لعامية،ولا طغيان للعجمي على لغة الكتاب)

هذه الفقرة من مذكرة المجمع قد جلت أمامي كثيراً مما رأيته في المصطلحات التي اطلعت عليها ، وفي المسميات التي وضعها المجمع لحاجات الحياة المتداولة . فهو قد آثر ان يبعث من تراث

اللغة المهجور ما رآه معادلاً لهذه المسميات والمصطلحات . ولا أخالني مخطئاً في هذا التصور وقد وضع المجمع منذ سنوات جوائز مختلفة لمن يضعون طوائف من الكلمات العربية الفصيحة للمسميات الحديثة وللمصطلحات العلمية والفنية والأدبية ، ثم نبه الذين يتقدمون لهذه الجوائز انهُ يفضل عند التسمية ما وضعهُ القدماء من الكلمات الصحيحة ثم هجر وتنوسي ، واستعمل بدلاً منهُ ألفاظ مولدة حديثة ، او عامية ، او أعجمية . فان لم يعثر على شيء من ذلك وضعت الكلمة وضعاً جديداً بطريقة من طرق الوضع القياسية

لست أتردد في الموافقة على هذه الخطة في أمر المصطلحات العلمية كلما وجد اللفظ العربي القديم الذي يؤدي الغرض من هذا المصطلح أداء دقيقاً يقره المتخصصون من العلماء . وإني لا أتردد كذلك في الموافقة عليها اذا استعمل لفظ أجنبي للتعبير عن معنى قديم كان العرب يعبرون عنهُ بلفظ عربي . لكني أقف متردداً ، ويطول ترددي ، فيما خلا هاتين الصورتين ، وفيما يوضع من المسميات لحاجات الحياة المتداولة . ولا أحسبني دون ذلك تردداً في أمر الألفاظ العامية اذا أمكن تقويمها لتسترد صورتها العربية الصحيحة

أيها السادة : ان الغرض الأساسي من انشاء هذا المجمع انما هو جعل اللغة العربية ملائمة لحاجات الحياة في عصرنا مع المحافظة على سلامتها . هذا الغرض يتضح جليًّا في المذكرة التي وضعها المجمع اليوم بين أيدينا . فكل ما بذل من جهود الأفراد والجماعات في أمر اللغة من عهد محمد علي الكبير الى اليوم قد توخى هذا الغرض . وقد سجل مرسوم انشاء المجمع هذا الغرض في المادة الثانية منه تسجيلاً صريحاً . ولكي تلائم اللغة حاجات الحياة في عصر من العصور يجب ان تكون صورة صادقة لكل ما تتناوله الحياة في هذا العصر ، ويجب ان تكون سليقة للمتكلمين بها والكاتبين لها ، ويجب ان تكون بذلك أداة التفاهم بين هؤلاء جميعاً تفاهماً يتم في غير عسر ولا مشقة ، ويجب لذلك ان يكون القدر المشترك منها بين الجميع ، من الصبي الناشىء الى العالم الكبير ، ومن ربة البيت في أهلها الى المتحدث في الفنون والعلوم والآداب — يجب ان يكون عظيماً بحيث ييسر هذا التفاهم ويجعله في متناول الجميع ، فلا يقع خلاف بينهم فيه بسبب اللغة وألفاظها ، وان أمكن ان يقع بسبب تفاوتهم في الثقافة . وكل جهد يبذل لزيادة القدر المشترك تيسيراً للتفاهم المتبادل ، يدني من الغرض الذي تنشأ مجامع اللغة لتحقيقه

اذا كان هذا صحيحاً ، وأعتقد أنا صحته ، وجب ان لا نتقيد في جعل لغتنا ملائمة لحاجات عصرنا بالحدود التي وضعت في عصر العباسيين او في عصر الأمويين ، او في الجاهلية لحاجات عصرهم . فاذا أردنا أن نضع معجماً يغني المثقف الوسيط ، ويغني الطالب الثانوي ، وجب مع محافظتنا على سلامة اللغة ، أن لا نهمل تطورها الى حيث وصلتنا اليوم ، ووجب أن

ندرس بعناية هذا التطور في لغة الكتابة وفي لغة الكلام

لقد رأى العالم العربي في كل العصور ، الى عصرنا الحاضر ، خطباء اهتزت لبلاغتهم المنابر ، ومحامين كانت مرافعاتهم مثلاً عالياً للبلاغة القضائية ، وكتاباً في الصحف وفي المجلات ومؤلفين قدرهم أهل هذه الامم أسمى التقدير . هذه الخطب ، وهذه المرافعات ، وهذه الكتابات على اختلاف أنواعها وعصورها ، تصور تطور اللغة ، فلا سبيل الى انكارها . وهذه الخطب والمرافعات والصحف والمجلات والكتب تحوي قدراً مشتركاً عظيماً جداً من الفاظ اللغة وتراكيبها ومن أساليبها التي تتفق مع تصور الناس للحياة في هذا العصر وأبناؤنا في المدارس وجماهيرنا المثقفة تثقيفاً وسطاً تستمع الى هذه الخطب والمرافعات وتقرأ هذه الصحف والمجلات والكتب ، بشغف أكثر من شغفها حين تقرأ الكتب القديمة . أفيقال مع هذا إن في هذه الخطب والمرافعات والصحف والكتب ألفاظاً عامية لايجوز أن تكون في معجمات اللغة ؟ أم الحق أنا يجب علينا أن لانهمل هذه الثروة اللغوية الحية ، وأن نسجل منها كل مايتفق مع ذوق العربية وأقيستها ، وأن مانقوم به من ذلك هو الذي يجعل اللغة لغة الحياة تسير معها وتتطور بتطورها

وأذهب الى أبعد من هذا . أن في اللهجات العامية للبلاد العربية المختلفة لقدراً عظيماً من الكلمات المشتركة ، والتي يمكن أن ترد الى أصل عربي دون حاجة الى أكثر من تقويمها بعض التقويم . هذه ثروة ضخمة تقابل حاجات الحياة وتعبرعنها أصدق تعبير . مع ذلك درجنا على التنكر لهذه الألفاظ والعبارات ، وعلى اعتبارها مبتذلة لايجوز للمتكلم الفصيح ، أو للكاتب البليغ ، أن يكتبها أو يتكلم بها . أما وقد انحدرت هذه الالفاظ الينا من العرب الاولين الذين نزحوا الى مصر والى غير مصر من البلاد العربية ، فلست أدري لم تكون مبتذلة ، ولم لاتدخل في معجماتنا ، وفي كتابتنا وخطابتنا ، وفي مصطلحاتنا المختلفة . السبب الوحيد في نظري هو أننا نريد أن تكون اللغة وقفاً على طائفة خاصة . وأن تكون لها من أجل ذلك أسرار تغيب عن الكافة كما أراد الكهنة في عهد الفراعنة أن يجعلوا حقائق الدين سراً موقوفاً على طائفتهم . وان يدعوا للناس من الزيف مايتنزهون هم عنه . وما يسخرون منه

أيها السادة : ان ما أطالب به المجمع من اقرار ما يجوز اقراره من هذه الالفاظ المتداولة في الكلام وفي الخطابة وفي الكتابة بعد رده الى حدود اللغة السليمة هو ما تقوم به مجامع اللغة في بلاد العالم أجمع . وهو ليس بدعاً في لغتنا العربية منذ عهدها الاول . والمادة الثانية التي حددت اغراض مجمعنا تطالبنا به . فهي قد نصت على أن يقوم المجمع بوضع معجم تاريخي للغة العربية . وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة . وهذان الامران يتصلان أوثق الاتصال . فاللهجات الحديثة تشتمل كما قدمت على قدر عظيم مشترك من الالفاظ والعبارات

العربية . كما انهُ قد اندس اليها بحكم الحوادث التاريخية واختلاط الامم العربية بشعوب أجنبية عدد عظيم من الالفاظ غير العربية . فالدراسة العلمية المقصودة هنا ، والتي تتفق مع مهمة المجمع ، لا بد أن يكون مرماها تحديد الالفاظ العربية في هذه اللهجات المختلفة تحديداً علميًّا دقيقاً للاستفادة منها في وضع المعاجم التي نص عليها في اغراض المجمع . اما المعجم التاريخي فيجب أن يتناول تطور اللغة على العصور الى وقتنا الحاضر . وأن تكون الالفاظ العربية السليمة التي يصطنعها الناس في أحاديثهم وخطبهم وكتاباتهم بعض هذا الذي يتناوله

ايها السادة : ان هذا الذي قدمت صحيح في نظري كل الصحة . واضح كل الوضوح . لذلك كان عجبي ولا يزال شديداً أن لا يفصل من تاريخ اللغة وآدابها في معاهدنا شيء فيما وراء العصر العباسي . ولم يدرس الأدب الحديث الاَّ من عهد قريب . وعلى نحو لا يزال بدائيًّا غير متصل بما سبقه من تاريخ الأدب واللغة . ولقد لاحظت منذ سنوات على المعجم التاريخي للدكتور فيشر ، وهو المعجم الذي يعنى المجمع بطبعه الآن ، انه لا يتناول الاَّ العهد الأول من صدر الاسلام . وكنت قد فهمت يومئذ ان هذا المعجم سيضاف اليه ما يتم الغرض منه بتناول تاريخ اللغة الى وقتنا الحاضر . ولا أظن أحداً يخالفني في ان ما دون من كتب الفقه والأدب والفن والعلم في العصور المختلفة يجب ان يكون بعض هذا التاريخ . ولا أظن احداً كذلك يخالفني في أن الألفاظ العربية الأصل مما تتناوله لهجات الحديث تدخل في نطاق هذا التاريخ .

أيها السادة : انني أعتبر هذا العمل أساسيًّا لتلاؤم اللغة حاجات الحياة في العصر الحاضر فاللغة اليوم ملك مشاع للجميع . يقرؤها الناس في الصحف ، ويسمعونها في الاذاعة ، ويخطبهم بها الخطباء ، ويتلونها في الكتب . لم تبق وقفاً على القارئين والكاتبين ممن تثقفوا ثقافة لغوية عالية ، بل صارت أداة التفاهم في هذا العصر الكثير الحاجات والمطالب ، والذي يسر للناس من كل الطبقات ان يقفوا على السر من كل الشيء ، لاتختص فئة منهم دون الأخرى ، بما يزاول الناس من علم وفن وأدب وصناعة وتجارة . فكلما تيسرت اللغة للناس ، وكلما شعر الطالب في دور العلم بأنها لاتقف عقبة في سبيل المعرفة التي يبتغي النهل من وردها كانت الاداة الصالحة للغرض الذي وجدت اللغات من أجله . بذلك يحب الناس اللغة ويرون جمالها في بساطتها ، وفي وضوحها ، وفي تكشفها غير محجوبة بحجب التعقيد الذي يحتاج الى دراسة السنوات الطوال لحل رموزه وتبين أسراره .

أيها السادة : هذا ما تيسر لي أن أحدثكم اليوم فيهِ : وهو بعض مانطالب بهِ في هذا المجمع لتيسير اللغة العربية حتى تفي بحاجات حياتنا ومطالبها . وقد احيلت على المجتمع مسألة الكتابة العربية وتيسيرها . وهذه مسألة جوهرية في نظري ونظر الكثيرين ، لعلها تزيد الناس اقبالاً على القراءة وعلى اللغة ودراستها . وأرجو لذلك أن تنال ما هي جديرة بهِ من البحث

****

آيات في الخلق

الرسيفات

BRADYPODIDÆ

****

الثديات إحدى آيات الخلق الحيواني البالغة . والرَّسيفات من أخص ما يدلك على ما في الثديات من آي الخلق. والرسيفات في عرف المواليديين فَصيلة : Family من قَبيلة Order نعرف في تصنيف الحيوان باسم الدُّرْدَاوات : Edentata ، وهي طبقة من الطبقات العليا في تبويب ذوات الثدي . والمصطلح اللاَّطيني الدَّال على هذه القبيلة بمعنى « فاقد الأسنان » ، غير ان هذا الاصطلاح غير تام الدَّلالة على المقصود منهُ . ذلك بأن قليلاً من الحيوانات التي تشملها هذه القبيلة فاقد الأسنان فعلاً . ولكن المصطلح العربي أقرب إلى المقصود ، بل يؤدي المقصود تماماً . فالدَّرَد : ذَهاب الاسنان، وناقة دَرْدَاء لحقت أسنانها بدَرْدَرِها (القاموس ٢٩٢ : ١) ففيه المعنيان

ومن أجل أن يكون كلامنا عن الرسيفات بيّناً ينبغي لنا أن نعرف ان الدُّرْدَاوَات من الثدييات المشيميَّة ، وعيَّنها المواليدي « جل » بعَشيرَة سمَّاها Ineducabilia ، وقد أطلقت عليها اسم « الفَدْمِيَّات » وشملت من الثدييات في اعتباره قبائل ثلاث هي الخفاشيات والقواضم والدَّرْدَاوَات . وتمتاز هذه العشيرة بصغر الدماغ ، بحيث يكون جزء كبير من الرَّنح (المخيخ) والاعصاب أو الفصوص الشمَّيَّة غير مغشى باجزاء الدماغ

وليس الكلام في الرسيفات بحديث في اللغة العربية فقد ذكرها غيري من الكتَّاب ، وسميت من قبل « الكَسْلاَن » للدلالة على الفرد الواحد من هذه الحيوانات . غير اني لم أجد في هذه المادَّة ما يدل على شيء من تأويل الاسم العلمي لهذه الفصيلة . فان الاسم العلمي مولد في اللاطينية وأصله من كلمة يونانية مركبة من لفظين : الأول معناه « بطيء، وانٍ » والثاني معناه « قدم » . ومعناه الحرفي « بطيء القدم » ، وتأويله « بطيء الخطو » . أما المصطلح العربي فمن الرَّسْف اي المشي في القيد ، وهو الرسيف (المخصص ١١١ : ٣) والرسيفات جمع مؤنث سالم من « رسيف » . وهي صيغة اخترتها للدلالة على الفَصيلة في تصنيف الحيوان ، فاذا

أردنا الفُصَيْلة Subfamily قلنا الرُّسيفية، واذا أردنا الجنس قلنا « الرُّسيف » ، فاذا أردنا النوع عيَّناه بصفة فقلنا الرسيف الأغبر أو الرسيف المطوق وهكذا . واتباع هذا النمط ضروري في تصنيف الحيوان

* * *

من الأنواع المثالية التي تتضمنها هذه الفصيلة نوع يعرف في اللسان العلمي باسم « الرسيف الثلاثي الأصابع » Bradypus tridactylus ويعرف في مرابيه باسم « الأيّ » : ai ، وقد اخذت صفته المبينة للنوع (اي الثلاثي الأصابع) من صفة عضوية فيه إذ أن له ثلاثة اصابع في كل من يديه ورجليه . ومن الصفات البينة فيه أن اسنانه راصفة اي أنها بارتفاع واحد ، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .ذلك في حين أن الطواحن ان ساوت الاسنان من حيث الرَّصَف فإنك تجدها مكاسة شديدة التكاس ، بمعنى انها اشبه بالكاس من حيث تجوُّفها . ومن أبين الخصائص التشريحية التي تشهدها في جنس الرسيفات جميعاً ، أن فقارات العنق تسع بدلاً من سبع ، وهو العدد السويّ في بقية اجناس الفَصيلة ، ومعنى هذا تركيبيًّا أنَّ الفقارة العاشرة بُعْداً من الرأس هي التي يتفرع منها الضلعان الأوَّليان بحيث يتداوران مع القص (عظم الصدر) ، في حين ان الفقارة التاسعة،وقد يحدث ان تكون الثامنة أيضاً، قد تحمل كل منهما ضلعين طليقين . ومعنى انهما طليقان ينحصر في انهما لا يتصلان بعظم الصدر

ولجنس الرسيفات بضعة أنواع تختلف من حيث اللون او في طول الشعر على الوجه . ولونها في العادة متسق ، غير انهُ يحدث ان يكون لبعضها شعابٌ داكن فوق الكتفين. ويقطن « الأيُّ » المناطق الجافة من الغابات عادةً ولكن هنا أنواعاً يكثر وجودها في المناطق التي تغشاها المياه على الدوام

وقد لاحظ المواليدى « باتس » أن الهنود يطلقون على « الرسيف الثلاثي الاصابع » اسم « الأيّ السُّهْلي » أي « رسيف السهول » تمييزاً له من الرُّسيف الأغبر Bradypus infuscatus الذي يطلقون عليه اسم « الأي الأجمي » اي « رسيف الأجَمَات » والمقصود بالهنود هنا هنود اميركا الحمر

وقد روى بعض الجوَّالين في أميركا الجنوبية أن الذي يرى الرسائف في مواطنها الاصيلة يلحظ فيها من النشاط ما ينفي عنها صفة الكسل التي ألصقها بها بعض الكتّاب . فان سكان مناطق نهر الأمازون ، الهنود الاصليون منهم وأعقاب البورتغاليين على السَّواء ، يؤيدون الفكرة السائدة عن هذه الحيوانات،ويعتقدون أنها رمز الكسل والتثاقل . غير أنهُ من المناظر العجيبة

أن ترى الرسائف ، وليدة تلك الحرجات الظليلة الساكنة ، وهي تنتقل من غصن الى غصن. فان كل حركة من حركاتها بل كل سكنة من سكناتها انما توحي اليك ما اتصفت به من الحذر الشديد والحيطة البالغة . تلك الصفة التي كانت سبباً فيما وصفت به من كسل وتثاقل وبلادة . فان الرسيف لن يخرج من قبضته غصناً تشبث به ، من قبل أن يستمكن ويوقن بأنه استمكن من غصن آخر . فاذا أعوزه العثور على ما يتشبث به من الفروع والمساليج الصلبة التي ينشب فيها كلاليبه المخلبة رفع جسمه معتمداً على رجليه الخلفيتين ، باحثاً عن شيء يتشبث به . وان يتشبث بشيء الا بعد أن يمتحنه ويوقن بأنه سناد قوي ١

والرسائف ليلية العادات . فاذا تحركت أو حاولت أن تتناول غذاء ، تعلقت بأرجلها وتدلت برءوسها . أما اذا غلب عليها النوم وشعرت بالحاجة الى الراحة تكرت (أي التفت كرة كاملة) واضعة رأسها بين ذراعيها . وهي من حيث ذلك أشبه القطاط Pottos بين الصعابير Lemurs . فاذا مررت بتلك الكرات معلقة في الاشجار لم يخيل اليك أنها حيوانات تدب وتتحرك ، وانما يخيل اليك أنها درنات عظام لصقت بالفروع ، وبرزت منها

وتعيش الرسائف أزواجاً في الغاب ، ولكن لا يندر أن تعيش في أسر أو جماعات . وهي ودمة لينة الخلق بعيدة عن الاذى والشر . وغذاؤها الرئيسي أوراق الاشجار والفريعات اللدنة والفواكه . وهي تجتزىء بما في هذه المواد من الرطوبات عن الماء

ومن عجب أن ترى جنساً من الحيوان يعشق نوعاً بعينه من الشجر ويفضل الاقتيات به والعيش في ظلاله . فان الرسائف تهوى جنساً يعرف في اللسان العلمي باسم قِقْرُوفيا Cecropia . أما في داريان وفنزويلا فان الرسائف على مايقول ثقة من الواليدين تخلد الى شجر الققروفيا ولا تغادره ، وأنها تفضل بالاخص نوعاً منه يقال له : Cecropia peltata . وأشجار هذا النوع يتفاوت ارتفاعها بين ١٦ و ٢٢ قدماً وجذوعها نحيلة ، وأغصانها وفريعاتها قليلة ، ولكنها حيث ينتهي امتدادها تحمل خُصَلاً من الاوراق النضة اللدنة . ولا تنمو هذه الأشجار في غير الوديان المفتوحة . وفي هذه الأشجار تعيش الرسائف متنقلة بين أغصانها ، فاذا كان النهار نمطت مستشمسة ، او تكرت لتأخذ قسطها من النوم . فاذا جن الليل تسللت في جنبات الغاب

وانها لا تنام في هذا الوضع ، وبخاصة اذا كانت في الأسر ، الا لأنها لا تجد سنادة صالحة لأن تتخذ بواسطتها الوضع الطبيعي

وتتسلق الرسائف جذوع شجر القـقـرُ ونيا بسهولة وسرعة ، بأن تحتضنها لافة أذرعها من حولها . فاذا أكلت ما في شجرة منها من الأوراق والأماليد اللدنة نزحت عنها بأن تتخذ لها سبيلاً فوق الأرض حتى تصل الى جذع شجرة أخرى . فاذا رأيتها تدرج على الأرض رأيت عجباً . رأيتها تعتمد على أحدى ذراعيها ، ثم تمد الآخر جهد ما يتيسر لها ان تمده حتى يعثر مخالبها بفجوة أو شيء تتخذه موضع ارتكاز ، فاذا تشبثت به جرّت جسمها اليه جرًّا، فتدرج الى الأمام . وقد ذكر أحد الثقات ان رسيفاً استطاع بهذه الوسيلة في ليلة واحدة مداها سبع أو ثماني ساعات ان يقطع مسافة قدرها خمسمائة ياردة

والظاهر أن حسن السمع في هذه الحيوانات غير مكتمل . أما عيونها الحمر الصغيرة المعبرة عن البلادة والخمول فلا تدل على أنها حسنة الابصار . وفي الحق انك اذا نظرت الى رسيف وركزت بصرك في عينه فان انطفاءها وكدرتها توحي اليك بأنه حيوان مكفوف . ولا يلد الرسيف غير فرد واحد . فاذا خرج الى هذا العالم ألفيتهُ مكسوًّا بشعر كثيف ، ورأيت مخالبه نامية نمو مخالب الأفراد البالغة بالقياس الى حجم البالغ والوليد . والفائدة التي توختها الطبيعة من ان يولد الرسيف نامي المخالب هي ان يتخذ منها وسيلة للتشبث بشعر أمه لافًّا ذراعيه من حول عنقها

وأهم المظاهر الحيوية في الرسائف انها تطيق الحرمان من الطعام أوقاتاً طويلة . كما انها تحتمل من الجراحات والاضرار البدنية ما لا يقوى عليه غيرها من الحيوانات العليا . وهي كذلك لا تألم ولا تتأذى اذا هي جرعت مقادير من السم ، تفضي الى موت غيرها من حيوانات اكبر منها حجماً . وقد أسر رسيف ثلاثي الأصابع ونقل الى بلدة « تيورين » حيث ظل بلا طعام شهراً كاملاً ، فلم يظهر عليه من أعراض ذلك الصوم الطويل شيء يمكن أن تحس به فرقاً حيويًّا فيه بين أول الصوم ومنتهاه

عامة هذه الظواهر تدلنا على ان الرسائف حيوانات دنية في سلم الطبقات الحيوانية . ذلك بأن الزواحف مثلاً تحتمل من مشقات الحياة ما لا يحتمله الثدييات العليا . وكلما كان الحي أدنى تكويناً كان أشد احتمالاً وأصبر وأجلد على المشقات وأقدر على مقاومة الأذى والحرمان

* * *

ومن الرسيفات جنس آخر سميته في العربية « الأقازل » ويطلق عليه في مرابيه اسم « العُـنْـوَة » . أما الأقازل و(مفردها الأقزل) فاسمه وصفته يقابل المصطلح العلمي الذي أطلقه

المواليديون على هذا الجنس اذ سموه Choloepus ، وهو مصطلح مُـوَلد في اللاطينية ، وأصله من لفظين يونانيين الأول معناه «أعرج» والثاني معناه «قدم» ، أما شاهدنا على المصطلح العربي فمن المخصص (٢١١ : ٣) عن ابي عبيد : عَـشـزَ يَـعْـشِـز عَـشَـزَاناً : وهي مشية المقطوع الرجل ، وقزل يقزل مثله ، وهو الأقـزَل ، والقـزَل أسوأ العرج . اه . أما الاسم الدارج «المنوة» (ج المنوات) فتعريب وضعته ليقابل الاسم الاهلي لهذا الجنس (Unaus)

ولهذا الجنس نوعان على الأقل، من أبين خصائصهما ان لهما أصبعين اثنين عاملين في كل من القدمين الأماميتين، يمثلان في اليد الانسانية الابهام والوسطى . أما القدمان الخلفيتان ففيها ثلاثة أباخس كما في جنس الرسيف. ولعلَ القارىء يسأل ما هي الأباخس ؟ فانه اصطلاح جديد استعملناه ليدل على أصابع القدمين (Toes) تمييزاً لها من أصابع اليدين (Fingers) ومفردها على القياس « أبخس » . فان الباحث في علم المواليد يضطر الى التفريق بين هذه وتلك في كثير من مواضع بحوثه

ومن الظواهر البينة في هذا الجنس تركيب أسنانه . فان الزوج الأول منها في كلا الفكّين يكون أطول وأمتن مما يليه ، ويفصل بينه وبين بقية الأسنان فرجة كبيرة . أما بقية الأسنان فلها صفات الأنياب ، وترى قممها وقد حُـيِّـدَت منحرفة بالتأكل من كثرة الاحتكاك بعضها ببعض . ولعلك ترى في أسنانها صفات لا تجعل لها صفات الأنياب (canines) او العاج (tusks) التي لبقية الثدييات . ذلك بأن الأسنان التحتية (أسنان الضبَّـة) تعضُّ من خلف الأسنان الفوقية (أسنان الحَـكَـمَـة) لا من أمامها

والنوع الأول من نوعي الأقازل ويسمى في الكلام الدارج « المنوة العادي» وفي اللسان العلمي « الأقزل ذو الأصبعين » ليس له من فقارات الرقبة سوى سبع على الضد مما لأقزل هوفمن فان له ستًّا فقط . والنوع الأول من هذين يستوطن البرازيل ولا يحور عنها ، في حين ان الثاني يمتد انتشاره من إكوادور الى كوستاريكا . ويخرج أقزل هوفمن صوتاً هو أشبه بثغاء الشاة . أما من حيث العادات فان الأقازل تشبه الرسائف في كثير منها

***

وللرسيفات أسلاف بائدة ، تعرف في مباحث التاريخ الطبيعي باسم « الرسائف الأرضية المنقرضة » ، وقد أفرد لها المواليديون فصيلة أطلقوا عليها اسم Megalotheriidæ او Megatheriidæ ، ووضعت لها في العربية اسم الـكَـبْـهَـمِـيَّـات نحتاً من مدلول اللفظين اللذين يتركب منها الاسم الاصطلاحي الفرنجي . فانهُ مولد في اللاطينية ، وأصله من لفظين يونانيين : الأول (megas) او (megal) ومعناه كبير والثاني (therion) ومعناه بهيم : وتأويل

النحت : ك١ب٢ ي ر + ب هـ٣ ي م٤ = كَبْهَم، والفصيلة الكبهميات . وكانت الكبهميات كثيرة الذيوع في أميركا الجنوبية . وببحثها استطاع المواليديون ان يثبتوا الآصرة التي تربط بين الرسيفات وبين النمّاليّات (او أُوا كل النمل)

وأعظم أجناس هذه الفصيلة البائدة جنس يسمى علميًّا «الكبهم» ، بلغ من عظم الجثة وضخامة البدن مبلغ الفيل . والى جانب هذا الجنس الكبير ثلاثة اجناس اخرى . الاول السَّنام (م: سَنْهَم) (Glossotherium) ووضعت له هذا الاسم من العربية بالنحت من مدلول اسمهُ الاصطلاحي الافرنجي . فانهُ مولد في اللاطينية واصله من لفظين يونانيين الاول glossa اي لسان، والثاني (therion) اي بهيمة : وتأويل النحت : ل س١ ا ن٢ + ب هـ٣ ي م٤ = سَنْهَم (ج: السَّنَام) ،والثاني الطّحونات،(Mylodon)وأصله من لفظ يوناني حديث (mulodous) ومعناه سن طاحن او ضرس ، من (muly) اي طاحونة و (odous, odont) اي سن. والمصطلح العربي وزان فَعُول من الفعل طَحَنَ ، ومفرده الطحُون . والثالث الجلام (م : جَلْهَم) (Schelidotherium)وهو اسم وضعتهُ بالنحت من مدلول المصطلح الفرنجي ، فانهُ مولد في اللاطينية وأصله من لفظين يونانيين : الاول (skelis) أو (skelid) ومعناه « رِجْل » والثاني (therion) ومعناه بهيمة ، وتأويل النحت ـ ر ج١ ل٢ + ب هـ٣ ي م٤ ة — جلهم

ولكل من هذه الاجناس صفات تميزه ، قد لحظها المواليديون في البقايا المستحاثة التي عثروا عليها وبخاصة في اسنانها . اما الشأن الاول من حيث القيمة العلمية فلنوع من جنس السَّنام يعرف علميًّا باسم « السَّنهم الدَّرْويني » (Glossotherium darwini) ، اذ عثر على جزء من جلده محفوظاً في كهف يعرف عند الجغرافيين باسم « التيا إسبيرانزا » بجنوب بتاغونيا. وقد وجد أن هذا الجلد يكسوه من الخارج شعر طويل كث خشن ، يشبه الى حد كبير جلد الرسائف العائشة اليوم . أما وجهه الداخلي ففيه ظاهرة غريبة هي أنهُ مهيأ بعقد مُلس صغيرة من العظم . ولقد عثر في عظام جنس الطحُون على عقد أشبه بهذه . ولكن هذه العقد كانت منحوتة من احد جوانبها فرجح الباحثون أنها كانت خارجية لاداخلية شأن العقد التي وجدت في جلد السَّنَام . ولقد اتضح أيضاً أن الجلد والعظام التي عثر بها في بتاغونيا قد دفنت في مادة خاصة وأن العظام قد قطعت باداة حادة ، مما يدل دلالة قاطعة على أن الرسائف الارضية المنقرضة قد قطنت الكهوف مع الانسان الاول ، وان الانسان دجَّنها وأنَّسها في عصر من عصور تاريخه الطويل

*

خلائق تنقصنا

الوثنية الاجتماعية

لاسماعيل مظهر

وإذ قال ابراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ ان نعبد الاصنام
[قرآن كريم]

في اليوم الذي تستكمل فيهِ جمعية من الجمعيات الانسانية اسباب الأمن ، وتجتنب عبادة الاصنام، تنفتح امامها ابواب الحضارة وتتئد خطواتها وتستقيم سبيلها التي تَسلُكها الى معارج القوة النفسية . ولا اقصد هنا بعبادة الاصنام اتخاذها أرباباً من دون الله ، فقد كفانا هداة الانسانية الاصنام وعبادتها ووجهونا إلى النور فلمسناه وأبصرنا أشعته الوضاءة تخترق الينا ظلام القرون الأولى . والظاهر أنَّ الجمعيات الانسانية فيها خاصية تجعل حياتها بغير الأمن موصولة بعبادة الاصنام . فحيث لا يكون الأمن تكون عبادة الاصنام ، وعبادة الاصنام لا تكون الاَّ حيث ينتفي الامن ويهدد أبناء آدم في اقواتهم وارزاقهم واقدارهم المعنوية بصفة انهم من الآدميين . لهذا نجد ان كل جمعية من الجمعيات سادتها سلطات الأفراد واستبدت بهم ارادة الكبراء من السادة والنبلاء ، انحدرت سريعاً الى عبادة الاصنام مصبوغة بصبغة جديدة . فانهم ان لم يعودوا الى عبادة اوثان يخلقونها بايديهم ، خلقوا في مخيلاتهم اوثاناً يعظمها الوهم ويفخمها الخيال ، فتصبح حياتهم وقد افعمت بالاوثان الكثيرة المتعددة ، فهذا له وثن في صورة زعيم، وذاك له وثن آخر في صورة رئيس ، وثالث له وثن في صورة موظف، ورابع له وثن في صورة وزير، وخامس لهُ وثن في صورة وظيفة او كرسيٍّ ما يملؤه في فراغ الحكومة . ومن هنا ينحدر الناس انحداراً آخر فيخيل اليهم ان تلك الاوثان التي جسمتها مخيلاتهم وفخمتها أوهامهم قد أصبحت جزءاً من حياتهم وقسماً من أنفاسهم التي يرددونها في صدورهم ، فتكبت فيهم كل صفة انسانية عالية لتحل محلها صفات لا تكون الاَّ حيث يكون الخوف من الاوثان بما يحوطهم بهِ الخيال من الأساطير والخرافات التي تتحول مع الزمن فتصبح عقائد ثابتة

هذه الصورة التي رسمتها في الأسطر السابقة ، على بشاعتها وغلظها ، وعلى ما فيها من السيئات والقبائح ، ينطبق أكثر ما فيها على مجتمعنا ، بل اني لا أبالغ اذا قلت انها صورة مرسومة من المجتمع الذي اعيش فيه واشعر بنقائصه ، وأنشد له الكمالات . صورة تعبر ادق تعبير عن فكرات وآراء يحاول الكثيرون ان يخفوها في انفسهم حذر أن تبطش بهم الأوثان المفخمة زوراً ، المضخمة بهتاناً وإفكاً . مثلهم في ذلك مثل الانسان في عصور الظلام عند ما كان يجبل من الطين او الحجر صورة يتخذها وثناً يعبده . فهو ألهيته ولعبته ما دام بين يديه يصوره ويجلو اجزاءه وتقاسيمه ، فاذا فرغ من ذلك العمل الفني وخرَّ لهُ ساجداً ، ملأتهُ الرهبة واخذ بمخانقه الخوف والرَّهب فانكمش وراح يحوط وثنه بانواع الاساطير وضروب الخرافات ، ويحيك من حولهُ الحوادث وينسب اليه الكرامات ، ويضفي عليه من القوى ما يشاء وهمه ان يضفي مما لم تخلق الطبيعة في تضاعيف الوجود منهُ شيئاً

***

والانسان البُدائي إن فعل ذلك وساقه وهمه إليه ، فهو انما يفعله مسوقاً بعامل من الحياة يدفعهُ الى البحث وراء قوة تحميه من أعاصير الطبيعة التي تحوطه والسباع التي تنهشه والامراض التي تبتليه والرياح التي تتناوح من حوله وهزيم الرعود التي تصم أذنيه . أما الانسان الحالي ، الانسان الذي نقول إفكاً وزوراً انهُ بلغ من مدارج الرقي مبلغاً جعله يفقه ما هي قيمة الحياة عامة ، وما هي قيمة الحياة الانسانية خاصة ، وانهُ تسنم بقوى عقله تلك الذروة التي بلغ عندها حد تقديس المثاليات بما فيها الحرية والصراحة والصدق الى آخر ما في قائمة الفضائل التي عددها الفلاسفة ورجال الأخلاق . ذلك الانسان انما يعود بعد طول الجهاد في سبيل التحرر العقلي والنفسي الى عبادة الأوثان في صور جديدة ، مسوقاً هو كذلك بعامل من الحياة يدفعه الى طلب النجاة من قسوة النظام الاقتصادي الذي يحوطه وقسوة نظام المجتمع الذي يجعل للطبقات شأناً لا تخوله لها القوانين ولا تجيزه الشرائع . أما اذا كانت نتيجة ذلك الجهاد الطويل الذي بذل الانسان فيه غاية الجهد ، والصراع الفذ الذي يروي لنا التاريخ وقائعه قائمة بين الانسان وقوى الشر والاستبداد ، أن تسود الجماعات الانسانية الى عبادة الأوثان ممثلة في اشخاص من رجال الحكم او الدجاجلة أو المشعوذين ، أو ممثلة في حاجات الحياة التي يمنعها النظام الاجتماعي عن كل من يريد ان يتحرر من تلك الأوثان التي افعمت جل طبقاته وساقتها سوقاً الى الذل والخضوع والاستسلام ، فما أجدرنا ان نقول ان الانسان لم يربح من جهاده المرير خلال الاحقاب الماضية الا أمراً واحداً ، هو الاعتقاد بأنه في بداءة الجهاد ، وان الماضي برمته

يكن الا مقدمة لم تقطع بعد بعض مراحلها . والا فما الفارق الحقيقي بين ذلك الوثن الذي كان يصوره الانسان البدائي بأصابعه ويخلقه في الصورة التي تلذ له ليعبده من بعد ذلك ويسجد له ، وبين أوثان العصر الحاضر ، كذي السلطان الحكومي الذي يستخدم سلطانه في سبيل استعباد الذين يلونه في المرتبة ، او المشعوذ الذي يستهوي صغار العقول ، او الدجال السياسي الذي يسوق أمامه الجماهير سوقاً ، مستغلاً فيهم الغفلة أو الجهل ، أو متخذاً من صلفه وتجبره سبيلاً الى اخضاعهم ، مستخفياً وراء كلمات رنانة مما أدخل الفلاسفة في قاموس المثاليات . تلك المثاليات التي لم يؤمن بها دجال واحد من دجاجلة السياسة في عصر من عصور التاريخ . وانما اتخذوها أداة ووسيلة ليكمل لهم بها اضافة قوة الى انفسهم ترفعهم مع ما يرفعهم من بقية ضروب الدجل والاختلاق ، الى مرتبة الأوثان

***

وفي الحق ان الانسان قد جهد وعمل طوال عصور مديدة على ان يعبد تلك الأوثان على اختلاف صورها ، وان يرمي بها في حفر الماضي . ولقد كان جهاده في سبيل ذلك جهاداً صادقاً أفنى فيه كثيرون ممن نعتبرهم زهرة الانسانية أعمارهم الكريمة . ففي عصر القطائع عاش الناس وهم يعبدون ذلك الوثن المربع الذي ملك رقابهم وأرزاقهم وأولادهم ونساءهم . فقد كان المقطع الأعظم الوثن الأكبر ومن تحته رؤساء قطائعه لكل منهم من قوة الوثن بمقدار ما يملك من رقاب وحطام . فعمل الناس جاهدين على ان يحيوا في ظل تلك الأصنام حياة الذل راضين به قانعين على ظواهرهم ، بينما كانت قوى التقدم تعمل في سبيل نشر الديمقراطية والعمل على احياء الشعوب برد حقوقها الطبيعية اليها . على ان ذلك الجهاد الذي أخرج الناس من ظلمات عهد القطائع الى عهد الحرية الديمقراطية ، ان كان قد توج بالقضاء على الوثن الأول ، فان انقلاب النظام الاقتصادي الذي ترتب على شيوع النظم الديمقراطية ، قد رمى الأمم فيما رماهم به بأوثان جديدة لم ينقص معها عدد الأوثان الأولى بل زاد زيادة فادحة أثقلت من الانسان كاهله وحملته من الأوزار ما لا يطيق . واذا كانت الحرية الصحيحة تقضي بأن يعول المجتمع كل أفراده بأن يجد كل منهم رزقه بعمل يعمله بحسب اختياره وفي نطاق ارادته ، وان يؤدي ذلك العمل بالصورة التي تلذ له وترضيه ، اذن فما أبعدنا بنظامنا الحالي عن الحرية ، وما أقربنا الى العبودية التي هي أبين شيء في نظام تسوده عبادة الأوثان . ولك ان تتصور نظاماً تكفي فيه كلمة حق أو قولة صريحة لأن تبعد عاملاً عن عمله أو موظفاً عن وظيفته أو زارعاً عن حقله أو سياسيًّا عن حزبه ، لا ليجد كل منهم بعد ذلك عملاً يعمله او وظيفة يشغلها أو حقلاً يزرعه أو حزباً يرحب بمواهبه ، بل ليجد ان جميع الأبواب قد سدّت ، وان جميع المنافذ قد

أوصدت ، وان الفقر أخذ يقرع عليه الباب، وان الخراب بدأ يدب في كيانه الاجتماعي ، وانهُ أصبح منبوذاً من المجتمع شريداً طريداً يلاحقهُ الجوع ويصارعهُ العري ويجالدهُ الخوف ويسوقه الذل الى حيث يسقط في مدارج المجتمع مدرجاً بعد مدرج حتى تبتلعهُ اللجة فاذا به الصفر المنسي أو الهشيم الذي تذروه الرياح

عامة ذا يحدث ويقع لأن المجتمع بطبقاته يعبد الأوثان . وإن مجتمعاً أطبق على ان يكون وثنيًّا في نظامه الاجتماعي ، من شأنه ان يقوم عرفه السائد على ان يحفظ هذه الصورة البشعة قائمة فيه . فاذا خرج على ذلك المجتمع منبوذٌ استقامت أخلاقه ورَجُلَ فرعه وضاقت حريته عن ان تسع الاستعباد ولم تلن قناته للذل وصلب عوده امام الجبروت الوثني الذي تتخذه الأوثان الاجتماعية سبباً للظفر بفرائسها ، شعرت جميع طبقات ذلك المجتمع ، الأوثان منهم وعبدة تلك الأوثان جميعاً ، ان ذلك المنبوذ انما هو نذير شر ورسول سوء ، يهدد نظامهم الذي أرضاهم ورضوا به

وكان هذا هو السر في ان المجتمع الموبوء بتلك الصورة الوثنية اذا خرج عليه منبوذ ، قسى عليه وشدَّ عليه الخناق حتى تخمد منهُ الأنفاس ويروح مستذلاً ويموت فيكون نسياً

أما وقد ذكرنا الديمقراطية فانهُ ينبغي لنا ان نعرف مقدار مافي ذلك النظام من قوة يمكن ان تقضي على صورة الوثنية الاجتماعية التي ترزح في مصر تحت اعبائها . وأول ما نقول ان الديمقراطية كنظام مكتوب قد استكملت مجمل ما جاهد الانسان في سبيله من المثاليات . أما كنظام مطبق فان تغلب المثاليات عليها او تغلب الوثنية الاجتماعية ، أمرٌ راجع الى كفاءة الذين يطبقونها

فعلى أية صورة طبقنا الديمقراطية وبأية روح طبقناها ؟ ومحصل ذلك ان النظام الديمقراطي لكي يكون مثاليَّ الصورة والأثر ، ينبغي ان يكون شيئاً حيًّا نابضاً في قلوب الذي يطبقونهُ ويتخذونهُ أساساً لنظامهم السياسي والتشريعي ، والاَّ ساء التطبيق وإن سما المبدأ ، وماتت بسوئه المثاليات ورفعت الوثنية الاجتماعية رأسها الأقرن الذي هو أشبه برأس الحية ، لتنفث في همودها وسباتها ذلك السم الذي يفسد الحياة

***

رنت الصيحات الأولى التي تجاوبت بها انحاء مصر في سبيل الديمقراطية منذ نيف وثلاثين سنة عندما قامت بعض الهيئات تطالب باعلان الدستور ووضع قانون التشريع الأساسي على المبادىء الديمقراطية . وأذكر ان الهيئة التي قامت تنادي بذلك كانت تناوىء الخديوية في ذلك العصر متهمة عند الرأي العام ، وكان دائرة محدودة ، بموالاتها للاحتلال البريطاني . فقامت

هيئة أخرى كانت تعمل بجد على جلاء الانكليز تتهم أصحاب الدستور بانهم انما يطالبون بالدستور إضعافاً للخديوية وقصًّا من حواشيها تثبيتاً لاقدام الانكليز في مصر . ودار الزمن دورته المعروفة وأعلن الدستور بسعي الذين سموا له ، والله يعلم اي يد كانت من وراء ذلك الأمر كله، فأعددنا دستوراً على الورق وأخذنا نطبقه معلنين ان الأمة مصدر السلطات وان الحكم للأغلبية في مجلس النواب . ولكن هل أغنانا ذلك عن الماضي شيئاً ؟ الواقع ان موقفنا اليوم لم يتغير الا في الظاهر . فالوثنية الفردية التي عملنا على اقتلاع جذورها منذ الساعة التي صحنا فيها بوجوب اعلان الدستور ما زالت قائمة بكل مخابثها ، والوثنية الاجتماعية التي تصورنا أن الدستور خير كفيل بالقضاء عليها هي بعينها الوثنية التي عانينا منها الأمرين منذ قرون موغلة في القدم

فعلى الرغم من أن الدستور كفل الحريات واباحها في حدود القانون ما زلنا ننظر الى الحكومة نظرة الوثني الذي ينظر الى ربه الذي خلقه هو بيده ، وما زلنا ننظر الى كل من يمثل سلطة عليا من سلطاتها بما يقرب من النظر الى وثن أصغر يمثل وثناً أكبر، وما زلنا نشعر بأن تدرج القيمة الوثنية لرجال الحكومة تتدرج ارتفاعاً وانخفاضاً بارتفاع درجة الوظيفة وانخفاضها وضخامة المرتب أو ضآلته. وكذلك لم نشعر في خارج الدائرة الحكومية بأن الحرية قد حررتنا من الوثنيات الأخرى الخارجة عن وثنية الحكومة ، فخلقنا ، وكأنما نخلق بدافع من أنفسنا رسيس فيها، أوثاناً في الصحافة وأوثاناً في الادب واوثاناً في الاقتصاد، وخلقنا غير هؤلاء أوثاناً واوثاناً جسمناها ووضعناها في حجرة مدير الاقليم ومأمور المركز ومعاون البوليس والعمدة ، ورحنا نؤمن بأن هيئة الحكم ونظام الاجتماع لا يقومان الا على مثل هذه الوثنية التي إن أساءت الى الخلق بشيء ، فانها انما تفسد نظام الحكم وتحور القوانين والشرائع الى صالح الأوثان المعبودة لا الى صالح الوثنيين

***

ان الواجب الاول على الاحرار من رجال هذه الامة أن أرادوا إن يبنوا لمستقبلها أن يحطموا تلك الاوثان . وستدور بحوثنا المقبلة حول كل من الصور التي تجسمت فيها هذه الاوثان الاجتماعية ، والسبيل التي تسلم الى تحطيمها

المطاط من غاز

ومطاط من نفط

نواحٍ من عجائب الكيمياء الصناعية

— ١ —

ليس لدولة ما غنىً عن المطاط لا في اثناء الحرب ولا في إبان السلام . فمنافعهُ كثيرة ووجوه استعمالهِ شتىً وان كان اظهرها واوسعها نطاقاً استعمالهُ إطاراً لعجلات مركبات النقل الحديث . واذا كانت الحرب قد وجّهت النظر اليهِ ، لأن مركبات الحرب الميكانيكية الحديثة لا تستطيع حراكاً بدونهِ ، ولأنهُ من هذا القبيل صنو النفط المكرَّر او غير المكرَّر ، فان العلماء معنيون بدراستهِ من سنوات لعلهم يوفقون الى صنعهِ بالتركيب الكيميائي ، مدفوعين الى ذلك بعوامل اقتصادية جنباً الى جنب مع العوامل الحربية

فثمة اولاً وجوه كثيرة يصلح لها المطّاط الصناعي اكثر مما يصلحُ لها المطّاط الطبيعي . ثم ان التقلّب في اسعار المطّاط الطبيعي تقلباً كبيراً حمل رجال الصناعة والاقتصاد على توفير موارد المطاط لا تتعرَّض لهذا التقلّب الكبير فتنظم الصناعات التي تحتاج اليهِ على اساس مستقرّ لا يصيبهُ التغير والتقلّب إلاَّ في حدودٍ معقولةٍ. ففي سنة ١٩٢٥ وحواليها كان رطل المطّاط يباع في نيويورك بريال ونحو ربع ريال . فهبط في سنة ١٩٣٨ الى ثلاثة سنتات أي ستة مليمات وهو الآن يباع بنحو ٢٠ سنتاً اي اربعة قروش . وسبب هذا التقلّب في رأي كاتب اميركي في مجلة هاربرز الاميركية ان انتاجهُ كان شبه احتكار وان المحتكرين كانوا في شغل بالربح الوفير عن تنظيم الانتاج وفقاً لمقتضيات السوق العالمية

بدأ الاقبال في انتاج المطاط وجني الربح منهُ في الشرق الأقصى سنة ١٩١٠ وكانت رؤوس الأموال البريطانية والهولندية من ورائهِ . وقبل ذلك كان معظم المطاط يستخرج من أشجاره البرية في وادي الأمازون بولاية پارا البرازيلية . فلما اتسع نطاق صناعة السيارات وازداد الطلب على المطاط حاول المسيطرون على الانتاج البرازيلي التحكم في الاسعار . فارتفع سعر

الرطل الى ثلاثة ريالات فأفضى ذلك الى الاقبال على زرع اشجاره في الهند الشرقية الهولندية ومالايا وسيلان ، ولم يكتف زرّاعهُ في الشرق الأقصى باغتصاب الأسواق العالمية من منتجيه في البرازيل ، بل فعلوا ذلك بشجرة المطاط البرازيلية نفسها . ذلك ان بذور الشجرة البرازيلية Hevea braziliensis أخذت قبل ذلك الى لندن وزرعت في سيلان ثم جربت في مالايا وسومطرة والبلدان الاستوائية المجاورة لها فنمت نموًّا غزيراً . ووصلت الشحنة الأولى من نتاج هذه الأشجار الى لندن في سنة ١٩٠٥ فلما ارتفعت أسعاره في الأسواق العالمية بتأثير التحكم البرازيلي ، اتسع نطاق زراعته في جنوب آسيا الشرقية

وكانت العوامل الاقليمية والاجتماعية في جنوب آسيا الشرقية موانية لزراعة أشجار المطاط فيها ، فالمطر غزير واليد العاملة رخيصة والشجر هناك لا يتعرض لآفة تصيبهُ في البرازيل ، ثم ابتكر زراعهُ طريقة للتطعيم بالبراعم ، زادت مقدار نتاج الشجر ، فاستولى زرّاع شجر المطاط في تلك البلدان على أسواق المطاط العالمية وجنوا ربحاً وفيراً اذ كان معدل سعر الرطل حتى أواخر سنة ١٩١٩ نحو عشرة قروش ، ووافق ذلك توسع عظيم في صناعة السيارات ومعدّل ما تحتاج اليه السيارة في السنة خمسة اطارات منه لعجلاتها ، وصحب ذلك إشتداد الحاجة اليه في أثناء الحرب العالمية الأولى . ولما كانت المانيا عاجزة عن الاستيراد بفعل الحصر البحري فانها بدأت تجاربها الاولى لصنع المطاط بالتركيب الكيميائي

***

هذا الاقبال العظيم على المطاط حدا باصحاب مزارعه في جنوب آسيا الشرقية الى توسيع نطاقها لتلبية الطلب فلما عقبت الحرب العالمية الأولى ضائقة اقتصادية عامة اصابتهم في الصميم ولا سيَّما ان أشجار المطاط لا تنتج مطاطاً إلاَّ بعد انقضاء سنوات على غرسها . فالاشجار التي غرسها أصحاب مزارعه في بدءِ الحرب ، بدأت تؤتي نتاجها بعيد انتهاءِ الحرب فكثر المعروض عند ماقلّ الطلب . وزاد الطين بلّة أن المصانع الأميركية التي تصنع اطارات المطاط لعجلات السيارات وهي تستهلك سبعين في المائة من كل ما تستورده أميركا من المطاط غيرت أسلوبها في صنع الاطارات فأصبحت الاطارات الجديدة أطول عمراً من الاطارات القديمة فقلّ طلب هذه المصانع قلة تذكر

فتلا ذلك تقييد المساحات المزروعة على نحو ما فعلت مصر بمساحة الأرض التي تزرع قطناً وعلى ما فعلت أميركا في بدء عهد الرئيس روزفلت ، وعلى ما فعلت البرازيل في الارض التي تزرع بنّاً . والغرض نقص الانتاج ورفع الاسعار . وفي سنة ١٩٢٢ صدر قانون يعرف بقانون ستيفنصن فرضت بمقتضاه ضريبة على كل صادر من المطاط اذا زاد عن مقدار معين فقل المحصول

واستنفد المخزون فما أقبلت سنة ١٩٢٥ حتى قلَّ المعروض عن المطلوب فذعر أصحاب المصانع وارتفعت الاسعار حتى بلغت خمسة وعشرين قرشاً للرطل الواحد . وأُهمل هذا القانون بعد ست سنوات فعقبت اهمالهُ فترة من الاضطراب والفوضى في انتاج المطاط وسوقه ، ووافق ذلك تفاقم الأزمة العالمية الاقتصادية فهبط سعرهُ حتى بلغ ستة مليمات للرطل الواحد . وهبوط السعر هبوطاً فجائيًّا او سريعاً كارتفاعهِ ارتفاعاً فجائيًّا او سريعاً مضرٌّ بمصلحة اصحاب المصانع التي تعتمد عليهِ ولاغنى لها عنهُ . فقد يخزنون مقداراً منهُ فاذا هبط السعر كانت خسارة فادحة، وقد لا يخزنون مقداراً كافياً منهُ معتمدين على اطراد العرض فاذا ارتفع السعر كانت خسارة فادحة كذلك

— ٢ —

من نحو خمس عشرة سنة ، التقى القس الدكتور جوليوس نيولاند ، بأحد رجال شركة ديبونت الاميركية في اجتماعٍ علمي . فقال القس انهُ ابتكر طريقةً تمكنهُ من استخراج مادة دعاها دايفنيل اسيتلين divinyl acetylan من غاز الاسيتلين (١) . فاهتم صاحبهُ بالأمر لأن لهذا القول صلة بما كانت تبذله الشركة من جهد لصنع المطاط بالتركيب الكيميائي . وكانت الشركة قد اهتمت بالموضوع عند ما ارتفعت الاسعار ارتفاعاً كبير على أثر سن قانون ستيفنصن . ولم تكن وحدها في ذلك . فالبلدان التي تنتج المطاط حاولت جهدها ان تزيد المزروع من اشجارهِ فيها . وبدأ فورد نفسه في زراعة اشجاره في مناطق شاسعة في البرازيل على الرغم من الآفة التي تصيب اوراقها هناك وارتفاع اجر اليد العاملة . ووجهت مصانع الولايات المتحدة عناية خاصة الى استرداد المطاط المستعمل المنبوذ

واهتمَّ علماء النبات بدراسة النباتات التي لها عصير لبنيٌّ لعلَّهم يكشفون نباتاً ينافس شجرة الهڤيا Hevea وأكبَّ الكيميائيون على دراسة مذكرات العلماء الذين بذلوا سنين من حياتهم يبحثون عن مادة مطاطة تنافس المطاط الطبيعي ، ولم يكن هؤلاء العلماء نوادر

فقبل ثمانين سنة استخلص عالم يدعى جرفيل وليمز السائل الأساسي من المطاط ودعاه ازوبرين Isoprene (٢) وتبعه بوشارديه في فرنسا فحول السائل ثانية الى مطاط . وفي سنة ١٨٨٢ أقبل رجل يدعى تلدن وحطم زيت التربنتينا واستخرج منه مادة ظنها الايزوبرين وحوَّلها الى مادة مطاطة . وفي سنة ١٩١٠ صنع رجل يدعى كيرياكيديس — وكان يشتغل

---

(١) راجع التفصيل العلمي لاسلوبه في مقال « مطاط من غاز » مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٥ ص ٥٤٩

(٢) تعرف هذه المادة باسمها الكيميائي beta-methyl-butadiene

بشركة مطاط في احدى مدن اميركا — مطاطاً بالتركيب الكيميائي وحوالي الوقت نفسه وضع هوفمن في المانيا الأساس لصنع المطاط الصناعي المعروف باسم بونا . وغير هؤلاء كثير . وكان جميع الباحثين يعلمون انهم يستطيعون ان يصنعوا مطاطاً من مواد تستخرج من قوالح الذرة او نشارة الخشب وقد جرب الألمان استخراجها منَ البطاطس والايطاليون من الطماطم . ولكن المسألة الأساسية في الموضوع ، كانت اختيار النباتات الرخيصة الوافرة ثم استنباط اسلوب صناعي يحولها بنفقة معقولة الى مادة تشبه المطاط وتحل محله

وكان الدكتور نيولاند منصرفاً الى تجربة التجارب بغاز الأسيتلين منذ صغره . فلما اطلع ممثل شركة ديبونت على ما كشفه من اسلوب لاستخراج تلك المادة (دايفنيل اسيتلين) من غاز الاسيتلين ، اهتم الرجل بالامر لأن علماء شركته كانوا قد قضوا سنوات وهم يبحثون عن طريقة لصنع المطاط من ذلك الغاز . فجرب ديبونت مادة الكلوروبرين (وهي قريبة من الناحية الكيميائية من الايزوبرين) وحولها الى مطاط صناعي ودعاه «النيوبرين» والمواد الأساسية التي تدخل في صنع هذا المطاط تستخرج من الفحم والحجر الجيري والملح . وفي سنة ١٩٣٢ عرضت في السوق للبيع ومنذ تلك السنة وشركة ديبونت تضاعف انتاجها منهُ سنة بعد اخرى . وكانت تنتج ٥٥٠ الف رطل كلَّ شهر في اواسط سنة ١٩٤٠ ، وسيصبح في قدرتها انتاج ستة آلاف طن في السنة عند ما يتمُّ صنع مصنعها الجديد

وانشاء هذه المصانع لم يكن ميسراً . لأن الاسلوب الكيميائي والاسلوب الصناعي كانا جديدين، فالتقدم في الاتقان مطرد وفقاً للبحث . ولا بدَّ من اجراء تعديل في الادوات المستعملة في المصانع وفقاً لوجوه التحسين التي يسفر عنها البحث والتجريب . ولذلك رأى رجال شركة ديبونت ان المصانع الجديدة تفقد معظم مزاياها بعد انقضاء سنة على بنائها . وهذا كله يقتضي نفقة كبيرة . ومع ذلك استطاعوا ان يخفضوا سعر الرطل من « النيوبرين » من ٢١ قرشاً الى ١٣ قرشاً . وفي اميركا الآن ماثتان وخمسون مصنعاً تستعمل النيوبرين بدلاً من المطاط الطبيعي في صنع ادوات يصلح لها النيوبرين اكثر مما يصلح لها المطاط الطبيعي ولذلك يقبلون تحمُّل الفرق بين سعر النيوبرين (٦٥ سنتاً للرطل) وسعر المطاط الطبيعي (١٨ سنتاً للرطل)

***

من المزايا التي يتصف بها النيوبرين شدة مقاومته لفعل الزيت وغيره من المواد الكيميائية التي تحل المطاط الطبيعي وكذلك مقاومته لفعل ضوء الشمس والحرارة ولذلك فهو أصلح من المطاط الطبيعي لصنع أنابيب البنزين في محطات تموين السيارات والسيور العريضة التي تستعمل

في مصانع الانتاج الواسع النطاق وبعض اجزاء السيارات حيث تقتضي الصناعة مساند من المطاط لبعض أجزاء السيارة وكذلك قفافيز المطاط اللازمة في المطبخ وغيره ، وتستعمل في صنع الاطارات الصلبة لعجلات السيارات ولكن استعماله في الاطارات التي تنفخ بالهواء لا يزال في دور التجربة

— ٣ —

وعلى الرغم من نجاح النيوبرين فان اقطاب شركة جودرتش المشهورة بصناعة اطارات عجلات السيارات يعتقدون ان الحل الصحيح لمشكلة المطاط الصناعي يجب ان يكون باستخراج البوتاين (الايزوبرين) رأساً من النفط . ذلك بأن النفط عندما يحطم جزيئه لاستخراج مشتقاته المختلفة منه ، يخرج منه غاز يدعى غاز البوتاين Butane مع النفاية . واذا استنبط الاسلوب الصناعي الموافق لاستخراج البوتاين من النفط ، فان استخراجه لا يجب أن يتعارض مع استخراج البنزين اللازم للسيارات

وفعلاً صنعت شركة جودرتش مطاطاً صناعيًّا من البوتاين سمته اميربول Ameripol وصنع رجالها منه اطارات وهم على ثقة بأنهُ اذا انيح لهم الوقت الكافي لاتقان وسائل صنعهِ صنعاً واسع النطاق فانهم يستطيعون ان ينافسوا بهِ المطاط الطبيعي

هذا المطاط المستخرج من النفط وليد بحث قام بهِ رجل يدعى الدكتور ولدو سيمون Waldo Semon . كان قد توفر على الكيمياء الصناعية واشتهر فيها فلما أذيع نبأ فوز القس نيولاند بصنع المطاط من غاز الاسيتلين استقال سيمون من منصب مدرس في جامعة وشنطن وذهب الى أكرون بولاية أوهاويو حيث مصانع جودرتش المشهورة تلبية لدعوتهم . فاخترع اولاً مادة تدعى كوروسيل وهي من العجائن الكيميائية التي لا تتأثر بالنفط ولا بالحمض ولا بالضوء . وتستعمل كالمطاط في عشرات من الاغراض الصناعية كصنع المعاطف الواقية من المطر وما أشبه. ولكن الكوروسيل ، مع تفوقهِ على المطاط الطبيعي في كثير من مزاياه ، لا يصلح للتقسية اي لصنع اطارات عجلات السيارات . فأكبَّ سيمون ومعاونوه على البحث حتى استخرجوا « الاميربول » وقد اختاروه من نحو خمسة آلاف مطاط صناعي جرَّبوا التجارب بها وصنعوا منهُ اطارات لعجلات السيارات وامتحنوها في المعمل وعلى الطريق . وشركة جودرتش تصنع الآن بضع مئات من اطارات عجلات السيارات كل اسبوع ، تدخل فيها الاميربول بنسب مختلفة تتفاوت من خمسين في المائة الى مائة في المائة

العربية ومصائبها

للاب أنستاس ماري الكرملي

١ً تمهيد

كتب حضرة الاستاذ الشهير ، والعلامة الكبير ، الامير مصطفى الشهابي ، مقالة بديعة في هذه المجلة (المقتطف ٩٧ : ٢٥٢ وما يليها) عنوانها : « المعاجم العربية ، وحاجتنا الى معجمين » ووافقني فيها على ان في دواويننا اللغوية عيوباً لا تنكر ، ولا بد من اصلاحها ، اذا اردنا مجاراة الأمم الراقية في هذا العصر ، عصر النور ، والتحقيق ، وتدقيق النظر في كل ما ينتجهُ ابناؤه » وختم كلامه باننا في حاجة الى معجمين : صغير وكبير . فيشتمل الصغير على الضروري من الألفاظ القديمة وعلى ما يجري على ألسنة الأدباء ، وأقلام الكتاب ، من أوضاع العلوم والمخترعات والمصطلحات الحديثة ، وتعرَّف تعريفاً علميًّا ، صادقاً ، صحيحاً ، جامعاً مانعاً ، على حدّ ما يرى في معجم لاروس الصغير

قلتُ : ومجمع فؤاد الأول للغة العربية ، جادّ في تحقيق هذه الأمنية

والمعجم الثاني ، يكون افرنجيًّا عربيًّا ، أو عربيًّا افرنجيًّا ، يشتمل على أصح الألفاظ العربية الناظرة الى الكلم الافرنجية أو بالعكس . وهذا ايضاً يسعى المجمع المذكور في وضعه ، لكن الشغل في وضع هذه الدواوين بطيء لا يُشعر بهِ أو لا يكاد يشعر بحركتهِ ، ولا سيما في هذه الأيام النحسة التي نشبت فيها هذه الحرب الساحقة الماحقة ، فانها أضرَّت ضرراً لا يُقدر نتاجُهُ واتأدت حركتهُ . فاذا زالت هذه المحنة العظمى ، اندفع المجمع الجليل الى تحقيق الاماني ، بمنهِ وكرمهِ

٢ً نقص معاجمنا

ومما يجب ان ننبّه اليهِ الاذهان ، وضع معجم يستدرك فيهِ ما لم تدوّنهُ دواويننا ، حتى الكبار منها كالتهذيب ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، والاوقيانوس ، مع انك ترى تلك الكلم

مصفّدَةً ومقيدة في أسفار عديدة قديمة لحجج أثبات ثقات ، وكلها اوضاع ، ومصطلحات ، وألفاظ ، نحن إليها في حاجة ماسة ملحة

ومن الأسف كل الأسف اننا نرى كثيرين ينكرون على حُذّاق الكتّاب ورود اللفظة الفلانية او الكلمة الفلانية لخلوّ المعاجم من ذكرها ، كأن هؤلاء يدّعون بان الالفاظ المضرية كلها وُضعت بين دفتي تلك الاسفار ، من غير أن يشذ منها واحد ، أو يفرّ منها حرف. وهذا وهم شنيع لأننا نعلم ان أرباب تِلْكُمُ الدواوين صرّحوا تصريحاً لا شبهة فيه ، ان ما دوّنوهُ ليس كل ما ورد من كلام الأئمة الأقدمين . فقد جاء في المزهر ما هذا نقلهُ بحروفهِ :

« قال بعض الفقهاء : كلام العرب لا يحيط بهِ إلاَّ نبيّ . قال ابن فارس : « وهذا كلام حريّ ان يكون صحيحاً، وما بلغنا عن أحدٍ ممن مضى انهُ إدّعى حفظ اللغة كلها . فأما الكتاب المنسوب الى الخليل ، وما في خاتمتهِ من قوله : « هذا آخر كلام العرب » فقد كان الخليل أورع وأتقى لله تعالى من ان يقول ذلك » — قال السيوطي : وهذا الذي نقلهُ عن بعض الفقهاء ، نصّ عليهِ الامام الشافعي، رضي الله عنهُ ، فقال في أول الرسالة : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلم انهُ يحيط بجميع علمهِ انسان غير نبيّ . ولكنهُ لا يذهب منهُ شيء على عامتها ، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفهُ» . وقال ابن فارس في موضع آخر: إعلم ان لغة العرب لم تنتهِ الينا بكليتها ، وان الذي جاء عن العرب قليل من كثير ، وان كثيراً من الكلام ، ذهب بذهاب أهلهِ والله أعلم » آه (راجع تاج العروس ١ : ص ٧)

٣ً . إفساد كُتّاب العصر لمعاني بعض الألفاظ

ان المعاصرين من أدبائنا ، أفسدوا معاني بعض الكلم ، ويجري وراءهم جماعات من الكتّاب والمؤلفين والصحفيين والشعراء ، ونحن نذكر بعض الشواهد

أ . الزيت

الزيت عند العرب ، لا يقال إلاَّ لما يعصر من الزيتون ليس إلاَّ . وأما اليوم فان فريقاً من الكتبة يستعملهُ لغير ما يعصر من النبات المذكور ، إذ أطلقوه على النفط او البترول ، فقالوا زيت البترول ، وزيت النفط ، وزيت الحجر ، وزيت النباتات ، وزيت الخروع ، وزيت السمك الى نظائرها مما لا حصر لهُ : ونصّ الشارح واضح إذ يقول : « الزيت دهن معروف ، وهو عصارة الزيتون . قال ابن سيده [1] : « وفي الأساس : هو مخ الزيتون : والزيتون شجره [2]

(١) وفي الاصل المطبوع :سيدة بهاء منقوطة بانقتين وهو خطأ (٢) وفي الاصل المطبوع : شجرته وهو خطأ

واحدته زيتونة . وقيل : الزيتون ثمره[1] . وأطلق على الشجر[2] مجازاً » . اه

ولم نجد أحداً من الفصحاء الأقدمين سمّى زيتاً غير دهن الزيتون . اللهمّ الاّ دهن بزر الكتان ، فانهم سموه «زيتاً حارّاً» لكنهم لم يتجاوزوه

فمن استعمله لغير الزيتون صاحب محيط المحيط فقد قال في مادة (زيت) : « الزَّيْت : دهن الزيتون ، وهو المراد عند الاطلاق ، فان أريد غيره ، قيّد بالاضافة ، كزيت الخروع وزيت السمك ، أو بالوصف كالزيت الحار أي زيت[3] الكتان ج زُيوت » اه

وقد نقل هذه العبارة على طولها صاحب أقرب الموارد والبستان وغيرها ولم ينسبوها الى صاحبها فقد غلط جميعهم وعنهم نقلها سائر الكتّاب والمؤلفين وأصحاب المقالات الصحفية

فاستعمال الزيت للدهن من لغة عوام الشام والاّ فانّ أهل العراق يقولون : دهن الخروع ودهن السمك متابعة للاقدمين من هذه اللغة الشريفة . قال في بحر الجواهر : «دهن الخروع: حار يابس» . ولم يقل زيت الخروع . وأما دهن السمك فواضح انه لا يقال فيه زيت السمك اذ لا زيت في السمك . والدهن يكون في جميع الحيوانات[4]

على أنه ورد في بحر الجواهر هذه العبارة في مادة زيت وهي : « الزيت ، بالفتح ، هو دهن الزيتون . قال جالينوس : كل ما كان من الأدهان يعصر من غير الزيتون ، فانه يسمى زَيْتاً[5] بطريق الاستعارة» .اه — وجوابنا عن هذا : ان جالينوس ليس بحجة في كلام العرب ولا جرم ان ناقل العبارة هو أحد المترجمين والاّ فما أطلقهُ على الزيت من باب التوسع الذي لم يعرفه الفصحاء الاّ من باب التساهل والتسامح العظيمين

وممن سمى دهن الحجر زيتاً — وهي تسمية مخطوء فيها — نقلة التوراة الى العربية . فقد جاء في تثنية الاشتراع (١٣ : ٣٢ من طبعة جمعية التوراة البريطانية والاجنبية) : « أركبهُ على مرتفعات الارض ، فأكل ثمار الصحراء وأرضعهُ عسلاً من حجر ، وزيتاً من صوّان الصخر » — وفي الترجمة الموصلية الدومنكية (١٣ : ٣٢) : « اركبهُ على قائم الارض ، فأكل أثمار الصحراء وأرضعهُ عسلاً من حجر وزيتاً من صوّان الصخر » — وفي الترجمة اليسوعية البيروتية (١٣:

(١) وفي الاصل ثمرته وهو غير فصيح (٢) وفي الاصل « على الشجرة » وهو غير صحيح

(٣) كذا في الاصل المطبوع . والصواب : زيت بزر الكتان . وان كان قد يجوز تعبيره ذلك من باب التوسع والتساهل ، لكن الصحيح هو هذا (٤) أنكر جماعة جمع الحيوان على حيوانات وهو وارد في كلام افصح الكتاب أي الجاحظ . فقد جاء في كتاب الحيوان ٣ : ٢٦٥ من طبعة البابي : « النشرة والنسيم الذي يحيي جميع الحيوانات.٧ : ١١٠ : ١١ والمزاوج من اصناف الحيوانات انما غايتها طلب الذرء

(٥) وفي الاصل المطبوع « زيت » وهو على سبيل الحكاية والتجريد عن الاعراب

٣٢ « اركبهُ على هضاب الارض ، فأ كل من ثمار الصحراء وارضعهُ عسلاً من الصخر، وزيتاً من صوان الجُلمود »

فهذه النسخ الثلاث ذكرت (زَيْت الصوّان) وليس للصوان زيت . فلا جرم ان هذه الترجمة سيئة . وتزيد على ماتقدّم ان ابن البيطار لما ترجم لفظة البترول قال في « بطرولاون » : معناه باليونانية دهن الحجر وهوالنفط » ، لكن الطبعة المصرية كثيرة الاوهام فطبعت بطولاون في مكان بطرولاون

فالدهن يصح على كل ما يخرج من الجماد ، والنبات ، والحيوان ، .فقد رأيت تعريب البترول وانهُ دهن الحجر ولم يقل زيت الحجر . — وقالوا في النبات دهناً ايضاً . قال القاموس في تعريف الخطّار : «والخطّار ككتّان : دهن يتخذ من الزيت بأفاويه الطيب» .وقالوا : دهن القطن ودهن الورد ودهن اللوز ودهن الخروع (بحر الجواهر) ، ولم يقل احد في هذه الأدهان زيت القطن ولا زيت الورد ولا زيت اللوز ولا زيت الخروع

واما الدهن في الحيوان فأشهر من ان يذكر ، فقد قال اللغويون : تخرّط الطائر: أخذ الدهن من مدهنه بزمكاه (القاموس) وهناك شواهد تملأ مائة صفحة من صفحات هذه المجلة

بُ الملوكي أفصح من الملكي

والكتّاب المعاصرون يفسدون اللغة العدنانية على وجهٍ آخر ، فانهم يحاولون ان يغلبوا القياس على السماع .فلقد اشتهر عند الأقدمين نسبة (الملوكي) الى الملك ، (لا المَلَكي) بتحريك الميم واللام . والسبب ان هذه النسبة الاخيرة تلتبس بالمنسوب الى المَلَك ، لهذا الروح السماوي ، أو الى المَلَكة بمعنى الطبيعة ، ولهذا فضلوا ان يقولوا (الملوكي) وقد اشتهر بهذه النسبة (التصريف الملوكي) لكتاب وضعهُ ابن جني في التصريف — وقال الجاحظ (في كتاب الحيوان طبعة البابي ١ : ٢٨٣) : « ان سَهَرَه بالليل ، ونومه بالنهار خصلة ملوكية » — ولم يقل ملكية . — وقال الهَمْدَاني في صفة جزيرة العرب (ص ٢٠٢) : «وبها آلة الحرير النفيسة الملوكية » — وقال ابن خلدون في مقدمته ، في كلامه على الوزارة ص٢٣٦ من طبعة بيروت المشكولة) : «وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية »

وأما القلقشندي فلم يستعمل في صبحه الا (الملوكي) فقد جاء في ٢ : ١٢٥ الآلات الملوكية وأعاد هذه النسبة عشراتٍ وعشراتٍ . ونحن لا نريد أن نستشهد بأقوال من استعملها في كلامه فهم لا يحصون . ولم تستعمل (الملكي) الا في هذا العصر ، فلا جرم ان السماع أعلى من القياس . — قال الأزهري في (التهذيب) في مادة (ع ب د) : « قال الليث : اعبدني فلان

فلاناً ، أي ملكني اياه . والمعروف عند أهل اللغة : « اعبدتُ فلاناً ، أي استعبدته . قلت : ولست أنكر جواز ما قاله الليث ، ان صح لثقةٍ من الأئمة ، فان السماع في اللغات أولى بنا من خبط العشواء ، والقول بالحدس واتباع قياسات لا تُطَّرد » اهـ

وجاء في التاج في مادة (ح ل ل) : «حل من احرامه يحل حلاً وحلالاً ، وأحلّ : خرج منه ، فهو حلال لا حال وهو القياس ، لكنه غير واردٍ في كلامهم بعد الاستقراء فلا ينافي أن القياس يقتضيه ، لأنه ليس كل ما يقتضيه القياس يجوز النطق به واستعماله ، كما علم في أصول النحو . وهناك طائفة يجوّزون القياس مطلقاً وان سمع غيره والمعروف خلافه » اهـ

واعتماداً على ان السماع خير من القياس ، اعترضتُ على وصف مجمع فؤاد الأول « بمجمع اللغة العربية الملكي » في أول تسميته . فقيل لي : ان الأمر الملكي (كذا) صدر بهذه الصفة ، فلم يمكن تغييره (كذا) . أما اليوم فصار يسمى (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) فاعتدلت الأمور

ج . لا تجمع غيور على غيورين بل على غُيُر وتجمع زبون على زُبُن

ومما أفسده كتّاب العصر جمع غيور على غيورين وهذا لا يجوز ، لأن لا مؤنث له بالهاء ، وماكان كذلك لا يجمع جمعاً سالماً في المذكر ولا في المؤنث بل يقال (غُيُر) في كلا الجنسين

قال في اللسان في مادة (ك ف ر) : « رجل كَفّار وكَفُور : كافر . والانثى كفور أيضاً وجمعها كُفُر [بضمتين] ولا يجمع جمع السلامة ، لأن الهاء لا تدخل في مؤنثه ، الا أنهم قالوا : عَدُوَّة الله وهو مذكور في موضعه» . انتهى

ومن غريب تصرفهم في الجموع وافسادهم لكلام العرب الصميم جمعهم (زبون) على (زبائن) والزبون في كلام المولّدين المعامل . قال في شرح مقامات الحريري (ص ٦٦ من طبعة دساسي ١٨٤٩) « الزبون هو الغبي الذي يُزبن ويغبن ، وهو من باب ضبوث وحلوب ، في أن الفعل مسند الى النسب مجازاً كما في قوله : اذا ردّ عافي القدر من يستعيرها . ومن أمثال المولدين : الزبون يفرح بأدنى شيء ، يعني المعامل يفرح بأقل شيء . وفي لغة أهل البصرة : الزبون هو المشتري كما في المثل » انتهى المراد من ايراده . فعلى هذا يكون جمع الزبون : زُبُناً . أما الزبائن فجمع زبون للناقة الدفوع ، كما جمعوا حلوباً على حلائب . فانظر كيف يفعل جهل القواعد العربية في خلط الالفاظ ومعانيها إذ جاهل القاعدة يجعل الرجل المعامل ناقة دفوعاً فيحوّل أخاه ويصيره حيواناً أنثى . فياله من جهل !

ومثل هذا التصرف السيء لا يحد ولا يعد . فمن واجب المعاجم أن تنبه على الغلط وعلى اصلاحه

د . النضوج لم يأت بمعنى النضج

ومما وضعوه من عندهم قولهم (النضوج) وهم يريدون النضج مصدر نضج الثمر بمعنى أدرك

وطاب أكله ، فظنوا أنهُ فعل لازم وأغلب ما كان كذلك يأتي مصدره على فعول ، مثل قعد قعوداً وجلس جلوساً وصعد صعوداً الى نظائرها ، لكن جهلوا أن المصادر سماعية في أغلب الأحيان فيجب أن يتحاشى استعمال هذا المصدر الوارد على فعول

ونحن لا نريد أن نطيل النفس في هذا الموضوع لاتساعه وامتداده في متنوع المناحي فنجتزىء بهذا القدر ، في منزلة مثال لاغير

٤ً . إفساد معاجم العصر لمصطلحات الأقدمين

أدخل الناطقون بالضاد في معاجمهم ، جميع أسماء المذاهب التي دخلت في مجتمعهم. وكذلك فعل أهل الغرب، فانك تجد في دواوين مدارسهم ذكر المسيحي والمسلم واليهودي والكاثوليكي والبروتستاني الى نظائرهم . وكذلك فعل لغويو العرب ، فقد ذكروا السني والشيعي والرافضي والأباضي الى غيرهم ، ولما جاء النصارى ووضعوا معاجمهم العربية لم يدققوا النظر في تصحيح تلك الفرق الدينية الاسلامية وأسماء أصحابها . ونحن نذكر مثلاً واحداً بين أمثال لا تحصى كثرة

قال صاحب محيط المحيط في مادة (ز ي د) : «الزيْـديّـة : فرقة من الشيعة وهم المنسوبون الى زيد بن علي بن زين العابدين . وهم ثلاث طوائف : الجارورية (كذا براءين) والسليمانية والبتيرية ، اصحاب بتير الشوميّ [١] » اهـ . — فنقل هذه العبارة صاحب أقرب الموارد ولم يعزها الى المنقول عنهُ فقال : « الزيدية : فرقة من الشيعة وهم المنسوبون الى زيد بن عليّ بن زين العابدين وهم ثلاث طوائف : الجارورية والسليمانية والبتيرية أصحاب بتير الشومي [١] » اهـ ثم نقلها صاحب البستان ، فكتب في معجمه : « الزيدية فرقة من الشيعة وهم المنسوبون الى زيد ابن علي بن زيد (كذا بدال في الآخر) العابدين . وهم ثلاث طوائف : الجارورية والسليمانية والبتيرية اصحاب بتير الشومي [١] » اهـ

وصواب العبارة : « الزيدية فرقة من الشيعة ، وهم المنسوبون الى زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب ، وهم ثلاث طوائف الجارودية ، والسليمانية ، والبُـترِيّـة (بضم الباء واسكان التاء المثناة فراء مكسورة فياء فهاء) أصحاب الأبتر النوّاء (راجع الملل والنحل للشهرستاني والفصل في الملل والاهواء والنحل ، لابن حزم الأندلسي ، ومقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن علي الأشعري ، ورجال الكشي ، ومنتهى المقال ، وفرق الشيعة ، والتهانوي ودائرة المعارف للبستاني نفسه في مادة زيدية)

فأنت ترى ان واحدهم إذا كبا ، كبا كل من تأثره وتعقبهُ من دون تفكّر وتدبّر وتروّ

(١) ليس في خلق الله من يعرف باسم (بتير الشومي) ، فلا جرم انه تصحيف (الابتر النواء) على ما هو مدون في أسفار القوم

ولهذا وجب التدقيق في كل ما يكتب . والأحسن إهمال اسماء الفرق والشيع والطوائف إذا بادت ولم يبق لها اثر ، ولا تدوّن إلاّ في المعاجم الكبرى ، كما يفعل أهل الغرب ، أما اذا كانت باقية الى عهدنا هذا فتقيد في الصغرى والكبرى معاً كما هي العادة الجارية في جميع المعاجم وفي جميع البلاد وفي جميع اللغات ، على ما هو متعارف عندهم

٥ً أصول الأعجميات وردها اليها رداً صادقاً

مما يجب ان ينتبه له، تصحيح كلام الأقدمين لِمَا ذهبوا اليهِ من أصول بعض الكلم الدخيلة، فقد اختلفوا فيها اختلافاً عجيباً ، ولا بُدَّ من أن تردَّ الى الأصل الحقيقي ، ولا يبقى هناك اضطراب . ونحن نذكر هنا بعض الشواهد للتمثيل . فمن ذلك :

أ . القَوْمَس

قال في التاج : « القومس كجوهر ، الأمير بالنبطية . نقلهُ الصاغاني عن ابن عباد... وقيل: هو الأمير بالرومية » اهـ . — قلنا : لنا على هذا الكلام ملاحظتان : الأولى : لو كانت هذه الكلمة من النبطية لَحُرِّكت بالألف على ما هو متعارف عندهم . — والثانية ان الكلمة « رومية » والرومية وردت عند السلف بمعنيين ، بمعنى اللاتينية وبمعنى اليونانية ، ففي اي لغة وردت كلمتنا (القومس) ؟ هل في اللاتينية ام في اليونانية ؟ ، فكان يجب ان يقال هنا باللاتينية درءاً لِلَّبْس . فهي في هذه اللغة Comes ، واصل معناها عندهم (الرفيق) لأنهُ كان يرافق الملك ، ثم خُصَّ بالامير

ب المُرّيّ

قال في التاج : والمرّيّ ، كدرّيّ : ادام كالكامخ يؤتدم بهِ ، كأنهُ منسوب الى المرارة. والعامة تخففهُ . وأنشد ابو الغوث

وام مثواي لباخية وعندها المرّيّ والكامخ

وقد جاء ذكره في حديث أبي الدرداء . وذكره الازهري في الناقص» انتهى

قلنا : يرى في تأويل السيد مرتضى تعسف ظاهر . لأن المري ليس فيهِ مرارة حتى ينسب اليها . وتخفيف العامة هو الصحيح ، لأن الكلمة يونانية النجار وهي Almuris ، حذفوا الحرف S من آخرها ، لأنهُ من علامات الاعراب عندهم . واعتبروا AL أداة تعريف ، كما فعلوا في (الماس) ، فقالوا : (ماس) ، وفي ألوة : (لوة) ، وفي الكسندر (اسكندر) ، وفي (البشع) : (يشع) الى غيرها وهي كثيرة ، تحار لها العقول

ج . القُرْزُوم

جاء في التاج : « القرزوم ، كعصفور : لوح الإسكاف المدوَّر وتشبه بهِ كركرة البعير مثل القرزوم ، لغتان عن ابن السكيت. والجمع قرازيم عن ابن الاعرابي. وقال ابن دريد، وهو بالفاء أعلى كذا في الصحاح ... ومما يستدرك عليهِ : القرزوم : الازميل. نقله ابن بري عن ابن القطاع. وايضاً المِرْط والمِئزر بلغة عبد القيس. قال ابن دريد : واحسبهُ معرَّباً » انتهى

قلنا : الرواية الصحيحة لهذه الكلمة هي (الفرزوم) بالفاء. والكلمة يونانية أي Perizóma وهي كذلك في اللاتينية . وأما روايتها بالقاف فهي من تصحيف النساخ ، أو على لغة من لغات بعض القبائل اذ يصيرون الفاء قافاً . فقد قالوا : الزحاليف في الزحاليق ، والفصم في القصم ، ونفز الظبي في نقز ، والنفْض في النِقْض ، بالكسر فيهما ، والحِسْفِل في الحِسْقِل ، وهنالك الفاظ لا تحصى على هذه الأمثلة

د . الأسطرلاب

وجاء في القاموس في مادة (ل و ب) : « واللاَّب ... رجل سطر أسطراً وبنى عليها حساباً ، فقيل أسْطرلابٍ ، ثم مُزجا ونزعت الاضافة . فقيل : الأسْطُرلابُ معرفة والاصطرلاب لتقدم السين على الطاء » انتهى . والمعروف عند صبيان المدارس العصرية ان الاسطرلاب كلمة يونانية Astrolabos ومعناها : أخذ النجوم بمعنى مراقبتها بآلة . فأين هذه الحقيقة من تلك الخرافة . واذا أردنا استقصاء ما جاء من هذا القبيل ، فنضطر الى وضع مجلدات ، لأن الأقدمين منا ما كان يهمهم هذا الأمر وهم معذورون ، لانهم جاروا لغويي الغربيين في هذا الميدان ، فان تصرفهم في العربيات وتأويلها في نهاية الغرابة ، بل انه مما يبعث على الاستغراب . وهناك الفاظ لا تحصى لم ينبهوا على عجمتها ، ولا على اللغة المنقولة عنها ، أو اذا نبهوا ، ذكروا انها فارسية ، وهي يونانية أو هي إرَمِيَّة ، وقالوا عليها انها رومية أو لاتينية . فجميع هذه التصحيحات يجب ان تعاد الى نصابها . والذي يلقي نظرة على معاجم الغربيين يرى انهم يذكرون أصل اللفظة بعد ان يدوّنوها في موطنها ، لأن هذه الاشارة مهمة جدًّا

٦ . الخلاصة

ويتحصل من هذا كلهِ ان معاجمنا في حاجة الى اصلاح وهذا الاصلاح لم يلتفت اليهِ جميع من وضع هذه الدواوين في المئات الثلاث الأخيرة . وجميع من ألفها أناس نقلة ، وربما نقلوا بلا فكر ولا رويَّة ، إذ جل غايتهم ان يصنفوا أسفاراً ليقال عليهم أنهم ألفوا كتباً

أما معجم فؤاد الأول فقد عقد النية على تدقيق النظر في هذا الموضوع ، لكن متى تخرج الى الناس تلكم المعاجم الثلاثة ، فالعلم عند صاحب الغيب

بغداد

الطب الجديد

للدكتور حسن كمال

١ — ﴿ العلاج بالزمهرير : Crymotherapy ﴾ — المعروف ان رفع حرارة الجسم الى حوالي ٤١ سنتجراد يشفي عدة حالات عصبية وبولية وغير ذلك والمعروف ايضاً ان هذه الحمى الصناعية أو العلاجية توجد في الجسم بنقل عدوى الملاريا أو التيفوس الخفيف اليه أو باستعمال الأمواج الكهربية الخاصة . وتمتاز الطريقة الاخيرة بانها تجعل رفع درجة الحرارة ومدة الارتفاع رهن ارادة الطبيب المعالج خلافاً للطريقتين السابقتين . وقد شفي بهذه الطريقة آلاف المرضى المصابين بشتى العلل

كل ذلك معروف ومتبع في كثير من المعاهد . اما الجديد من هذه الناحية فهو العلاج بالطرف الآخر من الموضوع ونعني بذلك الزمهرير وقد تمكن البعض بواسطته من خفض حرارة الجسم الى دون الحد الطبيعي بكثير . ولعل أول من استعمل هذا النوع من العلاج هما الاستاذان (تمبل فاي ولورنس سميث) من اطباء فيلادلفيا باميركا وذلك في حالات السرطان . استعان هذان الطبيبان بالمثلجات والآلات المبرّدة في العلاجات الموضعية فتمكنا من خفض حرارة بعض اجزاء الجسم الى درجة ٧،١٥ سنتجراد وحرارة الجسم عموماً الى درجة ٣٢ر١٢١ سنتجراد وتمكنا في الحالة الاخيرة من احداث نوع من الاستكنان (hibernation)

وقام اخيراً احد عشر موظفاً بمستشفى Lenox Hill بنيويورك بعمل تجارب علاجية بهذا الاستكنان الصناعي أو العلاج بالزمهرير مستعملين لذلك حجرة خاصة ذات سريرين بها آلة لتكييف الهواء تخفض درجة الحرارة الى ٣٢ر١٢١ سنتجراد

وقد توصلوا الى ازالة الألم المبرح من احد عشر مريضاً بالسرطان من بين سبعة عشر مريضاً فلم تتطلب الحالة اعطاء مخدرات او منومات على الرغم من ان الصفة التشريحية بعدئذ لم تظهر تغيراً يذكر في موضع الاصابة . واشار هؤلاء الباحثون بالاستمرار في اجراء هذه التجارب على مرضى آخرين بالسرطان وامراض ضخامة الغدد الليمفاوية والتهاب غشاء القلب تحت الحاد وتعاطي المكيفات والامراض الطفيلية بالمنطقة الحارة والجنون المبكّر

واتضح للاستاذين (تمبل فاي وسميث) ان هذا العلاج يزهد المدمنين في المكيفات في هذه

العقاقير . وان هناك حالات لا يصح معالجتها بهذه الطريقة كالمرضى طريحي الفراش والمصابين بفقر الدم الشديد وسرطان المعدة والمصابين بكسور عظام الفخذ والمعرّضين للاصابة بذات الرئة

ولا يجد المعالجون بهذا العلاج مضضاً من الاستمرار فيه لانهُ يفقدهم جزءاً كبيراً من وعيهم محدثاً حالة غيبوبة يقظة (Coma Vigil) . وتجب في هذا العلاج العناية بالقرنيتين ومقاومة حالة القلق التي تحدث احياناً باعطاء (لومنال Luminal) واقصى ما توصل اليه في خفض الحرارة بالجسم هو ١٥ر٨ درجة سنتجراد . لكن ينتظران يتوصلوا الى خفض حرارة الجسم الى ٢٧° سنتجراد. ويلاحظ ان السرطان يبدأ في الانكماش عند درجة ١٥ر٨ سنتجراد وهي درجة لا تضر انسجة الجسم كثيراً وعلى كل حال فهذا علاج يجب استعماله بحذر وعناية حتى تثبت فائدته المرجوة منهُ

٢ — ﴿ الرسام الكهربي للمخ واستعماله في الصرع الوراثي ﴾ : — أنجب البحث الاخير في تموجات المخ الكهربية نتائج تبشر بالخير من ناحية الصرع الوراثي كما هو واضح من ابحاث الاطباء (لينوكس وجيبس) في المجلة الطبية الاميركية (ص ١٠٠٢ عدد ١١٣ سنة ١٩٣٩) والمعروف ان حصول الوراثة في احوال الصرع يقع بنسبة ⅕ بين المصابين بالمرض لكننا لانزال نجهل طريقة توارث هذا المرض . وقد بحث الاطباء المذكورون ١٣٨ قريباً لسبعة وستين مريضاً بالصرع مصابين بعدم انتظام تموجات المخ الكهربية واتضح من البحث ان ٥٤ ٪ من هؤلاء الاقارب تموجاتهم غير طبيعية وان ١١ ٪ تموجاتهم مشكوك في طبيعتها . وباعادة هذا البحث على اقارب اشخاص أصحاء وجد ان ٦ ٪ منهم فقط عندهم تموجات كهربية مخية غير طبيعية و١٢ ٪ مشكوك في طبيعية تموجاتهم

وفحصت أمخاخ والدي ٤٠ مريضاً بالصرع فكانت النتيجة كالآتي

في ١٣ مريضاً وجدت التموجات المخية الكهربية في كلا الوالدين غير طبيعية
» ٣٠ » » » » » » أحد » » »
» ٢ » » » » » » » » مشكوك في طبيعتها
» ١ » » » » » » كلا » طبيعية

ومنه يتضح ان ٥ ٪ من الجمهور عموماً مصاب بتموجات كهربية مخية غير طبيعية . وان $\frac{1}{40}$ من هؤلاء مصابون بالصرع ويتضح أيضاً ان التموجات غير الطبيعية خاضعة للوراثة . وان الشخص المصاب والداه بتموجات غير طبيعية هو أقرب للاصابة بالصرع من غيره

وستكون نتائج هذا البحث بعيدة المدى. ولا يبعد ان تكون أمراض وراثية أخرى ذات علاقة بالتموجات المخية أيضاً فاذا علمنا ذلك واتضحت صحته سهل علينا علاج الحالات المذكورة وتفاديها

٣ — ﴿ الحصبة ! الحصبة ! هل قهرت ؟ ﴾ : ما أكثر هذا المرض بالقطر المصري وما أشد وطأته . ومع ذلك فاننا لم نهتد إلاَّ أخيراً الى طرق وقاية مبدئية تخفف من ويلاته . وتتلخص

هذه الطرق بحقن الطفل بمصل ناقه من الحصبة او بخلاصة المشيمة (Globulins) او بدم أحد والديه . فاذا كان الحقن مبكراً امتنعت الاصابة بالمرض بضعة أسابيع، أما اذا تأخر الحقن فان الطفل يصاب إصابة خفيفة تقيه مدى الحياة . وهذا النوع من الحصانة غالي الثمن متعذر الحصول

لكن منذ سنتين تمكن بلوتز (Plotz) من زرع ميكروب الحصبة ثم تلاه ريك (Rake) مع غيره وزرع الميكروب ولطف حدته (راجع مجلة العلم Science 1940 ص١٠) واستخرج منهُ طعماً يعطى حقناً تحت الجلد او تقطيراً في الأنف . ولما عرّض الأطفال الذين طعموا بهذا الطعم للاصابة بالحصبة لم يصابوا بها . وهذه نتائج تبشر بنجاح عظيم سيكون له تأثير بعيد في الطب الوقائي اذا ما صحت تجاربه

٤ — ﴿ عامل الشيب﴾ : لعلّ أثقل ضيف على الانسان بعد الأربعين هو الشيب . ذلك لأنهُ نذير الهرم كما انهُ عنوان الكبر . هو عنوان واضح يجب على صاحبه حذره كما يجب على الغير احترامه . وفي كل ذلك تكليف وبعد عن نزعات الشباب . وقديماً قالوا

ألا ليت الشباب يعود يوماً فاخبره بما فعل المشيب

هذا أخصر شرح للشيب. وقد حاول القوم بشتى الطرق اخفاءه فابتكروا الصبغات وبالغوا في نفعها وجمعوا من ذلك مالاً وفيراً . لكن مهما تبطنه تظهره الأيام . وقد استوقف نظري أخيراً بحث في هذا الموضوع بالمجلة الطبية الانكليزية عدد ٢٨ سبتمبر ١٩٤٠ يتلخص في ما يلي : —

معلوم ان الفيتامينات هي مواد ضرورية للحياة ولوقاية الجسم من الأمراض . وهي توجد في كثير من الأغذية من حيوانية ونباتية. وهي على عدة أنواع تعرف باسم ا ، ب ، ج ، د ، ه الخ كل بحسب المرض الذي يقي منهُ . لكن اتضح ان الفيتامين ب هو أيضاً مجموعة عدة فيتامينات فرعية سميت كالآتي ب ١ و ب٢ و ب٣ و ب٤ وهكذا . في البحث السالف الذكر لوحظ ان هناك نوعاً من الفيتامين ب سمي ب س لا نزال نجهل تركيبه الكيميائي اذا منع من غذاء الفيران سبب لها الشيب

وتوصل الاستاذ (مورجان) وغيره الى ان هذا النوع من الفيتامين ب موجود بالكبد والخميرة . واستمر الاستاذ مورجان في ابحاثه حتى توصل الى ان قلة الفيتامين ب س يحدث بالجسم تغيراً بالغدد كالغدة الدرقية وان وجوده في الغذاء لا يصحبه هذا التغيُّر، وقد لوحظ ان الفيران التي غذيت بغذاء خال من هذا الفيتامين ظهرت عليها بقع شيب في الرأس ما بين الأذنين وفي بقعة بمتوسط الظهر وذلك في خلال ثمانية أسابيع . وان اضافة عشرة جرامات من الكبد الطازج يوميًّا الى الغذاء يكفي لارجاع السواد الى الشعر من جديد. وامكن ايضاً بهذه الطريقة ابعاد الشيب واحداث اسوداد الشعر في أرنب هندي واحد وثمانية كلاب صغيرة وثعلبين صغيرين

وعلى ذلك فهناك أمل لمن لا يرغبون في وقار الشيب او على الأقل لمن لا يريدون مفارقة الشباب . فيالها من بشرى !

مناجاة

لفؤاد بلبل

أنا في الحبّ أخلصُ الناسِ نيّه   فاشمليني بنظرةٍ يا سنيّه
يا عروسَ الخيالِ ، يا فجرَ إلها   مي ، ودنيا أحلاميَ الذهبيه
يا ملاكاً من عالمِ الغيبِ رفّا   فاً على خاطري ونفسي الشقيه
يا غذاءَ القلوبِ ، يا منهل الرو   ح ، ويا ذروةَ المعاني السميه
يا حياةً تدب ملء شرايي   ني ، ويا خمرةَ الهوى الروحيه
يا سماء الجمالِ والأدبِ العا   لي ، ويا جنةَ الخيالِ الزكيه
أنتِ !... ما أنتِ غير شبابةِ الحبّ   ، وأغنيّةِ الهوى الشعريه
أيُّ سحرٍ أحبُّ من سحرِ عينيك   ، ومنْ تلكمُ المجاني الشهيه ؟!
زهرةٌ أينَ من وسامتها الزهرُ   بألوانهِ الزواهي البهيه
أطلعتها الحياةُ في روضةِ الحسنِ   ، على رأسِ ربوةٍ علويه
حوّمت فوقها الطيور تناغيها   بأشهى ألحانها الغزليه
وانحنى فوقها الصباحُ يصابيها   بأبهى أنواره العسجديه
ومشى في ركابها البدرُ وله   نَ ، وحفّت بها قلوبُ البريّه
وتنحت عن عرشها الشمسُ إجلا   لاً لشمسِ الوسامة الإنسيه
إيهِ يا شمسَ خاطري ورجائي   أشرقي في سماءِ نفسي الغويّه
طهّريها بنارِ حبّكِ مما   نشرتْ فوقها غيومُ الخطيه
وأنيري هناكَ في جانبِ القلبِ   مكاناً للطُهرِ فيهِ بقيه
واعتلي عرشهُ وكوني عليهِ   يا ابنةَ النورِ ربّةً سرمديه
لا تخافي بهِ المنيةَ ، ما في   معبد الشعر والهوى من منيه
معبدٌ خالدٌ على الدهر ما غنّى   هزارٌ وسجّعتْ قمريّه
سيظلُّ الوجودُ يُنشدُ مغنا   هُ ويروي فمُ الزمان رويّه
أوقدي من شموعِ حُبّكِ ما شئتِ   وطوفي بساحهِ القدسيه

إنّ فيه لهيكلاً كم نحرْنا فيْهِ للفنّ والهوى من ضحيه
وتقرَّبْتُ بالقرابينِ حتى صبغَتْ أرضهُ الدماء الذكيه
فاجعلي منهُ كعبةَ الفنّ والشعـر ورمزَ المحبةِ العُذريه
وأديري عليَّ من ثغركِ البسّام كأساً بالبابليِّ رويه
تشعل النارَ في عروقي وتُذكي ما خبا من ضرام نفسي الفتيه
خمرةٌ تحملُ السكارى على أجنحةِ الحبّ في سماءٍ نقيه
عصرتها (ڤينوس) من كرمة الحُسنِ وفيضِ المشاعر العبقريه
فتعالي رَوِّي أوامي بكأس من رحيق المراشفِ القرمزيه
أنتِ أمنيةُ الفؤادِ وما لي غيرَ يوم اللقاء من أمنيّه
لا تظنّي بيَ الظنون فأنّي ليَ نفسٌ على الدنايا أبيّه
أوْ تخالي البعادَ يحجبُ عنّي ذلك الوجهَ والسّماتِ السنيه
نحنُ قوم لنا مشاعرُ، لكنْ غيرُ تلك المشاعرِ السُّفليه
وقلوبٌ بالحبّ تخفقُ ولهى وعيونٌ ترى المعاني الخفيّه
كمْ سلكنا إلى سناكِ سبيلاً وركبنا من الحنين مطيه
وتخذنا من النَّسيم رسولاً وبعثنا مع النجوم تحيه
واستعرْنا من الطيور جناحاً ونقلنا عن شدْوها أغنيه
ورشفنا من الشفاه كؤوساً لم تذُقْها مراشفٌ بشريه
وقطفنا من الخدود وُرُوداً أينَ من حُسنِها الرياضُ النديه
وقطعنا من الوفاء عُهُوداً أشهدُ اللهَ أنها مرعيه
سائلي الطيرَ هل ترنّمَ إلاّ بهوانا على الغصون الطريه
وخريرُ الغديرِ هل كان إلاّ رَجْعَ أنغامنا العذاب الشجيه
كم شددنا الى النجوم رحالاً وفككنا أغلالنا الجسديه
وخلعنا الجسومَ وهي سجونٌ ونعمنا بعيشةِ الحريه
وبعثنا الأرواحَ حيثُ أرادت، في سماءٍ من الخيالِ قصيه
إنما الجسمُ محبسُ الروحِ ما لم تسمُ بالروحِ هزةٌ عاطفيه
ما شكونا وكيف يشكو الليالي مَنْ لهُ مثل هذه الشاعريّه

دار الاهرام

الطبيب العربي

ابو عبد الله التميمي المقدسي

لقدري حافظ طوقان

الطب من العلوم التي عني بها العرب فكانت موضع اهتمام علمائهم وخلفائهم فلقد عكفوا على دراسة ما أخرجه اليونان والسريان والكلدان في مختلف بحوثه، وأصلحوا بعضه ثم زادوا عليه زيادات مهمة يقول عنها كتاب تراث الاسلام : « إن العرب زادوا على الطب اليوناني كثيراً وزياداتهم فيه مبنية على التجربة — أي أنها كانت عملية — » وهذا يرد رأي القائلين بأن علوم العرب كانت نظرية مبنية على الأسلوب الغيبي. ولقد ظهر لهم فيه مؤلفات نفيسة كالقانون لابن سينا وكتاب الحاوي للرازي وكتاب التعريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي. ولقد استفاد الافرنج من هذا الكتاب في نهضتهم الحديثة فائدة كبرى كما استفادوا من بعض المؤلفات الطبية العربية التي بقيت تدرس في جامعاتهم حتى القرن الثامن عشر للميلاد. ومما يدل على تقدير الغربيين للطب العربي ورجاله ان جامعة (برنستون) الأميركية قدرت خدمات الحضارة الاسلامية وأفضالها على الانسانية والثقافة فراحت تخصص أفخم ناحية في أجمل ابنيتها لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — كما راحت تنشىء داراً لتدريس العلوم العربية والبحث في المخطوطات واخراجها ونقلها الى الانكليزية حتى يتمكن العالم من الوقوف على أثر التراث الاسلامي في تقدم الطب والعلم وازدهار العمران

نبغ في الطب كثيرون وتصفح بسيط لكتاب طبقات الأطباء وتراجم الحكماء وكشف الظنون تثبت ان الذين زاولوا صناعة الطب والصيدلة كثيرون جداً ومن أقطار مختلفة وقد كان لهم نظام مخصوص يسيرون عليه ورئيس يمتحنهم ويجيز المقتدر منهم وبلغ عدد الأطباء في زمن المقتدر بالله في بغداد « ... ثمانماية رجل ونيفاً وستين سوى من استغنى عن مهنته باشتهاره في التقدم في صناعته وسوى من كان في خدمة السلطان ... »

ومن الذين نبغوا في الطب في فلسطين في القرن الرابع للهجرة ابو عبد الله محمد بن أحمد

ابن سعيد التميمي . كان مقامه في القدس ونواحيها وله معرفة جيدة بالنبات وما يتعلق بالعقاقير ، ويقول عنهُ ابن أبي أصيبعة « ... وكان متميزاً في معرفة صناعة الطب والاطلاع على دقائقها وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة ، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه وركب منهُ شيئاً كثيراً ... » . « كان جده طبيباً وقد صحب أحمد بن أبي يعقوب مولى ولد العباس ، وارتحل محمد ابو عبد الله الى كثير من البلدان بقصد الدراسة والاستزادة من العلوم الطبية وقد امتاز على غيره من معاصريه بمهارته في تركيب الأدوية وحسن اختيار في تأليفها وعنده غوص على أمور من هذا النوع واستغراق في طلب غوامضه ... »

كان صاحبنا من حاشية الحسن بن عبد الله بن طغج حاكم الرملة والبلاد المجاورة ومحل احترامه وثقته « . . . وقد عمل له عدة معاجين ولخالخ طبية ودخناً دافعة للوباء ، وسطر ذلك في مصنفاته .. »

ويرى بعض الأطباء ان هذا الدخن الدافع للوباء أوحى الى الأطباء الذين أتوا بعد ابي عبد الله التميمي فكرة استعمال التبخير لقتل الجراثيم

أدرك ابو عبد الله الدولة العلوية عند دخولها مصر وصحب الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز وصنف له كتاباً ضخماً يقع في عدة اجزاء سماه « مادة البقاء باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء ... »

واستفاد كثيراً من وجوده في مصر فلقد اجتمع على اطباء كثيرين من أهل مصر والمغرب من الذين قدموا في صحبة المعز ، وجرت بينه وبينهم مناظرات في البحوث الطبية . ولا شك أن هذا قد أكسبه معرفة وأوقفه على معارف الأقطار الاسلامية النائية — وهذا على ما أرى من العوامل التي كانت سبباً في شهرته وذيوع اسمه والاعتراف بفضله وتفوقه

كان أبو عبد الله ذا روح علمي صحيح مخلصاً للحقيقة ، ولقد دفعه هذا الى الاعتراف بأنه اقتبس بعض الأدوية عن بعض الذين اجتمع عليهم ولازمهم . جاء في كتاب طبقات الأطباء : « وكان (أي أبو عبد الله) قد اجتمع في القدس بحكيم فاضل راهب يقال له انبا زخريا بن نوابه وكان هذا الراهب يتكلم في شيء من اجزاء العلوم الحكمية والطب ، وكان مقيماً في القدس في المائة الرابعة من الهجرة ، وكان له نظر في أمر تركيب الأدوية ، ولما اجتمع فيه محمد التميمي لازمه وأخذ عنه فوائد وجملاً كثيرة مما يعرفه . وقد ذكر في كتابه مادة البقاء صفة سفوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة وذكر انه نقل ذلك عن انبا زخريا ... »

وكان التميمي من الذين يرون الوهم والاحداث النفسية من العلل التي تؤثر في البدن ومن الأمور التي يجب على الطبيب أن يحسب حسابها ، وعلى هذا كان يسير في معالجة مرضاه برفع الوهم

المسيطر عليهم وتصغير شأن المرض. ويروي حادثة وقعت مع والده يقيم الدليل فيها على الأثر القوي الذي يحدثهُ الوهم في الانسان . والقصة كما جاءت على لسانه هي : « . . . حدثني والدي رضي الله عنهُ انهُ سكر مرة سكراً مفرطاً غلب فيهِ على عقله فسقط في بعض الخانات من موضع عالٍ الى أسفل الخان وهو لا يعقل فحمله صاحب الخان وخدمهُ حتى ادخله الى الحجرة التي كان يسكنها فلما أصبح قام وهو يجد وجعاً ووهناً في مواضع من جسده ولا يعرف لذلك سبباً فركب وتصرف في بعض أموره الى ان تعالى النهار ثم رجع . فقال لصاحب الخان : اني اجد في جسدي وجعاً وتوهناً شديداً لست أدري ما سببهُ ؟ فقال صاحب الخان : ينبغي أن تحمد الله على سلامتك . قال ممَّ ذا ؟ قال أوما علمت ما نالك البارحة ؟ قال . لا . قال فانك سقطت من أعلى الخان الى أسفل وأنت سكران . قال ومن اي موضع ؟ فأراه الموضع . فلما رآه حدث به للوقت من الوجع والضربان ما لم يجد معهُ سبيلاً الى الصبر وأقبل يضجّ ويتأوَّه الى ان جاؤوه بطبيب ففصده وشدَّ على مفاصله المتوهنة جبار ، فأقام اياماً كثيرة الى ان برىء وذهب عنهُ الوجع..

***

وضع التميمي مؤلفات نفيسة كان لها أثر في تقدم العلوم الطبية ، ومن هذه المؤلفات ما بيَّن لنا انهُ ركب ترياقاً سماه مخلص النفوس ، وبعد ان ذكر صورتركيبه قال عنهُ في كتاب مادة البقاء « ... هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه مختصر نافع الفعل دافع لضرر السموم القاتلة المشروبة والمصبوبة في الابدان بلسع ذوات السم من الافاعي والثعابين وأنواع الحياة المهلكة السم والعقارب وغيرها وذوات الاربع والاربعين رجلاً . . . مجرَّب ليس له مثيل .. » و أيضاً في كتاب مادة البقاء وصف لدواء جديد ذكرصورة تركيبه وأسماء مفرداته وسماه « مفيد السرور من كل الهموم » والف أيضاً دواء آخر أطلق عليه مفرح النفس عمله لبعض اخوانه بمصر وذكر صورة تركيبه واسماء مفرداته

وله من الكتب رسالة الى ابنه علي بن محمد في صنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يقع فيه من أدوية « ونعت اشجاره الصحيحة واوقات جمعها وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته

وكذلك له كتاب آخر في الترياق وقد استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه ، وكتاب مختصر في الترياق وكتاب مادة البقاء الذي ورد ذكره والذي صنفه للوزير أبي الفرج يعقوب ابن كلس بمصر . وله مقالة في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه وكتاب الفحص والاخبار وكتاب « المرشد الى جواهر الأغذية وقوى المفردات والأدوية »

نابلس — قدري حافظ طوقان



ترسانة الدمقراطية

ملخص واف لخطبة المستر روزفلت رئيس جمهورية اميركا

يوميات دولية

١ — الحريات الاربع
٢ — تايلاند او سيام
٣ — طيران القاذفات الاميركية
٤ — التفسير والمفاجأة في شمال افريقية

«ترسانة الدمقراطية»(١)

ليس هذا الحديث بحديث عن الحرب ولكنهُ حديث عن الدفاع القومي . وذلك لأن الغرض المقدَّم من أغراض رئيسكم هو اقصاؤكم الآن ، واقصاء اولادكم من بعدكم وحفدتكم بعد ذلك ، عن الاشتباك في حربٍ لصون الاستقلال الاميركي وجميع المعاني التي يمثلها هذا الاستقلال في نفوسكم ونفسي . اما ونحن نواجه الليلة ازمة عالمية ، فان ذهني يرتد ثماني سنوات الى الوراء ، الى ليلة كنا نعاني فيها غمار ازمة داخلية . كانت عجلات الصناعة الاميركية قد بدأت تسير متثاقلة الى الوقوف والنظام المصرفي في بلادنا قد عجز عن العمل

واذكر انني عند ما جلست في مكتبي في البيت الأبيض ، أعدُّ حديثاً اوجههُ الى شعب الولايات المتحدة ، تمثلت امام ناظري صور جميع الاميركيين الذين اريد مخاطبتهم . رأيت العمال في المصانع والمناجم والمطاحن ، والفتاة في الدكان ، والتاجر الصغير في متجرهِ ، والفلاح يفلح ارضهُ في الربيع ، والأرامل والشيوخ يفكرون في ماذا عسى ان يكون مصير ما وفروهُ طول العمر

وحاولت ان اصوّر لكتلة الشعب الاميركي العظيم ما معنى « ازمة البنوك » وما تأثيرها في حياتهم اليومية . وغرضي الليلة ان أنهج النهج نفسهُ ، مع الشعب نفسهِ في هذه الأزمة الجديدة التي تواجهُ اميركا . إننا قابلنا أزمة ١٩٣٣ بشجاعة وادراك لحقائق الحال ، وسنواجه الازمة الجديدة ، المنطوية على تهديد جديد لسلامة امتنا ، بالروح نفسه

ان حضارتنا الاميركية لم تتعرَّض مطلقاً منذ جيمستون وبليموث روك (الاشارة هنا الى نزول النازحين الانجليز في اميركا وانشائهم مستعمرة في القرن السابع عشر) لمثل الخطر الذي تتعرَّض له اليوم

ففي السابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٠ وقَّعت ثلاث دول قوية ، اثنتان منها في اوربا والثالثة في اسيا ، اتفاقاً في برلين ، اشتركت فيهِ في تهديد موجَّهٍ الى الولايات المتحدة مؤداهُ انهُ اذا تدخلت في برنامج التوسع الذي وضعته الدول الثلاث او صدَّتها عن تحقيقهِ — وهو برنامج غرضهُ السيطرة العالمية — فانها تتحد في العمل ضدَّ الولايات المتحدة الاميركية

---

(١) ملخص واف لخطبة المستر فرنكلن روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الاميركية وهي الخطبة التي أذاعها مساء ٢٩ دسمبر ١٩٤٠ من « جانب الموقد في البيت الابيض » وقد أبقيناها بصيغة المتكلم مع ان هذا النص لا يعدو كونه تلخيصاً وافياً

ان سادة المانيا النازيين أوضحوا انهم لن يكتفوا بالسيطرة على الحياة والفكر في بلادهم بل ينوون استعباد أوربا قاطبةً ثم الاستناد الى مواردها للسيطرة على بقية العالم

ومن ثلاثة اسابيع صرّح زعيمهم « ان هناك عالمين يقابل احدها الآخر » . ثم رد في لهجة التحدي على معارضيه فقال : « اننا لا نستطيع ان نوفق بيننا و بين هذا العالم الآخر ... اني استطيع أن أهزم كل قوة أخرى في العالم » . هكذا تكلم زعيم النازي

أي ان المحور لا يكتفي بأن يسلم بأنهُ من المستحيل قيام سلام نهائي بين فلسفتهم في الحكم وفلسفتنا ، بل يعلن ذلك على رؤوس الاشهاد

ولما كان هذا التهديد صريحاً لا ريب فيه فني الوسع القول صراحة وحسماً ان الولايات المتحدة لا حقَّ لها ولا باعث يبعثها على تشجيع الكلام في الصلح حتى يحل اليوم الذي تبدو فيه النية صريحة من جانب الأمم المعتدية انها تخلت عن كل نزعة الى السيطرة على العالم أو غزوه

ان قوى الدول المتعصبة ضد الشعوب التي تعيش عيش الحرية مصدودة عن الوصول الى شواطئنا الآن . فقوى الألمانيين والايطاليين مصدودة على الجانب الآخر من المحيط الاطلسي بالقوات البريطانية واليونانية والالوف من الجنود والبحارة الذين نجوا من الدول الخاضعة للقوة ومضوا في النضال . واليابانيون في شغل شاغل في آسيا بقوات الصينيين الذين يدافعون دفاعاً مجيداً . وفي المحيط الهادىء أسطولنا

ان فريقاً من شعبنا يوهم نفسه بأن الحروب في أوربا وآسيا ليست من شأننا . ولكن من المسائل الحيوية التي تهمنا بوجه خاص ان يُصدَّ مثيرو الحروب في اوربا وآسيا عن السيطرة على المحيطات المفضية الى نصف القارة الغربي

من مئة وسبع عشرة سنة وضعت حكومتنا مبدأ مونرو ليكون وسيلة للدفاع من كل تهديد يوجه من قبل كل حلف اوربي الى القارتين الأميركيتين . وبعد ذلك وقفنا نحرس المحيط الاطلسي وكان البريطانيون جيراننا ولم يكن بيننا وبينهم معاهدة ولا اتفاق شفويّ

ولكن كان هناك شعور اثبت التاريخ صحته وصدقه وهو اننا نستطيع بحكم جيرتنا ان نسوي كل نزاع يقوم بيننا تسويةً سلمية . والواقع أن نصف الكرة الغربي كان خلال هذه المدة بنجى من الاعتداء من أوربا وآسيا

هل يعتقد أحد صدقاً أنهُ يجوز أن نخشى الاعتداء ما دامت بريطانيا الحرة قائمة جارة لنا وهي أقوى دولة بحرية في المحيط الاطلسي ؟ هل يعتقد أحد صدقاً أننا نستطيع أن نطمئن اذا كانت دول المحور جاراتنا هناك ؟ فاذا هوت بريطانيا العظمى فان دول المحور تسيطر على قارات أوربا وآسيا وافريقية واستراليا وما يتبعها وعلى البحار كذلك ، فتصبح في منزلة تمكنها

من ان تحشد مواردها الحربية والبحرية ضدَّ نصف الكرة هذا . وليس من المبالغة في شيء ان نقول انا نغدو جميعاً في القارتين الاميركيتين وكأننا نحيا على فوهة المدفع ، وهو مدفع محشوٌ برصاص متفجر ، اقتصادي وحربيٍ معاً

وعندئذٍ لا بدَّ لنا من ان ندخل عصراً جديداً يسوده الارهاب ويغدو فيه العالم كلهُ ومنهُ نصف الكرة الغربي ، تدار شؤونهُ بالتهديد والقوة الوحشية . ولكي يتاح لنا العيش في عالم من هذا القبيل يتعين علينا ان نحوّل بلادنا دولة عسكرية على أساس اقتصادي حربي دائم

يريد بعضنا ان يعتقد انهُ اذا هوَت بريطانيا فاننا نبقى بمنجى من الخطر لسعة المحيطين الاطلسي والهادىء من الجانبين

ولكن سعة هذين المحيطين ليست الآن كما كانت في ايام السفن الشراعية . ففي نقطة معيَّنة تقلُّ المسافة بين افريقية والبرازيل عن المسافة بين وشنطن ودنفر — وهي مسافة تجتازها القاذفات الحديثة في خمس ساعات . اما في شمال المحيط الهادىء فاميركا وآسيا تكادان تتلامسان

اننا نملك اليوم طائرات تستطيع ان تطير من الجزائر البريطانية الى سواحلنا الشمالية (نيوانجلند) ثم تعود الى انكلترا بغير الحاجة الى تزويدها بالوقود في أثناء الرحلة. ومدى طيران القاذفة الحديثة آخذ في الازدياد .

في خلال الاسبوع الماضي ، أنبأني كثيرون من شتى انحاء بلادنا ما ينتظرون مني قولهُ الليلة وجميعهم تقريباً أعربوا عن رغبة تنطوي على شجاعة عظيمة ، في ان أصارحهم الحقيقة عن خطر الحالة . ولكن برقية واحدة أعربت عن موقف أقلية صغيرة لا تريد أن ترى شيئاً من السوء ولا ان تسمع اخبارهُ ، على الرغم من أن افرادها يعلمون في صميم قلوبهم ان هناك ما يسوء. وخلاصة هذه البرقية : «رجاءً أيها الرئيس لا تبث الجزع فينا باطلاعنا على الحقائق»

والواقع الذي لا يماري فيه ان أمامنا خطراً هو خطر يجب ان نتأهب للقائه . ولكننا نعلم اننا لا نستطيع ان ننجو من الخطر او من القلق والجزع الذي يبثهُ في النفس ، بتسللنا الى الفراش وتغطية رؤوسنا

في اوربا دول كانت مرتبطة بألمانيا بمواثيق عدم تدخل موثقة ، وكان هناك دول أخرى أكَّدت لها المانيا انها يجب ألاَّ تخشى الغزو من ناحيتها . وسواء كانت هناك مواثيق من هذا القبيل أم لم يكن ، فالحقيقة الواقعة هي ان هذه الدول هوجمت واجتيحت واستعبدت على الأسلوب الحديث ، بعد انذار مداه ساعات أو بغير انذار ما

وقد قال لي أحد الزعماء المنفيين من أيام «ان الانذار كان كمية مهملة ، فقد تلقته حكومتي بعد انقضاء ساعتين على شروع الجيش الالماني في التدفق على بلادي في مائة موقع»

ان مصير هذه البلدان ينبيء بقيمة العيش والمدفع النازي مسدد اليك . وقد سوّغ النازيون هذه الأعمال باعذار واهية ومنها زعمهم انهم يحتلون بلداً ما لوضع الأمن فيه في نصابه، ومنها انهم يحتلون أو يسيطرون على أمة ما لحمايتها من عدوان دولة أخرى . فقد قالت المانيا انها تحتل البلجيك لتنقذ البلجيكيين من البريطانيين . أنتردَّد في أن تقول لجمهورية من جمهوريات اميركا الجنوبية : اننا سنحتل ارضك لكي نحميك من اعتداء الولايات المتحدة . والبلجيك تستعمل الآن قاعدةً لغزو ضد بريطانيا التي تكافح دفاعاً عن حياتها . ولا ريب في أن كل جمهورية في أميركا الجنوبية تتحول قاعدة لهجوم الماني على جمهورية مجاورة في نصف الكرة هذا اذا وقعت في أيدي النازيين

دققوا النظر في مستقبل موقعين أقرب الى المانيا والينا من احدى جمهوريات أميركا الجنوبية. أتستطيع إرلندا ان نقاوم اذا انتصرت المانيا ؟ وهل تستثنى الحرية الارلندية في عالم نزعت حريته ؟ او خذوا جزائر الازورس (الجزائر الخالدات) التي ما فتئت تابعة للبرتغال من خمسة قرون . أننا نعدُّ جزائر هواي قاعدة لازمة لدفاعنا في المحيط الهادىء ومع ذلك فجزائر الازورس في المحيط الاطلسي أقرب الينا من هواي

هناك فريق يقول ان دول المحور لا ترغب في مهاجمة نصف الكرة الغربي . وهذا لون من التفكير تمليه الرغبة كالتفكير الذي أفضى الى إضعاف قوى المقاومة في كثير من الشعوب المغلوبة . ومما لا مراء فيه هو أن النازيين أعلنوا مراراً أن جميع السلالات البشرية أدنى من سلالتهم واذن فيجب أن تخضع لأمرهم . ثم أن موارد هاتين القارتين الأميركيتين وثروتهما أعظم مغانم العالم فهي تغري بالغزو والنهب

ان علينا ألاَّ نحجب عن عيوننا هذه الحقيقة التي لا ريب فيها وهي أن قوى الشر التي سحقت واوهت وأفسدت دولاً أخرى أصبحت داخل أبوابنا وحكومتكم تعلم عن نشاطها الشيء الكثير

ان وفودهم السرية نشطة في بلادنا والبلدان المجاورة . وهي تسعى لتحريك الريب والشقاق بغية أن تثير نزاعاً داخليَّا فيها. وعمَّالها يسعون الى اثارة اصحاب المال على العمال والعمال على اصحاب المال . انهم يجتهدون في ايقاظ الحفائظ الدينية والعنصرية التي كادت تنام ، وهي حفائظ يجب أن لا يكون لها مكان في هذه البلاد. انهم جادون في كل هيئة من الهيئات ليوقظوا عدم التسامح و يستغلّوا لأغراضهم الخاصة مقتنا للحرب . هؤلاء الماكرون لصفو الحياة الصائدون في مائها العكر ليس لهم إلاّ غرض واحد وهو ان ينقسم شعبنا بعضهُ على بعض ، فتقوم فيه طوائف على طوائف ، بغية القضاء على وحدتنا وتمزيق اوصال عزمنا على الدفاع عن كياننا

و بين الأميركيين من يعاونهم في هذا و بعضهم يفعل ذلك بغير ان يدري . ولست انهم هؤلاء

الأميركيين بأنهم عمال للأجانب ولكنني اتهمهم بأنهم يعملون العمل الذي يريده الطغاة في الولايات المتحدة. هؤلاء الناس لا يعتقدون اننا نستطيع ان ننجو بأنفسنا باغماض عيوننا عن الأمم الأخرى فحسب، بل ان بعضهم يتعدى ذلك فيقترح ان نقلد الأساليب الدكتاتورية. ان الأميركيين لا يستطيعون ان يفعلوا ذلك ولن يفعلوه، وان تجارب السنتين الأخيرتين لتثبت انهُ ليس في وسع امة أن تسالم النازيين وتسلم. فليس في قدرة امرىء أن يروّض النمر الشرس ويحوّله الى هر أليف بالتربيت على ظهره. ان مسالمة العنف متعذرة. والتعقل مع القنبلة المحرقة مستحيل. ونحن نعلم الآن ان السلام مع النازيين لا يتم لأمة ما الاّ اذا أذعنت اذعاناً تامًّا. والايطاليون انفسهم لا يعلمون في هذه الدقيقة متى يقبلهم حلفاؤهم قبلة الموت

ان دعاة التهدئة بين الأميركيين يتجاهلون مصير النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا ونروج والبلجيك وهولندا والدنمارك وفرنسا. يقولون ان دول المحور ستنال الظفر على كل حال. وان الدماء التي تسفك يمكن حقنها، وانه خير للولايات المتحدة ان تلقي بنفوذها في كفة صلح ملى إملاء وان تخرج منه بأعظم نصيب تستطيعه

ثم يدعونه «سلام مفاوضة!». ان هذا هو لغو الكلام. فاذا احدقت جماعة من المتشردين السفاحين بقريتك وهددتها بالابادة فقبلت القرية ان تدفع جزية لتنجو بجلدها، فهل يكون ذلك «سلام مفاوضة»

ان سلاماً مملىً من هذا القبيل لن يكون سلاماً على الاطلاق. انه لا يكون الاّ هدنة أخرى تفضي الى أضخم سباق في التسلح، وأفتك حروب في ميدان التجارة عرفها التاريخ، وفي هذا النضال يغدو الأميركيون مضطرين وحدهم الى المقاومة الفعالة لدول المحور

ان النازي على الرغم من مباهاتهم بالكفاية وتفاخرهم بالأغراض الصالحة في هذه الحرب، لا تزال المعتقلات من وراء كلامهم وفيها خدام الرب مصفدون

. وتاريخ السنوات الحديثة يثبت ان اطلاق الرصاص والسلاح والمعتقلات ليست أدوات يستعملونها الى حين ثم تزول بل هي مذابح تسجد امامها الدكتاتوريات الحديثة. قد يتكلمون عن النظام الجديد في العالم ولكن الصورة التي تتمثل لهم هي بعث أقتم ألوان الاستبداد وأشنعها. وهو نظام لا حرية فيه ولا دين ولا رجاء. إن النظام المقترح مضادٌّ مناقض على خط مستقيم لولايات اوربا المتحدة او لولايات آسيا المتحدة. فالحكومة فيه ليست حكومة قائمة على رضى المحكومين. ولا هو اتحاد بين رجال ونساء ذوي كرامة لحماية انفسهم وكرامتهم من الاستبداد. انهُ حلف غير مقدس بين السطوة والارهاب للسيطرة على النوع الانساني واستعباده

والشعب البريطاني يحارب الآن حرباً مجيدة ضدّ هذا الحلف غير المقدّس. ومستقبل سلامتنا

متوقف على مصير هذا الصراع . وقدرتنا على البقاء بمعزل عن الحرب متأثرة حتماً بتلك النتيجة

واني اذ افكر في مسائل اليوم والغد ، اصارح الشعب الاميركي بان احتمال بقائنا خارج نطاق هذه الحرب ، يزداد اذا نحن بذلنا تأييدنا الآن للدول التي تدفع عن نفسها هجوم المحور ، غير مسلمين بهزيمتها ، ولا مذعنين في لين وذل لظفر المحور منتظرين حتى يجيء دورنا اذ نصبح نحن هدفاً للهجوم في حرب اخرى تالية

واذا أردنا حقاً ان نواجه الحقيقة فعلينا ان نعترف بان المغامرة تحف بكل طريق نختاره. ولكنني موقن ان الكثرة الساحقة من امتنا متفقة على ان الطريق الذي ادعو الى سلوكه ينطوي على اقل خطر يحتمل ان نتعرض له الآن، وعلى اكبر رجاء وامل لسلام العالم في المستقبل

ان شعوب اوربا التي تدافع عن نفسها لا تطلب منا عوناً في الرجال . بل تطلب عوناً في ادوات الحرب ـ الطائرات والدبابات والمدافع والسفن التي تنقل هذه الادوات لاجل الدفاع عن أنفسهم وعن سلامتنا . ولا بدَّ لنا من ان نرسل اليهم هذه الاسلحة في مقادير وافية ، وبسرعة كافية حتى ننجو نحن وينجو اولادنا من ويلات الحرب ورزاياها وهي الويلات والرزايا التي يعانيها آخرون . فليمتنع دعاة الهزيمة عن القول بان الوقت قد فات . فليس في الوسع الافراط في التبكير . واليوم أبكر من غدٍ

من الحقائق ما يعدُّ في منزلة الأوليات . ان بريطانيا والامبراطورية البريطانية تعدُّ من الوجهة العسكرية رأس المقاومة لنزعة الفتح العالمي . وهي تحارب حرباً ستخلد الى الأبد في سفر البسالة والشجاعة البشرية

ليس ثمة طلب بارسال حملة عسكرية خارج حدودنا وليس ثمة نية تجول في ذهن عضو ما من اعضاء حكومتكم على إرسال حملة من هذا القبيل. ففي وسعكم اذن ان تدفعوا كل ما يقال عن ارسال جيوشنا الى اوربا بأنهُ كذب عمد لأن سياستنا القومية ليست متجهة الى الحرب بل غرضها الوحيد هو إقصاء الحرب عن بلادنا وشعبنا

تستمدُّ الدمقراطية في كفاحها مع نزعة الفتح العالمي عوناً من تسلُّح الولايات المتحدة ويجب ان يتسع هذا العون بارسال كل اوقية وكل طن من العتاد الحربي نستطيع ان نتخلى عنهما لمساعدة الحماة الذين في خطوط القتال . وليس هذا العمل منافياً للحياد اكثر من عمل أسوج وروسيا وغيرهما من الأمم التي ترسل الصلب وركاز المعادن والزيت وغيرها من مواد الحرب الى المانيا كل يوم

اننا نضع خطة لدفاعنا ونحن شاعرون بالضرورة الملحة الحاسمة التي تقتضيها الحالة الدولية

ولكن لا بد لنا من ان ندمج ما تحتاج اليه بريطانيا وغيرها من الأمم الحرة التي تقاوم الاعتداء في هذه الخطة التي نعنى بوضعها وتنفيذها

وهذه المسألة ليست مسألة شعور وانفعال أو مسألة نقاش ورأي خاص ، انها مسألة خطة حربية واقعية قائمة على مشورة الخبراء الحربيين المتصلين أوثق اتصال بالحرب الحاضرة . هؤلاء الخبراء العسكريون والبحريون وأعضاء الكونغرس والحكومة ، يحركهم قصد واحد — وهو الدفاع عن الولايات المتحدة الأميركية

ان هذه الأمة تبذل جهداً عظيماً لانتاج كل ما تحتاج اليه في هذه الحالة الطارئة ، وبأسرع ما نستطيع . والجهد العظيم يقتضي تضحية عظيمة . وانني لن أطلب الى أحد أن يدافع عن دمقراطية لا تدافع بدورها عن كل فرد لتحميه من غائلة العوز والحاجة . فقوة هذه الأمة لن توهن بتردد الحكومة في حماية رخاء جميع أبنائها

واذا كانت قدرتنا على الانتاج محدودة بالآلات فلنتذكر ان هذه الآلات لا تدار ولا تتحرك الاَّ ببراعة العمال وصبرهم على المشاق . ولما كانت الحكومة عازمة على حماية حقوق العمال فللامة أن تنتظر من الرجال الذين يحركون الآلات ، النهوض بما تقتضيه حاجة الدفاع الماسة من تبعات واعباء . فللعامل من الكرامة الانسانية ما للمهندس والمدير والمالك ويجب ان يتمتع بالمزايا التي تضمن لهُ أسباب الحياة لأن العمال يولدون الطاقة البشرية التي تصنع المدمرات والدبابات والطائرات

والأمة تنتظر من صناعات الدفاع ان تمضي في عملها بلا توقف ناشىء عن اضراب او اعتصاب . انها تنتظر من اصحاب المصانع والعمال وتصرُّ على ان يسووا ما بينهم من خلاف تسوية وديّة او وفقاً للاساليب القانونية ، لكي يستمروا في انتاج الاسلحة التي تشتدُّ الحاجة اليها

ونحن نبذل من الناحية الاقتصادية لبرنامج الدفاع العظيم كل جهدٍ للمحافظة على استقرار الاسعار جنباً الى جنب مع استقرار نفقات المعيشة

منذ تسعة ايامٍ اذعتُ خبر انشاء هيئة مهمتها توجيه مساعينا الضخمة على طريق التوسع في انتاج الذخائر . ولكن رصد المبالغ الطائلة وانشاء هيئة تنفيذية للاشراف على توجيه تلك المساعي لا يكفيان بحد نفسهما . ان مصانع اميركا يجب ان تصنع مدافع وطائرات وسفناً وهذه لا تصنع الاَّ بايدي العمال والمهندسين وبمساعدة آلات يجب ان يصنعها مئات الألوف من العمال في طول البلاد وعرضها

وفي هذا العمل العظيم كان التعاون بين الحكومة والصناعة والعمال تعاوناً يدعو الى الاعجاب ان العبقرية الأميركية الصناعية التي لا ندَّ لها في العالم في حلّ مشكلات الانتاج قد دُعيت

الى العمل بكل ما تملك من موارد ومواهب . فصانع الساعات وادوات الحراثة ومنضدات الحروف ومسجلات النقود والسيارات وماكينات الخياطة وجزازات العشب والقاطرات تحوَّلت الآن الى صنع الاجهزة الكهربية ورفوف القنابل ومساند التلسكوبات والقنابل والمسدسات والدبابات

ولكن جهدنا هذا ليس بكافٍ فعلينا أن نزيد ما نصنعهُ من السفن والمدافع والطائرات وغيرها وهذا لايتمُّ لنا الاَّ اذا حذفنا من سفر حياتنا الآن عبارة « العمل كالعادة » . فالعمل الذي نريد أن ننهض بهِ لا يتمُّ بمجرد اضافة هذه المنتجات الى المصانع فتصنعها علاوة على انتاجها العادي

ان أعمال الدفاع يجب أن لا يصدها أولئك الذين يخشون عواقب التوسع في مصانعهم لان العواقب الناشئة عن التقصير في توسيع المصانع الآن اعظم خطراً وأجدر بالجزع . وبعد ما قال الرئيس ان حاجات البلاد في المستقبل كفيلة بتشغيل جميع هذه المعامل اذا عولجت مشكلات الانتاج والاستهلاك معالجة صائبة. قال: إنهُ لن يسمح لمن آيتهُ التشاؤم بمستقبل اميركا ان يؤخر المساعي المبذولة للتوسع الحثيث في الصناعات اللازمة للدفاع وانهُ لا يريد ان يدع مجالاً للشك في ان الأمة موطنة العزم على ان تبني بأعظم سرعة مستطاعة كل آلة وكل مصنع تحتاج اليهِ لصناعة الاسلحة والعتاد الحربي . قال : عندنا الرجال وهم يتصفون بالمهارة . والمال متوافر . وعلاوة على هذا كلهِ هذه مشيئتنا . ثم قال : انهُ اذا اقتضت حاجات الدفاع الحدَّ من انتاج المصنوعات الكمالية فلا بدَّ للمصنوعات الكمالية من ان تخلي الطريق للمصنوعات الحربية

يجب علينا ان نصبح الترسانة الكبرى للدمقراطية . وهذه الحالة الطارئة في نظرنا أخطر شأناً من الحرب . فعلينا ان نكبَّ على عملنا بالعزم والتضحية والوطنية كأنَّنا في حرب . وقد بذلنا للبريطانيين عوناً ماديًّا كبيراً وسيكون عوننا لهم في المستقبل اعظم. ولن نسمح لحائل ما بعرقلة عزمنا على عون بريطانيا وليس ثمة دكتاتور او مجموعة من الدكتاتورين تستطيع ان تثنينا عن عزمنا اذا هدَّدت بتفسير هذا العزم على هواها

واني لأعتقد ان دول المحور لن تكسب هذه الحرب وابني اعتقادي على أحدث الانباء وأجدرها بالثقة

ليس هناك عذر واحدٌ يحملنا على الاستسلام الى دعاة الهزيمة بل هناك كل باعث يبعث على الرجاء — رجاء سلام ، ورجاء دفاع عن حضارتنا وانشاء حضارة أفضل منها في المستقبل

ثم ختم : وبصفتي رئيساً للولايات المتحدة الاميركية ادعو الامة لبذل الجهد القومي . ادعوها باسم الأمة التي نتشرف بخدمتها . اني ادعو الشعب وثقتي مطلقة بنجاح قضيتنا المشتركة

١ — الحريات الاربع

في مدى تسعة أيام بين التاسع والعشرين من شهر دسمبر ١٩٤٠ والسادس من شهر يناير ١٩٤١ هزّ الرئيس روزفلت مشاعر العالم مرتين ، بما قاله في خطبتين ستنزلان بين اعظم وأبلغ الخطب التي يحفل بها تاريخ الأمة الأميركية . كانت الخطبة الأولى[1] موجهة الى الأمة فسمعها مائة مليون من الناس في الولايات المتحدة الأميركية وخارجها . وكانت الثانية رسالةً موجهة من الرئيس الى نواب الأمة وشيوخها ، مجتمعين في هيئة مؤتمر ، في دار الكابيتول Capitol التاريخية عند ما استهلّ الكونغرس السابع والسبعون دورته الجديدة . والرسالة مكمّلة للخطبة، تفصّل الثانية ما أُجمل في الأولى ، وتدلُّ على الطرق العملية لتنفيذ القواعد العامة

في كلتا الخطبتين تكلم الرئيس بلسان من لهُ سلطان . وسلطانهُ مستمدٌّ من كونه رجلاً نشأ في بيت غنىً وجاهٍ فمال في حياته السياسية منذ استهلها الى تأييد حقوق « الرجل المنسي » فالعدل الاجتماعيُّ في تركيبه العقلي والخُلقي شهوةٌ غالبة عليه . وسلطانهُ مستمدٌّ كذلك من كونه رئيس دولة عظيمة ، جدّد انتخابهُ لرآستها على رغم التقاليد السياسية المرعية في بلاده، ومن كون الأكثرية في مجلسي النواب والشيوخ أعضاء في الحزب الذي يؤيده

ولكن المسألة التي عالجها الرئيس ليست حزبية محضة . بل هي قومية حقاً . وهذا سرُّ سلطانه الأعظم . ان الرئيس يتكلم بلسان القوم ، ويعرب ببلاغة نادرة ، وصراحة لا مجال فيها للمداورات الدبلوماسية ، عن المشيئة القومية

كان العالم ينتظر رسالة الرئيس هذه ، ليعلم كيف يعالج تنفيذ القواعد العامة التي تضمنتها خطبتهُ من تسعة أيام ، فلم يخب أمل العالم الحرّ المنتظر

في هذه الرسالة وضع الرئيس أولاً ثلاث قواعد لسياسة الولايات المتحدة الأميركية الخارجية:

أولاً — قاعدة الدفاع الكلي عن أميركا

ثانياً — قاعدة تأييدٍ كاملٍ لجميع الشعوب التي تناضل قوى المعتدين

ثالثاً — قاعدة ، ان اعتبارات المصلحة ، والخلق العالي ، تقضي على أميركا بأن تمتنع بتاتاً عن قبول كلّ صلح يمليه المعتدون او يدعو اليه دعاة التهدئة

والمفهوم من تصريحاتٍ وخطبٍ سابقة للرئيس ، ومن مضمون مبدإ مونرو ، ومما يقال عن مفاوضات دائرة مع دول اميركا المتوسطة والجنوبية ، ان الدفاع الكلي المنطوي في القاعدة الأولى يشمل العالم الجديد او نصف الكرة الغربي . والقاعدة الثانية تشمل جميع الشعوب التي تدافع قوى العدوان في أوربا وآسيا وافريقيا على السواء . أما الثالثة فتدلُّ على

(١) في الصفحات الثماني السابقة ملخص واف لهذه الخطبة

ان أميركا لن تنثني مهما يكن التحوُّل الذي يطرأ على سير الحرب، وان تسلم بصلح يمليهِ المعتدون ولا باتفاق يؤيدهُ دعاة التهدئة كاتفاق ميونخ

ثم قال انهُ سيطلب من مجلسي الأمة ، ارصاد مبالغ وفيرة من المال ، لصنع الأسلحة ، ومتى تمَّ صنع الأسلحة ، ترسل الى الدول التي تدافع قوى العدوان . فهذه الدول على قول الرئيس لا تطلب عوناً من الرجال ، ولكنها تطلب عوناً من الأسلحة ، وليس ببعيد ان تعجز عن توفية ثمن هذه الأسلحة فوراً بالدولار ، ففي هذه الحالة ، لا يجوز ولا يعقل ان تقول لها الولايات المتحدة الاميركية ، استسلمي لأنك عاجزةٌ عن توفية ثمن ما تريدين . وحكومة الولايات المتحدة لن تفعل هذا . بل — قال الرئيس — ستمضي في إرسال مقادير متزايدة من السفن والطائرات والمدافع والذخائر اليها . هذا هو عزمنا . وهذا هو عهدنا

ألا يجوز ان تعتبر دولتا المحور عملاً من هذا القبيل عملاً حربيًّا ؟

ان الرئيس ينكر ان لها ان تعتبره كذلك . فهو لا يختلف عمَّا تبتاعهُ احداها أو تغتصبهُ من البلدان التي حواليها . واذا هدَّدت بأنها تعتبرهُ عملاً حربيًّا ، فتهديد الدكتاتورين — قال الرئيس — لن يثنينا عن عزمنا . فلو صحَّت نيَّة الدكتاتورين على مهاجمة الولايات المتحدة الاميركية ، واستقامت لهم الوسائل والأدوات لهذا الهجوم ، فإنهم لن ينتظروا من ناحيتنا عملاً حربيًّا ليتخذوه مسوّغاً لهجومهم . ما هو العمل الحربيُّ الذي عملتهُ هولندا او بلجيكا مما يسوّغ الاعتداء عليهما ذلك الاعتداء الوحشيّ . ان الدول المعتدية لا تُعنى بالقانون الدولي ولا تقيم لهُ وزناً إلاَّ اذا كان خادماً لمطامعها

ولكنَّ الرئيس غيرُ مكتفٍ بتعبئة القوى الدمقراطية ، وتحويل الولايات المتحدة « ترسانة » لها ، لسحق الدكتاتورين فقط ، بل هو يمدُّ نظرهُ الى ما بعد النصر ، فيضع القواعد التي يراها لازمةً للعالم الجديد . وهي قواعد يشترك في قبولها وتأييدها الرؤساء الروحيون كقداسة البابا ، على ما بدا من قداستهِ في اذاعته التي اذاعها في اليوم السابق لعيد الميلاد ، والرؤساء الزمنيون ، الذين تعلموا ان يحترموا تراث الانسانية الكريم ، بعد نضال عنيف خلال القرون . والقواعد التي يقترحها الرئيس يجوز ان تسمَّى « الحريات الأربع » ، وهي حرية الرأي والقول . وحرية العقيدة والعبادة . والحرية او التحرر من العوز . والحرية او التحرر من الخوف . في هذه الحريات الأربع اركان العالم الجديد ، من نواحيهِ الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولتحقيقها لا بدَّ على قول الرئيس ، من النصر الكامل

واكبر الرجاء ان يقرُب هذا النصر ، بفعل الموقف الحاسم الذي وقفتهُ الولايات المتحدة الاميركية ، لكي يتاح لرئيسها العظيم الاشتراك الفعَّال في عمل البناء الذي يليهِ

[٧ يناير ١٩٤١]

٢ — تايلاند او سيام

حفلت الأنباء البرقية في الأيام الأخيرة بأخبار قتال دائر بين تايلاند (سيام) والهند الصينية الفرنسية . ولكن الغرض من هذا الفصل ليس وصف بواعث هذا القتال القريبة والبعيدة وصلته بسير الحرب الاوربية وموقف اميركا واليابان في الشرق الأقصى بل غرضه وصف تايلاند ونظام الحكم والاجتماع فيها وصفاً موجزاً

تقع تايلاند في الجنوب الشرقي من قارة آسيا ، بورما الى شمالها الغربي وغربها والهند الصينية الفرنسية الى شمالها الشرقي وشرقها وخليج تايلاند الى جنوبها وشرقها. وهي بلاد كثيفة الحراج غنية بالمعادن اهم محصولاتها الزراعية الرز وهو عماد طعام اهلها مساحتها ٢٠٠ الف ميل مربع وسكانها نحو خمسة عشر مليوناً وعاصمتها بانكوك

في هذه البلاد من المتناقضات السياسية والاجتماعية ما يحير. رئيس الدولة فيها ملك لا يزال دون سن الرشد وحكامها جماعة من اصحاب الآراء المتطرفة في التنظيم الاجتماعي بينما الشعب اكثره من الفلاحين . واذا استثنينا جانباً من الصين لا يزال مستقلاً بعد غزوة اليابان فهي الدولة الأسيوية الوحيدة التي احتفظت باستقلالها فلم تمن للاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر

في هذه البلاد ١٧٤٠٨ هيا كل بوذية وطبقة من الكهنة تعد ١٥٠ الفاً والحيوان المقدس فيها هو الفيل الأبيض. وقد بقيت سيام الى سنة ١٩٣٢ دولة ملكية مطلقة والأسرة الحاكمة فيها أسرة «شاكري» ولم يكن لها دستور ولا نظام قضائي ولا مجلس تشريعي . ومع ان سلطة الملك كانت مطلقة الا ان ملكها كان معتدلاً في ممارسة سلطته . ولكن طبقة من الشعب كانت قد اتصلت بأفكار الغرب في الحكم والاجتماع فطالبت باصلاح واسع النطاق في نظام الحكم وفي شهر يونيو من سنة ١٩٣٢ حدث فيها انقلاب لم تصحبه اراقة دماء اذا استثنينا قائداً واحداً جرح في فخذه . وقبل الملك العبرة المستخرجة من حوادث الانقلاب وأذعن للانذار الذي وجهه اليه الثوار فلم يكن ثمة حاجة الى اعلان الحكم العرفي . فاعتذر الثوار الى الملك عما نسبوه اليه في انذارهم وأعدوا دستوراً مؤقتاً تبعه آخر . وكانت الحركة موجهة على الغالب الى طبقة كبيرة من الأمراء والاشراف كانت محتكرة السلطان السياسي والمزايا الاقتصادية

وكذلك اسفرت الحركة عن تغيير نظام الحكم بغير ان يثل عرش الملك او يراق دم واحد من الأمراء . وكان الثوار طبقة من الضباط والطلاب اخذوا بآراء احزاب اليسار في اوربا وكأنهم قرأوا تروتسكي وغيره من ثوار العصر الحديث فلم تقع معارك في الشوارع . بل استولى الثوار على دار التلفونات وسكك الحديد ومحطات توليد الطاقة الكهربائية فكان ذلك ايذاناً باستيلائهم على مقاليد السلطة . ثم انشقوا فريقين فتولى رآسة الوزارة ضابط كبير برتبة كولونيل

يكتب اسمه — فيافاهول فولفيوهاسينا — و يلفظ « باهون » ! ثم حاول فريق من الامراء والنبلاء تنظيم ثورة على الثوار لاسترداد الحكم فأخفق مسعاهم وقبض على بعضهم وحوكم وحكم عليه بالاعدام

وفي خلال ذلك كان الملك قد رحل الى اوربا لمعالجة عينيه وبدا منه ما يشير الى انصرافه عن الرغبة في العودة الى بلاده مع ان الحكومة على ما يقال لم تمس منصبه في الدستور الجديد ووعدت بالمحافظة على الولاء له اذا اقسم يمين الولاء للدستور . ولكن الازمة بينه وبين الحكومة بلغت اشدها في سنة ١٩٣٥ اذ طلبت منهُ الحكومة الموافقة على امر اعدام بعض الامراء الثوار فابى وكان في لندن حينئذ فأرسل الى الحكومة رفضه ونزوله عن العرش بالبريد . الا ان الثوار اعدموا على الطريقة السيامية التايلاندية أي اسدل ستار أمام الثوار حتى لا يعرفهم الجنود الذين يطلقون الرصاص عليهم . فخلف الملك النازل عن العرش ابن أخيه المولود سنة ١٩٢٥ وهو يبلغ سن الرشد في هذه السنة (وهي عندهم ١٦ سنة) ويحتفل بتوليته احتفالاً فخماً

ويروي جون جنثر الصحافي الاميركي في مجلة الشؤون الخارجية ان الملك السيامي شولالونجكورن حكم البلاد من سنة ١٨٦٨ الى ١٩١٠ وكان ملكاً نيراً فمدت في البلاد السكك الحديد في عهده وانشئت مكاتب البريد والبرق وعقدت معاهدات مع الدول الاجنبية ومن أغرب ما يؤثر عنه ان كان له اربع وثمانون زوجة و٣٦٢ ولداً وابنة منهنَّ

وفي دليل سيام الحديث — على ما يقول جنثر — تسع صفحات حافلة بأسماء أولاده الذكور الذين على قيد الحياة الآن وهم خمس وعشرون طائفة أو أسرة والظن انهم أولاده من زوجاته الخمس والعشرين المقدمات على غيرهنَّ . ولو كان جميع ملوك سيام في خصب هذا الملك لأصبحت طبقة الأمراء غالبة على البلاد ولذلك اخترع السياسيون أسلوباً يتحول به الأمراء وسلالتهم جيلاً بعد جيل الى العامة فابن الملك صاحب السمو الملكي وابنهُ صاحب السمو المحترم وابنه لورد وابنهُ مستر — او ما يقابل هذه الألقاب من ألفاظ

ولم يكتفوا بهذا لذلك فرضوا على ملوكهم التزوج بواحدة

وخلف هذا الملك بكره من زوجه الاولى فكان رجلاً غريب الاطوار تجتمع فيه صفات متناقضة . كان مقامراً مسرفاً وشاعراً ترجم شكسبير الى السيامية والف مسرحيات ومثل فيها . وكان يجب ان يخلفه اخوه من ابيه ومن زوجة اخرى وكان يدعى ماهيدول ولكن ماهيدول كان في شغل بالطب عن الملك فتعلم الطب في جامعة جونز هبكنز الاميركية وتزوج فتاة سيامية كانت ممرضة في مستشفى هناك وفتح عيادة واشتهر طبيباً فانتقل الملك الى اخيه الذي تنازل عن العرش برسالة بريد ! وقد اصدرت الحكومة امراً في السنة الماضية بتغيير اسم البلاد من سيام الى تايلاند ومعناها « بلاد الاحرار » [١٤ يناير ١٩٤١]

٣ — طيران القاذفات الاميركية

لو كان الزمان زمان سلام وقيل لنا ان طياراً أفطر في نيويورك وشرب الشاي في لندن لفمنا وقمدنا اعجاباً بمن صنع الطائرة واكباراً لهمة الطيار واهتماماً بما يحتمل ان تسفر عنهُ هذه الرحلة من تنظيم السفر الجوي فوق المحيط الأطلسي. فاننا مافتئنا نذكر برون والكوك ولندبرج وبرد وتشمبرلن وجاني وبوست وغيرهم ممن طاروا من اميركا الى أوربا وكيف كان نجاح كل منهم علماً منصوباً على طريق الاتصال الجوي المرموق بين العالمين القديم والجديد

على ان رحلة الطيار الذي أفطر في نيويورك وشرب الشاي في لندن ليست رحلة مستقلة ولا فذة في هذه الأيام. لأن لورد بيفر بروك وزير انتاج الطائرات في بريطانيا والسر ارشيبولد سنكاير وزير الطيران فيها وغيرهما من الثقات في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية أطلعونا على ان القاذفات التي تبتاعها بريطانيا من الولايات المتحدة تصل تباعاً طائرة من العالم الجديد الى بريطانيا فلا تستغرق رحلتها عبر المحيط الا عشر ساعات الى اثنتي عشرة ساعة على الأكثر. وهذا عمل عظيم الشأن من ناحية مستقبل الطيران التجاري وربط القارات بعضها ببعض. وهو نتيجة منطقية لرحلات الطيارين المقاديم الذين شقوا الطريق بعد الحرب العالمية الأولى ومهدوه باقدامهم وجرأتهم وما استخرج من رحلاتهم من الحقائق والعبر

وما زلنا نذكر كيف اقترح ارمسترونج المهندس الأميركي من سنوات انشاء مطارات طافية في المحيط لتكون قواعد تنزل فيها الطائرات للتمون بالوقود فتقطع المحيط في مراحل وينتظم السفر الجوي على هذا المنوال. ولكن مطارات ارمسترونج الطافية غدت خبراً من أخبار تاريخ الطيران الآن لأن التقدم الفني في صنع القاذفات بعيدة المدى بحكم الحاجة الحربية، جعل سفر هذه القاذفات الضخمة من أميركا الى أوربا عملاً منتظماً. وليست هذه المرة الأولى التي تكون الحربُ فيها حافزاً لاتقان المخترعات. وأطرزة الطائرات الأميركية التي تقطع هذه الشقة الواسعة من الماء أربعة على ما يعلم الآن وجميعها تقطعها على أهون سبيل

ولا يخفى ان فصل الشتاء في شمال المحيط الأطلسي ليس خير الفصول لاجتيازه طيراناً. ومعظم الرحلات الجوية عبر المحيط الأطلسي التي استوقفت النظر في خلال العشرين السنة الماضية كانت تتم في الربيع او في الصيف عندما يكون الجو أميل الى الاستقرار والنهار أطول فيستفيد الطيار من طول مدى النهار. ومن نحو سنتين جرب رجال شركة أميركية كبيرة للمواصلات الجوية (Pan American) تجارب شتى فأسفرت عن قولهم ان انتظام السفر الجوي فوق الجانب الشمالي من المحيط الأطلسي في أثناء الشتاء متعذر

ولكن ما كان متعذراً في عرفهم من سنتين أصبح عملاً منتظماً الآن. وليس في وسع الباحث

ان يبالغ مهما يقل في قيمة هذا الانتظام من الناحية العمرانية

إلا اننا في غمار حرب للقوة الجوية فيها اعظم نصيب . ولاريب في ان انتظام وصول القاذفات الأميركية الى بريطانيا طائرة سيكون له اعظم تأثير في تفوق سلاح الطيران البريطاني واعداده للهجوم الكبير المنتظر . وقد قال السر ارشيبولد سنكلير في الخطبة التي القاها من يومين أن ما يصل الآن ليس الا قليلاً من كثير . وما نعرفه عن تأهب الصناعة الاميركية لانتاج الطائرات إنتاجاً واسع النطاق يؤيد هذا القول اذا صرفنا النظر عن منزلة صاحبه الرسمية

ان أعظم ماتتوق اليهِ قيادة سلاح الطيران الالماني ومن ورائها حكومة الريخ هو تعطيل مصانع الحرب في بريطانيا واغراق السفن التي تنقل اليها من الخارج ماتحتاج اليهِ من خامات صناعية وحربية وأسلحة وعتاد وطعام. ولكن اذا فضلت تدمير أو تعطيل شيء على آخر فانها تفضل أن تدمر أو تعطل المصانع التي تصنع الطائرات في بريطانيا، والسفن التي تقل الطائرات من كندا وأميركا وغيرها . وأسباب هذا التفضيل لاتخفى . أما وقد حلت مشكلة نقل القاذفات الأميركية الى بريطانيا طائرة فان هذا ظفر عظيم لسلاح الطيران البريطاني وخليق بان يمكن سلاح الطيران البريطاني من التفوق العددي في مدة أقصر من المدة التي كان يظن انهُ لابدَّ منها

ثمَّ ان نقل الطائرات طائرة من أميركا الى بريطانيا يوفر مساحات كبيرة كان لا بدَّ ان تشغلها في السفن التي تقلها فتحوَّل الى نقل مواد وأسلحة أخرى لابدَّ من نقلها بحراً . ويوفر كذلك العناية التي لابدَّ منها لحراستها وهي في البحر فتوجه الى حراسة واردات أخرى. ويعجل النقل لأن هذه الطائرات تصل الى بريطانيا في عشر ساعات الى اثنتي عشرة ساعة بينما القوافل البحرية عاجزة على الغالب عن اجتياز شمال المحيط والوصول الى الثغور البريطانية في أقل من عشرة أيام والغالب ان مدى الرحلة أطول . فاذا أضفنا الى كل ما تقدم ان المصانع الكندية والاميركية ستتسع نطاق انتاجها اتساعاً عظيماً في خلال هذه السنة الاميركية وان جميع هذه المصانع بعيدة عن مرمى القاذفات الالمانية علمنا ان نبأ طيران هذه القاذفات من أميركا الى أوربا ينطوي على معنيين كبيري الشأن أحدهما ذو صلة بمستقبل المواصلات الجوية من الناحية العمرانية والآخر بسير الحرب من ناحية تعزيز سلاح الطيران البريطاني [١٩ يناير ١٩٤١]

٤ — التنسيق والمفاجأة في شمال افريقية

اذا صرفنا النظر عن الظفر الباهر الذي أحرزه « جيش النيل » منذ بدأ هجومه في الصحراء الغربية في ٩ دسمبر الماضي ، الى القواعد الفنية التي مهدت لهُ هذا الظفر تبينا ان معارك سيدي براني والبردية وطبرق ستنزل في اسفار الفنون العسكرية نماذج يتدارسها الطلاب العسكريون في المستقبل لانها اتم مثال — واذا استثنينا الجلاء عن دنكرك فهي أول مثال — على التنسيق التام

بين ثلاثة اسلحة مختلفة في طبيعتها وفي الوسط الذي تتحرك فيه ونعني الجيش على البر وسلاح الطيران في الجو والأسطول في البحر . واذا أضفنا الى ذلك ان القيادة البريطانية تمكنت في المعارك الثلاث من تطبيق مبدأ المفاجأة وان تنظيم الأعمال الحربية في مكان من الصحراء يبعد اكثر من مائتي ميل عن اقرب محطة سكة حديد كان آية في بابه علمنا ، ان النقاد العسكريين لا يسعهم الا الثناء والاطناب فيه

ويؤيد هذا الرأي ان ناقداً عسكريّاً المانيّاً نشر في صحيفة فنية المانية يوم بدء الهجوم على سيدي براني مقالاً ينكر فيه ان في وسع احد الفريقين في الصحراء الغربية مفاجأة الآخر لان انبساط الرمال الشاسعة يجعل كل حركة يقوم بها جيش احد الفريقين مكشوفة للآخر . ومن أيام اذيع من المانيا ان موقف «جيش النيل» امام طبرق سيكون مختلفاً كل الاختلاف عن موقفه امام البردية لأن طول خطوط مواصلاته في صحراء تجتاحها زوابع الهبوب يعقد اعمال التأهب الحربي اعظم تعقيد . اما وقد استطاعت القيادة البريطانية ان تحقق مفاجأة القوات الايطالية في المعارك الثلاث وان تتغلب على مصاعب النقل في الصحراء وان تنسق عمل الاسلحة الثلاثة تنسيقاً دقيقاً كاجزاء الساعة وان تأسر مائة الف من الاسرى وتغنم مقادير لا تحصى من الاسلحة والذخائر بغير ان يبلغ عدد اصاباتها اكثر من الفين، ان بلغهما ، فلا ريب في ان هذا شهادة عملية بعبقرية عسكرية من الطبقة الاولى

كان سلاح الطيران يتولى قذف المواقع المحصنة قبل بدء الهجوم عليها وكان يخص بعنايته طارات الاعداء فيحطم طائراتها الجاثمة على الارض ويشعل النار في مستودعات الوقود والمباني والحظائر ويخدد الارض ويحدث فيها الحفر الكبيرة حتى يصبح نزول الطائرات عليها اوطيرانها منها محفوفاً بالخطر، اذ لا بد لهذه الطائرات من ان تعدو على سطح الارض مئات من الامتار قبل التحليق في الجو أو قبل الوقوف . فاذا اعترضتها حفرة كبيرة أو اخدود واسع فانها تتعرض للانقلاب فتعطب او تدمر

وهذا العمل تتولاه القاذفات. وفي الوقت نفسه تتولى المطاردات حراسة الجو لتمنع قاذفات الاعداء من التقدم نحو الجيش الذي تحميه . وعليها كذلك أن تحمي قوافل الجيش — القوافل السائرة من البردية الى طبرق — من فعل قاذفات الاعداء . وعمل القاذفات الذي تقدم ذكره يسهل على المطاردات النهوض بمهمتها لأن تدمير طائرات الاعداء ومطاراتها واشعال النار في مستودعات وقودها يضعف قدرتها على مناوأة الجيش الزاحف

ثم اذا بدأ الهجوم اشتركت القاذفات في القاء القنابل على المواقع المهاجمة مع مدافع الاسطول الضخمة ومدفعية الجيش فتحس الحامية ان الجحيم انفتحت أبوابه من كل جانب وهذا وحده كفيل

باضعاف قدرتها على المقاومة . وفي أثناء ذلك تعمل المطاردات على حماية الجيش الزاحف على المواقع المحصنة من قاذفات الاعداء اذا حاولت مساعدة الحامية باطلاق الرشاشات وقذف القنابل عليه

فالتنسيق في ما يتعلق بسلاح الطيران يشمل التعاون بين القاذفات والمطاردات في مرحلتين مرحلة التمهيد للهجوم ومرحلة الهجوم نفسه ثم يشمل التعاون بين سلاح الطيران والجيش من ناحية الاستطلاع. وهناك طائرات خاصة مهمتها استكشاف الجهة التي يحتمل أن يصل منها مدد الى الحامية المحصورة أو الموقع المحصن . ويشمل كذلك الاشتراك مع الاسطول ومدفعية الجيش في قذف القنابل تمهيداً للهجوم النهائي وهو في مرحلته الاولى

أما التنسيق في عمل الجيش فيجب أن يكون اولاً بين اجزائه المختلفة . ففي البردية وطبرق مثلاً تمَّ هذا التنسيق على الوجه التالي : تظاهرت فصائل من جيش النيل في البردية بما أوهم الايطاليين أن الهجوم الكبير سيكون من الجنوب الشرقي فجاء عند ماجاء من الجنوب الغربي فتوزعت قوى الحامية بين القوات المحشودة في الجنوب الشرقي والقوات المهاجمة في الجنوب الغربي . وهذا عنصر المفاجأة . وقد اتبعت الخطة نفسها — بعد تعديل يسير فيها — عند الهجوم على طبرق . فقد أوهمت القيادة البريطانية الحامية الايطالية أن الهجوم سيجيء من ناحية ثم من أخرى ثم عند ما بدأ بدأ هجوماً عامًّا ولكنه كان في الواقع مركزاً من ناحية الجنوب الشرقي فتحقق عنصر المفاجأة هنا كذلك . أما في معركة سيدي براني فقد كانت العمدة في المفاجأة على زحف الفصائل في الليل واستكنانها منبطحة على الارض في النهار السابق للهجوم ثم مفاجأتها النبوة ووصولها الى البحرغرب سيدي براني . وقبل ان تفيق القوات الايطالية في سيدي براني من ذهول المفاجأة الاولى كانت القوات البريطانية تهاجمها من الشرق والجنوب وتقطع عليها خط الرجعة من الغرب

ثم عندما يبدأ الهجوم في نقطة معينة تتقدم فصائل من سلاح المهندسين — كما حدث في البردية وطبرق — لقطع الاسلاك الشائكة ، وتتبعها الدبابات وفصائل المشاة في أثرها

أما معاونة الأسطول فتشمل حراسة السواحل وتخفيف حركة النقل عن الطريق الساحلي الوحيد الصالح للنقل الحربي بحمل بعض ما يحتاج اليه الجيش الزاحف مرحلة مرحلة ، واجلاء الاسرى حتى لا تغصَّ الطريق بالقوافل الراجعة ، ثم يتلو ذلك الاشتراك مع القاذفات ومدفعية الجيش في اطلاق القنابل الضخمة على الموقع المحصن

فتنظيم هذه الاعمال وتنسيقها حتى لا يقع تقدم او تأخر وبحيث يكون تأثير تعاونها على أشده في أنسب الاوقات عمل من الطبقة الاولى من الوجهة العسكرية المجردة

[٢٤ يناير ١٩٤١]

هدية المقتطف

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور

— الجزء الثاني —



نقلها الى العربية : كامل محمود حبيب

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ٣٥ —

ها هو ذا الناي ملقى على الثرى
والنسمات يبدو عليها الضنى ، على حين يحتضر الضوء
فآه يا يوم السوء !
تعالوا ، أيها الجند ، و بنودكم ترفرف . وأنتم ، أيها المغنون، تعالوا في أغاني الحرب
و تعالوا ، أيها الحجيج ، خبباً على النهج
فالناي ملقى على الثرى ينتظرنا

* * *

لقد كنتُ في سبيلي إلى المعبد و بين يديَّ هدايا المساء، أبحث عن مراحٍ بعد ما اكدّني عمل يومي المضني ، وإن الأمل ليحدثني أن كلوم نفسي ستلتئم ، وأن لطخات في ثوبي ستنفسل . . . كنت كذلك حين ألفيت نايك ملقى على الثرى
فهل لم يأن لي أن أشعل مصباحي

* * *

أفلم يهدهد الليل نجوم السماء بأغانيه ؟
وأنت أيتها الوردة الحمراء ، إن أزهار الخشخاش المنيمة قد ذبلت وتداعت
وكنت أنا على يقين من أن رحلتي قد تمت ، وأن ديوني قد وفيت ، وعلى حين فجأة عثرت على نايك ملقى على الثرى

* * *

هُزَّ قلبي الوسنان بنغمات من شبابك
ودعْ مرحي في الحياة يتألق كالنار
ودع هبَّات اليقظة تنطلق خلال الظلماء ، ودع خفقات الهلع تنفض العمى والخبل
فلقد أقبلتُ لأرفع نايك من على الثرى

لن يستطيع الكرى أن يسيطر عليّ بعدُ ، وستكون جولتي تحت وابل من سهام
وإن بعضاً من الناس سيتدافعون من بيوتهم ليجدوا الأمان إلى جانبي . . . وبعضاً سيذرفون العبرات
وبعضاً يظلون على فُرُشهم تتقاذفهم الأحلام المفزعة فيئنون
هذا لأن نايك سيرسل صيحته الليلة

* * *

منك وحدك سألتُ الأمان خشية أن أحس الخجل
والآن وقفت أمامك . . . فامنحني القوة لألبس دروعي
ودع الصدمات العنيفة تشعل في حياتي النار
واجعل قلبي — طبل نصرك — يدق في ألم
فيداي ستنفضان عنهما كل شيء لتحنوا على نايك

— ٣٦ —

يا أيها الجمال ، إن جنون المرح تركهم يعبثون بالثرى فيدنسون به مرطك ، فيبعث هذا في قلبي الأسى
فأناديك « خذ عصا عقابك وهذّب من أخلاقهم »
فينطلق نور الصباح يصدم أعينهم . . . أعينهم الحمر من آثار ملاذ الليل ، وإنّ وطن الزهرة البيضاء ليحيي أنفاسهم المحترقة ، وإن النجوم تخترق الظلام المقدس لتحدّق في مجلس شرابهم اللجب . . . أولئك مَنْ يعبثون بالثرى فيدنسون مرطك ، أيها الجمال !
إن كرسي عدالتك كان في بستان الازهار ، في أغاني الطير عند الربيع ، على الشاطىء الظليل حيث حفيف الاشجار يجاوب همسات الموج
فيا من أحب ، لقد كانت قلوبهم قاسية
وكانوا يتلصصون في الغسق ليسلبوا حلاك ويزينوا رغباتهم
وحين صدموك فتألمت ، تأذيتُ أنا ثم صحتُ أناديك « خذ سيفك ، يا من أحب ، وأدّبهم ! »

آه ، ولكن عدلك كان يقظاً

فقد كانت عبرات الألم تتدفق أسىً على سفاتهم، وانبعث الحب الأبدي من قلبٍ حبيبٍ فضمَّ سهام الثورة الى جراحه هو

وبدا عدلك في الألم الصامت المتأرج من هوى يقظ ، في الخجل الطاهر ، في العبرات المتهطلة في وحدة الليل ، في ضوء الصباح الباهت السمح

* * *

يا منتقم ، لقد صوّر لهم الفهم الطائش أن يتسوروا دارك ، فدخلوا الى خازنك ليسرقوا غير أن ثقل ما حملوا كان عظيماً ... عظيماً ينوء بمن يحاول أن يحمل أو يحرك

وهنا ناديتك . أن اعفُ عنهم ، يا منتقم !

فانفجر عفوك عاصفة تقذف بهم من عَلٍ ، وتناثر ما سرقوا في التراب

وكان عفوك صاعقة ، وسيلاً من دم ، وكان هو الغضب الأحمر الذي يلوح في الشفق عند الغروب

—٣٧—

على الثرى ، لدى أسوار مدينة ماتورا ، نام يوبا جوبتا ، تلميذ بوذا

لقد كانت المصابيح خامدة ، والأبواب مغلقة ، والأنجم متوارية خلف سماء اغسطس المتجهمة

فليت شعري ، اقدام مَنْ تلك التي انبعثت منها رنات الخلاخيل فمست قلبه على حين فجأة

ففزع عن مرقده ، وانطلق شعاع من مصباح المرأة فتألق في عينيه البريئتين

لقد كانت هي الراقصة تتأنق في حَلْيها ، وقد ضمها مرط أصفر باهت ، على حين أسكرتها نشوة الشباب

* * *

ووضعت الفتاة مصباحها لترى هذا الوجه الغض الجميل



ثم قالت «لا تلمني أيها العابد ، بل تعال الى داري ، فهذا الثرى فراش لمن هو دونك »

فأجابها العابد «انطلقي،أيتها المرأة ، الى غايتك،وسيأتي يوم أذهب فيه اليك»

* * *

وعلى حين بغتة كشر الليل عن نابه في مثل ومضات البرق

وصلصلت الصاعقة من جانبي السماء ، فانتفضت المرأة من ذعر

* * *

لقد كانت الأشجار على حيد الطريق تضع أزهارها

ونغمات الناي الشجية تسبح مقبلة على نسمات الربيع الدافئة

والجمع ينطلق الى الغابة ... الى مهرجان الزهور

ومن كبد السماء يطل البدر على شبح المدينة الصامتة

... حين كان الراهب الصغير يدلف على الطريق الخالي ، ومن فوق الحب المتدله شجرات الكويل تنتزع من أغصان المانجو أنينها اليقظ

واخترق يوبا جوبتا باب المدينة ووقف بازاء السور

من عسى أن تكون تلك المرأة الملقاة في ظلال السور عند قدميه،وقد ضربها الطاعون فشاعت القرحات في جسمها ... فقذف بها الى خارج المدينة

* * *

لقد جلس الراهب اليها ، ووضع رأسها على ركبتيه ، وبلل شفتيها بالماء ، ودهن جسمها بالبلسان

فسألته « من عسى ان تكون ، ياسيدي ؟ »

فأجابها الراهب الشاب « وأخيراً ، آن لي أن أزورك ، فها أنذا ! »

— ٣٨ —

يا من أحب ، إن هوانا لا تشوبه الدعابة

فلطالما هبطت عليّ عواصف الليل الزفزافة فاطفأت مصباحي، ولطالما تراكمت الشكوك السود فمسحت نجوم سمائي

ولطالما تفجرت الشواطيء لتذر الفيضان يجرف محصولي فيشيع الأسى واليأس في جنبات سمائي

لهذا فأنا عرفت أن صفعات من الألم تنفخ الحياة في حبك لتنزع عنهُ فتور الموت

— ٣٩ —

لقد تصدع الحائط فنفذ النور كأنهُ البسمة الالهية

فيا للنصر، أيها النور!

إن طعنة نفذت في قلب الليل!

فاقصم بضربة من سيفك اللامع ... اقصم الشك العميق والرغبات الواهية

ايها النصر!

وتعال، أيها الثائر!

تعال، يا من تبعث الفزع من لمعاتك

إن دقات طبلك، أيها النور، تنبعث من خطوات النار، وإن الشعلة الحمراء ما تبرح في السماء، وإن الموت ليفنى في تفجرات من جلال

— ٤٠ —

أيتها النار، إنني أغني لك نشيد النصر، يا أختي

فأنت رمز الحرية الخفيقة ... رمزها الأحمر اللامع

وانت تنشرين ذراعيك في السماء وترسلين أصابعك المضطربة بين وتر القيثار، فترتفع موسيقا الرقص الشجية

* * *

وحين تنطوي أيامي وتفتح الأبواب، فستحرقين تلك الأيدي والأقدام ... تحرقينها فتحور رماداً

ان جسمي سيفنى فيك، وإن قلبي سينتشط في أحبولة حماقتك، والحرارة المتقدة التي كانت في حياتي ستتألق حيناً ثم تغتمر في لهيبك

— ٤١ —

لقد انطلق الملاّح ليلاً إلى عرض البحر الهائج
فتصدّع دَقَلُهُ لأن شراعه كان قد غصَّ بالرياح الهوج
وتساقطت السماء على البحر كسفاً . تتأذى من أنياب الليل ، وسموم الخوف الأسود تسري في عروقها
والأمواج ترفع رؤسها لتلطم الظلام الخفي ، والملاّح ينطلق إلى عرض البحر الهائج

* * *

لقد انطلق الملاّح ـ ولست أدري إلى أي غاية ـ غير أن شراعه الأبيض راح ـ على حين فجأة ـ يفزع الليل
ولست أدري لدى اي شاطىء يلقي مرساه ليبلغ فناء السكون ، حيث المصباح يشتعل ... حيث يجدها ... هي التي تجلس على الثرى تنتظر

* * *

أي شيء دفع زورقه لا يخشى العاصفة ولا الظلماء ؟
أفيطلب الحلى والجواهر ؟
آه ، لا ، إن الملاّح لم يعد وبين يديه كنز ، بل وردة بيضاء ، وعلى شفتيه أغنية . كل هذا في سبيلها ... هي التي تنتظر وحدها في الظلام وبجانبها مصباحها يشتعل
إنها تسكن كوخاً على حيد الطريق
وشعرها المبعثر يضطرب بين يدي النسيم فيواري عينيها
والعاصفة تصفر خلال بابها المتكسر ، فيخفق ضوء مصباحها الأرضي فيرسم اشباحاً على الحيطان ومن بين هزيز الريح سمعته ينادي اسمها ... اسمها الذي لا يعرفه أحد

* * *

لقد مضى زمان منذ أبحر الملاّح
وسينقضي زمان طويل قبل أن يتحطم عامود الليل ويطرق هو الباب
إن الطبول لن تدق ولهذا فلن يتكشف الأمر لأحد
غير أن النور سيملأ الدار وستنتشر البركات على الأرض ، وسيبدو القلب مرحاً وستنجلي غياهب الريبة حين يعود الملاّح الى الشاطىء

- ٤٢ -

لقد صحبت هذا الحطام الحي - جسمي - في هذا الطريق الضيق - عمري الأرضي - ثم أتركه حين ينتهي الشوط

وإذن ؟

لست أدري ، لعلّ النور والظلماء يتشابهان هناك

* * *

إن الغيب هو الحرية الأبدية
فهو لا يستشعر الرأفة في حبه
لأنهُ يحطم الصدفة ليجد الجوهر ... الجوهر الثاوي في دجى سجنه

* * *

يا لقلبي المسكين ! إن خواطرك وعبراتك تندفعان إثر الماضي !
كن طروباً فالأيام آتية
والساعة تدق : أيها النازح
لقد آن لك أن تبرح على هذا الطريق
وستلقى وجهه مرة أخرى ... وسيتراءى أمامك غير منتقب

— ٤٣ —

على أطلال معبد الإله بوذا بنى الملك بيمبزار معبداً من الرخام الأبيض كانت تفد اليه — عندكل مساء — جميع عرائس بيت الملك وفتياته ليقدمنَ قرابين الزهور وليشعلنَ المصابيح

* * *

وحين اعتلى الابن عرش الملك راح يمسح على عقائد أبيه بسيل من الدم ، وأشعل النار المقدسة بالكتب المقدسة

* * *

لقد كان يوم من أيام الخريف يحتضر
على حين تدنو صلاة المساء

فأخذت شرعماتي ، وصيفة الملكة ، التي نذرت نفسها للاله بوذا ... أخذت تصوّب الى وجه الملكة عينين دعجاوين في صمت ، بعد إذ غمرت نفسها في الماء المقدس ، وبعد إذ صففت المصابيح والزهور البيض على صينية من ذهب

* * *

فاضطربت الملكة من خوف وقالت « أفلا تعلمين ، أيتها الفتاة الصغيرة ، أن الموت هو عقاب من يسعى الى معبد بوذا لأداء الصلاة ؟

« إنها مشيئة الملك ! »

* * *

فانحنت شرعماتي للملكة ثم انثنت عن بابها لتقف أمام أميتا ، عرس ابن الملك وهي تضفر خصلات من الشعر الأسود السبط وعلى فخذيها مرآة من الذهب الصقيل ، وترسم نقطة الخط الحمراء عند مفرق شعرها

فارتعدت لما رأت الفتاة وصاحت «أي خطر مروع تدفعينني اليه؟ذريني حالاً !»

* * *

وكانت الأميرة شوكلا عند نافذتها جالسة تقرأ قصة على نور الشمس الغاربة

ففزعت حين رأت الفتاة لدى بابها تحمل القرابين المقدسة

فسقط الكتاب من يديها ، وهمست في أذن شرعماتي « لا تقذفي بنفسك بين براثن الموت ، أيتها المرأة المغامرة »

* * *

وانطلقت شرعماتي من باب الى باب

ثم رفعت رأسها ونادت « يا نساء بيت الملك ، أسرعنَ ! »

« إن ساعة الصلاة قد أزفت »

فأغلق بعضهنَّ من دونها الأبواب ، ورجمها البعض بالسباب

ثم انحسر آخر شعاع من أشعة النهار عن القبة البرنزية في أعلى برج القصر

وانتثرت الأشباح المظلمة في ثنايا الطريق ، وماتت حركة المدينة ، وتسامت أصوات النواقيس من معبد شيفا تعلن عن صلاة المساء

* * *

وفي ظلام ليلة من ليالي الخريف . . . ظلام عميق كأنهُ البحيرة العميقة . . .

والنور يختلج في أضعاف النجوم ... حينذاك أخذ حراس حديقة القصر يستشفون من خلال الأشجار أضواء مصابيح تتألق في معبد بوذا

فتدافعوا يصيحون وسيوفهم مسلولة « من أنتَ أيها الأحمق ، يا من قذفت بنفسك الى هوة الموت ؟ »

* * *

فأجابهم صوت عذب رقيق يقول « إنهُ أنا شريماني ، خادم الإله بوذا »

وفي لحظة واحدة كان رخام الهيكل البارد قد اصطبغ بدم قلبها الأحمر

وفي ساعة من صمت النجوم ، مات — عند قدمي الهيكل — الشعاع الأخير من قبس العبادة

— ٤٤ —

إن اليوم الذي يحول بينك وبيني قد حي تحية الوداع

لقد سحب الليل على وجهه قناعاً ، وتوارت الشعلة التي تضطرم في حجرتي

* * *

إن عبدك الأسود دالف الينا في هدوء ، ونشر لك ملاءة العرس لتجلس هناك في عالم السكون ، الى جانبي حتى تنجلي الظلماء

— ٤٥ —

لقد تصرَّم ليلي وأنا على فراش من هموم ، وان الضنا ليشيع في عينيَّ ، وان قلبي المكدود لا يجد القوة على أن يستقبل أفراح الصباح المركومة

* * *

فاسحب نقاباً على هذا النور العاري ونَحِّ هذا الضياء الساطع وبهرج الحياة

ودع عباءتك — عباءة الظلام الرفيق — تلفني بين طياتها ، وتحول بين آلامي وبين مضطرب الحياة

— ٤٦ —

حين وجدتُ القدرة على أن أجازيها عن كل ما حبتني به ، كانت الفرصة قد وات

وكان ليلها قد وجد صباحه ، فأخذتها أنت بين ذراعيك : فأقبلتُ أقدم لك ثنائي وهداياي ، وهي كانت لها هي

وأتيت أطلب منك الغفران عن كل ما أصابها من سوء وخطأ

وأقدم لك زهرات حبي ، اللاتي ظللنَ في أكمامهن عمراً ، كانت تنتظر هي فيه ساعة تفتحهن

— ٤٧ —

الآن عثرتُ على بعض رسائلي القديمة تتوارى بين لفائف صندوقها ... إنها بعض لعب مما تتلهى بها ذاكرتها

وأرادت ـ في فزع ـ أن تنتزع هذه الترهات من بين يدي الزمن الغشوم ، فقالت « هذه لي وحدي ! »

* * *

يا حسرتا ! إن هذه الرسائل ما زالت هنا ، لأن إنساناً ـ الآن ـ لا يدّعيها ... إنساناً يستطيع أن يؤدي حقها ببعض دواعي الهوى

لا ريب ، ففي الحياة حب ينتشلها من قرار الضياع ، حب كحبها هي ... هي التي حفظت هذه الرسائل في شغف

— ٤٨ —

أيتها المرأة ، هاتي الجمال والنظام إلى حياتي الخاوية كما فعلتهما في داري حين كنت

وامسحي على حطام الساعات الترِبة ، واملاي الجرة الفارغة ، ورتبي كل ما كان مهملاً

ثم افتحي الباب الداخلي للمعبد ، واشعلي الشمعة ، ودعينا نتلاقى هناك — أمام الله — في صمت

— ٤٩ —

يا إلهي ! لقد كان الألم يتغلغل حين كانت الاوتار تترنم !

فاعزف لحنك لأنسى الألم ، واجعلني أشعر — في لطف — بما يضطرب في خيالك في هذه الأيام الجاسية

هذه الليالي المدبرة تضطرب لدى بابي فرها لتنزاح على نغم أغنية

واسكب قلبك ، يا إلهي في أوتار حياتي . . . اسكبه في لحن يتدفق من ضمير كواكبك

— ٥٠ —

في لمعة من لمعات البرق تبدَّى لي عظيم ابداعك في حياتي ... ابداعك خلال دُنا الموت

* * *

لقد آسيتُ على تفاهة نفسي حين ألفيتُ حياتي بين يدي الساعات الخاوية ولكن حين رأيتها بين يديك علمت أنها أغلى من أن تتبدَّد بين الأشباح

— ٥١ —

إنني على يقين من أنهُ في غروب يوم ما ستحييني الشمس تحية الوداع

سيعزف الرعاة ألحانهم وهم جلوس تحت أشجار البانيان ، وقطعانهم ترعى في الوادي ، على حين تنطلق أيامي الى الظلام

إنني ابتهل لعلي أعرف، قبل أن أبرح ، لماذا تناديني الأرض لتضمني بين ذراعيها

ولماذا يتحدَّث إليَّ صمت ليلها عن نجومه، ولماذا يقبِّل ضوء نهارها أفكاري فتستحيل إلى زهرات

فهل لي أن أطمئن إلى نشيدي الأخير — قبل أن أبرح — فأتم موسيقاه ، وهل للمصباح أن يرسل أشعته فأرى وجهك، وهل للأكليل أن يتم نسجه فأتوجك به

— ٥٢ —

ماذا عسى أن تكون تلك الموسيقا التي تهتز لها الأرض؟

إننا نبسم حين تعزف على قمة الحياة ، وتنخلعُ قلوبنا حين تدغم في الظلمات غير أن النغم واحد ... النغم الذي يتفق ولحن الموسيقا الأبدية

* * *

إنك تخفي كنزك في راحة يدك ، ونحن نضج ، نقول : بأننا سرقنا

ولكن ابسط يدك او اقبضها ، كما تشاء . فالربح والخسارة على سواء واحد لأنك حين تخاطر مع نفسك ، تكسب وتخسر في وقتٍ معاً

— ٥٣ —

لقد قبلتُ هذه الدنيا بعينيَّ وأطرافي ، ولففتها في طيات قلبي اللانهائية ، وأفضت على أيامها ولياليها من أفكاري حتى امتزجت دنياي وحياتي . . . . وأنا أتعشق حياتي لأنني أهيم بنور السماء الذي صيغ معي

* * *

واذا كان الرحيل عن الدنيا حقّاً كحبها . . . إذن فلا بدَّ أن يكون في لقيا الحياة وفي فراقها معنىً

واذ كان هذا الحب سيحور — عند الموت — خداعاً ، فاذن سينسرب فساد هذا الختل ليلتهم كل شيء . . . وإذن تنفضّن النجوم وتنطفىء

— ٥٤ —

قال لي السحاب « أنا انتهيت » وقال الليل « لقد اغتمرت في لمعات الفجر »
وقال الألم « لقد ظللت في صمت عميق كموضع قدمه »
وحدثتني حياتي « إنني أفنى في اللانهاية »
وقالت الأرض « إن نوري — دائماً — يقبل خواطرك »
وقال الهوى « إن الأيام تنطوي وأنا أنتظرك أنت »
ثم قال الفناء « إنني أدفع زورقك عبر البحر »

— ٥٥ —

لدى نهر الكنج ، في ناحية قصوى حيث يحرقون موتاهم ، راح تولسيداس الشاعر يجول منغمراً في أخيلته

وهناك ألفى امرأة جالسة عند قدمي جثة زوجها المسجاة وهي ترتدي لباساً بهيجاً ، كأنها في ليلة عرسها

وحين بدا لها هبت من مكانها وأحنت رأسها ثم قالت « ياسيدي ، احبني عطفاً من لدنك أستطيع به أن أرقى الي السماء لألحق بزوجي »

فقال تولسيداس « وما أعجلك ، ياابنتي ؟ أفليست هذه الأرض هي بعض ملكوت مَنْ مَلَكَ السماء ؟ »

فقالت « إنني لا أطلب السماء بل زوجي »

فابتسم تولسيداس وقال لها « أرجعي الى دارك ، ياابنتي ، وستجدين زوجك قبل أن ينطوي شهر »

* * *

فعادت المرأة وفيها نشوة الأمل الحلو ، وأخذ تولسيداس يختلف اليها كل يوم ينفث فيها الأفكار السامية حتى أفعم قلبها بالحب الالهي

وحين أوشك الشهر أن ينصرم ، أقبل جيرانها يسألون «أيتها المرأة،أوجدت زوجك ؟ »

فابتسمت المرأة في رضا وقالت « نعم»

فسألوا في شغف « وأين هو ؟ »

فأجابت «إن سيدي في قلبي ، وهو ... هو الذي معي »

—٥٦—

لقد اطمأنت الي لحظة ، لستيني خلالها بسر المرأة العظيم ... السر الذي ثوى في ضمير الكون

إن المرأة هي التي تزجي — دائماً — الى الخالق مثل فيضه من الجمال ، وهي —أبداً— جمال الطبيعة الغض وشبابها اليانع وهي التي ترقص في حباب الغدير وتنشد أغاني الصباح ، وهي — كالأمواج المتناوحة — تشفي غلة الأرض وفيها ينشطر الواحد الأبدي الى شطرين في فرحة لا تستطيع ان تكتم نفسها فتتدافع في مثل آلام الهوى

— ٥٧ —

من عسى أن تكون تلك التي سكنت قلبي ، انها ابداً مبتئسة ؟

لقد صبوت اليها وأعجزني ان أنالها
وزينتها بالزهور وتغنيتُ بالثناء عليها
فتألقت ابتسامة على شفتيها ساعة ثم انطوت
ثم صاحت في أسىً « لست ألمس فيك أفراحي »

* * *

واشتريت لها خلاخيل موشاة ، وروحت عنها بمروحة مرصعة بالجوهر ، وهيأت لها فراشاً وثيراً على سرير من ذهب
فشاعت في عينيها لمعة من سرور ثم خبت
ثم قالت في أسىً « إنني لم أطرب لكل هذا »

ثم أجلستها على عربة النصر ودفعتها أطوّف بها جنبات الأرض
فراحت القلوب الوالهة تخشع عند قدميها ، وتعالى هتاف الى عنان السماء
فلمعت ومضات الكبرياء في عينيها لحظة ثم اغتمرت في ثنايا العبرات
ثم قالت في أسى « لست استشعر اللذة في هذا النصر »

* * *

فسألتها « عَنْ مَنْ يا ترى تبحثين ؟ »
فقالت « انني انتظره ، هو الذي لا أعرف اسمه »
وانطوت الأيام وهي تنادي « متى يعود من أحب... من لا أعرفه ... فأعرفه الى الأبد ؟ »

— ٥٨ —

انه نورك الذي يخترق طباق الظلمات ، وانها طيباتك التي تنبعث في قلوب أفعمت من لددٍ
انها دارك التي تطل على الأرض . وانه حبك الذي يرتفع في صيحات الحرب
وانها منحتك التي تظل — أبداً — ربحاً حين يكون في كل شيء معنى الخسارة ، وانها حياتك التي تتدفق خلال الأجداث
وانها سماؤك التي تنتشر على وجه الثرى ، وأنت هناك لي وأنت هناك للجميع

— ٥٩ —

حينما تلفني وعثاء الطريق وتعصف بي لأواء الهاجرة ، حينما تقبل ساعات السحر الروحانية فتلقي ظلالها على حياتي ... حينذاك لا أبتغي صوتك – ياصاحبي – فحسب ، بل أتوق الى لمساتك

إن في قلبي كربة لأنهُ لم يلق أمامك كل تراثه

فابسط إليّ يدك من خلال الظلماء لأمسك بها وأملأها ثم أحفظها ... ثم دعني استثمر لمساتها في ساعات وحدتي الطويلة

— ٦٠ —

لقد صاحت الرائحة المكفوفة في الكم « يا ويلي ! إن اليوم يتبدد ... يوم الربيع الهنيء ، وأمسيتُ أنا حبيسة في لفائف الزهرة ! »

لاتيأسي ، أيتها الرعديدة !

إن أغلالك ستتحطم ، وسيتفتح الكم عن زهرة ، وحين تموتين وأنت في زهرة العمر ... حينذاك يظل الربيع في شباب الحياة

* * *

لقد راحت الرائحة المكفوفة في الكم تعربد في ضجر وتصيح « ياويلي إن الساعات تمر وأنا لا أدري أين المقر ، ولا عمَّ أبحث ! »

لاتيأسي ، أيتها الرعديدة !

ان نسمات الربيع قد وعت كلماتك ، ولن ينطوي يوم حتى تبلغي غاية خلقك

* * *

إن ظلام المستقبل ينتظر هذه الرائحة المكفوفة وهي تصيح في يأس « ياويلي لست أدري أي غلطة سلبت من حياتي معانيها »

« من ذا عساه يخبرني ، لماذا خلقت ؟ »

لاتيأسي ، أيتها الرعديدة !

إن الفجر الكامل على خطوة منك ، وهناك ستختلط حياتك بكل انواع الحيوات فتعلمين معنى حياتك



خلد الماء أو « أنف الطير »

أمن الزواحف هو أم من الثدييات أم هو بين بين

حضرة الفاضل رئيس تحرير المقتطف الأغر

تحية وسلاماً . وبعد فقد قرأت في شوق وتقدير عظيمين ما نشرتموهُ في المقتطف بعنوان « خلد الماء او أنف الطير » وانهُ أعجب الحيوان خلقاً وقد شاقني ما احتواه حتى أتيت على آخره . وقد حفزني ما فيه على ان أدلي بدلوي في هذا الموضوع بما ربما يزيده إيضاحاً فأقول :

إننا اذا نظرنا الى الزواحف والثدييات من ذوات الفقار وهما كثيرا التباين الآن وجدنا الأولى تمتاز عن الثانية من جهات كثيرة ، فقد يكون لها عادة من بين الأشياء الأخرى جلد ذو بَشَرة عليها فلُوس وليس لها شَعَر أصلاً ، وهي تبيض بيضاً كبيراً غزير المح ، ولا ترضع صغارها ، ولها مسلك تصب فيه القنوات البولية التناسلية والقناة الغذائية ايضاً ، ولها زُنَّار كتيف معقد يتركب من عدد كبير من العظام او الغضاريف المنفصل بعضها عن بعض تقريباً من ضمنها العَظم فوق اللَّوح واللوح والنتوء الغرابي والعظم فوق النتوء الغرابي والتَرقوة والعظم بين التراقي . وأما الثدييات فتمتاز بأن لها جلداً ذا بَشَرة يغشاها شَعَر ، وبأنها على العموم ذوات بيض متناه في الصغر خال من المح ، وأنها ترضع صغارها دائماً ، وليس لها عادة مسلك بل لها فتحات منفصل بعضها عن بعض للقناة الغذائية والقنوات البولية التناسلية ، وزُنَّار الكتف فيها منتقص جدًّا وكثيراً ما تمثله عظمة واحدة فقط هي اللوح ومعه فضلة صغيرة او أثر من النتوء الغرابي متحدة به تمام الاتحاد وقد توجد أيضاً ترقوة رقيقة . واذن فمن اية الجماعتين السابقتين يكون خلد الماء أو « أنف الطير » . وعندي أنهُ في الحقيقة هو وقُنْفُذ النمل أو النضناض (معجم معلوف باشا) لا من هذه ولا من تلك وانما هما (ش ١ و ٢) من جماعة صغيرة اخرى ذات أهمية تعرف بالمسلكيات توجد في استراليا وبعض الجزائر المتاخمة لها كما جاء في المقال . هذه الحيوانات ذوات شَعَر وترضع صغارها مما يسوّغ ادراجها ضمن الثدييات لكنها تبدي في الوقت نفسه صفات معينة تجعلها تختلف عن جميع الثدييات النموذجية وتتفق مع الزواحف ذلك بأنها تبيض بيضاً كبيراً غزير المح ، وفيها قناة التغذية والقنوات البولية التناسلية تصب في مسلك مشترك ، وزُنَّار الكتف فيها مركَّب من عدد كبير من العظام المنفصل بعضها عن بعض كما في الزواحف تقريباً نخصّ بالذكر منها العظم بين التراقي وهو لا يُوجد في ثدييات سواها . مَن ذلك تبين لنا ان هناك حيوانات لا تزال موجودة ومن غير شك تتبوأ مركزاً وسطاً أو بين الزواحف والثدييات النموذجية

محمود مصطفى الدمياطي

المقتطف — نشكر لحضرة الأستاذ الفاضل اهتمامه بما ينشر المقتطف من هذه البحوث ، وكل ما لنا على كلمته أنهُ يقول : «وعندي انهُ (أي خلد الماء) في الحقيقة هو وقنفذ النمل لا من هذه ولا من تلك ، وانما هو من جماعة صغيرة أخرى ذات أهمية تعرف بالمسلكيات توجد في اوستراليا و بعض الجزائر المتاخمة لها ، كما جاء في المقال » . اهـ . وقول الأستاذ أن خلد الماء لا من هذه ولا من تلك انما ينصب على ان هذا الحيوان ليس من الزواحف وليس من الثدييات . أما انهُ ليس من الزواحف فنعم . وأما انهُ ليس من الثدييات فلا . ذلك بأنه من المسلكيات ، وهي تعيناً من الثدييات وفي الحق ان خلد الماء لا يمت الى الزواحف والى الثدييات لا غير ، وانما هو يمت ايضاً الى البرمائيات (Amphibia) . فاذا قلنا انه ثديي فذلك لأنهُ يرضع صغاره وان لهُ شعراً وليس لهُ فلوس أو حراشف . واذا قلنا انه من الزواحف فذلك لصفات كثيرة في تشريح عظامهِ ووظائف بعض اعضائه ذات الشأن . واذا قلنا انهُ برمائي فذلك لأنهُ يغشى الماء ويعيش في البر



ش (١) — خلد الماء أو «أنف الطير» (من دليل المتحف البريطاني)
The Duck-billed Platypus (Ornithorhynchus anatinus)



ش (٢) — قنفذ النمل أو النضناض (من دليل المتحف البريطاني)
The Echidna or Spiny Anteater (Echidna aculeata)

وكما انهُ لا يجوز لنا ان نقول ان الفلوس التي نشهدها على أرجل الطيور ، وهي من صفات الزواحف ، قد تجعل الطيور من الزواحف ، كذلك لا يجوز لنا ان نقول ان مماثلة بعض

العظام في حيوان ثديي لعظام تكون في الزواحف ، قد تكفي لاخراجه من افق الثدييات . وانما يكون لنا الحق في ان نقول ان خلد الماء بصفاته الحاليّة انما يدل على انه بقية من أحياء قديمة هي في منزلة حلقات كانت تربط بين الزواحف والبرمائيات وذوات الثدي، كما تدل الفلوس التي نراها على أرجل الطيور على انها اخلاف حلقات بائدة كانت تربط بين الزواحف والطيور الاولى التي اسميها «الطيرميات» : Archæornithes

اما ان خلد الماء من الثدييات بغير شك فذلك ما يثبته كبار المصنفين مثل الاستاذ « ليدكر » Lydekker والأستاذ بدرد Beddard . فان ليدكر يقسم شعب الثدييات شعبين : الأول الثدييات الولود او الولودات ، وهذا منه المشيميات : كالرئيسات والخفاشيات والحشريات واللواحم والحيتان الخ ، واللامشيميات وهذا يتضمن الجرابيات Marsupialia وحدها . أما الشعب الثاني فالثدييات البيوض أو البيوضات ، وهو يتضمن المسلكيات وحدها Monotremata ومنها خلد الماء . وكذلك الأستاذ بدرد فانه يقسم الثدييات شعبين : أحدهما الفوارط : Prototheria وهذه تتضمن قبيلة واحدة هي المسلكيات التي منها خلد الماء، وثانيهما الولودات وتضم الجرابيات مع بقية قبائل الثدييات ، من غير ان يتورط الى تقسيم الشعيب الثاني الى مشيميات ولامشيميات . هذا وينبغي ان نعلم ان تصنيف الحيوان قائم الآن على أسس تشريحية ووظائفية وبخاصة في تعيين الطبقات العليا ، لا على نظرات اجتهادية ، كما كان عند أول العهد به

*

الفيزيقا الحديثة

حضرة رئيس تحرير المقتطف . بعد الاحترام فيما كنت أطالع كتاب الفيزيقا الحديثة لحضرة العالم الاستاذ أحمد فهمي أبي الخير لفت نظري تناقض في نظريتين في فصل الجاذبية والنسبية . ففي صفحة ٨٣ ورد أنهُ اذا كانت سرعة الجسم مساوية لسرعة الضوء أي ١٨٦٠٠٠ ميل بالثانية بلغ النقص في انكماش الجسم المسرع مائة في المائة . أي أن الجسم ينكمش الى ان ينعدم طوله . . . ولا يخفى انهُ اذا انعدم طوله انعدمت جميع ابعاده واصبح هو نفسه عدماً . ثم في صفحة ٨٨ ورد انهُ اذا تحركت كتلة الجسم بسرعة الضوء اي ١٨٦٠٠٠ ميل الثانية تزايدت مادته الى ما لا نهاية لهُ . هاتان نظريتان علميتان اتفق عليها معظم علماء العصر الكبار . وكنت كلما قرأت عنهما شيئاً خطر لي خاطر تناقض بينهما . لانهُ في الحالة الاولى ينكمش الجسم الى حد العدم وفي الحالة الثانية تزداد مادته الى ما لانهاية لهُ . وهما حالة واحدة : سرعة كسرعة الضوء . فكيف تزداد مادتهُ وقد بلغ العدم

لم أرَ فيما طالعته تعليلاً لهذا التناقض العجيب . فهل من يفيدنا بما يعلمهُ او يعتقده بهذا الشأن . وله عظم الشكر سلفاً

نقولا الحداد

باب الأخبار العلمية

أجهزة أرهف حساً وأدق
من الحواس الخمس

لا شك ان المرء يخسر في دنياه خسارة فادحة، إذ تخفى عليه بعض الأصوات فلا يسمعها وتلتبس عليه بعض الألوان الدقيقة فلا يفرق بينها تفريقاً تامّاً . وكذلك تمرُّ أمامه المشاهد السريعة جدًّا فلا تستطيع عيناه إدراكها. وقد تعجز الحواس البشرية الضعيفة عن فحص الطعوم والروائح ولمس الأشياء الغامضة

وتسمى العين البشرية ، أكمل الآلات البصرية ، على حين أنها لا تبصر من طيف الشمس إلاّ قدراً طفيفاً وهو ٤٠٠٠ وحدة (انجستروم) وذلك من وسطهِ، مع كون طوله يربى على عشرة سنكليون انجستروم

وقد يفخر امرؤ بسماعه صوت سقوط دبوس في قاعة من القاعات العامة الكبرى المخصصة للخطابة ، وكذلك عند سماعه دقات ساعة صغيرة في احدى الحجر ، ومع هذا فان الآذان انما تصلح لسماع الأصوات التي تتفاوت ذبذباتها بين ٣٠ و ١٦٠٠٠ ذبذبة في الثانية ، بينما العلم قد قاس وذلل الصوت غير المسموع الذي تبلغ ذبذباته ٥ ملايين ذبذبة

تحليل السوائل بأمواج الصوت

وقد جاء من جامعة جونز هوبكنز نبأ استنباط بديع خاص بالأصوات العالية الذبذبة إذ تحقق الدكتور هبرد Hubbard انهُ يستطيع تحليل السوائل المجهولة التركيب في معمل التحاليل الكيميائي باطلاق أمواج صوتية سريعة التذبذب لأن لكل مادة من المواد المعروفة ، مزية في توصيل الأمواج بسرعة خاصة تختلف عنها في غيرها كل الاختلاف . فاذا انطلقت الأمواج في محلول ما بسرعة معينة استطاع المحلل الكيميائي معرفة كنه ذلك السائل والوقوف على عناصر تركيبه وتحديد كل عنصر منها وأدرك أنقي هو أم مزيج

وقد استخدم الصوت في تحليل اللبن إذ أعلن الدكتور لزلي تشمبرز والاستاذ نيوتن جاينز من أساتذة جامعة تكساس المسيحية أنهُ اذا مرَّ الحليب في قمع مثبت فيهِ أنبوب من النيكل يخترقه عند مرور الحليب فيهِ صوت حاد ، قتلت أمواج ذلك الصوت ماقد يوجد فيهِ من البكتريا وذلك بنسبة تتفاوت بين ٨٠ في المائة ومائة في المائة حتى بعض الميكروبات التي لا تؤثر فيها البسترة « تعقيم اللبن بطريقة باستور » تقتلها تلك الأمواج . وأعلن الدكتوران تشمبرز وفلوسدورف من أساتيذ

جامعة بنسلفانيا أنهما استطاعا تضهيب بيضة دون رفع درجة حرارتها لأن الصوت الحاد يولد تأثيرات كيميائية تجمد بروتين البيضة

ويحس الانسان ويبصر ويذوق ويسمع ويشم ، بالحواس عينها التي كانت تصلح للعصر الحجري ، حينما كان كل همه اكتشاف عدوه في الوقت الواجب الهرب فيهِ منهُ ، ثم قنص ما يقتات بهِ

فلم تكن الناس محتاجة الى تركيب المكابس في الاسطوانات لتوليد القوى التي تقاس بأجزاء من المليون من العقدة « البوصة » ولا للانصات للغواصات المتربصة في الاغوار لفرائسها ، ولا لقياس حرارة الكواكب السحيقة التي ما كانوا يرجون رؤيتها على الاطلاق

وبينما ظلت العيون والآذان البشرية كما كانت عليهِ منذ ٢٥٠٠٠ سنة قد أسبغ علينا العلم آلات دقيقة الاحساس دقة تحير الالباب. ومنها المصورة الضوئية العديدة العيون ، العديمة العدسات التي تلقط ١٢٠٠٠٠ صورة في الثانية. ثم استخدام الضوء الخفي والصوت غير المسموع لقتل البكتريا

ومثله البخار الخفي العديم الرائحة الذي يتصاعد من اناء فيهِ زئبق ومع ان ذلك البخار لا يزيد على ١ في خمسة ملايين جزء من الهواء فانهُ يصير ظاهراً للعين البشرية كظل خفيف ملقى على حجاب مثلالىء . ومع ذلك يبقى هذا الزئبق عشر سنين متبخراً دون ضياع شيء محسوس من وزنهِ

محذر آلي للمعدن

ومما لا ريب فيهِ أن لتلك الكواشف البخارية والغازية جوانب عملية ومثال ذلك إن المعدّن يحمل باحدى يديه مقياساً صغيراً يحذره توًّا من وجود غاز اوكسيد الكربون القتال . وهو الغاز السام الذي لا يستطيع رؤيته ولا شمه . وتقوم هذه الكواشف دائماً بتحليل الهواء في أنفاق مدينة نيويورك الخاصة بعربات السكك الحديدية وغيرها . وتقوم الاجهزة الكشافة بالدلالة على افلات بخار الزئبق من مداخن العادم في تربينات الزئبق المولدة للقوة المحركة ، فتغلق في الحال تلك المصانع المولدة للقوة فتتوقى الخسارة. وفي تربينات بخار الزئبق التابعة للشركة العامة الكهربائية في مدينة شنيكتادي بالولايات المتحدة الاميركية ١٠٠٠٠٠ رطل من الزئبق ، ثمن كل منها ريالان وخمس ريال فاذا حسبنا ما يتبخر منها في الجو بلا نفع عن طريق مداخنها ، كانت الخسارة فادحة

المصور الضوئي الطيفي

هذا ومن أحدث اعواض العلم ، لسد نقص الحواس البشرية الضعيفة ، جهاز الاسبكتروفوتوميتر Spectrophotometer وهو من مخترعات شركة الكهربية الاميركية العامة، وقوامه بصاصات كهربية تتأثر بالضوء فتحوله الى خطوط منحنية . فاذا كان لديك مثلاً زوج من الجوارب ، مودع في صيوان ملابسك ، وخيل اليك أن كل فردة منهُ

أختاً للاخرى ، فأردت أن تتحقق الامر ، فما عليك الا ان تعرضهما على ذلك الجهاز ، فيرسم لك في خلال خمس دقائق رسمين طيفيين يثبتان أن تينك الفردتين ليستا أختين على الاطلاق . وبلغ من احساس الاسبكتروفوتوميتر أن محركه يستطاع تحريكه ووقفه باشعال شمعة على بعد ميل . فهو اذن مقياس للون ومسجل للصبغات . وبهذه الصفة قد شق طريقه في عشرات من الصناعات حيث تقاس به درجات الاصباغ ، وتوافق الالوان بعضها مع بعض في مصانع المنسوجات والورق والاصباغ

واذا فحصت الاطعمة المكبوسة في العلب بجهاز الاسبكترفوتوميتر أثبت هل اضيفت اليها مواد لتلوينها وغشها وهل هي سامة

وبه يستدل على النقود المزيفة وطوابع البريد المقلدة . ومن ثمة يتاح بالاسبكتروفوتوميتر اختبار الورق والمنسوجات وما اليها من البضائع فيتسنى للتاجر الذي يبغي مناهضة منافسه ان يثبت بهذه الطريقة العلمية هل أدخل أو لم يدخل منافسه في تركيب سلعه ، مواد أقل نسبة مما في بضاعته هو ، بل هو طريق مختصر الى التحليل الكيميائي . فاذا كان في محلول ما جزء من مليون جزء من النحاس ظهر ذلك في مسجل السبكتروجراف خطاً منحنياً على شكل خاص . وكانت المعامل الطبية الكيميائية قبل اختراع هذا الجهاز عندما يحتاج أحدها الى نشر جدول يحتو على نماذج الدماء البشرية لكي يسهل للاطباء ، مقابلة دماء مرضاهم بها ، واكتشاف أعراض الانيميا ، تضطر الطباعين الى الحصول على انواع المداد التي تطابق جد المطابقة ، كل صنف من أصناف الدماء البشرية على حدته . فكان أولئك الطباعون يتمكنون من بلوغ أوج الكمال في تلك الصناعة ، بمزج ضروب المداد بعضها ببعض حتى تصير الرسوم البيانية المطبوعة بذلك المداد مشابهة تماماً للرسوم البيانية النموذجية المرسومة بالدماء نفسها

مقاييس مرهفة دقيقة

وقد بلغ من احساس الانامل الدقيقة لاصابع العميان ، انهم يتعلمون بها سريعاً قراءة الحروف البارزة المكتوبة بطريقة براي Braille

ولكن احد المهندسين اخترع مقياساً سماه مقياس الخشونة roughness meter يستطيع تقدير ثخانة بصمة الاصبع المطبوعة على لوح من ألواح الزجاج . وهو يكاد يشبه الفونغراف ذا الابرة التي سنها من الياقوت الأزرق فيتحسس بها الشيء المراد فحصه ، فيشعر بأدق الاختلافات في نعومة الادوات أو طلاء سطوحها وان كانت جزءاً من مليون من العقدة . وذلك في الكراسي المعدنية التي تدور عليها محاور الآلات

ثم معبر هويتستون Wheatstone bridge الذي ينبيء عمال التليفونات المعهود اليهم في تقصي علل اضطراب المواصلات التليفونية ،

بعد المكان الذي اتصل فيهِ السلك بالأرض ، وقد يكون على أميال منهم

***

هذا وقد يتعرض المرء بعض الامتعاض اذا انخفض ترمومتر حجرته عن درجة ٦٥ او ارتفع فوق درجة ٨٠ فرنهيت فاخترع لذلك الغرض جهاز اسمه Potentiometer بوتنيوميتر وهو من الادوات التي يتوسل بها العلماء في مباحثهم اذ يقوم بتبيان التقلبات التي تطرأ على الحرارة والرطوبة ولو كانت بضعة اجزاء من الف جزء من الدرجة

***

ثم مقياس الذوق وهذا لا يتأثر بالبرد ولا بغيره من الأعراض التي تطرأ على الحاسة البشرية للذوق فتفسدها وقتيًّا بحيث لا تستطيع التفريق جيداً بين طعوم المأكولات والمشروبات ولذلك يسترشد الكيميائي في فحص المواد التي تعرض عليهِ ، بذلك الذواق الصناعي taste indicator وبهِ يُتاح قياس حموضة اي محلول او قلويته بغاية الضبط

***

وهناك كذلك آلات لقياس مبلغ قوة الضوء الذي ينبعث من الكواكب وآلات اخرى تسجل تسجيلاً آليًّا مقدار نور الشمس الساقط على بقعة معيَّنة

***

وفي عالم الصناعات العصرية مقياس آخر لتقدير الرطوبة Moisture detecotor في مواد مختلفة وقوامه ابرتان كهربائيتان تغرزان في الملاط « البياض » أو في الابرق المسلح أو الطوب الأحمر أو الحيطان الخشب المراد دهنها بالطلاء فتقيسان بالطاقة الكهربائية مبلغ ما فيها من الرطوبة السطحية والباطنية ويتذرع بهذا المقياس ايضاً للبحث عن ثقوب الأنابيب المدفونة في الأرض أو في الحيطان

حجرة لا يدخلها الصوت

واذا كنت عصبي المزاج ممن توقظهم من نومهم الدقات الخافتة للثواني التي تدقها ساعات الجيوب والحيطان ، فأصلح مكان لنفور فيه هو حجرة خاصة في المختبر الكيميائي التابع لشركة الكهربية الأميركية العامة ، ولعلها أهدأ مكان في العالم . وذلك لأن تلك الحجرة محفوفة بأدوات تقتنص الصوت وحيطان تمتصه . وثقلها ٣٢ طنًّا وهي معلقة في نوابض مستندة الى ركائز من الصمغ المرن «كاوتشوك» موضوعة على سقف ذلك المبنى بحيث لا تصل اليها الاهتزازات — وفي ذلك المكان الساكن جدًّا ، يباشر العلماء امتحان المراوح الكهربائية والمحركات وأجهزة الغسل وما اليها ليجعلوها عديمة الصوت عند ادارتها . ولذلك ترى مخترعيها يبذلون قصارى جهدهم حتى يخترعوا ريش المراوح ويركبوها في مواضعها ويديروها في تلك الحجرة حتى يتحققوا من كونها أهدأ ما يمكن ان تكون عند دورانها

وقد أتيح للعلماء حديثاً اختراع أجهزة

تدل على الصوت وتطبع ارتفاع الاصوات العادية بوحدات عشرية فاستدلوا بها على أن هزيم محرك الطيارة أشد من أزيز المراجل واستعمل المستر ريموند ديتمارز المشرف على قسم الحيوانات الثدية والزواحف في حديقة الحيوانات في نيويورك ميكروفونات ومفخمات صوت حساسة جداً وأخذ يصغي الى الاصوت المنبعثة من قرية الارضة فتسنى له بجهازه الدقيق التقاط اللفظ الناشيء من حركاتها في طرقاتها

استكشاف الاشباح النائية بالصوت

اما الآذان الكهربية فأشد احساساً من الآذان البشرية الناقصة ، بما لا يقاس ، اذ هي تصت الى دوي الغواصة وهي تمخر عباب اليم على بعد يزيد على خمسين ميلاً وتسمع هدير الطائرات مبكرة من قبل أن تبصرها العيون أو تسمعها الآذان البشرية

ثم إن أمواج الصوت العالية التذبذب في استكشاف الاشباح النائية وهي الامواج التي تجتاز طبلتي الآذان دون سماعها ونعني بها الذبذبات التي تتفاوت بين ٥٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ ذبذبة وهذه يتسنى تسديدها كما تسدد البندقية فتنفذ من العقبات الخفية مثل أبدان السفن والغواصات والسقوف الخفية ثم يضبط صداها لتعيين موضع الشيء المقصود . ومثلها مثل المقياس الصوتي لارتفاع الطائرات وقوامه الفترة التي يستغرقها الصوت في وصوله الى الأرض وعودته منها . وهذا الجهاز يحوّل صدى الصوت المنقول الى الارتفاع الحقيقي للطائرات عن سطح الارض

ويعتقد العلماء ان طائفة من الطيور وربما الحيوانات أيضاً يكلم بعضها بعضاً بأصوات عالية الذبذبات علواً لا تدركه مسامع البشر . والطيران السريع الصائب الذي تطيره الخفافيش انما تقوم به مسترشدة بميزانها الصوتي الطبيعي وهو آذانها الشديدة الاحساس التي تسمع صوت النغمة العالية الذبذبة التي يفردها الخفاش نفسه ويسمعها

عوض جندي

***

التصوير بالاشعة السينية

صوّرت بالأشعة السينية رصاصة وهي تخترق كتلة من الخشب في جزء من مليون جزء من الثانية

والرأي أن فائدة هذا النوع من التصوير لا بد أن تسفر عن خدمة كبيرة تُسدى الى الانتاج الصناعي لأنهُ يمكن العلماء من تصوير باطن الآلات المتحركة تحركاً سريعاً فينفذون الى معرفة ما تكون عليهِ حالة باطن محور رئيسي من محاور آلة ما في أثناء تعرضهِ للتأثير بضغط عظيم وسرعة فائقة



مكتبة المقتطف

قصة « استباحة هولندا »

يكتبها وزير خارجيتها فان كليفنز

بينما البرقيات اليومية حافلة بأنباء الحرب في ساحات البانيا وشمال افريقية وشرقها المختلفة وأنباء صداها وتأثيرها في داخل ايطاليا نفسها نستميح القراء عذراً في أن ننقل اليهم وصف ناحية اخرى من الحرب تبدو الآن وكانها صفحة من التاريخ القديم ونعني « الحرب الخاطفة » التي شنها الالمانيون على هولندا في العاشر من شهر مايو الماضي فلم تطقها هولندا اكثر من خمسة أيام سلم بعدها قائد الجيش الهولندي بعد ما انتقلت الحكومة الى لندن لتواصل النضال منها . واذا كانت الحكومة الهولندية قد فقدت سيطرتها على هولندا في اوربا الآن والى أن تنتهي هذه الحرب، فانها ما فتئت محتفظة بسلطتها على هولندا وراء البحار ولا سيما جزائر الهند الشرقية الهولندية وهي اكثر سكاناً وأغنى موارد طبيعية من هولندا الأوربية أضعافاً كثيرة

وزير خارجية هذه الحكومة المسيو فان كليفنز تقلد هذه الوزارة في يوليو سنة ١٩٣٩ ونجا من هولندا بطائرة نفد بنزولها وهي على مرأى من الشاطىء البريطاني امام بلدة بريطون المصيف البحري المشهور . وكانت الطائرات الالمانية تتعقبه فلو نفد بنزين طائرته في منتصف الطريق لحال ذلك على الغالب دون الفوز بهذا الكتاب الذي ألفه فان كليفنز واصفاً فيه « استباحة هولندا » "The Rape of the Netherlands" وهاتان الكلمتان هما عنوانه

والكتاب مبني على ما اتصل بعلمه بوصف كونه وزيراً للخارجية .وما شاهده بنفسه .وأهم ما جاء فيه مما يتخلل فصوله وصف دقيق لأسلوب النازي في الاعتداء الذي تجلى في استباحة هولندا وغزوها بكل ما فيه من خدعة وتنسيق دقيق واعتداء على الاهلين واستباحة التقاليد المتبعة في الحرب والتجرد التام من الشعور الانساني

فقد سبق الاعتداء تكرير وعد النازي باحترام حياد هولندا . بل أن محطة الاذاعة الالمانية « دويتشلند زندر » أذاعت بعد انتهاء ثلاث ساعات على القاء القنابل الأولى على هولندا أن مانشر في العالم عن الاعتداء الألماني ليس الاّ تلفيقاً خسيساً من دعاة الحلفاء

ثم وصف الوزير في كتابه كيف أخرج الالمانيون من هولندا كميات من الملابس العسكرية الهولندية قبل الاعتداء عليها ثم استعملوها في كسوة جنود الهابطات الذين نزلوا في شتى المطارات الهولندية عند مابدأت الغزوة كما وصف نظام التجسس الذي أحكموا وضعه وبين أن خطاباً وقع في أيدي السلطات الهولندية أثبت أن أحد رؤساء هذه الشبكة المنتشرة من الجواسيس كان ملحقاً بالمفوضية الألمانية في لاهاي . ويضاف الى الجواسيس جميع الألمانيين وفريق من النازي الهولنديين الذين نهضوا بما ينتظر منهم من اعمال « الطابور الخامس » في ايهان الروح المعنوي داخل البلاد والتعاون مع جنود الهابطات في عرقلة اعمال الدفاع

وقد عالج الوزير مراحل الغزوة بالتفصيل . ويؤخذ مما قاله انهُ على الرغم من تفوق الجيش الألماني في العدد والمعدات الحربية كان للخيانة والارهاب اكبر شأن في نجاح الغزوة نجاحاً عاجلاً

حبطت خطة الألمانيين في تطويق العاصمة لاهاي وقد عرفت تفاصيل هذه الخطة من أوراق كشفها الهولنديون في ثوب الجنرال فون سيونك الألماني عندما أسقطت طائرته وكان الجنرال معيناً من قبل القيادة الألمانية العليا ليقود الفصائل الألمانية عند دخولها لاهاي دخول الظافرين. ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الجنرال فون سيونك جاء هولندا باحدى الطائرات فأسقطت وان الجواد الذي اعدَّ ليمتطيهُ عند دخول لاهاي ارسل بطائرة أخرى. وبحبوط خطة تطويق العاصمة حبطت كذلك خطة أسر الملكة وولية عهدها . وحبطت خطة ثالثة غرضها خطف وزير الدفاع

ولكن خطر جنود الهابطات كان خطراً حقيقيًّا . فنزولهم في المطارات الحربية اقتضى من فصائل الجيش الهولندي مواجهتهم فيها بدلاً من ان ينقلوا الى الحدود ومواقع الدفاع لتعزيز حماتها. فلما انتزع الالمانيون السيطرة على احد الكباري الرئيسية في روتردام وهجمت الطائرات الألمانية هجوماً لا مثيل لهُ في عنفه ووحشيته على روتردام فقتل فيها ثلاثون الفاً في نصف ساعة، أصبح المضي في مقاومة الغزو الالماني متعذراً اذ لم تكن المقاومة تعني في مثل هذه الحالة الاَّ مجزرة عامة لافائدة حربية تجنى منها. وقد قام سلاح الطيران الهولندي بما عليه في الدفاع عن البلاد فدمرت اوعطبت كل طائرة من طائرته. ولكن بعدما اسقطت مائة طائرة المانية في يوم واحد

ومع عناية المسيو فان كليفنز بوصف الغزوة من ناحيتها الحربية لم يهمل وصفها من الناحية السياسية . فأثبت اثباتاً قاطعاً ان هولندا احتفظت بحيادها احتفاظاً دقيقاً وامتنعت عن الموافقة على اجراء محادثات مابين هيئة اركان حربها وهيئة اركان الحرب التابعة لدولة ما من الدول المتحاربة مهما تكن المحادثات غير رسمية

وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن الحكومة الهولندية كانت مصيبة في ذلك لانهُ لو وافقت على محادثات من هذا القبيل بين هيئة أركان حربها وهيئة أركان الحرب الفرنسية أو البريطانية

اتمرَّبت أنباء الحادثات الى الخارج حتماً واتوسل بها الالمانيون للاعتداء على هولندا. ولكن ألم يعتدِ الالمانيون على هولندا على كل حال عندما وافقهم ذلك بغير عذر يتوسلون بهِ ؟

وقد بين الوزير ان الملكة وِلهلمينا دعت الملك ليوبولد ملك البلجيكيين الى لاهاي بناء على اقتراحه (اقتراح الوزير) فوضعا معاً ذلك البيان الذي عرضا فيهِ على المتحاربين وساطتهما في سبيل الصلح وأثبت بما لا يحتاج الى دليل آخر ان الالمانيين رفضوا ذلك الاقتراح رفضاً حاسماً خشناً

محمد طلعت حرب باشا

مجموعة خطبه — الجزء الثالث — ٤٤٩ صفحة متن و ١٠٧ صفحات صور

منزلة محمد طلعت حرب باشا في بناءِ « مصر الاقتصادية » فوق كل نقاش ، وأعظم من كل ثناء . فالمنشآت الاقتصادية والصناعية التي وهبها طلعت حرب لمصر باقدامهِ على الانشاء ودعوتهِ ابرار مصر الى معاونتهِ فيه أبلغ من كل ما يستطيع القلم اضفاءهُ عليهِ من حمد وتبجيل

فسيرة طلعت حرب باشا — مدَّ الله في عمره — وقصة منشآتهِ الاقتصادية والصناعية موضوعات حرية بالمدارسة وذلك لأن المناقب التي مهدت السبيل الى هذا الانشاءِ هي المناقب التي نحتاج اليها أفراداً وأمة — العزم والاقدام والصبر وبعد النظر وحسن التقدير . فقد كان المال الذي سهل مهمة الانشاء متوافراً دائماً ولكن ما فائدة المال اذا لم يقيض لهُ من يبني بهِ « بنك مصر » و « مصانع المحلة الكبرى » وشركات الغزل والتأمين وغيرها . وليس ثمة ريب في ان الخطب التي ألقاها طلعت حرب باشا في مناسبات شتى في مصر وغيرها من الأقطار العربية تحتوي على قواعد لبرنامج النهضة الاقتصادية المتوخاة لمصر وجاراتها او شقيقاتها وعلى عناصر تاريخ هذه النهضة . وقد جمعت طائفتان منها في مجلدين سابقين فهل من باحث يتوفر عليها ويستخرج منها دراسة منظمة محبوكة الأطراف في تاريخ مصر الحديث من الناحية الاقتصادية وقواعد دستورها الاقتصادي كما يتمثله طلعت باشا . ومهما تتقلب الأحوال فان تمثّله لهُ يفرض نفسهُ علينا فرضاً لأن طلعت باشا لم يقل وحسب بل قال وفعل . إنهُ على حدّ قول المقطم « الرجل الذي علمنا اننا نستطيع ان ننجح » . وهذا الجزء الثالث صدر من اسابيع شاملاً لطائفة اخرى من خطب طلعت باشا وأحاديثه وقد أضيف اليها ما تجلّى عند ما هجر العمل اتباعاً لمشورة الاطباء « من مظاهر العطف والاكبار والاعجاب برجل مصر ومجدد شبابها الاقتصادي بما انهال على سعادته من رسائل التقدير التي بعث بها اليهِ عظماء الأمة المصرية وذوو المكانة وأهل الرأي في البلاد » . وكذلك رسائل اصحاب الرأي والمقام في البلدان العربية والأجنبية

فهذه المجموعات الثلاث ستكون بلا ريب من المصادر التي لا بدَّ ان يرجع اليها كلُّ من يأخذ على عاتقهِ وضع تاريخ مصر الاقتصادي في العشرين السنة الماضية

الدستور البريطاني
ونظام الحكم في مجموعة الأمم البريطانية

تأليف الاستاذ ازون الكسندر — وهو سلسلة محاضرات بالانجليزية — وقد ترجمه المرحوم محمد الهمشري والدكتور محمد ابو طائلة والاستاذ محمد بدران والاستاذ يوسف الريدي

تمهيد الكتاب ووصفهُ : للدكتور حافظ عفيفي باشا

شُغلت الأذهان في الأعوام الأخيرة بمسألة الحكم ونظمه ، وتناولها كثير من الساسة والمفكرين بالدرس والبحث ، ولاح إزاء ما حققته الأنظمة الدكتاتورية (التي قامت في بعض الدول بوسائلها العملية السريعة) من الانقلابات العنيفة وما أحرزت في بعض الميادين من المزايا المادية وما أصاب الديمقراطية من جراء عدوانها من ضربات متوالية أن أسس الديمقراطية قد زلزلت وأن مصير الحكم الدستوري قد غدا في كفتي الميزان

وحينما ألقى الاستاذ « ألكسندر » محاضراته التي يضمها هذا الكتاب تحت رعاية الاتحاد المصري الانكليزي في العام الماضي ، كانت هذه المسألة الشائكة أعني مسألة الحكم الدستوري وما يعانيه من أزمات ، قد بلغت مرحلة من أعنف مراحلها ، فكانت مناسبة طيبة ان نستمع في مصر الى حديث النظم الدستورية في بلد تعتبر نظمه في الحكم مثل الديمقراطية الأعلى ، وأن يلقي الاستاذ ألكسندر هذه المحاضرات التي يستعرض فيها تاريخ الحياة الدستورية الانكليزية ويشرح نظام الحكم الدستوري في انكلترا

وهذه المحاضرات الست على إيجازها بالنسبة للموضوع الخطير الذي تتناوله ، تقدم الى القارىء صوراً قوية واضحة عن جميع نواحي المسألة الدستورية في انكلترا سواء من الناحيتين النظرية او العملية . فالعرف الدستوري وتاريخ الحياة الدستورية وتطور نظم الاقطاع وسلطة العرش ، والتاج وموقفه وامتيازاته وحدوده ، والبرلمان ونشأته والعناصر المكونة له — الملك مع مستشاريه ومجلس العموم واللوردات — وكل ما يتعلق بانتخابه وطرائقه في العمل ، وحقوق الفرد وحرياته وتطوراتها منذ صدور العهد الكبير (الماجنا كارتا) الى يومنا ، وجامعة الأمم البريطانية وقانون وستمنستر الذي ينظمها ، ونظم الحكم في الأملاك المستقلة والمستعمرات ، وغيرها من المسائل الهامة يعالجها الاستاذ الكسندر في كتابه بمقدرة ووضوح

وقد سبق أن عرضت الى طائفة كبيرة من هذه الموضوعات في كتابي « الانكليز في بلادهم » ومع إني لم أقصد بمعالجتها سوى الشرح المجرد وتقديمها الى جمهور المتعلمين في أبسط صورها ، ولم أحاول أن أذهب الى ماذهب اليه الاستاذ الكسندر — وهو أستاذ موضوعه — من تناول المسائل النقدية والمقارنات الدستورية الدقيقة ، فانهُ يسرني مع ذلك أن نلتقي معاً

في كثير من النقط والملاحظات . وقد يرجع ذلك الى أن الحياة الدستورية الانكليزية تمتاز بطائفة من الخواص التي لا توجد في غيرها ، كخلو الدستور الانكليزي مثلاً من النصوص والمبادىء المكتوبة ، وقيامه بالأخص على سوابق الماضي ومقتضيات الحاضر وكون نظرية فصل السلطات التي أشاد بها كثير من علماء الفقه الدستوري ليست قوية الأثر في الدستور الانكليزي ، واحترام رأي المعارضة وعدم التفريق بين رأي الأكثرية والأقلية من حيث القيمة والأهمية ، وغيرها من الخواص الظاهرة في الدستور الانكليزي تلفت بلا ريب نظر جميع الباحثين على السواء

ولما كانت مصر دولة دستورية ، والحياة الدستورية فيها ماتزال ناشئة فتية ، فإنهُ يجب على جميع المصريين أن يقفوا على المبادىء الدستورية العامة وأن يعرفوا حقوقهم الدستورية كاملة فيحرصوا على استعمالها ، كما يجب عليهم أن يعرفوا واجباتهم الدستورية وأن يحرصوا على أدائها، وبهذه الوسيلة وحدها يمكن أن نعمل على توطيد مبادىء الدستور والحياة الدستورية وغرس الروح الدستوري في البلاد

وإذا كانت المبادىء الدستورية من الواجبات القومية العامة فانهُ يجب من باب أولى على نواب الأمة ، ورجال السياسة والقائمين بأعباء الحكم أن يدرسوا المسائل الدستورية دراسة وافية، وأن يكونوا على علم تام بدقائقها حتى يستطيعوا القيام بالمهام التي يضطلعون بها سواء داخل الحكم أو خارجه بصورة تحقق الآمال المعقودة على الحياة الدستورية

ولا شك أن الوقوف على المسائل الدستورية ودراستها دراسة مستنيرة مما يسهل على رجال الحكم والسياسة تذليل الأزمات الدستورية التي تعترض الحياة النيابية من آن الى آخر ، ولو أن هذه المسائل الدستورية درست وفهمت على حقيقتها منذ قيام الحياة النيابية في مصر لكان من الميسور أن نتفادى كثيراً من الأزمات الدستورية التي وقعت وأساءت إلى الحياة النيابية وهي ماتزال في مهدها . وقد أظهرت التجارب الدستورية في جميع الأمم ان قيمة الأنظمة الدستورية ليست في النصوص المكتوبة . بل هي بالأخص في الروح الذي تطبق بهِ ، فالروح الدستوري الحق هو عماد الحياة النيابية قبل كل شيء ، فيجب اذاً ان تتجه جهودنا الى تقوية هذا الروح في مصر، وليس أدعى الى تقويته من تعرف المسائل الدستورية ودراستها ، ولا سيما في هذه الآونة العصيبة التي تواجه فيها الأنظمة الديمقراطية الأوربية التي استقينا منها دستورنا المصري أعظم أزمة عرفتها في تاريخها

واني على يقين من أن هذه الدراسات القوية الممتعة التي يقدمها الينا الاستاذ الكسندر عن الحياة الدستورية الانكليزية ستلقى من جميع أنصار المبادىء الدستورية كل عطف وتقدير

زوبعة في جمجمة

مجموعة قصص مصرية جديدة — تأليف محمود كامل — صفحاتها ٢٠٤ قطع المقتطف

ليس ثمة ريب في ان الأستاذ محمود كامل قصّاص أصيل . فهو ينتزع من الواقع الملموس حوادث وأشخاصاً ، يحوّلها ذهنه وخياله صوراً من الحياة في بيئات مصرية مختلفة ونسوقها سليقة القصاص فيه محبوكة العرى بين سرد بارع وتحليل دقيق وحوار بالفصحى حيناً وبالعامية المهذبة حيناً آخر فاذا الحياة تنبض بين السطور . ولعلَّ ما قالهُ الدكتور محمد حسين هيكل باشا في نقد «في البيت والشارع» — وهي مجموعة سابقة للمؤلف — خير ما قيل في تصوير هذا اللون من أدبه قال : «ولذلك نرى في قصص الأستاذ محمود كامل دنوًّا من الحياة الواقعية المصرية وإن يكون يحاول متأثراً بقراءته الفرنسية ان يصبغها بصبغة التحليل النفسي الفرنسي وهذا التحليل حسن لذاته وهو جيد في كثير مما يكتبهُ الأستاذ محمود كامل». وقول الأستاذ المازني «فان لهُ لبراعة في الحبك ومهارة في السبك وحذقاً في تعليق الانفاس»

أما الأستاذ ادجار جلاد المطلع الواسع الاطلاع على اتجاهات الأدب القصصي الفرنسي فيرى ان «محمود كامل بتحليله النفسي يفتننا بتلك التفاصيل من الملاحظات الدقيقة الصائبة» وانه مصري صميم مع انهُ يستخدم طريقة النقد الاوربي ، وانهُ يقدم صورة نموذجية — في روايته «حياة الظلام» — لجيل بأكمله يلعب دوراً هامًّا في الحياة المصرية

والواقع ان كاتب هذه السطور كان قد أخذ على الأستاذ محمود كامل عند ما أصدر مجموعته القصصية الأولى من سنوات ان قصصها على ما فيها من براعة تكاد تمثل صوراً من الحياة مشتركة بين القاهرة ولندن وباريس وغيرها مع تباين يسير في التفاصيل وتبديل في الاسماء . ولكن اتساع تجربته وخبرته ، وتمرن عينه النقادة على النفوذ الى ما وراء المظاهر في الحياة المصرية ، مهدا لهُ ان يصبح « قصّاصاً مصريًّا صميماً مع انهُ يستخدم طريقة النقد الاوربي » على حد قول الأستاذ جلاد

القانون الدولي الخاص المصري

للدكتور حامد زكي — ٨٤٠ ص من قطع المقتطف — الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٠

مما يسر هذه المجلة ان ترى مثل هذا الكتاب ، وقد نوهت به حين صدور طبعته الأولى سنة ١٩٣٦ ، يبلغ مكانة رفيعة في دائرة المشتغلين بالقانون وينال رواجاً عظيماً حتى ان صاحبه يعيد طبعه بعد سنوات أربع

وليست هذه الطبعة بمجردة عن المراجعة والزيادة ، بل جاء أوانها في عهد تغير فيه نظام القضاء في مصر بسبب ما تبدَّل من جراء اتفاقية مونترو : فألغيت الامتيازات التي كانت تشل

يدي المشرّع المصري وواجهت المحاكم الأهلية عدداً من مسائل تنازع القوانين ، وقامت في وجوه المحامين والقضاة والرعايا على السواء مشكلات تتعلق بأمور الجنسية والموطن والدين. وعلى ذلك رأى صاحب الكتاب — وهو استاذ القانون المدني والقانون الدولي الخاص بكلية الحقوق عندنا—ان يعيد النظر في الكتاب بحيث يدعمهُ ويغنيه فيجعله للطلبة عوناً نافعاً ولرجال الصناعة سنداً ومرجعاً . وتلك يدٌ يشكر عليها

وأما الكتاب نفسه من حيث التأليف والتنسيق والعرض والتحليل فقد قلنا فيه القول الحسن عند صدور الطبعة الأولى . واليوم يحلو لنا ان نبين في هذه الطابعة وقفات للمؤلف محمودة . الدكتور حامد زكي وطني غيور : يغضب للمحاكم الأهلية والمشرع الأهلي (ص ٦٣٩ و٦٥٦) ويثور على إهانة الكرامة القومية (ص٦٥٧) ويندد باستغلال الدول الأجنبية تسامح الحكومات المصرية من قبل (ص ٦٧٠)

وليس معنى هذا أن المؤلف يكتب عن هوًى . فإنما من حق العالم ان ينصر قومه متى كان الحق في جانبهم والبغي في الجانب الآخر . ومن علامات استقامة المؤلف وعدالته أنهُ لا يتردد في وضع الشيء موضعه وإن أغضب حكمه طائفة من الناس . من ذلك قوله :إنهُ ليس من المعقول مطلقاً القول بأن الشريعة الاسلامية توجب معاملة غير المسلمين في دار الاسلام معاملة ممتازة . فإما الاسلام مع المساواة واما دفع الجزية او التمتع بمركز أقل من مركز المسلمين أو الاستمرار في الحرب حتى التسليم (ص ٦٥٩ الهامش) . وقولهُ ايضاً : ان في وضع القانون الديني بمصر مساوىء قد ينتج عنها ظلم واضطراب في الأحكام . وقولهُ ايضاً : ان للمحاكم المختلطة فضلاً لا ينكر وخدمات للعدالة جلية

وبعد قراءة هذا الكتاب الجليل أنك تشعر بأن صاحبه رجل له قدرة على تصريف الكلام القانوني وله رأي خاص يبديه قويًّا مدعماً ، واليك مثلاً على هذا تعليله لنشأة نظام الامتيازات في البلدان الاسلامية (ص ٦٧٤) ، ومواقفهُ المختلفة ازاء مسئلة « تنازع القوانين » و « حالة الاجانب » وهذا الفصل الأخير غزير الفائدة موفور الاجتهاد ، يدل على أستاذية متمكنة

هذا وقد أسفنا على أن الكتاب ليس في آخره مسرد تثبت فيه الألفاظ الخاصة بالقانون من عربية وفرنسية ولاتينية وغيرها[1]

ب

(١) هل ندل المؤلف على بعض أغلاط مطبعية لعله ان يتداركها في الطبعة الثالثة ان شاء الله privilìgiés ص ٦٥١ والصواب. privilégiés—privilèges ص ٦٥٤، والصواب. priviléges — éxigées ص ٦٤٣٦، والصواب exigée— هذا ومما يحسن مراجعته من ناحية الاداء العربي هذان التعبيران . «وقد حصل التساؤل حول الجهة المختصة بنظر دعاوى الاحوال الشخصية . . . » ص ٦٤٠— «وقد قام الخلاف حول معرفة ما اذا كان . . . » ص ٦٤٦

نظرات في الفكر

لادوار علم ، ٢٢٧ ص من القطع الصغير
Ed. Alain, Réflexions sur l'Esprit

هذا كتاب لطيف باللغة الفرنسية يسرد فيه صاحبه آراءه في مختلف مسالك الحياة وشتى نواحي التفكير. فيبحث من طريق التمثيل والتحليل والاستشهاد احياناً في صلة الضحك بالاضطراب وقوام الحياة على الحركة، وتولد الانعطاف عن الحال المضحكة، واختلاف الرجل الكيس عن الرجل الأحمق من طريق الاحساس، والنشاط والاندفاع وما وراءهما من الابتداع، والذاتية من حيث هي طرافة، والفرق بين القلب والفكر وما ينطوي تحت ذلك من صفات الروح، والسحر القائم على الجمال والشباب والاضطراب النفساني، وصلة الفن بالفكر وهنا نضرب مثلاً المأساة والمهزلة، وتكيف الفكر بالحياة: حياة الجماعة وحياة الفرد مما ينتج التوازن والانسجام، ثم جاء البحث الأخير في التهزل humour والسخرية وما بينهما من الفرق وما يصدر عن السخرية من الدقة وعن التهزل من العطف

والكتاب كما ترى سلسلة نظرات تتصل من جهة بعلم النفس، ومن جهة اخرى بعلم الاجتماع. وهذه النظرات جارية على أسلوب أدبي من حيث الشكل، لا على أسلوب علمي قائم على التجارب المباشرة وان كثرت الامثال. ويذكرنا الكتاب بلون من ألوان الأدب الفرنسي معروف منذ ايام مونتني Montaigne، وآخر اصحابه في هذا العهد بفرنسة: Alain

ولغة الكتاب حسنة، وفيه ومضات فلسفية ونفسانية تغذي الذهن المتطلع ب.

القاموس المدرسي

معجم فرنسي عربي — تأليف متري الياس — صفحاته ٥٤٦ من القطع المتوسط — طبع بالمطبعة العصرية

كانت ولا تزال المطبعة العصرية داراً كريمة على الثقافة العامة بما تخرجهُ من آثار علمية وادبية وقصصية في اثواب قشيبة ولا تدخر في سبيلها جهداً ولا تضن بغال حتى اصبحت مطبوعاتها حلية للمكاتب وذخراً للادباء والمتأدبين. وكان للاستاذ الياس انطون الياس يد لا تجحد عند المتفعين بمعاجمه في اللغتين الانكليزية والعربية. وقد رأى شقيقه الاستاذ متري الياس ان يتمم هذا الفضل فأخرج معجماً مدرسيًّا مزيناً بالصور والرسوم في اللغتين الفرنسية والعربية يقع في ٥٤٦ صفحة من القطع المتوسط بالدقة والعناية اللتين عرفتا عن مطبوعات هذه الدار. وقد رأينا في هذا المعجم مزايا تجعله في مقدمة ما صدر في هاتين اللغتين من المعاجم اذ حوى كلمات جديدة أدخلها مجمع اللغة العربية الملكي كما ضم كثيراً من المصطلحات العلمية الحديثة التي تدور على اقلام الكتاب في هذا العصر. فنشكر الاستاذ متري الياس على هذا الجهد ونوجه اليه انظار القراء لا سيما طلبة المدارس. وقد جعل ثمنهُ ٢٠ قرشاً يضاف اليها اجرة البريد ويطلب من مؤلفه بالمطبعة العصرية بالفجالة بمصر

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثامن والتسعين



تمثال يضاهي تمثال زهرة ميلو

[راجع وصفه في باب الاخبار العلمية صفحة ٣٢٤]

[راجع وصفه في باب الاخبار العلمية صفحة ٣٢٤]

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن والتسعين

١ مارس سنة ١٩٤١ — ٣ صفر سنة ١٣٦٠

البحث العلمي الحديث

في الصحة والمرض والجوع

للجوع معنىً جديد

من حسنات البحث العلمي الحديث في شؤون الصحة والمرض ، اننا غدونا اصحّ فهماً لمعنى الجوع مما كان الناس قبلنا في اواخر القرن الماضي . ذلك بأن علماء الكيمياء الحيوية على وجه خاص أثبتوا بالتجربة والبرهان العملي ، ان ملء المعدة بالطعام لا يغني عن الجوع كما يفهم الجوع الآن في دوائر العلم الحديث . وان المرء قد يأكل جهده بغير ان يشبع حاجة جسده الى جميع العناصر التي لا بدَّ منها لنموّه السويّ وصحته الكاملة ، وان نقص مقادير يسيرة جدًّا من مواد لا ترى بالعين ولا تذاق باللسان ، يفضي الى حالات مرضية ليس اقلها فقر الدم وخفقان القلب واسهال مزمن وإعياء الاعصاب ، ونهايتها في بعض الأحيان الجنون والموت . ولكن العلم الحديث قلما يكتفي بالناحية السلبية من البحث بل يتخذها مطية الى العمل الايجابي . ذلك بأن علماء الكيمياء الحيوية والتغذية اثبتوا ان اضافة مقادير صغيرة من مواد معيَّنة الى طعام يعتبر في الظاهر مستكملاً لجميع عناصره من زلال ونشاء ودهن وملح ، هي التي تنشىء الحدَّ الفاصل بين المرض والصحة ، أو بين الموت والحياة

من بضع سنوات أقدم الدكتور كوري مان Corry Mann على تجربة التجربة التالية في

أحد معاهد الصبيان بالولايات المتحدة الأميركية . كان الصبيان يأكلون طعاماً يبدو كاملاً من جميع نواحيهِ ، بحسب العرف المتبع والوضع المفهوم . فخطر له ان يستكشف تأثير إضافة اللبن الحليب الى هذا الطعام في نموّ الصبيان وصحتهم . فقسمهم فريقين، ومضى الفريقان يأكلان الطعام الذي يقدمهُ المعهد الى ابنائهِ . ولكن الدكتور مان أضاف الى طعام أحدهما كوبين من اللبن كل يوم . ومضت التجربة أياماً وأسابيع ، والطبيب يدوّن في سجل خاص جميع الحقائق التي يسفر عنهم فحصهم فحصاً طبيًّا دقيقاً ، وعند ما انتهت التجربة ، قابل هذه النتائج بعضها ببعض ، فوجد ان الفريق الذي تغذى بالطعام العادي المعتبر كاملاً ، زاد وزن كل فردٍ منهُ على المعدَّل ٣٫٨٥ من الرطل وطولهُ بوصة و٨٤ في المائة من البوصة . بينما كانت الزيادة في الفريق المقابل ٦٫٩٨ الرطل وزناً و ٢٫٦٣ البوصة طولاً ، وقال الطبيب الباحث في تقريره ان زائراً عابراً يجوز أرض هذا المعهد لا يستطيع الاَّ ان يلمح أفراد الفريق الثاني وان يميزهم عن أفراد الفريق الاول . ان أمارات العافية كانت مكتوبة على جباههم

وليس بالغريب ان يفضي نقص يسير في مادة ما او اكثر في طعام المرء ، الى الاصابة بأمراض، على الطبيب المعالج ان يواجهها كل يوم . والبحث العلمي يسفر كل سنة عن اضافات جديدة الى هذه المواد ، وكذلك الى الأمراض التي تنشأ عن نقصها

فهناك مثلاً اثنا عشر معدناً لا غنى للجسم عنها [1] . وهناك نحو عشرين نوعاً من الفيتامين ثمانية منها على الأقل لازمة للجسم البشري . ثم ان البروتينات مؤلفة من مواد أبسط تركيباً منها تعرف باسم الاحماض الأمينية . وقد عرف العلماء ثلاثة وعشرين حمضاً منها ، ولكنهم لم يعرفوا بعد اي هذه الأحماض لبنات نتروجينية اساسية في بناءِ الجسم . والخبراءُ مكبون الآن على هذا البحث وقد تكون نتائجهُ من أهمّ ما يقرّرهُ العلم تأثيراً في ارتقاءِ الجنس البشري . ومع قلة المعلوم وكثرة المجهول في هذه الموضوعات يعلم الباحثون ، ان عوز الجسم مدة طويلة الى أحد الاحماض الأمينية او الفيتامينات او المعادن الاساسية ، يفضي الى عجز عضو او اكثر من اعضاءِ الجسم عن النهوض بوظيفتهِ . ثم ان طائفة كبيرة من الناس ولا سيما الطبقات الفقيرة، وخاصة في الدول المحصورة ، تشرف على التغريث [2] لقلة ما تصيبهُ جسومها من الزلال والدهن. فالوقود لازم للجسم لزوم المعادن لهُ ، واستخراج الوقود اللازم لهُ من المواد الزلالية التي تؤكل، عمل كبير النفقة ولاسيما للطبقة الفقيرة، فلا غنى عن الدهن في أشكالهِ المختلفة [3]

---

(١) راجع « العناصر الحيوية » مقتطف نوفمبر ١٩٣٧ صفحة ٤٤٧ (٢) غرثه جوعه تجويعاً (المخصص)
(٣) راجع مقال « موارد الطعام في بلدان القارة الاوربية » في هذا الجزء صفحة ٢٦١

ولكن الفاقة ليست دائماً السبب الأول للنقص الغذائي. وقد روى السر روبرت ماجريسون المتوفر على دراسة « الاغذية والاستمراء » قصة شاب اصاب يسراً بعد عسر وتعطل عن العمل فصار في وسعهِ ان يأكل ما يشتهي وكل ما يشتهي منهُ ولكنهُ مع ذلك اصيب بأحد امراض نقص الغذاء . كان قبلاً يعيش في مقاطعة ريفية ارلندية حيث معظم طعامهِ من خضر الأرض ولبن الماشية، وفي الحين بعد الحين قطعة من لحم ارنب او سمك . فلما ذهب الى احدى مدن انكلترا وصار في وسعهِ ان يبتاع ما يريد ، غير ألوان طعامهِ ، فأكل الخبز الأبيض بدلاً من الخبز البيتي الاسمر، واللحومَ المقدَّدة والمجففة بدلاً من الخضر والبطاطس واللبن ومصل اللبن . ولكن ارتفاع مستوى معيشتهِ — اذا قيس بمقدار ما ينفق على معيشته — لم يغنهِ عن الاصابة بمرض مرده الى الجوع ، الجوع بالمعنى العلمي الحديث . ذلك بان السر روبرت فحصهُ فحصاً مدققاً فوجد جسمهُ في أشدّ الحاجة الى المعادن والفيتامينات وهي موادكان يصيبها في طعامه الأرلندي القليل ولم يصبها في طعامه عند ما أصبح ميسوراً

وقد انصرف فريقان من العلماء الانكليز الى بحث مقدار فيتامين ب$_1$ (B1) في الخبز الأسمر ومقابلتهِ من هذه الناحية بالخبز الأبيض . ونشرا نتائج بحثهما في المجلة الطبية البريطانية (١) فاذا هناك اجماع على تفوق الخبز الأسمر على الخبز الأبيض من حيث مقدار فيتامين ب$_1$ فيهما . وعني فريق آخر من علماء التغذية بدراسة قيمة الخبز وما يؤكل منه في انكلترا على اساس الجراية المعينة في عصور مختلفة . فوجد رجاله ان مقدار فيتامين ب$_1$ نقص نقصاً مطرداً نضرب عليه مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة ساقها الباحثون . ففي سنة ١٨٣٨ كان مقدار ما يصيب فقراء لندن كل يوم — بحسب القانون — في طعامهم من وحدات فيتامين ب$_1$ مبلغ ١٢٣٠ وحدة بينما كان ما يصيبه الانكليز في سنة ١٩٣٧ متفاوتاً بين ٢٩٠ وحدة في الطبقات الفقيرة الى ٤٥٠ — ٥٥٠ وحدة في الطبقتين الميسورتين . والنتيجة « ان الطبقات الميسورة وهي أحسن طبقات الأمة غذاء لا ينال ابناؤها في طعامهم من فيتامين ب$_1$ الا اصف ماكان الفقراء يصيبونه في الجانب الأول من القرن التاسع وهذا مع العلم بأن الطبقات الميسورة تصيب الآن ضعف ما تصيبه الطبقات الفقيرة منها »

واليك مثلاً آخر . تدلُّ السجلات الصحية في اميركا على ان خمسة آلاف إصابة بالاسقربوط (٢) حدثت بين خشابي شمال ولاية ماين الاميركية وفلاحيها في الجزء الأول من سنة ١٩٣٩ واعراض هذا المرض لثة متقيحة وضعف عام وفقر في الدم وميل الى النزف الذاتي ، وهو ناشيء عن نقص فيتامين C ولكن فيتامين C يوجد في البطاطس وشمال ماين مشهور بزراعتها،

(١) British Medical Journal (٢) Scurvy

فالعلاج ميسور ولكن على شرط أن يأكل الخشابون الفلاحون البطاطس لا ان يكتفوا باصداره

وقد يتناول الناس طعاماً ناقصاً تحقيقاً لأغراض معيَّنة . ويروي الدكتور دويط ويلبور أحد اساتذة مدرسة الطب بجامعة ستانفورد الأميركية ثلاث حوادث من هذا القبيل . اولاها قصة سيدة كانت مصابة بحالة الاستهداف allergy [1] فحدّدت مواد غذائها لتجتنب المادة التي تستهدف لها . ولكن هذا الغذاء كان ينقصهُ مقادير يسيرة من مواد لاغنى عنها للجسم . فشحب لونها وهزل جسمها وتقشرت بشرتها وأصيبت باضطراب في معدتها وتهيّج في أعصابها ، وجميعها من أعراض البلاجرا . والثانية قصة فتاة ارادت أن تنحف بتقليل الأكل . فكانت على الغالب تتناول فنجاناً من القهوة وتكتفي بهِ فطوراً وقطعة من الشوكولاته ظهراً وطبق حساء صافٍ مساءً . فما انقضت اشهر حتى هبط وزنها ١٨٠ رطلاً الى ٩٠ رطلاً ، ولكنها أصيبت في خلال ذلك بفقر الدم وبقرحة في المعدة واسهال مزمن . والثالثة قصة زنجية قيل لها ان أكل النشاء المستعمل في الكي يمكنها من تبييض بشرتها فبدأت تأكلهُ مستغنية رويداً رويداً عن الخضر واللحوم وغيرها حتى غدا النشا طعامها الوحيد . فابيضّت بشرتها ولكنهُ كان بياض فقر الدم والاستسقاء وصحبهما الشلل وخفقان القلب وهذا الأخير من الأعراض المميزة لمرض البريبري

فيتامينات جديدة من القديمة

عندما أطلق لفظ فيتامين Vitamin في سنة ١٩٢٠ على عوامل غذائية كشفت قبيل ذلك ، وسمت هذه العوامل الغذائية الحيوية اوالفيتامينات بالحروف الثلاثة الأولى من الأبجدية الفرنجية A و B و C . وأثبت البحث ان نقص فيتامين A مقترن بالعشو (ضعف البصر بالليل) والكساح ، ونقص فيتامين B بالبريبري ونقص فيتامين C بالاسقربوط . وكانت هذه الأمراض معروفة من قديم الزمان ، ثم عرف ان غذاءً يحتوي على الكبد يشفي العشو والكساح ، وغذاءً يحتوي على قشور الرز يشفي من البريبري ، وغذاءً يحتوي على عصير الليمون يشفي من الاسقربوط . ولكن العلماء لم يبدأوا في تبين المواد الكيميائية في الكبد وقشور الرز وعصير الليمون التي تشفي من هذه الأمراض إلاَّ في سنة ١٩٠٧ . وتلا ذلك استفراد هذه المواد ولكن التقدم كان سريع الخطو في العهد الأخير ، فكشفت فيتامينات جديدة وثبت ان بعض القديمة مركب من عوامل غذائية شتى

ففي سنة ١٩٢٢ ثبت مثلاً ان العامل المانع للكساح في فيتامين A غير العامل المانع للعشو . فلما استفرد العامل المانع للكساح نقيًّا اطلق عليهِ فيتامين D واحتفظ بالاسم فيتامين A للعامل المانع للعشو . ومن اوصاف فيتامين D انهُ ينظّم استعمال الجسم للجير والفصفور . فاذا كان ناقصاً فقد لا تنمو العظام والأسنان نموًّا سويًّا . ثم ظهر بعد ذلك ان فيتامين A يحتوي على مادة اخرى

(١) راجع مقتطف يناير ١٩٣٨ ص ٦٦ وآفاق العلم الحديث « الاستهداف » ص ٢٠٦

فيه لا غنى عنها لخصب الحيوان وتناسله فاستفردت ودعيت فيتامين E [١]

وبينما كان العلماء مكبين على تجزئة فيتامين A الأصلي الى فيتامينات A (العشو) و D (الكساح) و E (الخصب والعقم) كان علماء آخرون يوجهون عنايتهم الى فيتامين B فاذا هو ليس وحدة مستقلة ولكنهُ منجم فيه كنوز كثيرة . وقد بلغ عدد الفيتامينات التي استخرجت منهُ حتى ربيع سنة ١٩٤٠ عشرة فيتامينات ومن المحتمل ان يكون هناك فيتامينات أخرى

من هذا المنجم الكيمائي الحيوي الذي عرف اصلاً باسم فيتامين B ، استخرج أولاً العامل المانع للبري بري . وقد تمت هذه العملية على أيدي عالمين هولنديين في جزيرة جاوى في سنة ١٩٢٦ ثم تمكن عالم كيميائي اميركي يدعى وليمز في سنة ١٩٣٦ من معرفة ترتيب الذرات في جزيئهِ وصنعهُ بالتركيب الكيميائي وهو يعرف الآن باسم فيتامين B_1 وتصنع منهُ مقادير كبيرة وتباع . ومن اسمائهِ « ثيامين » Thiamin . وقد أثبتت البحوث الجديدة ان مادة الثيامين ضرورية لنموّ جذور النبات ، والمشتغلون بزراعة البساتين يطلبون مقادير منها لاستعمالها في زراعتهم . ولكن شأنها الأول مستمدٌ من فائدتها في جسم الانسان حيث تدخل في فعل حرق (أكسدة) السكر والنشا في الجسم ، فاذا كانت ناقصة أفضى ذلك الى انحراف ميزان التمثيل العضوي في الجسم ، والى اضطرابات في الاعصاب والقلب

والعامل الحيويُّ الثاني الذي فصل من فيتامين B المعقد كشف أولاً في تجارب أجريت على الجرذان . وهو يوجد في قشور الرز واللبن وزلال البيض وغيرها من مواد الطعام . كشفهُ أولاً ثلاثة أطباء باحثين ألمان في سنة ١٩٣٣ وفي السنة التالية ركّبهُ الدكتور كون Kuhn — أحد الثلاثة — بالتأليف الكيميائي ثم أطلق عليهِ اسم ريبوفلافين Riboflavin مجاراةً لتسمية هذه الفيتامينات أسماء كيميائية

ولكن صلة الريبوفلافين بالمرضى لم تتضح إلاَّ في سنة ١٩٣٨ ففي تلك السنة كان طبيبان من أطباءِ مصلحة الصحة العامة في أميركا يعالجان مصابين بحالة جلدية غريبة . وكان يبدو لهما ان هذه الحالة ضرب من اختلاطات البلاجرا ولكن علاج البلاجرا لم يجدِ في إزالة أعراض الشفاه اللامعة والأشداق المشققة وغيرها من الأعراض فقررا تجربة الريبوفلافين . فلم تنقض أيام حتى التأمت شقوق الأشداق وتحسنت أحوال المصابين

وبينما كان الريبوفلافين يستعمل على هذا الوجه في مستشفى بجامعة جورجيا كشف لهُ تأثير آخر في احد عشر مصاباً بحالة جلدية غريبة . ولكن الاطباء لاحظوا أن هؤلاء المرضى كانوا مصابين كذلك بآفة في العين تعرف باسم « كيراتيتيس » Keratitis أي التهاب القرنية

(١) راجع آفاق العلم الحديث صفحة ١٥٦ ومقتطف يناير ١٩٤١ ص ٣٩

وهي حالة فيها تمتدُّ أوعية الدم الشعرية في خلايا العين الشفافة فيضعف البصر وقد يحدث العمى. وكان الاطباء يعالجون هؤلاء المرضى بالريبوفلافين ليشفوا آفة الجلد التي ألمّت بهم، وما بدأت دلائل التحسن على الجلد حتى لاحظ الاطباء أن هناك تحسناً كذلك في حالة العيون. فحذف الريبوفلافين من الغذاء لامتحان الصله بينهُ وبين حالة العيون فلم تنقض أيام حتى عادت العيون تعتم والبصر يضعف. وأعيدت التجارب مراراً فثبتت الصلة بين هذا الفيتامين وحالة العين التي تقدم ذكرها. وكذلك نرى أن فائدة الريبوفلافين الصحية بقيت مجهولة الى عهد قريب ثم غدا من المواد التي لاغنى عنها ونقصهُ مرتبط بآفتين تصيبان الجلد وأخرى تصيب العين. ولما كانت التجارب قد أثبتت أن الريبوفلافين لازم لنمو الجرذان فالغالب انهُ يلزم كذلك لنمو الجسم البشري، ولكن هذا الموضوع لا يزال قيد البحث والامتحان

وكان الانتصار الثالث في حلّ مركّب ڤيتامين B كشف عامل فيهِ يشفي من مرض البلاجرا ويمنعهُ. ولا يخفى ان الظن اتجه اولاً الى ان الپلاجرا مرض مكروبي وقد أخذ اسمهُ في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر عن لفظين ايطاليين (Pelle agra) وهما يعنيان الجلد الخشن عند ما كان هذا المرض منتشراً في ايطاليا والنمسا واسبانيا وغيرها من بلدان اوربا. وانتقل الى اميركا ولكن السلطات الصحية الاميركية هالها في سنة ١٩٠٧ ما بلغهُ من الانتشار في الولايات الجنوبية. ويقدَّر عدد الاصابات السنوية بهِ في اميركا بمئات الالوف. وأهم أعراضهِ خشونة الجلد، واختلال جهاز الهضم واضطراب في العصب والعقل قد يفضي الى الجنون. وكل علاج للپلاجرا يجب ان يكون ناجحاً في شفاءِ هذه الأعراض الثلاثة

ولا نعيد هنا كيف كشف جولد برجر الأميركي ان البلاجرا مرض من امراض سوء التغذية (١) ولكنهُ وجد العلاج في اللبن واللحم النيء والخضر الغضة والبيض والخميرة. وأطلق جولد برجر على العامل الغذائي المانع للبلاجرا حرفي (P. P.) وهما الحرفان الأولان من لفظين يعنيان مانع البلاجرا (٢). ولكنهُ لم يعلم ما هو هذا العامل ولا ما تركيبهُ الكيميائي. ومن نحو خمس عشرة سنة كان الطبيبان مينو (٣) ومرفي يبحثان في معالجة الانيميا الخبيثة بالكبد وأصابا نجاحاً عظيماً فوجه ذلك أنظار الباحثين الى ان الكبد خزان كبير لمواد كيميائية، ولذلك قرَّر فريق منهم البحث فيهِ عن العامل المانع للبلاجرا الذي أشار اليهِ جولد برجر. وفي سنة ١٩٣٧ أثبتت جماعة الباحثين في جامعة وسكنصن الأميركية ان المادة الشافية والواقية من البلاجرا — وهي احدى مواد الكبد — هي الحمض النيكوتينيك Nicotinic Acid.

---

(١) راجع آفاق العلم الحديث صفحة ١٥٩ (٢) Pellagra Preventive
(٣) راجع أساطين العلم الحديث صفحة ١٩٣ الطبعة الاولى و٢٠٧ الطبعة الثانية

الحمض النيكوتينيك وصحة الجسم والعقل

هذا الحمض مركب عضوي كشف من نحو ستين سنة وسمي بهذا الاسم لأنهُ من مشتقات النيكوتين، ولكن أحداً لم يعرف لهُ فائدة فبقي في كشف الاحماض وكأنهُ لاوجود لهُ . وكان الدكتور كسمير فونك أحد المشتغلين بمسائل الفيتامين قد عثر عليهِ في قشور الرز في سنة ١٩١٢ ولكن فونك كان يبحث عن العامل الذي يمنع البريبري فجرب الحمض النيكوتينيك في منع البريبري فلم يره مجدياً فنبذه . وفي السنوات الأخيرة تضافرت شواهد شتى على ان لهذا الحمض شأناً خاصًّا في مسائل سوء التغذية والمرض منها انه داخل في تركيب الانزيمات التي تنشط النمو وتضبطه . وان نمو البكتيريا العنقودية (ستافيلوكوك) يقتضي وجود الحمض النيكوتينيك والفيتامين في السائل التي تزرع فيه . فشرع البحاث في البحث عنهُ . وهمست الطبيعة في اذن جماعة وسنكنصن أو هيأت لهم الفرصة الأولى للنجاح . ذلك بأنهم كانوا يجربون التجارب بطائفة من الكلاب مصابة بمرض اللسان الأسود (وهو بلاجرا الكلاب) لأنها كانت تتغذى بطعام لا يحتوي على العناصر المانعة لهذا المرض . فلم يغيروا طعامها ، واكتفوا باضافة مقدار من الحمض النيكوتينيك اليهِ ، فلم تنقض أيام حتى خفَّ الورم وبدأ اللسان يعود الى لونهِ وحجمه الطبيعيين ، أي ان الكلاب درجت الى الشفاء ثم شفيت فعلاً

فلما نشرت هذه النتائج في مجلة « الجمعية الكيميائية الاميركية » في سبتمبر ١٩٣٧ أقبل جميع الباحثين المهتمين بهذا الموضوع على التجريب ، واذا الحوادث تتوالى على المجلات الطبية والكيميائية عن فائدة استعمال هذا الحمض في معالجة البلاجرا وما يقترن بها . ففي مستشفى جامعة ديوك مثلاً كان رجل مضى عليهِ خمس عشرة سنة وهو مصاب بالبلاجرا جسمهُ مقرَّح ولسانهُ متورم فلا يكاد يزدرد ، وامعاؤه مصابة باسهال وعقله معلَّق بين السلامة والجنون . ولكن لم تنقض اربع وعشرون ساعة على حقنهِ بالحقنة الأولى من الحمض النيكوتينيك حتى بدت عليهِ علامات التحسُّن . وبعد ستة ايام اندملت قروحهُ وزالت . وفي نهاية اليوم الثاني عشر تغلب سحر العلاج الجديد على مرض خمس عشرة سنة متوالية . وهذه الحادثة ليست شاذة

وفي سنة ١٩٣٩ اذيعت نتائج خطيرة الشأن اسفر عنها البحث في المدرسة الطبية التابعة لجامعة جورجيا ، حيث عولجت طائفة من المرضى لم يبد على احدهم عَرَض من اعراض البلاجرا ولكنهم كانوا جميعاً مصابين باضطراب عقلي . فعولجوا بالحمض النيكوتينيك فتحسنت حالة كلٍّ منهم ووضع الاطباء المعالجون تقريراً قدموهُ الى الجمعية الطبية الاميركية فقالوا فيهِ « هذه النتائج تدلُّ على ان هؤلاءِ المرضى كانوا مصابين بضرب من البلاجرا منتشر ولكنهُ غير معروف . ونحن واثقون بان العلاج بالحمض النيكوتينيك انقذ حياتهم وان كثيرين ماتوا لعجز معالجيهم عن

تبين الاعراض الخبيثة للبلاجرا عند ما كانت الاعراض الأخرى غير ظاهرة »

وفي النصف الاول من سنة ١٩٤٠ اختار احد اطباء المدرسة الطبية بجامعة سنسناتي واحد اطباء مدرسة كاليفورنيا الطبية ستين مريضاً من المصابين بآثار سوء التغذية ولكنَّ اعراض البلاجرا الصريحة لم تكن قد ظهرت عليهم . فدرس ثانيهم وهو طبيب نفسي حالتهم العقلية والنفسية فوجد انهم مصابون باعراض تدلُّ على اضطراب الأعصاب والعقل. ثم عولجوا بالڤيتامينات — فريق عولج بالحمض النيكوتينيك ، والثاني بالثيامين ، والثالث بمادة تدعى « كوكاربوزيلاس » وهي الثيامين في قالب الانزيم . وفي جميع الحالات تحسنت الحالة العصبية في خلال ساعات بعد العلاج الاول وبعضهم ذاق طعم النوم للمرة الأولى خلال سنوات

وليلاحظ ان كلا الحمض النيكوتينيك (وهو أحد مشتقات فيتامين B الأصلي ومانع للبلاجرا) والثيامين (وهو مشتقٌ آخر من مشتقات فيتامين A الأصلي ومانع للبريبري) كان ناجعاً في شفاء هذه الأعراض العصبية . ولنذكر كذلك ان الأعراض الشبيهة باعراض البلاجرا كتشقق الشدقين وما أشبه عولجت بالريبوفلافين فشفيت والريبوفلافين مشتق من فيتامين B الأصلي

فكأن هذه الحالات المرضية الثلاث متداخلة بعضها في بعض ولعلَّ السرَّ في هذا التداخل مدلول عليه في ان الفيتامينات الثلاثة تدخل في تركيب ثلاثة من انزيمات الجسم التي لاغنى عنها في حفظ التوازن الاستمرائي[1] فيه. فاذا عجز أحدها عن النهوض بمهمته اضطرب عمل الاستمراء والتمثيل ونشأ عنهُ مرض البريبري او البلاجرا اوغيرها . وهكذا بدأ العالم في سنة ١٩٢٢ بثلاثة فيتامينات ولكن البحث الحديث حلَّ فيتامين A و B الى عوامل حيوية أخرى كما يلي

فيتامين A	A العشو D الكساح E العقم
فيتامين B [2]	الثيامين (B_1) الريبوفلافين (B_2) الحمض النيكوتينيك

الفيتامين وأسرار النزف

اما الڤيتامين C وهو الفيتامين الاصلي الوحيد الذي لم يتجزأ ، فقد أثبت البحث انه والحمض الاسوربيك Ascorbic سواء . وهو مانع للاسقربوط وبعض انواع الانيميا وما

(١) Nutritional balance (٢) استخرجت سبعة عوامل فيتامينية اخرى من فيتامين B ولكن تأثيرها لم يجرب الا في الحيوان وفائدتها في الناس لم تمتحن بعد

يشبهها من الامراض . ويؤخذ من نتائج البحث الحديثة ان ڤيتامين C ضروري لتركيب المادة الغروية التي تربط خلايا الانساج بعضها ببعض. فاذا فحص هذا النسيج الموصل او الرابط بين الخلايا بالمجهر ظهر مادة هلامية صافية فيها عصائب أو قُدد كأنها عوارض الحديد في الاسمنت المسلَّح. فاذا لم يكن ڤيتامين C متوفراً وفحص هذا النسيج الرابط بالمجهر ظهر هلاماً صافياً لا قدَد فيهِ ، ولذلك تميل الخلايا الى فقد تماسكها . والنزف الذي يصاب بهِ المصابون بالاسقربوط ناشيء عن ميل الخلايا الى التفكك في جدران الاوعية الدموية الشعرية فيتخللها الدم . فاذا اعطي المصاب ڤيتامين C ثم اذا فحص نسيجه الرابط بالمجهر ظهر ان هذه القدد عادت الى الهلام والخلايا رجعت مترابطة الى مكانها السوي

وهناك فيتامين آخر ذو شأن في النزف الناشيء عن تفكك خلايا اوعية الدم الشعرية وهو الفيتامين K وقد تنبه اليهِ اولاً الدكتور دام في سنة ١٩٢٩ وكان حينئذٍ يجري تجارب في معهد كوبنهاغن بالدنمارك ، على أفراخ من الدجاج تغذَّى غذاء ناقصاً . فلاحظ انهُ اذا جرح فرخ منها ، فانهُ ينزف حتى يموت . وبعد البحث ثبت ان دمهُ يعوزهُ مادة « البروثرومبين » وهي المادة التي تمكن الدم من التجمُّد عند ما يتعرَّض للهواءِ. وتلا ذلك بحث آخر أثبت ان هناك عاملاً غذائيًّا خاصًّا لا غنى عنهُ في تركيب مادة « البروثرومبين » في الدم . واخيراً استفرد هذا الفيتامين وفي سنة ١٩٣٩ صنع بالتركيب الكيميائي في اربعة معاهد اميركية في وقت واحد . ولسنا في حاجة الى بيان فائدتهِ في الجراحة

ولعلَّ أعجب فصل في قصة الفيتامينات هو فصل لانزال في مستهلهِ، وآيتهُ قدرة الفيتامينات المختلفة على تحصين الجسم ضد المكروبات. وهناك مايبعث على الظن أن فيتامين A و C يعززان قوة المناعة الطبيعية في الجسم . فالذين يعوزهم فيتامين A معرضون أكثر من غيرهم للزكام ومايقترن بهِ من اصابات جهاز التنفس . وقد فحص أحد الاطباء من عهد قريب طائفة كبيرة من المصابين بالدرن الرئوي فوجد أن أكثر من نصفهم ينقصهم فيتامين A بينما أسفر فحص طائفة غير مصابة بالدرن الرئوي عن أن ١١ في المائة منها ينقصها فيتامين A . فهل يؤثر الدرن في تركيب الفيتامين في الجسم أو هل يحفظ الفيتامين الأغشية المخاطية قادرة على مقاومة باشلس الدرن ؟

وقرر الطبيب الانكليزي لسلي هريس ان فيتامين C يستنفد بسرعة عظيمة في الجسم في اثناء مقاومة الطفيليات المغيرة على الجسم. وان كرات الدم البيض فيها مقدار كبير من فيتامين C مركز فيها وهي على ما نعلم حماة الجسم من المكروبات الغازية . ولعلَّ هذا يفسر ما لاحظهُ بعضهم من ان الجسم المصاب بمرض معدٍ يستنفد من فيتامين C مقداراً اكبر مما يستنفده وهو سليم

وعلى كل حال فان صلة الفيتامين بالعدوى ومقاومتها موضوع بحث خطير لا يزال في مستهله

فردريك بانتنغ

مكتشف الانسولين ومنقذ المصابين بالبول السكري

[توفي العالم الكندي الكبير الدكتور السر فردريك بانتنغ مكتشف الانسولين في حادثة سقوط طائرة فخسرت الانسانية بوفاته رجلا أسدى اليها خدمة جليلة باكتشافه الانسولين ، ففتح أمام المصابين بالبول السكري باب الامل في الحياة ، وحقق ما عجز عنه اكبر الفسيولوجيين . وفي ما يلي صورة لحياته ولاسيما لتلك الايام التي قضاها باحثاً عن هذه الضالة — الانسولين — مندفعاً بحماسة الباحث في خرائب قصر قديم عن كنز مدفون]

أي شأن لبانتنغ ، بل أي صلة له بالبول السكري ؟ أنها لجرأة على العلم من هذا الجراح ! كان العلماء قد جمعوا قدراً كبيراً من الحقائق المتصلة بهذا المرض . ولكن بانتنغ كان براء من هذه المباحث جميعاً لأنهُ لم ينوِ في حياته أن يكون طبيباً متوفراً على معالجة المصابين بهِ . انتظم في الجيش الكندي في خلال الحرب الكبرى ، وذهب الى فرنسا ، فلم تبدُ عليهِ آيات الذكاء الخارق لا في المعاهد العلمية ، ولا في الجيش . ولكنهُ كان عنيداً ، لا يقرّ بهزيمة . قيل أنهُ جرح في ذراعهِ في خلال الحرب ، فأشار عليهِ الاطباء بقطعها والاَّ تعرض للموت فصاح بهم « إني أريد أن احتفظ بذراعي » . وها هوذا قد عاد من ميادين الحرب وذراعه لم تقطع

اشتغل فترة في مستشفى للاطفال في تورنتو ، ثم استقال وذهب الى بلدة صغيرة في « أونتاريو » ليمارس الجراحة فيها . فانتظر ثمانية وعشرين يوماً قبل ما جاءه المريض الأول وكذلك ختم الشهر الأول من ممارسته الجراحية المستقلة ، بمريض واحد ودخل قدره ثمانون قرشاً . وفي نهاية الشهر تمكن من الفوز بعمل « معيد » في مدرسة طبية هناك . وقد فعل ذلك لا لطموح علمي فيهِ بل بغية الرزق . فكان يقضي الليالي الطوال مكبًّا على كتب العلم يبن يديهِ يعد الدروس لليوم التالي ، ومضى على ذلك الى ان كانت ليلة ٣٠ اكتوبر من سنة ١٩٢٠

كان في تلك الليلة يطالع في وظيفة الغدة الحلوة (البنكرياس) فتغلغلت في نفسهِ حقيقة قديمة ولكنها خطيرة : اذا أزيلت منا جميعاً الغدد الحلوة ، متنا بالبول السكري . كان في عهد الطلب قد تعلم أن هذه الغدة تفرز في قناتها الى المعى الدقيق مفرزات خفية الفعل ، تساعد على هضم

المواد السكرية ، والدهنية ، والنشوية في الطعام . جلس في تلك الليلة التاريخية يقرأ كيف استأصل منكوفسكي Minkowski الألماني « الغدة الحلوة » من كلب سليم ، ثم خاط جانبي الجرح في البطن حيث استخرجت الغدة ، وأحاطه بكل ضروب العناية ، وجعل يراقبه يهزل أمام عينيه رويداً رويداً ، ويشتدُّ ظمأه وجوعه ، ويضعف نشاطه ، ويزداد السكر في بوله ، وفي أقل من عشرة أيام نفق ذلك الكلب بداء البول السكري . ثم أقبل على مباحث العلماء الآخرين فقرأ كيف اكتشف ذلك الألماني الآخر — لانجرهانز Langerhans — أجساماً صغيرة في تلك الغدة ، كانت أشبه شيء بالجزائر في البحر ، مفصولة عن الخلايا التي تولد المفرزات الهاضمة . وعلم بانتنغ ليلتها ان هذه الجزائر لا قناة لها ؟ فسأل نفسه وما الفائدة منها ؟

وخطر على باله في تلك الليلة ان يصرّح لتلاميذه في اليوم التالي بأن هذه الخلايا — خلايا الجزائر التي كشفها لانجر هانز — هي ما يقينا من البول السكري ، بل لتستطيع ان تربط القناة الحلوة في كلب وتمنع مفرزاتها من الوصول الى المعى الدقيق ، ومع ذلك لا يصاب الكلب بالبول السكري . . . ولكن اذا استؤصلت الغدة كاملة . . . ؟ ثم ان الباحث الاميركي أوجي Ogpie كان قد بحث في الغدد الحلوة في أناس ماتوا بالبول السكري فوجد كتل الخلايا المعروفة بجزائر لانجرهانز مريضة حائلة . هل تفرز هذه الخلايا هرموناً ؟ هل تصبُّ هذه الخلايا في الدم مباشرة ، إذ تكون سليمة ، افرازاً داخليًّا ، يحتوي على مادة مجهولة ، تمكن خلايا الجسم ، من حرق السكر الذي في الدم ، لتتناول من حرقه طاقة الحرارة التي تحتاج اليها ؟ لم يسمع بعد ان أحداً كشف هذه المادة المجهولة في إفراز هذه الخلايا

هاهو ذا بانتنغ قد قضى الليلة يبحث في ما تقوله طوائف البحّاث في أنحاء العالم ، كيف قضت سنوات تبحث عن هذه المادة المجهولة ، وتخفق في بحثها . وها هي ذي الاحصاءات الطبية يؤخذ منها ان ألوفاً من الرجال والنساء والشبان والشابات يموتون ، بالبول السكري هزالاً ظماء جياعاً . فكيف يستطيع أحد ان ينتظر من بانتنج اكسير الحياة لهؤلاء الناس المقضيّ عليهم . بل انك لو قلت له انهُ بعد ساعة واحدة فقط سيكشف اول الطريق الذي يفضي به الى ذلك الاكسير ، لسخر من قولك !

وانقضى الهزيع الثاني من تلك الليلة التاريخية ، وقام بانتنغ الى سريره ، بعد بحثه المتقدم ، ليأخذ قسطاً من الراحة ، فوجد على المائدة قرب سريره ، آخر عدد من مجلة « الجراحة والولادة وأمراض النساء » وكان قد وصله في النهار ففتحه ، ليتصفح مباحثه . . . . مهلاً . . . . اتفاق غريب . . . هو ذا اسم يطالعه من إحدى الصفحات ، مقترناً بالغدة الحلوة ! يكبُّ على الصفحة التي فيها بمقالة هذا الرجل . أمرٌ عجيب ! كيف تحوّل موضوع الدرس ، الممل ، الى بحث

أخـاذ . ان هذا الـكاتب يثبت أنهُ اذا سدَّت الحصى قناة الحلوة ، ومات المريض ، وشرّحت غدته هذه ، تبين ان الخلايا العادية التي تولّـد الافراز المهضمي تكون قد ضمرت وضؤلت وحالت وماتت . وأما الخلايا في جزائر لانجر هانز فسليمة سوية ... طار النوم من عينيه . ان هؤلاءِ الذين تسدُّ الحصوات قنوات غددهم الحلوة لا يصابون بالبول السكري . اذاً ثمة علاقة بين الاصابة بهذا الداء ، وبين جزائر لانجرهانز . وعمد الـكاتب الى الـكلاب يشق بطونها ، ويربط قنوات الغدد ، ثم يخيط الجراح ، ويترك الـكلاب تعيش عيشة سوية ، ثم بعد أيام يشق بطونها ثانية ، فيرى الغدد الحلوة حائلة ، ولـكن جزائر لانجرهانز فيها سليمة سوية ... وهذه الكلاب لم تصب بالبول السكري

أوى بانتنج الى سريره ، ولـكنهُ لم ينم . إذ كيف ينام ، وفي دماغه عاصفة ؛ وهو يحاول من دون وعي ، ان يصل بين عملية الـكلاب ، وبين انقاذ المصابين بالبول السكري من الموت المحتوم . أليس ثمة وسيلة ، لاستخلاص خلايا الجزائر السليمة في كلب ، حالت بقية غدته ، ثم استعمالها في كلب مصاب بالبول السكري فيبقى على قيد الحياة ؟؟ وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل هبَّ من سريره ، وكأن الهاماً هبط عليهِ ودوَّن في دفتره : — « اربط قناة الحلوة في الـكلب . ثم انتظر ستة أسابيع الى ثمانية حتى تحول . ثم استأصل بقيتها واصنع منها خلاصة » عندئذٍ استطاع أن ينام ، ولما استيقظ في الصبح أدرك أنهُ لم يولد ليكون جراحاً

— ٢ —

ذهب بانتنغ الى الاستاذ مكلود Macleod رئيس قسم الفسيولوجيا في كلية الطب بجامعة تورنتو . هاهوذا في مكتبهِ يحاول أن يستنجد بالالفاظ العلمية الضخمة ، ليقع من الاستاذ الـكبير ، موقع الاحترام والقبول . ولـكنهُ لا يصيب الاَّ تلك العبارات الثلاث البسيطة التي دونها في الساعة الثانية بعد نصف الليل ، . . . . قال . . . . اننا اذا ربطنا قناة غدة البنكرياس الخ . . . . وكان الاستاذ مكلود عالماً ، فأراد أن يعرف هل مايقوله بانتنغ قد ثبت بالامتحان وتأيد بمباحث الاطباء والعلماء . لعله أشار على بانتنغ في شيء من التعالي بوجوب انصرافه بضع سنوات ، الى القراءة في تشريح الحلوة ووظيفتها . أو لعله انقضَّ عليهِ كالصقر وأثبت له في جملة أو جملتين ، وهو العالم بكيمياء السكر في الدم ، ان بانتنغ يجهل هذا الموضوع الخطير كل الجهل . على أن بانتنغ كان رجلاً عنيداً ، راسخاً كالجبال لا تميد مع الريح ، فاعترف للعالم الـكبير امامه انهُ لا يعلم الاَّ اليسير من تشريح الحلوة ووظائفها وكيمياء السكر في الدم ، وانهُ لم يثبت بالتجربة أن ما يقوله صحيح ، ولـكنهُ يحس في قرارة نفسه انهُ صحيح . وكلما أعاد مكلود في مسألة البرهان العلمي وضرورته ، بدأ بانتنغ يبيّـن ، بأن ما يحس بهِ في قرارة نفسه لا بدَّ أن يكون صحيحاً

ولا ريب ان الاستاذ مكلود يستحق الثناء من التاريخ لأنهُ صبر على سماع هذيان الرجل وأخيراً سأله ما يريد، فقال أريد عشرة كلاب ، ومساعداً وثمانية أسابيع ليثبت . . . ما عجزعنهُ الفطاحل ؟

فلما اخبر بانتنغ استاذه في الجراحة وغيره من اصدقائه الخلص ، انهُ ينوي أن يبيع عيادته ويستقيل من عمل التدريس ، قالوا له جميعاً ، ان ذلك حمق وتهور ، وان حماسته لهذه الفكرة العارضة ، لا بدَّ ان تخف سورتها وأشاروا عليهِ بالعودة الى بلدته ، والمضي في عمله هناك فعاد ولكن هذه الفكرة ظلت مستحوذة عليهِ ، لا تفارقه . ما العمل وليس امامه معمل يجرب فيهِ ، ولا كلاب يستلّ منهُ حلوته . فأكبَّ على ما كتب في الموضوع يطالعه ، وأهمل عيادته ، لانهُ كان اذا كلت عيناه من المطالعة عمد الى التصوير وهو لا يدري من اصوله شيئاً

١٦ مايو ١٩٢١ وهاهوذا ، بانتنغ في جامعة تورنتو ، في غرفة حقيرة ، عالم لم يعنَ من قبل أحد ، بالبحث في موضوع أخفق فيه من سبقه من الباحثين ، ولا يتوقع أن ينال من أحد أجراً ما

ها هوذا في غرفة حقيرة ، وليس له فيها الا دكة من الخشب ، ومساعد لا يزال طالب طبٍ في الحادية والعشرين من عمره وعشرة كلاب. كان هذا المساعد ، تشارلز بست Best بارعاً في قياس مقدار السكر في دم الكلاب المصابة بالبول السكري وبولها. وكان أوسع علماً من بانتنغ بكيمياء السكر في الدم والبول ، لأن بانتنغ كان لا يكاد يعرف شيئاً منهُ. ولعل جهل هذين الباحثين ، كان أول بواعث نجاحهما ، حيث أخفق الآخرون لشدة تقيدهم بما عرف

أخذ بانتنغ الكلاب العشرة وبقر بطونها ، وربط قنوات الغدد الحلوة فيها ، فنجحت العمليات ، لانهُ كان جراحاً لبقاً . وانقضت سبعة أسابيع أو ثمانية عليها وهو ينتظر. وفي اليوم السادس من شهر يوليو سنة ١٩٢١ ، أخذ كلبين من الكلاب العشرة ، وكانت كلها مرحة لم يؤثر فيها بقر البطون ولا ربط القنوات ، وخدرهما بالكلوروفورم وبقر بطنيهما ثانية ، منتظراً أن يرى الحلوة في كل منهما ، وقد ضمرت وحالت ، بحسب نظريته فوجدها على حالتهما الطبيعية . سبعة أسابيع قد ذهبت عبثاً ، وليس في التجربة ما يدل أيسر دلالة على صحة ما أحسَّ بصحته. ثم ما لبث أن تبيَّن له أنهُ قد شدَّ رباط القنوات ، فأحدث فيها « غنغريناً » ثم نمت الطبيعة قناة أخرى ، صرفت فيها مفرزات الغدة . فأقبل على الكلاب الأخرى وبقر بطونها ، فوجد أن رباط القنوات لم يكن شديداً فيها كما كان في الكلبين السابقين ، وبحث فيها فوجد الغدد قد ضمرت حتى لكاد يتعذر عليهِ أن يجدها

كان مكلود قد سافر الى اوربا ، ليزور معاهد العلم أو ليتنزه ، ومن مفاخره أنهُ لم يأمر بطرد بانتنغ من الجامعة إذا انقضت الأسابيع الثمانية ولم يفز بضالته! وما كان « بست » يملك مالاً فاقترض من بانتنغ . اما كيف كان بانتنغ يعيش فأمر قد يظل من مطويات تاريخ العلم الحديث

— ٣ —

وأخيراً أقبل اليوم المشهود، يوم ٢٧ يوليو من سنة ١٩٢١ . كان بانتنغ قبل تسعة أيام قد تناول كلباً واستلَّ منهُ الحلوة وترك الكلب يتغذى غذاءً عاديًّا كسائر الكلاب . ولكنهُ أخذ يهزل ويضعف وصار شديد الظمإ شديد الجوع ، فلما قيس مقدار السكر في دمهِ، تبين أنهُ كبير ، حتى ليصح أن تقول أن دمهُ كان في اليوم الثامن واليوم التاسع أشبه شيء بشراب سكري كثيف قاتم . وعجز الكلب عن النهوض ، وعن تحريك ذنبهِ ، لشدة ماضعف وهزل. ذلك بأن جسمه ، وقد استلت منهُ الغدة الحلوة عجز عن حرق السكر فتجمع في دمه . وكان السكر الذي يسقاه شراباً لتغذيتهِ ينصرف مع بوله ، لا يستطيع أن يستفيد منهُ شيئاً . وكان في صباح يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٢١ على وشك الموت

أقبل بانتنغ ومعه كلب من الكلاب التي ربطت قنوات غددها الحلوة فوضعهُ على المشرحة وشق بطنهُ واستل الغدة الحلوة الحائلة وناولها الى بست ، فهرسها في قليل من ماء ملح بارد ثم صفاها ، ووضعها في الحقنة وحقنها في وريد الكلب الذي يوشك أن يموت . وجلس الاثنان ينظران ساعة مرت كأنها دقيقة . كان بانتنغ يرقب الكلب ، فاذا هو يرى دلائل النشاط تدب فيهِ . فأخذ قليلاً من دمه ، وأعطاه لصديقه بست ، في غرفة أخرى، ليفحص ما فيهِ من السكر وقد كان بالأمس كالشراب السكري ، فاذا المساعد بست يصيح بأن مقدار السكر قد هبط الى الصفر . واذا الكلب يرفع رأسه أولاً ، ثم ينهض وهو يهز ذنبه ويمشي مترنحاً . ولكنهُ وقف ومشى على كل حال . . . كان الماء المسكَّر ، قبل ساعة يمر في جسمه ويخرج مع بوله ولا يستطيع الكلب أن يحرقه . وها هو ذا الآن يسقى الماء المسكر ، فيتناول الجسم سكره ويحرقه ، ويستمد منهُ النشاط . . . ولكن الكلب مات في اليوم التالي !

من كان ينتظر دوام هذه العجيبة ؟ كلُّ ما فعلهُ بانتنغ وصاحبه ، انما هو حقن قليل من حُلْوة كلب آخر كانت قد ربطت قناتها ، في دم كلب ، سلت منهُ حلوته . حدّق بانتنغ ببست وكره أن يقول أنهُ وقد التوى غصن النصر في يديهما ، لا يرى أنهما قد فازا بشيء عمليّ ، اذ من المتعذر ، أن تضحي بعشرات الكلاب ، لكي تحفظ كلباً واحداً حيًّا ، فترة يسيرة من الزمن

ولكن الحقنة كان لها أثر عجيب . ألا يمكن أن يكون ذلك الأثر قد جاء اتفاقاً ؟ اذن لا بدَّ من اعادة التجربة . فأعاداها ، والجو حارٌّ رطب يثقل الصدور وحقنا الكلب الثاني ، بحقنة كالأولى فانقذاهُ بعد ما كان مائتاً لا ريب فيهِ ، واضطرّا أن يقتلا كلبين سليمين من الكلاب التي ربطت قنوات غددها ، لكي يبقوا هذا الكلب الثاني حيًّا ثلاثة أيام

ولكن الكلب مات عندما توقَّفا عن حقنه ، وهذا مما لا يطاق !

جرّب بانتنغ في خلال هذه الأيام الثلاثة أن يحقن الكلب المائت ، بخلاصة الكبد أو بخلاصة الطحال ولكن ذلك لم يجده شيئاً . وكانت الكلاب العشرة التي طلبها من مكلود قد نفدت وكان مكلود لا يزال في أوربا لا يدري المصاعب التي اصطدم بها بانتنغ ، ولا كان يرتاب ان في معمله شابين يمهدان سبيلاً لمكافحة الموت ، المكشر للانسان في البول السكري

وجرّبا التجربة الثالثة في كلبة كان لها مكانة خاصة عندهما ، فحفظاها حيّة ثمانية أيام متوالية ، بعدما أشرفت على الموت وهما يحقنانها بخلاصة الغدد الحلوة الضامرة المستخرجة من خمسة كلاب . ولكن ما الفائدة ؟ لا ريب في ان المادة المجهولة ، التي تمكن الجسم الحيّ من حرق السكر الذي يتناوله موجودة في خلايا جزائر لانجرهانز — فدعاها بانتنغ «أيلتين» نسبة الى أيلند او أيلِت أي جزيرة صغيرة وقد يحسن ترجمتها بلفظ «جزيرين» — ولكن الأيلتين كالجواهر النادرة يكاد يتعذر الحصول عليه ، وعلى سطح الأرض ألوف وعشرات الألوف من المرضى بالبول السكري ، المصابين بعجزهم عن حرق السكر الذي يتناولونهُ ، فأين السبيل الى الفوز بكل « الأيلتين» الذي يحتاجون اليه جميعاً

وانقضت الأيام سراعاً ، وتتالت الأيام شهوراً ، وبانتنغ يبحث عن مصدر يستطيع ان يستمدُّ منهُ هذا « الاكسير». وجاء شهر نوفمبر وتعرّت الأشجار من أوراقها وعاد مكلود من رحلته الى أوربا وأكبّ على البحث في موضوع لا صلة له بالبول السكرى . ونفد مال بانتنغ وكثرت ديونه وأصبح لا يستطيع المضي في عمله الاَّ إذا أسعفه أحد بيسير من المال ليحصل بهِ على القوت الضروري . فهبَّ الى نجدته الاستاذ هندرسن ، رئيس قسم الصيدلية في جامعة تورنتو ، وعيَّنه مدرساً في القسم يتناول مرتب المدرس ، ولا يلقن الطلاَّب درساً

— ٤ —

وكان في ذات ليلة من ليالي نوفمبر يطالع في كتاب قديم للعالم لاجس Laguesse فمرَّ على قول مؤداه ان خلايا جزائر لانجرهانز اكثر في حلوة الطفل الوليد، من الخلايا التي تفرز الافراز الهضمي . فقال بانتنغ اذا صحَّ ذلك على الطفل الانساني ، فلا بدَّ ان يصحَّ على جرو الكلب. واذا صحَّ على الجرو فلا بدَّ ان يصح على الجنين ، ورجح ان حلوة الجنين معظمها من خلايا جزائر لانجرهانز. فذهب الى صديقه الاستاذ هندرسن في الصباح وأطلعه على اكتشافه فقال له هندرسن « وكيف تستطيع ان تحصل على أجنة الكلاب . عليك ان تربيها وتنتظر حملها »

ولكن بانتنغ كان قد قضى جانباً من صباه في المزارع ، وعرف كيف تسمن البقر للذبح ، فذهب مع صديقه بست الى السلخانة وعاد بحلوات تسعة عجول — أو بالحري أجنة عجول ، تختلف أعمارها من ثلاثة أشهر الى أربعة. ثم تبين لهما أنهما اذا استعملا الكحول المحض بدلاً

من ربط قناة الحلوة ، ثم هرسا بقيتها في الماء الملح ، استطاعا ان يعتمدا على حلوة البقر الكبيرة بدلاً من حصر الاستخلاص في حلوات الأجنة . فعجباً كيف لم يخطر ذلك لهما من قبل . ولكن أحد حكماء الكتاب يقول : « جميع المشكلات سهلة . . . . بعد ما تحل »

كان « غلكريست » صديقاً لبانتنغ ، تلازما حدثين ، وتصاحبا طالبين في مدرسة الطب ثم افترقا فذهب كلٌّ في سبيله . وأصيب « غليكرست » بداء البول السكري فهزل جسمه وشحب وجهه ، وتراكم السكر في بوله ودمه ، وتصاعدت من فمه رائحة « الاستون » الناجم عن انحلال الأدهان في جسمه . وكان يدرك ادراك الطبيب ان هذا لا ريب سائر به الى القبر ، فبدلت بشاشته الطبيعية ، كآبة وقتاماً . وكان يجرُّ رجليه جرًّا اذ يذهب كل يوم لعيادة مرضاه ويكاد يمتنع عن كل طعام ، لأن أقل طعام كان يزيد السكر في دمه . وفي ذات يوم من أيام الخريف سنة ١٩٢١ التقى بإلفه القديم بانتنغ فقال له هذا « قد أبشرك قريباً ببشرى عجيبة » . ثم أصيب « غلكريست » بالنزلة الوافدة وهي من الاصابات التي يخشاها المصابون بالسكر ، فزاد هزاله ، وأصبح لا يستطيع ان يتناول أكثر من ثلاث أوقيات من المواد النشوية من دون ان يظهر السكر في بوله ، وعجز عن العمل لضعفه وهو يود لو استطاع ان يأكل ما يشتهي ، ليكفي ذلك الجوع الذي يعضه بناب ، ولكنه كان يدرك ان ذلك قد يزيد السكر في بوله ودمه ، حتى يصاب بغيبوبة تكون القاضية عليه

فعلق كل أمله ببانتنغ وهو متعلق من الأمل بحبل أوهى من خيط العنكبوت

كان بانتنغ جرَّب تلك المادة العجيبة — ايتلين — في الناس بعد الكلاب جرَّبها في نفسه وفي مساعده قبل ان جرَّبها في أحد ، لكي يثبت ان هذه المادة التي تفيد الكلاب المصابة بالبول السكري لا تضر البشر . وكان في مستشفى تورنتو العمومي ، مصابون قد أشفوا ، فجرب حقنهم بالايتلين فردوا الى الحياة ، فتناقلت الناس هذه الأخبار همساً . وذهب بانتنغ الى اجتماع طبي معقود في جامعة يايل ، فلم يمنح الا بضع دقائق لتلاوة رسالته ، لكثرة الرسائل العلمية الخطيرة ا

وأقبل يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٢ وجيء « بغلكريست » الى معمل بانتنغ وبست . هو الآن الحيوان الذي يجربان فيه تجاربهما . وهو لا يكاد يفرق عن الكلاب التي سلت حلواتها لأن حلوتهُ كانت عاجزة عن القيام بعملها . فهل يمكنه «الايلتين» من حرق السكر في دمه؟ فسقي اوقية من الجلوكوس ، ثم أخذت قطرات من دمه ، فاذا السكر فيها كثير . ثم حقن حقنة من الايلتين وجلس بانتنغ وبست يراقبانه ومضت ساعة وساعتان ، ولم يبد على غلكريست ان جسمه بدأ يحرق الجلوكوس ، بفعل الايلتين العجيب [البقية في آخر الاخبار العلمية]

الكوفية والعقال

مقال بكر في موضوع قديم جديد

بقلم : الأب أنستاس ماري الكرملي

تعريف الكوفية والعقال

جاء في معلمة الاسلام ما هذا نقلهُ الى لغتنا في تعريف الكوفية والعقال : « الكوفية (وفي لغة سورية الكفيّة ، على ما في معجم الأب كُوش اليسوعي ص ٥٧٧ — وبُرْكهاردت في كتابهِ تعليقات على البدو ص ٢٧ ، وج . فسكه في كتابهِ رحلة في الشرق ص ١٨٥) كلمة عربية ، مقتبسة من اللغات اللاتينية الحديثة (١) (فهي في الايطالية Cuffia والاسبانية Cofia ، والبرتوغالية Coifa والفرنسية Coiffe أو Coëffe) شُسْتَقة من حرير يتخذها بدو صحراء الشام عَمرةً لهم ، أولئك البدو الممتدون الى ارجاء مكة ، وتثبت حول الرأس بحبل أو بريم من الوبر مصبوغ بأسود ، ويونق من فسحة إلى فسحة بضبّات زاهية الألوان ويسمى هذا الحبل عَقالاً (بالفتح، وباللغة الفصحى عِقالاً بالكسر). وهذه الشسْتقة كسفة مربعة ، صفراء اللون أو صفراؤه وخضراؤه ، توضع على الرأس ، بحيث تقع زاوية منها الى الوراء ، في حين ان الزاويتين الأخريين تقعان على مقدم الكتفين . وهذا يستلزم أن تطوى الكسفة طيين قبل أن توضع على الرأس ، بحيث يتقوم منهما زاوية ، وهذا ما يسمّى طرفاً حادّاً في صناعة القصارين ويستطيع لابسها بعد ذلك أن يجمع الطرفين الواقعين على الكتفين على وجههِ ليدفع عنهُ أشعة الشمس أو حرّ السموم أو المطر أو ليخفي ملامحهُ ، إلّمْ يحب أن يبين نفسهُ . وتتدلّى خيوط الاُحمة كل التدلي حتى تتجاوز طرف الكسفة المنسوجة ، وتفتل فتلاً كالريز فتكون لهُ تطاريف طويلة . وكانت هذه العَمرة معروفة عند السلاطين المماليك في مصر

الكوفية والعِقال (وهما :) الصِماد والعِصَابة

١ . تصدير

بين الأدباء المعاصرين ، والمؤرخين ، والباحثين ، مطارحات ومطالعات، ومجادلات لا تحصى

(١) كذا . وهذا وهم ظاهر، كما ستراه في موطنه عند كلامنا على وجود الكوفية عند العرب في قديم الزمن

تتعلق بالـكوفية والعقال ، ووجودهما عند العرب في سابق العهد . وقد ذهب اغلب هؤلاء الأفاضل الى ان وجودهما لا يتجاوز ثلاثة قرون في أبعد تقدير ، وألفى بعضهم هذه المدة طويلة ، فقدرها بمائتي سنة في الأكثر . وجرى حديث طويل بيني و بين احمد زكي باشا رحمه الله ، في حزيران (يونيو) سنة ١٩٢١ م ، فـكان يؤكد ان ثلثمائة سنة هي أبعد مدة يمكن ان تقدر لوجودهما عند الاعراب

ثم استفاض حديث آخر بيني و بين الشيخ احمد الأسكندري رحمه الله ، وطائفة من اصفياء مجمع فؤاد الأول للغة العربية كعلي بك الجارم وأحمد بك العوامري وغيرهما — ومحصل كلامهم لا يخرج عن هذه الفكرة . ومن العبث ذكر تفاصيل هذا الحديث الذي جرى في سنة ١٩٣٧

وأما رأيي فقد كان دائماً مخالفاً لآراء هؤلاء المحققين والادباء المؤرخين ، اذ كنت اقول بأن الـكوفية والعقال ، هما من ملابس الرأس عند العرب ، وكانا معروفين عندهم منذ أقدم الأزمنة ، أي قبل الاسلام وبعده ، الى عهدنا هذا . وليس الاسم هو المهم في هذا الموضوع ، انما المهم الشيء نفسه ووجوده بين جمهور الناس ، اذ الاسماء تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والقبائل ، كما هو الأمر في اسامي اشياء كثيرة كالأسد ، والجمل ، والناقة ، والخمر ، والسيف ، الى ما لا يعد ولا يحد من الأعيان والجواهر . ومثل هذا الأمر يجري في جميع لغات الدنيا

٢ — تعريف الـكوفية والعقال

(الـكوفية قبل الاسلام)

«كان العقال معروفاً في فلسطين بنحو تسعمائة سنة قبل المسيح» — شهادة التوراة —

لا شبهة في ان العقال كان معروفاً في فلسطين قبل المسيح بنحو تسعمائة سنة . والشاهد على ذلك ما ورد في سفر الملوك الثالث في الفصل ٢٠ والآية ٢٧ وهذا نص القصة التي تروي سبب وضع العُقُل على الرؤوس كما جاء في لسخة التوراة المطبوعة في بيروت بالمطبعة الـكاثوليكية :

« فهرب الاراميون ، واتبعهم اسرائيل ، فأفلت بنهدد ، ملك أرام ، على فرس مع الفرسان . وخرج ملك اسرائيل ، فضرب الخيل والمراكب ، وضرب أرام ضربة عظيمة . فتقدم النبي الى ملك اسرائيل ، وقال له : امضِ ، وتشدد ، وتأمل ، وانظر ما تصنع ، فانه عند مدار السنة ، يصعد عليك ملك أرام . وقال لملك أرام عبيدُه : ان آلهتهم ، آلهة الجبال ، ولذلك قووا علينا ، ولـكن اذا حاربناهم في السهل ، فانا نقوى عليهم وانت فافعل هذا الامر : اعزل الملوك كلا من مكانه ، واجعل في أمكنتهم قواداً ، وأحص لك جيشاً كالجيش الذي سقط لك ، وخيلا كالخيل ، ومراكب كالمراكب ، فنقاتلهم في السهل ، ونقوى عليهم فسمع منهم وفعل كذلك . فلما كان مدار السنة ، أحصى بنهدد الاراميين ، وصعد الى أفيق لمحاربة اسرائيل وأحصي بنو اسرائيل ، وتزودوا ، وساروا للقائهم ، و نزل بنو اسرائيل مقابلهم كأنهم قطيعان صغيران من المعز ، والاراميون قد ملأوا الارض . فتقدم رجل الله وكلم ملك اسرائيل . وقال : هكذا قال الرب الاجل ان الاراميين قالوا : ان الرب هو اله الجبال ، لا اله الاودية ، فاني دافع الى يدك كل هذا الجمهور العظيم ، لتعلموا أني أنا الرب . فنزل هؤلاء تجاه هؤلاء سبعة أيام . ولما كان اليوم السابع ، التحمت الحرب

فقتل بنو اسرائيل من الارامين مئة الف راجل في يوم واحد . وهرب الباقون الى أفيق الى المدينة ، فسقط السور على السبعة والعشرين الف رجل الذين بقوا ، وهرب بنهدد ، ودخل المدينة الى مخدع ضمن مخدع . فقال له عبيده : انا سمعنا ان ملوك آل اسرائيل هم ملوك رحمة . فلنشدد الآن مسوحاً على متوننا ونجعل « حبالا » على رؤوسنا ونخرج الى ملك اسرائيل لعله يستبقي نفسك . فشدوا مسوحاً على متونهم ، « وحبالا » على رؤوسهم . وجاؤوا ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : أتوسل ان تستبقي نفسي . فقال : أوحي هو بعد ، انما هو أخي . فاستبشر القوم وبادروا ، فتلقوا الكلمة من فيه ، وقالوا : أخوك بنهدد . فقال : هلم فخذوه . فخرج اليه بنهدد ، فأصعده على المركبة . فقال له : المدن التي أخذها أبي من أبيك أردها اليك ، وتجعل لك أسواقاً في دمشق ، كما فعل أبي في السامرة . فقال : وأنا أطلقك بهذا العهد ، وقطع له عهداً وأطلقه » آه المطلوب من ايراده

فهذا نص صريح ، ذكر فيه لأول مرة في التاريخ استعمال (الحبال) أو العقل مشدودة على الرؤوس . وكان ذلك في عهد بنهدد ، الذي ملك على الإرميين من سنة ٩١٧ الى سنة ٨٨٥ قبل المسيح

ولا جرم ان المراد (بالحبال) هنا ، ما سمّاها العرب بعد ذلك (بالعُقل) (جمع عِقال) أو باسماء أخر ، كما ستقف عليها

زد على ذلك ان الفرنسيين اذا ارادوا اليوم الدلالة على (العِقال) بلسانهم قالوا Tresse أي بريم أو جديل أو ضَفر أو ضفيرة أو Corde أي حَبْل ، او مرير او فتيل

ومعلوم أيضاً ، ان الارميين أو الأرَاميين كانوا في أيام بَنْهَدَد ، قوماً رُحّلاً كأهل بادية العرب ، فكانت عاداتهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم ، كعادات الاعراب ، وأخلاقهم ، وآدابهم وكذا قُل على أكلهم ، وشربهم ، ولبسهم ، وحلهم ، وترحالهم ، واقامتهم ، فهذا كلهُ كان متشابهاً بين القومين ، لأن الطبيعة كانت تدفعهم الى اتخاذ تلك الامور جميعها ، بصورةٍ واحدة

شهادة التصاوير القديمة

وقد ظهر في الآثار التي وجدت في ديارنا العراقية تصاوير وتماثيل منها بالعقال وحدهُ ومنها بالصماد أو الكوفية وحدها ، ومنها بالكوفية المثبتة على الرأس بالعقال . وعلى من يشكّ في صحة كلامنا ، ان يزور دار هذه التحف او ما يشابهها في دورالتحف الغربية كباريس ، ولندن وبرلين وغيرها ، أو أن يراجع بعض الكُتُب المصوَّرة التاريخية الجامعة لمثل هذه النفائس الأثرية التي تبحث عن العراق ، او الشام ، او فلسطين ، ففيها الغُنْية عما يودّ ان يشاهدهُ في البلاد نفسها ، اذ يرى بعيني رأسهِ تماثيل من عهد حَمُّرَبّ ، اي منذ زهاء خمسة آلاف سنة وعلى رؤوسها العُقُل والكوفيّات او العصائب والصُّمُد ، او احد الاثنين دون الآخر

وكنتُ كتبتُ الى حضرة الاستاذ الجليل والأمير العلاّمة الخطير والبحّاثة الشهير شكيب أرسلان ، اسألهُ عما يعرف من أمر الكوفية والعقال وعن وقوفهِ في تصانيف المؤرخين

والأدباء عليهما فكتب اليَّ من صوفر (لبنان) في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٣٧ ما هذا نصهُ

« . . . ولقد كنت كتبت الي سائلا عما اذا كان عندي معلومات عن لبس العقال ، ومتى بدأ ، وأين بدأ . وكنت أنقب عن هذه المسألة الجليلة ، وأسأل اهل الذكر ، وما حظيت عنها بطائل . غير انه أخبرني أناس زاروا (تدمر) ، فوجدوا فيها نقوشاً وتماثيل من جملتها رجال على رؤوسهم الكوفيات والعقل ، فهذه التماثيل هي من قبل الاسلام بدون شك ، ومنها نعلم ان العقال في جزيرة العرب وما جاورها زي قديم ربما يرجع الى آلاف من السنين . . . » انتهى

ونحن نؤيد هذه الأقوال بما يُرى من الصور في التاريخ القديم للشرق الى الحروب المازية للعلاَّمة فرنسوى لنورمان . ففي المجلد ١ : ٣٠٧ صورة رجلين تورانيَّين من أهل ماذية وقد لفَّ الواحد رأسه بعمامة ، وأثبتها عليهِ بعصابة عريضة . أما الثاني فقد لبس كوفية، وأثبتها بعصابة أيضاً لا بعقال [1] وقال المؤلف عليهما ، إنهما رأسا أسيرين من حروب ماذية وهما مصوران محفورين على قصر سنحاريب في قُوْيُنْجُوق، وكان من الاسرى الذين يشتغلون اشغالاً شاقة في بنايات الملك . ومن المعلوم أن الحروب الماذية وقعت في المائة الخامسة قبل الميلاد

وفي ص ١٥٣ من المجلد الرابع ، صورة رجال من الاشوريين يقدمون الى ملك أشور جزية خيلاً ، ورؤوس اولئك الرجال مشدودة بعصابةٍ وهي من النقوش المحفورة التي كانت في بلاط الملك سرجون

وفي ص ٣٠٥ من ذلك المجلد عينه صورة مقسومة قسمين في القسم الأعلى منها رؤوس رجال مغطَّاة بقلانس مستطيلة أو بخوذٍ مرتفعة لأنهم من الجند. ورؤوس رجال القسم الأسفل منها مغطاة بكوفيات وقد أثبتت بعصائب لأنهم من الرعية أو من السوقة وقد كتب تحتها : « أشوريون يحملون الاسلاب وهم يسوقون أمامهم الاسرى والصوَّرة من كوينجوق(بأطراف الموصل) وهي اليوم في دار التحف في لندن

وفي ص ٣٢٣ من التاريخ المذكور صورة تمثل حرباً في بلاد جبلية كثيرة الغابات وهي من بلدة نمرود (في انحاء الموصل) والمصوَّرون فيها طائفتان : طائفة الجند وطائفة السوقة. فلبوس رأس الجندي الخوذة وملبوس رأس السوقة العصابة وحدها

وفي ص ٤٢٣ منهُ صورة مغنين ومن الضاربين على آلات اللهو وهم من العبيد الأسرى. ورؤوس جميعهم معصوبة عصباً

وفي ص ٧٨ من المجلد ٦ صورتان تمثل احداها صورة جندي بيده حمل وعلى جنبه الايمن

(١) François Lenormant.— His. Anc. de L'Orient. — 9; Edition.— Paris.—A. Lévy. 1881

سكين كبير . وتقابله صورة امرأة معتمة بالكوفية . وقد وجدت هاتان الصورتان في إصطخر من بلاد فارس . منهما صورتا ماذيين من أهل فارس

وفي ص ١٥٠ من المجلد المذكور ترى صورة رجلين يضمان أحمالاً على بعير وعلى رأس أحدهما كوفية مربوطة بعصابة وعلى رأس الثاني قلنسوة بطرفين ينحدران على الاذنين

وفي ص ١٥٥ منهُ صورة تمثل مهاجرين من أهل آسيا ، يهبطون وادي النيل وقد اصيبت هذه الصورة منقوشة على قبر مصري في بني حسن . وفي ص ٤٣٢ منه صورة نصب حميري يمثل عرباً وقد لفوا رؤوسهم بالكوفيات ، وأمرّوها تحت احناكهم وهذا ما يسمى عند السلف بالتحنك

وان كان بين يديك (التاريخ القديم لشعوب الشرق المؤتم تأليف ج . ماسبرو [١]) فافتح مجلد السلطنات ٣ : ٨٧ تجد صورة قسم من جزية اسرائيل للملك سلمان أسر (أو كما يسميه العرب سلمان الأعسر) يحملها رجال قد لفوا رؤوسهم بالكوفيات وقد عقدوا أطرافها وراء رؤوسهم تلك ، ولم يشدوا عليها عقالاً . وفي المجلد ٢ : ١٥١ تجد صورة رجال سوريين وقد لفّوا على رؤوسهم عقلاً عن صورة نُقِلَتْ عن قبر كان صاحبهُ يطوي بساط أيامهِ في نحو أواخر الدولة الثامنة عشرة من دول مصر المنقرضة (أي في نحو الفي سنة قبل الميلاد)

فهذه بعض الصور التي ظفرنا بها في بعض الكتب التي ترى في خزانتنا ، وهناك مصنفات لا تحصى مزينة بأحسن الصور وفيها ما يثبت كل مانقلناه أو أثبتناه وكلهُ سابق للاسلام

٣ — الكوفية بعد الاسلام

أما بعد الاسلام فلا جرم أن (الكوفية) كانت موجودة بغير هذا الاسم ، وكذلك (العقال) فان هذا الاسم محدث وقد أخذ من المشابهة التي ترى بينهُ وبين عقال البعير

(أ) الكوفية في عهد العباسيين

وأقدم نصّ عثرنا عليهِ يذكر (الكوفية) هو ما جاء في كتاب « رسوم دار الخلافة [٢] » لأبي الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء (المتوفى سنة ٤٤٨ للهجرة في ص ١٣١ من النسخة الخطية الأصلية) وهذا هو نصُّها : —

(١) G. Maspero.— His. Anc. des Peuples de L'Orient Classique. — Les Empires.— Paris.—Librairie Hachette et Cie 1899.

(٢) وهذا الكتاب يعده للطبع ولدي العزيز بالروح والاستاذ النابه السيد ميخائيل عواد ، وقد أغناه بتعليقات من أنفس ما جاء مثلها في هذا الموضوع وزينه بفهارس واثبات تجاوز العشرة . وسيكون بين أيدي القراء عن قريب

« لما خلع الطائع ، رحمة الله عليه ، على عضد الدولة ولقبه تاج الملة ، حمل اليه في اليوم الثالث تنفيرة وشي مذهب ، مجالسية ، وفرجية وشي ، وكوفية منقلة ... » وذلك في نحو سنة ٣٥٥هـ (= ٩٦٥م)

إذن قد مضى على هذه التسمية نحو من الف سنة ومن البديهي أن الكلمة لم توضع في تلك السنة ، بل لا بد من أنهُ مضى عليها ما يقارب خمسين سنة حتى تشيع بين الناس وربما أكثر من ذلك . وجاء ذكر الكوفية أيضاً في عيون الانباء (٢ : ١٧٧) قال : « وهو شاب [والكلام على الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وكان عائشاً في سنة ٥٨٥ للهجرة = ١١٨٩م] على رأسهِ كوفية وتخفيفة صغيرة » اهـ

فهذان نصّان اسلاميان قديمان يذكران الكوفية ذكراً واضحاً لا شبهة فيهِ . ومعلوم ان الكوفية تحتاج الى عِقال أو نحوه لتثبت على الرأس ولذلك كان لا بد من العقال كلما ذكرت الكوفية وان لم يذكر بواضح العبارة

(اسم الكوفية قبل الاسلام : الصماد ، واسم العقال : العصابة) — ولهما مرادفات —

قال في العين : — « صمّد رأسهُ تصميداً : اذا لفّ رأسهُ بخرقة ، او ثوب ، أو منديل ، ما خلا العمامة وهي الصماد » . ويقال في كل من الفعل والاسم بالضاد ايضاً أي ضمّد تضميداً والضماد والصماد في اللغة الارمية (صمادا) والمعنى واحد . وتلفظ باسكان الصاد ، وبالف في الآخر على ما هو شائع في اللغة المذكورة . واما ان العقال كان معروفاً عند قدماء العرب بالعصابة فمما لا شك فيهِ ، لأسباب منها : ان صاحب التاج يقول في مادة (ع ص ب) :

« والعصابة ، بالكسر أيضاً : ما عصب بهِ كالعصاب ، بالكسر أيضاً ، والعصب قاله ابن منظور وعصبهُ تعصيباً : شدّهُ . واسم ما شدّ بهِ العصابة ، وفي الأساس : ويقال شدّ رأسهُ بعصابة ، وغيرهُ : بعصاب . » انتهى

ولما كان بعضهم يشدّ رأسهُ ، أو يغطيه بالتاج أو العمامة ، توسعوا في معناه الاول الموضوع له ، وانتقلوا بهِ الى معنى التاج والعمامة . ومثل هذا التوسع يضر بمعرفة المعنى الاول ويجعل الكلم تقع على طائفة من المعاني ، فيحار القارىء في معرفة المعنى الحقيقي في العبارة الوارد فيها ، حتى انهُ ليتعذر على السامع معرفة الشيء المدلول عليهِ بذلك الحرف ، أهو المدلول الأول ، او المتوسع فيهِ ، او المدلول الثالث او الرابع اذ المعاني قد تتفرع فروعاً جمة فالغربيون مثلاً يميزون بين العصابة وبين التاج وبين العمامة فلكلٍّ من هذه الالفاظ معنى غير معنى أخيه . لكن هكذا جرى الناطقون بالضاد انهم يتوسعون في معاني جميع حروفهم ، او يكاد . فقد قال الشارح :

« والعصابة ايضاً : التاج والعمامة . والعمائم يقال لها العصائب . قال الفرزدق :

وركبٍ كأنَّ الريح تطلب منهم لها سلباً من جذبها بالعصائب

اي تنقض لي عمائمهم من شدتها ، فكأنها تسلبهم إياها . ونقل شيخنا عن عناية الشهاب في البقرة : ان العصابة ما يستر به الرأس ، ويدار عليه قليلاً ، فان زاد فعمامة . ففرّق بين العصابة والعمامة . وظاهر [كلام] المصنف : انها تطلق على ما ذكره وعلى العمامة أيضا ، كأنه مشترك وهو الذي صرح به في النهاية . انتهى كلام صاحب التاج

قلنا : والأحسن الرجوع الى المعنى الأول ، وهو أيضاً معنى اللفظة الواردة في بيت الفرزدق

ومن اسماء الـكوفية أيضاً (العمامة) فقد جاء في تاج العروس في مادة (ل ث م) : « قال أبو زيد : تميم تقول : تلثمت ، وغيرهم : تلفمت . وقيل : اللثام : ردّ المرأة قناعها على انفها ، ورد الرجل عمامته على انفه ، فلو لم ترد العمامة بمعنى الـكوفية لما ساغ له هذا الـكلام

ومن الادلة المبرهنة على ان العصابة هي العقال اشتقاق الـكلمة نفسها فانها تدل دلالة الـكلمة الارمية نفسها وتلفظ عَصَوْتا وبعضهم عَصَبْتَا بمعنى العصابة او العقال . والمادة اللغوية واحدة والاشتقاق واحد

وزد على هذين الدليلين قدم صورة العقال على التماثيل التي ذكرناها ، فان العقال مصور فيها تصويراً جليًّا لا شبهة فيه ولا شك ملفوفاً لفًّا محكماً بعد ان أتقن بَرْمُهُ

وهناك دليل رابع وهو ان عرب شرقي الأردن يسمون العقال الى يومنا هذا (العصابة) وهو أبين دليل على اثبات ما نحن في صدده فقد كتب اليّ الاستاذ روكس العزيزي في أول كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٤٠ ما هذا نصه بحروفه : « ويلبسون (اي العرب) على رؤوسهم المرير [وزان كبير] وهو لباس قديم عرفه سكان البادية ، ويسميه اهل السلط وعجلون وفلسطين (العقال) . ويسمي البدو العقال (عصابة) أيضاً » انتهى

ودليلنا الخامس : ان وجود العصابة (مع اختلاف اسمائها) في جميع البلاد التي فيها بادية على رؤوس من يشدها عليها دليل بين على ان هذا الأمر لم يحدث في هذه الأيام الأخيرة ، بل هو قديم أحدثه هواء البلاد وتقلبه تقلبات اجبرتهم على ان يكون تلك العمرة مما يدفع عن اصحابها شدة الحر في الصيف ، وضرر البرد في الشتاء ويمنع الغبار من التسلل في منافذ الرأس كالعين والأذن والانف والفم ويدفع المطر عن الوجه

فاذا اجتمعت أدلة اللغة ، والتاريخ والنقل عن السلف ، والعادة الجارية في جميع الديار التي فيها بدو ، فكيف لا تكون الحقيقة على ما تسير في وجهها في هذا العصر ؟

ويزاد على كل ما تقدم ان من اسماء العقال او العصابة مرادفاته في بعض الربوع الناطقة بالضاد . من ذلك (المرير) في لسان أهل شرقي الأردن والمرير في اللغة الفصحى ما لطف من الحبال وطال واشتد فتله وهي المرائر . قاله ابن السكيت . ومثله المريرة بهاء في الآخر . ويسمي

العمانيون — وديارهم على خليج فارس — الكوفية : (المِصرّ) والعقال : (الخِزام) ويتخذونه دقيقاً كالمريرِ . وذكر لنا أحد الحضارمة في سنة ١٨٩٧ واسمه محمد بن الرفاع الجندي ان أهل الربع الخالي — وهم بادية لم يختلطوا بالأجانب — يسمون العقال سِبّاً ، بكسر السين وتشديد الباء ، وربما سموا به الكوفية ايضاً . وفي تاج العروس : « السِبُّ بالكسر الحبل . . . والخمار العمامة . . . » انتهى . فلقد رأينا من اسمائه في التوراة (الحبل) ، وعند أهل الحجاز والعراق وكثير من بلاد العرب (العقال) وعند أبناء شرقي الأردن (المرير) ، وعند بدو شرقي الأردن والسلط وعجلون وفلسطين (العصابة) ، و (السبّ) عند أهل الربع الخالي ، فلم تبق شبهة في ان هذه العصابة وجدت منذ أقدم الأزمنة في ديار الشرق الأدنى عند العرب الحقيقيين

(ب) الكوفية في صدر الاسلام

جاء في اللسان في مادة (ب ح ر) : « وأما حديث عبد الله بن أُبيّ ، فرواه الأزهري بسنده عن عروة : ان اسامة بن زيد اخبره : ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ركب حماراً على إكافٍ ، وتحته قطيفة ، فركبه وأردف اسامة ، وهو يعود سعد بن عبادة . وذلك قبل وقعة بدر

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمَّر عبد الله بن أُبيّ أنفهُ ، ثم قال : لا تغبروا . ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف ودعاهم الى الله وقرأ القرآن ، فقال له عبد الله : ايها المرء ان كان ما تقول حقّاً ، فلا تؤذنا في مجالسنا ، وارجع الى رحلك ، فمن جاءك منا فقصص عليه ثم ركب دابتهُ حتى دخل على سعد بن عبادة . فقال لهُ : أي سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حُباب ؟ — قال : كذا — فقال سعد : اعفُ واصفح ، فوالله ، لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد أصلح أهل هذه البُحَيْرة [أي يثرب] على أن يتوّجوهُ ، يعني يملكوه فيعصبوه بعصابة . فلما ردَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرق لذلك فذلك فعل بهِ ما رأيت فعفا عنهُ النبيّ صلى الله عليهِ وسلم » آه

فقول الراوي « خَمَّر عبد الله بن أبيّ انفهُ » دليل على أنهُ كان على رأسهِ الصماد ، حتى استطاع أن يخمر أنفه بطرفهِ ، على مألوف مايفعل كل من يلبس الكوفية فانهُ يخمر أنفهُ اذا قابلهُ غبار أو عجاج . وفي قولهِ : « يملكوه فيعصبوه بالعصابة » دليل على أن العصابة أو العقال كان من ملابس كبار العرب ، ثم امتدَّ استعمالهُ الى جميع أهل البادية لحاجتهم اليهِ

ويزاد على ذلك : أن الرومان اتصلوا بالعرب من جهتين : من جهة الحجاز ، فكان لهم هناك كورة عرفت بعربة الحجرة Arabia Petraea ومن جهة العراق في أيام لوقلس وبنبايوس أي قبل الميلاد بنحو سبعين سنة . فكان اتصالهم هذا بابناء اسماعيل دافعاً الى أن يأخذوا منهم بعض أمور خاصة بهم فكان من جملتها الكوفية وسموها في لغتهم Cofea أو Cuphia وسماها الايطاليون Cuffia أو Scuffia وقد وردت اللفظة اللاتينية في كلام الأسقف فرتانس

Fortunatus المتوفى سنة ٦٠٠ للمسيح أي قبيل الهجرة باثنتين وعشرين سنة

ووردت بعد ذلك مبنىً ومعنىً في كلام ألكوين Alcuin الانكليزي ، اللاهوتي الشهير ، والشاعر الكبير ، والعلامة المنقطع النظير ، المتوفى سنة ٨٠٤ للميلاد . وكان أحسن من يتقن صنعها في عهد العباسيين أهل الكوفة ، فاجتمع في اللفظة أمران : معنى التكوُّف وهو استدارتها على الرأس ، وصُنعها في الكوفة ، فشاعت حينئذٍ هذه الكلمة ، وقتلت كل لفظة سواها

ومن الغريب أننا قرأنا في كتاب الملابس لدوزي هذه العبارة التي تنقلها الى لغتنا

« ولا أظن ان أحداً يذهب الى ان للكوفية أصلا عربياً . أما أنا فأذهب الى ان الكوفية ليست الا Cuffia (كفية) الايطالية ، و Cofia (كوفية) الاسبانية ، و Coiffe [كواف] الفرنسية ، و Coifa [كوافة] البرتغالية . وأذهب أيضاً الى ان الشرقيين استعاروا هذه الكلمة من الايطاليين ، وكانوا في العصور الوسطى يتاجرون في موانىء مصر وسورية وينقلون الصليبيين » انتهى

قلنا : ويردّ هذا الرأي اولاً : تصاوير الأقدمين على الحجارة المبثوثة في ديار الشرق الى يومنا هذا وذلك قبل وجود لغة الايطاليين على الأرض . وثانياً ان الكلمة الايطالية مأخوذة من اللاتينية المولَّدة Cofea أو Cuphia وهذه لا تتصل بمادة أصيلة فيها ، انما هي لقيطة فيها ، فهي من اللغة العربية ، وقد اقتبسها الرومان منها حين كانوا متصلين بالعرب من جهة الحجاز ومن انحاء الفرات ، وكانت هذه العمرة شائعة يومئذٍ في جميع الديار العربية . ولهذه المادة في لغتنا معنى يؤيد اشتقاقها ، وهو معنى التكوُّف أي الاستدارة لاشتمالها على الرأس والرأس مستدير ولاحاطتها به كل الاحاطة ومن كل جانب . قال السيد مرتضى : « والكوفية : ما يلبس في الرأس ، سميت لاستدارتها »

عقال العربيات يسمَّى النوفلية

جاء في تاج العروس : « النوفلية : شيء من صوف يكون في غلظٍ اقلَّ من الساعد ، ثم يحشى ويعطف ثم تختمر عليه نساء العرب . نقله الازهري » اه

فيؤخذ من هذا الشرح ان النوفلية شيء يشبه عقال الرجال إلاَّ انهُ متين ومحشوٌّ صوفاً لكي لا يثقل على الرأس . وقد كنت كتبت في سنة ١٩٣٨ رسالة من القاهرة الى الاستاذ الجليل عبدالله مخلص في القدس ليسأل الشيخ كاظم الدجيلي قنصل العراق هناك وهو من الواقفين اتمّ الوقوف على آداب وأخلاق الاعراب وأهل البادية عما يعرف عن العقال الذي تتخذه بدويات العراق ، فأجابني الأستاذ المخلص بما يأتي :

« . . . وقد زرته وحدثته بما أردت وسألته عن العقال الذي تلبسه نساء البدو في العراق ، فذكر لي ما أدونه لكم باختصار

« نساء شمر ، وعنزة ، والضفير ، وربما بعض نساء زوبع يشددن على رؤوسهن العقال ، وطوله نحو

ثلاثة امتار ، بحيث يلف على الرأس ثلاث او أربع لفات ، وفي طرفيه عثكولان يتدليان من الخلف ؛ وفي وسط الرأس عقدة ، او ما يسمونه ضبة

« وهو كما ترى من نوع العقال الذي يستعمله الرجال ، الا ان لفات او طيات العقال الذي تستعمله نساء العراق اكثر . وعلى ذكر العقال ، أقول لكم ان العرب في فلسطين مسلمهم ونصرانيهم قد لبسوا العقال ، ونبذوا الطربوش ، وتراني الآن اضع على رأسي كوفية بيضاء ، وعقالا أسود من المرعزى كاعرابي من البادية » آه

وحضر الشيخ كاظم الدجيلي في بغداد وكنت ايضاً انا فيها في نحو اواخر ايلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٨ فقال لي بحضور جميع الأدباء الذين كانوا مجتمعين في مجلسنا يومئذ ، ما هذا روايته :

« العربيات اللواتي يتخذن ضربا من العقال ، اي النوفلية ، هن عربيات الصائح ، وعنزة ، وشمر ، والضفير ، وقد قل الآن استعمالهن له ، وبقي محصوراً في نساء الشيوخ ، والوجيهات من سائر الاعرابيات » آه

وكنت سألتُ مثل هذا السؤال الأستاذ الدكتور مصطفى جواد وهو في باريس ، فكان جوابه ما أرويه بحروفه :

« ان الذي رأيتموه على رؤوس البدويات نوعان : نوع من جنس العقال الذي يتخذه الرجال ، ونوع يسمى جمجة أي كمكة ، يتخذه النساء الربعيات ، اي المعيديات ، تهويناً لثقل ما يحملن على رؤوسهن من قصاع اللبن والرائب . وكلاهما مألوف معروف

« فأما العقال فعند اكثر البدويات الرواحل . وأما الكمكة فهي شيء اضطرت الحاجة اليه ، فلا يدخل في أبواب العقال . فالعقال هو الرفيع . والجمجة ثخينة) آه

وسألتُ الأستاذ عبد الله مخلص ان يبدي لي رأيه بخصوص عقال النساء فكتب اليَّ من القدس بتاريخ ٣١/٨/١٩٣٨ ما هذا نصه :

(أما لباس الرأس الذي يشبه العقال ، وهو كما وصفتم من جهة شكله ، وحشوه بمادة من المواد ، فيسمى هنا (في فلسطين) صمادة . وهو خاص بالنساء . الا ان هذا اللباس لا يدار على الرأس كالعقال ، بل يوضع فوقه ، فيتدلى من الجانبين ، حتى يصل الى الاذنين . وله خيط يربط به من تحت الحنك يسمى (محنكة) او (زناق) ويخاط على دائر الصمادة مسكوكات فضية ، قديمة ، مجوفة ، حتى يركب بعضها بعضاً ، فتتراص وتنسجم . و (الصمادة) هنا غير (الصماد) الوارد في كتب اللغة . وكذلك القول على (المحنكة) و (الزناق) اه كلامه

فيؤخذ من هذا كله أن العقال ، أو ضرباً منهُ ، معروف الى اليوم عند البدويات ، على حدّ ما كان معروفاً في سابق العهد ، إلاَّ انهُ آخذ بالزوال شيئاً بعد شيءٍ وفي جميع بلاد الشرق الأدنى التي فيها بادية . وقد ذكر بُرْكارْدْت أنَّ نساء اعراب الرولة يعتممن بعمائم من حرير اسود ، طول الواحدة ذراعان مربعتان ويسمونها (شال خاص) وتعمل في دمشق ، وكثيراً ما تزين بخيوط من ذهب أو فضة » اه

اختلاف اسماء الكوفية باختلاف البلاد والأزمان

مرَّ بنا ان الكوفية لم تكن دائماً معروفة بهذا الاسم ، فقد رأينا انها سميت في سابق العهد بالصماد والضماد ، ثم انتقل الى لفظ الكوفية في عهد العباسيين ، ثم اختلفت اسماؤها باختلاف

المادة المتخذة منها ، او باختلاف ألوانها . وقد يختلف أهل البلد الواحد في التلفظ بالكلمة الواحدة نفسها لأن الجميع لا يتفقون على النطق بالحروف على وجه واحد وجمع الكوفية الكوافيّ

والكوفيّة يلفظها العراقيون الكفيّة أو الچفيّة ، لأنهم يلفظون الكاف جافاً معقودة مثل ch في الانكليزية Change ويكسرونها ، ويليها فاء مشددة مكسورة ، ويعقبها ياء مشدّدة مفتوحة ، وفي الآخر هاء . ويجمعونها على چَفَافيّ وزان كراسيّ . وهم يريدون بها أيضاً معنى آخر ، ولاسيما أهل المدن منهم ، فانهم يطلقونها على المنديل الذي يمخطون فيه ، اي الشستقة ، وعلى المَشُوش وهو ما يتمسح بهِ من المناديل . وأهل نجد يسمون اليوم الكوفية الحمراء (مَحَرمَة) وحركة الميم والراء بين الفتح والكسر . واذا كانت بيضاء فيسمونها (غُترَة) بضم الغين ، او بحركة بين الكسر والفتح ، وتكون من القطن . والعراقيون من أهل البادية يسمون الكوفية (الحلالية) بتحريك الحاءِ واللام وكسر اللام الثانية وتشديد الياء . وهذا اذا كانت من قطن . اما اذا كانت من قز فيسمونها (قزية) ويلفظونها (جزّية) بفتح الاول وتشديد الثاني المكسور يليها ياء مشددة مفتوحة . والقزّ ضرب من الابريسم اوالحرير ، إلاَّ انهُ دون الحرير حسناً

ومن اسماء الكوفية عند أهل نجد (الدّسمال) او (الدّسمالة) بدال مفتوحة وبعضهم يكسرها . وهم يخصون بذلك الكوفية الحمراء الخالية من كل نقشٍ بارز وهي غير الشماغ أو اليشماغ وغير الشال وغير الغُترَة وربما كان الدسمال مخططاً أحمر وأصفر ، ويجمعونها على دَساميل

والكلمة فارسية الأصل منحوتة من (دست) أي يد . و (مال) اي يُمسح او يُمش والمعنى ما يمسح به اليد . لان العرب لا يتخذون شستقة يمخطون بها ، بل يمشون أيديهم ويمسحون وجوههم بطرف الكوفية ايّا كانت

(والشماغ) ككتاب أو (اليشماغ) بعضهم يجعل القاف في مكان الغين في اللفظين المذكورين ويجمعونها على يشاميغ كلمة تركية هي في هذه اللغة ياشمق أو ياشماق . برقع خفيف تتبرقع بهِ التركيات ، ثم اطلق على كل ستر أو لثام أو نقاب أيّا كان ، لكن أهل نجد وبعض العراقيين يسمون بهِ كوفية تتخذ من القطن وفيها نتوءات بخيوطٍ حُمر أو زرق ، ويكون اليشماغ مربعاً ، فيطوى طيّا مخالفاً بين أطرافهِ ، فيصبح كالزاوية الكبيرة المستقيمة الزوايا أو الكوس فتوضع على الرأس بتحكيم وسطها عليهِ ثم يربط عليها العقال

اما اذا كانت الكوفية حمراء اللون متخذة من الصوف لا من القطن فيسمونها (الشّال) من باب التوسع في معاني الالفاظ . ومعلوم أن الشال في الأصل : « هذا الرداء الذي يعمل بكشمير ولاهور ويجلب بهِ (كذا) الى البلاد يقال انهُ من وبر الجمل . سمي بهِ لانهُ يرفع على الاكتاف . ان كانت عربية والجمع شيلان وشالات » اهـ عن التاج

قلنا : ليس الشال من كلام العرب ، بل من لسان الفرس وهو عندهم من الثياب يتخذ من الصوف ، خشن الصنع ، يلبسهُ فقراؤه وبهِ سمي الثوب الذي يصنع في كشمير ، ولاهور ، وفي تلك الارجاء ويكون من شعر المعزى أو من وبر الجمال أو من صوف الغنم

اما اذا كانت الكوفية من القطن الابيض فيسميها أهل نجد (غُترة) وزان غرفة ، وكان يسميها أهل العراق قبل نحو مائة سنة (الضريبة) والاسم مأخوذ من (الضريب) (١) وهو الثلج لبياضها الخالص ، وتكون من حرير أبيض وربما سموها (ضريباً) بلا هاء . واذا كانت تلك الكوفية من الحرير المشطب أو المسيح أو المقلم فكانوا يسمونها (الساعورية) ، ولعلَّ سبب هذه التسمية ان اغلب هذه الشطب او الخطوط الممتدة فيها ، صفر بلون النار وهي الساعور

هذا بعض ما وجدناه من اسماء الكوفية بحسب بعض البلدان ، ولا جرم ان هناك غير هذه الالفاظ

اختلاف اسماء العقال باختلاف البلدان العربية

قد بينا في ما تقدم من كلامنا ان اول أسماءِ العقال : (الحبل) على ما ورد في سفر الملوك من أسفار التوراة ، لأنهُ هو حقيقة حبلٌ لا غير والذين نقلوا التوراة الى لغات مختلفة لم يسموه الا باسم يدل على الحبل ، فهو باليونانية Kamilos وفي اللاتينية Funiculus وفي الأرمية (حَبْلا) وفي الحبشية (حبْل) الى غيرها من اللغات

ولهذا كان من أسمائهِ العربية في البلاد الضادية اللسان تدل كلها على مثل هذا المعنى . فمن أسمائهِ الأولى عند العرب (العصابة) . قال في التاج (العصابة) بالكسر : ما عصب بهِ (كالعصاب) بالكسر أيضاً والمعصب . قالهُ ابن منظور . وعصَّبهُ تعصيباً : شدَّهُ واسم ما شدَّ بهِ العصابة » آه . وهو الاسم الشائع اليوم في شرقي الأردن وأنحاء فلسطين

ومن أسمائهِ في تلك الربوع (المربر) . فراجعها في ما تقدم من كلامنا

والمربر هذا يسمى في عُمان [من ديار خليج فارس] خزاماً . وقد تقدم الكلام عليه ايضاً

هذا ما استطعنا ان نجمعه من الافادات لاثبات ان الكوفية والعقال من أقدم ملابس الرأس عند العرب ويصعب على منكرها ان يهدم هذه الادلة ، اللهمَّ الاَّ اذا كان سيء النية . لا يقنعه وجود الشمس في رائعة النهار بغداد

(١) وصف الضريب الذي رأيناه عند الصديق السري البحاثة السيد يعقوب نعوم سركيس هي خرقة طولها نحو متر و ٣٠ سنتيمتراً ، في عرض متر و ٢٠ سنتيمتراً ، ورقعتها صفراء ، وفي طرفيها ووسطها علم (أي خط عريض أحمر بعرض ١٥ سنتيمتراً ، يتوسطه خط أصفر بعرض نصف سنتيمتر) ثم يتلو كل علم أحمر من هذه الاعلام الثلاثة خطان أصفران يفصل كل واحد عن أخيه خط أصفر عرضه نحو نصف سنتيمتر . وينتهي العرض من الطرفين بخيوط مبرومة عدد ٣٦ من كل جهة وكان هذا الضريب مصنوعاً في بغداد قبل زهاء خمسين سنة ، متين النسج حسن الالوان يدل على مهارة الحائك والصابغ معاً

الربابيح (١)

الرَّبابيح واحدها في العربية «رُبَّاح» ، وهو القرد الكبير. ولقد استعملت هذا اللفظ للدلالة على جنس عظيم من أجناس الرئيسات (Primates) متابعاً في ذلك الاستاذ الكبير السيد أمين المعلوف عافاه الله . وقبل أن أمضي في الكلام على هذا الجنس ، ينبغي لي أن أشير الى ان الواليديين (علماء التاريخ الطبيعي) يقسمون الرئيسات قبيلتين : الأولى البشريات (anthropoidea) ، والثانية الصُّعْبوريَّات (lemuroidea) ، ثم يقسمون البشريات خمس فصائل : الأولى الآدميات (hominidæ) والثانية الشبهيات (simiidæ) ويقصدون بها القردة العليا ، والثالثة القُرْدُوحيات (cercopithecidæ) والرابعة الحَوْدَليات (cebidæ) وتدل عندهم على سعادين الدنيا الجديدة ، كما تدل القردوحيات على سعادين الدنيا القديمة . والخامسة القمئيات (hapalidæ) وهي صغيرة الحجم وتكون في الدنيا الجديدة

أما الشّبهيات فيقصد بها القردة الشبيهة بالانسان (man-like apes) . غير ان الناظر في هذا التصنيف يستشعر فيه نقصاً بيّناً . ذلك بأن وضع السَّعادين (monkeys) وهي طبقة أدنا من القردة (apes) في صف مع البشريات ، أمر يجعل هذا التصنيف محتاجاً إلى إضافة قبيلة جديدة اقترح ان تسمّى السعدانيات ، وان يقابلها في التسمية الأعجمية (pithecoidea)، وبهذا يستقيم تصنيف الرئيسات إذ يكون لها ثلاث قُبيّلات (suborders) هنّ : البشريات وتشمل الانسان والقردة العليا ويقصد بها اجناس الشِّمْزِيّ والغِرِلّى والأُرْطان والشوْجر (gibbons) ، والسعدانيات ، وتشمل سعادين الدنيا القديمة والدنيا الجديدة معاً ، وتشمل فيما تشمل أجناس الرَّبابيح واليحاميم والكهول والعلاّق والسّكيت وغيرها ، ثم الصعبوريات وتشمل فيما تشمل القناجير واللواريس والبوابيس والسغال الى آخر ماهنالك

هذا الكلام العلمي يحمل المترجم في العلوم على أن يلزم ترجمة خاصة اذا ماصادفهُ فيما يترجم من مسائل العلم لفظتا (ape و monkey) فان الأولى ينبغي أن تترجم «قرد» والثانية ينبغي أن تترجم «سَعْدان» . ذلك بان الفارق بين القرد والسَّعْدان كبير في الاعتبار العلمي وكم كنت أودّ أن أقف القارىء على شيء من أصول هذه الأسماء التي أستعملها في العربية

(١) Genus : Papio, or the True Baboons

لأول مرة ، وأكثرها رغم غرابتها على المطلع ، عربي أصيل . لولا اني أخشى تلك النظرات الشزر التي يرسلها صديقي محرر المقتطف على الأصول اليونانية واللاطينية ، وتعليلات النحت والاقتباس ، وذكر المصادر والمظان فلأترك إذن جميع ذلك الى فرصة أخرى . فأعود الى الرّبابيح وما اليها من حديث ، يذكرنا بآيات الخالق البيّنات

ان الربابيح جنس افريقي وتقطن بالاخص البلاد الواقعة في الشمال الشرقي من قارتنا على شواطىء البحر الأحمر ، وهي فضلاً عن اختصاصها في الغالب بشرقي إفريقية وما كان منها على البحر الاحمر ، فانها تغشى جميع افريقية ، ويقطن منها غرب أفريقية جنس الميامين maimon وهو جنس أبتر (قصير الذنب) منهُ نماذج فذّة في حديقة الحيوان بالجيزة . واذا أخرجنا الانسان من حسابنا ، كانت الربابيح أكبر الرئيسات حجماً وأثقلها بدناً بعد القردة العليا . ولقد عرف اليونان والرومان هذا الجنس من القردة وأخص ماعرفوا من انواعه نوع يعرف الآن باسم « الرّباح اللّبـدي » (papio hamadryas) يستوي منخراه في نهاية فنطيسة طويلة تشرف على الشفة العليا . وهذه الظاهرة حملتهم على أن يطلقوا على هذه السعادين اسم cynocephalus وتأويله « السعدان الكلبي » لمشابهة افراده لمنظر الكلاب . والرباح اللبدي هو النوع الذي يستعمله القرّادون فيروّضونه ، وكثيراً ما نراه بصحبتهم في شوارع القاهرة يعرضون حركاته على الصبية وأهل الفراغ

ولكل أنواع الربابيح تاليل عجزية كبيرة ، وقد تكون بعض الأحيان زاهية اللون . أما الربابيح الجنيسة [1] فذيولها معتدلة الطول . أما الأطراف (اليدان والرجلان) فمتساوية الطول تقريباً ، ولذا هي أنسب للدرج على الارض منها للتسلق . والحقيقة انهُ ليس من الربابيح نوع واحد مهر في التسلق ، بل ان بعضها يقضي حياته كلها على الارض لايبرحها . ولبعض الانواع نزعة الى المقام في المواطن الحجرية ، فتعيش هنالك أرجالاً ، حتى تتقي بتجمعها هجمات النمور وغيرها من أكلة اللحوم . لأن مقامها على الارض يجعلها طعاماً سائغاً للمفترس من الحيوان

ولا ينبغي أن يتبادر الينا ان قوة دفاعها تقوم على حياتها الصوارية [2] وقدرتها المستمدة من اتحادها ، وتماسك أفرادها ، لأن ذكر الرباح ، وهو أكبر من الأنثى حجماً وأعظم قوة عما لا يقاس عليه ، قد هيأته الطبيعة بأنياب بلغت من الكبر مبلغاً عظيماً . وان قضمة من أنيابه لتساوي أثر قضمة من أنياب النمر ، وهنالك حالات هاجم فيها بعض الربابيح البالغة نموراً ، فاستقوى الرّبّاح على النمر ، وعجز اللاحم عن منازلة العاشب . يساعد الرّبّاح على هذا خفة حركته وسرعة انطلاقه في العدو . فإنهُ اذا عدى في أرض مستوية ذلول ، فلا يدركه الا جوادٌ

(١) الجنيس : الاصيل في جنسه (٢) الصوار القطيع ، وجمعه صيران

تنطلق مع الريح سوقه . فاذا أدرك جلس على مؤخرته واتجه نحو عدوه مكشّراً عن أنيابه ونواجذه ، وكأنهُ يقول لغريمه : ها هي أنياب الحيّات السود !

وتأكل الرباييح في مرابيها كل ما يمكن ان يلين تحت أفكاكها القوية . وعلى الرغم من ان طعامها الرئيس يتكوَّن في أكثره من الحبوب والفواكه والجذور والدرنات والصمغ الذي تفرزه أنواع أشجار الاقاقيا الأفريقية ، فانها تجدُ باحثة عن الحشرات والمطايا وبيض الطيور تأكلها وتستمرئها استمراءً . وقد تصيب المزارع أضرار بالغة من هجمات الرباييح عليها ، اذا كان ثمت مزارع بمقربة من مرابيها . وقد ذكر كثير من الجوالين انهُ عندما تريد الرباييح غزو مزرعة، ينبذ بعض المختارين منها أمكنة تتخذها مراقب للحراسة ، حتى اذا لاح الخطر ترددت أصوات الانذار منبئةباقتراب العدو . فإما الفرار اذا كان الفرار مستطاعاً ، واما خوض ملحمة تتطاير فيها الأشلاء . أما تصرُّف الرباييح فبعيد ان يكون فيهِ شيء من الدعة او اللين. وانها لتملكها سورة من الغضب العنيف اذا ما خيِّل اليها في شيء ، سبب يثيرها . ولكن بعض أنواعها قابلة للإيلاف الكامل وقد تقبل الرياضة فتأتي بعض الطرائف . فان قدماء المصريين كانوا يؤلفون أفراد نوع من الرباييح، ولعلَّ قرَّادينا الذين نشاهدهم يعرضون ألعاب الرباح اللبدي في أسواق القاهرة هم ورثة أجدادنا القدماء

ولقد عرف أهل أوربا الرباييح منذ أكثر من مائتي سنة بل يزيد . فقد نشر جوَّال أوربي كلاماً عن جولة له في أنحاء أثيوبيا (الحبشة) ونشرت ترجمته الانكليزية سنة ١٦٨٤ . ولقد آثرت أن ألخص ما كتب لطرافته . قال : يوجد هنالك من السعادين آلاف مؤلفة تعيش وتسعى أرسالاً على قمم الجبال وفي سفوحها ، وقد يبلغ كل رَسلٍ منها الألف عدًّا. وهنالك لا يتركون حجراً الاَّ قلبوه ولا ثابتاً الاَّ نكسوه . فاذا صادفهم جلمود لم يقدر اثنان او ثلاثة منهم على قلبه ، تنادوْا فاجتمعوا حتى يقووا عليه . كل هذا التماساً لما يكون تحت الحجارة من ديدان ، وهي لون شهي من ألوان طعامهم ، وهم الى النمل أشد قرماً منهم الى الديدان . فاذا عثروا على قرية من قرى النمل ، اجتمعوا عليها وتألبوا تألب المفلتين من مجاعة ، فأعملوا في القرية نهباً وتدميراً ، ولا يتركونها الاَّ بعد أن يأتوا على آخر نملة فيها . وهم كذلك من المغرمين بالفواكه وبالتفاح خاصة . وان حديقة ما ، إن افلت اليها رسل منهم فنصيبها الخراب المحقق ان لم يكن عليها عيون أمينة تحرسها . ولكنهم على جانب عظيم من المكر والخداع . ذلك بأنهم اذا أرادوا السطو لم يقدموا عليهِ حتى يعود اليهم جواسيسهم الذين يرسلونهم دائماً قبل الاقدام على الهجوم . فاذا وجدوا من غرمائهم اصحاب الحديقة غرَّة ، انسابت جموعهم مسرعة مجلانة ليحصلوا على أكثر ما يستطاع في أقل ما يمكن من الزمن . ولكنهم يتقدمون سكوناً محترسين ، فاذا صاح

صغير منهم لـكموه بقبضة يد تسكنه وتخيفه . فاذا خلا لهم الجو أخذ كل منهم يعبر عن فرحه وغبطته بصوت خاص يرسله من حنجرته القوية . أما اذا هوجموا وضيق عليهم الخناق ، التجأوا الى التراب أو الرمل ءلأُون به أكفهم،ثم يلقون به في عيون الغرماء،ثم يفرون فرار الريح العاصف

بالرغم مما يقال عن الرباح من بعد عن الدعة ، وما يوصف به من لصوصية ووحشية ، فان فيه صفات تعوّض عليه شيئاً مما عرف عنه من سوء السيرة . فان الوداعة لا تفارقهُ دائماً مع زوال الطفولة . ذلك بأن الأمزجة تختلف في أفراد هذا الجنس اختلافها في كثير من أفراد أجناس الحيوان ، وحتى الانسان . ومن هنا وجب علينا أن لا ننتظر من جميع الرباببح ان تكون دمثة الطبع ، ولا ان ننتظر ان تكون جميعاً متوحشة مفترسة . فان رُبّاحاً هاجم أحد حرّاس حديقة الحيوان بلندن وأمعن فيه خمشاً وتجريحاً ، حتى لقد أشرف على الهلاك . في حين ان رباحاً آخر من النوع المسمى علميًّا رباح أنوبيس كان مثالاً للوداعة واللطف ، وعاش ما عاش صادقاً الود خالص السريرة لحارسه . وجرح مرة فنقل الى حجرة العمليات اثر معركة خاضها ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو الى تخديره بالبنج لان حارسه كان معه وكان هو الذي سيتولى مساعدة الطبيب على تطهير الجرح وقص ما تهتّك من أطرافه ثم عصّبه . ولقد احتفظ جوّال عالم يدعى « هر شلنجر » برباح أليف عند ما كان في افريقية ، وكان ذلك الرباح ضخم البدن قوي الأصلاب عظيم القوة . وكان من تملقه بصاحبهِ ان يظل يتطلع الى الأفق اذا ما غاب أياماً في احدى الرحلات ولا يطمئن ويظهر عليهِ الرضى الاَّ اذا لمح شبح « شلنجر » ماثلاً لدى الأفق فيعرفهُ ويحققهُ ويعلن بحركات واصوات خاصة مقدم صاحبه ، في الوقت الذي لا يرى الزنوج ذلك الشبح الاَّ نقطة سوداء متحركة غير مستبانة ، ذلك بأن الرباببح فيها من حدة البصر ما يحسدهم عليها الزنوج الذين هم مضرب المثل في ذلك عند اهل أوربّا

وكان في حرب « البور » بجنوب افريقية ان عزلت مدينة « لاديسميث » وصمدت للحصار طويلاً . فكانت الرباببح القاطنة في المواطن المحيطة بها أول من ينبه حامية المدينة الى قدوم العدو واقتراب هجومه . غير ان « شلنجر » روى عن رُبّاح ذكي مقدر للظروف كان يعرف ما يحيط بهِ من مخاطر في زمان الحرب ، فكانت حامية « موشي » (Moshi) تربطهُ على باب القلعة حيث يظل هنالك لاهياً مع صديق لهُ من أطفال الزنوج يلاطفهُ ويعطف عليهِ العطف كله . وكان الرباح في موضعه ذات ليلة ورجال الحامية يتوقعون فيها هجوماً من جانب العدو وعلى حين فجأة اقتحم رجال الحامية الباب مسرعين. فلما رآهم الرباح على هذا توقع الخطر واعتقد انهُ هالك اذا لم يجارهم ، فعمل بأقصى جهد حتى تخلص من أغلاله ، وكان من السابقين الى مكان أمين في الحصن

*

حقيقة التحليل النفسي

للاستاذ موكسلي [1]

نقلها الى العربية : حسن السلمان
مدير منطقة معارف البصرة

توطئة

التحليل النفسي اصطلاح كثيراً مايجري على الالسن وغالباً مايستعمله الكتاب والادباء دون ان يفقهوا المعنى الحقيقي له ودون ان يكلفوا انفسهم عناء معرفة الابحاث التي يتضمنها والنظريات التي تؤلف موضوع بحثه. وفي هذا البحث على ايجازه يلقي الاستاذ موكسلي نظرة عجلى على تاريخ هذه الناحية المهمة في علم النفس ثم يتوسع في دراسة اصوله ونظرياته بطريقة تحليلية مبسطة

من دواعي العجب أن كثيرين ممن تهذبوا ونالوا قسطاً من العلوم يسيئون فهم حقيقة التحليل النفسي وسبب ذلك شكهم في النتائج المستحصلة منهُ وتحاملهم على ما يتضمن من ابحاث، وإعراضهم عما يحتوي من نظريات دون أن يكلفوا أنفسهم عناء دراستها أو بحثها بحثاً بعيداً عن التعصب والتحزب. وما أقل اولئك الذين حبتهم الطبيعة عقولاً سمحة تمكنهم من دراسة نظريات تخالف ما نشأت عقولهم عليه وتباين ماتشربت نفوسهم به. دراسة سداها التسامح ولحمتها العدل. وفي نظرنا ان اللوم لايقع على هؤلاء وحدهم بل يقع نصيب وافر منهُ على الباحثين النفسيين انفسهم. فاننا ان اجلنا الطرف في نواحي العلم الحديث لا نجد ناحية من نواحيه العديدة اكثر إبهاماً في التعبير أو أشد غموضاً في الاصطلاح مما هو في التحليل النفسي. ومما زاد في ذلك الابهام وهذا الغموض ان الباحثين بلغ بهم اعتدادهم بمعرفتهم حداً جعلهم لا يرتضون انتقاداً ولا يستمعون لاعتراض. ومع انهُ ليس من السهل علينا أن نأتي في بحث موجز كهذا على جميع الاصول الأساسية للتحليل النفسي، فاننا سنسهل على القارىء الذي لم يتوسع في مباحث علم النفس إدراك ما لهذا العلم الجديد من شأن عظيم وتلمس فوائده العلمية الجمة. وسنقرب جهدنا وجهات نظر الباحثين النفسيين على كثرتها من فهمه وحسه

ليس التحليل النفسي الاَّ طريقة عملية

(١) الحاضر في علم النفس وبالفلسفة في كلية مورلي بلندن

لدراسة صنوف معينة من الاضطرابات العقلية ولمعالجتها بوسائل نفسية مجدية . يرجع الفضل في وضع اصول هذا الفرع من علم النفس للدكتور سجموند فرويد . ويطلق التحليل النفسي ايضاً على النظرية الخاصة بطبيعة الجنس البشري تلك النظرية التي احكم ابتداعها بعد بحث طويل مضنٍ ذلك العالم النمساوي الكبير . وكذلك يطلق خطأ على النظريات المتباينة التي وضعها بعض طلابه اخص بالذكر منهم الدكتور يونج والدكتور الفرد ادلر وغيرهما ، الاّ اننا سنقتصر في بحثنا هذا على شرح طرق دراسة الاضطرابات العقلية وعلى تفهم نظرية الطبيعة البشرية

ان الاضطرابات العقلية صنفان أحدهما يشتمل على الاضطرابات العميقة الاثر في حياة الانسان العقلية وهي التي تتعذر معالجتها بالاساليب النفسية كالجنون والخبل والعته ، والصنف الآخر يشتمل على الاضطرابات العقلية التي تسهل معالجتها ومداواتها كالضعف العقلي والشذوذ النفسي البسيط. واكثر الانواع السائدة لهذا الشذوذ النفسي هي الشلل الهيستيري وفقدان الحس والحركة الناشيء عن سبب غير عضوي

بدأ فرويد حياته العملية باحثاً فسيولوجيًّا اختص بدراسة الجهاز العصبي ومختلف امراضه، ولكن ضيق ذات يده واحتياجه الى الكسب اليومي اضطراه لتوجيه جهوده شطر الطب متخذاً منهُ صناعة تدر عليه ما يسد بهِ عوزهُ : ومما لا شك فيه ان ابحاثه الاولى عن الجهاز العصبي خلقت فيه الميل لدراسة الاضطرابات العقلية بأنواعها المختلفة . ويلاحظ عليهِ انهُ تأثر في دراسته هذه بفكرتين احداهما أوحى اليهِ بها الباحث الفرنسي الكبير الاستاذ شاركو الاختصاصي في علم الاعصاب . وتتلخص فكرة هذا الباحث في أن الاضطرابات العقلية تكون دائماً مصحوبة باضطرابات تناسلية . والفكرة الاخرى مستمدة من ابحاث الدكتور جوزيف برويَر الذي اكتشف انهُ عندما ينوّم امرأة ابتليت باضطراب عقلي ، تنويماً مغناطيسيًّا تستطيع تلك المرأة ان تتذكر حوادث جرت لها فيما مضى من حياتها ، وكان لها أثر فعال في نفسها . وعندما يجعل المرأة تتذكر تلك الحوادث وهي في حالة اليقظة يتسنى له تخليصها مما كانت تشكو من اضطرابات. ومادمنا في سبيل ذكر التنويم المغناطيسي فلا بد من تعريفه تعريفاً شاملاً قبل الاسترسال في بحثه. ان التنويم المغناطيسي ظاهرة توقع المريض في شبه غيبوبة وتجعله طائعاً منقاداً للطبيب المنوم ينفذ أي أمر يأمرهُ به ، أو أي طلب يطلب منه تحقيقه

كان فرويد وبرويَر صديقين حميمين فلما اكتشف برويَر اكتشافه ذاك تعاونا معاً على وضع طريقة خاصة لمعالجة المصابين بالاضطرابات العقلية سمياها « الذرب العقلي » . وتجمل طريقتهم هذه في إماطة اللثام عن بعض الأفكار المندثرة في أعماق الذاكرة بالاستعانة بالتنويم المغناطيسي . وبعد ما يعاد المريض الى حالة اليقظة يُذكَّر بتلك الافكار ويطلب منه ان يعبر

عنها بطلاقة دون ان يخفي شيئاً من عواطفه حيالها . وبعد ما افترق فرويد عن زميله ورفيقه وتوسعت دائرة بحثه وجد ان بعض مرضاه لا يجديهم التنويم المغناطيسي نفعاً فلم ير بداً من ترك هذه الطريقة متبعاً طريقة إثارة ما مضى وما نسي من حوادث في حياة المريض . وقد توصل بهذه الطريقة الى ابتداع طريقته المعروفة بطريقة « التفكير الحر » وهي تعد في منزلة حجر الزاوية في الأساليب الفرويدية لمعالجة المصابين بالاضطرابات العقلية والشذوذ النفسي

وفي طريقة « التفكير الحر » لا يطلب الطبيب النفسي من مريضه تركيز عقله في فكرة خاصة وانما يطلب منه ان يطلق العنان لأفكاره معبراً عن كل ما يجول بخاطره دون ما تردد أو تلجلج او كتمان ما يشين من أفكاره او تعديل ما يسيء منها أو اهمال ما هو تافه فيها . وقد وجد فرويد ان طريقته هذه ذات نتائج تغلب منافعها على نتائج طريقة التنويم المغناطيسي خاصة بعد ان اضاف اليها طريقته في تحليل الأحلام. منهجه في ذلك ان يطلب من المريض سرد ماشاهده في آخر رؤيا له تاركاً لعقله مطلق الحرية في التفكير في كل حادثة من حوادث الحلم فبالاستعانة بذلك يكشف الطبيب عما خبيء من الأفكار والتصورات التي لها علاقة مباشرة بعوارض المرض العقلي

وبالاستعانة بهاتين الطريقتين — التفكير الحر وتحليل الاحلام — وجد فرويد ان مرضاه لا يمكن ان تثار رغباتهم المكبوتة وتصوراتهم المطمورة الا بعد إجهاد والحاح شديدين . كان في أدمغتهم قوة فعالة تحول دون افشاء العقل لتلك الرغبات والتصورات . وتكون الرغبات المكبوتة ذات عامل تناسلي كما انها تكون غير مؤتلفة والمقاييس الخلقية العامة التي يضطر المريض لاتباعها في حالته السوية . فعقل الانسان ليس الا ميدان نزاع بين ما ظهر من رغباته وما خفي منها . فاذا ما ازداد الضغط العقلي على الرغبات التي يجهد الانسان نفسه لاخفائها حاولت الظهور في اشكال شاذة تدعى بالاضطرابات العقلية

الرغبات التناسلية المكبوتة

وكان من أهم ما توصل اليه الدكتور فرويد اكتشافه ان المرضى الذين نجح بادىء الأمر في معالجتهم عادوا اليه ثانية وهم يشكون عوارض اضطرابات عصبية مغايرة لتلك التي كانوا يشكونها سابقاً . وتعليلاً لهذا فرض ان وراء الميول المكبوتة والرغبات المطمورة في الذاكرة لا بد ان تكون هناك أخيلة وتصورات اكثر قدماً من تلك التي سببت الاضطرابات العصبية الأولى وأبعد منها أثراً في حياة الانسان العقلية . والى هذه الأخيلة والتصورات عزا فرويد الاضطرابات العصبية الجديدة . وقد بنى اكتشافه هذا على التحقيقات التي قام بها في بعض

الحوادث التي اشار اليها مرضاه ووجد ان ليس لها نصيب من الصحة بل هي مجرد وهم وتخيل. ومن اغرب ما فاز باكتشافه هو ان تلك الاوهام والتصورات ذات ميول واندفاعات تناسلية أثارها في نفس المريض أقرباؤه المحيطون بهِ عندما كان طفلاً

وبعد اكتشاف فرويد لأسباب هذا اللغز المبهم ، الحجر الأساسي في بناء جميع نظرياته السيكولوجية العامة ، ذلك لأن المرضى يعتقدون دائماً بصحة الأوهام والتخيلات ويعتبرونها حقائق واقعية حدثت لهم أيام كانوا أطفالاً بينما الاستقراء والبحث عما مضى في حياتهم يثبتان ان تلك الأوهام والتخيلات وليدة أحلام المرضى في ساعات يقظتهم . وما أحلام اليقظة الاّ الاسترسال في التفكير والتأمل في رغبات وميول يتعذر تحقيقها . فالمحب الذي أخفق في حبه وحرم الفتاة التي كان يملل النفس بتزوجها تستطيب نفسه الاسترسال في تصوراته عن الفتاة فيتخيلها جالسة بقربه تبثه شوقها وغرامها . والعامل الذي تضطره ظروف الحياة لقضاء جميع أيامه منكبًّا على طلب الرزق والمعاش داخل المدن المكتظة بالسكان لا بدَّ ان تحدثهُ نفسه أحياناً بالانصراف عن هموم الحياة وأتعابها الى الاسترسال في التخيل كأَنهُ وسط جنينة باسقة الشجر وارفة الظل متفجرة المياه فيها ماتشتهي الانفس وتلذ به الاذواق ، وهذه التصورات والأخيلة التي يتوسل بها الشخص للفرار من حقائق الحياة هي ما يدعى بأحلام اليقظة

وهكذا عرف فرويد ان الاضطرابات العصبية الثانوية لا تنتج عن حوادث جرت فيما مضى من حياة المريض وكان لها تأثير سيء فيها ، وانما تنجم عن أفكار صبيانية يسترسل فيها الطفل وهو غير عالم بأنها ستجني عليه وستوقعه فريسة لاضطرابات عصبية شتى . والحادث التالي يثبت صحة ما ذهب اليهِ فرويد

كان فرويد وبرور زميلين حميمين يتشاركان في ابحاثهما ويتعاونان معاً في معالجة مرضاهما ، وحدث مرة ان امرأة ابتليت باضطراب عصبي فالتجأت الى برور لمعالجتها ، فلما شفيت من المرض وقعت في فخ غرامه فأحبته حبًّا شديداً بلغ مرتبة الهيام. وقد جنى هذا الحب على العالم إذ أجبر برور على ترك أبحاثه النفسية منصرفاً الى مزاولة الطب ومطمئنًّا الى حب تلك المرأة. ومن غريب الاتفاق انه وقع لفرويد ما وقع لزميله فقد أحبته أيضاً احدى مريضاته العديدات بعد ان شفاها مما ألمَّ بها وكاشفته بحبها طالبة التزوج به ولكنهُ فضل البحث العلمي على الاستسلام الى حب شهواني غير مجدٍ. وهاتان الحادثتان الغريبتان جعلت فرويد يستنتج ان معالجة المصابين بالاضطرابات العصبية تؤدي دوماً الى اثارة دوافع ورغبات تناسلية مكبوتة وهذه الدوافع المخفية والرغبات المكبوتة تسبب الاضطرابات العصبية الثانوية . وليس من علاج ناجع لهذه الاضطرابات الاَّ بتحقيق تلك الدوافع والرغبات التناسلية بكيفية لا تتنافى والمقاييس الخلقية العامة

وكان من نتائج هذا الاكتشاف ان اتجه فرويد الى ناحية أخرى في البحث النفسي هي الاستقصاء عن القوى المسببة للكبت اللاشعوري في الدماغ . فقد أورد في كتابيه « العلاج النفسي والحياة العامة » و « سرعة الخاطر واللاشعور » أمثلة عديدة على علاقة رغبات الانسان المكبوتة بدوافعه اللاشعورية، تلك الدوافع التي لا تختلف كثيراً عن بعض عوارض الاضطرابات النفسية . ويستدل مما كتبهُ فرويد على ان القوى العقلية الحائلة دون ظهور ميول الانسان وبروز رغباته التي لا تأتلف والحياة العامة ليست شديدة التأثير في المصابين بالاضطرابات النفسية فحسب بل قوية التأثير في الذين يعيشون عيشة سوية رصينة . ومما هو جدير بالذكر ان الاختلاف بين الانسان السوي وذاك الذي أصيب باضطراب نفسي ليس بناجم عن وجود تضارب وتعاكس في قواه العقلية ولكنهُ ناجم عن مبلغ تأثير هذا التضارب في تفكيره وعن مقدار تسلط العقل على ذلك التضارب

وتعد نظريات فرويد عن الطبيعة البشرية ثورة على ما تقدم من نظريات علم النفس وما زالت حتى الآن موضع خلاف بين المشتغلين بعلم النفس . ومهما يُقَلْ عن منزلة هذه النظريات فان النتائج التي توصل اليها فرويد غيرت من معالم علم النفس وزعزعت عقائد كثيرين في الظواهر العقلية

التحليل النفسي

والتحليل النفسي كنظرية عامة للطبيعة البشرية وللتكوين العقلي من أعقد أبحاث علم النفس ومن أصعبها فهماً خاصة على الذين تنقصهم معرفة الحقائق العلمية . ومما زاد في تعقيد البحث والاستقصاء ، اختلاف وجهات البحاث في وضعهم المصطلحات اللازمة ولولا فرويد ومن تبعهُ من العلماء الذين أفاضوا في شرح ما وضع من المصطلحات لبقي الارتباك سائداً ولظل الابهام مخيماً على هذه الناحية المهمة من نواحي علم النفس ، ومع كل ذلك فان معاني بعض المصطلحات ما زالت تتداخل بعضها في بعض تداخلاً يزيد في ابهامها ويقلل من رغبة المطالعين في تفهم معانيها . وتوضيحاً للبحث سنقلل من استعمال المصطلحات التي وضع بعضها فرويد وأتباعهُ خاصة ومنها تلك التي لم يتم الاتفاق عليها بعد أو التي تتداخل معانيها مع غيرها في المصطلحات

ولنبدأ بحثنا عن التحليل النفسي بتحليل مثال بسيط مستمد من الحياة العامة وممثل لعمل عقلي شعوري بسيط . لنفرض أن قلمي في الساعة التي جلست فيها للكتابة هذا البحث جف حبره فاللحظة التي أدرك فيها ذلك يتولاني انزعاج وتذمر فأضطر الى التوقف عن الكتابة تاركاً محلي ومفتشاً عن زجاجة الحبر . ولن اطمئن مالم أملأ قلمي بالحبر ثانية وأتابع كتابتي وفي حالة عدم عثوري على زجاجة الحبر في المحل الذي أتوقع وجودها فيه يتضاعف انزعاجي ويزداد تذمري حتى وان بقيت مستمراً في التفتيش عنها ، ويتكاثر الانزعاج كلما طال زمن

التفتيش . اننا ان أنعمنا النظر فيما اعتراني خلال هذه الفترة من الزمن وحللنا كل جزء من أجزاء الاعمال العقلية التي قمت بها وجدنا أنني عرفت أولاً أن القلم نضب حبره فشعرت بانزعاج من جراء ذلك ثم تولاني دافع نفسي للتفتيش عن الحبر

هذه المظاهر الثلاثة من مظاهر العمل العقلي يدعوها علماء النفس بالادراك والوجدان والنزوع . فالادراك يشتمل على جميع أنواع المعرفة سواء أكان ذلك عن أشياء حدثت الآن كالادراك الحسي للورق الذي اكتب عليه او عن أشياء سبق وقوعها وتذكرتها الآن او عن تصورات وتخيلات أثارها في نفسي نضوب الحبر . ومعنى الوجدان في علم النفس يختلف عن معناه في الكلام الدارج فهو في علم النفس يشير الى حالة نفسية ، سارّة او مزعجة ، تعتري الانسان من جراء احساس او نتيجة لعمل انفعالي يأتيه . فعندما نقول في دارج الكلام «انني أشعر بالبرد » فقولي هذا لا ينطوي على شعوري بالبرد فقط بل على ادراكي له ايضاً ، لأنني أتأثر في الاحساس بالبرد الذي يكون مفعوله في السطح الخارجي من جلدي ثم أدرك ان البرد أثر فيَّ . أما المعنى الحقيقي للوجدان فيقتصر على تأثرنا النفسي من ذلك الاحساس سواء كان احساساً مستطاباً أم غير مستطاب . هذا وليس التمييز بين النزوع والوجدان أو بينهُ وبين الادراك بالأمر اليسير ، ولكي نتفهم المعنى الحقيقي للوجدان لا نرى بدّاً من الرجوع الى مثالنا السابق نستمد منهُ مادتنا . فعندما عرفت ان الحبر جف في قلمي تولتني حالة نفسية عبرنا عنها بالانزعاج وهذه الحالة النفسية اثارت في نفسي دافع البحث عن زجاجة الحبر، وقد ظهر هذا الدافع بشكل سلوك جسمي هو الانفعال والتفتيش عن الحبر. فالدافع النفسي الذي اضطرني للتفتيش عن زجاجة الحبر هو ما يدعوه السيكولوجيون بالنزوع. ومما تجب ملاحظتهُ في هذا الصدد ان النزوع لا يشتمل على الاعمال الجسدية أو الحركات الجسمية ، وانما يقتصر على الفعاليات العقلية التي تدعم تلك الاعمال وتؤدي الى تلك الحركات وتسيرها نحو جهة ترضي نفس الانسان

وعلى الغالب تكون الفعاليات النزوعية على أشدها عند ما تكون الفعاليات الجسمية على أقلها. والمثال التالي يظهر ذلك بوضوح وجلاء . انفرض أن مريضاً أقعده السقم في فراشه ومنعه اطباؤه عن القيام بحركة ما ، مهما تكن بسيطة فيظل هذا المريض وهو طريح الفراش يفكر في تلك الساعة التي سيجيز له فيها الطبيب مفارقة الفراش . فهذا المريض وان ظل جسمه قليل الفعالية الاَّ أن عقليته ستكون على اشد فعاليتها . . . والمفكر الذي يخلد الى كرسي راحته مستلقياً على قفاه ومفكراً في حل معضلة من معضلاته الكثيرات يعطينا صورة صحيحة للفعالية النزوعية عندما تكون في أشد حالاتها وعندما تكون الفعالية الجسمية على غاية من القلة والسكون

والنزوع يلازم الحياة العقلية ملازمة الظل لظليله فعندما نتحدث عن رغباتنا أو ميولنا أو

دوافعنا فانما نعبر عن المظهر النزوعي من حياتنا العقلية . وما التحليل النفسي بمعناه الخاص الاّ دراسة هذا المظهر من الحياة العقلية . وللنزوع صفتان مهمتان الواحدة ان النزوع يرمي الى غاية معينة ولن ينتهي الاّ بتحقيق تلك الغاية . فانني ما ان أجد زجاجة الحبر مثلاً ، تنتهي رغبتي في البحث عنها ، والصفة الاخرى ان النزوع يكون مرضياً عند ما يجد الانسان ضالته فان لم يجدها شعر بالحزن والألم يحزان في قلبه . ولِيسمح القارىء لنفسه بالتفكير في احدى رغباته التي لا تسمح التقاليد بتنفيذها ولا يجيز العرف تحقيقها . فانهُ ما ان يسترسل بذلك حتى يتولاه شعور بالحسرة واحساس بالألم الممض ّ

وهناك مظهر آخر من مظاهر الحياة العقلية لا يقل منزلة عن المظاهر الثلاثة المتقدمة الذكر . لنفرض ان شخصاً أساء اليّ في يوم من الأيام فانني ما ان افكر فيه حتى يتولاني شعور الكره والعداء نحوه ، ويعتريني هذا الشعور حتى في تلك الساعات التي لا يمر ذكره ببالي وبعبارة أخرى ان كرهي لذلك الشخص هو صفة خاصة بي أوجدتها حالة خاصة طرأت عليّ وتقوم هذه الصفة بتحديد نوع ميولي نحو شخص أساء اليّ دون ان يكون ذلك التحديد شعوريًّا ، وهكذا فان كرهي لذلك الشخص وحقدي عليه هما صفة عقلية محضة ليس لها علاقة بصفاتي الجسدية كلون شعري ولون قزحية عيني أو غيرها من الصفات الجسدية الأخرى . ويستدل من هذا على ان هناك عوامل فعالة في الحياة العقلية تعين الفعاليات الشعورية دون أن تكون عرضة للتأمل الباطني كما هو الحال في الفعاليات الشعورية ، وتدعى هذه العوامل بالاستعداد أو الميل الفطري . ولا بد من التفريق بين هذه الميول الفطرية وبين الشعور نحو من نكرههم ونحقد قلوبنا عليهم . فالشعور بالكره او الحقد حادث عقلي يتغير ويتحول وربما يزول فلا يترك له أثراً . أما الاستعداد أو الميل الفطري فيظل ملازماً الانسان طوال حياته . وهو وان لم يكن طارئاً الاّ انه يتوسل بالطوارىء العقلية للتعبير عنهُ

ويعرف الاستعداد بالاستمرار العقلي ، وتكون بعض أنواعه موروثة وبعضها مكتسبة . فالشعور بالكره استعداد مكتسب أما الالتفات نحو الأجسام المتحركة فاستعداد فطري لان الناس يتصفون به على اختلاف أعمارهم . وللاستعداد سواء أفطريًّا كان أم مكتسباً ، مظهران أحدهما ادراكي والآخر نزوعي . فالطفل لا يتأثر بالأصوات العالية فحسب بل يشعر بالفزع وبلزوم الابتعاد عنها . وعند ما تجتمع استعدادات الانسان تكون « بناءه العقلي » ذلك البناء الذي ينمو ويتعاظم فيكسب الانسان عواطفه المختلفة

لقد أوضحنا الكثير من نواحي حياتنا العقلية دون ان نتطرق الى تعريف التحليل النفسي كنظرية للطبيعة البشرية ، وقد آن الأوان لتعريفه تعريفاً شاملاً مانعاً . ان التحليل النفسي نظرية تبحث عن طبيعة الاستعدادات العقلية الفطرية وعن كيفية تكون الخلق الانساني من هذه الاستعدادات

[للبحث تتمة في العدد القادم]

العلم وأدب النفس

للعلامة اينشتين

— الى أي مدى تستطيع الفلسفة العلمية التي تبنيها أنت وزملاؤك أن تتحول الى فلسفة عملية تتناول الحياة من جميع وجوهها وترفع للنفوس مثلا عملية جديدة عليا على انقاض الاغراض القديمة المتداعية

* يقصد بالفلسفة العملية فلسفة تتناول السلوك . وأنا لا أعتقد أن العلم يستطيع أن يعلّم الناس أدب النفس أو أدب السلوك . ولا اننا نستطيع أن نشيّد فلسفة أدبية على أساس علمي . انك لا تستطيع ان تعلم جمهور الناس مثلاً أن يواجه الموت دفاعاً عن حقيقة علمية . ليس للعلم أثر عام من هذا القبيل في النفس الانسانية . أما تقدير الحياة والاعراب عن هذا التقدير إعراباً نبيلاً فلا يتأتى الاّ عن توق النفس الى معرفة مصيرها . وكل سعي لتحويل أدب النفس الى قواعد علمية مقضيٌّ عليه بالخيبة . ولكن يقابل ذلك أن البحث العلمي والعناية بالمذاهب العلمية وفلسفتها لها أثر كبير فعّال في ارشاد الناس الى تقدير شؤون الروح تقديراً أصحّ وأنبل أما حقائق العلم بحد ذاتها فلا تمدنا بأساس ما نبني عليه قواعد سلوكنا

— الناس يتطلعون الى العلم بشيء كثير من التوق الديني . أسمعت بالازدحام الذي وقع في نيويورك وكيف داس الناس بعضهم بعضاً في طريقهم الى ردهة لسماع محاضرة في «النسبية»

* اعتقد أن عناية الجمهور بشؤون العلم وما لهُ من المقام العالي في نفوسهم من أقوى الأدلة على حاجات العصر النفسية . انهُ يدل على أن الناس سئموا المادية بمعناها المعروف . انه يدلُّ على انهم يرون في الحياة فراغاً وانهم يبحثون عن شيء من وراء مصالح الفرد وأغراض الساعة . ان عناية الجماهير بالمذاهب العلمية تشمل جميع قوى النفس العالية وكل ما يحرك هذه القوى له منزلة عالية في رفع مستوى الآداب الانسانية

— اذا درّسنا ابناءنا المذاهب العلمية من وجهتيها الفلسفية والثقافية فما يكون أثرها في نفوسهم

* لا بدّ من تضافر الملكات الروحية الملهمة المبدعة حين يحاول العقل فهم الحقيقة العلمية . انك تستطيع ان تبني علماً بطوب المنطق وطين البحث والامتحان . ولكن فهم مغازيه وأغراضه بعد بنائه يقتضي تضافر جميع ملكات الفنان المبدعة . فليس في وسعك ان تبني داراً بطوب وطين وحسب . بل انك تحتاج الى ملكات المهندس والمزين والمؤثث وذوق ربة البيت . وفي ميدان العلم يجب ان يكون المقام الأول للفهم وبذلك اعني ان ميولنا الأدبية وغرائزنا الدينية واحساسنا بالجمال قوى لا بدّ من تضافرها مع القوة العاقلة لتحقيق أسمى الأعمال العقلية — وهو الفهم

اني متفق معك على ان للعلم أركاناً ادبية (moral) ولكننا لا نستطيع ان نقلب المعنى فنقول ان للادب morality أركاناً علمية

موارد الطعام

في بلدان القارة الاوربية

وتأثير قلتها في صحة السكان

يقصد ببلدان القارة الأوربية تلك البلدان الواقعة الى الغرب من روسيا الكبرى ، والى الشمال من البحر المتوسط ، والى الشرق من المحيط الأطلسي ، والى الجنوب من البحر القطبي الشمالي . أما روسيا السوفياتية الكبرى فتشمل استونيا ولتفيا ولتوانيا وبسارابيا وتدخل فنلندا في نطاقها . وليست المملكة المتحدة (أي انكلترا واسكتلندا وويلس وشمال ارلندا) بداخلة في نطاق بلدان القارة الأوربية لأنها تستطيع ان تتصل بسائر بلدان العالم فتستورد منها ما تحتاج اليه

ليس بين البلدان الواقعة الى الشمال من جبال الألب بلدان باقية على الحياد الا سويسرا والسويد . ومن المسلم به ان سويسرا واسبانيا والسويد والبرتغال تستورد من الخارج مقادير معينة من مواد الطعام بسماح من رجال الحصر البحري البريطاني

من المرجح ان عدد سكان بلدان القارة الأوربية — بالتعريف الذي تقدم — يتفاوت بين ٣١٠ ملايين و ٣٢٠ مليوناً . فالمسألة التي تتجه اليها الأنظار في ما يتعلق بموارد طعامهم هي هذه: هل تستطيع هذه الشعوب ان تتغذى بما تنتجه ارضها من مواد الطعام بغير ان تتعرض لتأثير الجوع أو القلة في صحتها ومعدل انتشار المرض ومتوسط الوفيات فيها ؟ وهي مسألة معقدة ويزيد في تعقيدها ضرورة التحوُّل من أكل مواد تعوَّد الناس أكلها الى أخرى لم يتعودوها . فتأثير القلة والتحول من مواد الى أخرى لا يظهر حالاً وانما هو تأثير متجمع قد يبقى كامناً ثم تبدو عواقبهُ فجأة . وموارد الطعام تقسم الى طوائف أهمها أربع

أولاً — الحبوب اللازمة للخبز

ثانياً — الحبوب اللازمة للعلف

ثالثاً — الحبوب التي تستخرج منها الأدهان

رابعاً — مايستخرج من البحر

إن بلدان القارة الأوربية تصلح لانتاج حبوب الطائفة الأولى . وفي العهد الأخير طبقت

بعض المبادىء العلمية على اختيار أصلح الحبوب لأصلح الأراضي. فحبوب الشوفان أو الزمير (oats) تزرع في البلدان الشمالية التي لا تصلح لأنواع أخرى من الحبوب ، والجويدار rye يزرع في البلدان التي تربتها ضعيفة . والحنطة تزرع في معظم البلدان والذرة في كل مكان تقريباً الى الجنوب من جبال الألب. وقد اتسع نطاق زراعة الحنطة منذ الحرب العالمية الأولى . فالمساحة التي تزرع حنطة الآن تزيد عشرة ملايين فدان (ايكر) على المساحة التي كانت تزرع به قبل الحرب العالمية الأولى . وهذا الاتساع في المساحة المزروعة بالاضافة الى اختيار الاصناف الغزيرة الانتاج واستعمال الأسمدة زاد المحصول المحتمل . فالمحصول الجيد او المعتدل في بدء العقد الرابع من هذا القرن كان يفوق ما يقابله في بدء العقد الثالث بضع مئات الملايين من « البوشل » . ولكن زيادة محصول الشوفان كانت أقلّ . وقد هبط ما تستورده بلدان القارة الأوربية في العقد الأخير من السنين من حبوب الخبز وفقاً لزيادة محصولاتها . فكانت هذه البلدان في العقد الثالث من هذا القرن تستورد اكثر من ٤٠٠ مليون بوشل من الحنطة عندما يكون محصولها معتدلاً فهبط ما كانت تستورده كل سنة في العقد الرابع الى ٢٠٠ مليون بوشل . ومع ذلك فليس في البلدان التابعة للمحور الآن من يزعم ان توسيع نطاق الانتاج في هذه الطائفة من الحبوب مستطاع لكفاية الحاجة ، مع انهُ يجوز ان يجود المحصول في سنة ما فيسدُّ حاجة تلك السنة

بين البلدان التي يفيض ما تنتجهُ من الحنطة على ما تستهلكه ، هنغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا . ولا يحتمل ، وحالة القارة الأوربية هي ماهي ، من القلق والاضطراب ، ان تتمكن هذه البلدان من زيادة محصولها من حبوب الخبز زيادة تسد النقص الناشىء عن منع الاستيراد وهو يتفاوت من ١٦٠ الى ٢٠٠ مليون بوشل على المعدَّل في السنة في العهد الأخير . وعلاوة على هذا ان محصول الحنطة في سنة ١٩٤٠ كان أقلَّ من محصول سنة ١٩٣٩ أو محصول ١٩٣٨ بل أقلَّ من المعدَّل والمرجح انهُ كان من أقلّ المحاصيل التي عرفت في أوربا بعد سنة ١٩٢٠ وأسبابهُ شدَّة برد الشتاء وفيضانات الربيع والاضطرابات الناشئة عن الحرب في بولندا وهولندا والبلجيك

ويضاف الى ما تقدَّم ان عقبات النقل الناشئة عن أحوال الحرب ، تجعل توزيع المحصولات وفقاً للحاجة صعباً . ولا يخفى ان من طبائع المرء ولا سيما الفلاح ، ميلهُ الى اخفاء محصوله وأنعامه في اثناء الحرب . وينشط الى الاخفاء والتخزين اذا كانت الاسعار لا توافقهُ او كان نقل ما يشرى منهُ صعباً او متعذراً . وقد تكون المصادرة بواسطة رجال الشرطة أو الجيش سهلة اذا كان في الوسع نقل المقادير المصادرة فوراً . ولكن المصادرة نفسها تغدو عملاً شاقاً اذا كان النقل صعباً ، وعلى هذا بلدان الدانوب . فاذا ارغم الفلاحون على قبول بضائع قد لا يكون بهم حاجة كبيرة اليها بدلاً من النقد ثمناً لمحصولهم ، تحرَّك فيهم روح المقاومة . وهذه العوامل جعلت توزيع محصولات بلدان

الدانوب عسيراً في بعض السنوات الأخيرة ، والمصادرة متعذرة الا إذا عمد إلى الإرهاب ولذلك يلوح ان استمرار الحصر ، ومصاعب النقل في البلدان نفسها وبينها ، سيفضي الى خفض جراية الدقيق اللازم للخبز . والاوربيون يكثرون من اكل الخبز (المعدَّل ٥ بوشل من دقيق الحنطة و٢ ½ بوشل من الجويدار للفرد) . ولا بدَّ ان يفضي هذا الى الشعور بالنقص إلاَّ اذا عوضت الوحدات الحرارية المستمدَّة من الخبز بزيادة نصيب كل فردٍ من البطاطس والسكر والأدهان والخضر. وحبوب الخبز لازمة لحفظ وزن الجسم ونشاطه، فاذا قلَّت وطال مدى قلتها، أفضى ذلك الى نقص الوزن والهزال . ومع ذلك فان نقصها اقلُّ ضرراً بالجسم من نقص الالبان والأدهان

اما الطائفة الثانية فهي حبوب العلف . وقد زاد اعتماد اوربا رويداً رويداً على استيراد هذه الحبوب من الخارج. وهي تشمل الذرَّة والجويدار والشعير والشوفان . حتى حبوب الخبز المستوردة يستعمل جانبٌ منها في العلف بمقدار ٣٠ في المائة . والغرض الأول من هذه الحبوب جميعاً هو علف المواشي ليفوز الناس من لحمها بما يحتاجون اليه من مواد زلالية ونشوية. والمسألة الأساسية هي هذه:— ما مدى الربح الذي تفوز به البلاد باستيراد مواد العلف وتحوُّلها في جسم المواشي الى لحم وشحم ؟ إن المقابلة طبعاً يجب ان تكون بين مقدار المواد الزلالية والنشوية في الحبوب المستوردة ومقدارها في لحم الحيوان الذي يعلف بها . الربح مؤكد لاريب فيه ولكن من الحيوانات ما هو اقدر من غيره على تحويل العلف لحماً وشحماً . والخنازير تفوق الابقار في هذا . فاذا كان لديك مقدار معين من العلف فان الخنازير التي تأكلهُ تولد لحماً وشحماً فيهما من المواد الزلالية والنشوية مقدار اكبر من مقدارها في اللحم الذي تولده الابقار التي تأكل العلف نفسه . ولكن قتل الأبقار واستبقاء الخنازير تطبيقاً لهذه القاعدة يثير مقاومة الفلاحين، والتطبيق بالتحكم يحتاج الى حماية منتجات الحقول بقوات كبيرة من رجال الدرك . ولقد كانت الدنمارك وهولندا من البلدان التي تنتج مقادير كبيرة من الطعام بتربية الدجاج والمواشي والخنازير، ولكن هذه التربية كانت معتمدة اعتماداً كبيراً على استيراد العلف من الخارج ، فانتفاع المانيا بموارد الطعام فيها كان محدوداً بحدود الزمن والقدرة على توفير العلف . واحتلال هذين البلدين ، قطع عن بريطانيا ما كانت تستورده منها من بيض وزبد ولحم ودهن فاضطرت أن تستوردها من بلدان بعيدة مثل كندا واستراليا والارجنتين وغيرها

والطائفة الثالثة تشمل الحبوب التي يعصر منها الدهن . فالتربة والجو في اوربا أقل ملاءمة لزراعة هذه الحبوب منها لزراعة حبوب الخبز . ولذلك غدت اوربا تعتمد اعتماداً كبيراً ، يكاد يكون تامًّا على استيراد ماتحتاج اليه من هذه المواد . فهي تستورد جوز الهند ، وبذور القطن

والفول، وبذور الكتان، وفول الصويا وغيرها كما تستورد ما يستخرج منها من الأدهان كذلك. ثم انها تستورد مقادير كبيرة من شحم الحيوان مثل شحم الخنزير والودك ودهن البال وغيره من ادهان الحيوانات البحرية والزبد . وكانت تستورد أنعاماً كذلك لتنتفع بلحمها وشحمها

إن طائفة كبيرة من بلدان اوربا الغربية كانت زرائب لتربية الانعام وهي تعلف بالعشب المحلي وما يستورد من الخارج من حبوب وكسب . وأبلغ دليل على ذلك انهُ عند ما احتلت المانيا الدنمارك وهولندا وبلجيكا هبط فيها معدَّل تربية المواشي والدجاج لقلة العلف المتاح . وهذا النقص لا بدَّ ان يتبعهُ نقص في معدَّل اللحم المتاح للطعام . وليس ثمة ريب في ان اعتماد غرب اوربا على استيراد هذه الطائفة من مواد الغذاء والعلف كبير جداً

ولا يقتصر استعمال الدهن على أكله بل هو يدخل في صنع الصابون والمواد المفرقعة. وفي الوسع صنع الجليسرين للمفرقعات والاحماض الدهنية للصابون بالتركيب الكيميائي . ولكن التقدم في هذه الصناعة لا يبيح القول بأنها كافية لتعويض ما يستورد كله . ولا يعلم الآن مبلغ ما يستعمل من أدهان الطعام في صناعة المفرقعات ولكنهُ لا بدَّ ان يكون كبيراً

ونقص المستورد من العلف يفضي الى نقص اللبن وهذا يفضي بدوره الى مشكلات صحية أهمها يتعلق بصحة الأطفال ، لأن اللبن يحتوي معادن وزلاليات وفيتامين A . وهي مواد قلما يسهل تعويضها ما زال هناك نقص في مواد الغذاء الأخرى . ان حبوب العلف الذي كانت اوربا تستورده كانت تستعمل لانتاج الزبد من البقر، والمرجرين من المصانع. فقطع هذا الوارد يفضي الى نقص المتاح من اللبن، والى نقص الدهن النباتي اللازم في الصناعات

ثم ان نقص الدهن يحوِّل الطعام تافهاً لا يسيغهُ الآكل . وهذا ثابت من طبق كان الالمان يقبلون عليهِ وهو طبق « الشوركروت » وكانوا يظنون ان اقبالهم عليهِ مردهُ الى كون « الشوركروت » من الكرنب فتبينوا في الحرب العالمية الماضية عند ما قلت الأدهان ، ان سر اقبالهم هو طعمهُ اللذيذ الناشىء عن الدهن المضاف اليهِ . والدهن في اوربا سرٌّ من اسرار الطهي الجيد ، وهو يدخل في جميع اصناف الطعام من الحلوى واللحوم والخضر

ولكن فائدة الدهن المقدمة هي تجهيزه الجسم بالحراوة اللازمة للنشاط الجسماني . فاذا لم يتح للجسم هذا المصدر من الحرارة ، وعجز عن تعويضهِ من مصادر اخرى بزيادة ما يؤكل من المواد النشوية ، نقص وزن الجسم ومال الى الهزال . ويقال ان محصول البطاطس وبنجر السكر كان كبيراً في اوربا في السنة الماضية ، فاذا اضيفت اليهِ الانعام التي لا بدَّ من ذبحها لقلة العلف ، فان الاوربيين قد يجدون عوضاً وقتيًّا من نقص الدهن المستورد . ولا يحتمل ان يشتد الشعور بنقص الدهن الا في خلال النصف الأول من سنة ١٩٤١

والطائفة الرابعة حيوان البحر. ان صيد السمك صناعة ذات منزلة عالية في تغذية اوربا. من سواحل نروج الشمالية الى جبل طارق، يذهب الصيادون الاوربيون في سفنهم الى سواحل اسلندة و نيوفنلندة وجزائر الهند الغربية. ولصيد السمك في البحر المتوسط وبحر قزوين والبحر الاسود شأن كبير كذلك. وقد اتسع نطاق صيد البال بعد الحرب العالمية الاولى فبلغ اعتماد اوربا على دهنه مبلغاً كبيراً

كان مردُّ الاهتمام بأكل السمك في اوربا سابقاً الى اعتباره عوضاً من اللحم. ولكن العلم الحديث ابان ان أكل السمك لهُ فائدة خاصة لأنهُ يجهز الجسم باليود وفيتاميني A و D . وهذان الفيتامينان يذوبان في الدهن وتجدهما منتشرين في جسم السمك، ولكنهما يتركزان على وجه خاص في كبد السمك، وهما قليلان في سائر مواد الطعام. وعجز الصيادين عن النهوض بعملهم في بحار مزروعة بالألغام، وتعيث فيها الغواصات والطائرات، سيحمِّل سكان أوربا عبئاً غذائيًّا كبيراً لأن نقص صيد السمك يحرمهم دهن السمك الذي يجهزهم بالحرارة، وأهم من ذلك يحرمهم ما في السمك من فيتاميني A و D اللذين يذوبان في الدهن. ونقص هذين الفيتامينين لا يستطاع تعويضهُ من مواد الطعام الشائعة في أوربا الآن، ولا بدَّ ان يفضي الى أمراض سوء التغذية وبخاصة في الطبقات الفقيرة، ومن عواقب الحرب العالمية الأولى، ان منع السمك عن سكان أوربا المتوسطة كالنمسا وتعذر الحصول على زيت السمك، أفضيا الى ارتفاع نسبة حوادث الكساح ارتفاعاً كبيراً. ولا يبعد، بل من المحتمل، ان تكون العواقب واحدة في هذه الحرب. ومما هو جدير بالذكر ان أدهان او زيوت أكباد السمك، تصدر الآن من سواحل المحيط الهادىء الى بريطانيا لتحلّ محلّ النقص الناشيء عن حالة الحرب في البحر الشمالي وشمال المحيط الأطلسي

نعم ان السمك ليس إلاَّ أحد موارد فيتامين A لأنهُ موجود في اللبن والفواكه والخضر. ولكن السمك مورد كبير لهُ وفي بعض الانحاء مورد رئيسي. وتاريخ شمال أوربا يثبت انهُ اذا ندر السمك واللبن، ففيتامين A المستخرج من الخضر والفواكه لا يكفي لتعويض النقص

وليس في الوسع الآن الاعتماد على التركيب الكيميائي لتعويض النقص في موارد هذين الفيتامينين. وقد يصحُّ الاعتماد على ضوء الشمس في تعويض بعض النقص في فيتامين D ولكن اوربا الواقعة الى الشمال من جبال الألب لا يصيبها قدر من الاشعة التي فوق البنفسجي يكفي لمنع الكساح. فاذا استندنا الى تاريخ أوربا الشمالية خلال القرن الماضي، وعلى وجهٍ خاص الى نتائج الاختبار في أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها، يجب أن ينتظر ازدياد حدوث اصابات بامراض نقص الغذاء في البلدان الواقعة الى الشمال من جبال الألب وبخاصة في الطبقات الفقيرة



الكيمياء

عند قدماء المصريين

للدكتور حسن كمال

استعمل المصريون الأقدمون الأملاح الآتية في الشؤون الطبية . سلفات الرصاص . خلات النحاس . اوكسيد الحديد . اوكسيد الانتيمون . سلفات الزئبق . نترات البوتاسا . المجنزيوم . الجير . الصودا . النفط

اما العقاقير النباتية فأهمها جذر الرمان . الزعتر . الأفيون . البابونج . بصل العنصل Scilla . الثوم . الخروع . النعناع . الكزبره . الجنطيانة Gentian . المصطكى . انواع الراتينج . النبيذ . الخل

ان مجرد ذكر هذه العقاقير يدلنا دلالة ناطقة على ان هؤلاء القوم كانوا على معرفة كبيرة بالمعادن والنباتات وخواصها الطبية وغير ذلك وان كنا لا نزال نجهل مقدار هذه المعلومات

وكانت تلحق بكل معبد حديقة خاصة للنباتات الطبية يستعملها القسوس لأن الطب والدين كانا متصلين وقتئذٍ اتصالاً وثيقاً ويمكننا ان نستدل على مدى تقدم علم الكيميا في تلك العصور بالرجوع الى طريقة تحضير العقاقير وخلافها ذلك بأننا لم نعثر حتى الآن على كتب خاصة بهذا العلم النفيس لذلك نتلمس نواحيه من طرق غير مباشرة

المعروف انه كان يلحق بكل معبد معمل خاص أشبه بمعاملنا الكيميائية تجهز فيه الروائح والعطور اللازمة للطقوس الدينية وأيضاً العقاقير الخاصة بصيدلية المعبد . والكتب الطبية حافلة بالتذاكر العلاجية كما ان جدران المعابد كثيراً ما نقشت عليها الوصفات الطبية ويحوي معمل المعبد جميع الأدوات اللازمة لتحضير العقاقير . من هذه النقوش ما نشاهد فيه طريقة سحق العقاقير في (الهاون) بواسطة شخص واحد تارةً وبواسطة شخصين تارةً اخرى . ثم تصفية هذه المساحيق بما يشبه (المنخل)

وكانت المستحضرات الطبية تحوي المزيج والمستحلب والحبوب والاقراص والمساحيق واللبخ والمروخ واللصوق وقطرة العين والأقماع (اللبوس) والمراهم . والى قدماء المصريين يرجع الفضل

في استعمال النشادر في العلاج الطبي ذلك بأنهم كثيراً ما كانوا ينقعون مسحوق قرون الغزلان وما شاكلها ويصفونها علاجاً موضعياً . وكانوا يحرقون هذه القرون ويتداوون بالغازات الناجمة منها (راجع قرطاس برلين لوحة ٦ سطر ١٠) ومهما يقـل في هذه الوصفات من أنها بدائية فان الفضل لا شك راجع الى أجدادنا الذين علموا هذه الاجزاء الحيوانية وما تحتويه وهذا هو سر بقاء اسم (Hartshorn) في علم الاقرباذين ولذلك يُسمى روح النشادر الآن باسم (Spirit of hartshorn) وهو مرادف لاسم (aqueous solution of Ammonia)

أما المكاييل والموازين فكانت غاية في الدقة والتجزئة

***

ومما زاد في صعوبة فهمنا لمدلول المواد عندهم استعمالهم لبعض الصفات دلالة على هذه المواد خذ مثلاً قولهم نبات اوزوريس عن المادة المعروفة عندنا باسم قسوس (Ivy) وقولهم دم اوزوريس كناية عن الزعفران، وعين (ست) كناية عن بصل العنصل (scilla) . وقد استمر استعمال هذه الاسماء حتى العصور الوسطى . والغرض منها كما لا يخفى اعطاء مثل هذه النباتات او المواد صفة الخفاء والتأثير المعنوي فلا تتسرب بسهولة الى العوام

هذا من الوجهة العلاجية . اما من الوجهة الصناعية فلا ريب في ان اجدادنا كانوا على درجة كبيرة من العلم. فان كثرة الألوان المعدنية المشاهدة على جدران المقابر وفي اوانيهم الزجاجية والخزفية وغيرها تدل على تقدم كبير من هذه الناحية . كذلك تلوين الملابس بالاصباغ الثابتة برهان كاف على علمهم بتفاعل الاحماض مع الاصباغ المتعددة . اما صناعة الزجاج فكانت مزدهرة ولم نهتد للآن الى طريقة اجدادنا في قطع الزجاج او الاحجار الصلدة الا ان الثابت انهم كانوا على علم تام بذلك

والمعروف ان تاريخ مصر القديم مقسم الى العصر الحجري والعصر النحاسي والعصر البرنزي والعصر الحديدي على هذا الترتيب من القديم الى الحديث . والمعروف ايضاً ان كل عصر من هذه العصور طغى على ما سبقه من حيث الصناعة والتجارة . ولا نقصد بذلك ان العصر البرنزي مثلاً حل محل العصر النحاسي تماماً واصبحت جميع الادوات والمصنوعات التجارية تعمل من البرنز بدلاً من النحاس . انما المقصود بذلك هو ان الآلات والاسلحة التي تستعمل في الاعمال الصناعية أصبحت تعمل على النمط التدريجي المذكور مما كان باعثاً قوياً على تحسين الصناعات والاكثار منها

وكان اكتشاف الذهب والنحاس بادىء ذي بدء عن طريق المصادفة واقتصر القوم على استعمال الذهب لأدوات الزينة والنحاس لأدوات الصناعة وأسلحة القتال. ولما كان الحجر الملكي

(Malachite) موجوداً بكثرة في شبه جزيرة طورسينا والصحراء الشرقية ، وكان مجرد تسخينه يسبب انفصال معدن النحاس عنهُ فان استخراج النحاس بهذه الوسيلة لا بد من ان يكون مصادفة كما قلنا . وقد تقدمت صناعة استخراج النحاس بهذه الكيفية في مصر القديمة حتى العهد البرنزي . وان البرنز مزيج من النحاس والقصدير (tin) . وكان موطن اكتشاف هذا المزيج المعدني بآسيا الغربية (مدينة اور على الارجح) وأقدم تاريخ لاستعماله بمصر هو عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق.م) . وترعرعت صناعة البرنز في مصر بعد ذلك مدة ١٣٠٠ سنة الى ان جاء العصر الحديدي الذي حلَّ فيهِ الحديد محل البرنز في الاسلحة والادوات الصناعية . ومن اقدم الادوات الحديدية التي عثر عليها في مصر هي البلطة الحديدية التي وجدت بمقبرة (توت عنخ أمون) وكانت مهداة الى جلالته من احد ملوك غرب آسيا . وأقدم مصانع لصهر الحديد يرجع تاريخها الى القرن السادس ق.م . وذلك بمدينة نقراطيس الواقعة شمال غرب الدلتا وان كنا لا نزال نجهل منجم الحديد الخام الذي كان مورداً للحديد المستعمل فيها . والمعروف ان هناك مناجم حديد بالصحراء الشرقية واسوان كان الرومان يستخرجون منها الحديد

ومن اهم المنتجات الكيميائية الصناعية الطلاء الزجاجي (Glazing) للاواني الخزفية وخلافها. ثم التزجيج اي صناعة الزجاج التي تقدمت بعدئذٍ تقدماً عظيماً . ويرى بعضهم ان صناعة الزجاج بدأت في سورية ثم أدخلت في مصر بعدئذٍ في اثناء حكم الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق. م.) والحقيقة انهُ لم يعثر في مصر على آثار زجاجية يرجع تاريخها الى ما قبل الاسرة الثامنة عشرة غير اربعة عشر أثراً كالخرز والاواني

ولا يخفى ان التحنيط اقتضى معرفة كبيرة بخواص المواد المستعملة فيهِ كانواع الراتينج والنبيذ والنطرون والفحم وغير ذلك

اما الالوان المصرية فكانت غالباً مكونة من الاسود (وهو من الكربون بشكل من الاشكال) ثم الازرق — من كربونات النحاس الموجود بسينا والصحراء الشرقية — ثم الاصفر القاتم — من اكسيد الحديد (Ochre) — ثم الاخضر — من مسحوق الحجر الملكي (Malachite) ثم الاسمر وهو مزيج من الاسود والجبس ، ثم الاحمر من اكسيد الحديد المسمى احياناً (haematite) ثم الابيض من الجبس او الطباشير . ثم الاصفر من احد اوكسيدات الحديد (yellow ochre) او سلفيد الزرنيخ (Sulphide of Arsenic)

واستعمل المصريون البرنيق (الورنيش) بنوعيه الأصفر الفاتح والاسود المكمدّ في طلاء رسوم المقابر والصناديق الخشبية . و البرنيق نوع من الراتينج . لكننا لم نهتد للآن الى معرفة نوع هذا الراتينج

(Resin) الذي كان مستعملاً وقتئذ وان كان بعضهم يظن انهُ المعروف باسم (shellac) المستخرج من بعض الحشرات

واستعمل القوم (الهباب) الكربون للمداد الأسود. واوكسيد الحديد الأحمر (red ochre) للمداد الأحمر .وذلك بمزج ذرات المادّة الملوّنة بالصمغ والماء ثم تجفيفها بشكل دوائر صغيرة تبلل بالفرشاة (وهو القلم المصري القديم) ويكتب بها بنفس الطريقة المستعملة في الرسم الحديث بالألوان المائية

أما أصباغ الملابس فالأصفر والأحمر منها يستخرجان من زهرة القرطم (Cartamus tinctoris) ولما كان الصبغ الأصفر يذوب في الماء بطل استعماله . أما الأحمر فلا يذوب في الماء بل يذوب في النطرون لذا استمر استعماله . وأما الأزرق فهو (النيلة) المستخرجة من تخمير أوراق نبات يقال له (Indigofera tinctonor) ونبات آخر مماثل له يقال له (Isatis tinctoria) أما طريقة تحضير الصبغة الخضراء فبمزج النيلة بالصبغة الصفراء لأن الأزرق والأصفر ينجبان اخضر.

واستعمل المصريون الأقدمون مواد مثبتة للاصباغ بالنسيج وهي المعروفة باسم (Mordants) لأن صبغ المنسوج يتطلب صبغة ومادة أخرى مثبتة لها . ولم نهتد حتى الآن الى ماهية هذه المادة المثبتة وان كان بعضهم يظن أنها مادة (الشب) التي تكثر في مصر

ان المقام لا يتسع لاكثر من هذا عن الكيمياء الفرعونية . ويجمل بنا ان نذكر ان لفظ الكيمياء مشتق من أداة التعريف (ال) وهي عربية ولفظ كميا وهي اسم مصر القديم وتعني الأرض السوداء . فاسم الكيميا اذا عرّب أصبح «علم مصر» وهو في ذاته شهادة بمكانة مصر الفرعونية من هذه الوجهة العلمية . وقد نسب اجدادنا الفراعنة هذا العلم الى المعبود (تحوت) مبتكر العلوم . وهذا المعبود يقابله (هرمس) عند اليونان لذلك سمي علم (الكيمياء) بمدئذٍ (العلم الهرمساوي) Hermetic art وكان لهرمس خاتم تختم به زجاجات العقاقير والى هذا الخاتم يرجع التعبير الكيميائي المعروف بعبارة (الخاتم الهرمساوي) hermetically sealed . وفي متحف (ليدن) بهولندة عدة قراطيس بردية خاصة بالكيمياء المعدنية يرجع تاريخها الى القرن الثالث ب. م. مكتوبة بالخط الديموتيقي والأغريقي عثر عليها بمقبرة بالأقصر مذكور بأحدها طريقة مزج المعادن الرخيصة مع بعضها حتى تتكوّن منها امزجة أشبه كثيراً بالذهب ويظهر ان مثل هذه الكتب كانت تستعمل في أحد المعامل الخاصة بتقليد المصاغ الحقيقي

وانتقل المركز العلمي لعلم الكيمياء في العهد الفرعوني الى مدينة الأسكندرية في العهد الأغريقي حيث علا شأنه هناك . ومن ثمّ انتقل الى أنحاء العالم القديم ثم الجديد عن طريق الأمبراطورية الرومانية فالعرب ومن اقطاب هؤلاء جابر والرازي وابن سينا

الحديد

تعدينه وتقسيته وصناعته(١)

عند قدماء المصريين

كثرت المؤلفات في موضوع « الحديد عند قدماء المصريين » وتضاربت آراء الباحثين فيه. والغريب ان الباحث يستطيع أن يفسر الادلة في بعض نواحي الموضوع تفسيراً يؤيد آراء متباينة كل التباين. فلدينا في موضوع التاريخ الذي بدأ فيه استعمال الحديد طائفتان من الادلة احداها مباشرة وأخرى غير مباشرة. والنتيجة التي نخرج بها من النظر في هذه الأدلة تتوقف على الطائفة التي تقدمها على أختها شأناً ومقاماً. فالأدلة القائمة على كشف أدوات حديدية وأتاتين لصهر الحديد واشارات اليه في الكتابات أو الصور هي الأدلة المباشرة. وأما وجود تماثيل منقوشة في صخر صلد لا بدَّ في نقشها من أدوات من الحديد الصلب فدليل غير مباشر. ولم يعثر حتى الآن الا على ست أدوات حديدية ثبت رجوعها الى سنة ١٣٠٠ ق.م مع انهُ عثر على أدوات حديدية كثيرة خاصة بعهود تالية لذلك. فاعتماداً على ذلك أشار السر فلندرز بتري الى ان استعمال الحديد لم يشع في مصر قبل الحقبة الواقعة بين ١٣٠٠— ١٢٠٠ ق. م. مع انه استعمل استعمالاً متفرقاً في العصور الواقعة بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق. م.

ومما يشير الى تأخر استعمال الحديد الأدلة التي استخرجها ركرد من الصور المصورة على الجدران التي ترجع الى عهد سابق لسنة ٢٠٠٠ ق . م . فان فيها رسوماً لأسلحة ملونة لوناً أصفر أو أحمر وهذان اللونان يمثلان النحاس أو البرنز . ولكنه لم يرَ صور أدوات من حديد وهو المعدن الذي كان يلون لوناً ازرق . وفي القوائم الطويلة لما كان يجمع جزية في عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٠٨٠ـ١٣٠٠ ق.م.) لم يجيء ذكر الحديد مطلقاً . والمعروف أن رعمسيس الثاني (١٢٩٢ـ١٢٢٥ ق.م.) كتب الى ملك الحثيين يطلب خنجراً . وفي التابوت الداخلي الذي وجد في مقبرة توت عنخ آمون المتوفي سنة ١٣٦٠ ق. م. وجدت ثلاث أدوات حديدية هي نصل خنجر وقطعة من سوار كان يستعمل عوذة ومسند مصغر للرأس . وقد خلص ركرد من مكان هذه الأدوات في لفائف المومياء الى انها كانت أثمن مقتنيات توت عنخ آمون وأن الحديد في تلك الأيام كان أندر من الذهب الابرز الذي صنع منهُ التابوت . وقد عثر

---

(١) وهو ملخص رسالة للسر هارولد كاربنتر والدكتور روبرتسن تليت في معهد الحديد والصلب بلندن

بين الأمتعة الخاصة بالدفن التي وجدت في الغرف الملحقة بمدفن توت عنخ امون على أدوات حديدية مصغّرة فقال المستر هورد كارتر مكتشف القبر انها قد تكون هدايا اهديت الى الملك الفتى احتفاءً بوصول الحديد الى مصر او اكتشافهِ فيها . فهذه الأدلة التي أوجزناها فيما تقدم تشير الى أن الحديد كان نادراً في مصر قبل سنة ١٢٠٠ ق.م مع انهُ لم يكن مجهولاً فيها . والمرجح انهُ لم يكن يصنع فيها قبل ذلك العهد ومعظم علماءِ الآثار على هذا

واذا كانت الادوات الحديدية نادرة في مصرٍ قبل سنة ١٢٠٠ ق . م فالأدوات المصنوعة من النحاس والبرونز كانت كلُّ ما يعتمدهُ الصنّاع والنقاشون في عملهم . ومع ذلك نرى أن للمصريين آثاراً فنية رائعة من عهد الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ ق . م) منقوشة في حجارة صلدة كالغرانيت والديوريت . وقد أشار اليها الاستاذان غارلند وبانستر بانها آية من آيات فن النقش في وضوح معالمها وصحة اتساقها ودقة زواياها وخطوطها القائمة وحدة حروفها وأناقة منحنياتها . ونقشٌ من هذه الطبقة الفنية يرجع الى الف سنة قبلما صنع البرونز اي لما كانت الأدوات النحاسية الأدوات الوحيدة المستعملة . حتى لو فرضنا أن أدوات البرونز استعملت حينئذٍ فمن الصعب ان نفهم كيف قام المصريون بهذا النقش . فبعضهم يقول ان المصريين كانوا يعرفون طريقة سرية لتقسية النحاس وفي ذلك رأيان احدهما لبتري فهو يقول إنهم استعملوا أدوات مصنوعة من نحاس مخلوط بالسنباذج أو أدوات مصنوعة من البرونز . وأما هدفيلد فيذهب الى ان قدماء المصريين كانوا يصنعون أدوات من الصلب على اختلاف أنواعها وانهم كانوا يلحمون الصلب اذا انكسر . وعنده انه اذا ثبت ان صناعهم لم يبرعوا في صناعات الحديد والصلب فقد كانوا في الغالب يستعينون بصناع الأمم الأخرى

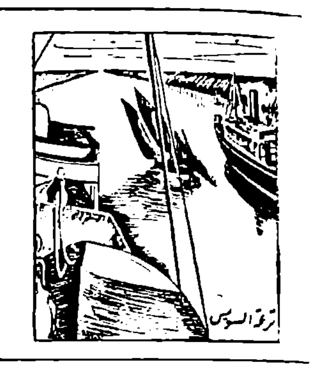
فوجود النقوش والتماثيل المصنوعة من حجر صلد لا يتفق والأدلة المستخرجة من الآثار التي عثر عليها المنقبون . وقد نستطيع ان نعلل ندرة الأدوات الحديدية في المدافن القديمة بتلفها صدأً او بوجود خرافة تمنع حفظ هذ الأدوات مع امتعة المدفون فيُرَدُّ على ذلك بأن صدأ الحديد لا يطير وان أدوات حديدية كثيرة وُجدت في المدافن بعد ١٢٠٠ ق . م ونحن نميل الى القول بان الحديد كان نادراً في مصر قبل سنة ١٣٠٠ ق . م . لان الدليل على هذه الندرة المنطوي في طلب رعمسيس الثاني خنجراً من ملك الحثيين وفي طبيعة الأدوات الحديدية التي وجدت في مدفن توت عنخ امون ومكانها بين لفائف المومياءِ هو في نظرنا دليل قوي

اما وجود نماذج من الحديد ترجع الى العصر الواقع بين ٢٩٠٠ ـ ١٤٥٠ ق.م . فدليل على أن المصريين كانوا يعرفون الحديد نحو ١٥٠٠ سنة قبلما شاع استعماله . ففي هذا العصر كانت المقادير المتداولة قليلة جداً وكانت من صنع الوطنيين أو من مستوردات التجار من الخارج .

وقد قال بعضهم ان شعباً ذكيّاً كالشعب المصري ما كان يكتفي بهذا القدر الضئيل من الأدوات الحديدية ولا بدَّ انهم عنوا باستخراجهِ وصناعتهِ . وقوام هذه الحجة ان الأدوات الحديدية تفوق أدوات النحاس والبرونز في نقش التماثيل والكتابات في الصخر الأصم . ولكن ضعفها يظهر اذا نحن قدرنا ان التجارب الأولى في اخراج أدوات حديدية لا بدَّ ان تسفر عن حديد لين لا يفيد الشعب المصري ولا أي شعب آخر اذا قيس بالأدوات البرونزية . فنحن ننسى ان مقام الحديد في الحضارة الحديثة سببهُ كثرة الحديد واخلاطهِ القاسية التي تصنع منه . وما يعرف عن صناعة الحديد يدلُّ على ان الحديد الخارج من الاتون يحتاج الى طرق شديد للحصول على كتلة معدنية ومن هذه الكتلة المعدنية تقطع الأدوات المطلوبة ثم تحمى وتطرق وبعد ذلك تخرج وهي اكثر ليناً من البرونز وخصوصاً اذا كان الحديد خالياً من أثر الكربون فيه كما يكون الحديد الصافي غالباً . فالأدوات الحديدية حينئذٍ لم تفق الأدوات البرونزية وصنعها كان أصعب . فعدم استعمال الحديد عند قدماء المصريين لا يرجع الى جهلهم بهِ بل الى اعتبارات أخرى تلخص في انهُ لدى الموازنة بين الحديد الطبيعي اللين والبرونز وجدت فوائد البرونز أكثر وأجلى ولكن فوائد الحديد تزيد باكتشاف طريقة تمكن صانعه من خلطهِ بكربون فيقسو ويصبح صلباً . ويتسع نطاق فائدتهِ متى اكتشفت طريقة أخرى لتقسيتهِ باحمائهِ وتغطيسهِ بالماء . وباكتشاف هاتين الطريقتين تزيد صلابتهُ ويصبح ذا فائدة في صنع الأدوات منهُ . والراجح انهُ لما اكتشفت هاتان الطريقتان انتقل المصريون من عهد استعمال الحديد استعمالاً متفرقاً الى عهد التوسع في استعماله . والحد الفاصل بينهما هو القرن الثالث عشر ق.م

وهناك مجموعات لا يستهان بها من الأدوات الحديدية القديمة لدى بعض علماء الآثار ولكنها لم تدرس درساً علميّاً من حيث بناؤها المعدني لأن علماء الآثار يحجمون عن السماح للكيميائيين وعلماء المعادن باتلاف جانب منها لدى بحثها . وهذا يصحُّ على البحث الكيميائي ولكن البحث المكرسكوبي يقتضي تنظيف بقعة صغيرة على سطح الأدوات فقط ثم فحصها بالمكرسكوب . وقد ساعدنا الاستاذ فلندرز بتري في اختيار تسع أدوات من مجموعة كلية لندن الجامعة فدرسناها على المنوال المتقدم وهي من عصور مختلفة تتباين من القرن الثاني عشر ق.م. الى القرن الثالث ق.م. فخرجنا من البحث بالنتيجة التالية :

إن طريقة المصريين في استخراج الحديد من تبره كانت بدائية ولكن الصناع استطاعوا ان يصنعوا منهُ أدوات تحتوي على صفات مختلفة بكربنتهِ واحمائهِ فهذا البحث يكشف لنا للمرة الأولى ان الكربنة والتقسية وفوائد معالجة الحديد بالاحماء كانت معروفة بضعة قرون قبل التاريخ الميلادي وهو غير المشهور بين العلماء . وفي رأينا ان مصر لم تدخل عصر الحديد حقيقة الاَّ لما فهمت هذه العمليات وطبقتها اي لما استطاعت ان تحوّل الحديد صلباً



النظم والطرق التجارية

بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية

— ١ —

كان التجار الأوربيون خلال القرون الوسطى لا يفكرون الا في الذهاب الى المرافىء الشرقية للبحر المتوسط ليأتوا منها بالبضائع والسلع المختلفة التي كان يحتاج اليها أهل المغرب. وهذه المرافىء ذاتها هي التي كان يقصدها التجار في العصور الأولى وهي الاسكندرية وصور وبيروت وغزة. وفي هذه المرافىء كانت تتكدس السلع التي تحملها القوافل البرية والسفن الشراعية مجتازة المحيط الهندي والخليج الفارسي او البحر الأحمر. ولم تكن تتخطى السفن الصينية وقتئذٍ جزيرة سيلان. أما القوافل البرية فكانت تجتاز آسيا الوسطى الى الأراضي الصينية عن طريق خوطان وطورفان وخامل

وكانت القوافل التجارية في فجر الاسلام تجتاز جزيرة العرب من جميع نواحيها بادئة من مرفإٍ عدن جنوباً ومن البحرين شرقاً ومن جدة غرباً الى ان تنتهي عند مدينة غزة. وحينما انتشر الاسلام في آسيا وإفريقيا كثر عدد الحجاج وكثر عدد السفن الشراعية الكبيرة التي أنشئت خصيصاً لنقل أولئك الحجاج الى بيت الله الحرام

ولما أنشأ العباسيون دولتهم على أنقاض الدولة الأموية أنشأوا عاصمتهم في وادي دجلة ليس لأسباب سياسية فحسب بل لعوامل اقتصادية ايضاً. فالسفن التي كانت تغدو وتروح في الخليج الفارسي أخذت تعبر شط العرب وتتجه نحو بغداد ناقلة اليها منتجات الصين والهند. وبعد انشاء مدينة بغداد أخذ التجار يستوردون بضائع آسيا الصغرى عن طريق نهر دجلة المار من الأناضول وكانت السفن النهرية تنقل تلك المحصولات الى مدينة آمد التي تدعى الآن بديار بكر ومنها الى سائر البلدان الاسلامية في القطرين العراقي والشامي. وقد حفر العباسيون ترعة وصلت بغداد بوادي الفرات من جهة أخرى فنقلت البضائع الشامية في هذه الترعة الى كل من العراق وإيران. وهذه الترعة ظلت عامرة مدة طويلة ثم طمرتها الرمال بعد ان دالت الدولة العباسية

ان قصة السندباد البحري التي جاء ذكرها في كتاب الف ليلة وليلة لم تكن في الحقيقة الا مغامرات قام بها بحريون جريئون في أنحاء المحيط الهندي المختلفة ويظهر ان هؤلاء المغامرين رأوا في أثناء تجوالهم أموراً غريبة نقلوها لأبناء وطنهم بلهجة جذابة. وآخر مدينة وصلها السندباد البحري في قصته المعروفة هي مدينة «كالا» الواقعة في شبه جزيرة مالاقة. ومنذ القرن الثامن الميلادي فتح مرفأ كنتون الصيني للاجانب فذهب اليه فريق من التجار العرب وسكنوه. وحين نشبت ثورة في أواسط القرن الثامن لوحظ ان طائفة من رعايا الخليفة الأموي كانت تساعد عسكر الامبراطور المأجورين وكانوا من الفرس ويظهر أنهم فتكوا بالثائرين فتكاً ذريعاً وأحرقوا بيوتهم ونهبوا حوانيتهم ثم لجأوا الى مراكبهم التي أقلتهم بعيداً عن مواطن تلك الثورة. وهؤلاء لم يكونوا الا تجاراً من العرب او بحريين كانوا يشتغلون في سفن لبعض المغامرين من العرب

وكان الفينيقيون أيام الامبراطور طُنغ قد ركبوا متن البحر بجرأة نادرة وانتشروا في المحيط الهادىء مسافات بعيدة ثم دخلوا المحيط الهندي وتوغلوا فيه حتى جزر ملابار الهندية ومنها انتقلوا الى النواحي العربية حتى وصلوا الخليج الفارسي

وفي النصف الاول من القرن التاسع ظهر مغامر عربي يدعى سليمان واخذ يجوب المحيطين الهندي والهادىء وينقل السلع التجارية من بلاد الصين والهند الى مرافىء الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه كانت السفن العربية تنقل البضائع من مرفأ (اوبولا) القديم الواقع على شط العرب تلك البضائع التي كانت نقلتها الى هذه المدينة سفن نهرية من بلاد الرافدين المختلفة وهذه السفن الشراعية الجسيمة كانت تسافر الى مرافىء الهند ثم تجتاز بحر البنغال قاصدة بلاد الصين

وعلى مرّ السنين ظهر منافس لمرفأ كنتون الى الشمال منهُ على شاطىء الصين نعني مدينة (خان — فو) الواقعة على خليج شنغهاي وعلى بضعة اميال من عاصمة الصونج. وقد سكن في هذا المرفأ ايضاً تجار من العرب كان لهم قاض منهم يحكم بينهم وفقاً للشريعة المحمدية وينظر في أحوالهم الشخصية. وقد كان مسموحاً لهؤلاء التجار بالتنقل بين مدن الصين الداخلية والساحلية لتعاطي التجارة على ان يكون لديهم رخصة خطية من أي موظف صيني مسؤول. غير ان هذا التساهل لم يدم طويلاً اذ أصيبت البلاد بضائقة شديدة وبثورات دامية في اواخر القرن التاسع تخرّبت على أثرها طائفة من القرى والمدن فأصيب العرب من جراء ذلك بأضرار بليغة حملتهم على الهجرة الى مرفأ كالا الواقع في شبه جزيرة مالاقة وبهذه الهجرة انتقلت معهم الحركة التجارية في الشرق الأقصى فسمت منزلة مرفأ كالا وعرفت هذه المدينة بتجارة القصدير وما فتىء يستخرج من جزر صغيرة واقعة بالقرب من مالاقة

ومما تقدم تفهم علاقة العرب التجارية ببلاد الصين وقد وجد جامع قديم اكتشف كتاباته أحد الآباء اليسوعيين وقرأها المستشرق السويسري العلامة (ماكس فان برشم) ففهم منها ان هذا الجامع بني سنة ٤٠٠ هجرية ثم جدد سنة ٧١٠ هـ .

وكان لمدينة عمان علاقات تجارية قديمة بالبلاد الهندية الا أن رحلات رجالها البحرية لم تكن خالية من الاخطار فكان يهاجمها قراصنة من الهنود اتخذوا وكراً لهم في جزيرة سوقوطرا على ان هذه الاعتداءات لم تمنع بحارة العرب من نقل المواد التجارية الى بلاد الشرق ثم تعود منها حاملة أهم ما تنتجهُ تلك البلاد الغنية

***

وحين ملك العرب القطر المصري انشأوا بين هذا القطر ومرافىء جزيرة العرب علاقات تجارية ثم حفروا الترعة التي كانت قائمة بين مدينتي بابيلون وقلزم وهي التي كانت عامرة في أيام الفراعنة فتمكنوا من ان ينقلوا كل ما تحتاج اليه مكة والمدينة من الأقوات الا أن الثورات الداخلية سببت اهمال هذه الترعة فسدتها الرمال على مر السنين . ويقال انها تخربت نهائيًّا سنة ٧٦١ في أيام أبي جعفر المنصور . حينما ثار محمد بن عبد الله الحسني على الدولة العباسية في المدينة المنورة وجمع الجموع وتسمّى بالمهدي، فأهمل رجال هذه الدولة شؤون الترعة حتى لا ترسل الأقوات والذخائر الى ثوار المدينة العلويين

وفكر عمرو بن العاص في فتح ترعة السويس وفكر هرون الرشيد ايضاً في هذا الفتح الا ان كليهما عدل عن تنفيذ فكرته خوفاً من ان يستخدمها الاسطول البيزنطي ويهاجم منها بلاد الحجاز المقدسة . على ان القوافل التجارية كانت تنقل البضائع الخاصة بالقطر السوري من السويس الى مدينة الفرما خلال خمسة ايام او ستة . اما قوافل الحجاج السوريين فكانت تعود الى البلاد الشامية بعد انتهاء موسم الحج من الطريق التي تخترقها الآن السكة الحجازية . ولما كانت هذه السكة تمر بالقرب من فلسطين فقد كان فريق من الحجاج يعرجون على بيت المقدس ليزوروا معابدها المقدسة . وقد اعتاد مسلمو الديار الشامية زيارة بيت المقدس ايام موسم النبي روبين الذي يقام في اليوم الخامس عشر من شهر ايلول (سبتمبر) من كل سنة . اما باقي الحجاج فكانوا يتفرقون في دمشق فيذهب حجاج العراق الى حلب ومنها الى مدينتي الرقة وباليس الواقعة على نهر الفرات ومنها الى الموصل وبغداد

وكانت السفن الشراعية في البحر المتوسط تسافر من الاسكندرية الى برقة والى سواحل بنغازي ومنها من مرفأ مغربي الى آخر مارة بطرابلس الغرب والمهدية وهذه المدينة الأخيرة

كانت ميناء القيروان وقد اشتهرت بحركة تجارية عظيمة خلال القرن الحادي عشر الميلادي. ومن المهدية تذهب السفن الى ديار المغرب الاقصى والى مرافىء الاندلس الزاهرة. اما مرافىء اوربا الجنوبية فلم يكن يقصدها من بحارة العرب الا المغامرون منهم وكانوا يتعرضون لاعتداءات الفرنج. ورغم العداء الذي كان مستحكماً بين الشرق والغرب ايام الحروب الصليبية فقد وجد من التجار المسلمين في بعض المدن الايطالية وأخصها مدينة بيزا. ولقد عثر على كمية من النقود الفضية الاسلامية في روسيا وفي بعض النواحي من بلاد اسكنديناوا وفي أودية فولغا ودينيبر الروسية. وبعد الدرس وجد ان أقدم النقود هذه كان صك في نهاية القرن السابع الميلادي وأحدثها في اوائل القرن الحادي عشر. ووجدت دراهم عربية اخرى في بلاد السويد صك بعضها في سنة ٦٩٨ ميلادية اي في العهد الاموي والقسم الآخر في سنة ١٠١٠ م ايام آل بويه ببغداد. ويظن ان معظم هذه الدراهم كان جيء به من بلاد خراسان. وقد درس المؤرخون هذه النقود وحاولوا تفسير العوامل التي أدت الى انتقالها الى بلاد البلطيق فقالوا ان رجال الشمال الذين كانوا يهاجمون بمراكبهم شطوط أوربا الغربية وحملات الصقالبة على شطوط بحر قزوين وهجمات النرمنديين على سواحل أسبانيا وأفريقية الشمالية كل ذلك يمكن ان يكون سبباً في انتشار هذه النقود ونقلها الى بلاد أوربا الشمالية. ولقد لاحظ المستر هايد مؤلف تاريخ الشرق التجاري في العصور الوسطى ان معظم هذه النقود وجدت مقصوصة او متقطعة وهذا إما ان يكون نتيجة أعمال القراصنة بقصد التسلية وإما ان هذه القطع اعتبرت أجزاء لوحدة تلك النقود الاسلامية

***

ولم يعرف ان التجار العرب كانوا قد وصلوا في اثناء تجوالهم الى بلاد الشمال بل كانوا يركبون السفن في نهر الفولغا ويتقدمون فيها حتى مدينة (بلغاريا) وهي عاصمة الشعب البلغاري الذي ينتمي الى السلالة التترية — التركية — وكان يسكن في سهول روسيا قبل هجرته الى بلاد البلقان وكانت مدينة بلغاريا تقع قرب ملتقى نهر قوما بنهر فولغا بين مدينتي قزان وسيمبرسك فكان التجار العرب يسافرون الى مدينة بلغار ليشتروا من اسواقها الفرو والعنبر والجلود المدبوغة والمسكوب كانوا حينئذٍ أمة اسكندناوية تحت قيادة أمير سويدي يدعى رويك وكانوا يشتغلون بنقل البضائع على نهر الفولغا وقد احتكروا تجارة الجلود والفرو في مدينة (ايتيل) المبنية على مصب النهر المذكور في بحر قزوين على أن التجار العرب كانوا لا يقنعون بشراء الجلود والفرو والعنبر في مدينة ايتيل بل كانوا يتوغلون في ذلك النهر ليصلوا الى مصادر تلك البضائع المرغوبة

حتى ان الخليفة المقتدر بالله كان قد أرسل بعثة لهذه الغاية برآسة رجل يدعى ابن فضلان سنة ٩٢٠ ميلادية

والبهارات كانت مرغوبة جدًّا في البلاد الفرنسية ولربما كان لعلاقات الود والصداقة بين الخليفة وشارلمان دخلٌ في رواج تلك البضاعة وفي توسع نطاق التجارة بين الشرق والغرب على أن هذه العلاقات كانت انقطعت بعد موت شارلمان بسبب الفوضى التي عمت القسم الغربي من البلاد الأوربية على أثر ذلك من جهة وبسبب اعتداءات النرمنديين المتتابعة على سواحل أوربا الغربية من جهة أخرى وذلك رغم سيطرة دولة الاندلس الاسلامية على خليج ليون وعلى ممرات جبال الالب الصعبة

لقد كان من العادة أن يتهادى الملوك في العصور الوسطى وكانت هدايا الخلفاء تتألف من حيوانات نادرة مثل الفيلة والسعادين ومن آلات ميكانيكية وقطع موسيقية وثريات وأقمشة حريرية وسرادق فخمة وأدوية وبهارات وعطور . أما هدايا الاباطرة فقد كانت تقتصر على أقمشة مختلفة الجنس واللون ولقد قيل أن شارلمان استفاد من علاقاته الطيبة مع الخليفة فأذن له بأن ينشيء مستشفى بالقدس لتمريض الحجاج الفقراء وأن يقيم سوقاً للتجار الى جانب هذا المستشفى وكان يتقاضى ضريبة سنوية قدرها جنيهان اثنان يدفعها كل تاجر اشترك بتلك السوق

وبعد موت شارلمان اضطر الحجاج النصارى الذين يريدون السفر الى فلسطين أن يبحروا من الموانيء الايطالية خوفاً من قراصنة البحر الذين كانوا يملأون القسم الغربي من البحر المتوسط . وكان الاتصال برجال البحر والتجارة من العرب في هذه الموانيء أسهل من سواها وفي أواخر القرن العاشر كان حاكم مرفأ باري البيزنطي يتعامل كثيراً مع المرافيء السورية حتى أن بطرس الناسك كان قد عاد من فلسطين قبيل الحروب الصليبية على احدى سفن مدينة باري التجارية . ومدينة باري نفسها كانت خضعت لسلطان الخليفة الفاطمي خمسة وعشرين عاماً (٨٤٢ — ٨٧١) فليس من المستبعد أن يكون الخليفة قد سمح حينئذ لبحارة باري أن يتجروا مع العرب في أسواقهم المختلفة . على أن هذا الاتجار لم يتناول مدينة باري فقط بل تناول سائر المدن الطليانية مثل مدينة سالرنو واما لفي ونابولي وغائت وذلك رغم خضوع هذه المدن حينئذٍ للحكم البيزنطي الاسمي

وكان التجار الطليان يبيعون الرقيق للعرب ويعقدون معهم معاهدات تجارية وكانت هذه العقود تغضب البابوات وتحملهم في حوادث كثيرة على اصدار الحرمان ضد تلك الجمهوريات الطليانية . فتجار امالفي كانوا يتجرون مع أهل إفريقيا الشمالية والبنادقة أيضاً كانوا يبيعون الاسلحة والذخائر الحربية . وقد أراد الامبراطور البيزنطي (جنا زيمسز) سنة ٩٧١ أن

يمنع التعامل مع المسلمين وهدد رجال البندقية باحراق سفنهم فخضعوا وقتاً ما لأوامره وامتنعوا من الاتجار مع العرب

***

والعلاقات بين العرب وجمهوريتي جنوى وبيزا خلال القرن العاشر كانت سيئة حتى ان العرب تمكنوا من احتلال جنوى ونهبها سنة ٩٣٥م . أما بيزا فقد ملكوها ونهبوها مرتين الأولى سنة ١٠٠٤ والثانية سنة ١٠١١ وعلى اثر ذلك اتحدت الجمهوريتان وتمكنتا من التغلب على العرب سنة ١٠١٦ وتمكنت جمهورية بيزا من امتلاك مدينة بون الجزائرية سنة ١٠٣٤ وأهم عمل قام به الطليان ضد العرب كان في صيف سنة ١٠٨٧ حينما ذهب اسطول طلياني مؤلف من سفن بيزا وجنوى والبابا يقدر عدده بـ ٤٠٠ سفينة الى مدينة المهدية بتونس وامتلكها من حاكمها العربي تميم بن المعز ولم ينصرف هذا الأسطول عن المدينة الا بعد ان صالح تميم أهل جنوى ورضي بالشروط التي فرضت عليه وهي دفع غرامة حربية واطلاق سراح المسجونين النصارى والامتناع عن تقاضي رسوم جمركية على البضائع التي تنقلها السفن الطليانية. وفي تلك الآونة حاولت جمهورية بيزا امتلاك مدينة بالرمو عاصمة صقلية العربية فلم تفلح وظلت المدينة المذكورة عربية مدة اثني عشر عاماً أخرى الى ان جاء النرمنديون واحتلوها

وكان اليهود في هذه العصور الوسطى من العوامل التي سهلت الاتجار بين الشرق والغرب ويقول «ابن خورداذبة» ان التجار اليهود الذاهبون من فرنسا الى بلاد الصين كانوا يختارون احد الطرق البرية والبحرية الآتية

لقد كانوا يحملون بضاعتهم الى مرفأ الفرما المصري ومنه يجتازون برزخ السويس خلال خمسة ايام الى ان يصلوا الى مدينة القلزم ومنها يبحرون بمراكب شراعية الى بلاد المحيط الهندي

وكان يأتي فريق آخر منهم الى سواحل سوريا بمتاجرهم فينضمون الى القافلة البرية الذاهبة من انطاكية الى وادي الفرات والى بغداد ثم يواصلون السفر الى الهند والصين. وفريق آخر من اولئك التجار كان يخشى أخطار البحر فيختار الطرق البرية الطويلة بادئاً من مضيق جبل طارق ومارًّا بشمال افريقيا وسوريا والعراق ومن هنا يجتاز القسم الجنوبي من إيران ويدخل الى أرض الصين عن طريق تركستان وطائفة اخرى من هؤلاء كانت تجتاز جبال المانيا وهضابها وأوديتها ثم جنوبي روسيا حتى تصل الى مدينة اتيل الخزرية ومنها عن طريق بحر قزوين الى آسيا الوسطى من وادي جيحون وهذه أطول كثيراً من الطريق البري الجنوبي المتقدم ذكره

فلسطين ر . التميمي

رحلة ابن بطوطة

وما تنطوي عليه من نبات وشجر

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٢ —

وقال ابن بطوطة عن الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها ما نصه :—

١ — « وأهل الهند يزدرعون مرتين في السنة فاذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوماً من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكُذْرُو (١) وهو نوع من الدُّخن وهذا الكذرو هو اكثر الحبوب عندهم »

وأقول إنهُ أراد بالحبوب الغلال المختلفة التي تزرع من دون حاجة الى ريّ في مساحات واسعة بالهند وغيرها من البلاد وأغلب هذه الحبوب أنواع مختلفة من الدخن والذرة العويجة(٢) وعلى ذلك فالتعبير بالحبوب المشار اليه ينطبق على هذه الغلال وان كان يرمي في مدلوله الى جميع الغلال الأخرى . فبعد القمح يعتبر كل من الذرة الشامية (٣) والأرز والدخن والذرة العويجة أهم الغلال الغذائية ومن المحتمل ان ربع سكان العالم تقريباً يغتذون بها ومع ذلك ففي أوربا يقل استعمالها عن الأرز . وتعدّ الهند في مقدمة البلاد التي تزرع الحبوب محل الأرز في مناطقها ذات المناخ الجاف . فتحرث الحقول عادةً بالمحراث تعقبهُ المسلفة لتنعيم التراب وهذه المسلفة

---

(١) معرب (kodro) بالهندية أو (kodruva) بالسنسكريتية

(٢) أو الذرة البيضاء وتسمى باللسان النباتي (Sorghum vulgare, Pers.) وبالانجليزية (great millet, Guinea corn) وبالفرنسية (grand millet ou millet d'Affrique) وفي سنة ١٩١٢ زرعت في مساحة ثمانية ملايين فدان بولاية بمباي واربعة ملايين فدان بولاية مدراس كما زرعت في مناطق متفرقة بكميات مختلفة في سائر ولايات الهند ويسمونها بالهندية (djuar , djowar و djowari وdcholam)

(٣) وتسمى باللسان النباتي (Zea Mays) وبالانجليزية (Maize or Indian Corn) وبالفرنسية (maïs ou blé de Turquie) اصلها من اميركا وادخلها البرتغاليون الشرق الاقصى وهي تزرع في جميع انحاء الهند وفي جزيرة سيلان

مجهزة غالباً بأسنان قوية جدًّا وهي ثقيلة الى حدٍّ يجعلها كأنها فلاح يفلح الارض . وتزرع الحبوب في خطوط أو تبذر . وأغلب هذه الحبوب يدرك في بضعة شهور ويحصد بالمنجل ويدرس بواسطة الثيران كما يدرس الأرز تماماً[١] . وأوراق النباتات تستعمل علفاً للماشية وأحياناً تزرع بعض الأصناف خصيصاً لهذا الغرض . وفي الجزء الأكبر من بلاد الهند تزرع الآن هذه الحبوب مخلوطة ببعض المزروعات القرنية . ومن هذه الحبوب الكذرو الذي ذكر فيما تقدم ويسمى باللسان النباتي (Paspalum scrobiculatum,L.) وبالانجليزية (koda millet -و ghohona grass) وبالفرنسية (millet kodo وherbe à épée) وفصيلته النجيلية (Gramineae) وهو منتشر في سائر المناطق الحارة بالنصف الشرقي من الكرة الأرضية الى الجنوب الشرقي من استراليا ونيوزيلندة وبولينزيا أيضاً يعمّر وترتفع ساقه الى قدمين وأحياناً الى ثماني أقدام . أوراقه ضيقة طول الواحدة منها تسع بوصات وعرضها ثلاثة أرباع البوصة وزهره مركب من عناقيد فلائل تشبه السنابل . ينبت في الأرض الضعيفة وفي أرض المستنقعات أيضاً ومنهُ صنف راق يزرعونه بالهند من أجل حبوبه وقد تكون أحياناً سامة بسبب وجود فطر فيها وعلى الرغم من اشتهار ضرره للصحة إبان ادراكه فانهُ نفيس للرعي ويجهز منهُ مقدار طيب من الدريس

٢ — وقال : — « ومنها القال[٢] وهو شبه انلي[٣] » وأقول إنهُ يسمى باللسان النباتي (Setaria italica, Beauv.) وبالانجليزية (Italian or Indian millet) وبالفرنسية (millet ou panic d'Italie) وفصيلته كالسابق . يبلغ ارتفاعه ثلاث أقدام الى خمس وسنبلته مركبة صفراء اللون او أرجوانية كرية لحد ما وهو هندي النشأة على الرغم من تسمية نوعه بالايطالي . ينبت بجبال هيمالايا على ارتفاع ٦٥٠٠ قدم ومنتشر بالصين واليابان ويزرع في جنوب أوربا وشمال اميركا وجزائر الهند الشرقية وهو كما ذكر

(١) وذلك كما يدرس القمح حسب ماجاء في التوراة اي يطرح الحصيد على الارض ثم تدهسه الثيران بحركة دوران ثم تتم التذرية بطريقة قديمة ايضاً ذلك بأن تذرى الحبوب في الهواء ثم تلتقط في غرابيل مسطحة فكلما ارتفعت الحبوب ذهبت الريح بالعصف

(٢) معرب (gal) بالفارسية أو (kala-kangnee) بالهندية

(٣) هو دخن السودان عند برابرة شمال افريقية ويسمى باللسان النباتي (Pennisetum typhoideum, Rich.) وبالانجليزية (pearl-millet) وبالفرنسوية (millet à jonc و millet à chandelles) وبالهندية (badjri و kumbou) يزرع في ولاية بمباي كمحصول صيفي وشغل في سنة ١٩١٢ نحو ثمانية ملايين من الافدنة في بلاد الهند الحارة ويحصد في سبتمبر وتركيب حبوبه الكيماوي مماثل لتركيب الذرة العويجة

« دي كاندول » [1] أحد النباتات الخمسة التي يزرعها امبراطور الصين باحتفال في كل عام تبعاً للعادة الامبراطورية التي بدىء بها منذ ٢٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام

إن هذا النبات يزرع في كل سنة بذاراً بمقدار نصف بوشل [2] للفدان الانكليزي [3] ويدرك في شهرين ويزرع كعلف أخضر رخص لاسيما للبقر ومن خواصه تغلبه على الحشائش الضارة فضلاً عن كونه من أنفس النباتات المفتتة لتربة الارض واحتماله العطش كثيراً واعطائه مبكراً محصولاً من الدريس الفائق الذي يجف بسهولة يبلغ مقداره من طن الى طنين . وحبوبه الغزيرة ليست فقط من أحسن الحبوب لتغذية الطيور الداجنة بل أن حبوب بعض اصنافه يمكن استعمالها كالدخن وكثير من الناس يعتبرها لذيذة لصنع الكعك والعصيدة المسماة « بوردج » ويفضلها البراهمة عن غيرها من الحبوب

٣ — وقال : — « ومنها الشاماخ [4] وهو أصغر حبًّا من القال (السالف ذكره) وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منهُ من غير زراعة فيمسك احدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة فيجمعون منهُ ما يقتاتون بهِ جميع السنة وحبّ هذا الشاماخ صغير جدًّا واذا جمع جعل في الشمس ثم يدق في مهاريس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منهُ عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس وهي أطيب من خبزه وكنت آكلها كثيراً ببلاد الهند وتعجبني »

وأقول إن الشاماخ هو المعروف في السودان (بالدَّفرة) ويسمى باللسان النباتي (Echinochloa colona. Link) وبالانجليزية (shama millet و Deccan grass) وبالفرنسية (blé du Dekkan) وفصيلته كالسابق وهو حشيش سنوي كثير الانتشار في المناطق الحارة بافريقية وغيرها. ينبت على هيئة خُصلات صغار يبلغ ارتفاع الواحدة منها قدمين. أوراقه ضيقة وأحياناً ذوات زغب. زهره ضيق قد يبلغ طول الواحدة منه خمس بوصات وهو مركب من فروع قليلة قصيرة تحمل سنيبلات مكتظة ارجوانية اللون في الغالب . والحبة من

(١) هو اوغسطين بيرام دي كاندول (Augustin Pyrame de Candolle) عالم شهير في النبات عاش من (١٧٧٨ م — ١٨٤١ م)

(٢) (bushel) وبالفرنسية (boisseau) مكيال انجليزي للمواد الجافة عبارة عن ٣٥ و ٣٦ لتراً في المملكة الانجليزية المتحدة

(٣) هو عبارة عن ٤٦ و ٤٠ آراً مع العلم بأن الفدان المصري يساوي ٤٢ آراً تقريباً

(٤) معرب (shama) بلغة البنغال أو (shyamaka) بالسنسكريتية

حبوبه اهليلجية الشكل عريضة وطولها $\frac{1}{16}$ من البوصة . يزرع بالهند ويجود في تربة الارض الخصبة وهو من أحسن حشائش العلف تحب الماشية رعيه . وحبوبه شبيهة بالدخن تدرك في المناخ الحار الرطب في شهر ونصف شهر من وقت زراعته وتستعمل غذاء وهي مستحبة للطهي . ويقال إنهُ دخل جنوب آسيا من المنطقة الحارة بافريقية

٤— وقال : — «ومنها الماش(١) وهو نوع من الجلبان (٢) » وأقول إن الماش يسمى باللسان النباتي (Phaseolus Mungo, L. "P. Max, L." var. radiatus) وبالانجليزية (blackgram) وبالفرنسية (haricot à rayons) وفصيلته القرنية (Leguminosae) ينبت بريًّا وتزرع أصنافه المتعددة في سهول الهند وفي جبال هيمالايا على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم وهو نبات سوقه طويلة تعلق بغيرها مغطاة بزغب كثيف مصفر اللون حريري الملمس . تشبه وريقاته مثيلاتها في المنج الذي سيذكر بعد الاَّ أنها أشد صلابة وزهراته صفر وهو من القطاني القيِّمة وعلف للخيل بالهند

٥ — وقال :— « ومنها المنج (٣) وهو نوع من الماش (السالف ذكره) الاَّ ان حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونهُ كشري وعليهِ يفطرون في كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب » وأقول ان المنج هو المعروف في السودان (بالكشرنقيق) ويسمى باللسان النباتي (Phaseolus Mungo, L.) (P. Max,L.) وبالانجليزية (green gram) وبالفرنسية (haricot de Clusius) وفصيلته كالماش .منتشر في جنوب آسيا والمنطقة الحارة من استراليا وغيرها.قد تعلق سوقه بغيرها وهي مغطاة لحدّ ما بزغب منحرف . أذينات اوراقه بيضية الشكل . وريقاته غشائية القوام كاملة الحِفَاف يندر إنفصاصها الى فصوص طول الوريقة منها بوصتان الى أربع . زهزه عنقوديّ تجتمع كل ست زهرات منهُ تقريباً على شكل رأس وطول قرنه من بوصة ونصف بوصة الى بوصتين ونصف بوصة يكاد يكون اسطواني الشكل قليل التقوس ويحتوي

(١) معرب (mash) بالهندية أو (masha) بالسنسكريتية

(٢) يسمى باللسان النباتي(Lathyrus sativus, L.) وبالانجليزية (chickling vetch) وبالفرنسوية (gesse cultivé و gesse و lentille d'Espagne) وهو يزرع بصعيد مصر وفي شمال السودان على الاخص. (٣) معرب (mũng أو moong) بالهندية

على عشرة الى خمس عشرة[١] بذرة قد تكون مخضرة . يزرع بالهند حتى على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم عند اخفاق الأرز أو في الانحاء التي لا يجود فيها هذا المحصول . هذا وبذوره صغار وهي لحسن مذاقها تعتبر من القطاني المستحبة عند الهنود ويتحصل عليها بأعلى ثمن وترغب فيها الطبقات الغنية اكثر من غيرها لطهيها مأكولات لذيذة وفي الكعك . أما النبات نفسه فلا ينتفع به كعلف وهو لا يحتاج الى ري ويدرك في شهرين ونصف شهر الى ثلاثة شهور وفي الهند ينتج باكورة قطانيّ الموسم

٦ — وقال : — « ومنها اللوبيا[٢] وهي نوع من الفول[٣] » . وأقول : انها تسمى باللسان النباتي (Vigna sinensis, Endl.) وهي من فصيلة الماش والمنج السابقين . موطنها المنطقة الحارة بآسيا وأفريقية وانتشرت زراعتها الى جنوب اوربا والولايات المتحدة بأميركا وبلاد أخر كثيرة معتدلة المناخ ونباتها عشبي سنوي يعلق بغيره تتميز قرونه بطولها (ثمان بوصات الى اثني عشرة) وبتدليها مبكرة وبعدم رخاوتها أو انتفاخها متى كانت خضراء . وتستعمل بذورها في الطهي كالفصولية وتؤكل جافة أو تطهى القرون بأكلها وهي خضراء وتؤكل مثلها

٧ — وقال : — ومنها المُوت[٤] وهو مثل الكذرو الا ان حبوبه أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير[٥] عندهم لا قوة له وانما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص[٦] يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضاً من القصيل أوراق الماش بعد ان تسقى الدابة السمن عشرة ايام في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال او اربعة ولا تركب في تلك الايام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً او نحوه » وأقول

(١) جاء في مرجع ان الضابط سيكس (Col. Sykes) عدّ اثنين وستين قرناً في نبات واحد في كل منها سبع بذور الى اربع عشرة . وفي مرجع آخر أن أهالي باسوتولاند بافريقية الجنوبية الشرقية يمضغون البذور ويضعونها على الدماميل والخراجات لتتقيح

(٢) معرب (lobiya) بالفارسية أو (loobia) بالهندية

(٣) يسمى باللسان النباتي (Vicia Faba, L.) وبالانجليزية (straight bean و common fild- bean, garden bean) وبالفرنسية (fève de marais)

(٤) معرب (moot) بالهندية (٥) يسمى باللسان النباتي (Hordeum vulgare, L.) وبالانجليزية (barley) وبالفرنسية (orge) (٦) يسمى باللسان النباتي(Cicer arietinum, L.) وبالانجليزية (gram و chick pea or) وبالفرنسية (pois chiches) ويقال له في السودان كبكيك

إن الموت يسمى باللسان النباتي (Phaseolus aconitifolius, Jacq.) وبالانجليزية (moth bean, aconite-leaved kidney bean) وفصيلته كالمنج . منتشر في جزائر الهند الشرقية ويزرع كثيراً في موسم المطر بالولايات الهندية الشمالية وفي جبال هيمالايا على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم. سوقه رفيعة بين القائمة والمستلقية طولها قدم او قدمان قليلة الزغب وأُذينات أوراقه رمحية الشكل . وريقاته ذات فراض عميقة والواحدة منها مقسمة الى ثلاثة فصوص مما يجعل النبات شبيهاً في أوراقه بالنبات المعروف بخانق الذئب[١] وهذا هو سبب تسمية نوعه (aconitifolius)[٢] . زهره عنقودي واحدته تشبه الرأس. زهراته صغار جداً لونها اصفر فاتح. قرنهُ اسطواني تقريباً أملس طوله بوصتان وفيهِ من ست بذور الى اثنتي عشرة لونها كلون الطين الواحدة منها اسطوانية الشكل واضحة الاستطالة متوسط زنتها $\frac{٣}{١٠٠}$ من الجرام . هذا وقرونهُ تطهى في الهند كسائر القطانيّ وتؤكل مع الخبز أو الأرز . والنبات علف أخضر جيد للخيل كما أن البذور الجافة والقش يستعملان لتسمين الثيران والخيل

٨ — وقال : — « وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية واذا حصدوها بعد ستين يوماً من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح[٣] والشعير والحمص والعدس[٤] وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الأرز[٥] فانهم يزدرعونه ثلاث مرات في السنة وهو من اكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم[٦] وقصب السكر[٧] مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها »

---

(١) يسمى باللسان النباتي (Aconitum Napellus, L.) وبالانجليزية (aconite, monkshood, wolf's bane) وبالفرنسية (aconit napel)

(٢) معناها ذو أوراق خانق الذئب (a feuilles d' aconit)

(٣) يسمى باللسان النباتي (Triticum vulgare, Vill.) وبالانجليزية (common wheat) وبالفرنسوية (froment) (٤) يسمى باللسان النباتي (Lens esculenta, Moench.) وبالانجليزية (lentil) وبالفرنسية (lentilles)

(٥) يسمى باللسان النباتي (Oryza sativa. L.) وبالانجليزية (rice) وبالفرنسية (riz)

(٦) يسمى باللسان النباتي (Sesamum indicum, L.) وبالانجليزية (sesame) وبالفرنسية (sésame)

(٧) يسمى باللسان النباتي (Saccharum officinarum, L.) وبالانجليزية (sugar cane) وبالفرنسية (canne à sucre)



الاسس الدولية

اسلام عالمي بعد الحرب

لمحمد رفعت بك

مصير التجارة الدولية

لفؤاد محمد شبل

من مذكرات دزرائيلي

عن محمد علي الكبير

الاسس الدولية

لسلام عالمي بعد الحرب

لمحمد رفعت بك : مراقب التعليم الثانوي

لقد أوجز الساسة الانكليز الكلام عن أغراض الحرب مؤثرين تركيز الجهود في الحرب نفسها وكسب المعركة ولكنهم جميعاً متفقون على ان الغرض الأول من هذه الحرب هو القضاء على النظام الهتلري في أوربا . وهذا بطبيعة الحال شرط أساسي للسلام ، ولكن الهدم وحده لا يكفي ولا بدَّ من الانشاء ووضع القواعد العامة التي تصون العالم من الفناء الذي يهدد المدنية بسبب الحرب. وإنّا في ضوء التجارب الماضية نعرض ما يأتي : —

أولاً — تكوين مؤتمر الصلح — يجب ان تكون شروط الصلح نتيجة للبحوث التي يقوم بها المختصون في النواحي المختلفة ولا يقتصر مؤتمر الصلح على الغالبين بل يجب ان تمثل فيه الأمم المغلوبة والدول المحايدة وقد اصابها من ويلات الحرب نصيب يسوّغ اشتراكها . وكل صلح يعقد على فكرة اذلال المغلوب والتحرش به هو صلح لا بد ان يولد حرباً جديدة لاشباع رغبة التشفي والانتقام ولو بعد حين كما ان كل صلح توضع شروطه على اسس غير علمية صحيحة فهي شروط قابلة للاخلال بها والكسر في اي وقت . لذلك يجب أن تؤلف لجان مختصة لعقد الصلح بدلاً من المؤتمرات السياسية المعتادة وكل لجنة تختص بموضوع من موضوعات الصلح فتكون هناك لجنة للحدود وأخرى للتجارة وثالثة للنقود ورابعة للهجرة الخ وكل لجنة تضع قراراتها وهذه القرارات تكون ملزمة للجميع

اما تأديب العدو الذي كان سبباً في اثارة الحرب فهو شعور طبيعي ولكن يجب ان يعطى الدرس في أثناء الحرب وقبل اعلان الهدنة وعقد الصلح.يجب ان يعلم هؤلاء الناس بطريقة لا تساورها رحمة او تورع ، ان الحرب شرٌّ مستطير على الانسان واداة مدمرة لكل ماهو نافع وعزيز في العالم ، يجب ان يحس هؤلاء الناس بما اصاب العالم من نظمهم وتعاليمهم وعسكريتهم فيقدرون آلام الآخرين

ان الشعوب التي فضلت المدفع على الزبد في وقت الرخاء يجب ان تتذوّق نيران المدافع وان تكتوي بسعيرها قبل ان تتمتع بحلاوة الزبد مرة ثانية . قال الله تعالى في كتابه العزيز « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين » وقال تعالى « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنهُ الله ان الله لعفوٌ غفور »

ثانياً — الدول الصغيرة — لقد برهنت الحرب الماضية والحرب الحالية على ان اول فريسة

تلهبها الحروب هي شعوب الدول الصغيرة التي يداس استقلالها وتستغل مواردها ويستعبد اهلها وتخرب ارضها لمصلحة المتحاربين . وحينئذٍ لا تنفع وثائق الحياد او الاستقلال ولا تقيهم المعاهدات او المواثيق شرور الحرب . لذلك يجب ان يرد الى هـذه الشعوب استقلالها ولكن بشروط معينة أهمها أن تنشأ من هذه الدول اتحادات تآلفية أو فدرائية على نسق نظام الولايات المتحدة فيتألف كل اتحاد من مجموعة متجانسة من الدول الصغيرة تحتفظ كل منها باستقلالها وبنظام الحكم في داخليتها وتشترك جميعها في سياستها الخارجية وفي وسائل دفاعها وعملتها وتجارتها وذلك بتأليف مجلس اتحادي يمثل جميع اعضاء الاتحاد ويكون من اختصاصه الفصل في هذه المسائل . فيؤلف من دول الشمال مثلاً اتحاد يجمع بين السويد والدنمرك والنرويج وهولاندا ويؤلف اتحاد لدول البلقان واتحاد لدول وسط اوربا واتحاد لاتيني يجمع فرنسا وبلجيكا واسبانيا وايطاليا والبرتغال واتحاد للشرق الاوسط يجمع بين مصر والسودان والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب وهكذا

اما ترك هذه الشعوب مستقلة بالاسم استقلالاً تامًّا وما هي في الحقيقة الاّ محسوبة على احدى الدول الكبرى توجهها في سياستها الخارجية وفي دفاعها وفي تجارتها فتضليل لشعوب الدول الصغيرة وتعريض لها للبوار والدمار . فاذا كانت هذه الشعوب ضعيفة بمفردها فان في اتحادها قوة وفي هذه القوة ما يرد المهاجم عنها

ثالثاً — التسليح — من أهم أسباب الحروب الاستعداد للحرب ومن أول واجبات السلام نزع السلاح أو تحديده. وكلنا نعلم أن من مقومات الأمن داخل البلاد زوال الخطر والاطمئنان الى حكم القانون . ومن أول شروط استتباب الأمن جمع الاسلحة وحظر حمل السلاح الاّ برخصة ومراقبة محال صنع الاسلحة وبيعها ووضع المشبوهين وأرباب السوابق تحت الملاحظة والمراقبة ولا فائدة من حظر حمل السلاح على فئة والسماح به لفئة أخرى بل يجب ان يكون الحظر عامًّا حتى يطمئن الجميع ويأمنوا عاقبة منع التسليح . ولمنع الحروب الدولية يجب اتخاذ مثل هذه الطرق . ولقد أضاعت الدول فرصة كانت سانحة لتنفيذ فكرة تحديد التسليح عندما نزعوا السلاح من يد المانيا عقب الحرب . ولو أنهم دخلوا مؤتمر نزع السلاح بعد ذلك بقلب سليم وعزم أكيد لهشموا السلاح الذي تذرعت به المانيا عند شروعها في التسليح . ولحل مشكلة التسليح يجب أولاً أن تحدد الاسلحة التي تستعمل للحرب

ويلغى منها سلاح الغواصات والطيران ويقتصر استعمال هذه الأسلحة على الأغراض التجارية والمدنية ، ثم تقرر لكل دولة القوة التي تتفق وسلامة اراضيها وحاجة الأمن فيها مع مراعاة ميزانيتها

وما دامت الدول التي تهدد السلام توضع تحت مراقبة دولية دقيقة فلا خوف من تحديد السلاح وليس معنى هذا اننا سنستغني عن الحرب او التسليح استغناء كلياً . فما دام العالم يستحوذ عليه الخوف فان الدول ستسلح نفسها كما نسلح أنفسنا ونحن نجتاز طريقاً غير آمن بين مفاوز الجبال وفي مجاهل الغابات حتى اذا لحظ اللص او اللصوص ان القافلة مسلحة تسليحاً لا قبل لهم بمقاومته فانهم لا شك مرتدون على أعقابهم قابعون داخل حدودهم . وتظل الحال كذلك ردحاً من الزمن الى ان يؤوب اللص ويسأم الانتظار فييأس من مزاولة حرفته وينصرف عنها الى حرفة سلمية اخرى كصناعة الزبد مثلاً بدلاً من الدبابات ! وعندئذٍ تصبح كلمة القانون هي العليا وتستطيع القافلة ان تجتاز الطريق وكلاب الحرب تنبح ولا تعض !

رابعاً — المستعمرات — يخطيء الذين يظنون ان للمستعمرات دخلاً مباشراً في قيام الحرب الحالية . فالمستعمرات اذا استثمرت لفائدة أهلها وحسنت حكومتها كانت عبئاً ثقيلاً على حكامها . وقد سبق ان أبدى الخصمان المتنازعان استعداداً لبحث الموضوع على أساس الانتفاع المشترك بالخامات التي تنتجها هذه المستعمرات

أما المستعمرات المستقلة منها فتبقى كما هي حرة في مجموعة الأمم . وأما شبه المستقلة والتي تحت الحماية او الانتداب مثل مراكش وتونس والهند وسوريا ولبنان فتستقل بالشروط التي اوردناها للدول الصغيرة أي تندمج في نظام اتحادي معين

وأما المستعمرات غير المستقلة فيطبق عليها نظام الانتداب ويكون الغرض من حكمها استثمارها لمصلحة أهلها أولاً ثم اتاحة فرصة الاستثمار للجميع على السواء وتكون الدولة صاحبة الانتداب مسئولة أمام هيئة دولية عن عملها

خامساً — الحدود والأقليات — اذا ظهرت مشكلة الحدود بين دولتين او اكثر تلغى الحدود الحربية أو الجغرافية وتكون عناصر اللغة والجنس والدين والتاريخ وتوافق الآراء هي التي تعين الحدود بين الدول . فلا تعطى دلماسيا لايطاليا ليكون البحر الادرياتي تحت نفوذ ايطاليا ويحرم أهلها السلافيون الانضمام الى يوغسلافيا، ولا تعطى ايطاليا جنوب التيرول لتحصين حدودها الشمالية مع ان اهل الأقليم من الالمان ولا تترك دنزج لبولندة ليكون لها ممر تجاري داخل اقليم غريب عنها ولا تعطى جزر الاغريق الاثنتي عشرة أو الدوديكانيز لايطاليا ولا يرغم اهل النمسا على الاستقلال اذا ارادوا الانضمام لدولة اخرى. أما عن الأقليات فقد أعطى كمال أتاتورك مثالاً يحتذى اذ استبدل بجميع الأروام في تركيا وآسيا الصغرى وكان عددهم يبلغ نحو مليون من الاتراك الذين كانوا أقلية في بلاد اليونان فبمثل هذا التبادل يمكن تسوية كثير من مشكلات الأقليات ومن بينها مشكلة اليهود ولا يجوز مطلقاً قهر السكان على مغادرة مواطنهم

الى أقاليم اخرى الاَّ بعد الاتفاق فليس الآدميون ايًّا كانوا سلعاً أو سائمة تساق

سادساً — حرية البحار — أما عن البحار ومنافذها فيجب ان تكون حرة ومضمونة للجميع على السواء فالملاحة في قناة السويس مثلاً حرة للجميع في السلم والحرب وسواء أكانت القناة تابعة للشركة أو لمصر فستظل كذلك لأنهُ بمقتضى عقد الشركة وبمقتضى المعاهدات الدولية ممنوع تحصينها . أما المنافذ الاخرى مثل جبل طارق والدردنيل وعدن فمن السهل إما ان ينزع سلاحها فتصبح منافذ حرة للجميع بصرف النظر عن الحكومة التي تسيطر عليها وإما توضع تحت اشراف لجنة دولية

سابعاً — النظام الاقتصادي — أما النظام الاقتصادي الذي ينبغي ان يسود بعد الحرب فيجب أن يكون نظاماً علميًّا مجرداً من الأنانية وحب الكسب وموجهاً لمصلحة المستهلكين من العمال والفلاحين لا لمصلحة طبقة واحدة هي طبقة اصحاب رؤوس الأموال . لقد تدرَّج الانتاج في جميع المحصولات والسلع تقريباً واجتاز المراحل الصناعية الاولى من المنزل وسوق القرية الى السوق الوطني وأصبحت السوق الآن تشمل بلاد العالم جميعاً وصار الانتاج بالجملة في كثير من الصناعات . ولكن السياسات التي تتبعها الحكومات لا تزال متأثرة بسياسة القرون الماضية قبل حركة الانقلاب الصناعي فالدول جميعاً تريد احياء النظام التجاري القديم Mercantile System بتشجيع الصادرات والتقليل من الواردات بقدر الممكن وتريد ان تقيم الاسوار والحواجز الجمركية في وجه الواردات من الخارج وكل امة حريصة على ميزانها التجاري فتريد ان يكون لها لا عليها. ولست أدري اذا كان هذا هو غرض جميع الحكومات فمن اين نجد الدول التي تقبل صادراتنا أو التي تقبل أن يكون عليها التزامات لنا . الحقيقة يجب أن نقضي على سياسة العزلة التجارية وان تعود الدول الى سياسة حرية التجارة والتبادل فتتخصص الدول كل في انتاج ما تحسنهُ وما يوافق طبيعة ارضها واستعداد أهلها وبيئتها ولا مانع من تقرير ضرائب معقولة على بعض المنتجات وخاصة في الدول الناشئة وبذلك تنعم الشعوب بالخيرات والغلات التي تجود بها الارض والمصانع الحديثة وعلى الدول ان تضع حدًّا للتنافر والتكالب بين كبار اصحاب رؤوس الأموال فتحول دون استغلال الافراد أو الشركات واستئثارها بمصالح وطنية كبرى فتتولى الدولة ادارة هذه الأعمال كما تتولى بعض الحكومات ادارة سكك الحديد والتليفونات واللاسلكي، وكما تتولى الحكومات في زمن الحرب سفن الملاحة ومصانع الذخيرة وانتاج مواد الغذاء والوقود ، وكما ان هناك لجان دولية للاشراف على الصحة العامة والآداب العامة كذلك يجب ان تؤلف لجان دولية لتنظيم المواصلات والنقود والضرائب الجمركية وكل ما يهم المجتمع الانساني الذي ارتبطت مصالحه واشتبكت اشتباكاً لا يجدي معهُ الاحتكار واقامة الحواجز الجمركية والاسوار

ثامناً - واخيراً النظام السياسي — وكما يجب ان نقضي على نظام العزلة الاقتصادية لانهُ نظام عتيق ولا يتفق مع التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي وصل اليه العالم بفضل المخترعات العلمية والصناعية الاخيرة وما ينتظر لها من تقدم مطرد كذلك يجب ان نقضي على العزلة السياسية للامم . ويجب ان تتدرب الشعوب وتتدرج في سياسة الوحدة العالمية . ولا نريد ان نقول بامكان تأليف اتحاد عالمي او اتحاد اوربي الآن . اذ لا بد ان تمرن الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة . فمن أجل فكرة التسامح الديني حاربت الشعوب قرنين او ثلاثة قرون ولا يزال اثر التعصب الديني موجوداً في العالم . ومن اجل الحرية والاستقلال والوحدات القومية قد كافحت الشعوب سنين طويلة ولا تزال هناك شعوب ترزح في الاستعباد ولا تتمتع باستقلال او وحدة قومية . وفكرة عصبة الأمم لا تزال في طفولتها ولم تلق من الدول والشعوب ما يساعد على التدرج في توسيع الفكرة

وقد كانت انكلترا في الماضي والولايات المتحدة الى الآن ترى في عزلتها عن اوربا اكبر معوان لها على التمتع باستقلالها وسلامتها من الحروب . اما الآن وقد تضافرت القوى الطبيعية والعلمية على القضاء على خرافة العزلة المنيعة بعد انتشار الكهرباء واللاسلكي والطيران وتقدم المواصلات تقدماً جعل المسافات بين الممالك تقطع في زمن أقصر مما كان يستلزمه الانتقال في الماضي بين المدن في المملكة الواحدة وجعل المسافة بين انكلترا واميركا تقطع في نفس الزمن الذي كان يستغرقه الانتقال من انكلترا الى فرنسا

ولما كانت هذه السرعة في المواصلات مع استخدام المخترعات الحديثة قد حولت الحرب من ظاهرة محلية او قارّية الى ظاهرة دولية عالمية وان قوة التدمير والتخريب في الحروب لن يقتصر اثرها على الحصون والمحاربين والاهداف العسكرية ولكنها ستعم الانحاء وتكتسح الارجاء ويستهدف لها النساء والاطفال والعجزة والمحايدون كغيرهم من المحاربين لذلك كله تحولت انكلترا تدريجاً عن سياسة العزلة الى السياسة القارية أو العالمية وستضطر اميركا قريباً الى الخروج من عزلتها ومسايرة العالم في ارتباط حلقاته وتضامن اجزائه . اذن يجب اولاً ان تتمتع الشعوب باستقلالها وبحرية اختيار اسلوب الحكم الذي يوافق مزاجها الا اذا كان هذا الاسلوب خطراً على الآخرين . فنظام الفاشية أو النازية قد أصبح خطراً على العالم ولذا وجب ان يتعاون الجميع على القضاء عليه قبل ان يقضي على مظاهر الحرية والمدنية في العالم

وبعد ذلك لست أرى من العقل ان نجرب نظاماً اتحاديًّا جديداً ونترك نظاماً جربناه وخبرناه وبنيناه بجهودنا وتعهدناه مدة عشرين عاماً وعرفنا مواضع الضعف فيه وهو نظام عصبة الأمم فعلينا ان نعيد النظر في الميثاق ونصحح فيه ما يأتي :

أولاً — يلغى حق انسحاب الدول المشتركة من العصبة

ثانياً — لا يشترط ان تكون القرارات التي يصدرها المجلس والجمعية العمومية بالاجماع وأظن انه لا يؤثر في الاجماع خروج صوت أو صوتين أو ثلاثة

ثالثاً — يكون التحكيم الزامياً في الخلافات الدولية سواء أسياسية كانت أم قضائية وسواء أخاصة بمصالح عامة كانت أم بمسائل تتعلق بالشرف والوطن والمصالح الحيوية . وتؤلف لجنة دولية لصياغة القانون الدولي وحفظ شوارد العرف بين الدول

رابعاً — تؤلف لجنة دولية خاصة لتقرير القوات الحربية والبحرية التي تكون تحت تصرف المجلس لتنفذ قرارات العصبة وما تفرضه من العقوبات الاقتصادية والحربية وخلافها لردع المعتدين وينفق على هذه القوات من ميزانية العصبة

خامساً — يعطى للمجلس او للجمعية العمومية حق بحث المشكلات الدولية واتخاذ قرارات فيها بدون انتظار عرضها من قبل المتنازعين

سادساً — تساعد العصبة على تنظيم الاتحادات الفرعية المتجانسة التي أشرنا اليها عند التكلم على الدول الصغيرة . ويجب ان نذكر ان تأليف هذه الاتحادات ليس من قبيل الخيالات أو الرغبات النظرية بل ان الفكرة قد دخلت فعلاً في حيز التنفيذ وكلنا نذكر ما اقترحته انكلترا على فرنسا عند ما أحدق بها الخطر الألماني في الصيف الماضي اذ عرضت عليها رسمياً ان تتحد معها في حكومة واحدة ولولا الضغط الألماني لقبلت فرنسا

ولا ننسى أن مجموعة الأمم الحرة التي تنتظم الامبراطورية البريطانية الآن ما هي الا اتحاد متجانس بين دول وشعوب مستقلة تماماً ولها وزاراتها وبرلماناتها وهذه البرلمانات هي التي تقرر حق السلم والحرب دون ارتباط بما تفعله انكلترا . ومتى تم تكوين هذه الاتحادات وتألف من مندوبيها المنتخبين لا المعينين مجلس العصبة أصبحت قضية السلام في يد الشعوب لا في يد الحكومات وارادة الشعوب اذا اجتمعت كانت أقوى من جيوش العالم كله

هذه تكهنات مشتغل بالتاريخ قد استوحى الماضي فألهمه واختبر الحاضر فعلمه وتطلع الى الأفق البعيد من خلال بللورة المستقبل فرأى هذه الصور التي رسمت خطوطها وبينت سماتها وأجملت تفصيلها وان لم استطع تجميلها . فاذا قدر للعالم ان يخلص بهذه الصورة من فوضى الحروب الدولية فان امامنا ميادين ومواقع عدة في الداخل نستثمر فيها قواتنا وثرواتنا ورجولتنا وشبابنا فلنعلنها حروباً داخلية نحارب فيها الجهل والمرض والفقر والفساد ونقاتل الجشع والطمع والنفاق ونهاجم الدسيسة والغدر والعار . وحينئذٍ اذا قدر لنا النصر في هذه الميادين خرجت الانسانية من المخابىء والكهوف التي أعدتها لها مدنية الحروب والفوضى الدولية الحالية واستطاعت ان تشق طريقها صعداً الى السماء نحو النور ونحو النجوم !

مصير التجارة الدولية

لفؤاد محمد شبل

اتسم الاقتصاد العالمي منذ الحرب العظمى وبوجه خاص منذ عام ١٩٣١ ، بما اعترض مجرى التجارة الدولية من عقبات كأداء . اذ منيت بأشد ضروب الحصر والتقييد متمثلة بصفة خاصة في مشروع السنوات الاربع الالماني الذي وضع لكفاية المانيا نفسها اقتصاديًا . وبذلك نشأ تياران فكريان يتعلق بفوز احدهما مصير الاستبدال الدولي أو بعبارة شاملة مستقبل الاقتصاد العالمي . فالرأي الاول يمثل الفكرة القائلة بالاستكفاء الاقتصادي وتضييق نطاق الاستبدال الدولي ، والثاني الرأي القديم المعروف بحرية التجارة . فأي الرأيين سيكتب له النصر . وهل التوفيق بينهما يتيح للعالم ما يرتجيه من الثقة والسلام والهناءة ؟

ان قيام الحرب الحاضرة ، وما حملت معها من تقييد عنيف للتجارة الخارجية وما تتسم به من توجيه كل دولة لاقتصادها القومي توجيهاً لا يراد به اشباع حاجات شعبها ، كما يقضي بذلك المنطق الاقتصادي ، ولكن يراد به كسب الحرب ، يؤثر في الاقتصاد العالمي وسيكون لهذه الحرب أبلغ أثر في مصير هذا الاقتصاد وتطوره . وانا في هذا البحث سنحاول ان نلقي ضوءاً على تلك المسائل والمشكلات التي سيواجهها العالم فيما يختص بالاستبدال الدولي وعسى ان نوفق في تبسيطها تبسيطاً يقربها الى الأذهان

١ — تطور التجارة الدولية

يرد قيام التجارة الدولية على مدى واسع الى ما اختصت به الامم المختلفة من مزايا مادية ومعنوية طبيعية كانت ام مكتسبة . وكلما تباينت خيرات الامم واشتد التباين بين المزايا النسبية للاقطار المختلفة ، كلما زادت عمليات المبادلة بينها وكلما عظم نفع التجارة الدولية للعالم . وقد يكون قطر ما مثل (ا) في مكنته انتاج مقدار من القمح من مساحة معينة أكثر مما ينتجه قطر آخر مثل (ب) من المساحة نفسها . بيد ان هذا لا يمنع قيام التجارة الدولية بينهما اذا كان لدى (ا) من مصادر الثروة ما يمكنه من استغلالها بكفاية أعظم من انتاجه القمح . وعلى ذلك فيتخصص هو في استغلال هذه الثروات التي لا ينتجها (ب) ويصدرها الى (ب) على ان يستورد مقابلها حاجته من القمح من (ب)

ولقد أحدث القرن العشرون تطوراً عميقاً في التباين بين المزايا النسبية للبلاد المختلفة ، — هذا التباين الذي تقوم عليه التجارة الدولية اذ اهتدى الى استخدام البترول والطاقة الكهربائية وأمكن الاستعاضة بهما عن الفحم في الصناعة والنقل . وبذلك قلَّ تفوق البلاد المنتجة للفحم التي

أتاحت لها هذه المادة تفوقاً صناعيًّا ممتازاً طوال القرن التاسع عشر واوائل العشرين . وبالتالي امكن قيام الصناعة في جهات اخرى لم تكن لتقوم فيها من قبل لافتقارها الى هذه المادة . ومن الجهة الاخرى فان استغلال الاراضي البكر في البلاد الجديدة وبلغ أقصى غايته وأصبح قانون الغلة المتناقصة يفعل فعله . فهذا كله حمل الكتاب الاقتصاديين في اوائل هذا القرن على التنبؤ بضمور حجم التجارة الدولية نسبيًّا وقيامها بدور اقل من دورها السابق بالقياس الى حجم الانتاج العالمي

وفي الواقع جاوز شيوع الرأسمال الصناعي والمهارة الفنية كل ما كان يتوقعهُ الناس . وتبين سهولة نقل صناعة ما الى بلد آخر وادارتها بنفس الكفاية التي تدار بها في البلد الاول . ونتج عن هذا كله زيادة ضمور التباين بين المزايا النسبية للبلاد المختلفة

٢ — اثر الانقلاب الزراعي

كان لتقدم العالم الباهر أثره في ميدان الزراعة وتجلى هذا سواء في ادخال الآلات الميكانيكية على العمليات الزراعية او في طريق تحسين سلالات الحيوان والنبات . وكانت أبرز النتائج التي نشأت عن ذلك ظاهرة لم يكن يتوقعها الاقتصاديون في أوائل هذا القرن ، ألا وهي رجحان كفة الاقطار الزراعية في الاستبدال الدولي بعد ان كان العكس هو الواقع طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . اذ أدى الانتاج الصناعي وقتئذ الى رجحان كفة الاقطار الصناعية

وكان في الوسع تذليل عقبة الحرارة الى حدٍّ بعيد بفضل تطبيق قوانين مندل في الوراثة ، فأمكن زراعة القمح في أقصى الشمال واستغلال كثير من الأراضي الصحراوية التي ما برحت عطلاً من المنفعة يضاف الى هذا سهولة المواصلات بين أغلب جهات العالم فأصبحت الحاصلات تنقل في يسر وسرعة مما كان له أثره في خفض منزلة التخصص الدولي وسلب بعض الدول مالها من شأن في انتاج أصناف معينة . وهكذا رأينا الحرير الصناعي يسلب مكانة الحرير الطبيعي فضعفت منزلة الصين واليابان في انتاج هذه السلعة وارتفعت منزلة أقطار أخرى ما كانت لتصلح لانتاج الحرير ، كما رأينا المانيا تخرج سماداً صناعيًّا يسلب السماد الشيلي الطبيعي مكانته القديمة

وعندما ظهرت ثمار الانتاج الآلي وآثار الأساليب الحديثة في الأقطار الجديدة بما تحمل معها من انتاج وفير رخيص ، انقضَّ هذا على اسواق الدنيا القديمة وخاصة اوربا . وكان على هذه الاقطار اختيار احد سبيلين اما ترك الأحوال تجري على اعنتها وبذا قد تتعرض لانقلاب اجتماعي خطير . وإما اعتناق سياسة حماية الزراعة . وقد سلكت اوربا الطريق الثاني فكنت أينما وليت وجهك شطر قطر من الاقطار ألفيت اسواراً عالية من التعريفات الجمركية في ازدياد متواصل وعلى اتم استعداد لحماية الفلاح من آثار انهيار الأسوار العالمية ولا نقاذه ومالك الأرض

من الضياع وللحيلولة دون ترك الأرض وهجر الزراعة . ولقد جاوزت سياسة الحماية هذه في بعض الأحيان الغرض المنشود من حماية الأرض والزراع فحسب . بيد انه لما رأت الأقطار المصدرة الأسواق موصدة دونها وانها لا تملك وسائل مماثلة للحماية لجأت الى مهاجمة هذه الأسواق وقذفت بالزائد عن حاجتها من المنتجات الزراعية الى السوق العالمية بأثمان ماحقة . ولم تقف تلك البلاد ازاء هذا مكتوفة اليدين بل عمدت الى الاستماتة في الدفاع ولجأت الى الغلو في رفع الأسوار الجمركية ، ولما رأت الأقطار الزراعية ان لاسبيل لها الى الإصدار عملت على الاقلال من وارداتها وانشاء صناعات لا يبررها المنطق الاقتصادي . ولقد نشأ ايضاً من زيادة الانتاج الزراعي أمرٌ آخر ألا وهو مشكلة التحوُّل الحرّ في لسكان البلاد الزراعية اذا عادت الأرض وهي غير قادرة على ان تستوعبهم كعمال زراعيين بعد زيادة الانتاج الزراعي هذه الزيادة الهائلة لا بفضل العمل ولكن بطرائق الاستنبات والتهجين . وحتى لو تهيأ حل هذه المعضلة سريعاً وبدون حدوث اضرار ، وهذا امر بعيد ، فان هذا الحل سيكون من شأنه ضمور ثمرة المزايا النسبية لا اتساعها وبالتالي تضييق نطاق التجارة الدولية

وهكذا عوضاً عن ان يكون تحسن وسائل الاكثار الزراعي سبباً في رفاهية العالم ونعمة من نعم التخصص الدولي أضحت عاملاً من عوامل اقامة الأسوار الجمركية وعرقلة التبادل التجاري الطبيعي

٣ — الحرب الماضية وأثرها في التجارة الدولية

تخلفت عن الحرب الماضية مشكلات سياسية واقتصادية ما زالت تفعل فعلها الى اليوم وتؤثر في التجارة الدولية مضافة الى العوامل الاقتصادية البحتة التي اسلفنا ذكرها . ولكي نفهم مصير التجارة الدولية بل مستقبل العالم الاقتصادي بعد هذه الحرب ، قد يكون من الخير استعراض هذه المشكلات التي يمكن تقسيمها مجموعتين :—

فالأولى خاصة بانتشار مبدأ الحماية الذي تمثل فيما اقامته معظم الدول من صروح جمركية شماء فارضة رسوماً عالية في كثير من الأحيان . وهذه السياسة تعتبر نتيجة مباشرة للحرب الماضية نفسها اذ انها حفزت كثيراً من الأمم الى انشاء صناعات تمتعت بالحماية بفضل الحصار وحوادث الغواصات ، فضلاً عن اشتغال الدول المتحاربة بانتاج السلاح قبل اي شيء آخر . وفي ظل هذه الحماية المانعة نشأت الصناعات حتى اصبحت جزءاً لا يتجزأ من الكيان الاقتصادي للدولة وحتى غدت مراعاة مصالحها حلقة لا تنفصم من سياستها كما اصبح بقاء هذه الصناعات مرهوناً الى حد كبير ببقاء عنصر الحماية لها . فكان ما شاهده العالم من المبالغة في ابتكار الخطط للحيلولة دون منافسة الصناعات الاجنبية للصناعة المحلية . ولقد أثرت هذه السياسات في مركز

الدول الأخرى فعملت بدورها على الاقتداء بها وتكييف سياستها حتى تتفق وهذه النزعة الجديدة

وبفضل الحماية التي انشأتها الحرب الماضية امكن قيام الصناعة في كثير من بلاد الشرق كمصر والهند والصين وازدهرت صناعات اليابان ودول اميركا اللاتينية وبذلك ضعف الاحتكار الصناعي لدول أوربا الغربية . كما تحولت الولايات المتحدة من دولة مدينة الى دولة دائنة تمد أوربا بكثير من المنتجات الزراعية بل والصناعية خلال مدة الحرب خاصة ، لاشتغال أوربا وقتئذ بانتاج معدات الحرب وانصراف نشاطها الى تكييف شؤونها الاقتصادية لمقتضيات حالتها

والأثر الثاني للحرب الماضية تمثل في تلك التنظيمات والاجراءات التي لا حد لها لتنظيم الاستيراد والتحكم في عمليات المبادلة عقب توقيع الهدنة وانصراف أوربا نحو تعزيز أنظمتها النقدية واعادة تنظيمها الاقتصادي طبقاً للتطورات التي حلت بالاقتصاد الدولي . وظهر الاضطراب الاقتصادي في كافة نواحي أوربا ولاسيما المانيا وأوربا الوسطى . وكان المشاهد في حالة كل بلد مضى في تقييد حرية التجارة أن الغاية الأساسية لهذا التقييد حماية ميزان مدفوعاته المعرَّض للخطر بسبب تداعي أسواق صادراته ، أو بسبب عوزه الى القروض الطويلة الأجل التي شيد على استمرارها أساس اقتصاده القومي او بسبب غمر اسواقه بالواردات الأجنبية او بسحب القروض القصيرة الأجل من سوقه المالية هذه القروض التي غدت دعامة من دعائم نظامه المالي . وهذا يحدو بنا الى الكلام عما انتاب العالم من أزمات اقتصادية ومالية بعد الحرب الماضية وأثر ذلك في التجارة الدولية

٤ — الأزمات المالية والاقتصادية

نجم عن توقف الاقراض الجديد لإحجام الدول الرأسمالية عن الاقراض بسبب كساد ١٩٢٩ — ١٩٣٣ ، ان حفز الدول المدينة الى العمل على اصلاح ميزانها التجاري وتلافي أخطار عجز ميزان مدفوعاتها فاتخذت اجراءات اضاف كلٌّ منها قيداً جديداً غلَّ التجارة الدولية وحبس الاستبدال . لذا كان المشاهد في البلاد المدينة التي استطاعت التوفيق بين دخلها وخرجها ان هذا لم يكن نتيجة لزيادة الصادر بل كان من جراء نقص الوارد . ولم تكن الدول الدائنة (ولاسيما أميركا وفرنسا) على استعداد لتقبل ديونها بضائع اذ ينتج عن هذا ضرر يحيق بالمنتج الأهلي فيها ، فلم ترَ الدول المدينة بدًّا من الحد من وارداتها أي الاقلال من قوة شرائها الخارجية

ولعلَّ أعظم مظهر لتقييد التبادل الذي رآه العالم منذ عام ١٩٢٩ الى قبيل الحرب الحاضرة نظام الحصص الذي غدا من أعظم العقبات وأمنعها وهي التي كثيراً ما حالت دون تقدم التجارة الدولية . يضاف اليه الاضطرابات النقدية والقيود التي غلت حرية انتقال رؤوس الأموال والمدفوعات التجارية ، فضلاً عن التحكم في أسعار الصرف ونظم التصفية . وتلك في الواقع

تعتبر صدى لعدم التوازن بين الاقتصاد الأهلي والاقتصاد العالمي .

ولقد كان المأمول ان يستعيد كل بلد باجراءاته الخاصة ، توازنه المالي وان يفيق مما ألم به من متاعب الأزمة التي شاهدها العالم وان يدفعه هذا الى التكاتف نحو ابتكار الحلول الكفيلة بعودة الاستقرار الى ربوعه ، واتخاذ التجارة الدولية سيرتها الأولى ، لولا الأحوال السياسية التي نشأت منذ تولى النازي أزمة الحكم في المانيا ، ولما بدا للعيان من عودة المانيا الى التسلح وذهابها في هذا المضمار الى أبعد حد وتهديدها السلم العالمي ثم توقيع العقوبات على ايطاليا وتسابق كافة الدول الى التسلح وبخاصة الأمبراطورية البريطانية

٥ — مرحلة التقلقل السياسي والاستعداد للحرب

كان من جراء فشل المؤتمرات السياسية التي كانت أغراضها وضع أساس سلم دائم وتقرير قواعد سياسية عالية تستند الى قوة عصبة الأمم وتكون غايتها رفاهية العالم اجمع ، ان اضطرب جو الاقتصاد العالمي — وبخاصة لأن هذا وافق حدوث الأزمة الاقتصادية العالمية في١٩٢٩ — ١٩٣٣ ثم تولي النازي أزمة الحكم في المانيا عام١٩٣٣ — فمن ذلك الحين توالت الأحداث على العالم فزعزعت بنيانه وهدت من كيانه وعلم الكل ان الحرب آتية لا ريب فيها . فعملت كل دولة من جانبها على الاستعداد لها ، وظفرت الناحية الاقتصادية بالنصيب الأكبر الأوفر من العناية والاهتمام ،إذ عمدت كل دولة الى تكييف حالتها الاقتصادية وفقاً لمقتضيات الحرب الجديدة ويتجلى هذا الاهتمام في محيط تلك الدول المهددة بتطبيق الحصار البريطاني عليها اعني المانيا وايطاليا ففي سبيل كفاح الحصار البريطاني وجهت كل من ايطاليا والمانيا مسائلها الاقتصادية توجيهاً معيناً . فأصبحت الحكومة تشرف على ما جلّ ودقّ من الأمور الاقتصادية . وتذهب في هذا الى حدٍّ بعيد . فتدخل في شئون الأفراد وتخضع انتاجهم واستهلاكهم لمشيئتها مدفوعة الى ذلك لا بوظيفتها الأساسية وهي السعي لرفاهية شعبها ولكن بوجوب التأهب كل التأهب للحرب

فالمانيا مثلاً — وقد دفع الجوع شعبها الى الثورة في الحرب الماضية — تحث نحو توفير المواد الغذائية والمواد الأولية في بلادها التي طلبها عليها غير مرن أو التي اذا قطعت عنها عند نشوب الحرب أو كوسيلة للضغط الاقتصادي والسياسي تعرضت البلاد للانهيار . ولقد وجهت السياسة الاقتصادية نحو إحداث تغيير في أسس الصناعة من حيث اعتمادها على المواد الأولية النادرة الوجود في المانيا أو التي يلزم استيرادها من الخارج بأن تستبدل بمواد اخرى يمكن انتاجها في المانيا. وتحقيقاً لذلك أخذت المواد البديلة او الأعواض مكان الحديد وغيره من المعادن فزاد انتاج الألومنيوم والمغنيسيوم والحديد وجميعها أصناف خسيسة النوع تنتج في داخل ألمانيا نفسها

وحل المطاط الصناعي محل المطاط الطبيعي. واستعيض بالألياف الصناعية عن القطن والصوف وابتكر البنزين الصناعي... الخ. كما فرضت رقابة شديدة على الزراعة وأصبح الزارع غير مسير بالاعتبارات الاقتصادية البحتة التي أخصها السعي الى جني أقصى سعر ممكن لمحصوله. ولكنهُ غدا خاضعاً لمشيئة الحكومة التي حتمت عليه زراعة أصناف معينة والعدول عن اصناف اخرى. وفرضت اسعاراً تحكمية للانتاج الزراعي. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أعطى المستهلك الالماني قائمة معينة من الأصناف الغذائية عليه أن لا يتعداها. ولقد كانت الغاية النهائية للحكومة من ذلك كله التخفيف من حدة الحصار البريطاني الذي يطبق على المانيا عند دخولها الحرب. ولكي تنجح الحكومة الألمانية في تطبيق نظامها الخاص بالاستكفاء الاقتصادي فرضت رقابة شديدة للغاية على تجارتها الخارجية لمنع العوامل الخارجية من ان تأخذ مكانها في الاقتصاد الالماني. فأصبحت الواردات والصادرات خاضعة لسلطان الحكومة واشرافها. كما وضعت قيود شديدة على خروج الأموال ولا سيما العملة الأجنبية من البلاد

وكان لهذه الاجراءات صداها في بقية انحاء العالم. فنشطت دول شرق اوربا خاصة الى مجاراة الاقتصادين الألماني والايطالي فأضاف كل منها اجراءات جديدة جعلت التجارة الدولية ترسف في الأغلال مما حملها اعباء ناءت بها وضاقت بها ذرعاً. وقام العالم على قدم وساق يكثر من انتاج السلاح ويوجّه اهتمامه نحو هذه الغاية، تاركاً خلف ظهرانيه الانتاج الحقيقي الحري باهتمامه والخليق بجهده الذي يوفر للناس الطمأنينة والهناءة الاقتصادية وهما الغاية الأخيرة لكل حكومة عاقلة رشيدة

وهكذا تحول مجرى الأمور الاقتصادية فبعد ان كان القصد التخلص من مخلفات الازمة الاقتصادية، غدا الحرب طابع الاقتصاد الغالب عليه. وظهر جليًّا — بفعل اقتصاديات الحرب — ان فكرة المزايا النسبية كأساس تقوم عليه التجارة الدولية قد أصبحت امراً لا يتلاءم مع الحالة التي تسيطر على مصائر الأمم والشعوب في الوقت الحاضر. وبذلك غدا قطر ما مثل (ا) لا يزرع أكثر الاشياء صلاحية لأرضه ولكنهُ يزرع ما يمكنهُ من استيراد أقل قدر مستطاع، وآخر مثل (ب) لا يصنع ما هو كفء لصنعه ولكن ما يمكن صنعه من مواده المحلية كائناً ما كانت صلاحيتها لذلك

٦ — النتائج الاقتصادية المحتملة للحرب الحاضرة

على هدى الحوادث الاقتصادية التي ألمت بالعالم بعيد الحرب الماضية ١٩١٤ — ١٩١٨ وعلى ضوء التفسير الذي أوردناه لتطور العالم الاقتصادي، يمكن استخلاص النتائج التي ستسفر عنها الحوادث الحاضرة

فأولى النتائج التي ستتمخض عنها هذه الحرب ، كبر الوحدة السياسية . اذ ستعمل الدول الصغيرة على الانضمام بعضها الى بعض أو الى الدول الكبيرة بأي شكل من الاشكال السياسية المرونة حماية لانفسها من عاديات المستقبل . وسيتبع هذا بالتالي ازالة كثير من الحواجز الجمركية التي كانت كل دولة تقيمها على حدودها والتي كانت عاملاً ذا شأن في زيادة حدة الأزمات الاقتصادية والمالية منذ الحرب الماضية . فكثرة الدول الصغيرة أقامت حوائل متعددة أمام التبادل وكان كل منها يتفنن في ابتكار شتى العقبات والموانع التي لم يكن لها من أثر سوى اضافة القيود والاغلال الى الاستبدال الدولي . وقد تعود فكرة الولايات المتحدة الأوربية الى الظهور أو على الأقل ينشأ في أوربا نوع من الاتحاد الجمركي تراعى فيه مصالح الوحدات السياسية مع عدم الاخلال بمصلحة المجموعة ومع مراعاة التخصص الحقيقي لكل وحدة . وقد ينشأ مثل هذا الاتحاد بين القارتين الأميركيتين الشمالية وهي صناعية في الغالب ، والجنوبية وهي زراعية في الغالب . هذا وسيكون من نتيجة هذه الحرب زيادة توثيق العلاقات الاقتصادية بين أجزاء مجموعة الامبراطورية البريطانية ، وقد كانت اتفاقات اوتاوى خطوة موفقة نحو ذلك. واذا كانت الحرب الماضية قد أوجدت أقطاراً عربية مستقلة فلا ريب في أن هذه الحرب ستعزز استقلال الاقطار فضلاً عن استقلال بلاد عربية أخرى وستنشىء الحرب شعوراً بالحاجة الى التكاتف والتعاون بينها ولا يستغرب ان ينشأ فيما بينها اتحاد اقتصادي تجني من ورائه أشهى الثمرات وتعزز تقدمها ونهوضها

ولما كانت الحرب الماضية قد خلقت صناعات في كثير من الامم التي كانت الزراعة الصفة الغالبة على اقتصادها ، فان هذه الحرب أيضاً ستكون عاملاً حاسماً في تعزيز الصناعة في هذه البلاد وأخصها بالذكر مصر والهند واستراليا والصين . فان توقف المنافسة الاميركية والاوربية سيتيح لها التقدم حتى تستكمل أسباب نهوضها الصناعي

ولقد أصبحت استراليا اليوم مركزاً صناعيًّا ممتازاً للامبراطورية البريطانية لانتاج معدات الحرب وغيرها . ومصر الآن تخطو خطوات موفقة للغاية نحو استكمال نهوضها الصناعي ولن يمضي وقت قليل حتى تكفي صناعة الغزل والنسيج ، وهي أهم صناعات البلاد اليوم ، حاجات القطر الى المنسوجات وتصبح على استعداد للتصدير الى الاقطار العربية المجاورة ، والمثل يقال عن الصناعات الاخرى التي تستمد الجزء الاكبر من خاماتها من القطر نفسه وتشمل الجانب الاعظم من الصناعة المصرية . أما الهند فان مواردها العظيمة من المواد الأولية وتوفر الأيدي العاملة فيها مع رخصها يتيح لها أن تكون دولة صناعية من أعظم دول الارض وهي الآن أيضاً من المراكز الصناعية العظيمة في الامبراطورية البريطانية . والمثل يقال في الصين

وتثير الحرب الحاضرة التفكير في مستقبل الذهب كمعيار للقيمة . فقد ابث الذهب حيناً من الدهر يؤدي وظيفته في الحياة الاقتصادية على خير سبيل حتى كانت الحرب الماضية ثم الأزمات المالية والاقتصادية وتتابع المشكلات السياسية فعجز معها الذهب عن ان يقوم بمهمته الخطيرة في الحياة الاقتصادية . . فلقد نشأ عن الديون بين الحكومات وهي ديون الحرب والتعويضات سوء توزيع الذهب في العالم وتركزه في دولتين كبيرتين دائنتين هما فرنسا والولايات المتحدة ، فنجم عن ذلك ندرة الذهب في الممالك الأخرى وارتفاع ثمنه ونقص ثمن السلع تبعاً لذلك . فحفز هذا الأمر الدول الأخرى الى الحد من وارداتها لمعادلة ميزان مدفوعاتها من جهة وللحيلولة دون انهيار نظمها النقدية من جهة أخرى . ولقد أخذ الذهب يتدفق على الولايات المتحدة بصفة خاصة منذ ما اضطرب جو السياسة العالمية . فبعد ان كان دخول الذهب وخروجه خاضعاً لمقتضيات التبادل التجاري الدولي الصرف الى عام ١٩٣٤ بدأ في ذلك العام يتدفق الذهب على الولايات المتحدة تدفقاً كان مبعثهُ اضطراب أحوال اوربا السياسية بعد تولي النازي أزمة الحكم . فبينما بلغت قيمة الصادر من الذهب (أي ما خرج من المعدن من البلاد) ٣٦٧ مليون دولار والوارد اليها (أي ما دخل الى البلاد ١٩٣ مليون دولار) ، ظلت هذه الظاهرة في اطراد حتى بلغت قيمة كل من الصـادر والوارد في عام ١٩٣٨ نحو خمسة ملايين دولار و١٩٧٩ دولار على التوالي

وليس هذا القدر من الذهب نتيجة لحركة الذعر السائدة في أوربا فحسب، بل هو ناجم أيضاً عن تسديد أثمان بضائع اشترتها أوربا من أميركا تطبيقاً لمبدأ Cash and Carry الذي يعمل بهِ الأميركيون . فهم يرفضون فتح اعتمادات لأوربا ويصرون على تقاضي اثمان ماتشتريه دولها نقداً مع توليها هي مهمة النقل . وعلى ذلك كلما اشتدت حاجة الدول المتحاربة وغيرها الى السلع والخدمات الاميركية زاد تدفق الذهب على الولايات المتحدة . وهذا فضلاً عن بقاء الميزان التجاري من صالح اميركا باستمرار . مما يعمل على تدفق الذهب عليها . ولا نكون مغالين اذا قدرنا مجموع الموجود من الذهب في اميركا بثلاثة ارباع الرصيد العالمي منهُ وهذه نسبة مخيفة حقـا . وهذا القدر من الذهب يزيد كثيراً عن حاجة التداول الداخلي للولايات المتحدة وهي ان أخرجتهُ الى التداول سيعمل على رفع الأثمان فيها مما يقضي على تجارة صادراتها . فلا مناص اذاً من ابقائه عطلاً من المنفعة في أقبية مصارفها . فما هي خطة الولايات المتحدة في هذا الصدد ؟ وهل ينصرف العالم عن اتخاذ الذهب كمعيار للقيمة فيتخذ معياراً جديداً او يتجه الى طريقة المقايضة على أي شكل من الأشكال ؟ وهل يكون في هذا الاتجاه زيادة نفع التجارة الدولية او ضمورها ؟ هذه أسئلة نترك للمستقبل الاجابة عليها . وانهُ وان كان قيام الصناعة في

كثير من البلاد التي كانت الزراعة السمة الغالبة على اقتصادها ، سيعمل على سلب البلاد الصناعية العريقة كثيراً من احتكارها السابق ، الا انه يقابل هذا من الجهة الأخرى ارتفاع مستوى حياة الشعوب في هذه البلاد الزراعية التي قامت الصناعة فيها ولا سيما البلاد الكثيفة السكان والمنحطة في مستوى المعيشة كالهند والصين. فهذا الارتفاع في مستوى الحياة يحفز هذه الشعوب الى الاقبال على منتجات الصناعة الرفيعة التي تتخصص فيها الدول الصناعية القديمة . فليس نشوء الصناعة الى جانب الزراعة في دولة ما وارتقاء مستوى حياة شعبها تبعاً لذلك بمانع الدولة من المساهمة في التجارة الدولية بنصيب أوفر مما كانت عليه بشرط ان تستند الصناعة في هذا البلد الى أسس صحيحة من توفر الأيدي العاملة والمواد الأولية اللازمة. ويعزز ارتفاع مستوى معيشة الشعوب عامة ما ينتظر بعد هذه الحرب من انتشار الديمقراطية الاقتصادية الى جانب الديمقراطية السياسية ، وبالتالي تضييق الهوة القائمة بين الأغنياء والفقراء فتقوى الطبقة المتوسطة التي هي العمود الفقري لكل نظام اقتصادي أو سياسي مستقر

الخلاصة

نخلص مما تقدم الى القول ان ثمة عوامل بعد هذه الحرب — تعمل على تضييق نطاق الاستبدال الدولي عمادها كبر الوحدة السياسية وما ينتج عنه من زيادة التبادل الداخلي على حساب التبادل الخارجي، كما ان الغاء الذهب واستخدام طريقة المقايضة في الاستبدال الدولي لو صح هذا كما يتوقعه كثير من الاقتصاديين — يعمل هو أيضاً على ضمور حجم التجارة الدولية

بيد انه يقابل هذا من الجهة الأخرى ان نشوء الاتحادات الجمركية بين كثير من الدول — كما بينا — يقوي نزعة التخصص الدولي الحقيقية فيعمل هذا على امتداد التجارة الدولية . ولا ريب ان العالم وقد قاسى ما قاسى من آلام هذه الحرب وعانى ما عانى من تقييد حرية التجارة يحفز أقطابه الى التكاتف والتعاون لايجاد الاستقرار الاقتصادي المنشود . وبذلك قد يتفق العالم على تخفيف حدة القيود الجمركية القائمة الآن . وان يتفق هذا مع القضاء على ضروب شتى من موانع التجارة غير المباشرة كالاجراءات الصحية والادارية التي لا مبرر لها . وأهم من هذا كله الغاء نظام الحصص هذا النظام الذي يعتبر من أعظم العقبات وأمنعها التي منيت بها التجارة الدولية في العصر الحديث

بيد ان هذا كله يتوقف على عودة الاستقرار السياسي الى ربوع العالم وان تنظر كل دولة الى الدول الأخرى كأنها أعضاء في المجتمع الانساني يعتمد رخاؤها وتقدمها قبل كل شيء آخر على رخاء العالم وتقدمه . ويعتبر العالم — كقول النبي عليه الصلاة والسلام — جسم واحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى

من مذكرات دزرائيلي

عن

محمد علي الكبير

[أشرنا في مقتطف فبراير الماضي الى الكتاب النفيس الذي وضعه الاستاذ الكسندر الحامي في الدستور البريطاني ونظام الحكم في مجموعة الامم البريطانية ونقله الى العربية المرحوم الاستاذ الهمشري والدكتور ابو طائلة والاستاذ محمد بدران والاستاذ يوسف الريدي وقد استوقف نظرنا في الصفحتين ٥ — ٦ الفقرة التالية فنقلناها بحروفها]

إني أذكر ما كتبهُ دزرائيلي في مذكراتهِ عن حديث له بالقاهرة مع محمد علي الكبير سنة ١٨٣٤ . وسأتلو عليكم مقتطفات من تلك المذكرات عن محمد علي واليكم أولها :

« بينما كنت أجول في حدائق قصره بشبرا صادفته فجأة بعد ظهر أحد الايام ، وكان يحيط بهِ طائفة من رجال بلاطهِ في أزهى ملابسهم ، وأخص بالذكر منهم الخصيان السود في ثيابهم الذهبية والقرمزية راكبين جياداً بيضاً . وهممت أن انسحب ولكن أحد كبار اتباعهِ تناول ذراعي وقادني الى تلك الدائرة وقال لي : أن الباشا شديد الحب للانكليز وكان سموه يلعب الشطرنج مع سميره فرأيت منظراً عجيباً جداً . ومكثت نحو ربع ساعة ، وقيل لي إني لو بقيت الى نهاية اللعبة لتحدث معي ، ولكني لم يكن معي مترجم ، وأنا واثق أيضاً أنهُ كان في مثل موقفي ، ولذا آثرت أن أنحني منصرفاً

وجرت بعدئذٍ مقابلة ثانية ونال دزرائيلي شرف استشارته في مشروع كان سموه يدرسه لادخال الأنظمة الدستورية في بلاده . وقد بين دزرائيلي الصعاب المباشرة التي خطرت لهُ ، وكان الباشا يصغي اليهِ صامتاً وفي الاستقبال التالي حيى دزرائيلي بابتسامة رضا وأومأ اليهِ كي يتقدم . وإليكم الكلمات التي قالها محمد علي كما أوردها دزرائيلي في مذكراته : قال له محمد علي « الله اكبر . إنك رجل حكيم . الله كريم . وإن اللآلىء لتخرج من فيك . ومع هذا سيكون لي برلمان وسيكون عندي من مجالس النواب مثل ما عند ملك انكلترا نفسهِ . أنظر هاهنا . وأخرج سموه كشفين بهما اسماء ثم قال . « هؤلاء هم نوابي . ولكني عزمت أن انتخبهم بنفسي لأتفادى المتاعب »

هدية المقتطف

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور
نقلها الى العربية : كامل محمود حبيب

— الجزء الثالث —



قد أكمل

نجيب شاهين

قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ٦١ —

إنها مازالت طفلة ، ياسيدي

فهي تطوّف بجنبات قصرك بغية اللعب ، وهي تطمع في أن تجعلك أنت بعض لعبها

وليس يعنيها أن يتشعث شعرها أو أن يتترب ثوبها

إن النوم يسيطر عليها وأنت تحدثها فلا ترد جواباً . . . ثم تسقط من يدها الزهرة التي حبوتها بها أول النهار . . . تسقط فتتعفر

وحين تنفجر العاصفة من ضمير الغسق ، تهب هي من مرقدها لتفزع اليك في خوف تاركة لعبها متناثرة على الأرض

وهي تخشى أن تخفق في أداء خدماتك

ولكنك ترقبها وهي بين ألاعيبها وعلى شفتيك ابتسامة

فأنت تعرفها

لأن الطفلة التي تجلس الآن على الثرى هي عرسك المنتظرة ، وإن عبثها سيستقر ثم يدلف في عمق الى الحب

— ٦٢ —

أفليس هناك مايمسكك ، أيتها الشمس ، غير السماء ؟

إن قطرة الندى تبكي وهي تناجيك « إنني أحلم بك ، غير أن لاسبيل الى أن أصبح خادمك ، فأنا صغيرة لا أستطيع أن أضمك الي ، أيتها الشمس العظيمة ، لهذا فحياتي كلها عبرات »

فأجابتها الشمس « إنني أملأ الفضاء اللانهائي نوراً ، ولكنني أستطيع أن أضع نفسي في قطرة الندى الضئيلة ، اذ ذاك أستحيل الى شعاع من نور يملؤك فتصبح حياتك الصغيرة كالفلك الضاحك »

— ٦٣ —

لست أبتغي الحب الذي لايخضع لقيد ، فيكون كفقورة الخمر تجتاح إناءها في لحظة لتنطلق هي الى الفناء بل أحبني حبًّا بارداً نقيًّا كأنهُ الغيث ينهمل ليشفي صدى الأرض ويفعم الجرار الارضية

أحبني حبًّا يتغلغل في ضمير الخلق ثم ينتشر من هناك كأنهُ العصارة الخفية التي تسري خلال فروع الاشجار فتنبعث حياة تلد الزهرة والفاكهة

أحبني الحب الذي ينفث في القلب القرار والسلام

— ٦٤ —

لقد غربت الشمس عند شاطىء النهر الغربي ، بين أشجار الغابة المتعانقة

فعاد الاطفال الناسكون الى الدور يسوقون قطعانهم ، ثم جلسوا حول الموقد يستمعون الى الأب جايوتاما . . . حينذاك أقبل صبي غريب فحياه بالفاكهة والزهور وانحنى حتى كاد وجهه يمس قدمي الأب ، ثم راح يحدثه في صوت كتغريد الطير

« لقد أتيتك أريد أن أسير على نهج الحقيقة السامية

وإن اسمي هو ساتيا كاما »

* * *

فقال الأب « لتهطل البركات عليك

ومن أي القبائل أنت يابنيّ ؟ إن البراهميين وحدهم هم الذين يتدافعون في إثر الحكمة البالغة »

فأجاب الصبي « لست أدري من أي القبائل أنا ، ياسيدي . غير إني سأرجع لأسأل أمي »

ثم انطلق ساتيا كاما عبر القناة الضحلة ، وارتدَّ الى كوخ أمهِ ، على حافة القرية النائمة ، بين الرمال الجرداء

لقد كان المصباح يرسل شعاعاً ضئيلاً في جنبات الحجرة ، والأم جالسة لدى الباب . في ظلام الليل تنتظر عودة ابنها

* * *

لقد ضمتهُ اليها ، وقبلت شعره ، وسألتهُ عن رسالتِه الى سيده

فقال الصبي « من أبي ، يا أمي العزيزة ؟ »

« لقد قال الأب جايو تاما : إن البراهميين وحدهم هم الذين يتداولون في إثر الحكمةَ البالغة »

فأطرقت الأم وقالت في همس

« في سني شبابي كنت فقيرة وكان لي أسياد كثيرون ، ثم أتيت أنت ياعزيزي الى ذراعيْ أمك جابيلا التي لم تتزوج قط »

* * *

ثم . . . ثم أرسلت الشمس الباكرة أول شعاع من أشعتها يلمع لدى رءوس أشجار الغابة

والتلاميذ جلوس تحت الشجرة العتيقة أمام سيدهم ، وشعورهم ماتبرح ندية من أثر حمام الصباح

حينذاك أقبل ساتيا كاما

فانحنى حتى كاد وجهه يمس قدمي الأب وجلس في صمت

فسأله الأستاذ الأعظم « خبّرني ، من أي القبائل أنت ؟ »

فأجابهُ « لست أدري ، يا سيدي . لقد سألت أمي فقالت : في سني شبابي خدمتُ ناساً كثيرين ، فأتيت أنت إلى ذراعي أمك جابيلا التي لم تتزوج قط »

فعلت زمجرة كما طنّ نحل تريد أن تعلن عن غضبها لان شيئاً يزعجها في خليتها

وأرجف التلاميذ يتحدثون عن قحة هذا الخليع الذي لا يخجل

غير ان الأب جايو تاما هبَّ من مجلسه وفتح ذراعيه يضم الصبي إلى صدره وهو يقول « أنت خير مَنْ في البراهميين ، يا بنيّ . لانك حُزْتَ أشرف ميراث من الحقيقة »

— ٦٥ —

لعلَّ داراً واحدة في هذه المدينة هي التي انفتح بابها ـ هذا الصباح ـ إلى الأبد ، عند أول لمسة من لمسات الشروق ، حيث تمت رسالات النور

لقد تفتحت الأزهار على الأسوار وفي البساتين ، ولعلَّ قلباً واحداً هو الذي لمس فيها — هذا الصباح — معنى الهدية المنطلقة في رحلتها آتية من ضمير الزمان اللانهائي

— ٦٦ —

« تسمَّع — يا قلبي — فإن في نايه موسيقا كأنها تنبعث من عطر الزهور البرية، ومن لمعات اوراق الشجر ، و من تألقات الماء ، ومن أجنحة النحل الطنانة
إن الناي يختلس بسماته من على شفتي صاحبي لينفثها في نواحي حياتي

— ٦٧ —

إنك تقف ـ دائماً ـ وحدك ، في منأى عن مسرى أغانيّ
وإن أمواج أنغامي تغسل قدميك ، غير أني أعجز عن أن أبلغهما
وهذه القصة ، قصتي معك ، هي قصة الأزل
إنها آلام البعاد التي تذوب في نابي فتحور لحناً
على حين انتظر الساعة التي يعبر فيها زورقك الى شاطئي فتأخذ نايي بين يديك

— ٦٨ —

على حين بغتة انفتحت ثغرة في قلبي ... الثغرة التي تطل صوب قلبك
وعجبتُ أن رأيتُ الاسم الذي تعرفني بهِ قد خُطَّ على أوراق أشجار ابريل وأزهاره ، فجلستُ في صمت
وفي لحظة من زمان أزيحت الأستار التي بين أغانيَّ وبينك
فألفيت نور صباحك يزدحم بألحان أغنيات صامتة لم توقَّع بعد ، وتراءى لي أني سأتعلمها لدى قدميك ... فجلست في صمت

— ٦٩ —

إنك كنت بين ثنايا قلبي ، لهذا عجز قلبي عن ان يجدك حين انطلق يفتش عنك . لقد واريت نفسك ـ أبداً ـ عن حبي وأملي لأنك كنت دائماً فيهما
وكنت اللذة العظمى في قصة شبابي ، وحين جذبتني القصة اليها كاد عقد اللذاذات ينتثر
ولقد غنيت لي في خلسات من حياتي ، ونسيت أنا ان أغني لك

— ٧٠ —

حين تمسك بمصباحك في السماء يسقط شعاعه على وجهي فينعكس اليك

وحين أمسك أنا بمصباح حبي الثاوي في قرارة قلبي ، يسقط شعاعه عليك ، وأظل أنا - من وراء - واقفاً في الظلماء

— ٧١ —

أيتها الأمواج ، يا من تبتلعين السماء ، وتلمعين بالنور ، وتتراقصين بالحياة ، يا موجات الطرب الفوّار اللاتي تتدافعنَ الى اللانهاية

إن الكواكب تضطرب على صفحاتك ، وان فنوناً من الخواطر تنبعث من قاعك لتنتشر على شاطىء الحياة

وإن الميلاد والفناء يسموان ويهبطان على نغماتك ، وان طير قلبي البحري ينشر جناحيه ويصيح في فرحة

— ٧٢ —

لقد أقبل المرح من كل فج ليساهم في بناء روحي

وهفت أنوار السماء تقبلها مرة ومرة حتى هبت من سباتها

وراحت زهرات الصيف الباكرة تئن لدى أنفاسها ، وترنمت هبات النسيم وخرير الماء على خطواتها

وفاض هوى ألوان السحب والغابة . . . فاض على حياتها ، وأقبلت موسيقا الأشياء تعانق أطرافها

لأنها هي عرسي ... عرسي التي أنارت داري بمصباحها

— ٧٣ —

إن روح الربيع وأوراقه وأزهاره تتغلغل جميعاً في جسمي

وان النحل لتطنّ هناك طوال أيام الصباح،وان الرياح لتداعب الظلالَ

* * *

إن نبعاً جميلاً يتدفق من ضمير قلبي

وإن عينيّ يغسلهما المرح وكأنه أنداء الصباح، وان الحياة لتضطرب في أطرافي كما اضطرب وتر القيثار المترنم

* * *

أفأنت تجول — وحدك — على شاطىء حياتي ، حيث المد في فيضانه ... أنت يا حبيب أيامي الأبدية ؟

أفترف أحلامي حواليك كأنها الفراشات ذوات الأجنحة الملونة ؟
ثم أفتتجاوب أغانيك في مجاهل خَلقي المظلم ؟

* * *

مَنْ سواك يستطيع اليوم ان يسمع دوي الساعات المتدافعة في عروقي ، أو ان يسمع خطوات الطرب وهي تتراقص في صدري ، أو ان يسمع صرخات الحياة وهي تضرب بأجنحتها في جسمي ؟

— ٧٤ —

لقد انبتت وشائجي ، ووفى ديني ، وانغلق بابي ، لأنطلق الى حيث أشاء

أنهم يلصقون بجحورهم يحيكون خيوط الساعات الذاوية ، يحصون ثراءهم وهم جلوس على الثرى ، وينادونني

غير أن سيفي كان مسلولاً ، ولأمتي كانت كاملة ، وحصاني كان في شغف لأن ينطلق

وأنا ... سأفوز بملكي

— ٧٥ —

انه كان يوم ان هبطتُ الى أرضك عارياً في غير اسم ، أصيح صيحة المكروب

والآن ها هو صوتي تجلجل في فرح ، في حين انتحيت أنت — ياسيدي — ناحية لتذرني أفعم حياتي

* * *

وأنا أجد في نفسي أملاً خفيًّا يحدثني بأن الناس سينا كفونني لأنني أقدم لك أغانيَّ قرباناً

وأنت تريد أن تكشف عمَّا أحمل لهذه الدنيا في قلبي من هوى ... هذه الدنيا التي دفعتني أنت اليها

— ٧٦ —

لقد كنت أقبع — فرقاً — تحت ظلال الأمان ، والآن ، حين حمل فيض سرور قلبي على آذيِّه ، اندفع قلبي الى صخرة المصاعب الجاسية

وكنت أجلس في ركن داري وفي رأيي انها لا تسع الضيف ، والآن ، حين

انفتح بابها على مصراعيه في مرح لانهائي ، الفيت أنها تسعك وتسع كل هذا العالم

وكنت أمشي الهوينى ، مترفقاً بنفسي وهي تتأنق في عطرها وزينتها ، والآن ، حين اقتلعتني عاصفة الطرب لتلقي بي على الثرى ، ضحكت وأنا اتدحرج على الأرض — كالطفل — عند قدميك

— ٧٧ —

إن العالم ملكك الآن وإلى الأبد

غير أنك لا تستشعر اللذة في ملكك ، يا مليكي ، لأنك في غير حاجة

إنه أمامك كأنه لا شيء

وخلال دبيب الزمان نزلت لي عن بعض ملكك لتجد ريحه فيّ

وعلى مرّ الأيام رحت تشتري شروق الشمس من قلبي ، ثم وجدتَ حبك ينغرس في ثواء حياتي

— ٧٨ —

أنت حبوت الطير الغناء فتغنى لك

وحبوتني الصوت ثم طلبت إليّ المزيد فغنيتُ

وخلقت رياحك هينة فانطلقت على مهل ، ولكنك حمّلت يديّ ثقلاً عسى أن أخفف أنا عنهما ، وأن أظفر — أخيراً — بالحرية الطليقة التي تستحق أن نقوم بخدماتك

ثم خلقت أرضك ونثرت بين ظلامها نفثات من نور

ثم خصصتها بنظرات منك ، وتركتني على الثرى خاوي الوفاض لأنشيء أنا سماءك

وأعطيت خلقك ثم طلبت مني

لقد نضج غرس حياتي تحت الشمس والغيث لأحصد أكثر مما زرعت أنت ليطرب قلبك ، يا إله الأهراء الذهبية

— ٧٩ —

لا تدعني أدعوك لأجد الأمان من الخطر ، بل لأجد القوة على مجالدته

لا تدعني أسأل البرء من آلامي ، بل العزم على مصارعتها

لا تدعني أركن الى العون في معركة الحياة ، بل دعني أعتمد على قوتي أنا

لا تدعني أتوسل في فزع عَلَّني أبلغ النجاة، بل صب عليَّ الأمل فأظفر بالحرية واسبغ عليَّ فضلاً يستلُّ مني الجبن ... الجبن الذي يشعرني رحمتك في فوزي فقط . فضلاً يدعني أحس لمساتك في إخفاقي أيضاً

—٨٠—

إنك لا تستطيع ان تعرف نفسك وأنت في عزلة لا تسمع من خلالها صيحات الرسالة التي تنطلق على جناحي الريح مندفعة من شاطىء الى شاطىء

حين أقبلتُ والسماء تشرق بالنور ، استيقظت أنت

وجعلتني أتفتح عن أزهار كثيرة ، ثم هدهدتني في مهود مختلفات ، وواريتني بين طيات الفناء ثم بعثتني حيًّا

***

لقد أقبلتُ وقلبك يضطرب ، والألم والسرور يتنازعانه

فلمستني لأجد مَسَّ الحب

غير أن غشاوة من خجل كانت قد حجبت بصري ، ورعدة من فزع كانت قد رانت على قلبي ، فانتقبتُ ثم بكيتُ لأنني لم أرك

والآن عرفت في قلبك الظمأ اللانهائي لرؤيتي ... الظمأ الذي يصيح لدى بابي كلما قرعته أشعة الشمس المشرقة ،

— ٨١ —

أنت ، في ساعتك اللازمنية ، تتسمع لخطواتي الدانية ، على حين أن فرحتك تتجمع عند أول لمعة من لمعات الصباح ثم تتحطم عند شروق النور

وكلما دنوتُ منك كلما بدت الحماسة في رقصة البحر

إن عالمك شُعب من ضوء تفعم يديك ، ولكن سماءك في أضعاف قلبي ، وإن أكمامه لتتفتح — في بطء — عن هوى دفين

— ٨٢—

سأسبح بحمدك وأنا جالس وحدي بين أشباح خواطري الصامتة

سأسبح بحمدك في غير كلام وفي غير حاجة

لأني كالطفل ينادي أمه مرات ومرات ، لأنهُ يطرب حين يقول « يا أماه »

—٨٣—

١

إنني أشعر كأن كل النجوم تشرق في نفسي
وكأن الدنيا تتسرب في حياتي كالفيضان
وكأن الزهور تتفتح في جسمي
وكأن شباب الأرض والبحر ينفح عطره في قلبي ، وأنفاس كل شيء تعزف أنغامها على خواطري كأنها القيثار

٢

حين تغفو الأرض أهفو أنا نحو بابك
وخشيت أن أغني لأن النجوم كانت صامتة
فلبثتُ أرقب حتى مرَّ طيفك عبْر الليل فرجعت وقد امتلأ قلبي
وعند الصباح وقفتُ على حيد الطريق أشدو
فردَّدت الأزهار نغمات أغاني ، وأصاخت لسمات الصباح تتسمع
وعلى حين فجأة ، وقف الركب يحدقون فيَّ ، وفي ظنهم أنني أناديهم

٣

اجعلني ألزم بابك لأهيء لك رغباتك ، ثم ذرني أجُسْ خلال ملكك لألبي نداءك
ولا تذرني اغتمر في أعماق الخمول فأتوارى
ولا تذر حياتي تتناثر بدداً في مجاهل الفراغ
ولا تذر هذه الشكوك تتناهبني ،.. فهي أم اللوثة
ولا ترسلني أضرب في شعاب الأرض لأقتني أشياء
ولا تدعني أطأطيء قلبي تحت كل نير
بل دعني أرفع رأسي في كبرياء من هو خادمك وفي شجاعته

— ٨٤ —

الملاحون

أفتسمع ضجة الموت تصّاعد من بعيد
إن الصيحة ترتفع من خلال ألسنة النار ومن سحب الدخان الخانق
... لقد أمر القائد صاحب السكان أن ييمم شطر الشاطىء المجهول
لأن الزمان قد انطوى - الزمان الساجي في الميناء -
حيث السلع القديمة تباع وتشرى على نمط لا ينتهي
حيث الاشياء الخاوية تنجرف بين فتور الحقيقة وخوائها

* * *

وعلى حين بغتة هبوا في فزع يتساءلون :
كم الساعة الآن ، يا رفاق ؟
متى يبزغ الفجر ؟
لقد طمست السحب على النجوم ...
فمن ذا عساه يتوضح لمعات النهار ؟
لقد تدافعوا يحملون مجاذيفهم، وخوى الفراش ، وراحت الأم تصلي ، وجلست الزوجة لدى الباب تنتظر
وأخذ عويل الفراق يسمو الى السماء
واخترق صوت القائد الظلماء يقول :
« تعالوا ، أيها الملاحون ، فالزمن في الميناء قد انطوى »

* * *

لقد فاضت الشرور السود — في هذا العالم — على شطآنها
فالآن ، خذوا أماكنكم ، أيها الملاحون ، وبركات الأسى تتدفق في أرواحكم
على من عساكم تعتبون ، أيها الاخوان ؟ احنوا رؤوسكم !
لأنها هي خطيئتكم وخطيئتنا
وان الغضب ليتسعر في قلب الله خلال الأجيال ...
إن جبن الضعيف ، وغطرسة القوي ، وجشع النعمة الوافية، واضطغان المعيب

وعز العشيرة ، والتعالي على الناس ...

كل أولئك قد فجّر من عفو الله عاصفة جياشة

* * *

دع العاصفة تحطم قلبها — كأنها غمد نبات نضج — ثم تتناثر الى رعد

وامنع هذا الفيض من الهجاء ومن مديح النفس

ثم انطلق الى الشاطىء المجهول وعلى جبينك أثر هدوء الصلاة الصامتة

* * *

لقد لمسنا الخطايا والشرور ، وعرفنا الموت

انها جميعاً تطوّف بأرضنا — كأنها النجوم — تسخر منا ، وإن الابتسامات العابرة لتلمع على شفاهها

وعلى حين غرة وقفت ثم استحالت مسخاً

فحقّ للناس ان يقفوا بازائها ويقولوا :

« اننا لا نخشاك ، أيها المسخ ! لأننا نحيا لنغزوك

ونحن نموت على دين ان السلام حق ، وان الخير حق ، وان الواحد الأبدي حق ! »

* * *

اذا لم يكن البقاء بين ثنايا الفناء

وإذا لم تشرق لمعات الحكمة الطروب من غمد الأحزان

وإذا لم تفن الخطيئة عند انتشار خبرها

واذا لم تتحطم الكبرياء تحت أعباء زخرفها

فمن أين يبزغ الأمل ... الأمل الذي يجذب الناس من ديارهم ـ كأنهم الشهب ـ ليتدافعوا الى نهايتهم تحت أنوار الصباح ؟

أفتضيع دماء الشهداء وعبرات الأمهات . . . أتضيع كلها بين طباق الثرى ثم لا تبتاع الجنة ؟

وحين يحطم الانسان قيوده الأرضية ، أفلا ينطلق اذ ذاك الى اللانهاية ؟

— ٨٥ —

نشيد الخيبة

لقد أمرني سيدي—وأنا في ناحية من الطريق — أن أغني نشيد الخيبة ، لأن عرسه التي تزوج منها خفية على الطريق

أنها تسدل خماراً أسود يواري قسمات وجهها عن الأعين ، غير ان حلاها كانت تسطع من على صدرها خلال الظلماء

لقد كانت نهارها مهجورة ، ولكن ليالي الله تنتظرها بالمصابيح المنيرة والأزاهير الندية

وهي مطرقة في صمت لأنها خلفت دارها من ورائها ، وان صوت نواح يصاعد منها ليلفها على بساط الريح

ولكن النجوم تترنم بأغاني الأبدية الحلوة لتبعث بها الى وجه جلله الخجل والضنا

والآن ، انفتح باب الحجرة الخالية ، وتعالى صوت ينادي ، واضطرب قلب الظلماء من خوف ، لأن ميعاد اللقيا قد حان

—٨٦—

الحمر

هؤلاء الذين تجرفهم الكبرياء في تيارها ، يسحقون بسطاء الناس تحت أرجلهم ويصبغون خضرة الأرض الجميلة بلون الدم الذي يلوّث أقدامهم

فدعهم في لعبهم يحمدوك ، يا الهي ، لأن الآن دولتهم

غير اني أحمدك كثيراً على أن جعلت حظي بين الطبقة السفلى ... بين الذين يقاسون شدة الحياة ويحملون عبء القوة ، ثم يوارون وجوههم ويخفون زفراتهم بين طيات الغسق

فغداً تكون دولتهم

فيأيتها الشمس ، أشرقي على القلوب الدامية لتتفتح عن زهرات الصباح ، ولتحور شعلة الكبرياء الى رماد

(انتهى بحمد الله) كامل محمود حبيب

قد أكمل

نجيب شاهين

كفنوا جسمي او لا تفعلوا   ان حولي من رجائي كفنا
وادفنوا قلبي أو لا تدفنوا   كَبُرَ الروحُ بهِ أن يدفنا

***

أخذت جدَّ البرايا آدماً   سِنةٌ أولها من قبل عاد
وترى رمسيس في ناووسهِ   سادراً يبقى الى يوم المعاد
ضجعة لا يشتكي صاحبها   قصر النوم ولا طول السهاد

***

ليتما يرجع من وادي الردى   مخبرٌ يخبر عما شاهدا
ينصر الله على اعدائهِ   وبروح الحق يأتي شاهدا
ان في الكون عدا ما نبتلي   ونرى بالعين ، كوناً خالدا

***

سرُّ هذا الموت قد حيرني   أنا منهُ بين شك ويقين
كلما فكرت أوهت ريبي   صخرَ ايماني والركن المتين
واذا نمت جفاني مضجعي   ورقادي وأبى عقلي السكون

***

قال تنيسون (١) قولاً صادقاً   يصف الايمان في مرثاتهِ(٢)
اننا نؤمن ما عشنا بمن   خاننا البرهان في اثباتهِ
انما آياتهُ ماثلة   بورك المولى على آياتهِ

***

أفذا آخر عهدي بالدنى   ليت شعري ومعانيها الغوالي
من بنين ازدانت الدور بهم   وبنات ثم أزواج ومال

---

(١) اللورد تنيسون شاعر العرش الانجليزي (٢) مرثاته المسماة In Memoriam

ورعابيب كما شاء الهوى وكؤوس أترعت بنت الدوالي

***

وثمار نضدت زوجين في كل غصن أثقلتهُ الثمرات
فشكا من ظلمها حتى انحنى فمبثنا بالقطوف الدانيات
او لقطنا بعض ما أسقطه ولكل منهُ أيدٍ لاقطات

***

أيها الناعي لنفس سفهاً كذب الناعي وإن صحّ الخبر
لم يمت من عاش في الله ولا عاش من أنكر آيات القدر
قد «قسمنا خطتينا بيننا» واحد آمن والثاني كفر

***

مالقلبي خافقاً ناقوسهُ وله دقٌّ كناقوس البيع
قد شكا طول المدى «لما نهُ» فلكم أنَّ ونادى وقرع
نم أخيراً يا فؤادي واسترح أنت بالراحة أولى من هجع

***

عظّم الله اذاً أجرك بي يا فؤادي وكذا أجري بكا
فلقد كنا رفيقي صبوةٍ في غرام ليَ منهُ مالكا
ذهب العشق وولى أهله كل من قد سرَّهُ او من بكى

***

كل حمل في الهوى حمّلتهُ أنا او أنت حملناهُ معا
كشريكين وفيين على الـــبذل والايثار حقّا طبعا
فلو أن الناس عاشوا مثلنا لرأيت الأرض روضاً ممرعا

***

فتى يهتف بي داعي الردى لسرًى يدعو اليه معجلا
ويناجيني مناجٍ قائلٌ يا أخا الدنيا ألا حيٌّ هلا
أجب الداعيَ لي مستبشراً قائلاً في طرب قد أكملا(٣)

(٣) كلمتان كانتا آخر ما لفظهما السيد المسيح قبلما لفظ روحه

باب المراسلة والمناظرة

خلد الماء أو « أنف الطير »
وكونه لا يمتّ الى البرمائيات

حضرة الفاضل رئيس تحرير المقتطف الأغر

بعد التحية : كان لي لمناسبة تعليقكم على كلمتي عن خلد الماء التي تفضلتم بنشرها في مقتطف فبراير بعنوان « أمن الزواحف هو أم من الثدييات أم هو بين بين » — أن أدلي برأيي ثانية لأزيد الموضوع وضوحاً فأقول : —

أولاً — لم أقصد بعبارة « وعندي أنهُ (أي خلد الماء) في الحقيقة هو وقنفذ النمل لا من هذه ولا من تلك الى آخر ما ذكرت » أن خلد الماء ليس من الزواحف وليس من الثدييات على الأطلاق كما تبادر لكم وانما بعد أن أوردت بادىء بدء ما يمتاز بهِ كل من الزواحف والثدييات النموذجية قصدت من ذلك إلى تبيان أن خلد الماء وان كان مندرجاً ضمن طائفة المسلكيات من الثدييات إلاَّ أنهُ لصفات في تشريح بعض عظامهِ وأعضائهِ الأخرى ولكونهِ يبيض بيضاً كبيراً غزير المح ذا قشور كل هذا يجعله مشتركاً في هذه الصفات مع الزواحف على الخصوص . هذا من جهة ومن جهة أخرى فهو على الرغم من أنهُ ثدبي إلاَّ أن متوسط حرارته يزيد قليلاً عن الدرجة ٢٥ سنتغراد بينما حرارة سائر الثدييات تكاد تكون ثابتة عند درجة ٣٩ سنتغراد (وان كانت حرارة الانسان تقل نحو درجتين عن أغلب الثدييات) فخلد الماء من هذه الناحية يختلف عن الثدييات النموذجية . هذا ولا يفوتني هنا أن أذكر أمرين مهمين في الثدييات اذا نظرنا اليهما نرى أن علماء الحيوان اضطروا الى ادراج المسلكيات التي يندر تحقق هذين الأمرين فيها ضمن الثدييات على مضض وهذان الأمران هما : —

١ — أن الفصوص البصرية (optic lobes) من المخ في الثدييات مقسومة انقساماً أفقيًّا مما كوَّن ما يعرف بالحدَبات التوأمية الأربع (Corpus quadrigemina)

٢ — وأنهُ يوجد في أذنها الداخلية شبه قوقعة ملفوفة لفًّا لولبيًّا

ثانياً — قلتم « وفي الحق ان خلد الماء لا يمت الى الزواحف والى الثدييات لا غير ، وإنما هو يمت أيضاً إلى البرمائيات (amphibia) إلى آخر ما ذكرتموه » وكل ما لفت نظري من ذلك هو قولكم « واذا قلنا إنهُ (أي خلد الماء) برمائي فذلك لانهُ يغشى الماء ويعيش في البر » الأمر الذي لا أتفق معكم فيهِ للسببين البارزين الآتيين :

١ — تمايز البرمائيات تمايزاً تامًّا عن الزواحف والثدييات من جهة وعن الاسماك من

جهة اخرى بالحقيقة الآتية : وهي ان البرمائيات في طور حياتها الأول (طور العَلَقة) تتنفس بالخياشيم حتى اذا أدركت سن البلوغ تلاشت خياشيمها وتكوَّن لها رئات تتنفس بها كما هو الحال في الضفادع وهذا هو اهم الأسباب المعتبرة عند علماء الحيوان لتعريف البرمائيات . فاذا جاز القول بأن خلد الماء برمائي لمجرد انه يغشى الماء ويعيش في البر لجاز لنفس السبب اعتبار التمساح من البرمائيات مع انه من الزواحف

٢ — إن طور العلقة الذي تقطعه البرمائيات في بدء حياتها معدوم في الزواحف والطيور والثدييات أو بالأحرى هي تقضي هذا الطور في البيضة أو في قناة البيض وتحتاج أجنتها في تنفسها الى جهاز خاص يعرف بالسَّلَى السُّجقي أو الألنتويس (allantois) ويكتنف كل جنين أيضاً احدى طبقات السَّلَى وتعرف بالأمنيون (amnion) . ولهذا السبب أطلق علماء الحيوان على طوائف الثدييات والطيور والزواحف اسم ذوات الأمونيون (amniota) بينما أطلقوا على الأسماك والبرمائيات اسم عديمة الأمنيون (anamniota) . فخلد الماء وهو من الثدييات لا يمت الى البرمائيات للاسباب التي ذكرت أخيراً

محمود مصطفى الدمياطي

المقتطف : لم يقصد بما قلنا سوى المثل لا غير للمقابلة . وفيما عدا ذلك نوافق الاستاذ على ما جاء في كلمته السديدة

هنري برجسون وعقيدته الدينية

صديقي الفاضل رئيس تحرير المقتطف الغراء

بعد التحية والسلام : قرأت في المقتطف الماضي مقال الاستاذ علي أدهم في الفيلسوف المرحوم هنري برجسون وفلسفته عدَّ فيه الفيلسوف الالماني آسوالد اشپنجلر صاحب كتاب « انحطاط الغرب » Untergang des Abendlandes والكتب المفيدة الأخرى يهوديًّا

وما أعرفهُ أنا بدراستي لفلسفته وأفكاره دراسة وافية هو أنهُ لم يكن يهوديًّا ديناً او نسلاً بل كان فيلسوفاً ذا بصيرة قوية وأفكار دقيقة وناقداً حرًّا مثل استاذه نيتشه . وقد اعترف في مقدمة كتابه المذكور بفضل طريق نقده في تكوين فلسفته وآرائه (راجع Untergang des Abendlandes Band I S. IX) كما قرر الاستاذ أوغست ميسر أستاذ الفلسفة بجامعة جيتزن في مصنفه « آسوالد اشبنجلر فيلسوفاً » Oswald Spengler als Philosoph أن فلسفتهُ ثمرة فلسفة نيتشه

غير اني حين قرأت مقال الاستاذ راجعت مصنفاته (ومعظمها عندي) والمراجع الالمانية الاخرى ولكني لم أهتد الى ما يؤيد قول الاستاذ . فاذا كان الاستاذ اعتمد في قوله المذكور على مرجع خاص فهل يتفضل ويذكر لنا ذلك المرجع على صفحات المقتطف خدمةً للعلم والحق

القاهرة السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي



مكتبة المقتطف

شعر الشبيبي

بمناسبة ظهور ديوانه الجديد

ظهر في سوق الأدب من زمن قريب ديوان لشاعر من شعراء العروبة الفحول ، الذين تذكرنا أنفاسهم القوية بأنفاس الشعر الأولى يوم أن كانت تماوج بأصدائه القوية جنبات « المجنة » و « عكاظ » . ولقد كتب المقتطف عن هذا الديوان الجديد في شهر دسمبر من العام الماضي كلمة لكاتب فاضل ، كانت بمثابة التعريف السريع به

والحق أن الكتابة عن شعر الشبيبي وزير معارف العراق سابقاً تحتاج الى أناة طويلة ، وصبر كثير ، وتحتاج الى قراءة عميقة للوصول الى أغوار هذا الديوان العميق في معناه ، الرصين في بنيته ، المشرق الوضاح في ديباجته . فليس شعر الشبيبي مما يتجمّل بالقراءة العابرة ، أو النظرة الخاطفة .. ولكنهُ شعر يتصل بتاريخ اليقظة القومية في بلاد العرب . ومن هنا جاءت قيمتهُ ، ومن هنا ايضاً استحق الشبيبي أن يقف صفاً الى صف مع أحرار العقيدة في الشرق العربي أولئك الأحرار الذين صحا الشرق على أصوات معازفهم الخالدة ، ومزاميرهم الباقية

والشبيبي في شعره مثل طيب لشاعر الأخلاق الأصيلة،ففي الكثير من أبياته عرض صالح لكثير من مكارم الخُلق، وهو في هذا غيرُ زائف النصح، ولا لابس مسوح الأخلاقيين،ولا متكلف غيرما في شيمته . وإنما هو عربي سمح النفس، سليم الفطرة، يتكلم عن تجربة،وينطق عن خبرة

وشعر الشبيبي ككل شعر غيره ، له معالم توضحه وتميزه وتجمله قائم الأعلام،واضح البرهان، متميز القوام ... وأول ما فيهِ من المعالم هو تحديد الغرض فيهِ تحديداً لا مجال فيهِ للبس ، ولا مكان فيه للغموض . ويتجلى ذلك في قراءة أولى لشعره . فهو واضح جلي ترى فيهِ كل معلم واضحاً ، وترى فيهِ كل هدف بيناً. ولا يحتاج الى اجهاد فكر أو اعمال رأي . أو اعنات قريحة لنفهم منهُ ماذا يريد أن يقول ، وماذا يود أن يرمي اليهِ وتاريخ الشبيبي نفسه هو صورة من هذه المعالم المحدودة ، فلقد كان وهو شاب مع رهط من شباب العراق (نفكر تارةً في رسم أهدافنا ، وطوراً في الوسائل التي توصلنا اليها) كما ذكر هو في مقدمة ديوانه صفحة ه

.... ثم ما هي الأهداف التي كان يرمي الشبيبي وشيعته ورهطه الى اصابتها ؟ وما هي الغايات التي كان يرمي اليها

لا بدَّ لدراسة هذه الأهداف وادراك هذه الغايات من دراسة مفصلة مسهبة لتاريخ العراق قبل الحرب العالمية الكبرى وأثناءها وبعدها. ولا بد من دراسة كلّ ظرف، والاحاطة بكل حَدَثٍ — دقَّ أو جَلَّ — من أحداث الزمان نحو العراق لنعرف البواعث القوية ، والدوافع القوية التي كانت تدفع الشبيبي الى الفيض بجدول يتدفع كاسيل العرم ويرتمي كالجلمود حطه السيل من علٍ ...

على أن الشبيبي نفسه قد أجمل هذه الأهداف المنشودة في الأسطر السبعة الأخيرة من مقدمة ديوانه — فقد تكون كما أحسن هو التعبير عنها — في جولة الشاعر في وجه من وجوه الأصلاح ، وقد تكون في ومضة تنير السبيل الحالكة ، أو صرخة تحيي العزائم الهامدة أو نفحة تبعث الرمم البالية وتنشر العظام النخرة . وذلك كله هو بعض رسالة الشاعر في الحياة

لقد عمل الشبيبي أميناً لبلوغ هذه الأهداف وتحقيق هذه المرامي، ثم غلبه التواضع فأنكر قيمة ما عمل، أو استصغر قدر ما أسدى. والله والحق يشهدان أن عمله جليل عظيم، وان أقل ما في نفحات هذا الشاعر انها وجهت الشرق الى الصحو بعد الرقاد ، وأن نصيبه لا يقل عن نصيب الجاهدين

***

سبق أن أشرت الى الناحية الخلقية في شعر الشبيبي ، وهي ظاهرة في الكثير من قصائده وقد ظهرت جلية واضحة في قصيدة عنوانها في سبيل الشرق نشرت سنة ١٩١٢ في مجلة الزهور المصرية ، وهي أولى قصائد الديوان وفيها يتنبأ للدولة العثمانية بالمصير الذي صارت اليه أثر الحرب الكبرى . وهي نبوءة تدل على ما في نظرات هذا الشاعر من الصدق . وتدل أيضاً على المامه الواسع بدراسة تاريخ الأمم دراسة مبنية على النظر العميق والبحث الدقيق . وفي هذه القصيدة بيت يعلي من قدر الأخلاق ويدل على مقامها في بناء الأمم . وهو

واذا اراد الله رقدة أمة — حتى تضيع — أضاعها أخلاقها

والفكرة في هذا البيت هي الفكرة في بيت المرحوم شوقي :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهي الفكرة في بيت شوقي الآخر :

وليس بعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا

ولهُ من قصيدة أخرى عنوانها العالم والمال صفحة ١١٩ هذه الأبيات : —

ورب منتصب كالبانة اعتدلت تختال طوع النعامى حيث تختال
مورد الوجنتين احمر لونهما كأن نفح أعاليهن جريال
ممثل للعيون الشاخصات له كأنه — جل صنع الله — تمثال
ينهل كالماء انجاباً برقته او كالكثيب كثيب الرمل ينهال
لا طيبات من الاخلاق ترفعه ولا علوم بحليهن أعمال

والبيت الأخير منها يذكر الطيبات من الخلق وأثرها في رفع الشخص وأعلاء شأنه .
ويقول في ص ٨٢

واذا لم تستقم أخلاقكم ذهب العلم ذهاب الزبد

والشبيبي لا يعني بالمظاهر الخارجية للشخص ، ولا يغتر بجمال الثياب وحسن البزة . وهو في هذا يتفق مع الشاعر عباس بن مرداس الذي يقول

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير

وكثيراً ما كرر الشبيبي هذا المعنى وأداره على نواح جميلة من القول . فهو يقول في صفحة ١٠٦

غير راقي النفس والروح فتى وضع الروح ورقى البدنا

ويقول في صفحة ١٩٩ : —

ورب أخلاق عاف رسم صورته كما عفت تحت مجرى الريح اطلال
يجلو مطالع تبدو وهي كالحة ويستجد بروداً وهي اسمال

***

وللشبيبي كثير من أبيات الحكمة ، التي لا تقل في صدقها وانطباقها على الحق عن حكم السابقين من الشعراء . ولقد زخرت حكمته من طول تجاربه وكثرة اختباراته ، ولقد أشار هو الى ذلك في قوله ص ١٢٤

مصاحبتي للاسود الغضاب تلتها مصاحبتي للحمل

فهو قد عرف الحالين ، وحلب من الدهر الشطرين . .

ومن حكمه قوله ص ١٢٤

وأقرب ما كان بدر السماء من النقص حين يقال اكتمل

وهو قريب من قول الشاعر

اذا تم شيء بدا نقصه توقع زوالا اذا قيل تم

ومن حكمه أيضاً قوله

تزول ظلال الخلق عنا سريعة ولله ظل فوقنا غير زائل

وهو قريب من قول الشاعر :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة لمن هو في ظل الحقيقة راقي
شخوص وأشباح تمر وتنقضي وتفنى جميعاً والمحرك باقي

ومن حكمه قوله ص ٦٣

أري غربة الانسان شتى صنوفها وأعظمها لقيان من لم يشاكل
وما كل ربع غص بالناس آهل اذا كان من معروفهم غير آهل
شكا الناس فقد المجملين وليتهم دروا ان ما نشكوه فقد المجامل

وقوله ص ٦٨ : لسان حال الرزايا قائل لمعي جد فياويل قوم جدهم لعب
وقوله ص ٧٠ : خيراً أرى لك ان أخاف لتأمني يا نفس من ان تأمني لتخافي
وقوله ص ٣٩ : اذا كاد أناى الناس عني كدته وان كاد أدنى الناس مني أعياني
وقوله ص ٤٣ : اذا لم يجئك الشعر عفواً تحامه وان لم يسعك الخلق لا تتخلق

والشبيبي شاعر مملوء بالتجديد والحركة ، يكره الجمود وينفر منهُ . ولكنهُ ليس تجديد الهادمين المتهورين ، ولكنهُ تجديد المتزنين الوئيدي الخطى . أشار الى ذلك في مقدمة ديوانه حيث يقول (كان في مقدمة العقبات الشاقة التي تواجهنا دائماً استفحال الجمود) . وما زال في معظم قصائده يدعو الى التجديد ، ويئس من نشدان القديم . فهو يقول في ص ٧٠

يا ناشدي الاثر الجديد استيئسوا من طول نشدان القديم العافي
بقي القديم ، وانما جددتم ضرباً من الاسماء والاوصاف

ويخاطب شباب الأمة العربية بقوله ص ٨٠

يا شباباً درسوا فاجتهدوا لينالوا غاية المجتهد
وعد الله بكم أوطانكم ولقد آن نجاز الموعد
أنتم جيل جديد خلقوا لعصور مقبلات جدد

فهو هنا يؤمن بالتطور والملاءمة بين الشباب وبين الجيل الذي يعيش فيهِ وفي ص٩٤ ينعي على الأمة العربية جمودها ووقوفها والدنيا سائرة حيث يقول : —

يا أمة من جهلها تأبى مجاراة الامم

أما الاجتماعيات فمبثوثة في ديوان الشبيبي . وليس ذلك غريباً عليهِ فقد نصب نفسه للاصلاح الاجتماعي وجعله واحد أهدافه . ولقد أفرد للاجتماعيات باباً خاصًّا في الديوان يزيد على عشرين صفحة ، والحق أني لم أفهم لذلك الأفراد معنى . فالديوان كله من ألفه الى يائه شعر اجتماعي من طراز عال ، وتظهر اجتماعياته في شعره السياسي كما تظهر في حكمه وأخلاقياته ووجدانياته

وهو حين يتكلم في الاجتماع أو النصيحة أو الحكمة فانما يستلهم قلبه وصدق إخلاصه ، حتى لترى ذلك موسوماً بهِ شعره . كما قال هو عن نفسه ص ٨٢

ليس هذا الشعر ما تروونه ان هذي قطع من كبدي

ويتجلى هذا الصدق في بيتين من قصيدة عنوانها (ألمامة الشعر) ص ٨٦

جار عن القصد لداني وقد أعرقت في مسراي أعراقا
أصدقنا حباً لأوطاننا أطيب من أنبتن أعراقا

فهذا الصدق في الحب الوطني هو نتيجة لازمة لصدق الشاعر في كل ما تعرض له من الشئون ، وهذا الصدق نفسه هو الذي جعله يصرح عما يراه من عيب في أمته ، ويجاهرها بأدوائها الضاربة في جسدها في غير مواربة أو ممالأة ، تلك الأدواء والعلل التي أدت — كما يقول في المقدمة — الى فساد نظم الحياة في العراق ، وحرمان اكثر أرجائهِ من نعمة الرفاه والطمأنينة ، ويتجلى صدق الشبيبي في الحب الوطني وصراحته في اظهار الأدواء في هذه الأبيات ص ٩٨

متى نتحرى الجد فيما نقوله وما نتمناه ونحن الى الهزل ؟
أترتفع الاقوام عنا مكانة ونحن ندير الطرف في عالم سفلي ؟
وللناس غايات كبار ترومها وليس لنا منها سوى الشرب والاكل
على العدل فلتبن الممالك ان بنت والا فما معنى البناء على الرمل ؟

وهو من أجل صلاح وطنه واصلاحه يبيت على الهم المقيم المقعد ، يتجافى جنبه عن كل

منضجر وينتقل من بلد الى بلد ، حتى لتضيق عليه رقعة بلاده ، فيكاد يضيق صدره فلا يجد له متنفساً الا انطلاق لسانه بمثل هذه الأبيات من صفحة ٣٦ : —

لم تخلقوا بأني الصدير بما بنى ومشيديه بما أتوه وشادوا —
لولا التفكر في مصير بلادكم تا لله ما ضاقت علي بلاد
اني أبيت لاجلها متململاً قلق الوساد وما لدي وساد
أضدادكم متساندون قد اجتنوا ثمر الوفاق وأنتم أضداد

ويعجب في هذه القصيدة الثائرة من أمور في وطنه ومخاز في قومه فلا يتحرج من ابدائها ولو آذت قوماً أو آلمت فريقاً . ويؤلمه هو ما يرى من تحكم الجاهلين وسيادة المسودين فيقول :

انظر الى الانجاز كيف تصدرت وعمائم السادات كيف تساد
شرالعصور —وفي العصور تفاوت— عصر به تتقدم الاوغاد

وكأنه يشير في البيت الثاني الى بيت الأفوه الجاهلي

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ويؤلمه أكثر من ذلك ما يرى في وطنه — وما هو الا صورة لما يجري في الشرق كله — من امرات حزبية وخلافات سياسية فرقت الشمل ، ومزقت الوحدة ، وأوهت الجهود فيصرخ صرخة نوبة لايحاف بطشاً ولا يخشى ، فيقول ص ٣٩

تصدق قوم بالعراق وساوموا على وطن —ما بيم يوماً— بأثمان
هم احتكروا الاوزار يقترفونها وقالوا جنى عمداً وما هو بالجاني
هم استحلوا اللذات يقتهونها وهم بدلوا بالجوهر العرض الفاني
وقد تنكر الحر العراقي أرضه فيأى ليدنو منه من ليس بالداني

وحب الشبيبي لوطنه يكاد يطل من كل كلمة في ديوانه الجديد ، وكأنما ملك هذا الحب عليه كل سبيل . وانك لتحس وأنت تقرؤه لواعج هذا الحب تضطرم في قلبه ، وتحس ان هذه الكلمات التي يرسلها هي ذوب فؤاد تحرق بهوى الوطن ورجا له الاصلاح ولكن الظروف لا تطاوعه ، والأقدار لا تظاهره . وهل هناك أكثر وجداً من هذه الأبيات اخترتها من قصيدة عنوانها في العراق ، نشرتها صحف سوريا ومصر سنة ١٩١٢ : —

هناك تأملت الليالي مولتلا تقدوق أنشازاً وتقن رحالها
فأرسلت عيني الاطلالي فاختنقت وسرحت عيني الرحه غالبا . .
وقفت عليها أنكث الارض واجماً وأضرب في خد الصعيد مرارا
أعدد آثامي بين الوقائع وأعدد أجيالي طي محالها
على النفس زفرة بال حشاشتة ولم أبك دمعاً بل بكيت شبابها

هذا لمح الى شعر معالي السيد محمد رضا الشبيبي وزير معارف العراق سابقاً واحد الناهضين بنهضته ، وهو شعر يجدر بالشبيبة العربية ان تقرأه وتستوعب مافيه لأنه وحي نفس مؤمنة جنبها الكامل في الحياة كل الايمان

القاهرة — محمد عبد الغني حسن



المنحة الملكية لمشروع كسوة الحفاة

أرسل حضرة صاحب الدولة حسين سري باشا رئيس مجلس الوزراء كتاباً الى الوزارات والمصالح الحكومية جاء فيه بعد الديباجة :

« علمتم أن أريحية جلالة مولانا الملك المعظم قد جادت بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه لمشروع كسوة حفاة الاقدام واني على يقين بان حضرات الموظفين يدركون تمام الادراك جلال هذا المشروع الانساني بل ضرورته الحيوية في هذا الزمان الذي زاد فيه تعاون الطبقات وعم العمران . ولا يخالجني شك في انهم سيسارعون بالمساهمة في هذا المشروع العظيم مساهمة كريمة اقتداء بالمثل الصالح الذي ضربهُ حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وكلما كثر الاقبال على التبرعات كان التوفيق في نجاح المشروع أعم وأكمل

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »

الحفاء : مشكلة صحية اجتماعية

رأي الدكتور علي توفيق شوشه بك

حادث سعادة الدكتور علي توفيق شوشه بك وكيل وزارة الصحة المساعد احد مندوبي المقطم في موضوع الحفاء فوافاه بهذه المعلومات النفيسة : —

ان الحفاء نصف العري أوهو العري برمته اذا تدبرنا فلسفة الملابس . ففي البلاد الحارة تختزل الاردية الى ما يستر العورة وقد يلبس الهمج « الصنادل » أو ما يشابهها ثم يقنعون بازار يترك الجسم عارياً الا موضع العفة

غير ان الحفاء في بلادنا — وسواها من الاقاليم غير الاستوائية — لا يقترن بالعري وانما ينهض دليلاً على الفاقة وينشيء في نفوس الحفاة شعوراً بالمهانة والحرمان ويثير في نفوس الآخرين الشفقة والمرثية لحالهم والخوف على أبدانهم من شتى الأمراض وبعض الناس يشعرون بازاء الحفاة بشعور خسيس هو مزيج من الشماتة والزراية والاحتقار

فالهبة الملكية الكريمة ستعالج في وقت واحد مشكلتين — أو ثلاث مشكلات — احداها نفسية والثانية اجتماعية والثالثة صحية . . . فما لا شك فيه أن الاحذية ستعالج داء الشعور بالضعة والهوان وستقضي كذلك على مظهر اجتماعي شائن وتغسل عاراً يحط من كرامتنا كأمة متحضرة تستظل بمدنية رفعت مستوى المعيشة الى درجة الرفاهية والترف . . . فكل أمة ينحط فيها مستوى المعيشة العام توضع في

المؤخرة وتوصم بالعجز عن مسايرة الركب المتجه حثيثاً الى الأمام

وأما العلاج الصحي فأقول فيه ان ٥٠ في المائة من الفلاحين ستقيهم الأحذية شر الاصابة بالانكلستوما . فان يرقات هذا الداء المتوطن تعيش مدة طويلة في الأرض الرطبة فاذا وطئها الحفاة اخترقت جلد القدمين واخذت تسبح في الدم الى القلب ثم الرئتين فالحلق ومن هناك تنحدر الى المعدة وأخيراً تنشب مخالبها في الامعاء الدقاق وتظل تغتذي من دم المصاب وتسفك منهُ ما تشاء علاوة على ما تفرزه من سم خاص. وبديهي ان الحذاء يحمي القدم وبالتالي يحمي لابسه من « الرهقان » . فالهبة الملكية الكريمة هي «ضربة المعلم» او قل أنها الوصفة السحرية التي ينتظر ان تقضي على مرض يوهن قوى خمسين في المائة من الفلاحين التاعسين

وغير منكر ان الحفاء يعرض القدم للجروح والتقرحات والتشقق فيتسبب عنها الاصابة بالكزاز (التيتانوس) والحمرة علاوة على التشوه الناشيء من فعل الاحتكاك بالحجارة والتقلبات الجوية

بقي ان الحفاة ينقلون بأقدامهم ملايين من الميكروبات الجائمة بما يعلق بها من قاذورات ولا شك ان شيئاً من هذه المخلوقات المهلكة ينتقل الى مأكولهم ومشروبهم فينشر بينهم أمراضاً عدة يتجلى خطرها في تفشي الوفيات بين أطفالهم وانخفاض مستواهم الصحي وانحطاط قدرتهم على الانتاج وأغلب الظن انهُ اذا ابتكر نوع من الحذاء الرخيص المتين يمكننا من توزيع الأحذية على جميع الحفاة ولنبدأ بالفلاحين ثم بالمدقعين من سكان المدن

عاش الملك ووفقنا الله

وزير أميركا المفوض الجديد في مصر

عرض الرئيس روزفلت على مجلس الشيوخ الأميركي اسم المستر الكسندر كيرك للموافقة على تعيينه وزيراً مفوضاً للولايات المتحدة في القاهرة خلفاً للقاضي برت فيش

والمستر كيرك من كبار رجال السلك السياسي الأميركي . ولد سنة ١٨٨٨ في شيكاغو وتلقى العلوم العالية في جامعة يايل وتخرج فيها سنة ١٩٠٩ ثم في مدرسة العلوم السياسية باريس وتخرج فيها سنة ١٩١١ ثم في مدرسة الحقوق بجامعة هارفرد ومارس المحاماة قليلاً في ولاية الينوي ثم انتظم في السلك السياسي بعد اجتياز الامتحان وتقلب في مناصب المفوضيات الأميركية في برلين ولاهاي وطوكيو وبكين ومدينة المكسيك والحق بالوفد الأميركي في مؤتمر الصلح بباريس بين سنة ١٩١٨ و١٩١٩ وعين مستشاراً لسفارة روما سنة ١٩٢٩ ثم قنصلاً عامًّا ومستشاراً لسفارة موسكو سنة ١٩٣٨ حيث قام بأعمال السفارة ثم قائماً بأعمال السفارة الأميركية في برلين في ربيع سنة ١٩٣٩ فمستشاراً وقائماً بأعمال السفارة في روما في خريف سنة ١٩٤٠ وأنعم عليه برتبة «وزير مفوض» بصفة فخرية

زهرة قورينة

الآثار في بلدة (لبتوس ماجنا) شرق مدينة طرابلس الغرب رومانية. أما الآثار في قورينة شرق بنغازي فيونانية قديمة ولها مقام كبير من الوجه الفني والتاريخي . وقورينة من المدن اليونانية التي أنشأها اليونان في القرن السابع قبل الميلاد (٦٣١ ق . م) فزهت وازدهرت طوال ١٣ قرناً من غير انقطاع حتى جاء العرب فدمروها. ولم يقم على أنقاضها مدن أخرى يعبث ابناؤها بآثارها النفيسة المطمورة تحت أطباق الثرى فبقيت سليمة . وكانت الحكومة الايطالية قد أمرت بنقل ما بني عليها حديثاً من المباني لتبقى منطقة النقب خالية

وقد جاءت الآثار التي عثر عليها فيها أولاً في سنة ١٩١٣ وثانياً في سنة ١٩٢٣ وما يليها مصداقاً لما كان يتوقعهُ المؤرخون وعلماء الآثار فقد وجد في حماماتها عشرات من التماثيل البديعة بينها تمثال مشهور « لزهرة قورينة » — صورتهُ منشورة أمام الصفحة الأولى من هذا الجزء من المقتطف وهو محفوظ في أحد دار الآثار بروما — ومنها تمثال فاخر للاسكندر معروض في متحف بنغازي على مقربة من قورينة. وقد عثر على كتابات طويلة في الحمامات البيزنطية تحتوي على حقائق كثيرة عن تاريخ قورينة وعبادات اليونان . ومن التماثيل التي وجدت هناك تمثال صغير من الحديد يثبت ان اليونانيين حاولوا في أوائل عهدهم استعمال الحديد في صنع التماثيل . ووجدوا كثيراً من التماثيل التي نقلها الرومان عن أصول يونانية مفقودة ولهذه التماثيل الرومانية فائدة تاريخية لأنها أحد السبل الى استحضار ما صنعهُ اليونانيون قبل ذلك بقرون

وقاية سكان العاصمة من الامراض

وضع حضرة الدكتور محمد حلمي حسين بك مفتش صحة القاهرة نظاماً جديداً بشأن مقاومة الامراض في العاصمة ووقاية الناس منها وهذا النظام يتخلص في الكشف عن عمال محال الاغذية والمأكولات وتطعيمهم لوقايتهم من الامراض المعدية وعزل المصابين منهم . وقال أن هذا الاجراء من شأنهِ أن يقضي على الامراض التي ينقل ميكروبها افراد تلك الطبقة وتنتقل الى الجمهور بطريق الطعام غير أننا رأينا تتمة للفائدة أن يطبق هذا الاجراء على باعة الخضر وهم من الطبقات الفقيرة التي تحمل بطبيعة عملها الامراض الطفيلية

***

وهذا العمل الصحي تتمة للعمل السابق وكان من شأنه الكشف عن الخدم والمرضعات قبل الترخيص لهم بمزاولة الاعمال وهذه الحلقة المتصلة من أعمال الوقاية يمكن أن تؤدي الى الغرض المقصود

اقلال وفيات الاطفال

عرض على لجنة المشروعات الصحية بوزارة الصحة في اجتماعها التقرير الذي وضع بشأن اقلال وفيات الاطفال في مصر

وقد استهلت اللجنة تقريرها بقولها ان الحالة الصحية بين الاطفال والحاملات من أدق المقاييس التي يعتمد عليها في الحكم على مدى ماوصلت اليه أمة من الأمم من التقدم الصحي والاجتماعي

قال ومن الأسف ان حالة هذه الفئة من الأمة المصرية لا تزال — كما تدل الاحصاءات والمقارنة مع الامم الراقية — سيئة يدل على ذلك أن مصر ومتوسط عدد المواليد فيها الآن كل عام نحو ٦٥٠ الف وعدد الوفيات بصفة عامة نحو ٤٣٠ الفاً يموت فيها سنويًّا ٢٤٠ الفاً من الاطفال منهم ١١٠ آلاف رضع أي عمرهم أقل من سنة و ٣٠ الفاً أعمارهم تتفاوت بين سنة وخمس سنوات

وترى اللجنة ان ارتفاع نسبة وفيات الاطفال يرجع الى الفقر وجهل الأمهات وزيادة المواليد في العائلات الفقيرة وسوء المسكن وسوء التغذية واستخدام الأمهات خارج منازلهن والى الضعف الخلقي والنزلات المعوية والرئوية والأمراض المعدية ومنها الدرن والامراض الوراثية وجهل القابلات وقلة المعاهد الوقائية والملاجئ الخاصة بالأمومة والطفولة . وتقترح اللجنة ان تعمل وزارة الصحة فوراً على زيادة عدد مراكز رعاية الطفل حتى يعم نفعها الحضر والريف وان يخدم كل مركز ٥٠ الفاً من السكان

وان تعنى الوزارة بتخريج مساعدات القابلات والزائرات الصحيات وحث الجمعيات الخيرية على الاكثار من انشاء مراكز كفالة الطفل وانشاء معاهد تخصص للعناية بالاطفال والأمهات العاملات أو البائسات أو الخادمات اللاتي يقتضي عملهن ترك اطفالهن

واقترحت اللجنة عدا ما تقدم سن تشريع لحماية الاطفال من الاهمال أو اشتغالهم في سن مبكرة أو سوء تغذيتهم أو العناية بهم

وتقول بهذه المناسبة ان نسبة وفيات الاطفال الرضع في مصر ٢٦٥ في الالف وفي الهند ١٦٢ وفي بلغاريا ١٥٠ وفي ايطاليا ١٠٩ وفي اليابان ١٠٦ وفي النمسا ٨٩ وفي بلجيكا ٨٠ وفي المانيا ٦٤ وفي انكلترا ٥٨ وفي هولندا ٣٨

آخر العناصر المفقودة

جاء في مجلة ملخص العلم ان الباحث السويسري الدكتور والترمندر Minder اكتشف آخر العناصر الاثنين والتسعين الذي كان حتى الآن مستعصياً على العلماء وهو العنصر الذي رقمه الذري ٨٥ ودعاه هلفيتيوم نسبة الى هلفيتيا (سويسرا)

ويقال انه استخلص منه دقيقة لا تزيد على جزء من عشرة آلاف جزء من المليغرام وانه معني الآن بدراسة ما ينطلق منها من الشعاع

نفاية الحقل

ووسائل استخدامها والانتفاع بها في اميركا ومصر

لعوض جندي

مئات المواد من نفاية الحقل

يحوّل مخيض اللبن — اللبن المنزوعة قشدته — ونشارة الخشب وغلاف كيزان الذرة ، وهي (الامطاء ومفردها مطو في فقه اللغة) والبطاطس المنتقاة ، ومصل اللبن (وهو المضارة في فقه اللغة) وقلامات الخشب، وقشور الفول السوداني وبزور القراصيا والأوراق المستديرة لشجر الصنوبر، وجميعها غيض من فيض نفايات الحقول والحراج ، الى منتجات تقوَّم في أميركا بملايين الدولارات حيث أصبحت المحاصيل الفائضة على الحاجة ، تستحيل ثروة على أشكال شتى بدلاً من طغيانها على أسواق الأطعمة او نبذها في الحقول حيث تستهدف للتعفن

ومن الميسور الآن ، بناء البيوت ، بقش النبات ، وصنع الثياب من الحشيش والورق ، من حطب الذرة. بيد ان نفقات تلك الصناعات فادحة. ولذلك يبذل العلماء والزراع والخشابون ومنتجو الفواكه والصناع والحكومة ، من كل حدب وصوب جهودهم في تيسير عمليات تحويلها وخفض نفقاتها . ومتى تهيأ لهم حلّ تينك المعضلتين صار التحويل ممكناً من الوجهة الاقتصادية

أصباغ من زيت الليمون

وأضحى الليمون الهندي يتجلى في ملابس النساء ، ليس في بقع تشوّهها ، بل في ألوان تزينها. إذ تبين ان الزيت الذي يستخرج من بذور ذلك الليمون ، صالح ، عند مزجه بكبريت العمود، لتثبيت الأصباغ في المنسوجات فلا تزول ألوانها مهما يطُل بقاؤها . ويمكن ادخال هذا الزيت في صنع السلطات ايضاً . وكذلك الزيت الذي يستخرج من بذور القراصيا يصلح لتلك الأغراض ، كما أن الزيت الذي يعصر من بذور العنب أو الزبيب يتمنى استعماله في الطلاء والورنيش (وهو الصقال في فقه اللغة)

ويصنع في احد مصانع ولاية إيداهو ، من البطاطس المنتقاة ، صنف من الكحول لا يتجمد ، ونوع من الدقيق لصنع الخبز ومن السلع الرائجة في ولاية أوهيو ، بحامض الجلوتاميك glutamic acid وهذا يستخرج من النفايات التي تنتج من عملية صنع السكر من البنجر . ومن ربّ التفاح الممزوج باللبن الخالي من قشدته ، يؤلف غذاء حديث يسمى « لبن التفاح » وتبلغ نفقة مزج الرطل منه بالمخيض ملليمين ، ثم يتبل الممزوج بالسكر فيصير من ألذّ الفواكه المسكرة . وهو ذو خواص طبية إذ يحتوي على عناصر ، شاع استعمالها من قبل في علاج اسهال الاطفال

ثم ان غلاف الذرة ينفع لأغراض متباينة ومنها استعماله ، فراشاً للحيوانات ، ومقاعد للكراسي، ونسيجاً وقبعات ومماسح للأحذية

وعلفاً للمواشي وأزنقة للخيول horse collars وطنافس ومراتب ومشمعات ومجلات للصقل وورقاً

بودرة الوجه من حطب الذرة

ومن حطب الذرة نستطيع الحصول على السلولوس ، وهو مادة تعادل المعادن الأساسية في منزلتها ، وكتل البناء وفحم الخشب والأغذية والخيوط المشبعة بالديناميت والوقود والفرفرال furfural وقطن البارود واعواض للخشب والحامض الاوكساليك والورق وألواح من الخشب الصناعي والحرير الصناعي وألواح لتخشيب الحيطان وغيرها من الاشياء النافعة وحتى الجمار او النخاع pith الذي في باطن حطب الذرة ، نافع ، اذ يستعمل في صناعة بودرة الوجه (وهي الذرور في فقه اللغة) والبارود والألواح العازلة لتبطين المثالج ، والمشمعات الأرضية ، ونوع جديد من الخزف وأغطية للانابيب والورنيش وما شاكلها من المنتجات

وتستعمل النفايات التي تنبذ من مصانع عجائن الخشب ، في تحضير العجائن الكيميائية . وقد وصفناها في مقال مسهب نشر في مقتطف يوليه سنة ١٩٤٠ كما تحوّل الى خميرة . وفي كندا مصنع جديد للخميرة ، ينتظر أن ينتج سنويًّا عشرة ملايين جالون من خمر عجينة النفاية

والڤانيلين vanillin المستعمل كمادة لتتبيل وتعطير الحلوى والفطائر ، يصنع ايضاً من نفايات مصانع العجائن . وقد اخترعت مصلحة الغابات في الولايات المتحدة ، وسيلة لاستخدام نفاية الخشب ، كأساس لعجينة الخشبين ، ومصدر للفرفرال وللحامضين الخليك والفورميك والكربون الفعّال

ويمكن ان يكون الخشب المستعمل بهذه الطريقة من نفايات مصانع العجائن ، أو بمثابة نشارة أو قلامات لأن القطع القصيرة لا تصلح للكتل ، وكذلك الاشجار الصغيرة الثانوية الانتاج لا تصلح في مصانع الخشب الخام المقطوع من الغابات

ويتيسر استخراج الزيت من الاوراق المستديرة ، لشجر البلسم وغصيناته وهي ذات شذاً او رائحة ذكية تذكر المرء بشذا الغابة وتستخدم هذه الرائحة العطرية لتعطير الصابون وأملاح الحمام وزيوته ، وتدخل في الطلاء والورنيش لاماعتها وتطييبها ، فتبث في داخل البيوت والمخازن والمسارح أريج الخلاء ونضارته

غاز من نفاية الادغال

ويحتمل أيضاً انتاج موادّ تولّد الطاقة من الحقول ونفايات الادغال . وقد تمكنت محطة التجارب في ولاية ايلينوي من انتاج غاز كاف لادارة آلة بخارية ، وذلك بوضع نفاية السلولوس مثل أحطاب الذرة والقش في حوض متعفن أسوة بالمواد البرازية ، ثم معالجتها بالطريقة التي تعالج بها تلك المواد ، والغاز الذي يتولد بهذه الوسيلة يشبه الغاز الشائع استعماله في الانابيب الممتدة في الشوارع

وينتظر تأسيس مصنع للفولاذ ، على ساحل أميركا الشمالي الغربي وذلك من جراء التحسين الذي تمّ في صناعة فحم الخشب (الفحم

البلدي) من نفاية الخشب ، والنشارة وقمم الاشجار وجذاميرها ، حيث يستطاع استخدامهُ بدلاً من فحم الكوك المستخرج من الفحم الحجري

***

ويبلغ مقدار نفاية الخشب التي تنتج سنويًّا من عمليات الخشب الذي يقطع في الشمال الغربي من الولايات المتحدة زهاء خمسين مليون طن ، ويصنع ذلك الفحم الخشبي ، من الخشب المقطوع من الغابات، بعد رشه بالقطران فينتج منه ما يسمى بفحم الكوك الخشبي wood coke وهو متين بحيث يتحمل ضغط أطنان من تبر المعادن التي تصهر في نوع خاص من الأفران

ومن مصاصة قصب السكر أو من عيدانه المعصورة sugar-cane bagasse يستخرج كيميائيو مصلحة الزراعة بحكومة الولايات المتحدة الأميركية ، مركباً عجينيًّا كيميائيًّا ، يقدرون نفقات انتاجهِ بأقل من نصف تكاليف انتاج ارخص انواع المركبات الكيميائية العجينية الرائجة في السوق

ومن ثمة يتاح استخدام العجائن الكيميائية في صنع الاثاث ومواد البناء والسيارات ، ما دامت المادة الاولية ، تتكلف أقل مما تتكلفهُ المواد المستعملة الآن (راجع مقالنا في مقتطف يناير سنة ١٩٢٣ على صناعة الخشب من مصاصة القصب وما نشرناه في اجزاء اخرى على السيلوتكس اي الخشب الصناعي)

عشرات المواد من الجبنين

ومن المعضلات الضخمة، التي عني بها العلماء، الانتفاع بنحو الاثنين بليون كوارت) الكوارت يساوي ربع الجالون) من اللبن المجرد من قشدته والمخيض وشرش الجبنين ، وجميعها متخلفات من المحصول السنوي للقشدة والزبد والجبن والجبنين . وهذه يحول منها سنويًّا ،نحو ستة بلايين كوارت فقط، الى سلع تباع في الاسواق .

والجبنين الذي يصنع من اللبن المنزوعة قشدته، له منافع شتّى ، فيدخل الجانب الاكبر منهُ في تغشية الورق ، وفي صناعة الطلاء . ويستعمل مادة أساسية ترش لقتل الحشرات، ويدخل في صناعة الجلد ومشمع الأرضية . ويعمل منهُ عجينة كيميائية ، تصاغ منها « أبزيمات » الأحذية ، وأزرار وإبر لحبك الجوارب وأمثالها ، وما اليها من الأشياء (راجع مقالنا على معجزات الكيمياء في صناعة الملابس من اللبن والخشب والفحم المنشور في مقتطف مايو سنة ١٩٤٠)

ومن الجبنين يصنع شعر يشبه أجود أنواع الصوف الطبيعي . وعلى هذا المنوال ، سوف تصير نفايات اللبن ذات يوم مصدراً لجانب كبير من ثيابنا

ويحتوي اللبن المجرد من القشدة على ٣٪ من الجبنين . وبناء على ذلك تستغل من الأربعة الآلاف رطل من اللبن، وهي متوسط ما تدره البقرة الواحدة سنويًّا تقريباً ، في الولايات المتحدة الأميركية، نحو مائة رطل من شعر الجبنين

واخترع علماء صناعة الألبان في الولايات المتحدة ، طريقة لصنع مادة شفافة تشبه الصمغ المرن وذلك من الحامض اللبنيك للشرش، ينتظر الانتفاع بها منافع شتى في الصناعة وهذه المادة ألين واكثر مرونة من الزجاج العضوي ، ومع ذلك فهي متينة جداً ومرنة

ويستخرج الحامض اللبنيك من شرش الجبنين ، وهو النفاية التي تبقى بعد استخراج الجبنين من اللبن المجرد من القشدة . وذلك بتخمير اللكتوز «سكر اللبن» بالبكتيريا الصالحة له ، لتولد حامضاً لبنيكا غير نقي أو املاح ذلك الحامض

وأعلنت الشركة الوطنية الاميركية للالبان أن الحامض اللبنيك يستعمل أيضاً في صناعة الدندورمة والشربات والمخللات والمربات والهلامات والخميرة ، وكواسطة مساعدة في الصباغة والدباغة ، وصنع العجائن الكيميائية ثم كمادة مادة تمزج بالمعدن لتساعد على صهره عند اللحام

ومتى جف الشرش ، ينتج منهُ مسحوق خفيف قشدي اللون يسهل ذوبانه في الماء فيستعمل في تحضير حساء التربية والصلصة والخبز والفطير والكعك والفواكه المسكرة . واذا اضيفت اليه المعادن التي يحويها اللبن،امكن استعماله ، في السوائل وفي لبن الشكولاطة وفي عصير الفواكه أو الخضراوات او في المياه المشبعة بالحامض الكربونيك . ويتسني رشهُ أيضاً على الحساء أو الحبوب أو تناوله جافاً . ووظيفة تلك المنتجات تحسين صحة الامعاء وامداد البنية بالمادن التي يحويها اللبن ولا سيما الكلسيوم والفصفور على شكل مكثف يمكن تناوله بسهولة

ومن نفايات الغابات وحزازات الأشجار وأطرافها وألواحها وأجزائها غير المستوية ونشارتها ، والنتاج الثاني الحقير لشجر الصنوبر، تصنع شركة المازونيت ألواحاً لتخشيب الحيطان وألواحاً عازلة وقرميداً خشبيًّا وعجائن كيميائية ، يتيسر تشكيلها بأشكال مختلفة تروج في السوق

ثم هناك بذور القطن وهي التي كانت في غابر الزمن محسوبة من نفايات الحقل الضارة،وغدت تقوَّم في الولايات المتحدة الاميركية ، بمائتي مليون من الدولارات،على حين يقوَّم القطن الذي تنتج منهُ بمبلغ بليون ونصف بليون من الدولارات ويدخل زيتها في الصابون والشمع والمصابيح والطبخ وغير ذلك من المنافع

الحرير الصناعي من الزغابة

وزغابة القطن[١] cotton linters (كما أثبتت في مجلة فؤاد الأول للغة العربية) وهي نفاية أخرى من نفايات الحقل ، هي الآن المادة الأولية لصناعة الحرير الصناعي والمنسوجات ذات الوبرة التي تصنع منها المنابن وأغطية الحيطان ومفروشات السيارات

وقد اخترعت اكثر من مائة منفعة تجارية للذرة ، تتفاوت من الجليسرين الذي يستعمل

---

(١) أنظر مقالنا في هذا الموضوع في مقتطف مايو سنة ١٩٣٠ بعنوان الفضلات الزراعية ومنافعها

في المواد الشديدة الانفجار ، الى الحامض الكربونيك المستعمل في صنع الثلج الجاف وقد أصبح اكثر من عشر محصول الذرة في الولايات المتحدة ، يباع للمصانع بدلاً من بيعه في الأسواق . ثم البسلة الصينية او فول الصويا وقد اتسع نطاق منافعه وهي دائماً في ازدياد . وقش الحنطة يصنع منهُ ورق مضلع للعب . والسلولوس هو أهم نفايات الحقل ، ومنهُ يصنع الورق جميعهُ والحرير الصناعي وطائفة من المعاجن الكيميائية ذات المنافع التي تعدُّ بالألوف ، ومقادير كبيرة من ألواح المباني والمواد اللاصقة في صناعة الجلود وغيرها من السلع التي لا تدخل تحت حصر . والسلولوس الذي يستخرج من الخشب بوجه عام ، ارخص مما يستخرج من غلال الحقول . والخشب ، هو المحصول الذي تصلح لأنتاجه ثلث أطيان الولايات المتحدة الاميركية . فاذا افلح العلم الزراعي ، أو متى نجح في خفض النفقات الفادحة التي يتطلبها تحويل السلولوس الى مواد مختلفة امكن توسيع اسواقهِ وهي الاسواق العظيمة الواسعة التي تمد بهِ شتى الصناعات

وعدا ما تقوم بهِ الدوائر الحكومية الحالية ، وغيرها من الشركات الصناعية من المجهودات في الابحاث المراد بها الانتفاع بالنفايات والمواد الفائضة على الحاجة ، لدى حكومة الاتحاد اربعة معامل كيميائية ضخمة لما يتمّ تشييدها ، لمعاونة تلك الابحاث

وتقدر تلك النفايات سنويًّا في الولايات المتحدة الاميركية بنحو خمسة وثمانين مليون طن من قش الحنطة والزمير وقش الجويدار والشعير وقوالح الذرة وشواشيها وقش الارز وحطب القطن ولوزه . ويتفاوت ما يضيع من خشب الغابات عند تحويله الى خشب صالح للمباني ، بين ٢٠ ٪ و ٢٥ ٪ ورغم الخطوات الواسعة التي تمت لاجتناب تلك الخسارة ، ما زال من اوجب الواجبات اتخاذ كل ما من شأنه تحويل تلك الفضلات الى ثروة . تم ما قالته مجلة الميكانيكا

ماذا في مصر

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا الخبر الآتي في أهرام ٢٧ يناير ١٩٤١ وهو : — مما يعنى به سعادة فؤاد أباظة باشا مدير الجمعية الزراعية الملكية ، البحث في وسائل الانتفاع بنفاية الحقل . وقد أدت البحوث التي تمت حتى الآن الى ان وفق الاستاذ محمد عطية الصيفي المتخصص في الشؤون المتعلقة بزراعة القمح ، الى استخدام عيدان هذا النبات في صنع الأعواد الصغيرة التي تستخدم في رفع السوائل من أكواب المرطبات الى الفم . وكذلك أخذ في اعداد آلة لصنع الغطاء الشفاف الذي يلف حول هذه الأعواد ليمنع وصول الجراثيم اليها . وهناك صناعة زراعية تعنى بها الجمعية ايضاً وهي استخدام شواشي الذرة في اعداد نوع من الدخان التي الصحي الذي يفيد تدخينه الصدر وصنع الغليون (البيب) pipe من القوالح والبوص

فردريك بانتنغ

(تابع المنشور على الصفحة ٢٣٦)

كاستولت السوداء على بانتنغ . هل تفيد هذه المادة العجيبة الكلاب ولا تفيد الناس ؟ جلس كئيباً وهو لا يكاد يجرؤ أن ينظر الى إلفه القديم ظنًّا منهُ أنهُ مائت لا محالة. وكان مضطرًّا ان يسرع للحاق بقطار مسافر الى الشمال لزيارة أهله فترك العليل في المعمل ومضى، وما كاد يخرج حتى همَّ غلكر بست بالخروج وهو لا يدري أن في خفايا جسمه انتصرت آية الحياة والعلم ، على آية الموت ، فأقنعهُ بست بالبقاء ريثما يحقنهُ حقنة ثانية . وما لبث بعيدها حتى تنفس في الآلة الخاصة بذلك ، فأحسَّ أن له رئتين يتنفس بهما ، وقد كان لثقل تنفسه لا يحس بهما من قبل . ثم شعر بصفاء في ذهنه وان فخذيهِ قد فكتا من عقال حديدي ، كان يثقلهما فأسرع الى داره ، وخاطب بانتنغ عند وصوله وقال ان العجيبة قد تمت . وجلس عندئذٍ يتناول الغذاء الذي يشتهي وبعد العشاء خرج للنزهة مشياً على الأقدام فجعل الناس يحدقون فيهِ ماشياً باسماً وكأنهُ عاد من عالم آخر

عندئذٍ أدرك مكلود أن بانتنغ المتعثر ، قد حقق ما عجز عنهُ أكبر الفسيولوجيين . ولا ريب في انهُ باهى في ما بينهُ وبين ذات نفسه ، بأنهُ لم يمنع عن بانتنغ المساعد والكلاب العشرة والأسابيع الثمانية،فصدف الآن عن تجاربه العلمية الخاصة وأقبل هو ومساعده على الأيلتين — بعدما غيِّر اسمه الى أنسولين — يدرسون طرق تحضيره ، وانضمَّ اليهم كوليب Collip من جامعة البرتا . أما بانتنغ فترك لهم هذه التفصيلات ووجه عنايتهُ الى المصابين يودُّ أن ينقذهم من براثن الموت . وذهب مكلود الى مؤتمر الجمعية الطبية الأميركية فألقى رسالة علمية في هذا الاكتشاف الخطير ، فأصغى اليهِ أساطين الطب ، وقرروا ان يوجهوا الشكر الى «الأستاذ مكلود ومساعديهِ لا نفحوا بهِ الانسانية من نعمة الأنسولين»

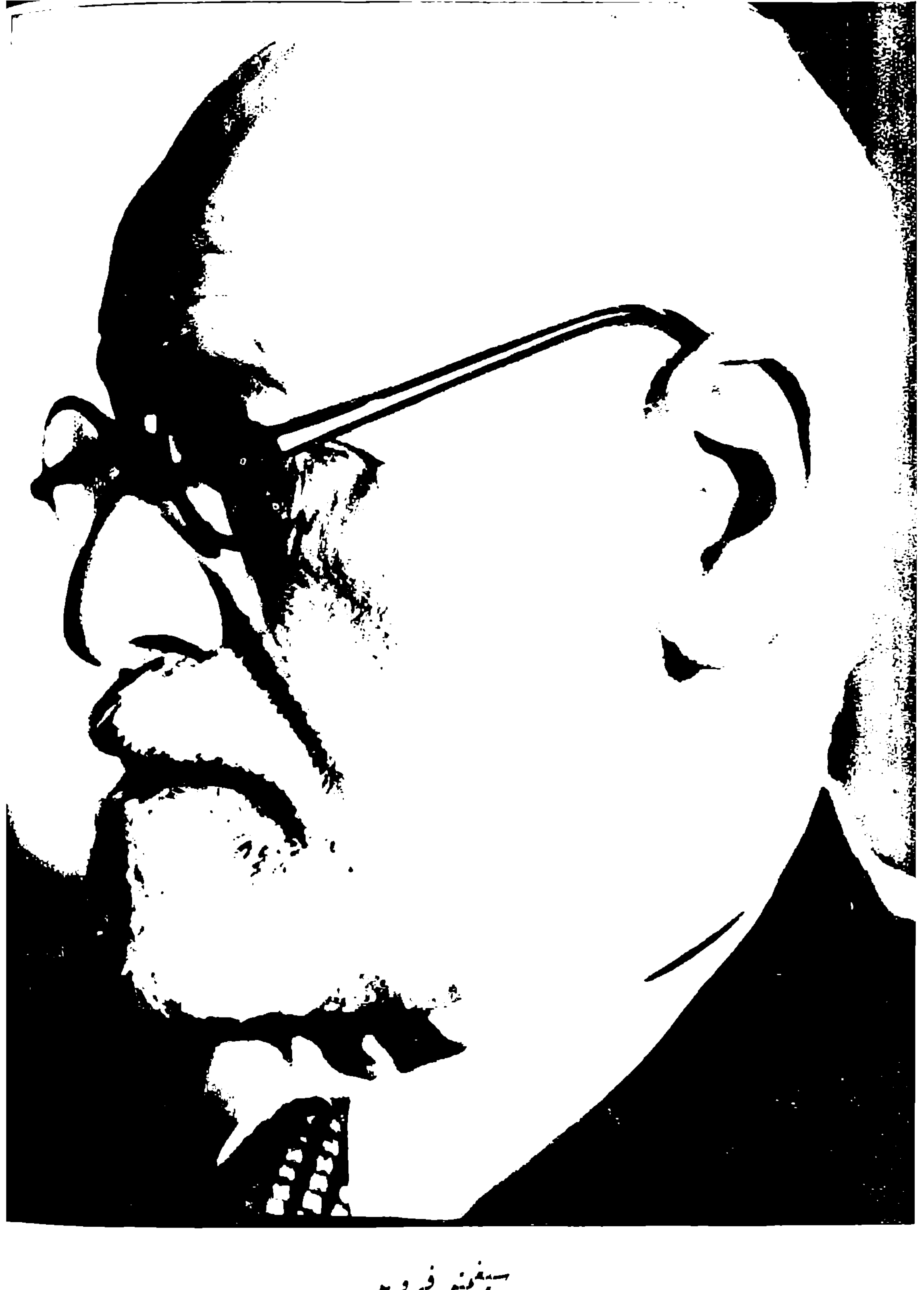
— ٥ —

من عجائب الطبيعة البشرية ضن الزميل على زميله أحياناً بالثناء الذي يستحق . فقد روى الدكتور بول ده كروف — وعليهِ الاعتماد في هذا الفصل — أن جماعة من الاطباء البحاث ، جلسوا في ليلة يتحدثون ، فلما ذكر بانتنغ هزَّت الرؤوس ، وقلبت الشفاه . وكان « ده كروف » جديد العناية بسيرة بانتنغ والانسولين ، فأفاض في الحديث . فقيل له ولِمَ يعزى الفضل كله الى بانتنغ،فلما أطلعهم على الحقيقة قالوا واذا كان الفضل كل الفضل له ، فلا ريب في أنهُ كان موفقاً ولن يستطيع أن يكتشف اكتشافاً آخر مثله

ولكن من يستطيع ذلك !

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثامن والتسعين



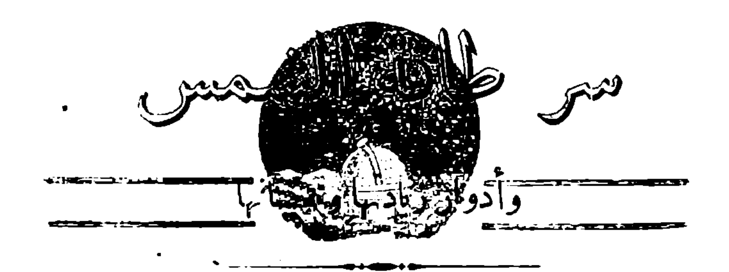
سيغموند فرويد

انظر مقال التحليل النفسي للأستاذ موكسلي نقل الأستاذ حسن السلمان مقتطف مارس ص ٣٠٥ و ابريل ص ١٥

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن والتسعين

١ ابريل سنة ١٩٤١ — ٣ ربيع اول سنة ١٣٦٠



لاحياة على الارض ولا حركة بغير أشعة الشمس . فما مصدر طاقتها ؟ ومتى بدأت تولدها وتخزنها ؟ والى متى تستطيع أن تمضي تمدنا بها ؟ وكيف نشأت شمسنا وما يكون مصيرها ومصير ارضنا بعد أن تنفد مصادر طاقتها

قيس مقدار مايقع عموديًّا من اشعاع الشمس على مساحة سنتمتر مربع من سطح الارض في الثانية فاذا هو ١٣٥٠٠٠٠ ارج (erg) وذلك بعد حساب ماتمتصهُ الهواء في خلال اختراق الأشعة لهُ . فاذا حوَّلنا هذا القدر من الطاقة الشمسية الى مايقابله من طاقة الفحم ، وجدنا أن أرضاً مساحتها بضع مائة قدم مربعة تتلقى من طاقة الشمس في يوم عادي قدراً يعدل الطاقة المستخرجة من فحم ثمنهُ بضعة جنيهات . وغنيٌّ عن البيان أن الشمس تتلقى جزءًا صغيراً جدًّا من مجموع ماتشعهُ الشمس من طاقة في الفضاء

وتقدَّر حرارة سطح الشمس بنحو ستة آلاف درجة . وليس في العالم مادة لاتتحول غازية بفعل حرارة هذه شدتها . ولذلك فجميع العناصر على سطح الشمس في حالة غازية . وتدل مباحث أخرى رياضية وتجريبية على أن حرارة قلب الشمس تبلغ عشرين مليون درجة أو أكثر قليلاً . ولو كان في الوسع أن تصنع مدفأة صغيرة لا يصهر معدنها بفعل الحرارة العالية وولدت

فيها شعلةٌ حرارتُها من رتبة حرارة قلب الشمس ، لكفت حرارة هذه الشعلة لاشعال كل مايقع حول المدفأة في دائرة نصف قطرها مائة ميل

ومن الخطإِ أن نظن أن الغازات في الشمس لطيفة مخلخلة البنيان . فالغازات التي نتناولها على سطح الأرض ألطف وأقلُّ كثافة من السوائل والجوامد . ولكن الضغط في باطن الشمس عالٍ جداً يبلغ عشرة آلاف مليون جوّ . في حالة كهذه تضغط الغازات حتى لقد تفوق في كثافتها كثافة السوائل والجوامد المألوفة أي إنها في حالة طبيعية غير مألوفة على سطح الأرض

وشدة الضغط ، وقبول الغازات للانضغاط ، يفضيان الى زيادة الكثافة في مادة الشمس زيادة كبيرة سريعة وفقاً للانتقال من سطح الشمس الى قلبها . وقد حسب فريق من العلماء ان كثافة قلب الشمس أعظم من كثافة الشمس جملة واحدة نحو خمسين ضعفاً . ولذلك يعتبر العلماء أن كثافة الغازات في قلب الشمس تفوق كثافة الزئبق ستة أضعاف . ويقابل هذا ان غاز طبقات سطح الشمس لطيفة ، والضغط الجوي في جوّ الشمس — Chromosphere وهو غلافها الخارجي — لا يبلغ أكثر من جزء من الف من ضغط هواءِ الأرض

فعند ما نسأل ما مصدر حرارة الشمس ، متذكرين درجات هذه الحرارة العالية ، نعلم أن عمل الاحتراق المعروف على سطح الأرض لا يكفي لتوليد هذه الحرارة العالية ولا لتوليدها مدة طويلة كافية تتفق وعمر الشمس . فعند ما نحرق غراماً من الفحم نولد طاقة لا تزيد على جزء من خمس مائة الف جزء من الطاقة التي ولدها غرام من كتلة الشمس في خلال تاريخها . ولو كانت الشمس من الفحم وبدأت تشتعل في عصر الفرعون الأول لما كانت الآن إلاَّ رماداً بارداً

والحقيقة أن فكرة الاحتراق نفسها لا تتفق وأحوال الشمس . ففي طيف الشمس خطا الكربون والاكسجين وهما عنصرا الاحتراق . ولكن حرارة الشمس أعلى من ان تدع مجالاً لاحتراق هذين العنصرين . فنحن نفهم الاحتراق على انهُ تفاعل المادة القابلة للاحتراق مع الاوكسجين فتتولد من التفاعل مواد مركبة وتنطلق طاقة حرارة . ولكن شدة الحرارة في كتلة الشمس تحل المركبات المعقدة الى عناصرها . فبخار الماء ينحل ايدروجيناً وأوكسجيناً وثاني اكسيد الكربون ينحل كربوناً وأوكسجيناً . فالغازات التي تتقوم بها كتلة الشمس يجب ان تكون عناصر لا مركبات

***

وقد عجز علم الطبيعة في القرن الماضي عن تفسير مشكلة طاقة الشمس وسرها . ولكن كشف ظاهرة انحلال المادة الاشعاعي ، واحتمال تحويل العناصر بعضها الى بعض ، اطلقا ضوءاً على هذا

السر الغامض . ذلك ان العلم الحديث أبان أن في باطن نوى الذرّات تختبىء مقادير عظيمة من الطاقة

هذه الطاقة الذرية sub-atomic التي كشفت أولاً منطلقة من تلقاء نفسها من ذرّات العناصر المشعة ، تنطلق في أحوال خاصة في تيار عظيم تفوق طاقتهُ ملايين الأضعاف طاقة التفاعلات الكيميائية المعروفة كتفاعل الاحتراق . واذا كانت الشمس المكونة من فحم مشتعل تتحول رماداً في خمسين قرناً أو ستين ، فانها وهي تستمد طاقتها من العالم الذري تستطيع ان تمضي في اطلاق طاقتها العظيمة ملايين والوف الملايين من السنين

إلاَّ اننا نعلم أن العناصر المشعة التي من قبيل الاورانيوم والثوريوم ليست على جانب من الوفرة في جسم الشمس يفسر هذه الطاقة العظيمة التي تنطلق منها . ولذلك لا مفرَّ لنا من القول بأنَّ طاقة الشمس مردُّها الى تحوُّل العناصر العادية المستقرة، الى عناصر مشعة

فما هي الأساليب المتبعة في هذا الأتون الكوني ، حيث يحدث تحول واسع النطاق في نوى الذرَّات فتنطلق هذه المقادير العظيمة من الطاقة ؟

***

كان الجواب الاول عن هذا السؤال من مقترحات باحثين شابين في سنة ١٩٢٩ احدهما يدعى روبرت أتكنسن والثاني فرتز هوترمانز . ومؤدى رأيهما ان الاصطدامات التي تقع في قلب الشمس بين نوى الذرَّات المتطايرة ، في جوٍّ عالي الحرارة ، تحدث تحولاً في هذه النوى من نمط التحوُّل الذي تحدثهُ القذائف التي يطلقها العلماء بوسائلهم القاصرة على نوى الذرات في معامل البحث على سطح الأرض

ويجب ان نذكر ان العناصر في جوّ هذه حرارتهُ الشديدة ، ليست مجموعة من الذرَّات والجزيئات ، بل هي نوى ذرَّات جردت من كهيرباتها وكهيربات فصلت بعضها بعض . ونحن نعلم ان الكهيربات تنزع من النوى اذا كانت الحرارة اقل من حرارة باطن الشمس . فصورة باطن الشمس حيث يقع التفاعل بين النوى مولداً مقادير عظيمة من الطاقة ، هي صورة نوى مجرَّدة من كهيرباتها وكهيربات منفصلة بعضها من بعض وجميعها تتحرك هنا وهناك بغير ضابط أو نظام

ودوام الاصطدامات بين النوى في باطن الشمس بفعل الحرارة العالية والحركة ، يجعل تأثير الاصطدام اعظم واقوى من طريقة قذف النوى في معمل البحث بقذائف شتَّى . فاذا اخذنا قدراً من مزيج الايدروجين والليثيوم وأحميناه الى درجة وافية فان الاصطدامات العنيفة بين دقائق هذين العنصرين تستمر حتى تتحوَّل جميع النوى الى هليوم . وفي هذه الحالة ينطلق

من النوى المتحوِّلة ، في اثناء تحولها ، قدر عظيم من الطاقة يكفل استمرار حرارة المزيج الى ان تنفد النوى المعرَّضة لهذا التحوُّل

فكل الحاجة الى رفع درجة حرارة المزيج حتى يبدأ التفاعل

والغالب ان الشمس بدأت عمرها كتلة ضخمة من غاز على درجة واطئة من الحرارة . وان حرارتها ازدادت رويداً رويداً بتأثير التجاذب بين دقائقها ، وبتجاذبها تقلصت وكان من أثر تقلصها تولد حرارة جديدة في باطنها ، فلما بلغت حرارة باطن هذه الكتلة الغازية ، درجة كافية لاحداث التفاعل المتقدم وصفهُ بين النوى ، كفى انطلاق الطاقة الذرية من النوى المتحوِّلة بتأثير هذا التفاعل ، لمنع الشمس من تقلُّص آخر ، ولاستمرار التفاعل بين النوى ، فبلغت الشمس حالتها المستقرة التي هي عليها الآن

***

ان طبقات الشمس الخارجية ، تضبط انطلاق الطاقة من باطنها . فاذا حدث ، لسببٍ ما ، ان ضعف التفاعل بين النوى المولد للطاقة ، أعقبهُ تقلُّص في مجموع كتلة الشمس ، ينشأ عن التقلُّص زيادة الحرارة ، — لأن التقلص يفضي الى زيادة معدَّل الاصطدام بين النوى — فيعود انطلاق الطاقة الى معدله السابق . واذا حدث لسبب ما ، ان زاد التفاعل بين النوى وزاد مقدار الطاقة المنطلقة ، أعقب ذلك تمدُّدٌ ، ينشأ عنهُ زيادة المشع من طاقة الشمس وهبوط في معدل الاصطدام بين النوى ، فيقل التفاعل ويهبط مقدار الطاقة المنطلقة الى معدلهِ السابق

غير ان التفاعل بين الايدروجين والليثيوم سريع جداًّ فلا يكفي منبعاً رئيساً لطاقة الشمس . لأن تحوُّل الليثيوم والايدروجين الى هليوم لا يستغرق اكثر من بضع ثوانٍ اذا كانت الحرارة عشرين مليون درجة . يقابل هذا ان التفاعل بين البروتونات ونوى الأكسجين بطيء جداًّ فلا يفي في تفسير حرارة الشمس

أما التفاعل الذي يرجع اليهِ معظم ما يتولد في الشمس وما ينطلق منها من طاقة فقد كشفهُ الدكتور هانز بيث Bethe بجامعة كورنيل والدكتور كارل فون فيساكر وهو لا ينحصر في تفاعل واحد ولكنهُ سلسلة من التحولات حلقاتها مرتبط بعضها ببعض ، أي انهُ تفاعل مسلسل

فاذا كان مقدار الايدروجين وافياً توقف معدل التحول على نسبة الكربون أو النتروجين في كتلة الشمس . واذا سلَّمنا بأن نسبة الكربون في كتلة الشمس تبلغ واحداً في المائة — بحسب علم الفلك الطبيعي — فاننا نجد أن « بيث » استطاع أن يثبت أن مقدار الطاقة

المنطلقة من الشمس على اعتبار ان معدَّل الحرارة ٢٠ مليون درجة ، يطابق المقدار المنطلق منها فعلاً . ولكن اذا فرض ان حرارة قلب الشمس ٥٠ مليون درجة فان الدورة تستغرق خمسة ملايين من السنين اي أن كل نواة من الكربون او النتروجين دخلت في هذا التفاعل تخرج منهُ ثانيةً بعد هذا الزمن وكأنها لم تمس

فماذا ينتظر من تحوُّل في شمسنا نتيجة لاستنفاد وقودها الايدروجيني ? يبدو لأول وهلة أن هذا يفضي الى نقص مستمر في مقدار الطاقة المتولدة فيها . وهذا يعني أن شمسنا سالكة طريقاً يفضي بها رويداً رويداً الى القتام والبرودة

ولكن بحث العلامة « جامو Gamow » يدل على ان الشمس على الرغم مما تقدم سالكة الآن طريقاً يفضي بها رويداً رويداً الى زيادة الحرارة والاشراق

ذلك ان معدل التحول في نوى الذرات لا يتوقف على مقدار العنصر المتفاعل (وهو الايدروجين) بل على درجة حرارة التفاعل كذلك . ولا يخفى ان الهليوم الذي يتولد في باطن الشمس نتيجةً لتفاعل الايدروجين ، أكثف من الايدروجين وأقل شفوفاً منهُ . فالطاقة السالكة طريقها من باطن الشمس الى سطحها للاشعاع ، تجد في الهليوم ستاراً اختراقه أشق عليها من اختراق ستار الايدروجين فيزيد مجمع الطاقة في باطن الشمس . وهذا يفضي بدوره الى زيادة معدل حرارة الشمس والى زيادة معدل التفاعل النووي وزيادة معدل الطاقة المتولدة من هذا التفاعل . ولا بدَّ من أن يزيد على الزمن برغم ستار الهليوم ، مقدار الطاقة المنطلق من سطح الشمس لكثرة المخزون في باطنها . وبعد انقضاء زمن معين يزداد هذا المقدار مائة ضعف في حين أن مقدار الايدروجين في كتلة الشمس يكون قد قارب النفاد

ولكن هذه الحالة لا تحدث تغيراً في الحرارة المتولدة والمنطلقة فحسب بل تحدث تغيراً في حجم الشمس فيزيد حجمها أولاً — لأن زيادة حرارة الباطن تفضي الى زيادة الحجم فيزيد الاشعاع ويقل التفاعل — ثم بعد ذلك يبدأ حجمها في الضمور

وزيادة حرارة الشمس بمقدار مائة ضعف يرفع معدَّل حرارة سطح الارض الى درجة غليان الماء . واذا كانت الصخور لا تنصهر عند ما تبلغ هذه الحرارة ، فالبحار والمحيطات تبلغ درجة الغليان

***

من المتعذر علينا ان نتصور حيًّا ما باقياً على سطح الارض في مثل هذه الاحوال . ولكن يجب ان نذكر ان التغيُّر في اشعاع الشمس بطيءٌ جدًّا . يدلُّ على ذلك ان في اثناء العصور

الجيولوجية المعروفة ، خسرت الشمس مقدار واحدٍ في المائة من ايدروجينها ، ولكنَّ معدل حرارة الأرض لم يزد الاَّ بضع درجات

غير ان الارتفاع البطيء المتدرج في معدل حرارة سطح الأرض، يحتمل ان يصحبهُ تطوُّر في عالم الاحياء بحيث تصبح الاحياء قادرة على العيش في بيئة حرارتها أعلى من حرارة بيئتها الحالية . ولكن لما كانت الاحياء العليا — كما نعرفها — عاجزة عن العيش في ماءٍ غالٍ ، فالغالب ان ارتفاع الحرارة يصحبهُ تنكُّسٌ وانحطاط في انواع الأحياءِ . ولذلك يرجح أن تكون الأنواع العليا من الأحياءِ قد اندثرت من الأرض قبل ان تبلغ حرارة سطحها على المعدَّل درجة الغليان

ومتى استنفدت الشمس آخر ايدروجينها تغدو وهي مجرَّدة من مصادر الطاقة الذرية ، وعندئذٍ تبدأ في التقلّص . ولكن الحرارة الناشئة عن التقلُّص لا تكفي لبعث الروح فيها بعثاً جديداً ، وهي اذا قيست بالطاقة الذرية لم تكن شيئاً مذكوراً . وعندئذٍ تبدأ الشمس في الانحطاط اي في الضمور وضعف الاشراق . وعندئذٍ تشرف على «الموت»

وقد نتصور الشمس في هذه المرتبة من تحولها، كتلةً صخرية باردة . ولكن هذا تصوُّر خاطىء . والغالب ان حالة باطن الشمس تكون حينئذٍ على غير ما نعهدهُ من احوال المادة على سطح الأرض

***

ان الغازات تعنو للضغط لأن الفراغ بين ذرَّة واخرى ، وجزيء وآخر ، فراغ كبير جدًّا وبخاصة بالقياس الى احجام الذرَّات. وعندما ننفخ الهواء في عجلة سيارة لا نضغط جزيئات الهواءِ نفسها وانما نقلل المسافات التي تفصل بينها . ولكن اذا مضينا في ضغط الهواءِ ، ولاسيما اذا برَّدنا الهواء المضغوط تحول سائلاً وعندئذٍ تعجز زيادة الضغط عن نقص حجم السائل نقصاً يذكر . أما السوائل والجوامد فذراتها وجزيئاتها قريب بعضها من بعض قرباً متفاوتاً وهذا سر المشقة في ضغطها ونقص حجمها

على اننا نعلم أن الذرات نفسها فراغ على الأكثر ، وان معظم كتلة الذرَّة مركز في نواتها . والكهيربات واقعة في نطاق سديمي حول النواة على أبعاد كبيرة جدًّا بالقياس الى حجم النواة والكهيربات نفسها ، حتى لتبلغ مسافة الكهيربات في بعض الذرات الوفاً من أضعاف حجم النواة نفسها

ولكن بالضغط الشديد ، أو بالحرارة العظيمة والضغط الشديد ،قد تنحشك الذرات تشغل حيزاً من المكان اقل كثيراً من الحيز الذي تشغله وهي في حالتها الطبيعية . أي أن الكهيربات البعيدة عن النواة مثلاً تتداخل في مناطق الكهيربات القريبة من النواة وكذلك تصبح المادة المحشوكة على هذا الوجه كثيفة جدًّا حتى لقد تزن البوصة المكعبة منها — كما في رفيق الشعري — ٦٢٠ طناً ، وحتى اذا ذهب رجل يبلغ وزنهُ على سطح الارض ١٥٠ رطلاً الى سطح نجم من هذا القبيل ووقف عليهِ بلغ وزنهُ على سطحهِ ٢٥٠ الف طن . ويبلغ من شدة جذب كتلة النجم لهُ ان ينضغط وينبسط كأنهُ واقع تحت كتلة بارجتين ضخمتين

وقد حسب العلماء مبلغ الضغط الذي يفضي الى هذه الحالة غير المألوفة من حالات المادة ، فاذا هي ١٥٠ مليون جوّ ، يقابلها الضغط في مركز الارض فاذا هو لا يزيد على ٢٢ مليون ضغط . أي ان كتلة الارض وضغطها على مركز الارض لا يكفي لضغط الذرّات وحشكها على النحو المتقدم ولكن كتلة المشتري تفوق كتلة الارض ٣١٧ ضعفاً . فالضغط الواقع على مركزهِ قريب جدًّا من الضغط اللازم لتحويل المادة الى هذه الحالة العجيبة . واذا كانت الذرات في باطن المشتري لم تضغط وتحشك فانها قريبة من ذلك الحدّ بحيث لو زادت كتلتهُ الزيادة اللازمة لصغر حجمه وزادت كثافته وكل جسم تزيد كتلتهُ على كتلة المشتري لا بدَّ ان يفضي ضغط كتلتهِ الى انضغاط ذرّاتهِ فيقصر قطرهُ ويصغر حجمهُ بغير ان تقلّ كتلته وكل ما هنالك ان معدَّل كثافتهِ يزيد

فالمشتري أكبر جسم من المادة الباردة يمكن ان يكون

والشمس عند ما تبلغ مرتبة « الموت » الكوني اي عندما يضمر حجمها ويقل اشراقها ، تكون أصغر حجماً من المشتري مع أنها أعظم كتلة منهُ

وقطرها حينئذٍ يكون من قبيل قطر الارض فتوضع في طبقة « الأقزام البيض » وقد دعيت اقزاماً لصغر حجمها ووصفت بالبياض لشدة تألق سطحها وارتفاع حرارتها البالغة درجة البياض

نحيل حضرات القراء على مقالين في هذا الموضوع أحدهما مقال : نجوم الأقزام البيض مقتطف مارس ١٩٤٠ ص ٢٥٥ والآخر فصل: آفاق الكون ، حجمه وحرارة نجومه وهو الفصل الاول في كتاب (آفاق العلم الحديث)



أثر الرياضة البدنية

في تكوين الخلق

لحضرة صاحب المعالي احمد محمد حسنين باشا
رئيس الديوان الملكي

ايها السادة

كان مزمعاً أن التقي بحضراتكم في هذا الحرم العلمي في يوم من أيام الشهر المقبل لأكون آخر متحدث في موسم الاتحاد الانكليزي المصري الثقافي لهذا العام ، غير ان الاتحاد شاء ان يجعلني أول من يفتتح برنامج محاضراته . وبهذا قصر عليّ الطريق فما بقي لي الوقت الذي يستلزمهُ بحث موضوع عميق كهذا البحث . فان رأيتم ان حديثي اليوم غير موفٍ وانهُ ظاهرة فيه العجلة وانهُ مجرد خطوط وحدود اكثر مما هو جوهر ولباب فمعذرة كريمة

وأرى لزاماً عليّ قبل أن ألقي كلمتي هذه ان اشكر هيئة الاتحاد الموقرة اجزل الشكر أن أتاحت لي هذه الفرصة السعيدة فرصة التحدث اليكم في الرياضة والاخلاق لعل في هذا الحديث بعض فوائد ينتفع بها شباب مصر الناهضة وخاصة في مثل هذا الظرف الدقيق الذي تجتازه بلادنا التاريخية العزيزة والذي تشهد فيه عن بعد وقرب براكين الحرب تتفجر فوق بقاع الأرض وتنتقل حممها المستعرة من ميدان الى ميدان والذي نستطيع ان نقف منهُ على مدى ما يمكن لذلك السلاح المستتر وراء السيف والمدفع ان يؤدي من واجبات وفروض وأعني بهذا السلاح وهو عندي أقوى الأسلحة وأمضاها : الاخلاق

ولست بمطيل الكلام في موضوع بديهي وليس منكم من يجهله . ألا وهو شأن الاخلاق في بناء الامم وأثرها في تدعيم اركانها وتشييد مجدها . فذلك امر معروف سجله التاريخ في صحفه ولم يعد يحتاج الى بيان

ولقد عمد علماء الاخلاق والاجتماع والفلاسفة الى التنافس في وضع الكتب الخاصة بالاخلاق ونشرها بين ابناء اجيالهم وتحايلوا على استنباط اسهل الطرق التي تؤدي الى ان يفيد النشء بها ويتأثر

وراقت هذه الموضوعات رجال التربية والتعليم فسارعوا الى تضمينها برامج التثقيف في المدارس على أنها عنصر رئيسي في مناهج التعليم المدرسي يبذل الاساتذة جهدهم في بث هذه النظريات في أنفس ابنائهم وغرس أصولها في عقولهم من طرق شتى

التمسوا في سبيل ذلك الكتب الملأى بالنصائح والمثل العليا والمؤلفات الفياضة بالقصص التاريخية والخيالية والمصنفات المحتوية رسالة الكتب السماوية في الاخلاق . ملتمسة في ذلك الحض والترغيب تارةً والوعيد والتخويف تارةً أخرى

وكان الرأي الاساسي في هذا الموضوع أن يزوّد النشء بهذه الدروس النظرية الاخلاقية حتى اذا أكمل الفتى دراسته واوشك أن يدخل ميدان الحياة إفاد مما تلقن من هذه الدراسات العقلية واستطاع أن يطبقهما على شئون الحياة تطبيقاً عمليًّا

جاء الانكليز أيها السادة آخر الأمر وكانوا قد أخذوا بما أخذت بهِ مدارس غيرهم من البلاد متبعين نفس الطريق طريق الكتاب والمدرس في تلقين أصول الاخلاق للنشء . جاء الانكليز وهم قوم عمليون طبعوا على تبسيط الطرق ليسهل ادراك الغايات وفاجأوا العالم المتمدن باكتشاف جديد في هذا الموضوع اكتشاف ما اكاد اسميهِ علماً جديداً ومايسميهِ آخرون فتحاً جديداً في عالم التربية القومية . ذلك هو تطبيق أصول الاخلاق منذ الصغر تطبيقاً عمليًّا على شئون الحياة متخذين من ميدان الالعاب الرياضية الحقل التجريبي لهذا الاعداد النفسي الشاق

ولقد هداهم الى هذا الاكتشاف أمران : —

أولهما . قلة مارأوا من فوائد ايجابية للدراسات الاخلاقية النظرية . فالآخذ بها يكاد ينساها عندما يصدم بالصخرة الاولى من صخور الحياة

وثانيهما . أن نفس النشء الصغير لينة كقطعة العجين صالحة أيما صلاح لتتأثر وهي في تلك السن المبكرة بكل مايراد لها أن تتأثر له والشكل على كل ما يجب لها أن تتشكل عليهِ . فان أنت أردتها شيطاناً فهي شيطان . وان أنت احببت أن تكون ملكاً فهي ملك

آثر الانكليز اذن أن تدرس الاخلاق دراسة عملية منذ الصغر واتخذوا ميدان الالعاب الرياضية ليكون الحقل التدريبي لهذه الدراسة الاخلاقية . وبذلك اختصروا طريقاً طويلة ووفروا سنين عدة ومكنوا لأبنائهم اذا خرجوا من أبواب المدارس ليدخلوا أبواب الحياة أن يكونوا مزودين سلفاً بالسلاح الذي يخوضون بهِ غمار الحياة سلاح الأخلاق وهو كما قلت أقوى الأسلحة وأمضاها

لننتقل الآن أيها السادة الى ميادين الألعاب . لنرى — أولاً ماذا يفيد منها اللاعب . ولنرى — ثانياً — كيف انها تمثل في صورة مصغرة ميادين هذه الحياة

ها نحن أولاء نرى بين ايدينا طريقين للألعاب طريق الألعاب الفردية وطريق ألعاب الجماعة فالميدان الأول — ميدان الألعاب الفردية وأعني بها الألعاب التي يواجه فيها اللاعب الفرد خصماً واحداً هذه الألعاب تروّض اللاعب على الشجاعة والصبر وبذل الجهد والجرأة واستخدام الفكر وحسن التصرف وتجنب اليأس اذا غلب والتواضع حين ينتصر والاعتماد على النفس وخلق الأمل في الصدر . ثم انكم ترون — أيها السادة — كيف يتعلم الفرد — في هذا الميدان — أقدس الواجبات الاجتماعية التي ترسم لهُ حدود خصمه . وتعلمهُ أنهُ خصم شريف وليس عدوًّا . فهو اذا وقع في أثناء اللعب أنهضهُ واذا جرح ضمده واذا انتصر عليهِ صافحهُ بقلب صاف لا يعرف الضغن ولا الشماتة

اذا رأيتم أيها السادة كل هذه الاخلاق الفاضلة تنبت وتزدهر وتقطف ناضجة في الحقل الرياضي فاذكروا ان ثمت صفات عالية أخرى مختفية وراء جدران الملعب الرياضي وان أثرها في خلق الرجولة المبكرة لا يقل عن أثر الاخلاق التي لمستموها في شيء واعني بهذه الصفات يتطبع بها النشء تطبعاً من تلقاء نفسه في أثناء تحضيره لالعابه . انهُ ليروض نفسه على الحد من رغباتها والتسكين من قلقها والكبح من شهواتها والتضحية بما تنزع اليهِ من ملذات وصبوات

ترون أيها السادة — أن كل خلق من هذه الأخلاق وكل صفة من تلك الصفات انما هي هي بعينها الأخلاق والصفات التي ينشدها المجتمع في المثل الانساني الكامل . فاذا ما مرن عليها اللاعب وهو صغير وتأثرت بها نفسه وهي لينة وفهم روحها منذ حداثته واحاطت بهِ جوانبها وهو بعد في سن مبكرة لم يعد ثمت شك في أن يصبح هذا اللاعب حين يكبر الرجل الكامل المرتجى . وان يتغير منهُ خلق ولا صفة وهو ماضٍ في طريق الحياة فهي ثابتة في نفسهِ متمكنة من طبعه . انما الذي يتغير هو محيط حياته فقط . وان يكون في نظاره سوى الميدان الرياضي القديم اتسعت ارجاؤه وتشعبت نواحيه

ذلكم — أيها السادة — ميدان الالعاب الفردية

فلننتقل بعد ذلك الى ميدان ألعاب الفرق او ألعاب الجماعة . ولنرَ مرة أخرى ما يفيد منها اللاعب ومدى آثارها في تكوين الخلق

ويجب ألاَّ يغيب عنا — قبل كل شيء — ان كل ما يتأثر بهِ اللاعب الفردي انما هو متوافر للاعب الجماعة . ثم ماذا تكون ألعاب الجماعة ؟ ان هذه الالعاب حركة مشتركة وأداء مشتبك وعمل موحد واذن فمثل هذا النوع من اللعب عبارة عن تنظيم دقيق لعلاقة اللاعب بفريقه . كما انهُ تنظيم دقيق لعلاقة اللاعب بخصمه وفي هذا الميدان يضحي الفرد أمام الفريق ويضحي الفريق أمام الغاية الكبرى من اللعب . ولكن ليس معنى ذلك فناء الشخصيات اللاعبة

بل ان معناه تحديد عمل هذه الشخصية وتنظيم خطاها وتعيين وظيفتها . فاللاعب المنظم يخلق أحسن الفرص ويهيء أنسب الظروف لاظهار مقدرة اللاعب . ذلك لانه يجعل عمله ومجهوده مشتبكاً اشتباكاً وثيقاً مع عمل فريقه ومجهوده

وهكذا — في مثل هذا الميدان أيها السادة — تنكر الذات كما ترون وتتحمل المسؤولية عن طيب خاطر وينظم عمل الجماعة بين أفرادها من ناحية وبينها وبين خصومها من ناحية أخرى وتشيع روح التضامن القوي ويتجلى مظهر التعاون الوثيق في أروع الصور

فلا تعجبوا اذن أيها السادة اذا رأيتم بلاد هذه الامبراطورية كلها تهب هبة رجل واحد تحمل السلاح دفاعاً عن مثلها المشتركة العليا . انما ذلك وحي الملاعب الرياضية الذي بدأ بالفصل المدرسي ثم بالمدرسة ثم بالجامعة ينبعث في الأيام الشداد ويأخذ يذكر من جديد بأن التضامن والمسؤولية هما الدين القومي لكل بريطاني لزام ان تؤدى فرائضه عندما يدق ناقوس الخطر

مع هذا كله ، لم يترك الانكليز ميدان اللعب يوجه اللاعب الوجهة التي يراها من غير قيد ولم يتركوا كذلك للاعب حرية الافادة من اللعب بلا ضابط بل انهم حدوا هذه الحرية بحدود وفرضوا على الميدان قوانين . وركزوا الألعاب على قواعد واحاطوا اللاعبين بقيود أدبية قد تكون في كثير من الاحوال مسرفة في القسوة وجعلوا عماد ذلك التشريع الفني : الأخلاق

فعلوا ذلك أيها السادة وبالغوا فيه كما سترون حتى لقد استهدفوا من أجله لتنديد أكثر البلاد . وما ذلك الا لأن تلك البلاد لم تكن تفهم أول الأمر من أسرار الروح الرياضية ما فهمه الانكليز . ولعلها فهمته اليوم حق الفهم . وفهمت ضمناً أن هذا الشعب العملي كان على حق حينما عنى بالألعاب هذه العناية كلها . وحين احلها من برامج تعليمه المحل الأول . وحين لم يعتبرها كما يزال يعتبرها كثير من الناس ميادين لهو مبتذل . وانها مضيعة للوقت ومعينة على بلادة الذهن . بل ومفسدة للاخلاق أيضاً

ولنرى الآن ما هي تلك القيود والقوانين التي شرعتها التقاليد الرياضية الانكليزية واحاطت بها الميادين واللاعبين . ولست بذاكر نصوصاً ولا مواد بل اني سأسوق بعض حوادث . وقع شيء منها لي وشيء لغيري . وأشياء عامة أخرى . وأرجو أن يكون فيها غناء . وان تستخلصوا منها مدى تقدير القوم لهذه الألعاب تقديراً يكاد يتسامى الى مقام التقديس

فقد حدث اني لما كنت ملتحقاً بالفريق الثاني لكرة القدم بكليتي اكسفورد ان استقرت الكرة يوماً بين قدميّ وأنا قريب من المرمى . فأوعز اليّ رئيس الفرقة ألا أمس الكرة وأن أدعها لزميلي الذي كان عن يميني . فلم أفعل وسددت الكرة نحو المرمى ولكنها لم تصب الهدف وفي أثناء الراحة أقبل رئيس الفرقة عليّ وأخبرني اني أخطأت في عدم الاستماع اليه ولفتني الى

ألاَّ أخالف أمره مرة أخرى. واتفق في أثناء الشوط الثاني ان استقرت الكرة ثانية بين قدمي في اللحظة التي كنت أواجه الهدف. فأوعز اليَّ الرئيس — كما فعل أول مرة — أن أتركها لزميل آخر فلم أستمع لرأيه. وضربت الكرة ضربة موفقة فأصابت الهدف. وفرحت أيما فرح. وكنت اذ ذاك مرشحاً لأن أنتقل من الفريق الثاني الى الفريق الأول للكلية. وقدرت اني لا شك مدرك هذه الترقية وخاصة بعد أن اصبت الهدف واصرت فريقي. ولكن شد ما كان عجبي ودهشتي حينما ناداني الرئيس بعد انتهاء اللعب وأخبرني انهُ يأسف أولاً لعدم اطاعتي للامر في كلتا الحالين. ويأسف ثانياً لان يرى نفسه مضطرًّا للاستغناء عني حتى في الفريق الثاني. فجادلته محتجًّا بأني في المرة الثانية أصبت الهدف. وبفضلي انتصر الفريق. فقال لي بصوت هادىء متزن «قد يكون الانتصار رغبتنا الشديدة في اللعب. ولكن قبل ذلك يجيء النظام»

وحدث في أثناء المباريات الأولمبية التي أقيمت بمدينة استكهولم سنة ١٩١٦ ان كان بين أفراد فريق للالعاب الرياضية عدَّاء ماهر ملأت شهرته الأسماع وأبهر الصحف لما أبدى في فنه من تفوق بعد تفوق. وكان مزمعاً بالطبع ان تشترك الفرقة في المباراة الدولية وكان مقدراً كذلك ان يأتي هذا العدَّاء بنتائج ترفع من شأن فرقته وبلاده وكان متحتماً على أعضاء هذا الفريق ان يكونوا في مخادعهم في تمام الساعة العاشرة ليلاً. ولكن لأمر ما تأخر هذا العدَّاء في إحدى الليالي نصف ساعة عن الموعد المقرر للنوم. فما كان من رئيس الفرقة الاَّ ان أعاده فوراً الى بلاده على ظهر اول باخرة أبحرت اليها

ولعلكم تعلمون أيها السادة ان طالب العلم في جامعة اكسفورد او كمبردج ليعتز جد الاعتزاز اذا ما اختارته جامعته ليمثلها في لعبة من الألعاب الرياضية. وليس من عجب ان يخالجه وهو الذي يمثل نحواً من ثلاثة آلاف طالب او يزيد، شعور خفي ببطولته الرياضية لتفوقه في هذه اللعبة على أقرانه أجمعين. ولكن هذا الانتخاب الاجماعي لا يكفي لتمتع الطالب بشرف المباراة اذا أعوزه جانب ظاهر او خفي من جوانب الرجولة الحقة ولا يتردد المسؤولون عن الأمر عن التضحية به والتخلية بينهُ وبين النزول الى ميدان اللعب مهما يكن تفوقه الرياضي والثقة التامة بانتصاره

فلقد حدث يوماً في جامعة اكسفورد ان كان أحد الطلبة مرشحاً لتمثيل جامعته في لعبة الكركت. ولم يشك أحد منا في ان لهذا الطالب زميلاً منافساً او في احتمال استبداله بآخر لأمر ما. نظراً لما كان يمتاز بهِ في هذه اللعبة امتيازاً كبيراً. واتفق في أثناء مباراة تجريبية أقيمت قبل اللعب لانتخاب الفريق الذي يمثل الجامعة ان جاء صاحبنا متأخراً بعض الوقت عن

بدء اللعب . فقد كان متعباً من جراء سهرة اضطرته الى ان يطيل في النوم اكثر مما يجب فما كان من رئيس الفرقة الا ان نحاه عن اللعب واستبدل به آخر . وكان القانون الذي اعتمد عليه في هذا الحكم الجائر قوله في لهجة حادة « اذا لم تكن تقدر المسئولية في اللعب التجريبي فلا يمكن ان اعتمد عليك اذا ما كنت ممثلاً للجامعة يوماً ما »

انظروا الى ناحية اخرى في هذا الموضوع ايها السادة وقعت لي في حلبة السلاح . فقد كنت ألاعب زميلاً لي في الجامعة فأصبت اصابة لم يفطن اليها الحكم . فقر بها كريماً فدهش ماحي وهمهم في اثناء اللعب . وقال « ولكنك اصبتني » قلت له « ان الحكم لم يفطن لما أصبت » . واسترحنا وما كدنا نبدأ الدورة الثانية حتى فتح صدره غير مدافع فأصبته طبعاً . فقال « لقد أخذت حقك . هيا اذن نتم اللعب »

ايها السادة : ما اشبه ميادين الحياة بميادين الالعاب كما قلت بل انها هي بعينها تلك الميادين الرياضية في صورة أوسع وارجاء أفسح . وما نحن الرجال — في كل ما نضرب فيه ونتحايل وننشط في مناكب الارض الا اولئك الصبية او التلاميذ وهم ينشطون ويتحايلون ويتواثبون في ميادين الالعاب . ان كل ما يعرض لنا في طرق هذه الحياة من شدة ويسر . وضيق وفرج . ونجاح وفشل . انما عرض لنا يوماً في صورة مصغرة في ميادين الالعاب . وان كل ما أفدناه من تلك الميادين الرياضية من صفات واخلاق انما هو تراث معنوي مستقر في اعماق النفس يظهر اثره في الحوادث فيمدنا بالرأي ويلهمنا الحكمة ويحث فينا الهمة ويضيء صدورنا بالأمل ويملأنا ثقة بالمستقبل ويدفعنا الى طلب النصر من الطريق الشريف . والا فالفشل الشريف أحق وأولى

قفوا ايها السادة عن كثب من حلقة الملاكمة في جامعة ما وتمثلوا قصة هذين الملاكمين التي اقصها عليكم . لقد كان أحدهما أكفأ من صاحبه . ولقد أثقل الاكفأ على زميله في الشوط الاول . ونال منه في الشوط الثاني . فأسر الى مدربه بقوله انه لا يستطيع المضي في مقاومة خصمه فقال له مدربه « تحمل واستمر » وجاء الشوط الثالث ولكن خصمه القوي لكمه لكمة أوقعته على الارض يتوجع . فنظر الى مدربه نظرة يرجو منه فيها ان يعفيه من مواصلة اللعب فحسبه ما ألم به . وهنا أجاب المدرب بصوت عال « اصمد له واستمر » . فما كان منه الا ان نهض مستجمعاً كل ما له من قوة ولكم خصمه لكمة خر من أثرها على الأرض واستسلم . وبذلك انتصر أقل اللاعبين كفاءة بفضل تلك المعجزة النفسية

مضت بعد ذلك السنون ايها السادة وتركنا الجامعة وشبت الحرب وانتهت واتفق ان قابلت ذلك الملاكم المنتصر في أحد شوارع لندن وسألته عن امره فقال انه انتظم في الجيش وسرح

بعد أن خمدت الحرب وكان أبوه قد أضاع كل ما كان يملك . وتعطل فلا رزق ولا مال وأظلمت الدنيا في عينيه ووطن نفسه بعد ان باع كل ما كان يملك على ان يبدأ حياة جديدة في إحدى المستعمرات . غير ان نظره وقع عفواً ذات يوم على صورة له ومدربه القديم بمكتبه فتذكر من فوره صيحته اله « ان أصمد لهُ واستمر » وكأنها على حد تعبيره هاتف سماوي يسخر من النفوس المستضعفة فسرعان ما صمد للحوادث وما لبث بعد ذلك ان وفق الى عمل وفقه اليه عزمه وأمله وصبره ومثابرته

وكم من ليال قضيتها في الصحراء — ايها السادة — وأنا مسهد الجفن . شارد الذهن . حيران لا أدري ماذا اصنع . فهناك . حين تبعث الى الصحراء من جوفها المجهول العاصفة السافية فتنهد خيمتي . وتتعطل أدواتي العلمية . وينضب الماء . وينفق الجمل في أثر الجمل . ويُسأل الدليل أين نحن . فيقول — وهو كالحالم — الله اعلم . هناك حين تنمحي معالم الطريق . ونكاد ننتهي في كل خطوة الى قبر . وأسمع همهمة من رجال القافلة هي ولا شك تذمر مكبوت مما تعاني صدورهم من ضيق في هذا المنبسط الرملي الغامض وتخور قواي ويأخذني التعب فلا أستطيع ان أنقل قدماً بعد قدم . وأشعر بأن هذا الفراغ المصفر الفسيح قد استحال الى طوق حديدي صغير أخذ يحتوي رقبتي ويضيق عليها شيئاً فشيئاً . هنالك في أمثال هذه اللحظات وهي مفارق يسيرة بين حياة مشكوك فيها وموت محقق هنالك كنت انتقل من فوق الرمال الى ملاعب الرياضة القديمة وأسكن ساعة الى ذكريات عزيزة فأراني قد وقفت من أزمات مواقف تشبه من وجوه موقفي في ذلك القفر الموحش اللانهائي . وأراني قد تغلبت عليها في النهاية وانتصرت . بماذا؟ بالصبر — ايها السادة — والتحمل . وضبط النفس . وهدوء الأعصاب حتى لا يختلّ تقديري . وبشط فكري. فسرعان ما ألمح قبس الامل يختلج بين عيني . وما ألبث أن أجمع زمامي وأتغلب على ما يعرض لي من صعاب . وأرى القافلة تستأنف مسيرها على هدى وأرى رجالي وقد سري اليهم المرح فانطلقوا يغنون ويتضاحكون

هنالك أثر آخر من آثار الرياضة في النفس وغلبتها على طبيعة الانسان حتى في وقت الخطر فقد حدث عند ما أردت أن أهبط مصر طائراً أن انكسرت بي الطائرة في بدء الرحلة فأصلحتها ومضيت بها فسقطت في ايطاليا وتحطمت . ثم حلقت في طائرة جديدة أخرى فسقطت في مياه صقلية . واستخدمت طائرة ثالثة كان من حظها ان سقطت هي ايضاً . وعدت الى مصر على غير متن الهواء لان رغبة ملكية كريمة اقتضت ذلك . ترون ان الفشل المتلاحق والتعرض لشر الاخطار لم يكونا أبداً ليثنياني عن عزمي . ولعلّ سر هذا الشعور الغريب ملاحظة عابرة كان أبداها لي استاذ الرياضة بجامعتي في اثناء مباراة الهوكي وقد غلب فريقنا بـ ١١ على ٣ ولما

ذهبت اليه أبين له عبث الاستمرار في اللعب ولاسيما بعد ان أخذ المطر ينهمر قال لي وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة.. «تفضل وأنتم أنت وزملائك اللعب الى النهاية . وهذا ما أتيتم لاجله اليوم»

هذه الجملة ايها السادة هي التي كنت اسمع دويها في أذني بعد ان غادرت انكلترا بسنين . وهي التي يرجع اليها فضل مواجهتي الموت غير مرة كما ذكرت

ايها السادة : لئن كان من الميسور ان أبين لحضراتكم في مثل ذلك الوقت المحدد أثر الروح الرياضية في تكوين الاخلاق فانهُ من الصعب ان أبين هذا الاثر في نفسية الشعوب ومصائر الأمم. أما الآن ، وهذه الحرب قد شبت وحدث من شؤونها ما حدث. ووقع من ويلاتها ما وقع وكان من صروفها ما لم يكن يخطر لاحد منا على بال

فان امامكم اكبر مثل وأروعه يطالع التاريخ بهِ العالم حين يسجل موقف انكلترا منها .ذلك الموقف الذي لم تكن مدينة فيهِ لصفحات الكتب ولا لمنابر الخطابة ولكن لميادين الالعاب الرياضية

اضطرت انكلترا الى خوض غمار الحرب – كما تعرفون — وهي غير مستعدة لها . ولكنها حين رأت الواجب يقضي عليها بتجريد السلاح بعد عشرين عاماً من حرب طاحنة عانت فيها ما عانت ودفعت من الثمن الباهظ ما دفعت . مضت تتحمل التبعة غير ضجرة ونهض الشعب كله ، بل شعوب الامبراطورية جميعاً نهضة رجل واحد كل فرد رجلاً كان او امرأة شيخاً كان او صبيًا يسعى في صمت للاخذ بنصيبه . واداء واجبه

وهكذا الشعوب أيها السادة تردد صدى ميادين ألعابها . فاذا رأيتم لاعباً في أمة من الأمم قد استأثر بالكرة مثلاً . ملتمساً اعجاب الجمهور به وتصفيقه له فثقوا انهُ اذا كبر ودخل ميادين المجتمع فسيكون فيها كما كان في ميدان اللعب.سيكون الفرد الذي يؤثر نفسه على الجماعة ويضحي في سبيل أنانيتهِ بكل مثل من المثل العليا

واذا وجدتم لاعباً في ملعب من الملاعب يتهرب من المسؤولية ويلقيها على زميل له ويحتكم الى الجمهور بطريقة من الطرق مبتغياً ان يكبره وينتصر له ، فاذكروا انهُ بمثل هذه الاخلاق سيعيش في المجتمع

واذكروا كذلك أيها السادة ان أمة يرضيها ان تسود الفوضى فيها ميادين الالعاب ويتنصل أبناؤها من التبعات بسهولة هي في الواقع أمة منحلة العرى مفككة الروابط

الأمم مراياها ميادين ألعابها

والشعوب تمثل في حياتها أخلاق لاعبي الرياضة من بنيها

لا عجب اذن ان نرى الانكليز وهم يسيرون الى ميادين الحرب وعلى كل شفة ابتسامة وكل وجه آية الرضا ، وكل لسان نكتة ذات معنى

إن أغرب ما سمع العالم اليوم عن البلاد المتحاربة ما سمع عن مبلغ الاستخفاف الذي يبديه الانكليز بويلات الحرب وكوارثها . فلقد علقت أندية الجلف بجدرانها نشرات تبين القواعد الجديدة التي أدخلت على هذه اللعبة ، متمشية في ذلك مع ظروف الحرب الراهنة كأنما هي اجابة غاية في التهكم المر على ما تحدثه الطائرات المغيرة بالبلاد من تخريب وتدمير

استمعوا أيها السادة الى بعض تلك القواعد الجديدة

اولاً — المرجو من الاعضاء ان يضعوا جانباً شظايا القنابل اذا ما وجدوها في طريقهم لكي يسهلوا بذلك عمل البستاني في تمهد الخضرة

ثانياً — اذا ما ألقيت قنبلة في ملعب الجولف وأحدثت حفرة اعتبرت هذه الحفرة كالحفر الصناعية الموجودة بالنادي . ويسري على اللاعبين القوانين التي تسري على حفر النادي الأصلية

ثالثاً — اذا ما همَّ لاعب بضرب الكرة ودوى صوت قنبلة طائرة معادية او سمع صوت قذيفة مدفع مضاد للطائرات . فشغله هذا الصوت او ذاك عن احكام ضرب الكرة ، فللاعب الحق في ان يعيد ضربها ولكنهُ يخسر نقطة . ولعلَّ هذه العقوبة جزاء له لأنهُ سمح لنفسه ان تضطرب ولو بأثر أدوات الموت في الوقت الذي يؤدي فيه عملاً مقدساً

وتذكر هذه المسألة بقصة شبيهة لها من بعض الوجوه . فقد كانت بارجة انكليزية تجوب أنحاء البحر . وكان ربانها قد أمر باقامة مباراة بعد الظهر لبعض الالعاب واتفق ان ظهرت بعد ذلك بوارج للعدو . ورؤي ألاَّ مناص من موقعة هائلة بعد قليل . فتقدم خادم القبطان الى سيده ، وهو في غاية من الهدوء وحياهُ التحية العسكرية وسأله « متى يرى سيدي ان تقام المباراة ؟ أقبل الموقعة أم بعدها »

أيها السادة بمثل هـذه الروح العظيمة المستمدة من ميادين الألعاب الرياضية يعيش هذا الشعب ويحافظ على امبراطوريته المترامية الأطراف

والآن وقد حدثتكم عن الرياضة وأثرها في تكوين الخلق . أتوجه اليكم يا شباب مصر لا بحض على أن تذهبوا الى الملاعب فأنتم تذهبون اليها. وانما أتوجه برجاء شديد أن تذهبوا الى هذه الملاعب وأنتم صادقو النية في الأخذ بهذين القانونين من قوانين الرياضة وهما ما يقولون عنهما Fair Play—Play the Game أي اللعب حتى نهاية الشوط واللعب العادل الشريف. وأن تجعلوا أيها الشبان من أهداف ملاعبكم رمزاً لاهدافكم الوطنية . اذكروا انكم تعدون أنفسكم اليوم للمستقبل واذكروا انكم ستقفون غداً في الملعب العالمي حراساً أوفياء على مجد الوطن . والله أسأل أن يجعلكم خيراً منا وأكثر توفيقاً

رسالة المؤرخ

في عصور الاضطراب

للدكتور قسطنطين زريق
استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

يختار أحدنا نوع عمله في الحياة ، او تدفعه الظروف اليه ، فيحمل اعباءه يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، الى ان يصبح ذلك العمل أمراً طبيعيًّا لا يثير في نفس صاحبه شكًّا او حيرة او تساؤلاً . وليس من ريب عندي في ان أكثرنا لو رجعوا الى نفوسهم ، ونظروا في حياتهم نظراً دقيقاً ، لوجدوا ان أعمالهم وطرق معيشتهم قد غدت عادات متأصلة في كيانهم ، وانهم يجرون فيها جرياً آليًّا ليس فيه كبير تفكير او تفاعل داخلي ، بل ان هذه الأعمال تصبح قسماً من ذواتهم لا ينفصل عنها ، وقلما يستطيعون — او يحاولون — ان ينتزعوها من نفوسهم، وان ينظروا اليها نظراً موضوعيًّا مجرداً ، ويتساءلوا عن معناها ومغزاها ، وعن قيمتها في حياتهم الخاصة وفي حياة من يتصل بهم من الأفراد والجماعات

هذا الموقف يصلح في عصور السكينة والرخاء . أما في عصور الضيق والاضطراب ، حين تهز النفوس من جذورها ، وتختل الحياة من أساسها ، فحريٌّ ان يكون الأمر على غير ذلك . في مثل هذه الأوقات يجب ان تنعكس الأزمة الخارجية في النفس ، فتثير فيها الأسئلة والشكوك وتخرجها من خمودها المعتاد ومن سيرها الآلي الى نوع جديد من النظر والتفكير ، وتدفعها الى ان تتأمل في حياتها وعملها وغايتها تأملاً مجرداً لا تردد فيه ولا التواء . فاذا جئنا نتفحص حياتنا في هذه الأيام العصيبة ، وجدنا ان أغلبنا لم يتأثر بالأزمة التي يجتازها هذا التأثر ، وان الشدة التي نعانيها ان كانت قد خلقت فينا قلقاً وخوفاً ، فهو القلق على معيشتنا الخارجية لا على جوهر كياننا ورسالتنا في الحياة ، وهو الخوف من تضاؤل مواردنا المادية لا من بعدنا عن الحق والصواب في بناء حياتنا الخاصة والمساهمة في انهاض مجموعنا وأمتنا . واذا كنا لا نطالب الغاء هذا النوع من القلق والخوف من الناس جميعاً ، فلا أقل من ان نطالبهُ من رجال « الفكر » أولئك الذين يفرض فيهم أنهم يعملون في خدمة المثل العليا ، ويسهرون على قوى الأمة العقلية والروحية ، ويحتلون مقاعد القيادة الحقيقية في مجتمعهم . فانهم مسؤولون لدى التاريخ ولدى

الحقيقة عن نوع قيادتهم ، وعن درجة تأديتهم لمهمتهم ، وعن كيفية مجابهتهم اللازمة وتوجيههم قوى الأمة لتحملها والتغلب عليها . فحري بهم ان يقفوا في مثل هذه الاوقات موقف التساؤل ، وان يشعروا بأزمة داخلية تقوم في نفوسهم فتحملهم على ان يفكروا في حياتهم وفي عملهم تفكيراً أساسيًّا جديداً . فان هم لم يقطعوا هذه الخطوة الاولى من جهادهم النفسي الداخلي ، فلا أمل لهم بأن يقوموا بواجبهم ، وخليقٌ بهم عندئذٍ ان يتخلّوا عن مقاعد القيادة الفكرية وأن لا يدّعوا انهم من خدَمة العقل والروح ، فهم موظفون فحسب ، او طلاب مادة او لهو أو أي شيء آخر عدا الأدب الخالص ، أو العلم الصحيح ، أو الفلسفة الحيّة أو سواها من مظاهر الفكر النير المبدع . وتعساً لأمة لم يرتفع قادة نفوسها عن هذا الدرك !

ولقد حدث ان اخترت في الحياة مهنة التأريخ ، وان وقفت نفسي على البحث في ماضي أمتي العربية وعلى جلاء بعض نواحي هذا الماضي لمن يتصل بي من الطلبة او غيرهم ، وكثيراً ما تساءلت في غضون هذه الازمة الطارئة بل قبلها — لان الأمة العربية تعيش في أزمة دائمة الى ان تستقر في الحياة الجديدة التي تطمح اليها — أقول : كثيراً ما تساءلت عن معنى مهنتي هذه ، وعن الرسالة الخاصة التي يجب على المؤرخين تأديتها تجاه هذا الاضطراب العميق الشامل . ولا أكتم القراء اني وجدت في ايضاح ذلك لنفسي صعوبة جمة ، وانني لا ازال اشعر بشيء من الحيرة والارتباك ، وأرى امامي غموضاً وابهاماً يمنعانني من ان ارسم في ذهني صورة جلية كاملة . ولذا فلا يخرج ما سأقوله في ما يلي عن بضع ملاحظات تمهيدية وخواطر اولية لا تزال دون الرأي الناضج والحكم القاطع ، أعرضها امام القارىء وليس يشفع فيها سوى انها صادرة عن رغبة في الوصول الى الحق وعن عزم اكيد على النظر الداخلي ومحاسبة النفس

***

مهمة المؤرخ في عصور الاضطراب تبدأ في نفسه . فما لم يكن للازمات أثر في ذات المؤرخ ، فمن المحال ان يكون لها بواسطته ، أثر في مجتمعه . او ان كل رسالة جديدة يؤديها الانسان يجب ان يسبقها تبدل اساسي في كيانه . والتبدل الاساسي الذي يجب ان تحدثه الأزمة في نفس المؤرخ هي أن تدفعه الى ان يجدد تفكيره في معنى « التأريخ » كعلم وفي غايته وأسلوبه ، وفي معنى « التاريخ »(١) كميدان لتنازع القوى البشرية والطبيعية ، فيقوم المؤرخ بمهمته على ضوء هذا التفكير الجديد وبالنشاط والحياة اللذين يخلفهما هذا التجدد في نفسه

ان العمل التأريخي يتناول ثلاث نواحٍ مختلفة : أولها الوصول الى حقيقة الماضي كما هي ،

(١) استعمل « التاريخ » بتليين الهمزة في هذا المقال بمعنى الحياة الماضية ، و « التأريخ » بمعنى العلم الذي يصف تلك الحياة

أي أن نتصور في ذهننا بالضبط الحوادث الماضية كما حدثت تماماً. هنا يكون المؤرخ عالماً، ويشارك سواه من العلماء في طلب الحقيقة، لا يخالفهم الا في المادة التي يختارها والميدان الذي يجول فيه، وهما — كما ذكرنا — ماضي الحياة البشرية. على ان هذه المهمة العلمية صعبة شائكة لأن المادة التي تستخلص منها الاحكام التأريخية كثيراً ما تكون مشتتة ناقصة، أو ملونة بغايات أصحابها ونزعاتهم الخاصة، فعلى المؤرخ ان يجمعها ويفهمها ويوفق بينها ويستخرج منها الحقيقة كما حدثت، أو بالأحرى ان يتصور الحقيقة كما حدثت لأن نتيجته هي أبداً تصورية لا حسية فكل حادثة تاريخية جرت مرة واحدة في الماضي لا أكثر، وهي فريدة في نوعها لا يمكن أن تجري مرة ثانية كما جرت اولاً بالضبط، بخلاف حوادث العالم الطبيعي التي تتكرر وتتعدد والتي يمكنك ان تشاهدها بعينك او ان تحدثها بنفسك. ولذا كان العمل العلمي التأريخي غاية في الصعوبة، وهو يتطلب جهوداً متنوعة، وصفات متعددة قلما تجتمع للشخص الواحد، فهو لذلك موزع بين أفراد وجماعات يختص كل منهم بناحية من نواحي البحث أو دور من أدوار الماضي. فمن واجب المؤرخ، المجدد تفكيره في معنى عمله بضغط الأزمة النازلة به وبمجتمعه، ان يوضح لنفسه هذه الغاية العلمية للتأريخ وخصائص الأسلوب الذي يؤدي اليها والصفات العقلية والأدبية والروحية التي تتطلبها، وان يميز جلياً القسم الخاص به من هذا العمل العلمي وعلاقته بالاقسام الأخرى، وبكلمة وجيزة: ان يفهم فهماً جديداً حدود وظيفته وطبيعتها ومؤداها. فاذا كان مثلاً ينشر اصلاً من الأصول القديمة، وجب عليه ان يجلو في ذهنه معنى النشر وقيمته، ومقامه من البحث التأريخي، والأسس التي يقوم عليها والغاية التي يسعى اليها، وبذلك يأمن من الضياع في الجزئيات ومن تفتت شخصيته تحت ضغط عمله اليومي المتكرر. وهكذا يجب ان يكون عمل الأزمة وأثرها في المؤرخ — بل في كل مفكر — ان تهزه من أصوله، وان تعيد له شخصيته، وتنقذها من خطر الانحلال والضياع

أما الناحية الثانية من العمل التأريخي، فهي التأليف التأريخي: أي اظهار النتائج التي توصل اليها البحث العلمي الذي وصفناه. لأن حقائق الماضي لا قيمة فعلية لها مالم تنشر ويطلع عليها الناس وينموا باطلاعهم عليها عقولهم ونفوسهم، وهنا يفرض على المؤرخ في أوقات الاضطراب ان يجدد تفكيره في نوع عمله التأليفي: في العصر الذي يعنى به، في الموضوعات التي يتناولها، في أسلوب العرض الذي ينهجه. ذلك ان جميع نواحي الماضي، اذا قيست بمقياس العلم المجرد، تستحق — بل تستوجب — ان تكون موضوع الدرس والبحث والاستقراء، لا فرق بين الواحدة والأخرى مطلقاً، لأن العلم لا يعرف الا مقياساً واحداً تتساوى عنده جميع الاحداث تساوياً تاماً: هو مقياس الحقيقة المجردة التي يجب ان يسعى اليها من كل ناحية وبكل طريقة

ممكنة . على ان حاجات مجتمع ما في دور من الأدوار ، قد تجمل لبعض الأعصر الماضية منزلتها الخاصة ، ولبعض الموضوعات خطرها الفائق ، نظراً لعلاقتها الماسة بالنزعات التي يجيش بها عصر المؤرخ وبيئته ، فمجتمعنا العربي الحاضر مثلاً هو اليوم في وسط هبة قومية تسعى الى حياة ناهضة جديدة . فالحالة هذه تحتم على مفكريه ان يهتموا اولاً بالمسائل التي تثيرها هذه النهضة القومية ، وتتطلب من المؤرخين ان يوجهوا عنايتهم الى أصول هذه المسائل في الماضي القريب والبعيد . كأن يبحثوا مثلاً في عوامل القوة وعوامل الضعف في المجتمع العربي الماضي ، او في العناصر الباقية الخالدة في المدنية العربية ، او في المشكلات الأساسية التي جابهها العقل العربي والنفس العربية وكيفية مجابهتهما إياها . هذه الموضوعات يجب في ما أعتقد ، ان تنال من اهتمام المؤرخين العرب في الوقت الحاضر أكثر مما تناله الموضوعات الأخرى من التاريخ العربي ، لأنها أوثق صلة بالحاضر وأشد التصاقاً بمشكلاته ونزعاته . أقول هذا وانا علىم انني أثير به انتقاد المتمسكين بالمبدأ العلمي الخالص ، الذين لا يقيمون للحاجات العلمية وزناً في البحث التأريخي ، كما انني اقر بان هذا التمييز بين موضوعات التاريخ قد يضيق افق الباحثين وبالتالي افق مجتمعهم وقد يجر الى نتائج اخرى غير مرضية ، ولكنني لا استطيع مع ذلك الاّ ان اشعر ان التنظيم الذي تقوم عليه الحياة الحديثة بكاملها يجب ان يطبق في هذه الناحية العلمية التأريخية فيقدم الأهم (أي الألصق بالحاضر) على المهم ، والمهم على التافه ولذا وجب — في نظري — على المؤرخ في عصور الاضطراب ان ينتبه من غفلته وان يتفهم حاجات مجتمعه ومطاليبه ، وان يختار على ضوء هذا الفهم المجدّد الحيّ نوعَ التأليف الذي ينصرف اليه وأسلوبه ، متقيداً في هذا كله بالشرائط العلمية الصحيحة ، لأن الحق وحده في النهاية يسود ، وما يبنى على غير الحق عبث زائل

غير ان مجرد الوصول الى حقائق الماضي وعرضها ليس كل عمل المؤرخ . فهناك بعدئذٍ تعليله لهذه الحقائق وحكمه عليها ، وبذلك يتخطى المؤرخ دائرة العلم الى الفلسفة ، فينظر في العوامل الفعالة التي تسيّر الحوادث البشرية : أهي القوى الطبيعية المنبعثة عن المناخ وطبيعة الأرض وموقع البلاد ، ام المنازعات الاقتصادية في سبيل العيش والكسب الماديّ ، ام حب السيطرة والطموح الى السيادة ، ام الصراع بين الافكار والشخصيات والارادات الانسانية ؟ كذلك يحكم المؤرخ على قيمة الحضارات المختلفة ، على الأمم وطبيعة حياتها ونوع مآثرها . ولكنهُ لا يستطيع ان يفعل ذلك ما لم يكن قبلاً قد بنى لنفسه فلسفة خاصة يحكم على الحوادث على أساسها ويقيسها بمقياسها ، ونظم تفكيره في نفسه وفي العالم بعقيدة فكرية ثابتة تعبر له عن الحقيقة النهائية في الكون والحياة . وبكلمة أخرى لا بدَّ للمؤرخ لتأدية مهمته كاملةً من ان يمكّن نفسه فلسفيًّا ، ويرتفع فوق الحوادث التي يصفها ليقدر قيمتها ويحكم عليها . وهنا ايضاً أخشى ألاّ

يوافقني اولئك المؤرخون المتقيدون بالغاية العلمية البحتة الذين يعتبرون مهمتهم قاصرة على وصف الحوادث دون الحكم عليها . وعندي ان هذا الوصف نفسه لا يكون صحيحاً كاملاً الا اذا كان على ضوء نظرة شاملة وبتأثير تفكير تعليلي عميق . فمن خصائص الازمات أو الاضطرابات — اذا شعر بها المؤرخ شعوراً داخليًّا كما يترتب عليه أن يفعل كان حقيقي لعصره وكمشارك لمجتمعه في حياته — أن تحرك المؤرخ ، وتدفعهُ الى التساؤل مجدداً عن معنى الحياة البشرية وعن القوى الفعالة فيها وعن الكون وما وراء الكون ، وتحمله على أن يُمتّن ويعمق ويحيي نظرتهُ الفلسفية التعليلية كي يفهم التاريخ على أساسها فهماً صحيحاً . هذا ، إذن ، هو تأثير الأزمات في المؤرخ نفسه من نواحي عمله الثلاث العلمية ، والتأليفية ، والفلسفية . وخلاصته ان هذه الاضطرابات تهيب بالمؤرخ الى ان يتفهم من جديد نوع عمله ، ويسبر غوره ، ويحدد غايته ، وينفذ الى باطنه . وبكلمة واحدة : انها تهز المؤرخ هزًّا ، فتخلق منهُ انساناً جديداً ، وبالتالي مؤرخاً جديداً

* * *

والآن نتقدم الى ما وراء المؤرخ نفسه لنتساءل عن رسالته في عصور الاضطراب الى مجتمعه . ان هذه الرسالة مزدوجة : عامة وخاصة . أما العامة فسبيلها ان يحاول المؤرخ ، بفعل فهمه الجديد للتاريخ ، أن يساهم في تنوير من يتصلون به وايضاح نظرهم الى الماضي والحاضر ، فيعمل على نشر الحقائق الصحيحة الثابتة عن ماضي أمته والبشرية ، ويهتم اهتماماً خاصًّا بتلك التي تتعلق مباشرة بالحاضر وبحاجات امته الروحية الأساسية ، ويسعى الى بعث فهم جديد لمعنى هذه الحقائق وقيمتها بالقياس الى القيم النهائية في الحياة . وبالايجاز ، ان اضطراباً عميقاً كالذي نمرّ به الآن ، اذا فهم المؤرخ حقيقة معناه ومؤداه لخليق بان يجعله ينهض بعمله الأساسي في الحياة على وجه أفضل وأسمى مما كان عليه قبلاً ، وأن يؤدي رسالته الخاصة الى مجتمعه تأديةً مشبعةً بفكر حيّ وروح جديدة

أما الرسالة الخاصة فتتعلق بطبيعة الاضطراب وبنظر المجتمع اليه وتأثرهم به . ففي مثل هذه الاوقات تتساقط الاسئلة على المؤرخ من كل صوب وناحية مستفهمةً عن أسباب الاضطراب المباشرة وسيره الحاضر ، ثم ، بصفة خاصة ، عن نتيجته ونهايته . متى تنتهي الحرب ، وكيف ، ولمن يكون النصر ، وعلى اي وجه ؟ وغيرها من الاسئلة التي قلما يساعد فهم المؤرخ الماضي على حلها ، لأن الجواب عليها يتطلب معرفة حقائق دقيقة هي اليوم ، بفعل الصراع القائم ، محجوبةٌ عنا بشتى الوسائل . فأسباب الحرب العظمى الماضية مثلاً وكثير من اسرارها لم تتجلَّ لنا الاً بعد ان ألقت تلك الحرب أوزارها ونشرت الوثائق المتعلقة بها . فمن العبث اذن ان نتنبأ بمعلوماتنا الضئيلة عن المستقبل ، أو ان نحكم عليه بالقياس الى الماضي ، فان التاريخ ، بعكس مايقول المثل السائر ، لا يعيد نفسه وحوادث الحاضر بلغت حدًّا من التعقد والاشتباك لا يصح معهُ ان نطبق عليها أحكام الماضي لنقرر مسائل محدودة دقيقة كالتي ذكرناها وانما لنوضح

تفكيرنا في معنى الاضطراب القائم وفي أسبابه البعيدة وفي اثره الباقي في حاضرنا ومستقبلنا . وبكلمة اخرى : انالمؤرخ يجب ان يتخلى عن وظيفة الصحفي المهتم بجزئيات الحاضر والمستقبل ليدرس الخطوط الكبرى ويتطلع الى الآفاق البعيدة

وأول رسالة من هذا القبيل يبسطها لنا التاريخ هو ان الضيق والألم والقلق التي يجرها علينا الاضطراب الحاضر ليست أول ما عانتهُ امتنا أو الانسانية من الشدائد والأهوال . فكل من درس تاريخ هذه البلاد العربية يعرف ما مرَّ عليها من حروب وغزوات ، ومن مجاعات وأوبئة وفتن ، حتى انهُ ليعجب أحياناً كيف بقي فيها احياء الى الآن ، وكيف استطاع آباؤنا وأجدادنا أن يتحملوا ما رواه المؤرخون من المصائب والرزايا

لنراجع في أذهاننا الحروب والمنازعات التي قامت على مسرح هذه البلاد منذ فجر التاريخ بين المصريين والبابليين والاشوريين والحثيين ، ثم بين الفرس واليونان والرومان والعرب ، ثم بعد استقرار الحكم العربي بين الدول والاحزاب والشعوب المختلفة ، ولنذكر كذلك الغزوات الطاغية من الشرق كالأتراك والمغول ومن الغرب كالصليبيين وسواهم من شعوب اوربا . انذكر هذا كلهُ ، ولنذكر ما صحبه من اضطراب اقتصادي واجتماعي وحربي ، وما انزل باسلافنا من أهوال وويلات . ثم لنذكر أيضاً الضربات الاقتصادية والطبيعية كالجوع والفقر والوباء والغلاء والاضطرابات الاجتماعية والعقلية والروحية ، نشعر عندئذٍ بأن أجدادنا قد خبروا ما هو أشد وأفظع من الضيق الناتج عن الاضطراب الحاضر ، ولم تنقطع مع ذلك الحياة في هذه البلاد. واني أجتزىء من كل ماذكرت بمثال واحد اقتبسه من كتاب نشره حديثاً الدكتور مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال من تأليف المؤرخ الشهير تقي الدين المقريزي بعنوان « اغاثة الأمة بكشف الغمة » يصف بهِ المجاعات والاضطرابات التي وقعت في مصر منذ الأزمنة القديمة الى أيامه ، وقد خبر هو بعضها في حياته . هاكم وصف المجاعة التي حدثت في ايام المستنصر بالله ، الخليفة الفاطمي الذي تولى الحكم في مصر بين سنتي ٤٢٧ و٤٨٧ هـ . (١٠٣٥ — ١٠٩٤م) ومن كان منا لا يزال يذكر أهوال الحرب الماضية او يقلق من الضيق الذي نعانيه الآن او الذي ينتظرنا في الأيام المقبلة ، فليعتبر بما يسمع من أهوال الماضي : —

« ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره ، وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الري . وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وخمسين واربعمائة ، فنزع السعر ، وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل براً وبحراً ، وتعذر السير الى الأماكن الاَّ بالخفارة

الكثيرة وركوب الفرَر . واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر ديناراً ، وأبيع الأردب من القمح [بثمانين ديناراً] . وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلّت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير . وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سَلَب وحبال فيها كلاليب، فاذا مرّ بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه . ثم آل الأمر الى ان باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره . وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجنَ ناشرات شعورهنّ تصحنَ « الجوع ! الجوع ! » ، تردنَ المسير الى العراق، فتسقطنَ عند المصلى، وتمتنَ جوعاً . [واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه] وجاءه الوزير يوماً على بغلته فأكلتها العامة ، فشنق طائفة منهم ، فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم . وأفضى الأمر الى ان عدم المستنصر القوت ، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث اليه كل يوم بقعب من فتيت من جملة ما كالها من البر والصدقات في تلك الغلوة حتى انفقت مالها كله وكان يجل عن الاحصاء في سبيل البر . ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به اليه، وهو مرة واحدة في اليوم والليلة

ومن غريب ما وقع ان امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته الف دينار ، وعرضته على جماعة في ان يعطوها به دقيقاً ، وكل يعتذر اليها ويدفعها عن نفسه الى ان رحمها بعض الناس وباعها به تليس دقيق بمصر . وكانت تسكن بالقاهرة ، فلما اخذته اعطت بعضه لمن يحميه من النهابة في الطريق ، فلما وصلت الى باب زويلة تسلمته من الحماة لهُ ومشت قليلاً ، فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهباً . فأخذت هي أيضاً مع الناس من الدقيق ملأ يديها لم ينبها غيره ، ثم عجنتهُ وسوّته ، فلما صار قرصة أخذتها معها ، وتوصلت الى أحد أبواب القصر، ووقفت على مكان مرتفع ، ورفعت القرصة على يدها بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها . « يا أهل القاهرة ! ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت عليّ هذه القرصة بألف دينار » . فلما اتصل به ذلك امتعض له ، وقدح فيه وحرّك منه ، وأحضر الوالي وتهدده وتوعده ، وأقسم له بالله جلت قدرته انهُ ان لم يظهر الخبز في الأسواق وينحل السعر والاّ ضرب رقبته وانتهب ماله . فخرج من بين يديه، وأخرج من الحبس قوماً وجب عليهم القتل ، وأفاض عليهم ثياباً واسعة وعمائم مدورة وطيالس سايلة وجمع تجار الغلة والخبازين والطحانين ، وعقد مجلساً عظيماً ، وأمر باحضار واحد من القوم ، فدخل في هيئة عظيمة ، حتى اذا مثل بين يديه قال له « ويلك ! ما كفاك انك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان الى ان أخربت الأعمال ومحقت الغلال ، فأدى ذلك الى اختلال الدولة وهلاك الرعية ؟ اضرب رقبته ! » . فضربت في الحال ، وتركه ملقى بين يديه . ثم

أمر باحضار آخر منهم، فقال له : « كيف جسرت على مخالفة الأمر لما نهي عن احتكار الغلة، وتماديت على ارتكاب ما نهيت عنه الى أن تشبه بك سواك، فهلك الناس ؟ اضرب رقبته ! » ، [فضربت في الحال] . واستدعى آخر فقام اليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين، وقالوا : « ايها الأمير ! في بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين ، ونعمر الأسواق بالخبز ، ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلاً بدرهم» . فقال : « ما يقنع الناس منكم بهذا » . فقالوا : « رطلين » ؛ فأجابهم بعد الضراعة ، ووفوا بالشرط . وتدارك الله الخلق وأجرى النيل ، وسكنت الفتن ، وزرع الناس وتلاحق الخبز ، وانكشفت الشدة وفرجت الكربة . وخبر هذه الغلوات مشهور ، وفي هذا القدر كفاية من التعريف بها ، والله يَقْبِضُ ويَبْسُطُ واليهِ تُرْجَعون » (١)

ولئن كانت هذه النكبة من أفظع النكبات التي حلت بمصر ، فليست الوحيدة من نوعها ولم يكن ما وقع فيها من الغلاء والجوع والاحتكار وأكل الحيوانات والبشر غريباً عن اختبارات هذه البلاد في القرون الوسطى . ففي المائتين والاثنتين والثلاثين سنة بين ٦٧١ و ٩٠٣ هـ يذكر المؤرخون ما يقارب اربعين سنة مختلفة وقع فيها وباء أو غلاء في مصر أو في الشام أو في كليهما معاً ، أي مرة كل ست سنوات تقريباً ، ويصفون أكثر هذه المحن وصفاً يدل على شدتها وما خربت من البلاد وما أفنت من الناس . فرسالة المؤرخ الذي رافق امته في محنها المتتابعة هذه ، وتألم لآلامها وجروحها ، هي رسالة الطمأنينة والشجاعة ورباطة الجأش هي الدعوة الى الأعصاب الهادئة ، والقلوب الصامدة والادارة الحازمة . هي ان ما نخافهُ من الاضطراب الثائر ليس أعظم مما حلَّ بنا كأمة في الأيام الماضية ، فلِمَ الخوف والذعر وتشتت الذهن واضطراب الرأي وضياع النفس ؟ ان الذي لم يختبر الا الأزمة الحاضرة يحق له ان يضطرب لها ويقلق من نتيجتها . اما الذي يرتكز على صخرة الماضي القوية الممتدة اسسها الى أقدم عصور التاريخ البشري، فهو مع تألمه العميق للشدة والاضطراب في العصر الحاضر، يستطيع ان يجابههما بالايمان الثابت والذهن الصافي والعزم الأكيد والنفس المسيطرة . هذا الايمان والصفاء والعزم والثبات — هذا هو رسالة المؤرخ الاولى الى مجتمعه في ايام الهول والاضطراب

ثم ان المؤرخ يعلم ان أمته — والبشرية عامة — لم تصمد لهذه الأهوال فحسب ، بل تغلبت في النهاية عليها وتقدمت بالرغم منها إنهُ يعلم ان الحاضر، مع كل ما ينطوي عليهِ من شر وفساد، هو خير من الماضي ويمثل تقدماً عليهِ وارتقاءً عنهُ، فهو ان استوحى ما يشع من الماضي من مجد وزهو وفخار ،فليس ذلك لكي يعيد ذلك الماضي بكامله ويبني المستقبل على صورته وشكله . انهُ لا يلتفت الى « عصر ذهبي » انقضى فيسعى الى بعثهِ واحيائهِ . لا ! ان المؤرخ الذي فهم روح

(١) ص ٢٤ — ٢٥ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠)

الماضي ينظر أبداً الى الامام ، لا الى الوراء . وهو يميّز عند دروسه الحياة الماضية بين عناصر الجمود والرجعية ، وعناصر التحفز والتقدم ، فيوجه النظر الى الثانية ، ويعمل مع العاملين على دفعها وتغليبهـا على الاولى . فعلى المؤرخ ان يتنبه لخطر عظيم يتعرض له دوماً : خطر الذوبان في الماضي والانحلال في عصر سابق يزينه الخيال بألوانه الزاهية فتطمئن اليه نفسه وتعيش فيه بعيدة عن الحاضر ومشكلاته والمستقبل وآماله . انهُ ، والحق ، لخطر جسيم قد استولى على كثيرين من طلاب هذا العلم ، بل من قادة العالم العربي ورجاله على العموم . وليس مثل الازمة والاضطراب قوة توقظ المؤرخ وتنقذه من هذا الخطر ، وتوجه نظره الى الامام ، وتصرفه الى الاهتمام بعناصر التقدم والنمو في تراث امته ومجتمعه. فرسالة المؤرخ الثانية في عصور الاضطراب هي رسالة التفاؤل بالمستقبل ، والتطلع ابداً الى الامام

على ان هذا التفاؤل ليس من النوع الذي يشل الجهد ويكتفي بالاستسلام الى الاقدار والقوى الكون الصماء ، لان المؤرخ يعلم حق العلم ان التقدم اذا كان قد حدث فبفضل اولئك الافراد والجماعات الذين عملوا صادقين في شتى نواحي النشاط الانساني، فتغلبوا على الصعوبات المادية والمعنوية وقادوا أمتهم والانسانية في معارج الرقي والنجاح . وهو يعرف ضرورة بذل هذا الجهد في عصور الاضطراب خاصة ، إذ ان حياة الأمة وعقليتها تكونان في هذه العصور في صورة مائعة بفعل القوى الشديدة التي تضغط عليها ، ولذا تصبح الحاجة ماسة الى قادة يفهمون الموقف حق الفهم ، ويدفعون تلك الحياة المائعة الى المجاري الصميمة ، فالمؤرخ يؤمن بمبدإ القيادة ، ويلاحظ ان الأمم في الأزمنة الماضية لم تتغلب على الأزمات والمحن ، الاَّ بفعل قادتها الذين لمسوا حاجاتها وحددوا غايتها ، ونظموا قواها الداخلية ودفعوها نحو تلك الغاية . والأمة التي لا يولد الاضطراب والشدة فيها قادة من هذا النوع هي أمة بائسة حقـاً ، وعليها ان تكابد وتتألم الى ان يولد هذا الألم فيها القادة الذين يسيرون بها في طريق الاستقرار والتقدم . والمؤرخ يذكر أمته في عصور الاضطراب ان الاضطراب على ما فيه من ضيق ومحنة ، مفيد لها لأنهُ لا ينفك « يمخضها » حتى يخلق منها القادة النافذين فهماً وعملاً الذين يبعثون فيها حياتها الجديدة

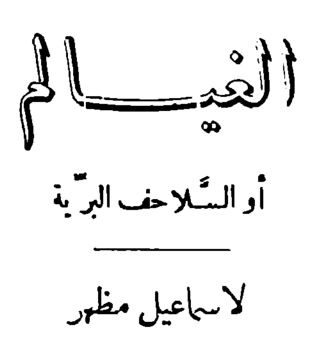
كذلك يذكر المؤرخ أمته في عصور الاضطراب بأن الشدائد الخارجية مهما تعظم لا يمكن ان توهن قوى الأمة وتوردها موارد الهلاك ، وبأن الضعف الحقيقي انما هو الذي يصيب الأمة في داخلها . فان درس الماضي يبين له ان الغزوات الخارجية قلما تقضي على أمة لم ينخر جسمها سابقاً بجراثيم الفسـاد والانحلال ، فالرومان مثلاً لم تهدّم ملكهم قبائل الجرمان الغازية كما يعتقد البعض ، وانما كان الخلل الاقتصادي والاجتماعي والروحي قد سرى فيهم وانتشر ، فما كان على الجرمان الاَّ ان ضربوا ضربة واحدة حتى سقط البنيان الرومانى بكامله . ولذا

فالمؤرخ الواقف على هذه الحقائق يدعو الأمة الى المحافظة على عصبها ومنابع قواها الروحية
والى تعزيز مناعتها ، وتنمية مواهبها ، ويعلق ايمانه عليها نفسها ، ويركز نظره فيها ، فلا يتطلع
الى هذه او تلك من قوى الخارج رابطاً مقدراته بها ، او مؤمناً بأن حياته وتقدمه متوقفان
عليها . فإن رسالة المؤرخ الى أمته في عصور الاضطراب ، إذن ان يوجه نظرها الى ذاتها
وان يثبت إيمانها في ان تقدمها او نجاحها — بل بقاءها او موتها — معقودٌ على ما تبذل من جهد
وما تبدي من قوة ، وان خلاصها يقوم في نهاية الأمر على اعتمادها على نفسها

ولكثرة ما يشاهد المؤرخ عند درسه الماضي من خطوب وأهوال ، ولوفرة ما يلقى من
موت الأفراد واضمحلال الجماعات ، يتولد عنده الشعور بقلة خطر الفرد بالقياس الى المجتمع
والى القوى التي تضطرم فيه. ولذا فانه لا يقلق على حياته قلقاً شديداً ، ولا يحصر نظره واهتمامه
بنفسه وبالجماعة الضيقة المتصلة به لأنه يعرف انه قد يكون بين الذين قدر لهم ان يضحى بهم في
سبيل مجتمعهم وكيانهم الأكبر ، كما ضحي بالألوف والملايين من البشر حتى بلغ المجتمع الانساني
درجته الحاضرة . نعم ! ان غاية التقدم والرقي هي ان يضمن لكل فرد من البشر سلامته
وحريته وأوسع مجال للنمو والسعادة ، ولكن المؤرخ يعلم انهُ في سبيل الوصول الى هذه الغاية
قد بذل كثير من الأفراد في الماضي حياتهم وان كثيرين غيرهم سيبذلون في المستقبل حياتهم
ايضاً ، فلا عجب اذا كان هو نفسه جزءاً من الثمن الذي تدفعه امته لتنال حريتها وتؤمن سعادة
أفرادها . ومن أجل هذا وجب عليه — اذا كان قد فهم رسالة التاريخ حق الفهم — ان
يكون في مقدمة الذين يبذلون نفوسهم في سبيل الحق ولأجل سيادة المبادىء العليا في الحياة
انه يعلم — أكثر مما يعلم غيره — معنى الاضطراب النازل بأمته ، وانه يتطلب منها جهد
وتضحية ، بل الحياة نفسها يقدمها بعض أفراد الأمة ليمكنوها من التغلب على محنتها ويبلغوا بها
غايتها ، ولذا تراه في مقدمة العاملين على انهاض مجتمعه ، باذلاً كل رخيص وغالٍ في سبيل أمته
وبلاده . هذا كله اذا كان فهم روح الماضي فهماً صحيحاً ، وشعر شعوراً داخلياً عميقاً بما هو
من اضطراب ، وانعكس هذا الشعور عنده في نوع من القلق النفسي لا يشتت روحه ويزعزع
كيانه ، بل يجدده ويبعثه ويخلقه خلقاً جديداً ، أو بعبارة أخرى اذا كان قد عرف رسالته
الى مجتمعه على وجهها الصحيح

ان من المؤرخين من يلتهي بوظيفة التأريخ ولكن منهم ايضاً قلة تطمح الى ما هو أعظم من
هذا وأسمى : الى ان تكون بين القوى التي تنظم الحياة وتصنع التاريخ . وعندي ان الأزمات
والاضطرابات هي خير عامل ينبه المؤرخ الى هذه المرتبة العليا ، فاذا ما فهم جوهر رسالته في تلك
الأوقات العصيبة وبذل جهده لتأديتها ، لم يكن مؤرخاً بالمعنى المعروف فحسب ، بل كان قوة
لا يستهان بها في خلق أمته ، وعن طريق أمته في خدمة الانسانية جمعاء

آيات في خلقه



أو السلاحف البرية

لاسماعيل مظهر

— ١ —

لعلَّ القارئ يتساءل : أيُّ شيء من جمال الخلق في تلك الصدفات المتحركة التي ان مشت دهمجت ، وان سكنت استكانت وقبعت منكمشة انكماش السرّ المطوي في صدر شحيح بالكلام ؟ ولكن جمال الخلق شيء وجمال المعنى شيء آخر . فاذا أردت أن تعرف سرًّا من أسرار الآيات البينات في خلق الحيوان ففرّق إذن بين جمال الخلق وجمال المعنى . بل انهُ ينبغي لك أن تنظر في جمال المعنى قبل جمال الخلق . فانك قلما تقع في الحيوان على صور فيها من جمال الخلق ما هو أبلغ من جمال المعنى ، كما أن المهندس الأعظم قد انصرفت قدرته الى بث المعاني في تضاعيف المخلوقات حتى لقد طغت على الخلق الظاهر . فاذا نظرت في مخلوق ما وأردت أن تستعبر به ، فانظر في المعنى الكامن فيه ، وهنالك تستبين الآية . والمقصود هنا بالغيالم (جمع غيلم) وهي السلاحف في المعنى العام . والغيالم أعضاء في طبقة عظيمة من طبقات الحيوان تعرف بالزواحف ومنها الحيات والسحالي والعظايا والحرباوات والتماسيح والضفادع والسمادل وغير ذلك ، فانظر كيف تشيع في جميع هذه الصور المتفرقة صفات مشتركة نشّقها بارىء الاكوان تشقيقاً عن صورة أوّلية متأصلة ، فجعل منها السّامّ والوديع والقافز والدارج والمفترس والعاشب والمتكّر والسافر والأملس والشكّ والبادن والنحيل وذا الناب وذا المخلب ، وغاشي البر وغاشي الماء

والسلحفاتيات — Chelonia قبيلة عظيمة من قبائل الزواحف : Reptilia تمتاز

(١) طلب الينا فريق من الفضلاء من قراء المقتطف معرفة اسم كاتب هذه المقالات العلمية الطريفة المفرغة في قالب أدبي فنزلنا على رغبتهم وبدأنا نورد اسم كاتبها المحقق وهو الاستاذ اسماعيل مظهر

طبقاتها بصور ثلاثة : الأولى الغَيَالِم Tortoises : وهي برية صرفة ، والثانية اللَّجأ : Turtles : وهي بحرية صرفة ، والثالثة الطَّرَابين(١) : Terrapins ، وهي نهرية أو بُحيرية. وسنفرد لكل من هذه الصور بحثاً خاصًّا نلم فيه بالكثير من جمال المعنى الذي بثتهُ الطبيعة في تضاعيف هذه الصدفات الصلبة ، المنطوية على أحياء فيها من آيات الخلق البيّنة ، ما تقر القدرة البشرية بالعجز الكامل عن إدراك أتفه توافهه

لم يفت أوائلنا الكلام في هذه المخلوقات . في الدميري (٢٤ : ٢) السلحفاة البرية واحدة السلاحف ، قال أبو عبيدة : وحكى الرواسي سُلَحْفِيَة ، وهي بالهاء عند الكافة ، وعند ابن عبدوس السُّلَحْفَا بغيرها ، وذكرها يقال له الغيلم . وذكر الدميري السلحفاة البحرية (٢:٢٥) فقال هي اللجأة . وذكر اللجأ : فقال نوع من السلاحف يعيش في البر والبحر (٣١٦ : ٢)

أما اختيارنا للفظ الغيلم وجمله عنواناً لهذا المبحث فحبًّا منا في تخصيص اللفظ للمعنى العلمي . ذلك بأننا اذا قلنا السلحفائيات قصدنا : Chelonia وهو اسم القبيلة وهذه تنطوي على الطبقات الأخرى : الغيالم واللجأ والطرابين (Tortoises, Turtles, and Terrapins) . أضف الى ذلك أن اسم الجنس ينبغي أن يدل عليه مذكر ، والسلحفاة مذكرها الغيلم ، وهو أحق بأن يكون اسم جنس . ومن أحق بالتقدم ممن خصته الشريعة بمثل حظ الانثيين ؟

لو قال لك قائل إن من الحيوان ما خرج هيكله عن باطنه ، وانطوى باطنه في داخل هيكله ، لبدى لك الكلام في صورة يبعد على المشاهدة القريبة أن تؤثر في عقلك بحيث يسلم بصحته . ولكن اذا فوجئت بالمثل وقيل لك انظر هذا الغيلم ! ألست ترى أن هيكله قد ركب جسمه فبرز ، وأن جسمه قد انطوى في داخل هيكله نخفي ، كأنما الطبيعة تريد أن تقول لك بفصاحتها الصامتة : كيف ترى ؟ أليس لي القدرة على جمل الآية ونقيضها آيتين ؟ فما يكون من عقلك الاَّ أن يسلم بأن النقائض أصبحت بدهيَّات

إذن فهذه الصفائح القرنية التي تراها متراكبة على ظهر الغيلم ليست سوى هيكله الظاهر وهو يتألف من صدفة عليا يقال لها في لغتنا « الذَّبْل » — Carapace ، وقد تسمى أيضاً الصفيحة أو الصدفة الظهرية أو الترس الظَّهري ، ومن صدفة سفلى سميتها « الصُّدْرَة » Plastron وقد تسمى أيضاً الصفيحة الصدرية أو الترس الجوفي أو البطني . والقاعدة المطردة في خلق الغيلم

---

(١) Terrapin : Formerly also terapin, terrapene, turpin : supposed to be of Amer. Ind. origin. Cent-Dict p. 6246, vol. VIII.

يذكر معجم سنتشوري ان الكلمة اميركية هندية فعربتها : الطربين بفتح فسكون والجمع طرابين ، لانه اسم اهلي يعرف به الحيوان في مرابيه

أن الذبل والصَّدْرَة يتحدان من لدن الجانبين بصفائح عظيمة ، وفي بعض الاحيان يتصلان برباط من الانسجة الضامة : Ligament ، وفي مقدم هذه الصدفة ومؤخرها منفذان يجر الحيوان من خلالهما اجزاءه الظاهرة الى الداخل فتختفي اختفاء كليًّا أو جزئيًّا . وهنالك نقب الرأس والاطراف والذنب ، فلا يبقى من ذلك الزاحف غير الصدفة الشوهاء التي لا تقدر على شيء الا أن تدرأ عن الحيوان ماتدرأ من عاصف الاحداث

أما الذبل ، ذلك الغطاء القرني ، فيتألف من خمسة تروس هيكلية (١) ، على كل من جانبيها أربعة تروس ضامية (٢) وقد تكون خمسة . وأسفل هذه تكون التروس الحفَّافة (٣) ، ويسمى الامامي منها الترس القفاوي (٤) كما يسمى المؤخري منها ، وقد يكون مفرداً أو مزدوجاً ، الترس الذنبي (٥) أما التروس الحفَّافة الوسطية (٦) وهي التي تقع بين الحفَّافة الامامية والحفَّافة المؤخرية ، فتختلف في العدد باختلاف الاجناس . ذلك في حين أن الصُّدْرَة ، أو الصدفة السُّفلى ، تكون مُهَيَّأة بعدد غير ثابت من التُّرُوس . وهذه ، مع تروس الذبل ، لها أثر رئيسي في تصنيف صور الغيالم المختلفة في علم المواليد

اذ انحدرنا رجعاً الى الازمان الاولى ، الى الخطوات التطورية التي فتقت فيها الطبيعة بعض صور الحيوان من بعض ، رأينا أن الغيالم كان لها غطاء ، ولكن من أدم ولحم ينطمر فيه أكر من العظام . وفي مدارج التطور ازدادت تلك الأكَرُ حجماً . ثم انحدت فصارت غطاء متصل الأجزاء . وهوناً على هون تضامرت العضلات التي كانت تحت تلك الأكر ، حتى استقر الذَّبل واتصل بالسَّناسن وهي تلك النواشز العظمية التي تبرز نحو الظهر من العمود الفقاري ثم انضمرت السناسن بدورها شيئاً بعد شيء ، حتى زالت تماماً ، وهنالك استقر الذبل فوق الضلوع مباشرة ، ثم تداخلت الضلوع في الصَّدفة تدرجاً وحالاً بعد حال ، حتى بلغ من أمرها في الغيالم الحديثة انك لا تستبين منها الا أثراً بعد عين ، كأطرافها أو رءوس الشراسيف (٧) منها . وعبر الاحقاب اندمج القص أي عظم الصدر في الصدفة السفلى ، وهي التي سميناها الصَّدرة فلم يبق في السلحفائيات الماثلة وهي الغيالم واللجأ والطرابين من العظام غير اللوح الكتفي والنُّوْض (٨) اى عظم الورك . وقد يبرز هذان العظمان من الصدفة في الافراد غير البالغة ، ولا يختفيان الا بعد أن تبلغ الصدفة كمال نمائها ببلوغ الحيوان

---

(١) Vertebral Shields (٢) Costal Shields (٣) Marginal Shields

(٤) Nuchal Shields (٥) Caudal Shield (٦) Intermediate Marginal Shield

(٧) الشرسوف (بضم فسكون ففم) : غضروف معلق بكل ضلع أو مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن (القاموس) (٨) النوض : وصلة ما بين العجز والمتن (القاموس) عن الدكتور شرف

ولكن لكل قاعدة شواذ . فان من السلحفائيات صورة لم يجر عليها ذلك التطور الذي وصفنا. فهي بذلك عنوان على الماضي وأثر من آثاره تدل عليه . وقد يسمى هذا الزاحف اللجأ الأدمي(١) فان ذيله يتألف من عدد عظيم من الأقراص العظمية المترابطة ، من فوقها بشرة ادمية أي جلدية ، قد تبلغ نصف بوصة سُمْكاً . كذلك تجد لهذا الحيوان طبقة من العضل تفصل بين التروس وعظم الفقار والضلوع ، فتصير هذه العظام طليقة ، فلا تتصل بالذيل اتصالاً ما

ولا شك في أن ذلك الغطاء القرني الصلب الذي تدرع به الغيالم ، دريئة قوية يحتمي بها الحيوان من أعدائه . ولقد نعرف أن بعض الغيالم في قدرته أن ينكمش في داخل صدفته فيغيب فيها الرأس والأطراف والذنب . ولكن هنالك من آيات الخلق في هذا الحيوان ما هو أبلغ من هذا . فان من الغيالم ما يستطيع ان يَغْلق الصدفة على نفسه بعد أن ينسحب الى داخلها ، فيصير الحيوان أشبه بكرة . ذلك بأن الذّبل (وفي بعض الأحيان تكون الصُّدْرَة ايضاً) مهيأ بمفصّلات (Hinges) مستعرضة ، تحكم سدّ الصدفة على الحيوان ، فكأن الصدفة حصن منيع

***

مما خصت به الطبيعة الغيالم : قوة الأطراف . ولكي تكون هذه الأطراف ملاءمة لحياتها ، سوّتها الطبيعة على صورة اُكرية ، وهيأتها بأظافر قوية صلبة . ذلك على العكس من اللجأ والطّرَابين ، فان حياتها المائية لا تجعلها في حاجة إلى الأظافر وتأكّر الاطراف . لهذا عدلت الطبيعة عن ذلك وهيأتها بأطراف أنحل من اطراف الغيالم ، ووتّرت ما بين الاصابع فوصلت بينها بغشاء يساعدها على السبح . فانظر كيف تهايئ الطبيعة بين الحيوان والبيئة ، كأن للطبيعة عيناً حكيمة تنظر بها ، وعقلاً مدبّراً يضع الاشياء في مواضعها ، فلا غبنٌ ولا إفراط

وفي الغيالم قدر عظيم من القوة الحيوية . ففضلاً عن انها تستطيع أن تظل بغير طعام عدة اشهر من غير ان يظهر عليها تغير حيوي ما ، فالمعروف انها تقدر على ان تمشي مسافات كبيرة بعد ان تقطع رؤوسها وتُفصَل عن اجسامها، أو بعد أن تنزع أدمغتها (٢) من جماجمها . والغيالم من المعمرات . فقد قيل ان غيلماً كان في حديقة « بشوب » بمدينة « بيتربورو » ، عاش اكثر من عشرين ومائتي سنة . وحصل « لود » ، رئيس اساقفة « لامبث » على غيلم سنة ١٦٢٥ ، فمات في سنة ١٧٥٣ وبالرغم من ان هذا الغيلم قد ظل حيث نقله «لود» ثماني وعشرين ومائة سنة ، فانهُ لم يمت حتف انفه ، بل مات باهمال بستاني عهد اليه في أمر القيام عليه . وبالرغم من ان الغيالم تعمّر الى أرذل الاعمار ، فمن العجب العجاب انها تموت مختنقة إذا ما ارغمت على ان تظل أفواهها

(١) Leathery Turtle (٢) الدماغ علمياً هو ما يتألف من المخ والرنح والمخيخ:
Cerebrum, Cerebellum, and Procerebrum

مفتوحة زمناً مّا ، أو سُدَّ منها المنخران بلفافة من قطن مثلاً . ذلك بأن الزواحف تتنفس بطريقة تختلف كل الاختلاف عن الطريقة التي تتنفس بها الحيوانات المتنفسة برئاتها ، ما عدا الضفادع والشِّرْغ (Toads) والسمادل . فانها لا تستطيع أن تملأ رئاتها بالهواء ثم تفرغها بان تمدد الصدر ثم تقلصه . ذلك بأن ليس لها ضلوع متحركة ، واحكام الصدفة على الصدر يمنعها من حركة التنفس المعروفة . فاذا أراد الغيلم أن يضخم رئته بالهواء سدّ فكيه ، ويزيد اتساع فجوة الفم بأن يردّ اللسان الى أسفل فيحدث بذلك خواء ينحدر اليها الهواء من المنخرين ، ثم تمتد الاسلة (وهي طرف اللسان) لتضغط فتحتي مجرى الأنف من الداخل فتسدّها ، فينزلق ملء الفم هواء من خلال قصبة الهواء الى الرئتين . وبعبارة أخرى نقول ان الهواء يبتلع ابتلاعاً بل يجترع اجتراعاً ، لا أن يؤخذ شهيقاً ويرد زفيراً . ومما هو واضح أن طريقة التنفس على ما وصفنا لا يمكن ان تتم إذا ما ظل الفم مفغوراً

وليس للغيالم أسنان . بل إن أفكاكها قد هيئت بحافة قرنية تصلح للقطع . ويمكن التفريق بين السلاحف البرية والبحرية بان صدفة الاولى تكون أشبه بقباء مرتفع . أما صدفة الثانية فنطامنة . والغيالم جميعها من العواشب ، ماعدا نوع واحد يعرف باسم « الغيلم الصُّنْدُوقي » (Box Tortoise) فانه يختلف في غذائه عن بقيتها بعض الشيء . فقد يأكل الى جانب الاعشاب ، أنواعاً من الديدان والحلزون والضفادع . والانواع الضخام من الغيالم في مستطاعها أن تأكل بعض الخضر الكبيرة كالكَرْنَب . ولكن البَثَيلات (١) منها تغتذي بالحشائش والخس ، وغير ذلك من الخضر اللدنة

***

أن أشهر أنواع الغيالم هو النوع المعروف باسم الغيلم الاغريقي (Greek Tortoise) وهو يستوطن جزيرة كورسيكا وجزيرة سردينيا وايطاليا وبلاد البلقان وسوريا . وقد يبلغ طول الفرد منه خمس بوصات ونصف بوصة . وقد يتفق أن الكثيرين قد تذوقوا لحم اللجأ (السلاحف البحرية) . ولكن لايذكر أحدنا أنهُ عرف أن الغيلم (السلاحف البرية) مما يؤكل . ذلك في حين ان الواقع أن لحم الغيلم الاغريقي ، وبخاصة الدماغ ، مما يؤكل في انحاء صقلية وايطاليا بعد نقعه في الخلّ ، وان هذا الغذاء مما يشتهيه الكثيرون من الناس هنالك ، وكثيراً ما تعرض هذه الغيالم للبيع في الأسواق كما تباع اللحوم والطيور والخضر

(١) البثيل : الصغير

حلم القبلة

لخليل شيبوب

يا حلماً أسعف فيه الهوى بقبلة ناعمة عاطره
سُقيتُ منها كوثراً ذَوّبتْ فيه أماني نفسيَ الحائره
كما تذوب الشمس في جدول تشرب منهُ الأزهر الناضره
سلافة قطّرها ساحرٌ تستلب الروحَ بها ساحره
أجّجتِ الحرقةَ لكنها أقرّت العاطفةَ الثائره
خلاصةُ العمر تملّيتُها في رشفة حالمةٍ ظافره
سكبتُ روحي في تضاعيفها عصارةً من مهجتي قاطره
أُنشودةُ السعد ، بها غرّدت آفاقُ هذا العالم الناظره
وَقّعها النور على مائج من سحره في لحظةٍ عابره
كأنما الدهر أتاني بها مُلَخّصاً دنياي والآخره
ما الروض بالزهر وأطيارهُ وما ليالي القمر الساهره
وما حياةُ الصفو منهولةً بالحب عن غُرّتهِ صادره
وما معاني الخُلدِ قد حقّقتْ خفيّها موفورةً وافره
سوى خيالِ الظل من قبلة وضاءةٍ رقافةٍ طاهره
يا حلماً عشتُ حياتي بهِ لشقوتي ، ما وعت الذاكره

حقيقة التحليل النفسي

للاستاذ موكسلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان
مدير منطقة معارف البصرة

— ٢ —

فرويد والفروق الفردية عند الاطفال

من أهم النظريات التي جاء بها فرويد نظرية الفروق الفردية عند الاطفال . فقد قسم فرويد الاستعدادات الفطرية — او كما يسميها بعض علماء النفس الميول السلوكية — الى فروق ذاتية وفروق جنسية . وقد نالت الفروق الجنسية النصيب الأوفر من بحثه ودراسته ويرجع ذلك الى اعتقاده بأن الفروق الجنسية في البالغين ليست بناجمة عن ميل نزوعي واحد بدأ مفعوله عند البلوغ وانما نشأت عن ميول جزئية متأصلة في الأطفال . ويصنف هذه الميول الجزئية كما يلي : (١) الميول الجزئية المتعلقة بالفم وتظهر في شكل حب الطفل للرضاعة ورغبته في مص حلمة ثدي أمه (٢) الميول الجزئية المتصلة بالشرج وتتصل هذه بالطرف الآخر من القناة الهضمية ، وتظهر عند الأحداث في شكل الاهتمام بمواضع التبرز (٣) الميول الجزئية المتصلة بأعضاء التناسل (٤) الميول الجزئية التي تظهر في شكل حب الظهور أو حب التطلع (٥) الميول الجزئية المتصلة بحب التعذيب أو حب الاستسلام أو حب التألم . ويرافق هذه الميول الجزئية انفعال شهواني يعبر عن رضى الشخص واطمئنانه ، ويكون المصدر الأساسي للاعمال التناسلية التي يأتيها اليافع والكهل اشباعاً للشهوة البهيمية

ويقرر فرويد ان الميول الجزئية المارة الذكر ما هي الا سبل متشعبة من مصدر واحد هو الشهوة البهيمية ، ولهذا فهي حرية بأن تدعى بالدوافع الشهوانية . ومما لا ريب فيه ان شخصية الانسان لا تتكامل ما لم تشترك ، دوافعه الشهوانية مع دوافعه الأنانية في الهيمنة على اعماله العقلية . فاذا ما كان نمو الانسان طبيعيًّا فان الميول الجزئية التناسلية تسيطر على دوافعه الشهوانية — فاذا ما بلغ الطفل الخامسة من عمره وصل الى دور تناسلي يدعوه فرويد دور « سلطة العضو التناسلي » وتتألف هذه السلطة من نوعين مختلفين من الشعور أحدهما حسي والآخر انفعالي كاللطف والرقة والتودد وغيرها مما يظهر به الطفل في مثل ذلك السن . وبعد

ان يجتاز الطفل ذلك السن الى دور الخمود لا تقوم العوامل الحسية بعمل ما وتظل خامدة خاملة حتى سن البلوغ ، اذ تعود اليها فعاليتها ثانية فيبلغ الانسان عندئذ دور «النضوج التناسلي» وفي هذا الدور يتم تجمع الدوافع الشهوانية فتبدأ بعض العوامل كالتضارب الفكري والكبت والاحلال تفعل فعلها .

التضارب الفكري

كثيراً ما نشعر ان أفكارنا عرضة للتصادم وللتضارب . فلنفرض مثلاً اني وددت الذهاب الى احدى دور السينما لمشاهدة رواية تمثل أهم أدوارها الممثلة المعروفة مارلين ديتريش . ففي الوقت الذي افكر فيه بالذهاب الى السينما تمر بخاطري فكرة أخرى هي ان الواجب يقضي عليَّ بزيارة احد اقاربي الذي اصيب بمرض عضال . وتظل هاتان الفكرتان في نزاع وهلة من الزمن فاذا ما كانت الرغبة في مشاهدة الرواية قوية الأثر فان نفسي تحدثني بوجوب تأخير زيارة قريبي المريض ليوم آخر ، واذا ما كان الشعور بالواجب أقوى فسيحتل في نفسي المحل الأعلى فتأخذ نفسي تحدثني عندئذٍ بان قضاء ليلتي باحدى دور السينما ليس السبيل الصالح لقضاء ساعات الفراغ وان مارلين ديتريش لا تستحق الاهتمام الذي ابديه نحوها ، وان الساعة التي انضيها بجنب فراش قريبي ستبعث الرضى في قلبي والسرور والاطمئنان في نفسه مما سيخفف من آلامه كثيراً . وعلى هذه الوتيرة يبقى الانسان حائراً بين افكاره المختلفة الاتجاه ريثما تتغلب احدى الفكرتين على الاخرى وعندئذٍ يتجه بكليته لتحقيق الفكرة الراجحة الكفة

وفي بحث مقتضب كهذا ليس من السهل علينا ان نسترسل في تحليل هذه الأنواع من الاعمال العقلية ، ويكفي أن نقول عنها ان التضارب الفكري شعوري يعتمد على وجود استعدادات عقلية خاصة . في المثال المتقدم يوجد استعدادان مختلفا الاتجاه يعرف احدهما بالرغبة في مشاهدة الرواية السينمائية والآخر بالعاطفة نحو قريب مريض . واستعداداتنا النزوعية تعين رغباتنا . فالشخص الذي ولع بمشاهدة الاشرطة السينمائية مثلاً لا بد أن يكون ممن يعجب بشخصيات شهيرات الممثلات وشهيري الممثلين ، وممن يهتم بالاطلاع على أسرار حياتهم وبمعرفة الأدوار التي يمثلونها .

ومن الجلي اننا لا نهتم ولا نكترث لمعرفة الأشياء التي لا رغبة لنا فيها ، والتي لا نحب أن نسمع عنها شيئاً . فاذا ما صارت لنا رغبة ملحة في شيء ما فان قابلياتنا وذاكرتنا تفعل فعلها في جمع الحقائق الكثيرة عن ذلك الشيء . فقد يسألني شخص عن كوكب من الكواكب السينمائية في لحظة أكون بها مسترسلاً في التفكير في قضية من قضايا علم النفس فلا استطيع اجابته عمّا يريد ولو أعاد عليَّ السؤال في وقت اتحدث فيه عن السينما وأشرطتها وعن التطورات الحديثة في عالم السينما لأجبته عن سؤاله جواباً شافياً . ويتضح من هذا أن استعداداتنا لا تتضارب بعضها مع بعض وحسبُ ، بل يحجز بعضها بعضاً ، حتى اذا ما كان أحدها بكامل فعاليته حال دون

تداعي الافكار المتعلقة بالاستعداد الآخر ومنعنا من تذكر شيء من الأفكار المتعلقة به . وقد يحدث أحياناً ان بعض رغباتنا يتنافر بعضها عن بعض فلا ترتبط بعضها ببعض برابطة ما تؤدي ذلك الى أن أحد الاستعدادين يطغى على الآخر ويغمره وبعد أن تمضي مدة من الزمن لا يجد الاستعداد المغمور مجالاً للظهور في دائرة الشعور ظهوراً ثابتاً فيظل كامناً منسيًّا . ويدعو فرويد هذه الاستعدادات بالاستعدادات المكبوتة واليها يعزو مختلف أسباب الاضطرابات العقلية

ـ الكبت والاحلال والاعلاء

من الخطإ أن يظن بأن الكبت الفكري عمل شعوري ، فالاستعدادات النزوعية وإن حاولت الظهور بشكل شعوري من حين لآخر ، يقاومها العقل ويحول دون ظهورها حتى وإن اتخذت سبلاً غير مباشرة للظهور . فمثلاً اذا ما ازداد ميل الانسان نحو العلوم الطبيعية تضاعفت رغبته في البحث فيها وفي الاطلاع على ما خفي في أسرارها ، فيؤدي هذا الى ابتعاد جميع الافكار والدوافع المتعلقة بالعقائد الدينية عن الشعور وازوائها في اللاشعوري دون أن يكون لعقل الانسان اختيار في ذلك . وقد يكتسب الانسان في حالات كثيرة بعض العادات الخلقية فيكيف سلوكه بحسب المثل التي يقرها الدين تكيفاً غير شعوري وتبدو هذه العادات كأنها من نتائج التعاليم الدينية التي تلقنها المرء في أول حياته . واذا ما نبه الانسان الى اعتياد تلك العادات حاول نكران تأثره بالتقاليد الدينية زاعماً أنهُ غير مقيم وزناً لها

أما الاحلال فيقصد به اثارة الميول النزوعية من جراء أحوال طارئة أو من حدوث أشياء جديدة ، وتظهر هذه الميول على هيئة سلوك مكتسب جديد . ويرى فرويد وجماعة من اتباعه أن أكثر أنواع سلوك الانسان البالغ مشتقة من ظاهرات احلالية عديدة أو من ميول ظهرت في أول حياة الانسان بشكل اهتمام في التغذية والتبرز أي بتأثير الميول الجزئية المتعلقة بالفم والشرج . والمثال التالي يصوّر الاحلال أحسن تصوير

لنفرض أن طفلاً وضعت أمامه دمية أرنب كبير ، وفي كل مرة تعرض الدمية على الطفل يصرخ أحدٌ خلفهُ صراخاً عالياً مزعجاً . فيعتري الطفل بادىء بدء خوف من الدمية خاصة عندما رافقها الصراخ المزعج ، ثم يزداد به الخوف حتى يظهر عليه كلما وقع نظره على دمية شبيهة بتلك فما السبب في هذا الخوف يا ترى ؟ ان الدمية والصراخ العالي منبهان حسيان أما جوابهما فهو فزع الطفل من الصراخ وهذا الفزع يستحيل الى الخوف من صورة الدمية أو من كلّ ما يشبه الارنب . ان للاطفال استعداداً للخوف كلما سمعوا أصواتاً عالية وقد حل محل هذا الاستعداد استعداد آخر هو الخوف من الارنب ، ومع هذا فان الاحلال لا ينجي الطفل من الفزع من الاصوات المرتفعة ولكن بالاضافة الى خوفه من هذه الاصوات سيظل يخاف من الأرنب او من كل ما يشبه كل الأرنب

وتظل استعدادات الانسان يحل بعضها محل البعض الآخر طالما هناك روابط تصل هذه الاستعدادات بعضها ببعض : فقد يتحول خوف الطفل من الأرنب الى الخوف من السيدات اللاتي يرتدين فرواً مماثلاً لفرو الأرنب ثم يتطور الى الخوف من العجائز اللاتي يرتدين فرواً ناصع البياض غالي الثمن . وقد نسمع ذلك الطفل بعد ان يتقدم به العمر يتكلم ويقول انهُ يكره كل سيدة متكبرة لا ترتدي الا الفرو الغالي الثمين غير دار انهُ لم ينطق بقوله هذا الا لانهُ كان فريسة لعدد من الظواهر الاحلالية اللاشعورية

اما الاعلاء فاحلال يؤدي الى تكوين فعاليات ذات منزلة اجتماعية في حياة الانسان ، وليس كما يعتقد البعض انهُ تحويل في الرغبات التناسلية وظهورها بشكل ولع في لعبة رياضية او هيام بعمل خاص فالاعلاء لا يتصل بهذه الرغبات وانما يرتبط ارتباطاً دقيقاً بميول الانسان الطفلية

وفي الأعوام الخمسة الاولى من حياة الطفل تكون العلاقة بين تضارب الأفكار والكبت اللاشعوري والاحلال وبين تكون الرغبات الشهوانيـة غاية في التعقيد ، وانهُ لمن المتعذر في مثل هذا البحث الموجز ان نأتي على شروحها بشيء من الاسهاب او التطويل . ونكتفي ان نورد هنا مثالاً واحداً يشير الى علاقة الاحلال بالميول الجزئية المتعلقة بالشرج . تسعى بعض الأمهات الى تعويد اطفالهنَّ التبرز في مواقيت معينة ، ولما كان الاطفال يشعرون بشيء من الرضى والسرور كلما تخلصوا مما تجمع في امعائهم من اوساخ واقذار تراهم يحجمون عن تقييد ميولهم برغبات غيرهم . ويعزو فرويد هذا الاحجام الى النزعة الفردية التي تكون شديدة في بعض الاطفال وتنمو بنموهم الجسمي . فالطفل يشعر بضيق محيطه العائلي فينفر منهُ متجهاً نحو محيط اجتماعي اكثر سعة من ذاك فينجم عن ذلك أن تتولد في الشخص نزعة فردية تمنعهُ عن الخضوع لرغبة والديه او من يحيطون به . ويعتقد فرويد ايضاً ان الكثير من ميول الطفل النزوعية المكتسبة تنشأ عن ميول فطرية بدائية تتصل اتصالاً محكماً بالوظائف الرئيسية للجسم

ميل الطفل نحو والديه أو عقدة أوديبوس

وبعد ان يبلغ الطفل الخامسة من عمره تظهر فيه تأثيرات النظام العائلي ظهوراً بيناً ، فتكبت دوافعهُ الشهوانية وتتركز حول ميوله التناسلية وفي الوقت ذاته تأخذ ميول الطفل نحو والديه شكلاً خاصًّا يؤدي الى ما يدعوه فرويد بوضع اوديبوس . اي ان الطفل يتغير من حيوان أعجم الى انسان يسيره النظام ويقيد تصرفاته العرف وتتحكم في اعماله التقاليد ، ويتغير كثير مما اكتسب من عادات خاصة بينها تلك التي كان يستهجنها البالغون والكهول كعادة مص الاصابع مثلاً وعادة الاهتمام باعضاء التبرز وعادة تعذيب الحشرات وقتلها والى غير ذلك من العادات مستعيضاً عنها بعادات اكتسبها من والديه وافراد اسرته . ومما لا شك فيه ان هذا التغير يكون

مصحوباً دائماً بتعقيد في علاقة الطفل بوالديه فيشعر من جراء ذلك بان امه هي التي حافظت وستحافظ عليه، وهي التي تقدم له كلَّ ما تشتهي نفسه وكلَّ ما يحتاج اليه وهي التي اضطرته لترك عادات الطفولة ولاكتساب العادات « الطيبة » . ومع ذلك تكون ميوله الانفعالية نحو امه مزدوجة الاتجاه فهو يحبها وهو يكرهها وان كان حبه لها يفوقه كرهه حصراً . وكذلك يكون ميله نحو والده مزدوج الاتجاه ولكن هذا الميل اكثر تعقيداً من ذلك فاذا ما كان الطفل صبيًّا شعر بمزاحمة والده له في حب امه ولذا فهو يرغب دائماً في تنحيته عنه تخلصاً من مزاحمته، وهذا الشعور كما يراه فرويد ناشيء عن عامل تناسلي . وتبلغ غيرة الطفل حدَّها الاقصى عندما تجتمع دوافعه الشهوانية تحت ميوله الجزئية التناسلية فيتهالك الطفل عندئذٍ لاحتلال المقام الاعلى في قلب امه . ويدعو فرويد هذه الحالة النفسية بعقدة اوديبوس نسبةً الى اوديبوس الذي قتل والده ليتزوج من امه

وتسير مع رغبة الطفل لاقصاء والده عنهُ عواطف أخرى معاكسة لها في الاتجاه ، منها حب الطفل لوالده الناشيء عن عطف الوالد على ولده وحنوه عليه ومنها حب تقليد الطفل لأعمال والده وتخلقه بأخلاقه الناجمة عن اعتقاده بسعة علم والده وعلو مقدرته ولهذا ينشأ تضارب فكري في عقل الصبي بين فكرتين حبه واعجابه بوالده ورغبته الملحة في التخلص منهُ . ويعتري البنت مثل هذا التضارب ولكنها تريد التخلص من والدتها التي تنازعها حب أبيها

هذا التضارب الفكري هو المرحلة الأولى من مراحل تكوين شخصية الطفل . وبحسب ما يعتقده فرويد ان الأساليب التي تتخذ لحل هذه العقدة هي عامل عميق الأثر في حياة الطفل القادمة . والحل الطبيعي له هو أن يتغلب شعور الطفل نحو والده واعجابه به وحبه لهُ على دوافعه الشهوانية نحو والدته فيكبتها ، ولا يمكن أن يتم هذا الكبت الاَّ بالاستسلام الى القيود التي يفرضها عليه والده . وعندئذٍ يتولد فيه ضميره أو « ذاتهُ العليا » كما يسميها فرويد ، وهذا ولا ريب انقلاب نفسي كبير في حياة الانسان فكبت الصبي لدوافعه الشهوانية لا يؤدي الى تغير في ميوله نحو والدته فحسب بل يؤدي الى كبت آخر يشمل قسماً من ذاته العليا ويشمل أيضاً الكثير مما كان يفكر فيه أو يأتيه في مبدأ حياته . ومع كل ذلك فان هذه الميول وتلك الافكار المكبوتة والتي ابتعدت عن الشعور ستظل محافظة على فعاليتها وتبقى كجزء مهم من اللاشعور مؤثرة في الفعالية العقلية الشعورية بأساليب شتى ومحاولة الظهور متخفية وراء ستار أعمالنا الشعورية

وبعد أن يتقدم الانسان في عمره أو عندما يصاب باضطرابات عصبية يقل الضغط على ما كبت زمن الطفولة فتحاول تلك الافكار والميول الظهور كأنها عمل من الاعمال الشعورية وقد ثبت أن قابليات الاشخاص للاضطرابات العصبية متوقفة على مقدرتهم لاعلاء أفكارهم وميولهم وهذه القابلية تختلف باختلاف الاشخاص ويكون جزء يسير منها فطريًّا في الجزء

الاكبر منها مكتسباً أوجدتهُ عوامل في المحيط تحكمت فيه مؤثرات في البيئة

ومما يجب الانتباه اليه أن نعت الذات العليا بصوت الضمير ليس بالامر الدقيق فالقصد من الضمير هو الشعور بالواجب الاخلاقي أما الذات العليا فهي جزء من بناء الانسان العقلي وهي أكثر تمسكاً بالاهداف الاخلاقية مما هو الامر في الضمير. وربما كانت الذات العليا المظهر الديني للضمير أو هي كما يعتقد فرويد شعورنا « بالخطيئة » عندما نأتي عملاً لا يقره الدين

الاحلام في نظر فرويد

كان من جراء اتخاذ فرويد طريقة تحليل الأحلام وسيلة لمعالجة الاضطرابات العصبية ان وضع نظرية عظيمة الشأن عن طبيعة الاحلام. فقد كان يميز في ابحاثه عن الاحلام بين محتوياتها الظاهرية — أي الحوادث التي يذكرها صاحب الحلم كما شاهدها ، وبين محتوياتها الكامنة — أي الامور التي يمكن الكشف عنها بطريقة التفكير الحر ونواة هذه المحتويات الكامنة « رغبة صبيانية » مكبوتة او استعداد نزوعي مكبوت

ان الوظيفة الاساسية للاحلام هي المحافظة على استمرار نوم النائم ولا يمكن ان يتم القيام بهذه الوظيفة الا بابدال كل عمل يهدد النائم ويحاول ايقاظه ، عملاً كان النائم يعامل نفسه بها ويتمناه ايام طفولته ثم كبت لسبب من الأسباب. فهو فرض أن العامل الذي يحاول ايقاظ النائم كان فكرة أزعجت الشخص قبل أن ينام فان هذه الفكرة تتصل بعد نومه باحدى رغباته الصبيانية المكبوتة. ويعزى السبب في هذا الاتصال الى توقف العوامل النزوعية المسيطرة على افكار الانسان في حالة اليقظة والى ضعف القوى الكابتة لرغبات الانسان ضعفاً موقتاً. والمحتويات الظاهرة للاحلام ان هي الا صورة ممسوخة للرغبات المكبوتة ويتوقف مقدار هذا المسخ على مبلغ تنافر تلك الرغبات المكبوتة مع المثل الاخلاقية التي يتبعها الانسان في حالة اليقظة. فاذا ما كانت تلك الرغبة قديمة جدًّا فانها تحاول الظهور بشكل غير متخف وتكون هي سبباً لازعاج النائم وفي هذه الحالة ينقلب الحلم الى جثام يوقظ النائم وهو ينتفض رعباً وهلعاً

ولهذه النظرية شذوذ ، كما ان النظرية الاصلية للاحلام تغيرت تغيراً زاد من مرونتها وجعلها عملية اكثر مما كانت عليه سابقاً. وقد اجمع الباحثون على ان مدلولات صور الاحلام تختلف باختلاف الاشخاص — على ان فرويد وحده ظلَّ معتقداً بان تحليل الاحلام هو السبيل الوحيد لتفهم القوى العقلية خاصة منها تلك التي أدت الى الكبت العقلي في اول حياة الانسان

الخاتمة

ان القارىء المطلع على ابحاث التحليل النفسي يجد العرض المتقدم للتحليل النفسي غير منسجم تمام الانسجام مع ما قدم من ابحاث اختصت بهذه الناحية من علم النفس. وانهُ ما ان يتم قراءته

للبحث حتى تجول في عقله الاسئلة التالية : هل ما جاء بالبحث كامل الجوهر ؟ وماذا تم بامر «العقل اللاشعوري » والافكار اللاشعورية والذاكرات اللاشعورية و« الرغبات اللاشعورية »؟ وجوابنا على هذه اننا تحاشينا ذكر هذه المصطلحات مكتفين بالتميز بين « الحوادث العقلية » وبين « الاستمرارات العقلية »

يتحدث البعض من بحاث التحليل النفسي عن العقل كانهُ حجرة مقسمة قسمين اختص احدهما بالشعور والآخر باللاشعور وفي كل من هذين القسمين أمور ـ تدعى بالافكار ـ وبالرغبات وبالميول الخ . هذه الأمور تنتقل من حين لآخر من احد القسمين الى الثاني فيؤثر بعضها في بعض بحسب نوع القسم الذي تنتسب اليه . ومهما كانت مكانة هذا الأسلوب من البحث في العلاج العلمي للاضطرابات النفسية فانهُ مبعث لاخطاء كبيرة في البحث النظري وسبب ذلك ان هناك فعاليات عقلية كما ان هناك حوادث خاصة بتلك الفعاليات كالتفكير والفكر والترغيب والرغبة والتمني والبنية والى غير ذلك من الفعاليات والحوادث وعلاوة على هذا فان هناك عوامل ثابتة تؤثر في الحياة العقلية وهذه العوامل ليست الاَّ استمرارات عقلية . ومن الواضح ان الاكتفاء باطلاق اصطلاح واحد على الفعاليات والحوادث والاستمرارات لما يؤدي حتماً الى تضليل في العرض النظري للبحث والى جعل عقل طالب البحث في ارتباك وتشويش

وعند ما يتكلم المحللون النفسيون عن «العقل اللاشعوري» فانما يتكلمون عن الاستمرارات العقلية أو عن البناء العقلي ولكنهم عند ما يشيرون الى «الرغبة اللاشعورية» وبالأخص عندما يتحدثون عن « الذاكرة اللاشعورية » فانما هم يستعملون بعض الاصطلاحات المبهمة التي تحتاج الى شروح غير مقتضبة . فلنفرض ان مريضاً عولج باحد أساليب التحليل النفسي فتذكر بعض الحوادث الماضية التي لم تخطر بباله قبل التحليل فكيف نعلل هذا التذكر ؟ ان المحلل النفسي يتكلم عن الذاكرة كأنها شيء مستقر في اللاشعور كما يستقر الحصى في قاع البحر . والحقيقة انهُ يعني بالذاكرة بعض الاستعدادات والاستمرارات التي ضمت الى البناء العقلي فيما مضى من حياة الانسان وهذه الاستعدادات لم تجد لها مجالاً للظهور في الحوادث العقلية الشعورية فلما عولج المريض اثيرت فعالية تلك الاستعدادات فتسنى لها الظهور مع الاستعدادات الأخرى . ان الحوادث المنسية التي يتذكرها الانسان عند التحليل النفسي هي حوادث طارئة فيما مضى من حياته أما استذكارها فأمر جديد وسيتكرر هذا الأمر كلما تذكر المريض تلك الحوادث المنسية

ان الانتقادات الموجهة الى نظريات فرويد كثيرة الاَّ ان هذه النظريات على ما هي عليهِ من نقص ومن نواح ضعيفة لكبيرة المقام في العلاج النفسي لمعظم الاضطرابات النفسية . وأما منزلتها في تفهم طبيعة حياتنا العقلية فلا تقدر . وانها ولا ريب فاتحة لابحاث جديدة ولدراسات واسعة يقوم بها البحاث النفسيون المعاصرون

أشواق !! (١)

لعبد الرحمن الخميسي

ياطبيبي ظمئتْ روحي الى رشفة النور وراء الأفقِ
أطلقوني . . إنني في جسدي بلبلٌ ضاق بسجن مغلقِ
طال حبسي وأنا ما عشقتْ مهجتي غير الفضاء المطلقِ
آه يا حريتي . . حـــريتي من وراء الغيم . . حلي موثقي
أنقذيني من كياني الضيق

هذه أمي تناديني وقد نصلتْ من حلقات الزمنِ
يتخطى السحبَ وثباً صوتـها ساكباً أصداءه في أذني
باركيني..حَلّقي في مخـدعي خلصيني من قيود البدنِ
وأنيري لي سبيلي . . إنمـا أنا في الدنيا غريبُ الوطنِ
نهشتْ قلبي نيوبُ الشجنِ

غام لي الحاضرُ فاغتالَ الأسى ذوبَ نفسي وبقايا أضلعي
وتهاوتْ أنجمُ الماضي على صفحةِ الذكرى فهاجتْ أدمعي
أين أمي ؟ أين واريتُ أخي ؟ كيف غابا ولقد كانا معي ؟ !
أقفرتْ دنياي من أغراسها وأنا أرهب عيشَ البلقـعِ
فالامَ يحتويني هلعي ؟ !

ياطبيبي ظمئت روحي الى رشفة النور وراء الأفق
أطلقوني . . إنني في جسدي بلبل ضاق بسجن مغلق
طال حبسي وأنا ما عشقت مهجتي غـير الفضاء المطلق
آه يا حريتي ... حريتي من وراء الغيم ... حلي موثقي
أنقذيني من كياني الضيق . . .

---

(١) هذه القصيدة هي النشيد الاول من ملحمة « فجر الموت »

الطب المصري القديم

خرافتان مصريتان قديمتان

أخذ « الأثر » والوقاية بتعاطي المياه السحرية

للدكتور حسن كمال

الغرض من هذه المقالة هو اظهار اصل خرافتين شائعتين بين سكان القطر المصري يرجع تاريخهما الى حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد أيام العائلة العشرين . وهاتان الخرافتان — « أخذ الأثر » والوقاية بتعاطي المياه السحرية — وردتا عرضاً في احدى الروايات الدينية المكتوبة بالخط الهيراطيقي على قرطاس مصري قديم محفوظ بمتحف تورين (Turin) بايطاليا. وأول من نشر هذا القرطاس هو بليت (Pleyte) وروسي (Rossi)[1] ثم ترجمه ليفبر (Lefébvre)[2] بالفرنسية وڤيدمان (Wiedmann) بالالمانية[3] وبعد ذلك لخصه كل من الاستاذين ادولف ارمان (Adolph Ermann)[4] وجاستون ماسبرو (Gaston Maspero)[5] ثم أتى المستر بدج (Budge) فنقل نقوش هذا القرطاس من الخط الهيراطيقي الى الهيرغليفي وأعاد ترجمته وطبعه

والقرطاس يحوي رواية دينية تعرف بقصة (رع) (أي المعبود الشمسي) وأزيس (زوجة ازوريس) . وتبدأ هذه الرواية بسرد أوصاف المعبود (رع) العظيمة بوصف كونه خالق الكون الأعظم وبذكر اسماء هذا المعبود العديدة غير المعروفة حتى للمعبودات . وكانت المعبودة (ازيس) في ذلك الوقت تعيش بين الخلق كامرأة ساحرة برعت في العزائم والقراءات السحرية أو بعبارة أخرى كانت تعيش كاحدى النساء اللاتي يشاهدن الآن في شوارع القطر ممن يدعون معرفة « فتح البخت » ورمي الودع وقياس الأثر

ورد في القرطاس المذكور ان (إزيس) برعت في الطب ايضاً وسميت (بامرأة الطب) وهذا الجمع بين صناعتي السحر والطب كان شيئاً معتاداً عند قدماء المصريين لانهم كثيراً ما كانوا

---

(١) Papyrus de Turin p. II 31,77,131—138 (٢) A. Z. 1883 p 27 ff
(٣) Die Religion p 29 (٤) Aegypten p 359 ff (٥) Les Origines p162-4

يستعملون السحر في علاجهم للامراض المستعصية . ولا تزال بعض تلك العادات شائعة بين منجاتنا اللاتي يمارسن فن التنجيم وعمل الختان ويطفن الشوارع منادين « نشوف البخت وندج ونطاهر » ، اي نقوم بعمليتي الوشم والختان

قالت الرواية ان المعبودة (ازيس) استعملت سحرها بين الخلق ردحاً من الزمن حتى سئمت ثم طمحت نفسها الى أن تسيء للمعبودات والأرواح فعكرت في ذلك وقرّ رأيها على ان تعرف اسم المعبود (رع) السري الذي تترتب عليه سيادة المعبود في الكون . وكان (رع) شديد الحرص على اسمه لأنهُ يعلم ان كل فرد يتوصل الى معرفته يسود عليه . فلما ظهرت لازيس صعوبة الأمر بالطرق المعتادة ابتكرت طريقة لذلك

كان المعروف بين قدماء المصريين في تلك العصور ان الساحر اذا تحصل على جزء من جسم انسان كشعره أو ظفره أو بعض جلده او افرازاته أمكنه أن يسحر له ويضره ضرراً بليغاً . والسحر كما نعرف حقيقة واقعة . حتى لقد قيل إنهُ سحر للرسول عليه الصلاة والسلام بالنفث في العقد فنزل قوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) . كما ورد بالكتاب الشريف تأثير السحر بين الزوجين وذلك في سورة البقرة (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه)

***

نعود الى قصة اليوم فنقول ان (ازيس) لاحظت ان (رع) هرم وضعف وسقط لعابه على الأرض فانتهزت هذه الفرصة وأخذت بعضاً من لعابه مزجته بطين وصنعتهُ بهيئة ثعبان سام ثم تلت عليه عزائم شديدة ووضعتهُ في طريق (رع) لعله يلدغه يوماً من الأيام وقت سياحته فوق القطر المصري

وعلى ذكر استعمال لعاب (رع) نقول ان في القطر المصري كثيراً من السحرة يشترطون أخذ « أثر » الشخص المراد سحره ويعزّمون عليه فيكون بذلك الواسطة بين الساحر والمسحور وكثيراً ما يختلف نوع الأثر في مذهب السحرة . فبعضهم يطلب شعراً والآخر منديلاً وغيره ظفراً أو ملبوساً الخ . ويعتقد البعض ان مفعول السحر يستمر بمكوث « الأثر » عند الساحر وتسمى هذه الطريقة عند العامة « بأخذ الأثر » وتشاهد يوميًّا بين عامتنا خصوصاً فيما يتعلق بأمور المحبة والعشق

أتذكر يوماً حضر اليَّ مريض قائلاً انه تزوج قريبة لهُ كان والهاً بها لكنهُ كرهها من ليلة القران ولم يعد يتصورها في مخيلته واعتراه الأرق طول ليله فقلت إلى ماذا تعزو هذا الأمر؟ قال كنت أحب امرأة قبلها وبلغني انها أخذت أثري وهو منديلي «فسحرت لي عليه» وما دام هذا «الأثر» موجوداً عندها فلا رجاء من شفائي . فحاولت ان أقنعه بعدم صحة هذه الأوهام فلم أفلح

والغريب ان والد هذا المريض وأقاربه وجماً غفيراً من زملائه كانوا كثيري الاهتمام به «افك هذا السحر» فأحالوه على طائفة كبيرة من المشايخ واستمرَّ الحال على ذلك ستة اشهر تقريباً كاد يطلق عروسه في اثنائها لولا ان الله منَّ عليهِ بالشفاء على يد أحد السحرة المهرة ا

وليست هذه الحادثة بالفريدة من نوعها . فكثيراً ما يصادفنا إمثالها اثناء اشغالنا اليومية . والأغنية العامية الآتية خير دليل على اعتقاد العامة بهذه الأمور

أنا أعمل لك حجاب على ورق الخيار
أسهره بالليل واجننه بالنهار

واستعمال الثعبان في ضرر المعبود (رع) يذكرنا بما يجري الآن في السودان في جهاته المعروفة باسم بانيورو (Banyoro) فان أهالي تلك الجهة تصطاد وحش الجاموس بتثبيت ذيول الثعابين السامة بمسامير في الأرض في طريق الجاموس المذكور فتتمكن تلك الثعابين من لدغه وقتله ويقال إن ما يقتله الثعبان الواحد في اليوم من الجواميس يبلغ العشرة أحياناً . أما الفريسة الأولى فلا تأكلها الأهالي لأنهم يعتقدون انها مسمومة واما الباقي فيؤكل (١)

قالت الرواية الدينية ان الثعبان الذي وضعتهُ (ازيس) في طريق (رع) لدغهُ وافرغ سمهُ في جسده فأثر فيهِ كثيراً وسبب له ألماً شديداً فارتعش فكاه وصرخ المعبود من الألم . فلما سمعت المعبودات صياحه أسرعت اليهِ . فأخبرهم بما حصل . فقالوا ان الحادث غريب لأن (رع) محفوظ بالوسائل السحرية وباسمه السحري . فأمر (رع) باحضار جميع آلهة السحر فحضرت وكانت بينهم (إزيس) فالتفتت اليهِ قائلة (ماذا أصابك أيها الوالد المقدس ؟) فأجابها بأنهُ لدغ بثعبان سمُّهُ أحرّ من الجمر وأبرد من الماء فارتعشت أعضاؤه وضعف بصره . فاجابتهُ (ازيس) ماكرة (خبرني باسمك أيها الوالد المقدس فان كل من يفشي اسمه يعيش) . فسرد (رع) أفعاله وصفاته الالهية وختم كلامه بان أسمه (خپرا) في الصباح و(رع) في الظهر و(تمو) في المساء ظناً منهُ أن ذلك كان لاقناع (إزيس) فتبدأ حينئذٍ بشفائه . لكن هذه الحيلة لم تخدع (إزيس)

---

(١) Johnston, Uganda Vol. II p. 584

لأنها علمت أن (رع) لم يقر باسمه السري فامتنعت عن معالجته وزاد ألمه وسرى في جسمه السم فقال في نفسه (ان إزيس تسعى ورائي وان اسمي سيترك قلبي ويدخل جسمها) ثم ترك (رع) مركبته السماوية التي كان يطوف السماء بها الملايين من السنين واحتجب عن الآلهة التي فيها . فخامر (ازيس) الشك في قول (رع) واتفقت مع (حوريس) على أن لا تشفي (رع) حتى يقسم لها بأنه اذا لم يقر باسمه خسر عينيه (وهما الشمس والقمر) فوافق (رع) في آخر الأمر على ذلك وخرج اسمه السري من قلبه ودخل جسم (ازيس) وأصبح (رع) في عالم الأموات ثم تلت (ازيس) عليه العزيمة الآتية — أنا (إزيس) الساحرة التي تخرج السم من الجسم وتسقطه على الأرض . لقد أخذت من المعبود الأكبر اسمه السرّي وسيبقى (رع) حيّاً. اما السم فيموت لأنهُ اذا عاش السم مات (رع)

وأصبحت لهذه التعويذة منزلة كبيرة في تلك العصور الغابرة . واعتاد القوم تلاوتها للوقاية من الحشرات لأنها أخرجت السم من (رع) ولكونها من ابتكارات (ازيس) ولأنها كانت الواسطة لمعرفة اسم (رع) السرّي

***

قال الكاتب المصري القديم (اذا قرئت هذه التعويذة على ورقة من البردي او قطعة من الكتان أو تمثال احدى المعبودات (تمو) أو (خروحكنو) أو (إزيس) أو (حوريس) قوي مفعولها السحري. واذا وضعت ورقة البردي المذكورة في ماء وتعاطاه الانسان انتقل اليه مفعول التعويذة وأصبح جسمه منيعاً ضد لدغ الثعابين)

ولا تزال أمثال هذه الخرافة شائعة بين عامتنا الاّ أنها حرفت نوعاً بتغير الاديان فيشاهد أن بعض السحرة يتلو إحدى التعاويذ ثم يبصق في ماء يتناوله شخص آخر فيشربهُ وهذه الطريقة في اعتقادهم كافية لتحصين الشخص ضد لدغ الثعابين والأفاعي

ويلاحظ احياناً أن بعض العامة يلجأ الى كتابة بعض النصوص السماوية على ورق يذاب في ماء يشربهُ الشخص الراغب في الوقاية من لدغ الحشرات . وتكتب احياناً بعض تلك النصوص المقدسة على أوانٍ تعرف عند العامة باسم (طاسات الخضة) يصب فيها الماء ويعطى للشخص الملدوغ أو المرعوب لقصد شفائهِ

***

وهكذا وصلت الينا خرافة قدماء المصريين محرَّفة يسيراً بأن الماء المسحور يقي منْ يشربهُ من لدغ الثعابين

أضرار التبغ وفوائده

للدكتور اندراوس شخاشيري

أليس غريباً ان يتجه الانسان بفطرته الى اقتباس ما يضره ويتنحى عن الذي ينفعهُ ؟ فالان يقلد اباه في اشياء معظمها ضار بهِ ولا يقلده في اخرى تفيده . ومن أهم الاشياء التي يتحفز لها في صغره ومحاكاة والده فيها في كبره : التدخين

والتدخين عادة عريقة تأصلت جذورها في منابت الحضارة وتدرَّجت معها في التقدم والرسوخ حتى أصبحت مظهراً من مظاهرها وأداة رئيسية من أدواتها

واتباعها — على رغم مناوئة العلم لها والتشهير بمساوئها واضرارها — يتزاحمون في الاقبال عليها والتعلق بها وكما تحوم الفراشة حول المصباح يحومون حولها ويصطلون بنارها ويقعون في شراكها . فتراها منتشرة في كل مكان دبَّ فيهِ انسان . لا يخلو منها قصر منيف ولا كوخ حقير . وفي الحفلات والاجتماعات والمقاهي والقطار والترام والسيارة والعربة والباخرة . وعلى متون الخيل والابل والحمير ترتفع أعلامها وتملأ الفضاء سحبها ودخانها . وربة الدار اول ما تقدم لزائريها وزائراتها لفافة منها ترحيباً بمقدمهم قبل ان تقدم لهم الماء او الغذاء . والصديق الذي لا يرحب بصديقه بلفافة يقدمها له عند اللقاء يكون ناقص المعرفة في آداب المجتمع والاصدقاء وكم كانت هذه اللفافة سبباً للتعارف وتوثيق الصلات وربط اواصر المحبة والصداقة بين الافراد والجماعات كما كانت سبباً للتنازع والخصام ووقوع الكوارث في الارواح واحتراق الدور والأماكن العامة . ويكاد يكون لها في كل منزل نكبة وأثر من آثارها المحزنة والخسائر المادية التي تحدث بسببها كثيرة ومن العسير حصرها

***

ولو سألت المدخن المبتدىء لماذا تدخن وأي شيء أغراك بهِ وساقك اليهِ لقال لا أعلم والحق أنهُ لا يعلم لماذا يدخن سوى أنهُ رأى من هو أكبر منهُ سنًّا ومقاماً يدخن فاقتدى بهِ. ولو علم بما تتقاضاه تلك العادة من صحة ومال وما سيكون لها عليهِ من سلطان في المستقبل وما

تعرضه لأمراض وبيلة العاقبة عليه لتجنب السقوط في حبائلها ما استطاع الى ذلك سبيلاً ولرمى باللفافة الأولى وداسها بقدميه وامتنع من التلهي بها والتعود عليها

ولو سألت تلك الفتاة الحسناء التي ما كادت تستقر في مقعدها بالترام حتى تناولت من حقيبة يدها لفافة وأطلقت من فمها الجميل غلالة من الدخان : لو سألتها لماذا تفسدين شذا رضابك بهذا الدخان الكريه أو بعبارة أخرى لماذا تدخنين ؟ لقالت انها تفعل ذلك أسوة بأمها وغير أمها من السيدات والفتيات أو مجاراةً لآداب الاجتماعات وتمشياً مع روحها العصري وثقافتها الراهنة : أو امتثالاً للفتى الذي تصاحبه وتجتمع به . أو لأنها شعرت بغضاضة في مستواها العلمي ومقامها الاجتماعي اذا لم تقلد الرجل في التدخين كما قلدته في مسائل أخرى عندما أبيح لها الاجتماع به والذهاب معهُ في رحلات نائية والتنزه واياه في الحدائق العامة وغير ذلك من الاعذار

ولو سألت ذلك الفتى الناهض والشاب الأنيق أو الرجل العامل والكهل المقعد أو الصبية في الشوارع أو العجزة في الدور والمنازل أو الموظف في ديوانه أو الاديب المنشىء في مكتبه لو سألتهم جميعاً ذات السؤال لقالوا انهم يدخنون اقتداء بمن تقدمهم لا لشيء آخر . . وبعد ان اسرتهم العادة بقيودها وأصبحوا من أتباعها فهم يدخنون لأنهم يشعرون أحياناً بضيق في تنفسهم وصداع في أمخاخهم وحرج في صدورهم وملل من الحياة وزهد بها . وان التدخين يسرّي عنهم مما هم فيه ويبدّل حالهم السيئة بحال أحسن منها وأدعى الى تهدئة أعصابهم المضطربة وزوال ما كانوا يشعرون به من ضيق وصداع ولو الى أمد قصير . اي مدة احتراق اللفافة

ومما لا شك فيه ان للتبغ تأثيراً خفيفاً على الأعصاب يحمل المدخن على الظن انهُ يسكن اضطرابه ويذهب بآلامه وهذا الشعور يغريه بالتعلق به والالتجاء اليه . ويذهب بعضهم ولاسيما الأدباء وأصحاب المهن الرفيعة الى ان التدخين يساعدهم فعلاً على القيام بمهمتهم ويخفف عنهم كثيراً من أعبائها الشاقة، ومعظم هذه الطائفة العزيزة المحترمة يقول لولا التدخين لما استطاع ان ينتج عشر ما ينتجهُ من الأعمال التي ينتجها تحت تأثيره فضلاً عن شعور الارتياح الذي يساوره في خلال انجازها

وهذا القول خطأ ووهمٌ صريح لا يؤيده العلم بحال . ومع ذلك لنفرض أنهم على شيء من الصواب فيما يدعون ، فالاضرار التي يجلبها عليهم التدخين تكفي وحدها سبباً قويًّا لابطاله والاقلاع عنهُ وإيثار الانتاج الضئيل بدونه على الانتاج الكبير به . على ان التجاريب العلمية التي قام بها ثقاة العلماء أثبتت — كما سأبين فيما بعد — ان الرجل المدمن على التدخين كالرجل المدمن على الخمر وغير الخمر من المكيفات هو أقل احتمالاً للاعمال الشاقة والالعاب الرياضية وتوقل الجبال العالية من الذي لا يدخن ودونه كفاية وجلداً وصفاء على مزاولة الكتابة في السياسة

ومختلف الموضوعات الاجتماعية . ومن الشواهد المؤيدة لهذه النظرية حضرات الأفاضل أصحاب السعادة والعزة الدكتور فارس نمر باشا والاستاذ عبد القادر حمزة باشا والاستاذ الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور أحمد زكي ابو شادي والاستاذ عبد الخالق حسونه بك وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية والأستاذ خليل ثابت بك والأستاذ سلامه موسى والأستاذ نجيب شاهين فانهم لا يدخنون وهم قادة الأدباء في خصوبة الانتاج وسمو الانشاء . ومثالان آخران أعرض لهما احتراماً لذكراهما وهما الدكتور يعقوب صرّوف وجرجي زيدان بك وقد خلفا ثروة طائلة في العلم والأدب والتاريخ لا تضارع من غير ان يستعينا بلفافة واحدة من ذلك السم الزعاف

والذي يدعو الى الأسف الشديد حالة العامل وما هو فيه من بؤس وشقاء بسببها . فانه يكسب في يومه بضعة قروش ليحرق جزءاً منها على التدخين ومهما يكن ذلك الجزء صغيراً فهو كبير بالقياس الى دخله وشدة حاجته الى سد ما ينقصه من غذاء وكساء له ولعائلته . واذا مرض وداهمه الداء وعرض نفسه على طبيب يقول انهُ في غنى عن العلاج وعن الدواء. وأما عن التدخين فليس لهُ عنهُ غناء . وهذا هو الواقع ايها القارىء الكريم لا مبالغة فيه ولا تحريف فما من طبيب في هذا القطر وغيره من الأقطار الا ونصح وما فتئ ينصح مريضه العامل وغير العامل في كل أمة من أمم الأرض بأن يكف عن التدخين لتأثيره السيء في صحته وذريته ولم تلقَ نصيحته وبا للاسف آذاناً واعية الا من عدد يسير ولأمد قصير

وبعد هذا التمهيد الوجيز الذي كنت أود ان يطاول نفسه أعرض لبعض مساوىء تلك العادة التي يخضع لسلطانها اليوم عدد كبير من الخلق في كل أمة ربما تفاوت عدد المدخنين فيها بين ٣٠ و ٤٠ في المائة منهم وقد يزيد على هذا التقدير او ينقص قليلاً . وفي كلتا الحالتين ان نسبة المدخنين على العموم في صعود لسوء الحظ لا في هبوط. وعلى هذا القياس يتسع نطاق أضراره ويمتد تأثيره في أجهزة الجسم وأعضائه الرئيسية مع تعاقب الأيام . وأول تلك الأضرار ما يظهر أثره في خط الدفاع الأول للجسم الذي هو الفم ومحتوياتهُ . وقوام هذا الخط كما هو معلوم الأسنان واللسان والحنجرة والبلعوم واللهاة واللوزتان والغدد اللعابية وهي النكفية وتحت الفك وتحت اللسان . وتفاعل اللعاب قلوي . وهذه الأجزاء مبطنة بغشاء مخاطي شديد الحساسية لما يتخلله من كريات عصبية وكريات من بنائه وعلى سلامة تلك الخاصية تقوم صحة الجسم وهنائته لأن بها نميز طعم أنواع المآكل ونعرف الجيد منها والرديء . ونشعر بالساخن الحار والبارد القار والحلو وضده والمالح والحريف وغير ذلك . وهي خاصية كما ترى خطيرة الشأن

ووظيفة اللعاب او الريق هي تحويل المواد النشوية الى دكسترن وسكر وتيسير عمليتي المضغ

والازدراد ، وهذه الوظيفة لها شأن كبير هي الأخرى . وعلم الوقاية يقول بألاّ نمسها بسوء ولا نعكر عليها سياق العمل القائمان به والمفطوران عليه . ومن أهم العوامل التي تفسد عليها نظام ذلك العمل هو التدخين الذي نحن في صدده لما يحمله في طياته من مواد سامة اخطرها النيكوتين وهذا اسم لسفير فرنسا في البرتغال وقد أطلق عليها اسمه لأنهُ كان أول من بعث ببذرة التبغ الى فرنسا وأظهر ميزاته الخاصة به . أما الذي نقل التبغ من أميركا الجنوبية الى أسبانيا فهو فرنسسكو فرد نند سنة ١٥٥٨ . وتفاعل التبغ قلوي ومفعوله مخدر خفيف استعمل في اول عهد ظهوره لتسكين الآلام الجلدية وبطل استعماله الآن كدواء . ويا ليتهُ ظل مدفوناً في ذلك الركن الضيق ولم يتخذ مكيفاً ويتسع انتشاره ويذاع صيتهُ وتظهر آثاره في كل بيئة ومكان كما هو عليهِ الآن

وتأثير النيكوتين يظهر على أثر التدخين في كريات الأعصاب للغدد اللعابية فيشلها ويبطل عملها ويفعل مثل ذلك في كريات الغشاء المخاطي المبطن للاجزاء المار ذكرها فيحدث بها اضطراباً والتهاباً واحتقاناً ويشعر المدخن بجفاف في الحلق وتهيج مزعج وخمول في ذهنه وخمود في قواه . واذا كان من المبتدئين يشعر بغثيان ودوار وربما تقيأ وتفصد جسمه بالعرق الغزير وتبرد أطرافه ويبهت لونه ويصفر وجهه وقد يغمى عليهِ فترة قصيرة من الزمن . وهذه الاعراض لسوء الحظ لاتدوم سوى دقائق ولو استمرت وقتاً أطول لنشأ عنها في نفس المدخن زاجر يردعهُ عن التدخين ولو الى حين . ولكنهُ يعود الى التدخين والى مزاولته والتعود عليهِ . وبذلك يقل شعوره بتأثيره فيه بعدما تزداد اضراره في اعضاء الجسم على نسبة ما يحرقه منهُ . ولو اقتصرت أضرار التدخين على هذه الاعراض الاولية فقط لهان امرها وصغر شأنها ولكن الذي يحدثهُ هنا في الخط الاول يحدثهُ اضعاف اضعافه في الخط الثاني الذي هو المعدة وبين المعدة والفم التجويف الصدري الذي يحتوي على القلب والرئتين . وتأثير النيكوتين فيهما ولاسيما في الاول اي في القلب خطير جدًّا كما سترى فيما بعد . واما تأثيره في المعدة فلا يختلف عن تأثيره في الفم مع اختلاف تفاعلهما . فتفاعل اللعاب قلوي كما تقدم وتفاعل عصير المعدة حمضي والما كل النشوية التي تتحول الى مواد سكرية بالفم لا تتأثر بالفم في غير ما ينالها من القضم . والمضغ ومفعول التدخين وأضراره في المعدة والفم وغيرهما من اعضاء الجسم يسير على نمط واحد لا تغيير فيه أي أنه يشل كريات الأعصاب في غشاء المعدة كما شلها في غشاء الفم ويحدث تهيجاً في الأجزاء والأغشية التي يتصل بها ويقع عليها . ففي الفم يحدث اضطراباً في الغدد اللعابية ويقلل من افرازها ويصبح الفم بحالة جفاف يتعذر معها المضغ والازدراد وتفقد الشهية ويتغير تفاعل اللعاب تدريجيًّا في مدة التدخين والادمان عليه الى شبه حمضي ويتسبب عنهُ اضرار جسيمة في بناء الغشاء المخاطي والأسنان واللوزتين والبلعوم والحنجرة وتتعطل وظيفة اللعاب كما تقدم

ذكره في النشويات فتنحدر هذه الى المعدة غير مهضومة وتنزل عليها ضيفاً ثقيلاً غير مرغوب فيه . ولا شك انها في تلك الحالة تسبب تلبكاً واضطراباً في عصير المعدة الهاضم فتزداد حموضته وبعطل افرازات غدد الغشاء المعدي كما تم في غدد الفم فضلاً عن تأثيره المباشر من التدخين الذي يحدث فيه التهاباً حاداً وآلاماً مزعجة لا تطاق . وقد ينتهي في الغالب بعد زمن قصير أو طويل الى احداث القرحة المعروفة بخطرها وأوجاعها وسيان كانت من النوع الحميد أو الخبيث فهي وخيمة العواقب في الحالين . وقد يصاب المدخن بالغليون (أو البيبا) بسرطان باحدى شفتيه والسفلى هي المختارة في أغلب الحالات . هذا بعض ما تخلفه تلك اللفافة الصغيرة في حجمها والكبيرة في تأثيرها التي اتخذناها في بادىء الأمر للتسلية واللهو أو مجاراة للآداب الاجتماعية في أثناء المقابلات والزيارات والنزهات والخلوات . وأما ما يحدثه النيكوتين في الأوعية عامة وفي أوعية القلب والقلب خاصة وأعني شرايين التاج Coronary Arteries وما أثبتته تجاريب العلماء في الحيوان والانسان فهو مخيف جداً أخشى على قلب تلك الفتاة الجميلة من الافصاح عنهُ والأدلاء بهِ وهي التي شاءت ان تقلد الرجل في التدخين لتظهر بمظهر الفتاة المتحضرة اي شيك مودرن وليس لشيء آخر يبعثها عليه لأن التدخين في ذاته يخالف طبيعتها تمام المخالفة في رائحته الكريهة وتأثيره الخطر فهو يحدث اضطراباً في الجهاز العصبي من الخير ان تبتعد عنهُ وتكون في منجاة منهُ لئلاً يظهر أثره عليها وهو من شأنه ان يناقض مزاجها اللطيف ويخرجها من مهابة خدرها ويقلل من فتنة جمالها ويذهب بشيء كثير من أنوثتها ويدنيها بخطوات واسعة من أبواب اليأس والهرم والشيخوخة قبل الأوان . ولا أنكر عليها از في الجلوس في مقعد الترام وغير الترام من المجالس العامة أو الخاصة واشعال السيجارة واطلاق سحب الدخان منها في الفضاء وسط طائفة من الرجال ظاهرة بديعة قد يكون لها وقع جميل خاص في نفسها لا في نفس الوسط الذي حولها . فانهُ ينظر اليها نظرة ازدراء ويرميها بالحمق والغباوة ويحتقرها ويسيء الظن في كرامتها ويبحث عن البواعث التي حملتها على التباهي بهذا التقليد المضر في صحتها فلا يجد ما يسوّغ إقدامها عليه وتمسكها به سوى نزق الصبا وغروره والاَّ فأي فائدة تجنيها من التدخين والعلم يقول — وقول العلم صدق لا مينٌ فيهِ ولا شك في صحته — ان التدخين آفة مهلكة ليس فيهِ ما يفيد وهو فضلاً عن الأضرار التي تقدم ذكرها تعمل سمومه على احداث التصلب في الأوعية ورفع ضغط الدم عن مستواه السوي ويظهر في القلب اضطراب وخفقان وتضخمٌ وسرعة في النبض مع تقطع وعدم انتظام وتصاب شرايين التاج بالتصلب هي الأخرى وبالسدادة المكتسبة وتستهدف فتاتنا الى مرض الذبحة الخطير وتعاني الرئتان والحويصلات الهوائية والشعب ، الاهوالَ مصحوبةً بالسعال المزعج والربو الثقيل وتبدو على الجسم علامات

الضنك والهرم المبكر ويتقوس قوامه وتذهب عن الوجه نضارتهُ وبشاشتهُ ويحل محلهما التقطب والتجعد والتغضن والسآمة والضجر لما ينتابها من النزلات الشعبية والرئوية وتبدو في أغلب الاحيان كأنها رجل فظ الطباع شرس الأخلاق فيهِ قسوة وخشونة وميل الى المشاكسة وخلق المنازعات بين الأهل والمعارف. ومن اضطربت أعصابه ساءت معيشته وعشرته . ورجائي بعد هذا الشرح والاسهاب أن تقلع تلك الفتاة عن التدخين في هذه اللحظة ولا تستمر فيهِ حتى يظهر عليها أثره المريع ومضاعفاته المهلكة وقبل أن يكتب لها الانتقال الى دار رفيق حياتها فتسعده بمحبتها وصفاء قلبها ولا تعكر عليهِ الحياة بالعلل والاسقام أو بما تنجبهُ له من بنين هزال الجسم يتصيدهم المرض ويبتلعهم الموت في اوائل حياتهم من غير كبير عناء . . . وان تنهض معي لمقاومة هذه العادة واستئصالها من النفوس السقيمة بها واذاعة أضرارها الجسيمة بين الناس ولاسيما بين أترابها ومن تمتُّ اليهم بصلة ما . وبذلك تسدي الى امتها أجل الخدمات وأنفعها واذا ما ضمنتُ وعدها بالكف عن التدخين ومعاونتها على محاربته ضمنتُ نصف النجاح. استغفر الله بل ضمنت النجاح كله كاملاً ونلت خير مكافأة يتمناها خادم أمين

***

وأتقدم من ذلك الشاب الناهض والتي في أذنهِ خلاصة ماوصل اليهِ بحث العلماء في مضار التدخين وعواقبه . فالاستاذ بيرل ريموند الشهير توفر على درس تأثير التدخين عشرات السنين في مدى العمر ونشر رسالة ضافية في ٤ مارس سنة ١٩٣٨ ذكر فيها مئات الحالات التي درسها والنتيجة التي وصل اليها. وهي ان أعمار المدخنين أقصر من أعمار غير المدخنين وبين المدخنين بالذات تقصر مدى الحياة في المدخن على نسبة قدمهِ في التدخين أي بقدر ما هو عريق في التدخين يتناقص عمره في السنين . ونشر الاساتذة جان انكليش وفردريك دليوس وجوزاف بركسن رسالة في أكتوبر الماضي عن التبغ ومرض أوعية القلب Coronary Disease عرضوا فيها لدراسة احصائية أربعة آلاف حالة منها المريض بالذبحة الصدرية وبسدادة الاوعية القلبية مع التدخين ومنها السليم من أمراض القلب ولكنها مريضة بعادة التدخين. وقد أثبت لهم البحث والدرس أن مرض أوعية القلب أكثرها حدوثاً بين المدخنين الذين دون الخمسين ويتضاعف ظهوره كلما نقص عمر المدخن. وبعبارة أوضح فقد وجدوا أن تأثير التدخين في أوعية القلب أكثره حدوثاً في الشباب الذين هم في سنّ أقل منهُ في الكهول. ويقل تأثيره في الشيوخ أو بعد سن الخمسين فما فوق. ويقول الاستاذ : ورفي لاشك في أن التدخين يعرض المريض المصاب بمرض أوعية القلب الذبحة القلبية المريعة . وذكر حالة طبيب يعالجهُ من ذلك الداء كان وهو يدخن ينتابهُ ذلك العارض المخيف ويذهب عنهُ ولا يعاوده عندما يكف عن التدخين وأن أكثر الناس

امرضاً له وتأثراً به هم الذين تقل أعمارهم عن الاربعين والثلاثين والعشرين . ويتجلى خطر التدخين في المصابين بارتفاع ضغط الدم فانهم يستهدفون للذبحة والخفقان ما في ذلك شك

واهتمام العلماء بتأثير التدخين واقتناعهم بأضراره الوخيمة يكاد يكون بادياً للعيان في كل أمة من أمم الأرض . كما وان الشواهد على كثرة ضحاياه ملموسة الآثار في كل مكان . ومن الثابت المقطوع في صحته ان الوفيات الفجائية بين العظماء والأدباء وغير العظماء والأدباء التي نفجع بها هنا وهناك ترجع معظم اسبابها الى مرض اوعية القلب الذي يعرض المصاب الى تلك النوبات المزعجة كما مرَّ ذكره وتقضي عليه بين طرفة عين وانتباهتها. وليس بالبعيد بل هو في مرتبة اليقين أن يكون التدخين هو السبب الأول له او المحرض عليه . ولا اخالني بحاجة الى استعراض جميع اقوال العلماء والتبسط في شرح اختباراتهم الكثيرة فهي على ضخامة عددها وتشعب مسالكها في مختلف نواحي البحث والاستنتاج متفقة بالاجماع على ان النيكوتين او بالأحرى التدخين آفة قتالة يجب ابطال استعماله واتخاذ الوسائل المشروعة للحد من ذيوعه وفرض الرسوم والضرائب الباهظة عليه وادغامه في سلك المورفين والهيروين وغيرهما من المخدرات وتكبيله بقيودها الصارمة الرادعة . ويقولون عند وقوع حوادث جنائية غامضة الأسباب فتش عن المرأة . وأقول والشيء بالشيء يذكر فتش عن السيجارة عند ما يخطف الموت عزيزاً عليك فجأة فقد تكون هي السبب لا سبب سواها

***

وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت الى إقناعك بصحة ما ألقيتهُ عليك من نصائح يعلم الله مبلغ إيماني بها وتقديرِ العلم لها

وانهُ ليسعدني حقاً ايها القارىء الكريم أن أنال منك وعداً شريفاً بابطال التدخين . اليوم. بل في هذه اللحظة والوفاء به وان تنهض معي لمحاربة هذه العادة المتلافة واذاعة ما عرفته من اضرارها الجسيمة وعواقبها الوخيمة بين ذويك واصدقائك . وان تدعوهم الى معاونتك في القضاء عليها واستئصال شأفتها

ويسرني ان افضي اليك بنبإ لا شك انهُ مما يسرك وترتاح اليه نفسك وهو ان تعلم بالعزم على تأليف رابطة من شباب مصر وفتياتها المثقفين ضد التدخين وعنوانها الحالي ميدان فم الخليج رقم ١٣ بالقاهرة ، وبكل مكان يقيم فيه عضو من أعضائها المنضمين اليها وهي ترحب كل الترحيب بكل نصير يتطوع لنشر مبادئها وبتحقيق أغراضها المنشودة وتتعهد لكل عضو جديد بموافاته بما يكون لديها من مطبوعات وتطبعه من نشرات وبريده من معلومات

امرأة أخرى ....

شبه قصة مصرية

بقلم : محمود كامل المحامي

هو — شاعر في الثلاثين من عمره

هي — فتاة في الخامسة والعشرين ظهرت ذات يوم في أفق حياة الشاعر

هي — ولكنني كنت اظن أنك احببتني هو — من أين جاءك هذا ؟

هي — من اهتمامك بي . كان يبدو عليك كلما تحدثت اليك انك سعيد بهذا الحديث . لم تظهر لي يوماً ضجراً منه

هو — اين هو ذلك الرجل الذي يظهر الضجر من امرأة شابة جميلة في الأيام الأولى من تعارفهما ؟

هي — لقد بلغ من تعلقك بالحديث معي انك كنت تقرأ لي طائفة من شعر فرنسي تحبه

هو — اعتدت ان أقرأ مثل هذا الشعر لفتاة منذ بضعة أعوام فلم أطق بعدها أن اقرأ شعر الحب وحدي

هي — ولكنك لم تشر الى تلك الفتاة مرة واحدة في جميع أحاديثنا الطويلة

هو — كنت أتوقع هذا اليوم فلم يكن من السهل ان افتح لك مغاليق قلبي

هي — هل كنت تحبها ؟

هو — مرت من بعيد في أفق حياتي هي — كما مررت أنا ؟

هو — اذا شئت هي — أنت تخدع نفسك وتحاول خديعتي

هو — تظنين ؟ هي — انني واثقة هو — اذا كانت هذه الثقة تريحك فافعلي

هي — لست طفلة حتى تتحدث الي بهذه اللهجة الساخرة . انني استطيع ان اذكرك بأمور كثيرة تؤيد ثقتي بما قلته هو — مثلاً ؟

هي — لقد ذكرتني في الأيام الأولى لتعارفنا بالمرات التي وقع بصرك علي

فيها . مرة وأنا أتناول طعام العشاء مع ابن عمي في شرفة «جرو بي». وأخرى وأنا جالسة في ثوب البحر على شاطىء «جليم» . وثالثة وأنا أعدو لاهثة لأودع أخي في محطة الاسكندرية

هو — ماذا تنتظرين من رجل يجد أمامه امرأة تصارحه بأنها كانت تتوق الى معرفته منذ بضعة أعوام وانها ظلت مترددة في التحدث اليه حتى استجمعت شجاعتها ؟ أليس من القسوة ان يجابهها بأنه لم يكن يشعر بأن لها كياناً يستوقف نظره؟

هي — ولكنني فهمت انني كنت أثير اهتمامك كل مرة رأيتني فيها

هو — لم تخطئي كثيراً في ذلك الفهم ولكن . . . هي — ولكن ماذا ؟

هو — ولكنني قبلك اهتممت ذات يوم بركن نصف مظلم في أقصى حديقة مورو بالجزيرة .. ركن منزو لم يكن الكثيرون من زوار الحديقة يلتفتون اليه . مقعد منحوت من جذع شجرة توت . وسقف من أغصان الكرم الرفيعة وسياج من العشب النامي يحجب ضجة الطريق عنه . ولقد بلغ من اهتمامي بذلك الركن أني تعمدت السؤال عن البستاني المعهود اليه فيه . فعرفت اسمه . واكتسبت صداقته. واوصيته به خيراً وكنت كلما مررت بذلك الركن أجزلت للبستاني العطاء لكي يعنى به العناية التي ترضيني .. كثيراً ما ذهبت الى ذلك «العش» وتفقدت جوانبه. وأزلت بمنديلي الرماد المتراكم على مقعده كأنني كنت أتوقع أن يكتشفه غيري . وقد حدث ما توقعته . مررت ذات يوم فوجدت عاشقين شابين جالسين متلاصقين على المقعد . لمحتهما من خلف العشب النامي فابتسمت ثم عدت أدراجي ولم أدخل حديقة مورو بعد ذلك قط

هي — ماذا تعني ؟ انك تهذي ، أي تشابه بيني وبين العش المنزوي في تلك الحديقة ؟

هو — اكتشفته كما اكتشفتك .. وأوحى الي بكتابة بعض قصائدي التي أحببتها . كما أوحيت الي أنت بكتابة البعض الآخر

هي — ولكنك تركت ذلك العش عندما اتضح لك ان غيرك قد اكتشفه . فلمَ تتعمد ايذائي بهذا الكلام ولم يبلغك عني انني نكثت عهدك مع رجل آخر

هو — عفت أن غيري قد اكتشفك قبلي هي — « حاقة » ماذا ؟

هو — لا تثوري .. انا تقابلنا لنفترق . لمَ لا اصارحك بكل شيء ؟

هي — ولكن هذا كذب

هو — ليس من السهل أن تعترف المرأة بماضٍ كانت تخفيه !

هي — لم تطالبني يوماً بأن أقدم لك حساباً عن هذا الماضي

هو — ولكنك تركتني أفهم ألاَّ ماضٍ لك ! هي — ثم ...

هو — ثم عرفت أن غيري قد سمع منك الأنات الشاكية التي سمعتها منك ولذعت اناملهُ العبرات الساخنة التي جعلتني أسهر ذات ليلة حتى الصباح أنظم قصيدة خيل اليَّ ليلتئذٍ انها أروع قصائدي هي — خيل اليك !

هو — أجل . فقد كرهت تلك القصيدة ولو استطعت أن أجمعها من المكتبات وأحرقها لما ترددت هي — ولِمَ ؟

هو — لأن الوحي الذي ألهب روحي ليلتئذٍ لم يكن نقيًّا

هي — انني سعيدة اذ أسمع منك هذا الكلام . انك تحبني الى حد انك تغار من ماضي قبل أن تعرفني هو —واهمة ! هي — لا . بل واثقة

هو — لن أبخل عليك بأن أدعك اليوم وأنا أتحدث اليك حديث الوداع تتعزين بهذا « الوهم » ولكنني أقسم لك انني كنت أرجو وأنا أكتب قصائدي عنك ان يراك الناس بعد قراءتها ويشيرون اليك إذ يتبينون توًّا أنك (وحي) تلك القصائد . أما اليوم فان ما يؤلمني هو شعور الذين عرفوك قبلي بتفاهة تلك القصائد انهم يقرأونها ساخرين . انهُ شعور بالخيبة لا بالغيرة كما خيل اليك

هي — لست أول شاعر ألهبت روحه امرأة أحبت من قبل وأحبها الناس

هو — ولكني آخر شاعر يجمع بقايا امرأة لكي ينصب من هذه البقايا تمثالاً يحرق تحت قدميه البخور ويخدع الناس فيجمعهم ليشتركوا معه في ذلك العمل الذليل. لقد أبيت ذات مرة ان أعهد بدور البطولة في قصة لي الى ممثلة من الممثلات المعروفات اللاتي اعتادالناس ان يصفقوا لهنَّ.وان يملأوا أجواء المسارح بأصوات الهتاف بأسمائهنَّ . وقد ظللت أبحث حتى « اكتشفت » الفتاة التي تصلح في نظري للقيام بذلك الدور . لم يكن أحد قد سمع باسمها ، كانت مغمورة وسط دنيا من النفاق تبذله الجماهير للمعروفات من الممثلات . فلما ظهرت في قصتي ونجحت ظللت أشعر منذ ذلك الوقت انني صاحب « الفضل » في نجاحها . وكنت كلما اتصل بي

خبر توفيقها ازداد احساسي بأني اكتشفت شيئاً لم يكن غيري قد التفت اليه من قبل . لا يهمني الآن ماذا تفعل . فقد علمتها عندما عهدت اليها في قصتي ، كيف تحب كما أريد أنا ان تحب النساء . وكيف تغار كما أحب أنا ان تغار النساء

هي — ولكنني لست ممثلة . . انك تنسى نفسك

هو — أنت التي تنسين . . انك لم تتقدمي اليّ الا لأني شاعر تقرأين له وتودين ان تعرفي كيف يعيش حياته الخاصة . . هأنذا أقولها لك في صراحة . . انني أعيش هذه الحياة قصة . . بدأت فصولها يوم خفق قلبي بأول خلجة شعرية أحياناً تبكيني وأحياناً أخرى تطلق الضحكة المرحة من أعماق روحي . . والمرأة التي تكون الى جانبي يجب ان تعرف أنها تلعب الدور الاول في تلك القصة . . فاذا كان قد سبق لها ان لعبت ذلك الدور في حياة رجل آخر فانني أشعر على الدوام بخشيتي من شيء ما . . كلمة واحدة قد تكون لا تزال عالقة في ذاكرتها من « الدور » الأول تعود الى التفوه بها في غفلة منها أمامي . . « حركة » صغيرة كان يقضي الدور الاول بأن تؤديها تخطىء فتكرر أداءها وهي الى جانبي . . « اسم » كان عليها ان ترددده وهي « تعيش » في الدور الاول ربما خانها لسانها فانطلق يردده مرة أخرى بحكم العادة والتكرار . هذه الخشية تجعلني لا أستطيع ان أتمدد على الارض بعيداً عن العالم ، وأدعها تعبث بأصابعها في شعر رأسي حتى أنام وهي ساهرة الى جانبي تنتظر يقظتي . . وتحلم في اليقظة أحلامي في النوم . . يخيل اليّ دائماً انها أثناء نومي ستخطىء فتطلق تلك « الكلمة » او تؤدي تلك « الحركة » او تردد ذلك « الاسم » فأهب مذعوراً كأن رجلاً آخر أقبل ليقذف في وجهي بماض طويل لم تتصل بي جميع تفاصيله

هي — « في صوت مرتجف تدنو منهُ » ولكن ذلك الرجل لم يقبل بعد . .

هو — أعرف انهُ مقبل عما قريب . . وهذا هو الذي جعلني أنفر منك . وأحقد على اليوم الذي عرفتك فيه   هي — من أين جاءك انهُ مقبل عما قريب ؟

هو — انت   هي — « تشهق » انا ! كيف ؟

هو — « يبتسم ابتسامة صفراء » — ليس هذا حال من تحب حبها الاول

هي — ماذا تفعل لو انها كانت تحب ذلك الحب ؟

هو — لا تتكلم بهذا الثبات ولا تتجلد امام « رجلها » هـذا الجلد . . ولا تقـاوم عشرات الايام لـكيلا تراه . . بل تفقده اذا غاب وتبكي بين يديه اذا غضب.. وتسقط مغشيًّا عليها في موقف الوداع . أترين ؟ انك وقفت هذا الموقف من قبل . أحببت ، وافترقت ، ولذا تتحدثين اليَّ كأنك تلقين « كلام » دور قديم سبق لك أن مثلته

هي — « تستجمع قواها » ولـكنك تتحدث كأنك تودع حبك الاول

هو — هذا هو الفرق بيني وبينك . ولو لم أحب في كل مرة كأنني أحب للمرة الاولى وأودع للمرة الاولى لما استطعت أن أكتب شعراً

هي — اذن كنت تخدعني ؟

هو — نحن الاثنان خدعنا النـاس . اذ قدمنا لهم ذلك الشعر الذي يصف غرامنا . ذلك الغرام الذي سرعان ما انطفأ . ان الناس قد شهدت اشتعال ذلك الحب ولـكنهم لن يشهدوا انطفاءه هي — ولِمَ ؟

هو — لانني لو فعلت لـكان واجباً ان أذكر انك اعتدت ان تشهدي مواقف الوداع . وليس في هذا ما تزهى بهِ امرأة مرَّت ذات يوم في أفق حياتي

هي — « باكية » والآن ؟ هو — لا شيء . . الوداع

هي — ولـكن عينيك تلمعان بالدموع

هو — هكذا اعتدت عند ما أشهد مصرع غرام في قصة حب تعرض أمامي على خشبة المسرح . او عند ما اقرأ حوار موقف وداع في قصة ما

هي — اذن فما كان بيننا كان « حبًّا » هو — أجل .. ثم انطفأ

هي — ربما كنت مخطئاً . اقترب . انظر الى عيني .. ربمـا تبيَّنت انهُ لا يزال يشتعل ، أو أنهُ اشدُّ اشتعالاً من قبل . هو — من أنت حتى أنظر الى عينيك ؟

هي — كيف . ألا تعرفني ؟ هو — لا .. انني لا أعرفك

هي — ولـكنني . أنا . أنا التي أوحت اليك بأعز قصائدك الى روحك وأقربها الى أرواح الناس

هو — من قال لك ذلك .. انك واهمة .. « يضحك ضحكة جافة » انها امرأة أخرى . امرأة لا ماضي لها .. اذكريها بالخير ياسيدتي كما سوف اذكرها . الوداع

علاج لنزف الدم

يستخرج من السمك

منذ بضع سنوات كان هنريك دام من اساتذة جامعة كوبنهاغن في دنمرك يجرب التجارب في افراخ صغيرة (كتاكيت) فقست حديثاً ليعلم كيف تطعم المواد الشحمية . وفي صباح أحد الأيام وجد عدداً منها نافقاً فأجال أصابعه بين ريشها فرأى في سطح جلدها شبكة من الأوعية الدموية الصغيرة تكونت منها لطخ من الدم تسرب اليها من الباطن فنزف دمها حتى ماتت وكان يغذيها بطعام حاوٍ لجميع اصناف الفيتامين اللازمة . ففحص الدم فوجده خالياً من «البروترومبين» وهو مادة من المواد الاربع اللازمة لتخثر الدم . فأدخل في طعام الافراخ كبد الخنزير البري والبرسيم الحجازي فوجد أنهما تشفيان الميل الى النزف فيها فسمى هذه المادة فيتامين K . وفي الوقت عينهِ كانت تجارب مثل هذه تجري في جامعة كليفورنيا على يد هرمان المكويست فوجد أن هذا الميل الى النزف في الافراخ يشفى باطعامها سمكاً نتناً فاستدلَّ بذلك على أن بكتريا النتن والفساد هي التي ولدت فيتامين الدكتور دام صاحب التجارب الاولى المذكورة سابقاً

واتفق يوماً أن طالباً في كلية الطب من جامعة سنت لويس اسمه مكي قرأ أمام جمع من زملائهِ رسالة لخص فيها الامتحانات في الافراخ وكان بين الحضور الدكتور دويزي رئيس مكتب الكيمياء الحيوية (البيوكمستري) فبلغ من اهتمامهِ بها أن جمع معاونيهِ الأربعة في مكتبه وبينهم مكي وقال لهم ان لا بد من العمل معاً على عزل الفيتامين K عن غيره ليعلموا ما هي فائدتهُ وأي شيء يمكن ان يعمل بهِ . وعهد الى أحدهم واسمهُ ثاير في تربية ٣٠ ألف فرخ . والى مكي في فحص طعام السمك الفاسد الذي يقدم الى الأفراخ ليعلم محتوياتهِ والى بنكلي وهو الثالث في تحليل البرسيم والى ماك كوكودايل ويجلسياس في درس الموضوع من الوجهة الكيميائية وكان هو معهما . وبدأ هذا البحث سنة ١٩٣٦ . وكانت المهمة الأولى الاهتداء الى مادة تحل الفيتامين من البرسيم والسمك الفاسد فاهتدوا اليها وهي أثير البترول — سائل يستعمل في التنظيف الجاف

ومرت الايام والباحثون المذكورون يصلون شيئاً فشيئاً الى ضالتهم المنشودة حتى وجدوا أن ما اهتدوا اليهِ يمنع النزف في افراخهم التي يجربون التجارب فيها فقالوا في انفسهم « ألا نفعل

هذه المواد هذا الفعل في الانسان » . فجاءت الاجوبة بالايجاب من أماكن متباعدة في اميركا ودنمرك في اوربا وهي أن الامتحانات السريرية والجراحية في كوبنهاغن دات على أن فعل الفيتامين K في بعض العمليات الجراحية عجيب

وظهر أن هذا الفيتامين هو مادة تشبه الشحم . ومعلوم أن الشحم يهضم في الامعاء بمساعدة الصفراء التي تفرزها الكبد فاذا اصيبت الكبد وتوابعها بمرض مالم يهضم فيتامين K وتعذر وصوله الى الدم فيفقد الجسم قدرته على تكوين البروترومبين واذا فقد هذا مات الانسان بالنزف لأقل جرح فضلاً عن عملية جراحية

وعليه يجرع الرجل الذي يراد عمل عملية جراحية له شيئاً من فيتامين K ومن املاح الصفراء المساعدة على الامتصاص فيعزز الدم بعوامل التخثر ويمنع نزفه حتى في اكبر العمليات الجراحية

واهتم الباحثون باستخراج الفيتامين نقيًّا وبعد تجارب دامت سنتين استخرجوا زيتاً أصفر اللون قريباً كل القرب من الفيتامين النقي فجربوه في الأفراخ فلم يأت بنتيجة نافعة فعللوا ذلك بان الفيتامين النقي شديد التأثر بالنور وان نور الشمس والنور الصناعي يقتلانه .فأكبّ الباحثون على استخراج الفيتامين النقي ففازوا ببغيتهم بعد جهد سنة كاملة نالتهم فيها البرحاء . فاذا هو زيت ليموني اللون يستعمل في الاكثر في حوادث الولادة

ومن أغرب ما عرف عن المواليد حديثي العهد بهذا العالم أن مقدار البروترومبين فيهم قليل جدًّا لأسباب مجهولة فأصغر جرح يصيبهم عند الولادة او في الايام الاولى منها يستنزف دمهم فيموتون فكان الغرض الاصلي من هذا المشروع الطبي معالجة هذه الحالة.والعمل سائر على مايرام وفي بعض الاحوال تجرع الحوامل جرعات من الفيتامين في شهر الحبل الاخير وفي غيرها تجرع المواليد جرعات احتياطية

ومن الشواهد على مفعول هـذا الفيتامين ان طفلاً ولد وبعد ولادته بثلاثة أيام وجد دم في أنفه.فاستخرجت قطرة دم من قدمه للبحث فوجد أنها تخثرت بعد ١١ دقيقة من استخراجها وبقي دم الجرح يسيل ١٢ ساعة فجرع مقداراً صغيراً من الفيتامين فوقف النزف من قدمه وبعد مضي ٩٠ دقيقة قصر وقت التخثر الى النصف ثم الى الوقت العادي وهو ٣ دقائق

ويقول أحد هؤلاء الباحثين ان الفيتامين لا يقطع النزف في الحالة المعروفة في اسرة أسبانيا الملكية لأن النزف في أعضائها ناشيء عن أسباب أخرى.وهذا النزف معروف باسم « هيموفيليا » وهو مرض وراثي نادر الوجود

وقد اقتطفنا ما تقدم من مقال بعنوان « الواجب ان لا يموتوا » والضمير عائد هنا على عدد كبير من الاطفال الذين يموتون بعد الولادة بنزف الدم . والرجاء ان هذا الفيتامين يكون خير علاج لهذه الحالة ولغيرها من حالات النزف

الفن للمجتمع

للدكتور ابراهيم ناجي

سادتي الأفاضل : المشكلة ليست في هل الفن لنفسه او للمجتمع وانما المشكلة في كلمة الفن وكلمة المجتمع . سنحاول اولاً ان نعرف ما هو الفن وثانياً ما هو المجتمع . فاذا وفقنا في التعريف فقد يمكن ان نصل الى نقطة يتلاقيان عندها ، في المبدأ او في النهاية او في الوسط ، فاذا تلاقيا ، فالواحد منهما للآخر ، ما في ذلك جدال ، واذا لم يتلاقيا ، فليمض كلٌ في طريقه وليعش كلٌ لذاته ، وليبقَ كلٌ لنفسه ... ماهوالفن ؟؟ لقد صارت هذه الكلمة غامضة مبهمة وغدت تطلق على أشياء كثيرة لاعلاقة لها بصميم الأمر وجوهره

الحياة فن ، والتفكير فن ، والعمل فن ، حتى أن أندريه موروى في كتابه عن فن الحياة ، يعقد فصلاً خاصًّا عن فن المشيب l'art de viellir

ثم تدخل المطاعم والمقاهي والصالونات الفخمة ، فتجد المقاعد المنوعة والأنوار المختلفة ، وتجد الأثاث مرتباً بشكل « فني » ، وحتى المنشفة تجدها وقد أقيمت على المائدة بشكل «فني» ثم تدخل بيوت السراة وذوي الجاه فتلتقي عيناك باللوحات الزيتية ، والصور البديعة الألوان ، وترفع عينيك الى الستر التي تغطي النوافذ ، والى الرسوم التي في السقف ، والى النقوش التي على الجدران والأبواب فتجد كل هذا معدوداً من « الفن » ....

أما الطراز الاول فمعناه ان الفن هو الاتقان . ومعنى الطراز الثاني ان تراكم الألوان واختلاف الأضواء والحصول على اللوحات الغالية والمقاعد الأثرية ، تدعى فنًّا ، والصواب انها مظهر من مظاهر الترف ، وعنوان على الجاه ، ودليل على ان صاحب هذا الشيء او ذاك متميز بمكانه الاجتماعي ... وليس الاول فنًّا ، ولا الثاني ، والفن من هذا وذاك بريء . . .

وفهم الفن على هذه الصفة مفسدٌ لأصوله ، مضيعٌ لجوهره ، ذاهبٌ بمعناه

والفن على حقيقته شيء واضح لا يجب ان يكتنفه الغموض ، ولا يجب ان يختلط بالاتقان المحض ، ولا بالالوان البراقة والاضواء الخادعة ، والظلال الكاذبة ...

لقد ذهبت استقصي جميع تعاريف الفن ، عند المفكرين والفلاسفة ، فأحببت أن أعرض على حضراتكم خلاصة تلك التعاريف وفي هذا العرض لذة وفائدة

اولاً التعريف العلمي عن شيلر وداروين وسبنسر

(١) الفن نشاط خاص منشؤه الحاسة الجنسية والميل الى اللعب ومصحوب بتأثير سار في المجموع العصبي

اما ان منشؤه الحاسة الجنسية فيكفي للدلالة على ذلك الالوان البديعة والزينة الرائعة التي تكسو اعضاء الحيوان ، وتكون على اتمها في الربيع وتلك الاغاني والاغاريد المنطلقة من حناجر ظامئة عاشقة في مواسم التناسل . . . أما تأثيرها السار في المجموع العصبي فذلك ما لا جدال فيه

(٢) التعريف العملي : هو التعبير عن العاطفة بواسطة الخطوط او الألوان أو الخطوات أو الاصوات أو الكلمات

(٣) تعريف سالي : وهو احدث التعريفات « هو الاتيان بأمر ثابت او عابر يحدث السرور في نفس المحدث لذلك الأمر ، مع تأثير سار في الناظرين أو المستمعين بلا اعتبار لأي فائدة شخصية » وجميع تلك التعاريف على محاولتها الالمام مع الايجاز تتحدث عن الفن من ناحية السرور الحادث ، المتجرد من الغاية ، وقد اشار التعريف الاول اشارة جانبية الى الجمال ، ولم يشر اليه الثاني ولا الثالث ، وبقي امر هام جداً لم يشر اليه احد من هؤلاء السادة ، وهو الغاية التي يرمي اليها الفن في حياة الانسان والمجتمع

وسأفصل هذه النقطة الاخيرة ، حيث انها في رأيي كل شيء ، كل الموضوع . اما الآن فلأتابع عرض تعاريف المفكرين الذين لهم أثر بعيد في تاريخ الفن او فلسفته

يقول هيجل واتباعه : الجمال هو اشراق الفكرة من خلال المادة . والجمال هو جمال الروح ، والروح لا بد لها من مظهر مادي ، والفن هو الذي يجلو هاته الفكرة ، لتعبر عن اهم مشكلات الانسانية وأعلى حقائق الروح

فالحق والجمال عنده شيء واحد ، غير ان الحق هو الفكرة مستقرة ، والجمال هو الفكرة مجلوّة ظاهرة ، والفن هو الذي يعبر عن الحق والجمال وهما واحد ... ويجيء تلميذه فيسي ، فيضيف ان الفن هو مزج الذات بالموضوع وادماج الفرد في الكل ، أي جمع شمل المتناقضات وهذا هو الجمال . واما مدرسة هربرت فتقول ان الجمال ما هو الا نِسَبٌ . . . وعلى الفن ان يكتشف هذه النسب . واما شبنهاور فيمزج الجمال بالارادة ، قائلاً ان للارادة طبقات مختلفة والتجرد من الذات لتأمل تلك الطبقات يحدث الشعور بالجمال ، والفنان هو الذي يملك القدرة على التأمل ، والنزوح الى الطبقات العالية !

اما شيلر فيذهب مذهب جرانت آلن وهربرت ، فيقول ان الفن نوع من اللعب ، ففي الحيوانات السفلى ينصرف كل هم الحيوان الى المحافظة على الحياة والنوع ، اما في الانسان فيتوفر شيء دائماً اما من القوة البدنية ينصرف الى اللعب، وإما من القوة الروحية فتنصرف الى الفن وبقيت مدرسة بومجارتن وهي المدرسة التي اكتسحت بآرائها باقي المدارس ، وأصبحت آراؤها هي الشائعة. ان الجمال — في رأيها — هو الكمال المطلق منظوراً من خلال الحواس، والحق هو الكمال منظوراً من خلال العقل ، والخير هو الكمال منظوراً من خلال الخلق ، . . . والجميل هو ما تناسب فيه علاقة الحق بالخير، وعلاقة الجزء بالكل، والفن هو الذي يكتشف أحسن هذه النسب وهي على اتمها في الطبيعة وأروع الفن محاكاة الطبيعة ... وملخص هاته الآراء، ان الفن اما ان يكون شيئاً نبهاً طيباً نافعاً للخلق، واما أن تكون غايته الجمال فحسب، واما ان يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن الواقع . ولماذا كل هذه التعاريج ؟ أنا شخصياً أجد الفن أبسط وأعلى من كل ذلك وهاته البساطة هي سر عظمته ومنفعته . لن العظيم عظيم ببساطته وقلة تعقيده ، ونافع عن غير عمد ومؤثر بدون ان يتكلف التأثير . فلماذا نبحث في الفن عن صلته بالخير والحق ، وهما من صلبه وفي صميمه . هذا اذا اخذنا نستعرض الفن وكيف نشأ ولأي غرض ، واذا فهمنا الحدود التي تفصل الفن العالي من الفن التجاري والرخيص ...

أقدم آثار الفن وجدت في الكهوف وقد تركها الانسان الاول . كانت نحتاً أو نقشاً في الصخر أو من الصخر ولما اخترع الانسان الكلام عبر بالصوت وفي خلال جميع العصور عبر بالحركة وهي الرقص . كان الفن في أول أمره تعبيراً . وكان تعبيراً عن عاطفة . وكانت تلك العاطفة حبًّا أو اعجاباً أو عبادة. كانت قرباناً لحبيب أو معبود أو اله . . .

على أن ذلك النقش ، ذلك التمثال الكسيح ، تلك الرقصة المكونة من ايقاع متكرر، تحمل آلاف المعاني ، تحمل اختصار الاحساس الشامل في صورة مركزة ، تحمل في طواياها دفع قوة خالقة مسيطرة ، وتحمل كذلك عبقرية ساعة ، وطابع جيل

ان ذلك الدافع الاول ، ما زال يتكرر حتى الآن في الفنان واني لأتمثله الآن وأشرحه لكم كشاعر ، قد تمر بي الايام متشابهة رتيبة ، كل يوم كغيره ، وكل منظر لا يتغير عن سابقه، ثم التقي بشخص ، أجد فيه معنى من معاني الجمال ، أحس بقوة خارقة فوق اختياري تدفعني الى التعبير. هذه القوة تسمى بالانكليزية، Creative impulse — قوة الخلق ، وهناك خلق حقيقي ؟ هل نحن نخلق حقيقة ؟ انا في الواقع نتصيد الجمال في عالم مغمور بالجمال نمر به العيون ولا نفهمه ولا نلتفت اليه . أجل نقع على معنى خاص ، على فكرة مستقرة ، فنأخذها لنجلوها ونكسوها كالعروس ، ثم نقدمها قرباناً لمن نحب . . . أخذنا جمال العالم فاختصرناه في

لفظة أو تعبير أو بيت ، طوينا الشامل وجعلناه خاصًّا ، اخترنا جمالاً بعينه من جمال العالم المنبث العام ، وفرحنا به كما يفرح الطفل بانتقاء لعبة من مجموعة لعبه . . . ثم قدمناها لمن نحب أو نعبد. فاذا كانت فنًّا — اذا كانت خلقاً — انمحت الحواجز التي بيننا وبينه — نفذنا الى قلبه — تمزقت الحجب — اندمج الواحد في الآخر ، ذلك هو الفن ...

***

كان أناتول فرانس يستمع الى شاعر . . فلما انتهى الشاعر من القائه قال لمن حوله ان هذا لا بد أن يكون رائعاً ، اني لم أفهم شيئاً غير انه نفذ الى قلبي فارتجفت ، والفن ارتجاف ... l'art est tremblement.

منذ سنوات سافرت لأزور معرضاً للفن في فينيسيا . وكنت أدمن التأمل في الرسوم والتماثيل لأقف على سر الفن العظيم . فقد مرت عليَّ أيام قبل ذلك وأنا مزعزع اليقين . فرأيت في مدخل المعرض تمثالاً يدعى « الحنان » Tendresse لمثال مجهول . يا للفن ويا للسماء اي حنان على أي ثغر وفي أي امرأة ! انها تحدثك وتناجيك وتطوف حولك بروحها ، وترحب بك وتطعمك وتسقيك وتؤويك وتستبقيك ... أجل والله صنعت بي كل هذا فكنت أجلس عند قدميها عند ما يفتح المعرض وأنصرف عند ما يغلقونه لأعود في اليوم التالي الى ذراعي « الحنان » ...

ساءلت نفسي طويلاً ما في هذا التمثال ؟ ماذا أحببته ؟ وأنا لا أعرف القواعد العلمية التي تشرح لك لماذا هذا جميل وذاك قبيح ، لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها حسبي انه نفذ الى قلبي وخاطبني ، ان مصدره قلب نابض مشابه لقلبي ، واحساسه احساسي وخواطره خواطري ، لذلك نفذ اليَّ توًّا بلا استئذان ... وآيته تلك البساطة البادية فيه ، وتلك اللغة العامة الشاملة التي يخاطب بها الفن الفردَ العادي ، انهُ من عواطفه نشأ ، ومن احساساته نبع ، ومن قلبه تفجر ، ولذلك يعود اليه كما صدر عنه . . . . ذلك هو الفن الكبير : اللغة العامة الشاملة ، التي تستقى من روح الانسان ومن روح الطبيعة ، لتخاطب الفرد وتؤدي اليه رسالة القلب وحديث العاطفة وهي لا تحسن تأدية الرسالة إلاَّ اذا قوي الدافع ونبل الغرض وصفا المنبع . إن الجمال في الواقع نتيجة لكل تلك العوامل مجتمعة . وليس محدوداً ولا معروف المقاييس ، وانما هو الأثر العام الذي تحدثه تلك اللغة العامة السماوية . هذا هو الفن وتلك رسالته

***

ما هو المجتمع ؟ المجتمع طبقتان طبقة السراة والحكام ، وطبقة الأفراد العاديين . أما الطبقة الأولى فليس لي حديث معها ، وانها وان كانت شجعت الفن وقامت له بدور الحامي في كثير من الاوقات فاني لا أؤمن بذلك التشجيع ولا تلك الحماية فانهما مظهران من مظاهر الوجاهة والسلطان

والفن ليس لهؤلاء السادة ، وان كان يزين قصورهم ، ويعرض في دورهم ، ولكنهُ عندهم كذلك مظهر من مظاهر الأبهة . بقي الرجل العادي الذي هو أنا وأنت ، أجل أنا وأنت بآلامنا واحساساتنا وآمالنا وحبنا وبغضنا وأزماتنا الروحية وأوقات مسراتنا ، المجتمع حياتي وحياتك أيها الصديق : حياتي وحياتك تضيق يوماً وتتسع آخر ، وتشرق فيها الشمس حيناً وتغرب حيناً . وهي هاته التي يتسلمها الفنان ومنها يأخذ مادته موسيقى أو رسماً أو نحتاً أو شعراً ، ثم يردها الينا ، فاذا كانت منا وردّت الينا فنحن نفهمها بلا واسطة ولا مترجم وهي بقدر ما تحدث فينا السرور والراحة بما تعبر عنه من خوالجنا ، فهي تعلمنا الرشاقة في الجمال ، والجلال في الألوان ، والايقاع البديع في الرقص ، وترينا كل هذا فنراه مكبراً بأعين باطننا لأنه صادر عنها ، وعندما ينفذ الفن الينا ، تنتقل الينا منه عدوى تسمى عدوى الفن . أي أننا بقدر ما يعدينا الفن يلهمنا ويمتحننا ويدفعنا الى العمل الطيب النبيل السامي الذي عنه صدر ومنه استقى . . .

فالفن هو تلك الرسالة التي ذكرتها ، والمجتمع هو أنا وأنت . ونحن وآلامنا نلهم الفنان ونعطيه مادته ، فكيف لا يكون الفن للجميع هذا هو المجتمع ، فالفن منهُ وله . والآن ما هي خدمة المجتمع ؟ ؟ وماذا يراد بها ؟ ؟ خدمة المجتمع قسمان ، قسم مادي ، وقسم غريب عن المادة ، اما المادة ، وأقصد بالمادة ذلك الشيء الذي يجعلنا نشبع اجسادنا وشهواتنا السفلى . وهذا الشيء يمكن الحصول عليه من أي طريق غير الفن . اما الفن الذي يؤدي الخدمة للمجتمع ، فانما يؤدي خدمة روحية ، واذا قلت روحية فقد قلت اخلاقية ، لان سمو الروح ينصبُّ توّاً على الاخلاق ، ويظللها يجملها ويكللها ... ماهي هاته الخدمة الروحية ؟؟ انهُ من الثابت الذي لا جدال فيه ، ان الحياة امواجٌ من السرور والألم ، وان الألم هو الموجب ، والسرور هو السالب ، ومن الثابت ايضاً اننا نعيش بعقلين الواعي ، والباطن ، والواعي هو مركز التفكير والارادة ، وهما سبب الألم والمتاعب فهو موجب ، اما الباطن ، فهو موطن المسرات ، فهو السالب ، اي هو الوطن الذي تهرب فيه النفس من موجب التفكير والارادة الى العالم السلبي الذي نرجع فيه الى خيالنا وشعورنا وأحلامنا . والفن الكبير يخاطب هذا الجزء من نفسنا ، يتجاوز الوعي ، يتخطى التفكير والارادة ، ليتكلم مع موضع الراحة والسرور والرضى . وكل فن يخاطب العقل ليس بفن

من هنا ينشأ السرور الذي هو غاية الفن ومبتغاه ، الراحة الكبرى التي ذكرها أبو تمام وشوقي ، وعرفاها بالالهام الشعري العجيب

هذه هي الخدمة الأولى الخدمة الكبرى للفن ، وحسبكم ذلك الأثر ، أثر السكون والرضى

والسرور والانشراح ، أثر البعد عن المادة ، ثم البعد عن التفكير والارادة وما يجلبان من شقاء وآلام . ولكن الفن لكي يحدث ذلك الأثر يجب ان يكون متميزاً بوحدة النظرة ، وتركيز الغرض

خذوا فن العمارة ، هل كل بناء فخم يدعى فنًّا ، خذوا الهرم ، خذوا هيا كل الكرنك خذوا معابد آبائنا المصريين ، هل تحسبون الرهبة التي تعترينا ونحن نرى او نجوس خلال هاته الهيا كل ، مجرد أمر طارىء ا كلاَّ ، ان روح هاته الهيا كل أو المعابد « الرهبة » وكل حجر في أي موضع ، وكل نقش في السقوف أو الجدران ، حتى الاعمدة ، انما هيئت لتحمل روح الرهبة ، أي أن الفن يجب أن ينقل روحاً خاصًّا ، أن مجرد النقل من الطبيعة ، مجرد البناء ، مجرد الشدو بالاغنية ، ان لم يحمل روح الغرض ، لا ينفذ الى أرواحنا . وهذا هو السر في أن أكثر المعروض اليوم على أنظارنا ، لا يمكن أن يخدعنا بالفخامة ولا بالالوان ولا الاضواء . ان النيل لا يعبر عن شيء بمجرد رسمه كنهر يجري . وان الاشجار التي على شاطئيه أن رسمت كمجرد اشجار لا تعبر عن شيء . أعطني المصري الصميم الذي يعطي مياه النيل روح مصر الجليلة العريقة ، والاشجار روح مصر الوديعة الرقيقة ، اعطني هذا وانا أسجد سروراً لفنه

***

اذا نفذت هاته الروح الى روحي ، فقد حدث ما قد سبق الى الفنان الحق وهو يصوره ، حدث ما يسميه شوبنهاور حقًّا زواج الفن ان الشيء يغدو أنثى . والفنان يكون ذكراً بكل معنى الرجولة ، ويعقب ذلك زواج ، ويعقبه حمل فميلاد فخلق !

فاذا كان غرض الطبيعة في الأصل خدمة المجتمع بواسطة انتشار النسل والعمران وازدهار الربوع ، واذا كانت الطبيعة تتحايل من أول الخليقة على ذلك الأمر وتنصب له الشراك والفخاخ وكل حيوان انما يعمل لذلك التناسل ، كل حي يعمل له ، فاذا فرغت بعد ذلك ، انصرفت الى زواج أعلى ، وظل الخلق جارياً ولكنه من طراز سماوي . وغايته اروع من ذلك الغرض الأول ، إن الغرض الأول يقتضي الجري والسعي ، والتعب والكد والجهد ، وأما الغرض الثاني أي زواج الفنان بموضوعه ، ثم اندماج الفنان في الناظر الى أثره الفني ، — غرضه ، ذلك الخلق المتكرر والميلاد المتصل ، خلق المعجزات ، التي تخاطب الاحساس والشعور والخيال ، وتثبت بدورها ان الله القدير لم يخلق شيئاً عبثاً ، وأن الله الذي خلق هذا المجتمع ، لم يخلق الفنان عبثاً ، وانما ليخدم المجتمع خدمة تعلو بماديته عن الطين ، وتصعد بروحه الى آفاق النور وأبراج الاسرار الالهية وماذا تريدون خدمة للمجتمع بعد ذلك . . . .

المجهر الكهربي

يكبر الاجسام ٣٠ الف ضعف

اخترع نوع جديد من المنظار المكبر او المكرسكوب الذي اصطلح على تسميته بالمجهر وهو جهاز تستخدم فيه الكهربات بدلاً من أشعة النور العادي والحقول المغناطيسية عدسات بدلاً من الزجاج

وعندنا الآن ثلاثة انواع من المنظار المكبّر او المجهر: الاول المجهر العادي الذي يستخدم فيه النور العادي وأقصى تكبيره لا يزيد على الفي ضعف

والثاني المجهر الذي تستخدم فيه الأشعة التي وراء اللون البنفسجي من الطيف الشمسي. وهذه الاشعة هي ذوات امواج قصيرة جداً حتى لا نراها ولا نرى بها الاجسام ، ولكنها تؤثر في الالواح الفوتغرافية . ونستطيع تصوير الاشباح به مكبرة خمسة آلاف ضعف

والثالث المجهر الذي نحن بصدد الكلام عنهُ وتستعمل فيه أمواج أقصر من الامواج البنفسجية فيكبر الاجسام ١٠ آلاف ضعف الى ٣٠ الفاً . وأكثر من هذا ان الصور تكون به دقيقة التفاصيل حتى يمكن تكبيرها مائة الف مرة الى مائتي الف وحتى تمكن رؤية الاجسام التي حجمها جزء من ٥٠ من التي تمكن رؤيتها الى الآن

وقد تولى صنع هذا المجهر شركتان كهربائيتان كبيرتان الواحدة في المانيا والأخرى في أميركا . وانضمّ الى الدكتور زوروكين في الثانية بعض الخبراء ، وهم الدكتور مارتون البلجيكي وجيمس هليار من جامعة تورنتو وارثر فانس المختص بالمباحث الكهربية العملية

ومن عادة العلماء التحفظ في اعلان ما يخترعون او يكتشفون واذاعته على الملإ وهذا هو الشأن في هذا المجهر ولكن اخباره تتسرب شيئاً فشيئاً من الأماكن التي يجرب فيها . فقد صورت به بعض انواع البكتيريا التي لم تصوّر الى الآن . وقد ظهر أن لجراثيم الحمى التيفودية اهداباً متموجة بارزة من أجسامها . وظهر ان لجراثيم السعال الديكي تركيباً باطنيًّا عجيباً لم يعرف كنهه حتى الآن ليمكن الانتفاع به عمليًّا

وقد تقاطر العلماء من المختبرات الصناعية في كل ناحية لمشاهدة المنظار في كمدن من ولاية

نيوجرزي الأميركية ، ومعهم نماذج مختلفة ليفحصوها ثم عادوا من حيث أتوا وقد ملئوا عجباً مما رأوا . وعلم من المانيا حيث صنع المنظار الآخر انهم انتفعوا به صناعيًّا في تحسين صناعة الأسمنت. وهم يدرسون الآن طبيعة غبار المناجم آملين أن يحلوا بذلك مشكلة صحة المعدّنين

ومنظر هذا المجهر المعروف باسم المجهر الكهربي بسيط على عظم ما يرجونهُ منهُ في توسيع دائرة علم الانسان بالكون . فهو أشبه الأشياء بعمود طولهُ ست أقدام ونصف . وفي باطنه عند رأس العمود سلك دقيق من التنجستن فاذا اطلق عليهِ تيار كهربائي قذف أمواجاً من الكهيربات تتأثر بالقوة المغناطيسية . وهذه الأمواج تجمع في بؤرة. ويجب أن يكون باطن العمود خالياً من الهواء حتى تسيل تيارات الكهيربات بسهولة غير مصطدمة بدقائق الهواء . والعجيب أنهم صنعوا جهازاً مفرغاً من الهواء ولكنهم يستطيعون ان يدخلوا فيهِ الشرائح لفحصها بغير ان يدخل الهواء

ويقدر العارفون لهذا المجهر نفعاً عظيماً في كشف مكروبات الامراض التي لم ترَ الى الآن بما عندنا من انواع المجهر المعروفة مثل مكروب الانفلونزا والزكام العادي والسرطان . وفي رؤية الفيتامينات والانزيمات وجزيئات المادة. وهذا بعيد الاحتمال الآن ولكنه مرجح نظريًّا. ومن شأن علمنا بجزيئات المادة أن يعجل تقدم الكيمياء والعضوية لأن العلماءَ يوفرون برؤية الجزيئات كثيراً مما ينفقونهُ من التعب والوقت في تبين تركيب الجزيئات لجاراته بالتأليف الكيميائي . ومعرفة تركيب الجزيئات العضوية أفضت الى النيلون والحرير الصناعي والمطاط الصناعي واشياء كثيرة غيرها

وهذا المجهر يولد تياراً قوتهُ من ١٠ آلاف فولط الى ٩٠ الفاً وموجة طولها ٥٠ انجستروم (الانجستروم جزء من عشرة ملايين المليمتر) أي نحو حجم الاشياء التي ترى الآن بهِ

***

إن جميع الذين أدهشتهم آيات العلم التي كشف عنها المجهر يسألون محيرين لماذا عجز علماء البصريات عن صنع مجاهر كبيرة قوية تستطيع ان تنفذ الى أدقّ الاجسام المادية . فهم يقرأون عن الارتقاء العظيم في صنع المراقب الكبيرة بحيث تستطيع عدساتها الضخمة ان تجمع قدراً من الضوء أكبر مما تستطيعهُ العدسات الصغيرة وبذلك يتمكن الراصدون من التغلغل في استكشاف أقصى الاجرام السموية وأخفاها ضوءاً . ثم يطالعون ان هنالك من الاجسام المادية ما تعجز أقوى المجاهر المعتمدة الآن عن تبينهِ ، كالاحياء الدقيقة التي تحدث طوائف من الامراض والجزيئات العضوية ودقائق التركيب المعدنى فيسألون لماذا لا يلحق صناع المجاهر بصناع المراقب. ولكنهم اذا طالعوا المؤلفات الخاصة بهذا الموضوع زال عجبهم لانهم يدركون حينئذٍ ان المجاهر التي

تعتمد على الضوء لها حدود في تكبير الاجسام. فأطول أمواج الضوء المرئي هي امواج اللون الاحمر وطولها نحو جزء من ٤٠ الف جزء من البوصة وأقصرها أمواج اللون البنفسجي وطولها نحو جزء من ٨٠ الف جزء من البوصة ولايخفى أن تحت الاحمر أمواجاً أطول من أمواج اللون الاحمر وان فوق البنفسجي أمواجاً أقصر من اللون البنفسجي. والقاعدة العامة في تعيين قدرة المجهر على تبين الاجسام أنهُ اذا رسم خطان أمام عدستهِ وكان البعد بينهما جزءاً من ٨٠ الف جزء من البوصة — أي نصف طول موجة اللون الاحمر — استطاع المجهر أن يتبين المسافة بينهما

فاذا كانت المسافة بينهما جزءاً من ١٦٠ الف جزء من البوصة — اي نصف طول موجة اللون البنفسجي — استطاع المجهر ان يتبين تلك المسافة اذا كان الاعتماد على اللون البنفسجي وحده أي اذا كان اللون البنفسجي وحده معكوساً عن السطح الى العدسة

وهنا يسأل القارىء: لماذا لا نستعمل الاشعة التي فوق البنفسجي فنستطيع ان يتبين بها أجساماً أصغر من الاجسام التي نتبينها بالاشعة البنفسجية

والجواب ان العلماء فعلوا ذلك فتبينوا بالتصوير لا بالعين عقد الصبغيات التي تعتبر عوامل الوراثة ولكن استعمال أمواج أقصر من أمواج الاشعة التي فوق البنفسجي متعذر لانها لا تستطيع ان تخترق زجاج العدسات. فيسأل ثانيةً ولكن الأشعة السينية أقصر أمواجاً الف مرة من أمواج الضوء وتخترق الزجاج

فاذا استعملت فأننا نستطيع ان نتبيَّن بها أدق الاجسام المادية. والجواب ان العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من تكسير هذه الاشعة كما يكسر الزجاج أشعة الضوء. واذن فمن المتعذر استعمالها للتكبير بالعدسات وهي قاعدة المجهر

وعند ما كاد العلماء يقنطون من الفوز بطريقة تمكنهم من صنع مجهر مكبّر كما يريدونهُ طلع عليهم البحَّاثة زوروكين باقتراح استعمال الكهربات بدلاً من امواج الأشعة الضوئية لتكبير الأجسام الدقيقة. فبدلاً من استعمال أمواج الضوء المعكوسة عن سطح جسم دقيق ثم تكسيرها باختراق العدسات وجمعها للحصول على شبح الجسم الأصلي مكبراً، تستعمل تيارات من الكهربات معكوسة عن الجسم ثم تعرض لحقل مغناطيسي وكهربائي فتنحرف وفقاً لرغبة الباحث وتجمع ثم تحوَّل طاقتها الى ضوء بتوجيهها الى لوحة تتألق بسقوط الكهربات عليها فيرتسم شبح الجسم الأصيل مكبراً، وقد اطلعنا في المجلة العلمية الشهيرة على صورة « بكتيريوم الصديد » مكبراً ٢٠٤٠٠ ضعف بهذه الطريقة ثم كبرت بالتصوير الضوئي الفوتوغرافي الى ١٥٠ الف ضعف الجسم الاول



فصول من تاريخ العصور الوسطى

النظم والطرق التجارية

بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية

بقلم ر . التميمي

ان الحملات الصليبية المتحمسة التي انقضت على بلاد الشام أواخر القرن الحادي عشر قد سببت في هاتيك البلاد حركة تجارية مهمة . ففي سنة ١٠٩٧ نقلت اثنتا عشرة سفينة حربية من جنوة عدداً كبيراً من وجهاء النصارى ومحاربيهم ليناصروا الحركة الصليبية في نواحي انطاكية ثم تبعتها سفن أخرى مشحونة بالأسلحة والذخيرة وصادف ان وصلت الى مرفأ يافا سفينتان من هذه السفن فأنزلت أسلحتها وذخيرتها الى البر ثم نقلها الصليبيون الى جبال القدس واستخدموها في حصارهم لتلك المدينة المقدسة

ولقد كان من عادة الصليبيين ان يكافئوا رجال هذه السفن مكافآت مختلفة من أهمها منحهم قطعاً من الأراضي في فُرَض الشرق التي دخلت في حكمهم لينشيء أولئك الرجال عليها مباني ومخازن لحفظ أمتعتهم وبضائعهم التجارية وبيعها . وهكذا شُرِع في تأسيس مستعمرات طليانية في المرافيء السورية . فتجار جنوة كانوا قد ساعدوا بلدوين على امتلاك أرسوف وقيسارية وعكا فكافأهم هذا بأن منحهم ثلث الأراضي المملوكة وثلث واردات الجمارك بعكا وسمح لهم باستيراد البضائع الى المرافيء السورية دون ان يدفعوا ضرائب جمركية . وقد نقش هذا الامتياز الذي ناله تجارة جنوة على محراب كنيسة القيامة بالقدس تخليداً له . وقد ساعد تجارة مدينة جنوة كثيراً في تأليف امارة طرابلس اللاتينية أيام ريموند صاحب طلوشة وخلفائه من بعده

وساهم البنادقة في الاستيلاء على مدينة صور وقدموا قروضاً للصليبيين سنة ١١٢٤ وكانوا بحاجة شديدة اليها

ولم تتأخر مدينة مرسيليا في تقديم المساعدة للصليبيين والدفاع عنهم وذلك إما بتقديم الذخائر والأسلحة الضرورية وإما بمنح القروض فنالت مقابل ذلك حق الاعفاء من الضرائب الجمركية وامتلاك أحياء خاصة في بيت المقدس وفي سائر الثغور السورية

ويجب ان يضاف الى الامتيازات التي كانت تمنح للطليان حق امتلاك أراضٍ زراعية واسعة

في الريف السوري على ان يزرعها فلاحون سوريون تحت اشراف زعماء منهم وكان يدعى الواحد منهم بالرئيس . ولم يكن المالك الطلياني الاقطاعي يعنى باستغلال تلك الأراضي الزراعية بل كان عليه ان يسلف المزارعين بذوراً وان يراقب نمو الزرع فاذا ما حلّ موسم الحصاد يأخذ المالك الطلياني ثلث المحصول او ربعه ويترك الباقي للفلاح وهذا بدوره كان يشترط عليه ان يقدم له في الأعياد النصرانية دجاجة واحدة او عشر بيضات او نصف قرص من الجبن عن كل فدان من أراضيه المزروعة وعليه أيضاً ان يقدم نفسه ومواشيه للقيام بخدمات اقطاعية أخرى اضافية لمالك الارض الطلياني ولاسيما في أيام الحرب

***

ومن الأمور التي استوقفت الأنظار كثيراً وأدت الى مشاحنات كثيرة بين الصليبيين ما كان يعمد اليهِ بعض التجار الفرنج من تهريب الأسلحة الى الأمراء المسلمين فان هذا التهريب كان يغضب رجال الحكومة اللاتينية ويحملهم في كثير من الاحوال على اتخاذ تدابير قاسية لمنع ذلك التهريب . وحينما استفحل الأمر وضعت الحكومة الصليبية اللاتينية تشريعاً خاصًا جاء فيهِ ان كل من يبيع خصوم الصليبيين حديداً او اسلحة او خشباً لبناء السفن او سفناً جاهزة للسفر وان كل من يشتغل لحساب المسلمين ولمصلحتهم اما بصفة ربان سفينة او بحري يعاقب بالحرمان من الكنيسة وتصادر املاكه وتسلب حريتهُ الشخصية فاذا وقع اسيراً في قبضة نصراني حقّ لهذا ان يعتبره رقيقاً يباع ويشترى . على ان صرامة هذا التشريع لم تحل دون الاستمرار في تهريب الاسلحة وسائر المواد الضرورية للحرب الى معسكرات المسلمين حتى انهُ اعترف بهذا التهريب وصرح بهِ ونص على وجوب السماح بهِ في معاهدة عقدت بين سلطان مصر وجمهورية بيزا الطليانية وقد كان المسلمون يهزأون بهذه المقررات والتشريعات الصليبية ويواصلون شراء ما كان يعرضه عليهم المهربون الفرنج من الاسلحة والذخائر ليستخدموها ضد الفرنج في ساحات القتال .

وحين بدأ الزحف المغولي على الديار السورية خلال القرن الثالث عشر فتحت طرق جديدة للتجارة لم تعرف من قبل ومع ان الطرق البرية كانت طويلة ومرهقة فان اتعابها قد ذللت بعض الذليل بانشاء محطات للاستراحة في مراحل مختلفة منها . ومن أهم هذه المحطات مدينة تبريز الايرانية التي اضحت مركزاً مهمًا للتجارة وكانت البضائع تنقل اليها من مرفأ أياس الواقع على خليج الاسكندرونة الخاضع حينئذٍ لامارة ارمينيا الصغرى . ولقد راجت الحركة التجارية في أياس خلال القرن الثالث عشر لان البابا ظلّ يصدر الأمر تلو الأمر ليمنع الفرنج من التعامل مع تجار المرافىء الاسلامية فانشىء خط بحري جديد بين مرفأي البندقية واياس مارًا بجزيرة قبرص

فأخذ عرب سوريا يأتون الى اياس بمقادير عظيمة من البضائع أهمها القطن الذي كانوا يزرعونهُ في وادي العاصي فيزكو فيهِ . وظلّت الحال كذلك حتى وقعت الحرب بين مماليك مصر وامارة ارمينيا الصغرى المسيحية فهاجمت اساطيل مصر مرفأ اياس مراراً الى أن امتلكه الملك الناصر محمود سنة ١٣٤٣ فانقطع عنهُ تجار الفرنج وفقدت مزيته كمرفأ مسيحي

***

وابتداء من القرن الرابع عشر اشتد ساعد الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وأخذوا يستولون على بلاد الامبراطورية الرومية الواحدة تلو الاخرى فاضطر التجار الفرنج ان يهملوا الطرق التجارية البرية المتقدم ذكرها وان يعودوا الى الاتجار مع سوريا ومصر فانتعشت الحركة فيهما وعاد النشاط التجاري الى مرافئهما وظلّ الامر كذلك حتى ايام اكتشاف الطرق البحرية الى ديار الهند فصارت السفن تغدو وتروح بين الشرق والغرب عن طريق رأس الرجاء الصالح

واكبر وأهم مرفأ مصري هو الاسكندرية . على ان دمياط كانت أيضاً تتمتع بشهرة تجارية واسعة ولا سيما في بيع السكر فلقد كانت تجارتهُ رائجة بسبب قصب السكر الذي كان يزكو في دلتا النيل . ولقد كانت السفن النهرية تغدو وتروح بين الاسكندرية وسائر المدن المصرية الاخرى حينما كانت هذه المدينة متصلة بالنيل بترعتها الشهيرة . ولقد أصلح الملك الناصر محمود هذه الترعة ونظفها من الرمال التي كادت تسدها سنة ١٣١٠ وظلت صالحة للملاحة نحو خمسة وعشرين عاماً ثم اهمل أمر مراقبتها وتنظيفها فامتلأت بالرمال حتى غدت غير صالحة للملاحة الاّ في أيام فيضان النيل أي من (يونيو) الى اوائل اكتوبر من كل سنة وقد ظلت الحال كذلك في تلك الترعة واستفحل إهمالها حينما دخلت مصر تحت الحكم العثماني فتراكمت الرمال فيها وتعذر سير السفن فيها ثلاثة عصور فلما انتشل المصلح الكبير محمد علي القطر المصري من خموله وبدأ فيه عهد النهضة الاقتصادية نالت ترعة الاسكندرية نصيبها من العمران وعادت الى سابق عهدها من النشاط والحركة التجارية ولم تكن البلاد المصرية خلال القرون الوسطى تصنع كل ما تحتاج اليه فكانت تسد حاجتها بوساطة التجارة . فخشب الجميز والنخل لا يصلح البتة للتخشيب واصنع الأثاث فكان المصريون يستوردون الخشب الجيد من جزيرتي قبرس وكريت ومن مرفأ اضاليا الواقع على شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي وكانوا يستوردونه ايضاً من اوربا رغم المنع البابوي . أما المعادن الثمينة والمفيدة والفرو والصوف فكان يؤتى بها في مقادير عظيمة وبما ان القطر المصري فقير بالنباتات الزيتية ولا يزرع فيه الاّ السمسم جيء بالزيتون اليه من سوريا ومن البلاد الاوربية

وعدا كل ما تقدم فان التاجر المصري كان يستورد الوقود والعسل والزبيب واللوز والجوز والبندق والنبيذ والأقمشة والفضيات والبلور . وقد سنت شرائع خاصة بهذه التجارة فكان يؤخذ عشرة في المائة ضريبة جمارك ثم يسمح للتاجر بنقل بضاعته الى مخزنه أو بيعها في دائرة الجمرك حيث يشرف موظفان كبيران على عملية البيع هذه. فالموظف الأول هو ترجمان بين التاجرين الاجنبي والمصري وأما الثاني فكان يقوم بوظيفة الدلال وكان عددهم يزيد وينقص وفقاً لاشتداد الحركة التجارية وركودها وقد كان من المتعارف بين التجار أن البيع يكون باتاً اذا عقده البائع والمشتري بحضور الدلال والمترجم وبعض الشهود . وقد أحبت الحكومة أن تسهل على التجار أعمالهم فسمحت بانشاء مستودعات لحفظ البضائع التي تكون بعد البيع وقد كان لكل أمة لها علاقة تجارية بالقطر المصري مخازن من هذا النوع وكانت دائرة الجمارك تتعهد بالمحافظة على تلك المخازن . وعدا ما تقدم كان هناك وكلاء تجارة في المرفأ المصري وظيفتهم تسهيل مصالح التجار والمحافظة على حقوق مواطنيهم منهم وهم الذين يهدون مواطنيهم التجار الى دقائق التعريفة الجمركية المصرية

وبعد ظهور الدولة العثمانية بقوتها المعروفة وتغير بعض الطرق التجارية البرية كما تقدم القول بدأت منزلة بيروت التجارية تظهر وتنمو رويداً رويداً وهي ميناء سوريا الوسطى بما فيها مدينة دمشق وفيها مرفأ محفوظ من رياح البحر الشديد وعواصفه . وفي القرن الخامس عشر كانت البندقية ترسل أساطيلها التجارية الى بيروت والى طرابلس وهذه الاخيرة انتعشت كثيراً بسبب انسداد مرفأ اللاذقية بالرمال وتعذر رسو السفن الكبيرة فيه وقد حذت حذو البندقية سائر المرافىء الطليانية وصقلية ومرسيليا وهكذا نشأت حركة تجارية اقليمية بين شرق البحر المتوسط وغربه بعد ان كانت عالمية بسبب اكتشاف الطرق البحرية التي قام بها مغامرون بحريون من البرتغاليين أواخر القرون الوسطى

****

ولقد ألفت الطبقات البورجوازية أواخر القرن الحادي عشر في بعض المواصم الطليانية مجالس بلدية تحت رئاسة أشخاص من الأعيان تسمى الواحد منهم باسم قنصل وذلك احياء لذكرى هذا اللقب الذي كان لصاحبه شأن كبير في التاريخ الروماني أيام ازدهار الامبراطورية وعظمتها ولقد وجد هؤلاء القناصل في مدينة بيزا منذ سنة ١٠٨٧ وفي مدينة جنوة اعتباراً من سنة ١٠٩٨

وحين أنشأ الفرنج الامارات اللاتينية الاقطاعية في الشطوط السورية جاءت جاليات طليانية وفرنسية وسكنت مدن تلك الشطوط وأخذت تتمتع بامتيازات خاصة نالتها من تلك الامارات

لقاء خدمات كثيرة قدمتها لهن ومن أهم تلك الامتيازات امتلاك احياء برمتها في المدينة المفتتحة واقامة موظفين منهم ليدافعوا عن أبناء الجالية ويحافظوا على الامتيازات الممنوحة وقد كان هؤلاء الموظفون يدعون بفيكونت ثم انقلب هذا اللقب الى قنصل وفي سنة ١١٧٩ كان رئيس الجالية البيزية بعكا يدعى قنصل وبعد قليل أحب البنادقة ان يلموا شعث جالياتهم بسوريا ويوحدوه فعينوا لتحقيق هذه الغاية مقيماً عامًّا منهم وهو في منزلة قنصل عام جعلوا مركزه عكا . وقام بالعمل نفسه جاليات جنوه فعينت قنصلين لا واحداً على ان يوحدا أعمالها ويحافظا على لقب فيكونت مع لقب القنصل الجديد . وعلى أثر ذلك عينت جمهورية بيزا ثلاثة قناصل سنة ١١٩٢ للنظر في شؤون أفراد جاليتها بسوريا وفي سنة ١٢٤٨ عدلت تلك الجمهورية عن تعيين ثلاثة قناصل واكتفت بقنصل واحد جعلت محل اقامته بعكا وهكذا أقامت مدن فلورنسة ونابولي ومرسيليا قناصل في عكا وصور والاسكندرية وأقامت مدينة مونبيليه قناصل في كل من الاسكندرية وعكا وطرابلس وقبرس . وقد قلدت رهبنة الاسبتالية المدن الآنفة الذكر فأقامت وكلاء في كل من الاسكندرية ودمياط والقدس والرملة. وكان لأهل قطلونية قنصل عام في عكا ووكلاء في كل من بيروت ودمشق وفياغوسطة القبرسية

***

كان لهؤلاء الوكلاء حالات خاصة في أيام المماليك فكان لادارة الجمارك فنادق تجارية خاصة يحق للتجار الأجانب المبيت فيها وحفظ بضائعهم وكان للبنادقة كنيسة وحمام في الاسكندرية وقد سمح لهم بتعاطي المسكرات وبيعها في تلك الفنادق وكان الملك العادل الأول يستقبل القناصل عشر مرات في السنة الواحدة وكان يحق لكل قنصل خلال هذه المقابلة أن يرفع شكاوى جاليته وامانيها . وكان المماليك يمنحون وكلاء الدول الاجنبية منحة سنوية قدرت مائتا دوكة تؤخذ من واردات الجمارك ، يُنَصّ عليها وعلى كيفية دفعها في المعاهدات التي كانت تعقد بين مصر وسائر الدول والجمهوريات الأجنبية رغم ان مبدأها يتنافى مع استقلال الدول الأجنبية . ومن السهل جدًّا أن يفهم أن هذه الحالة كانت سبباً في جعل وكلاء الدول الأجنبية في متناول الحكومة المصرية ففي كثير من الاحوال كانت هذه تعتبرهم رهائن عندها ومسؤولين عن كل عمل عدائي تقوم به دولتهم تجاه مصر وقد يتفاقم الامر بين الطرفين فيأمر السلطان بحبس الوكيل وضربه أو قتله عند اشتداد الخلاف وهكذا ظل امر القناصل والوكلاء الى أن وضعت مبادىء الحقوق الدولية ففصلت الأعمال والواجبات التي يضطلع بها القنصل في البلاد الاجنبية

فلسطين ر . التميمي



الموارد الطبيعية

وتأثيرها في الحضارة والسياسة والحرب

الموارد الطبيعية

وتأثيرها في الحضارة والسياسة والحرب [1]

١ — البيئة الطبيعية والدولة

اذا تغلغلنا في ظاهرات الكون الى نبعها الرئيسي وجدناها جميعاً من طبيعية واجتماعية ترتدُّ في أصلها الى تحوّل الطاقة الطبيعية. وظاهرات نشاط الدولة ليست بشاذة عن هذا الحكم. وليس في علم السياسة ناحية أجمع للعناية وأجدر بالنظر وأمتع للنفس في التحليل والاستنتاج من تتبع تأثير البيئة الطبيعية في نشوء الدولة وتحولها، وتبيُّن القواعد الأساسية للخطط السياسية التي تختطها في السلم والحرب. والبيئة الطبيعية قسمان رئيسان، يفصلهما الباحث السياسي ولكنهما غير منفصلين، بل هما أبداً متفاعلان، وأعني الشعب والأرض التي يقطنها. فالانسان نفسهُ جزء من الطبيعة، فأصلهُ ونشوءهُ وانتشارهُ في الأرض وتفرقهُ سلالات وشعوباً، وتركيبهُ الجسماني والعقلي، كل ذلك متأثر بعوامل البيئة التي تحيط بهِ من كلّ جانب. وكل دولة جماعة من الناس متصفة بصفات جسمانية وعقلية، تربط بين أفرادها صلات اجتماعية معينة، وتقطن بقعة من الأرض يتصف هواؤها بدرجات معينة من الحرارة والرطوبة، وأرضها بخواص متفاوتة من الخصب والثروة المطمورة فيها. فالجماعة تؤثر بارتقائها العقلي والاجتماعي في البيئة التي تعيش فيها، والبيئة تؤثر من ناحيتها في الجماعة واتجاهها السياسي والاقتصادي والاجتماعي

البيئة الطبيعية قوامها عناصر متعددة هي: أولاً شكل سطح الأرض وما فيهِ من جبال وأودية، وأنهار وسواحل، وسهول ونجود، وقفار وبرارٍ. وثانياً طبيعة الجوّ. وثالثاً موارد الأرض من زراعية ومعدنية. ورابعاً اوصاف الطبيعة بوجهٍ عام. وكلٌّ من هذه العوامل كان له تأثير عظيم الشأن في طبيعة الاجتماع السياسي وتوجيههِ، ولاسيما في العصور البدائية، عند ما كان العقل البشري لا يزال في مهدهِ، وقبل ان يتفتح عن ازهار العلم. حتى بعد التقدم العلمي العظيم في العصور الحديثة بقي الانسان خاضعاً لعوامل البيئة الطبيعية، على الرغم من اتساع قدرته على تبديلها بعض التبديل، وتحويلها بعض التحويل وفقاً لغرضهِ ومشتهاهُ

ان شكل سطح الأرض التي تقطنها جماعة من الناس، يشمل الجبال والانهار والبحار التي فصّلت بقاعاً عن بقاع، وقامت حوائل في العصور الأولى دون اتصال جماعات الناس التي تعيش في كنفها. ومن هذه البقاع ما كانت تحيط بهِ حدود طبيعية كالجزائر البريطانية يحيط بها البحر. وشبه الجزيرة الايبيرية، وشبه الجزيرة الايطالية، يحيط البحر بمعظمهما والجبال الشاهقة بالباقي. ففي داخل هذه الحدود الطبيعية نشأت امم تختلف في طبيعة وحدتها الداخلية، عن امم نشأت

---

(١) محاضرة لرئيس تحرير المقتطف في نادي الشبيبة بالقاهرة في ١٠ مارس ١٩٤١

في السهول الروسية الفسيحة . وهذه الاوصاف أثّرت تأثيراً غير يسير في تعيين حجم الدولة ، لأن الشعوب كانت تميل الى العيش في بقعةٍ تحميها الحدود الطبيعية من إغارة جيرانها عليها . فتتاح لكل شعب منها فرصة التعاون والالتفاف حول مصالح عامة، تشمل الجماعة كلها فتنشأ الوحدة عن ذلك وهي أساس الدولة. وليس من المصادفات،ان الدولة في الصين تشمل مساحات واسعة الارجاء ، وكذلك في روسيا ، والولايات المتحدة الاميركية . ولا من المصادفات ان اليونان من قديم الزمان الى حديثه دولة صغيرة المساحة ، ولا من المصادفات كذلك ان اوربا لم تجمع قبلاً في دولة واحدة ، على الرغم من مساعي قيصر أو شارلمان أو نبوليون . أما وقد أصبحت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والعقلية في العصر الحديث شديدة التأثير ، فمن الجائز أن تتغلب على الحوائل الطبيعية فتشمل أوربا في نظام من التعاون ولكنَّ ذلك لن يكون بالقوة الغاشمة ولا على أساس استعباد شعب لشعوب

وحجم الدولة يؤثر في اتجاهاتها السياسية ، فاتساع الامبراطورية الرومانية أضعف تقاليدها الجمهورية ومهد للحكم المركزيّ واستبداد الامبراطورية. واتساع الدمقراطيات الحديثة اقتضى قيام النظم النيابية فيها ، لأن الدمقراطية المباشرة كما كانت في مدن اليونان متعذرة في مساحات كبيرة

ثم أن موقع البقعة التي تقوم فيها الدولة وأوصافها الجغرافية ، تعيِّن نوع صلتها بالعالم الخارجي . هل تعيش بمعزل عن العالم ، أو هل تكون صلاتها بجيرانها صلات تعاون وسلام أو صلات تنافر وخصام . فالولايات المتحدة الاميركية ما فتئت حتى عصرنا هذا تميل الى العزلة لأن محيطين كبيرين يفصلانها عن أوربا وأفريقيا من ناحية ، وعن آسيا من ناحية أخرى . ولولا الرجّة التي أحدثتها الحرب الدائرة الرحى الآن ، وارتقاء اساليب المواصلات الحديثة ووسائل التغلغل الداخلي السياسي الاقتصادي التي اتقنها الوطنيون الاشتراكيون وطبقوها، لكان من المتعذر في نظري ، ان تتحول كثرة الشعب الاميركي وممثليه هذا التحول السريع الى ادراك أن السلام العالمي لا يتجزأ . ومع ذلك لايزال فريق منهم — وان كان صغيراً — يأبى أن يفتح عيونهُ على هذه الحقائق . يقابل هذا أن أمة اليونان في العهد القديم ، كانت تقطن ارضاً تردُّها الجبال الواقعة في شمالها وشمالها الغربي،عن الاتصال بمن وراء تلك الجبال. ولكن ثغورها وخلجانها وجزائرها المتعددة فتحت لها نوافذ تطلّ منها على مسالك البحار ، فاتصلت بسائر الامم عن طريقها،فاتسعت تجارتها ، واستعمرت سواحل البحر المتوسط والبحر الاسود . وبريطانيا المنفصلة بالبحر عن القارة قام فيها اسلوب من الحكم خاص بها ، وانشأت تجارة بحرية واسعة ، وبنت اسطولاً لحمايتها ، وزرعت جماعات من ابنائها ، في بلدان نائية متفرقة على سطح الأرض ، فنمت وارتقت ، وأصبحت طائفة منها دولاً مستقلة

ولكن ما تكسبه الدولة القائمة في قلب القارات ، من حماية الحدود الطبيعية ، تخسر شيئاً

يقابله بما ينمو فيها من روح العزلة والميل الى الاستقرار ، فيصعب على شعبها الامتزاج بالشعوب التي تجاوره وراء الجبال والانهار، ويتعذر عليه ان يرى ما تراه في شؤون الحياة، فيشق التعاون بينها ، ويقل الاتصال ، فيضعف التوليد والابتكار ، والابتكار سر الارتقاء . واذا كانت الحدود الطبيعية بحاراً، فان الدولة تصبح معتمدة على اسطولها واستمرار قدرتها على الاحتفاظ به. فاذا مر بها تيار التحول ولم تجاره ، تعرضت للسقوط، وهذا كان مصير اسبانيا. إن امتناعها عن الامتزاج بأوربا بفعل قيام الجبال على حدودها الشمالية ، أفضى الى ركودها الفكري ، أما اعتمادها على مستعمراتها فقد جعل بقاءها مرتبطاً بقدرتها على الاحتفاظ بأسطول متفوق . فلما اندفعت في اوربا تيارات فكرية جديدة ، وضعفت قدرة اسبانيا البحرية ، مالت رويداً رويداً الى الانحطاط

ولا يخفى ان الحركة في الطبيعة والاجتماع تميل دائماً الى الاتجاه حيث تلقى المقاومة على أقلها . فجبال اليونان الى الشمال والشمال الغربي جعلت اتصال اليونان الأول بالامبراطوريات الشرقية . وروما اتجهت غرباً لأن جبال الابنين كانت حائلاً دون اتصالها اولاً باليونان . فكان اليونان وروما كانتا واقفتين ظهراً الى ظهر . أما اليونان فاضطرت بفعل هذا الوصف الجغرافي لأرضها ان تصطدم اولاً بجيوش حضارات قديمة ، واذا استثنينا فتوحات الاسكندر ، فقد كانت في معظم تاريخها القديم عاكفة على نفسها، فأبدعت ما أبدعت في العلوم والفنون. وأما روما فاصطدمت اولاً بشعوب دونها حضارة ونظاماً ، فكان ذلك مستهل طريقها الى الأمبراطورية وما تركته الأمبراطورية في الدنيا من آثار القانون الروماني

ويضاف الى الوصف الطبوغرافي ، حالة الاقليم ، ولكن حالة الاقليم قلما تفصل عن حالة التربة . وانما يقال بوجه عام ان الاقليم المتناهي في شدة الحر وشدة البرد ، لا يؤاتي نشوء الطبقات العليا من الوان الحضارة واشكال الحكم . فالنور الباهر المنعكس عن مفاوز الجمد، والليالي القطبية الطويلة ، ووهج الشمس في الصحراء، والبطائح التي يتولد فيها البعوض في المناطق الاستوائية ، عوامل تحد من النشاط الاجتماعي فتحول دون قيام الهيئات السياسية والاجتماعية القوية . وجميع الدول الكبيرة نشأت في مناطق معتدلة ، حيث الهواء متصف بدرجات معتدلة من الحرارة والرطوبة ، وان كان هناك فئة من الباحثين تميل الى القول بان الاتجاه في قيام الدول القوية ، من المناطق المعتدلة الشمالية الى التي تليها شمالاً

وقد أشار مؤرخ الحضارة « بكل » الى ان ظاهرات البيئة الطبيعية تؤثر في نشأة الانسان الفكرية والخلقية والفنية . ففي البلاد التي تكثر فيها الزلازل والأعاصير والبراكين او الجبال الشاهقة والأنهار الكبيرة المتدفقة يغلب الخيال على العقل ، والخوف على رغبة الفهم ، فينصرف المرء عن البحث والتجريب ، ويعوزه الاعتماد على الذات ، فيحفل دينه بالأوهام والأساطير،

وفنهُ بالضخامة والغلظة ، ونظامهُ الاجتماعي والسياسي بالتحكُّم والاستبداد . فاذا كانت وحدات البيئة الطبيعية صغيرة بالقياس الى الشاسعة ، والطبيعة هادئة بالمقابلة مع العنيفة الصاخبة ، أُتيح النموُّ للعقل ، واتجه الفن الى الجمال ، والدولة الى الدمقراطية . وعلى هذا معظم تاريخ اليونان القديمة ونزعة معظم اوربا في العصور الحديثة

٢ — الموارد الطبيعية

هذه العوامل الثلاثة — شكل سطح الأرض والاقليم وأوصاف الطبيعة بوجه عام — تؤثر على طول المدى في طبيعة الاجتماع البشري ، وما فتئت موضوع بحث ونقاش ، وتأييد وتفنيد ، بين علماءِ الاجتماع البشري وفلاسفة التاريخ ، والأقوال الحاسمة فيها قليلة ، لأن التاريخ ليس كالعلوم الطبيعية ، من حيث خضوعهُ للتجربة والامتحان واستخراج الأحكام الدقيقة ، ولكن الانجاه العام في جميع هذه الأقوال ، لاريب فيهِ وهو ان البيئة الطبيعية تؤثر في طبيعة الاجتماع البشري ، وبالتالي في سياسة الدولة . ولكن التاريخ بوجه عام نسيج من عامل البيئة الطبيعية متفاعلاً مع عوامل أخرى هي العقل والشخصية والاقتصاد وروح العصر وغيرها

إلا ان هناك عاملاً رابعاً في البيئة الطبيعية ، يؤثر في معيشة الناس في قُوتهم وصناعتهم وتجارتهم وتأثيره مباشر مستمرٌ ، وهو آخذ في الاستفحال ، لأن ارتقاء الصناعة في العصور الحديثة وصيرورتها عماداً لا غنى عنهُ في معيشة الشعوب وقوتها ، جعل الحاجة الى موارد الطبيعة من نبات وحيوان ومعادن ، في منزلة الهواءِ والماءِ

ان الرجوع الى معجمات اللغة ومعلماتها لا يغني كثيراً في الفوز بتعريف دقيق جامع مانع للفظي « الموارد الطبيعية » . ولكنهما يعنيان بوجهٍ عام الجوامد والاحياء التي يعتمد عليها الناس في إقامة أودهم وتنظيم كيانهم الاقتصادي . وقد تبوَّب هذه الموارد على أسس مختلفة ولكن التقسيم الغالب هو القائم على الأساس التاريخي وفقاً لتدرُّج الانسان في استعمالها اذ بدأ في الاعتماد على الموارد النباتية ، ثم على النباتية والحيوانية ، ثم بدأ يكشف المعادن وازداد اعتمادهُ عليها شيئاً فشيئاً واتسع نطاق اعتماده عليها اتساعاً سريعاً في القرن التاسع عشر وما انقضى من القرن العشرين

وليس ثمة ريب في ان زيادة استعمال المعادن ، من السمات التي تتسم بها حضارة هذا العصر ، مع أن بدء استعمالها متغلغلٌ في تاريخ البشر . فالمصريون القدماء مثلاً بدأوا يستعملون الحديد ، حوالي القرن الثاني عشر قبل التاريخ الميلادي . ولكن اختراع الآلة البخارية ، اولاً ، ومحرِّك الاحتراق الداخلي ثانياً ، جعل لمناجم الحديد والفحم وآبار النفط ، منزلة مسيطرةً على اقتصاد الأمم . فتأثرت بذلك جميع خططها الداخلية والخارجية

واتساع نطاق استعمال المعادن ، لم ينشأ عن زيادة المستهلك منها في وجوه الاستعمال القديمة وحسب

بل عن كشف وجوه جديدة لاستعمالها على الغالب، وهذا الكشف مردهُ الى ارتقاء العلم بطبيعتها وخواصها . وهذا القول العام لا يجب أن يؤخذ على علاته بغير تمييز . فقليلاً ما نجد استعمالاً جديداً للذهب. ولكن العلمَ والصناعة كشفا وجوهاً جديدة لاستعمال الرصاص مثلاً ، فزادت الحاجة اليهِ زيادة كبيرة خلال قرنٍ واحدٍ من الزمان . والفحم مولِّد للحرارة والطاقة وقد زاد الاقبال عليهِ زيادة كبيرة في الثلاثين السنة الأخيرة من القرن التاسع عشرَ اي بين سنة ١٨٧٠ و ١٩٠٠ ويقول علماء اميركا ان حاجة اميركا الى الفحم كانت تتضاعف تقريباً كل عشر سنوات في اثناءِ تلك الفترة . ولكنها لم تزد شيئاً يذكر في خلال السنوات العشر بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠. ولم يكن استعمال النفط ومشتقاتهِ شائعاً في مستهل هذا القرن . وقد بدأ استعماله قبل خمس وسبعين سنةً في الاضاءة والتزييت ، ولكن عندما اخترع محرّك الاحتراق الداخلي ، فتح أمام استعمال النفط ومشتقاتهِ في السلم والحرب ، باباً لا يسدُّ . وكنا قبل ثلاثين او أربعين سنة من الزمان قلما نسمع بأسماءِ التنغستن والمولبدينوم والكروم وما يشبهها من المعادن ، إلاَّ من حيث هي عناصر في جداول الكيمياء، ولكنها الآن عنصر لاغنى عنهُ في الصناعة، سواء أصناعة حربية كانت أم صناعة سلمية . وليس أدلَّ على منزلة المعادن في الحضارة الحديثة من منزلتها في وسائل النقل والانتقال وأساليب المخاطبات. فقد كان الانسان يعتمد على الحيوانات لجرّ المركبات، وعلى الرياح لدفع السفن ، ولكن سكة الحديد التي أتيحت بعد اختراع القاطرة من نحو قرن من الزمان مكنت الانسان من الانتقال في ساعة ، مسافة لم تكن في متناوله قبلاً في يومٍ كامل . وقوام السكك الحديد ، الحديد والفحم . ثم اخترع محرّك الاحتراق الداخلي ، فاذا هو القلب النابض في السيارة والطائرة ، واذا سرعتهما تفوق سرعة القطار من ضعفين الى خمسة أضعاف . وليس ثمة ريب في ان ارتقاء من هذا القبيل ، كان له تأثيرٌ اجتماعيٌّ عظيم الشأن . فمقادير الطعام تنقل مسافات بعيدةً بغير زيادة تذكر في نفقة نقلها ، فنشأ عن ذلك — اتساع نطاق الأسواق التي تعتمد عليها البلدان المنتجة ، واعتماد الأمم بعضها على بعض، واتزان مصادر التموُّن بالطعام في جماعة ما ، ولو كان لحمها يجيئها من الأرجنتين ، وشايها من الهند والصين ، وقمحها من كندا ، وزبدها من هولندا والدنمارك

وما يقال في النقل والانتقال يقال في أساليب المخاطبات ، فنقل الاشارات الكهربية في أسلاك من المعدن زاد سرعة نقلها أضعافاً ، والاعتماد على المخاطبات اللاسلكية ، يستند في آخر الأمر ، الى مولِّدات تولد الطاقة الكهربية وأبراج عالية تذاع الأمواج من قممها وأجهزة تتلقاها وتحولها كلاماً مفهوماً ، ولاغنى عن طائفة كبيرة من المعادن في جميع هذه الأجهزة والمعدات

وليس ما تقدم إلاَّ على سبيل التمثيل . وما هو خافٍ عن فطنتكم وعلمكم ، ولكن لانحيص

عن الحكم بأن الاعتماد على المعادن ، متغلغلٌ في صميم نظامنا الاقتصادي والاجتماعي ، ولا سبيل الى تخطيه او التنصُّل منهُ ، ولا سيما في عصور سياسة القوة كهذا العصر ، لأن القوة الحربية تقوم على أساس صناعي . وما الجيوش والاساطيل وأسلحة الطيران ، إلاَّ في منزلة الحدّ القاطع من السيف ، أما بقية النصل وأما المقبض ، فهما ما يعرفان بوصف « الامة في حالة حرب » صناعاتها وزراعاتها ومواصلاتها ومواردها الطبيعية جميعاً سواءٌ أفي أرضها كانت تلك الموارد ام في أراض أخرى تستطيع الاتصال بها . والمصانع عاجزة حتماً عن انتاج الطائرات والدبابات والسفن الحربية والتجارية والمدافع والقنابل على أنواعها إلاَّ اذا غذيت بتيَّار لا ينقطع من الخامات ، من الحديد والفحم والنحاس والرصاص والكبريت والالومنيوم والزنك والقصدير والنيكل والمنغنيس والكروم وغيرها . والآلات التي تتقوَّم بها طبيعة القوات الحربية الحديثة لا تستطيع التغلب على جمود المادة ولا ان تتقد فيها شعلة الحياة إلاَّ بالنفط ومشتقاته لأنها وليدة محرّك الاحتراق الداخلي ، وجانب منها ولاسيما ما كان منها يدرُج على الأرض لا يتحرَّك الاَّ على عجلات إطارُها من المطاط

٣ — المعادن والدول الكبيرة

ولكن المعادن(١) غير موزعة توزيعاً متساوياً ، في شتى القارات ، ولا في بلدان تلك القارات . والواقع ان حدود البلدان في العصور الغابرة ، عينت وفقاً للعقبات الطبيعية الكبيرة ، كالجبال والأنهار ، كما قدمت ، وتبعاً لمقتضيات الزراعة ، عندما كانت الزراعة مصدر العيش وحسب . ولم ترتبط ارتباطاً ما بتوزيع الثروة المعدنية في أرضها ، لأن المعادن كما نعرفها الآن ، وندرك منزلتها في شتى وجوه الصناعة ، لم تكن معروفة ، وما كان معروفاً منها لم يكن لهُ من الشأن ما لهُ في العصر الحاضر . ويضاف الى هذا حقيقة تاريخية وهي ان الثورة الصناعية التي حدثت في انكلترا وما عقبها من التوسع في استعمال الآلات في معامل الغزل والنسج وبناء السفن والقاطرات ، نبهت دولاً قبل أخرى الى منزلة المعادن على اختلافها ، فأضيف الى سوء التوزيع الطبيعي في الثروة المعدنية ، تفاوت آخر مردُّهُ الى السبق في الاختراع والتوسُّع

فلنلق الآن نظرة على الدول الكبار ، وما في أرضها من معادن تحتاج اليها من حيث هي دول صناعية ، او حربية ، او صناعية وحربية معاً . ويؤخذ من بيان إحصائيّ رسميّ أميركي ، صدر قبل سنوات ، ان هناك ٣٨ معدناً تبلغ قيمتها ، سبعون في المائة ، من جميع الخامات المعدنية التي تتداولها التجارة وأهمها الحديد والنحاس والألومنيوم والرصاص والزنك والقصدير والنيكل

(١) اقتصرنا على معالجة ناحية المعادن من هذا الموضوع لان أوربا الفقر في مواردها المعدنية منها في موارد الطعام ولاننا نشرنا في مقتطف مارس الماضي ص ٢٦١ مقالا موضوعه «موارد الطعام في بلدان قارة أوربا »

ومعادن الاخلاط اللازمة لأصناف خاصة من الصلب او لتقسية معادن أخرى وهي الانتيمون والمنغنيس والكروم والتنغستن والمولبدينوم . وهذه جميعاً من الفلزات . ويضاف اليها معادن غير فلزية ، كالفحم والنفط والنترات والفصفات وغيرها ، ومنها ما هو لازم للصناعة والنقل ، ومنها ما لا غنى عنهُ في النجاح الزراعي

المانيا — كانت المانيا قبل الحرب العالمية الأولى تستخرج من أرضها ٧٠ في المائة مما تحتاج اليهِ من حديد . فلما ردَّت اللورين الى فرنسا بمقتضى معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) ، نقص ما تستخرج المانيا من أرضها من الحديد الى ما يكفي اربعين في المائة من حاجتها على الأكثر — على ما كانت حاجتها معروفة في مستهلّ سنة ١٩٣٨ — ولم تستطع بلوغ هذه المرتبة ، إلاَّ باستغلال مناجم للحديد ، نسبة الحديد في ركازها يسيرة ولذلك لا تصلح للاستغلال الحرّ فكان لا بد من معونتها بمال الحكومة ، كما أنها عمدت الى جمع كلّ ما تستطيع جمعهُ من الحديد القديم المستعمل ، ولذلك لم يكن في وسعها ان تستغني عن الاستيراد ، وأهم هذه الموارد مناجم السويد — ولاسيما مناجم كيرونا في الشمال — فعليها كانت تعتمد المانيا للفوز بنحو ستين في المائة من حاجتها الى الحديد . ولذلك غدت مسألة مناجم حديد السويد مسألة حربية عظيمة الشأن في نظر المانيا ، علاوة على كونها مسألة اقتصادية صناعية

وأوربا الواقعة الى الغرب من حدود روسيا ، فقيرة بوجهٍ عام فقراً مدقعاً في آبار النفط ، وتستثنى رومانيا من ذلك . ولكن الانتاج الروماني لا يسدُّ الاَّ ربع ما تحتاج اليهِ القارَّة الاوربية من حدود روسيا الى البحر من نفط ، في أثناء السلام ، فكان لا بدَّ من الاعتماد على الاستيراد من أميركا والعراق وايران وجاوى وصنع عوض مستخرج من الفحم

ومناجم النحاس في المانيا تجهزها بأربعة عشر في المائة من حاجتها اليهِ ، وكان الامل معقوداً في مستهلّ سنة ١٩٣٨ باستغلال المناجم الفقيرة ، عن طريق معونة الحكومة ، فيبلغ مجموع ما يستخرج من النحاس ٢٥ في المائة من المقدار الذي يستهلك

وهي تحتاج علاوة على ما تقدم ، الى استيراد ٦٠ في المائة مما يحتاج اليهِ من المنغنيس او اكثر ، والى ٥٠ — ٦٥ في المائة من الرصاص والى كل ما تحتاج اليهِ من الزئبق ، و٩٠ في المائة من النيكل وأكثر من ذلك من المولبدينوم والقصدير والتنغستن وغيرها

وعلى الرغم مما بذلتهُ المانيا من السعي لنقص ما تستورده من الخارج ، فانها ظلت حتى مستهل هذه الحرب مضطرة الى استيراد مقادير متفاوتة مما تحتاج اليهِ الالومنيوم ، والانتيمون والكروم ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والمغنزيوم ، والمنغنيس ، والنيكل ، والنفط ، والمطاط والفصفات ، والزئبق ، والكبريت ، والقصدير ، والتنغستن . وقد تغيرت الحال الآن في بعض هذه

المواد ولاسيما الحديد والالومنيوم بعد تمكنها من الاستئثار بألومنيوم فرنسا — وهي أكبر منتج للالومنيوم — وحديدها وحديد لوكسمبورج وحديد السويد(١)

أما ايطاليا فلا تستخرج من أرضها إلاَّ ١٠ في المائة مما تستهلكه من الحديد والصلب وثمانية في المائة من الفحم، و٧ في المائة من النفط فعليها ان تستورد كلَّ الباقي من هذه المواد الرئيسية في الصناعة الكبيرة وكذلك كلَّ ما تحتاج اليه من المطاط والكروم والتنغستن والقصدير والنيكل — غير قليل لا يذكر — والنحاس (٩٦٫٨) والمنغنيس (٨٥٫٨ ٪)(١)

أما اليابان فأخص ما يعوزها الحديد والنفط ولكن حاجتها الى استيراد طائفة كبيرة من الخامات المعدنية الأخرى ليست يسيرة. فاليابان عندها كفايتها من الفحم والكبريت والنترات، ومعظم كفايتها من الطعام، وفي وسعها ان تستخرج من مناجمها كفايتها من النحاس. ولكن يجب عليها ان تستورد ثلثي ما تحتاج اليه من الحديد وستة اسباع ما تحتاج اليه من النفط ومشتقاته، والرصاص والقصدير، واربعة اخماس ما تحتاج اليه من الزنك والمنغنيس، وثمانية اتساع ما تحتاج اليه من القطن وكل ما تحتاج اليه من المطاط الطبيعي والنيكل والانتيمون وغيرها من المعادن اللازمة لاخلاط الصلب

اما انكلترا فما يستخرج من ارضها من الفحم يفيض على حاجتها، وحديدها يكفيها في اثناء السلام، والمقادير المستخرجة من الرصاص والقصدير لا بأس بها. الاَّ انها تحتاج الى استيراد كل معدن آخر. ولكن اذا حسبنا انكلترا قلب جامعة الأمم البريطانية، فما يستخرج منها جميعاً يفيض عن حاجتها جميعاً ويصدر، ولا يستثنى من ذلك الاَّ الانتيمون والزئبق. غير أن قدرة بريطانيا على الاستيراد مرتبطة بتماسك الامبراطورية السياسي وكفاية الأسطول التجاري والحربي في اثناء الحرب والاول لاريب فيه والثاني تقوم الادلة على تأييده

ولعلَّ أقرب البلدان الى الكفاية من حيث مواردها المعدنية الرئيسية هما الولايات المتحدة الأميركية وروسيا السوفياتية. ومع ذلك فكفايتهما ليست تامة. فالولايات المتحدة تحتاج الى استيراد معظم معادن الاخلاط كالانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن والقصدير والنيكل، وكذلك المطاط. وأما روسيا فلا يعرف مدى ثروتها المعدنية معرفة علمية دقيقة، فسعة أرضها حالت حتى الآن دون استكشاف جميع مواردها المعدنية ومقاديرها. ولكن الشائع في الدوائر الصناعية انها تكاد تكون مكتفية وتكاد تشبه الولايات المتحدة في ما تحتاج الى استيراده

هذا التوزيع غير المتساوي بين الدول الكبيرة، في الموارد المعدنية، حمل عالماً مهندساً انجليزيًّا يدعى السر توماس هُلند على اقتراح ما يعرف باسم « العقوبة المعدنية ». وجاراه في

(١) راجع المقتطف اغسطس ١٩٣٩ ص ٣٣٣ مقال « خامات الصناعة والحرب وأعواضها » ومقتطف نوفمبر ١٩٤٠ ص ٣٢١ مقال « حرب المعادن »

ذلك الجنرال سمطس وهو عالم وفيلسوف علاوة على كونه سياسيًّا وقائداً ممتازاً . وملخص القول في « العقوبة المعدنية » انه اذا نشبت حرب باعتداء دولة على اخرى واتجه الرأي الى فرض العقوبات على الدولة المعتدية — كان هذا في الأيام التي كنا نعلق فيها الأمل بالسلالة المشتركة وقد تعود ، بل لا بد من عودتها — فيجب ان تشمل العقوبات الاقتصادية اولاً طائفة من الفلزات هي الفلزات اللازمة لاخلاط الصلب المختلفة ، لأن المقادير التي تتناولها منها ، المعاملات التجارية يسيرة بالقياس الى مقادير الحديد والفحم وما اشبهه ، فلا يضطرب اقتصاد البلاد التي تحرم بيعها ولكن نقصها يؤثر في الدولة التي تحرّم شراءها لان الصناعة الحربية لا تستغني عنها

فالنيكل مثلاً ضروري لصناعة صلب خاص يصلح لعربات المدافع الضخمة . والنحاس لازم لصنع أجهزة الاذاعة والالتقاط اللاسلكية ومبردات الطائرات والدبابات . والتنغستن والموليبدينوم والكروم لصنع اصناف اخرى من الصلب القاسي لكل استعماله الخاص في الصناعات الحربية ، والمنغنيس والكروم لا غنى عنهما في صنع الآلات التي تصنع الأدوات الحربية ، machine tools . والاتفاق على فرض هذه العقوبة سهلٌ لأن الولايات المتحدة الاميركية وجامعة الأمم البريطانية تملكان أكثر من ثلثي مجموع موارد هذه الطائفة من الفلزات

والاعتراض الاساسي على هذا الاقتراح ، هو ان المقادير التي تحتاج اليها الصناعات الحربية ليست كبيرة ، فيسهل خزنها ، قبل نشوب الحرب ، فهي عناصر لا يبليها الزمن وتجميد المال الذي ينفق في شرائها لا يرهق دولة ما ، واذا لم تطل الحرب حتى يحلّ النفاد بالمخزون ، فتأثير هذا اللون من العقوبات لا يكون فعّالاً اذا اقتصر عليه

ويردُّ على ذلك بان التوزيع في إبان السلام يكون خاضعاً لحاجة الدولة كما تستخرج هذه الحاجة من سجلات واردها واحصاء صناعاتها ، بعد اضافة التصحيح اللازم الناشىء عن تقدم الصناعة فيوصد بذلك باب التخزين . وعلى كلٍّ هو رأي ان لم يفد في منع الحرب فقد يكون احدى الوسائل التي يتوسل بها لذلك الغرض بالاضافة الى وسائل أخرى

٤ — بين التجارة الدولية والاكتفاء

كيف تحل هذه المشكلة ؟ الحل الطبيعي المعقول هو العودة الى التجارة الدولية ، بعد فكّ ما يغلها من قيودٍ ، كالحواجز الجمركية العالية ، ونظام الحصص ، واغلال التبادل النقدي ، وما أشبه . فموارد الخامات ، من معدنية وغير معدنية ، كافية لسد حاجة الأمم جميعاً ، على رأي الدكتور ليث Leith استاذ الجولوجيا في جامعة وسكنصن الأميركية ، ومستشار الوفد الأميركي في مؤتمر الصلح ١٩١٨ — ١٩١٩ ورئيس مجلس البحث في موارد المعادن سنة ١٩٢٩

وكان المسيو فان زيلند ، الخبير الاقتصادي والمالي البلجيكي ، ورئيس الوزارة البلجيكية سابقاً ، قد عهد اليه في شهر ابريل من سنة ١٩٣٧ في دراسة مشكلة العالم الاقتصادية دراسة وافية ووضع تقرير فيها وعرض مقترحاته لحلها . فكان السؤال الذي سعى المسيو فان زيلند الى الرد عليه هو هذا : — أندعو الى الرخاء الدولي بتعزيز التبادل بين الأمم على أساس من حرية التعاقد والتبادل ام على اساس من الاكتفاء القومي . فكان ردّه بعد ما شرّق وغرّب في سبيل جمع الحقائق والآراء ، لا يكاد يلابسه غموض وأساسه وجوب عملٍ عملي مشترك لنقض الحوائل وخفض الحواجز التي تعرقل التجارة الدولية ، وفك القيود التي تحول دون التبادل النقدي الحرّ (١)

وأما الحل الآخر فهو طريقة الاكتفاء ، وهي طريقة الاستغناء عن العالم بقدر المستطاع. فلا تستورد الدولة من الخارج الاّ ما تعجز عن الفوز بهِ في ارضها ، سواء أمِنْ موارد طبيعية كان ذلك ، أم من موارد صناعية . فاذا لم يكن في الأرض منابع للنفط ، فيستخرج النفط من الفحم . واذا لم يكن فيها مزارع تزكو فيها أشجار المطاط ، فليصنع المطاط من غاز الاسيتيلين . واذا لم يكن فيها مراعٍ يكثر فيها الغنم فليصنع الصوف من جبنين اللبن . واذا تعذر وجود مقدار كافٍ من النحاس فليكن الالومنيوم عوضاً منهُ (٢)

والغرض البادي هو رفع مستوى معيشة الشعب ، باغنائهِ عن العالم . ولكن النتيجة خفض مستوى معيشة الشعب ، لأن جميع هذه الاعواض الكبيرة تقتضي من النفقة (مجموع جهد العامل مضافاً الى رأس المال اللازم) أكثر مما تقتضيهِ مثيلاتها المستخرجة من مواردها الطبيعية ولو نقلت من اقاصي الارض

وسياسة الاكتفاء لايمكن أن تطبق الاّ اذا كان نظام الحكم نظاماً دكتاتوريًّا . وهذا بطبعهِ يفضي الى حالة معنوية تجاري في انحطاطها حالة المعيشة . لأن الحكم الدكتاتوري يقتضي الاستبداد والتحكم وكمّ الافواه وقدع العقول والغاء المعارضين بالاعتقال أو الاغتيال . فسياسة الاكتفاء تفضي الى انحدار مستوى المعيشة ومستوى الحياة المعنوية في آن واحدٍ . ورغبةً في صرف نظر الشعب المحكوم هذا الحكم ، المعاني هذا العناء ، عن مساوي حاله يعمد حكامهُ الى بذر بذور الحقد في نفسهِ على سائر الشعوب والحكومات التي تحرمهُ — على زعمهم — فسحة العيش الرضي ، فتوغر الصدور وتستفز الى الحرب

ولما كان الاكتفاء التام مما يتعذر تحقيقه في بقعة بعينها من بقاع الارض ، فلا بدَّ أن

(١) المقتطف ابريل ١٩٣٨ ص ٤٥٧ مقال « تقرير فان زيلند ومشكلة العالم الاقتصادية »

(٢) فصل موضوع الاعواض ونفقتها في مقال « خامات الصناعة وأعواضها » في مقتطف اغسطس ١٩٣٩ ص ٣٢٣

يفضي الأخذ بخطته الى التوسع بغير الحرب اذا أمكن، وبها اذا اقتضى الامر ذلك، ولاسيما اذا اقترنت خطة التوسع بنظريات التفوق العنصري وشهوة السلطان

ولا يخفى ان التجارة العالمية بليت بعد الحرب الكبرى الماضية بقيود مختلفة أرهقتها وعاقتها عن النهوض، كالحماية والحواجز الجمركية، ثم أضيف نظام الرخص في بعض البلدان لتقييد الاستيراد وتشجيع الصناعة المحلية وضنًّا بالنقد الأجنبي اللازم لشراء أخص ما تحتاج اليه البلاد في الخارج، وبعد ما تفاقمت شرور الأزمة الاقتصادية العالمية في سنة ١٩٣١ عمدت الدول على تفاوت بينها، الى تقييد التجارة بأساليب مختلفة وفي مقدمتها نظام الحصص وقيود التبادل النقدي كأن في هذه الوسائل سحراً يعيد الاقبال والرخاء، أي ان التجارة الدولية تحوَّلت من عمل تشترك فيه دول وبلدان متعددة على أساس الذهب أو ما يحلُّ محلَّهُ، الى صورة جديدة، أساسها المقايضة وغرضها الاكتفاء (١)

وكانت الحال على هذا المنوال عندما تقلد الوطنيون الاشتراكيون زمام الحكم في المانيا في مستهلّ سنة ١٩٣٣، فأضافوا الى البواعث الاقتصادية التي دعت اليها باعثاً خاصًّا بهم، وهو رغبتهم في أن تكون المانيا بمنجىً من تأثير الحصر البحري اذا خاضت حرباً كبيرة وكان أحد خصومهم فيها دولة تملك زمام البحار. واذن فالاكتفاء لا يطلب في عرفهم وسيلة لاجتياز الأزمة الاقتصادية الى أن يأتي الفرج، وإنما يطلب لغرض حربيّ بعيد. ولكن الاكتفاء مناقض بطبيعته لوضع المانيا الطبيعي. فقد نفهم مثلاً ان تعمد دولة كروسيا، او الولايات المتحدة الى محاولة الاكتفاء فأرضهما غنية بشتى الموارد الطبيعية من معدنية وزراعية، فاذا نظم انتاجها تنظيماً دقيقاً، واستغلَّ المهمل منها، فقد تستطيعان أن تستغنيا عن كثير مما تستوردانه، ولا سيما اذا أضيف الى انتاجهما بعض الأعواض التي يخترعها العلماء ويصنعها الصنَّاع بغير نفقة كبيرة. ومع ذلك تبقيان محتاجتين الى استيراد مواد لا توجد في أرضهما ولا عوض صناعي منها الآن

أما المانيا فليست ببلد غنيّ بموارده الطبيعية، ولا سيما المعدنية اللازمة للصناعات الكبيرة، والنباتية والحيوانية اللازمة لصناعة المنسوجات وبعض النباتية والحيوانية اللازمة للغذاء ولصناعة المفرقعات. فسياسة الاكتفاء، مفضية فيها حتماً الى خفض مستوى المعيشة. فلما بدأت المانيا تتسلح، واتسع نطاق تسلحها، وقعت في ما بين خطة التسلح وسياسة الاكتفاء، في تناقض لا مخرج لها منهُ إلاَّ بالتوسع، فاذا تمَّ بغير حرب — بالضغط السياسي والاقتصادي والتفتيت الداخلي — فبها، وإلاَّ فبالقتال

ذلك بأن رغبتها في جعل قوتها المسلحة قوة متفوقة، قادتها رغماً عنها الى توسيع نطاق ما تحتاج اليه، مما لا تجدهُ في أرضها، ولا تستطيع عقول علمائها ان تغنيها عنهُ بأعواض تخترعها

(١) راجع مقال « التجارة الدولية » لفؤاد محمد شبل مقتطف مارس ١٩٤١ ص ٢٩١

وتوسيع نطاق ما تحتاج اليه ، مما لا تجده في أرضها ، يعني ان تحقيق سياسة الاكتفاء متعذر . دائرة مفرغة لا تنتهي الاَّ الى حيث تبتدىء . ومن هنا كان لا بدَّ من التوسُّع بالحرب او بالتهديد بها . وليس للنظام الجديد في أوربا من معنى — من الناحية الاقتصادية — الاَّ هذا وهو سيطرة المانيا على بقاع في أوربا وآسيا تتوافر فيها جميع الخامات الزراعية والصناعية والحربية التي تحتاج اليها ، فلا يؤثر فيها حصر ولا يستطيع أحد ان يعصي لها أمراً . ولما كان هذا النظام من ناحيته الاقتصادية مرتبطاً بنظام سياسيٍّ من طراز معين ، فالغالب انهُ لا يستطيع ان يقيم على سطح الأرض ما زالت هناك قوى تقاومهُ او تستطيع ان تقاومهُ فإما ان يبسط ظلهُ على العالم وإما ان ينهار . والى هذا — علاوة على شهوة السلطان الخاصة — يرتدُّ القول بمطامع المانيا العالمية التي حركت الولايات المتحدة الأميركية الى الوقوف في موقفها المعروف

٥ — المستعمرات والموارد

ليس الغرض معالجة موضوع المستعمرات الاَّ من ناحيته الاقتصادية . فهل نجد فيها حلاًّ محتملاً لمشكلة الموارد الطبيعية ؟ أما الذين يذهبون هذا المذهب فيستندون الى (١) كونها منفذاً للتخفيف عن ضغط السكان (٢) كونها مورداً من موارد خامات الصناعة والغذاء (٣) كونها سوقاً للمنتجات الصناعية

١ — السند الاول كان يلخص في قولهم ان السلام في أوربا يتوقف على قدرة الجماهير في الدول الشديدة الازدحام ان تجد المجال المتسع لها للحياة . واذا صحَّ هذا القول فمن المتعذر أن تكون المستعمرات الافريقية هذا المجال . فقد قضت الحكومة الألمانية قبل الحرب ٣٠ سنة وهي تحاول إغراء الألمان بالنزوح الى المستعمرات واستيطانها . فلم ينزح منهم الاَّ ما يزيد قليلاً على ثمانية عشر الفاً ، حالة ان زيادة السكان السنوية في المانيا كانت نحو مليون

جاء في كتاب جيريج الذي عنوانه « الباب المفتوح ونظام الانتداب » ان جميع السكان البيض في المستعمرات الالمانية سنة ١٩١٣ كانوا ثمانية وعشرين الفاً ذهب منهم ٣٢٠ الى طوجولند و ١٦٥٠ الى الكمرون و ١٤٠٠ الى افريقيا الشرقية الالمانية و ١٢٣٠٠ الى افريقيا الجنوبية الغربية الألمانية . وليس بين هذه المستعمرات الأربع ما يصلح لاستعمار البيض حقًّا الاَّ المستعمرة الأخيرة . ومع ذلك لم تستوعب منذ ما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها الاَّ نحو الف مهاجر من البوير والانكليز في السنة . أما السكان الألمان فيها فلم يزد عددهم ولم ينقص عما كان سنة ١٩١٤ ولذلك أصبحوا أقلية فيها . أما تنجنيقا — وكانت تعرف باسم افريقيا الشرقية — فقد كسبت منذ الهدنة ٦٠٠٠ مستعمر انكليزي أي ان المتوسط السنوي لزيادة عدد المهاجرين اليها يبلغ نحو ٣٠٠ في

السنة . ويدل الاحصاء الأخير الخاص بمنطقة طوجولند الواقعة تحت الانتداب البريطاني أن عدد البيض فيها بلغ ١٤٠ منهم ٤٣ المانيًا . فيبدو مما تقدم ، اننا اذا سلمنا جدلاً بوجوب اعادة المستعمرات الالمانية الافريقية الى المانيا من الناحية السياسية او الشرعية ، فان هذه المستعمرات لا تصلح منفذاً للتخفيف عن ضغط السكان في المانيا نفسها (١)

نعم قد تتمكن حكومة النازي بالاعتماد على اساليب هي مزيج من الضغط والاغراء لم تكن حكومة القيصر تتقنها قبل الحرب الماضية ، من زيادة عدد المهاجرين . ولكن تاريخ هذه المستعمرات من حيث سكنى البيض فيها لا يشجع على الاعتقاد بصحة ما يزعمهُ دعاة النازي من قدرتهم على اسكان اربعمائة الف في الكمرون وثمانمائة الف في تنجنيقا وهكذا . والرأي الغالب ان بضعة آلاف هو المعدل الاعلى . وماذا يصنع بنصف المليون من الالمان وهو معدل زيادة الشعب الالماني في السنة الآن ؟ !

٢ — والسند الثاني هو قولهم « الحاجة الى الخامات » . فهل في وسع المستعمرات الالمانية سابقاً ان تسد هذه الحاجة

كلمة المستعمرات تعني المناطق التي ابيحت للاستعمار او قد تباح في المستقبل اذا كان هناك مناطق لم تبح بعد وبقي نظام الاستعمار مقبولاً وقائماً . فالدول ذات السيادة ، او المستقلة استقلالاً ذاتيًا يكاد يكون تامًا ، كبلدان الدومنيون والهند ، خارجة عن نطاق المستعمرات . وعلى ذلك فالمستعمرات بهذا المعنى مصدر ضئيل جدًا من مصادر المواد الخام . وأهم المواد اللازمة للصناعة الصادرة من مستعمرات هي المطاط « الكاوتشوك » والقصدير . فأراضي مالايا البريطانية والهند الشرقية الهولندية تنتج من المطاط نحو سبعمائة الف طن « ١٩٣١ » من ٨٢٠ الف طن وهو المحصول العالمي . ثم انها كذلك تنتج نحو ثلثي المحصول العالمي من القصدير

ولو أضفنا الى هاتين المادتين مواد تنتج المستعمرات خمس محصولها العالمي لما أضفنا الاً النحاس والفوصفات والفناديوم والشاي وجوز النارجيل

وهذا يعني ان المستعمرات اطلاقاً لا تصدر الاً اربع مواد او خمساً ليست جميعها في مقدمة ما تحتاج اليه الأمم الصناعية . وهذا القول يصدق بوجه خاص على المستعمرات الأفريقية . فما يصدر من افريقيا كلها من المواد الخام الصناعية والغذائية يقل عن ٤ ٪ من محصولها العالمي . أما مستعمرات المانيا السابقة فكانت لا تصدر الى المانيا الاً مقداراً يقل عن ١ ٪ مما كانت تستورده من المواد الخام . وفي حساب آخر انه نصف واحد في المائة

والواقع ان المواد الخام الأساسية في الصناعة والغذاء كالفحم والحديد والنفط والقطن

(١) راجع المقتطف فبراير ١٩٣٦ ، ص ١٦٩ « التوسع بالفتح لا فائدة منه ولا حاجة اليه »

والنحاس والقمح واللحم واللبن ومشتقاته وغيرها تصدر جميعها من بلدان مستقلة ذات سيادة لا من المستعمرات . وفي الوسع ان يقال بوجه عام ان المصادر الرئيسية لمواد الصناعة والغذاء الأساسية هي الولايات المتحدة الأميركيـة واتحاد جمهوريات روسيا السوفيانيـة وجامعة الأمم البريطانية وبلدان أخرى مستقلـة . فمن الخطأ القول ان اعادة توزيع المستعمرات يسد النقص في ما تحتاج اليه البلدان المطالبة بها ، من المواد الخام اللازمة للصناعة والغذاء وأحرى ان يكون الخطأ اكبر اذا قلنا ان اعادة مستعمرات المانيا اليها يحل مشكلة حاجتها الى الخامات الصناعية والغذائية

لا ريب في ان الاستغلال المبني على العلم والتنظيم قد يزيد ما يستخرج من المستعمرات . والمانيا عند ما دخلت ميدان الاستعمار تمكنت في السنوات الست السابقة للحرب الماضية من ان تزيد مقدار المستخرج من مستعمراتها . لكن اذا زيد مقدار المستخرج الآن من مستعمراتها السابقة ثلاثة اضعاف ، ظل لا يزيد على ٣ ٪ من وارداتها

والواقع ان الدولة الاستعمارية الوحيدة التي لها مستعمرات غنية بالمواد الاساسية اللازمة للصناعة هي هولندا . فجزائر الهند الشرقية الهولندية التابعة لها غنية بالشاي والارز والمطاط والبترول والقصدير والتبغ والبن . ومع ذلك فالسويد وهي دولة ليس لها مستعمرة واحدة لا تقل عن هولندا اقبالاً ورخاء ومستوى حياة شعبها ليس دون مستوى حياة الشعب الهولندي

فاعادة توزيع المستعمرات جميعها — دع عنك رد المستعمرات الالمانية — لا يحل مشكلة الحاجة الى المواد الخام الصناعية والغذائية وحلها الوحيد ، هو في رفع القيود التي أرهقت بها التجارة الدولية وسدت مسالكها فتستطيع كل دولة ان تبتاع في الاسواق العالمية ما تحتاج اليه (١)

٣ — والسند الثالث هو قولهم « الحاجة الى الاسواق لتصريف البضائع والمصنوعات » . فاذا بنينا علم الاحصاء في هذه الناحية ؟ في سنة ١٩١٣ وهي السنة الاخيرة الكاملة التي كانت المانيا فيها مسيطرة سيطرة تامة على مستعمراتها بلغ مجموع ما أصدرته الى هذه المستعمرات ستة اعشار واحد في المائة من الصادرات الالمانية . واذا استطاع احد ان يفرض الآن على المستعمرات الالمانية السابقة ان تبتاع من المانيا دون غيرها ، كل ما تحتاج الى استيراده ، بلغ مجموع ما تستورده من المانيا سبعة أعشار واحد في المائة من الصادرات الالمانية

ويرد الالمان على ذلك بان تجارة مستعمراتهم زادت في السنوات العشر السابقة للحرب الكبرى أربعة أضعاف وأنها لم تزد الاَّ زيادة يسيرة جدًّا بعد الحرب . وان مقدار التجارة مع المستعمرات الالمانية بلغ مجموعه نحو الف مليون مارك

وهذا صحيح ، ولكن الالمان ينسون أو يتناسون ما انفقوه من مال على سبيل الاعانة

(١) راجع المقتطف مارس ١٩٣٧ ص ٣٣٥ مقال « المستعمرات من الناحية الاقتصادية »

لزيادة هذه التجارة بلغ مقداره الف مليون مارك في العشرين السنة السابقة للحرب العالمية الأولى . وهو ما لا تريد أن تفعله الدول المنتدبة لأنهُ غير معقول من الناحية الاقتصادية البحتة

ولو أن اتفاقاً تمَّ وعقد والغت المانيا بمقتضاه القيود التي تثقل كاهل تجارتها العالمية لاستطاعت أن تزيد تجارتها مع بريطانيا وفرنسا وهولندا وسويسرا وحدها زيادة تبلغ عشرين ضعف مجموع تجارتها مع مستعمراتها السابقة لو أن هذه المستعمرات اختصت المانيا دون غيرها بما تستورده من الخارج

ومن الغريب أن الكتّاب الالمان في موضوع المستعمرات يزعمون ضمناً احتكار المانيا لتجارة مستعمراتها . مع أن الواقع ، أن سياسة الباب المفتوح في نصف مستعمرات العالم مضمونة بماهدات دولية أي ان المستعمرات التي تشملها هذه المعاهدات لا يسعها أن تقيم حواجز جمركية تفضل بها دولة على أخرى من دول جامعة الامم . ولم تستثن المانيا ولا اليابان من ذلك . وهذه البلدان تشمل جميع بلدان الانتداب من درجة A و B وكل حوض الكونجو بما فيه شرق افريقية البريطاني وافريقية الاستوائية الفرنسية وغرب افريقية البرتغالية والسودان وروديزيا الشمالية . واما مراكش فسياسة الباب المفتوح فيها كانت جزءاً من التسوية الدولية التي عقدت بعد أزمة سنة ١٩٠٦ في مؤتمر الجزيرة . ومع ذلك فجميع المستعمرات على سطح الكرة لاتبتاع أكثر من ١٠ في المائة من مجموع الصادرات العالمية

والرد السهل بحكم الطبع على هذه الحقائق انهُ مازالت المستعمرات لا تصلح منفذاً ذا شأن لضغط السكان وازدحامهم ولا مصدراً أو سوقاً للمواد الخام أو للمصنوعات فلماذا تتمسك بها الدول التي تسيطر عليها . وفي الرد على هذا القول نخرج الى حلبة العوامل السياسية والاعتبارات الاستراتيجية وما يتعلق بالهيبة والكرامة الدولية — وهذه على ما لها من شأن عظيم ليست في نطاق هذا الحديث

٦ — الموارد الطبيعية وخطط الحرب

إن المشكلة التي تواجهها دولتا المحور في هذه الحرب هي مشكلة عدم وجود طائفة من المواد التي تحتاج اليها أو عدم وجود مقادير وافية منها ، في الأراضي الخاضعة لها أو في الأراضي التي تستطيع الاستيراد منها . وهذه المشكلة تتعقد بطروء مشكلة النقل عليها . ونحن كثيراً ما ننسى ان الجانب الاكبر من التبادل التجاري بين بلدان اوربا يتم بحراً . فايطاليا كانت تنقل فحم المانيا اليها — أو ما تستورد منهُ — بحراً عن طريق ثغور هولندا لا عن طريق سكك الحديد . وكانت تستورد بترول رومانيا وروسيا بحراً لا بسكك الحديد . وحديد اسبانيا كان ينقل الى المانيا بحراً لا

بسكك الحديد . وهكذا . أما وقد أوصد طريق البحر في معظم الاحوال دون التبادل التجاري بين بلدان أوربا، فالاعتماد على السكك الحديد مرهق لها علاوة على ان الخطوط الحديدية الممدودة الآن لا تكفي لنقل جانب يسير من المقادير التي تتبادلها بلدان أوربا في الأحوال السوية

أما المشكلة التي تواجهها بريطانيا فليست مشكلة هل نجد ما تريد، وهل تستطيع ان تبتاعه. فانها واجدة كل ما تريد وقادرة على شرائه ويضاف اليها ما ترسله اليها الولايات المتحدة الاميركية بغير حسابٍ للثمن الآن . ولكنها مشكلة نقل ما تحتاج اليه لأنهُ متاح لها في شتى البلدان . وهذا النقل يتم بحراً بأسطولها التجاري والأساطيل التجارية التابعة لحلفائها وفي مقدمتها أسطولا نروج وهولندا . فاذا وصفنا المشكلتين هذا الوصف على اختصاره فقد أشرنا الى قواعد الخطتين الحربيتين اللتين يجري عليهما الفريقان المتحاربان

أما بريطانيا فخطتها الآن منع كل وارد من وراء البحار الى المانيا، وهذا المنع محقق بالحصر البحري ينفذه أسطول بريطانيا المتفوق ويستثنى منهُ قليل مما يصل المانيا عن طريق سيبيريا وروسيا . ثم توجيه قاذفاتها الى المستودعات التي خزنت فيها المانيا ما جمعتهُ قبل نشوب الحرب من مواد قطع واردها عنها، وتدمير مواصلاتها البرية لعرقلة النقل بين ولاياتها المختلفة ثم بينها وبين البلدان الخاضعة أو الموالية لها . فبذلك تعجل استنفاد المخزون أو تجعل نقله من حيث خزن الى حيث يراد استعماله محفوفاً بالمشاق . فاذا التقى التأثيران تأثير المنع وتأثير النفاد، فلا مفر لالمانيا وحليفاتها — وايطاليا أشد تعرضاً من ألمانيا لهذا النوع من الحرب لانها أفقر ومخزونها أقل واعتمادها على الوارد البحري أعظم -- من أن تصابا بالاعياء الاقتصادي الذي كان أحد العوامل الفعالة في كسر شوكة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى بعد ما امتدت فتوحاتها في أوربا امتداداً لا يقل كثيراً عن امتدادها الآن

وأما المانيا فخطتها كذلك أن تمنع الوارد عن بريطانيا وأن تدمر مصانعها واعتمادها على الطائرات والغوّاصات . وقد نجحت بريطانيا في منع الوارد الى المانيا بحراً وفي تدمير وتعطيل جانب كبير من مصانعها ومواصلاتها، وفي التغلّب على خطر الغوّاصات والألغام المغنطة في ما انقضى من الحرب الى بدءِ هذا الربيع ولكن المعركة استؤنفت الآن بعد استكنان الشتاء

والخلاصة أن كفة بريطانيا في الموارد الاقتصادية والصناعية أرجح من كفة المانيا . واذا كانت المانيا قد ضربت أقوى ضرباتها الحربية في السنة الاولى من الحرب، لانها كانت تامة الأهبة لها — وكل معتد يتأهب للاعتداء — واذا كانت بريطانيا لم تكن قادرة على الرد على هذه الضربات بضربات قوية مثلها لانها لم تتأهب، فان الضربات البريطانية ستأتي — وقد بدأت — عندما يكون عدوها قد وهنت قوتهُ الداخلية بفعل الحصر البحري وقذف الطائرات

حديقة المقتطف

الفلاح

لالياس ابو شبكة

الأسد السجين

لمحمود أبو الوفا

كتاب من طيار لأمه

ترجم ونشر باشراف الاتحاد المصري الانكليزي

الفلاح (١)

لالياس ابو شبكة

زارعَ الحقل في البكورْ عيشكَ الدهرَ أخضرُ
أنت في هيكل الزهورْ فيلسوفٌ مفكِّرُ

***

سيدَ المنجلِ الحقيرْ أنت للناس سيدُ
من ذراعيك للفقيرْ حبةُ القمحِ تولدُ

***

ماؤك الطاهرُ الزلالْ من سواقيك يقطرُ
كلُّ ما تقتني حلالْ باسمكَ الخيرُ يذكرُ

***

أنتَ وجهٌ مخلدُ للجدود المخلدينْ
مثلهم سوف تلحدُ طاهرَ العينِ والجبينْ

***

يا بعيداً عن البشرْ أنت لا تعرفُ الشرورْ
تعرف الماء والحجرْ والأعاصيرَ والزهورْ

(١) من ديوان « الالحان » للشاعر اللبناني الياس ابو شبكة

الأسد السجين

لمحمود أبو الوفا

أهذا الليثُ ذو البطش الشديدِ   يسامُ الضيمَ في القفص الحديدِ
عجبتُ لمنطق العصر الجديدِ   أجَلْ يا منطقَ العصر المجيدِ
لقد علمتني لغةَ العبيدِ

* * *

لقد علمتني لغة الخداع   وقدرتها على مسخ الطباعِ
حُواةُ العصرِ قد هجروا الأفاعي   الى صيدِ الغطاريفِ السباعِ
ألاَ ويلَ الحواةِ من المصيدِ

* * *

ألاَ يا ويلَ مملكةِ الحواةِ   إذا اجتمعَ الأُباةُ الى الأُباةِ
وقالوا: ها هنا ثأرُ الحياةِ   هنا الأحرارُ ترضى بالمماتِ
ولا ترضى بإذلالِ الأسودِ

* * *

أباسم العلم ، أمْ باسم التمدُّنْ   يجاءُ بسيدِ الصحراء يُسجنْ
لئنْ ظنُّوا بأنَّ الحرَّ يجبُنْ   وأنَّ الأسدَ تقبلُ أن تُدجَّنْ
فقدْ كذبتهموا أمُّ الوعودِ

* * *

غداً يا ليثُ إنْ هم دجَّنوكَ   تباهوْا أنهم قد مدَّنوكَ
وثمَّ فلستَ أنت ولا أبوك   بمانعهمْ إذا همْ عوَّدوكَ
فترقص في الملاعب كالقرودِ

* * *

من التمدينْ إلاَّ أنْ تحاذِرْ   فمالكَ يا أبا الأشبالِ عاذِرْ
هنالكَ قد ترى شرَّ المناكرْ   وإنْ عارضتَ قالوا: عنك ثائرْ
وقانونُ التمدُّنِ ذو بنودِ

* * *

ألا يا ليثُ لست أقول صبرًا   فقد جرَّبت هذا الصبرَ دهرًا
فلم ينفع وزاد العيشَ مرًّا   ولكن إنْ قدرتَ وكنت حرًّا
فحطِّمْ كلَّ هاتيكَ القيودِ

كتاب من طيار لأمه

لست أستشعر نذير الخطر ، لكن الحوادث تجري سراعاً . وقد أوصيت بأن يرسل اليك كتابي هذا ، اذا قدر لي أن لا أعود من غارة جوية سأدعى للقيام بها وشيكاً . فتذرعي بالأمل شهرا ، فاذا انتهى الشهر فعليك ان تروضي نفسك على الواقع ، وتعلمي أني قد عهدت في واجبي إلى ذوي بأس من رفاقي ، رجال سلاح الطيران الملكي ، شأن الكثير ممن سبقوني من أقراني البواسل

وعزاؤك عن فقدي أن تعلمي بان قسطي من هذه الحرب كان من أروع الأعمال وأجلها شأناً . فان طائرات استكشافنا الجوالة في بحر الشمال قد عاونت على سلامة الطرق التجارية للقوافل البحرية وسفن التموين . ومن أعمالها المأثورة أن المعلومات التي أتت بها في احد الأيام ، كانت سبباً في انقاذ حياة رجال تعطلت بهم سفينة ، تقل حراس إحدى المنائر

وإني أقدر صعوبة لقائك موتي بنفس مطمئنة ، ولكنك تخلفين ظني ان لم تحاولي ذلك ، وتتغلبي على العاطفة ، اذ اني لم أدخر جهداً في سبيل النهوض بالواجب ، ولا يستطيع أي رجل أن يقوم بأكثر من ذلك ، وليس في عداد الرجال من يفعل أقل من ذلك

لقد طالما أعجبت بشجاعتك الرائعة في مواجهة المحن المتوالية ، وبقدرتك على إعدادي وتنقيفي كسائر أبناء هذه البلاد ، مع احتفاظك دائماً بالمظاهر اللائقة ودون أن تفقدي قط يقينك بالمستقبل . والآن إذا مت ، فلن يعني ذلك أن جهادك قد راح سدًى بل معناه أن تضحيتك تعادل تضحيتي عظمةً وجلالاً . فان الذين يخدمون انجلترا لا يجدر بهم أن يتطلعوا الى أجر منها وجزاء ، بل أننا نحقر أنفسنا ، ونهين كرامتنا ، اذا حسبنا بلادنا مجرد مكان للطعام والنوم

والتاريخ تتجاوب أصداؤه بأسماء رنانة مجيدة ، ضحى أصحابها بكل شيء فانبعثت من تضحياتهم الامبراطورية البريطانية ، حيث السلام الشامل ، والعدل الوارف ، والحرية التي ينعم بها الجميع ، وحيث ترعرعت الحضارة ، وبلغت من السمو والرفعة ، مبلغاً لا تدانيه البلاد الأخرى ، ولا تزال في ارتفاع مطرد

على أن الامر لا يقف عند حد المساس ببلادنا ، بل اننا اليوم نواجه أكبر تحدٍّ للمسيحية والمدنية عرفهُ العالم. واني لسعيد فخور بأن بلغت من السن والقدرة ومايؤهلني لأن أخوض غمار هذا الصراع بكل ماأوتيت من قوة وأهبة . والفضل في ذلك لكِ بيد أن أمامك في السنوات المقبلة عملاً أجل مما مضى ، فان على بلادنا أن تبقى متحدة متساندة بعد الظفر في الحرب . ومهما قيل في ذم هذه الحرب ، فاني أراها لاتخلو من خير ، ويكفي انها اتاحت لكل فرد ان يقدم ويغامر بكل شيء ، ذوداً عن مبدأه شأن الشهداء في الازمان الغابرة . ومهما طال الأمد فان هناك شيئاً واحداً لن يتبدل ، وهو اني عشت انكليزيًّا ومت انكليزيًّا ، وان تتغير هذه الحقيقة ، ولست أبالي بعدها شيئاً

لا يحزنك موتي ما دمت صادقة الايمان بالدين ، وما يدعو اليهِ والاَّ كان حزنك رياء . وما أنا براهب الموت ، وانما يخالجني شعور عجيب من الغبطة والسمو ، وما كنت لأرضى لنفسي غير ذلك

إن العالم أزلي لا حد له ، فلا مسوغ لحياة فرد واحد ، الاَّ بمقدار ما يبذله من التضحية . ولقد بعثنا الى هذه الدنيا انكتسب شخصية وخلقاً ، نحرص عليهما ولا نرضى لهما ضياعاً . إن اولئك الذين يقنعون من حياتهم ، بأن يشبعوا بطونهم ويناموا ملء جفونهم ويتكاثروا ، هم كالأنعام ، اذ تنقضي حياتهم كلها في صفو وسلام

وإني لأومن ايماناً صادقاً ، بأن الشرور قدسلطت على هذه الدنيا لتبلونا فالله يخلقها عن قصد وحكمة ، كي يعجم عودنا لأنهُ يعلم مافيهِ خيرنا وصلاحنا. والانجيل حافل بالامثلة التي تغض من شأن طلب السلامة ، والاستنامة الى الدعة لمنافاتها المبادىء السامية

واني أعد نفسي سعيداً ، لأني شاهدت بلادي كلها ، وتعرفت الى أناس من كل طائفة . ولكني بتجربتي الاخيرة في الحرب قد أتممت تكويني . وهكذا أديت رسالتي الدنيوية في مطلع الشباب وتأهبت للموت غير آسف الاَّ على أمر واحد: وهو أني سأحرم وقف حياتي على إسعادك بوجودي معك وقربي منك ، في سنواتك الاخيرة ، ولكنك ستعيشين في سلام وحرية ساهمتُ في اقرارهما بنفسي ولهذا لم تذهب حياتي هباء

ترجم ونشر باشراف الاتحاد المصري الانكليزي



بابُ المراسلةِ والمناظرة

الفيزيقا الحديثة

المرئي وغير المرئي

حضرة الأستاذ الفاضل رئيس تحرير المقتطف : قرأت كلمة حضرة الفاضل الأستاذ نقولا الحداد بصدد ما سماه تناقضاً في حقيقتين من حقائق نظرية النسبية هما انعدام ابعاد الجسم اذا تحرك بسرعة الضوء فيختفي عن الأنظار ، وزيادة كتلته في الوقت ذاته زيادة لا نهائية

والواقع أنه لا تناقض البتة وكل ما في الأمر أننا نهمل في بحوثنا المادية كل ما يتعلق بغير المدرك من مشاعرنا . فالمادة قد تكون موجودة وقد تتزايد ثم تكون في الوقت ذاته غير مرئية منا . ولكي أمهد السبيل لفهم هذا لا بد من التعريج أولاً على الأشعة التي استكشفها في فينا الهر ستيفان بربل Herr Stefan Pribill . فهذه الأشعة اذا سلطت على انسان أو حيوان أو جماد جعلته يختفي عن العين ، أي انه ينعدم بالنسبة لحاسة البصر فقط

وقد استكشف بربل هذه الأشعة غير المنظورة باستخدامه مصابيح زئبقية وتيارات كهربائية ذات ضغوط مرتفعة جدًّا . وهو يرشح هذه الأشعة التي من هذا الطراز خلال مرشح من حجر الكوارتز البنفسجي ، وبعد ترشيحها يسلط عليها مرايا لتعكسها في أي اتجاه يريده فاذا ما سلطت الأشعة بعد ذلك على رجل أو كرسي أو ما شئت من سلع أو حيوانات اختفى كل هؤلاء لا عن العين فحسب بل عن عدسة الفوتوغرافيا ايضاً

وفي المعرض الزراعي الصناعي الأخير الذي أقيم في القاهرة منذ بضع سنوات أجريت تجارب من هذا الطراز أمام جماهير الزائرين

ومن الموجات الصوتية ما هو صامت لا تدركه الأذن . وقد استحدث هذه الموجات الصوتية الصامتة الأستاذ وود Wood الأميركي ، وهي موجات قصيرة جدًّا لا تستطيع الأذن ادراكها ، نوبة التضاغط والتخلخل بحيث اذا اطلقت في الماء رفعت درجة حرارته وقتلت صدمتها الأسماك . ولا يمكن ان تدركها الأذن الاَّ اذا تداخلت موجتان منهما مختلفتا الدرجة

سقت هذا لأبين ان هناك مواد لا تدركها العين مع وجودها ، وهناك كذلك أصوات لا تدركها الأذن مع وجودها

فانظر اذن ماذا يحدث للجسم الذي يتحرك . وخذ صور الشريط السينمائي فالمعروف ان الحركة تنشأ في الصور السينمائية من تغير عرض سلسلة متتابعة من صور فوتوغرافية مرصوفة بانتظام على شريط شفاف . أما التغيرات الطفيفة في موضع الأشياء في الصور — وهي التغيرات الناجمة عن تحركها وقت أخذ الصور الفوتوغرافية — فقد اندمجت بعضها في بعض وامتزجت حتى لتبدو للعين كأنها حركة طبيعية . ويرجع سبب فاعلية هذا الامتزاج الحادث في الصور المتغيرة الى التأثير الذي يحدث في العين والمعروف باسم استدامة الرؤية persistence of vision وبعبارة اخرى يبقى التأثير الواقع على الخلايا العصبية الموجودة في شبكية العين في الذاكرة دون وعي به او ادراك فيضل تصور الرائي بذلك الامتزاج الحادث في الصور المتتابعة

ولن تستطيع العين ان تدرك تغيراً يستغرق حدوثه من الوقت $\frac{1}{20}$ من الثانية . ولذلك فان تحرك جسم ما من نقطة لأخرى خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة لا يمكن ان يرى بل يستطاع تصوره فقط . واذا تبادلت بسرعة صورتان فوتوغرافيتان لأشياء واحدة وانما تغيرت أوضاعهما تغيراً طفيفاً فانهما تبدو ان للعين كأنما هما صورة واحدة لمجموعة الاشياء تلك قد تحركت بالفعل ، وذلك لان الصورة الثانية تكون قد أضيفت كما هي الى الاولى التي استبقتها الذاكرة ، فيستنتج العقل بالطبيعة ان الحركة مستمرة متواصلة

فاذا تصورنا اننا أسرعنا في ادارة الشريط سرعة متناهية بحيث يسقط أمام العين في الثانية بدل العشرين صورة ألف او ألفان او اكثر من الصور فهل تدرك العين عندئذ شيئاً ؟ إن مجرد تمرير عشرين صورة بل ست عشرة صورة أفقد العين حساسيتها وأفقد المخ حاسة ادراك انها صور متغيرة فما بالك بتمرير هذا القدر من الصور ؟

***

والجسم المتحرك بسرعة الضوء يسقط على شبكية العين ألوفاً من صوره في الثانية الواحدة فيزداد ضلال تصور الرائي من امتزاج هذه الصور فلا يرى شيئاً . وخير مثل نقدمه رصاصة البندقية حين تنطلق . فالرصاصة في معظم الاحيان لا تدرك العين حركتها فلا تراها . ونخلص من ذلك الى ان الجسم المتحرك بسرعة الضوء لا تستطيع العين تتبعه ، ومن هنا لا تستطيع ادراكه ، ولو استطاعت لرأت الضوء نفسه ، ولا يفوتنا ان الضوء في نفسه لا يرى ، وذلك راجع لسرعته الكبيرة . فهو موجود وله ضغط قاسه العلماء ومع ذلك لا تراه العين

احمد فهمي ابو الخير
مدير ادارة السينما بوزارة المعارف

اسوالد شبنجلر

صديقي الاستاذ الفاضل رئيس تحرير المقتطف

بعد التحية ، اطلعت على ما كتبهُ الاستاذ السيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي في استنكار يهودية المفكر النابه اسوالد شبنجلر ، وقد اعتمدت في الاشارة الى يهوديته على مقال ظهر بمجلة العصر الحي الاميركية (The Living Age) في العدد ٤١٢٠ مجلد ٣١٧ الصادر في ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٣ والمجلد بحذافيره محفوظ عندي وعنوان المقال هو « ضد السامية » Anti-Semitism وهو عرض لكتاب طبع في ليبزج في نفس السنة اسمهُ بالالمانية Das Wesen des Antisemitismus تأليف الكونت هنريك لورنهوف كالرجي ، وقد كتب له مقدمة قصيرة نجل المؤلف ، واسمه ريشارد كالرجي ، أشار فيها الى قادة الفكر من اليهود في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وكان في طليعة من ذكرهم برجسن وشبنجلر واينشتين وفرويد وقد اوضحت مجلة العصر الحي انها ترجمت المقال المذكور عن جريدة كانت تظهر في بودابست — ولعلها لا تزال تظهر — اسمها Pester Lloyd . وما ذكره الأستاذ عن قوة بصيرة شبنجلر ودقة تفكيره لا يكفي بطبيعة الحال لانكار يهوديته ، فاني أتذكر انه قد عاش في القرن السابع عشر رجل لا اختلاف في يهوديته يدعى « باروخ اسبيوزا » يعنى به مؤرخو الفلسفة على تباين نازعهم ، وأظن هذا الرجل قد اوتي شيئاً من قوة البصيرة ودقة التفكير ، ويزعم بعض مؤرخي الفلسفة والأدب انه قد أثر في التفكير الألماني وبخاصة في جوته كبير شعراء الألمان

***

بقيت مسألة ربما استوجبت الشك في يهودية شبنجلر وهي اعتزاز عصبة النازيين بآرائه وتشيعهِ لهم — وأحيل القارىء في هذا الصدد على ما كتبهُ في نقد آراء شبنجلر المفكر الانكليزي الحر ليونارد ولف في كتابه عن الدجل السياسي والفلسفي الحديث وقد اختار لكتابه هذا الاسم العجيب وهو ! Quack, Quack اي « دجال . دجال ! » — ولكن هذا في رأيي لا ينفي يهوديته ، فقد ذكرت مدام لورعر في كتابها[1] « ماذا يريد هتلر » ان الفرد روزنبرج

(١) راجع صفحة ٩٨ من كتاب What Hitler Wants

صاحب الآراء المتطرفة في الشعوبية ليس المانيًّا خالصاً وان الدم اليهودي والروسي يجريان في عروقه ويهوّن النازيون من شأن ذلك بابتكارهم نظرية جديدة هي من مستحدثاتهم الباهرة وهي « ان النفوس الثورية قد تسكن الاجسام غير الثورية والعكس بالعكس »

فاذا كان عند الاستاذ ما ينفي يهودية شبنجلر نفياً قاطعاً فليتفضل بذكره في المقتطف تحرياً للحق الذي ننشده جميعاً وأنا على أتم استعداد لأرشح غيره وألحقهُ بالثلاثة الآخرين من كبار المفكرين اليهود الذين ذكرتهم في مقالي عن الفيلسوف برجسن

وتفضل بقبول تحياتي علي أدهم

المقتطف: وبعدما تلقينا من الاستاذ أدهم الكلمة المتقدمة تلقينا من الدكتور الجمالي بالعراق استفهاماً آخر عن يهودية شبنجلر فنشرناهُ في ما يلي :

* * *

حضرة صاحب المقتطف الأغر — بعد اهداء التحية والاحترام :

عقد الاستاذ السيد علي ادهم في العدد الثاني من المجلد الثامن والتسعين من المقتطف الأغر الصادر في فبراير سنة ١٩٤١ فصلاً عن الفيلسوف الكبير هنري برجسون قال فيه ما نصهُ :—

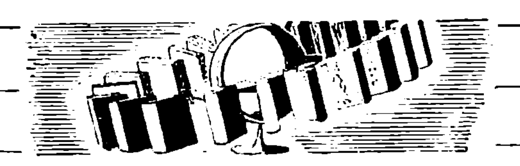
« وقد يكون من الخير أن نذكر في هذا العصر الذي غلبت فيه على بعض الامم الآراء العنصرية الزائفة أن برجسون أحد أربعة من ابناء اسرائيل كان لهم تأثير كبير في التفكير الحديث ، والثلاثة الآخرون هم فرويد العالم النفسي الذي قال عنهُ ماكدوجال إنهُ أكبر عالم نفسي عرفته الدنيا منذ عهد أرسطو — واينشتين صاحب الآراء المعروفة في النسبية ، وشبنجلر مؤلف كتاب « تدهور الغرب » الذي كان له تأثير كبير في دراسة التاريخ والموازنة بين الحضارات . . . الخ »

انا نعرف أن « اسوالد شبنجلر » ليس يهوديًّا وانما هو نازي قح ، وآخر تآليفه كتابهُ الذي الفهُ قبل بضع سنوات أي قبل وفاته « ساعة التصميم » « The Hour of Decision » وفيه يزعم أفضلية العنصر الجرماني على سواهُ من العناصر الاخرى وانهُ العنصر الذي وكل الله اليه تحقيق ما فيه خير البشرية وسعادتها

انا نرجو من الاستاذ السيد علي أدهم اعلامنا المصدر الذي استقى منه خبر كون « اسوالد شبنجلر » يهوديًّا ، وتنوير قراء المقتطف بالواقع ولكم مزيد الشكر

المخلص

العراق الدكتور محمد فاضل الجمالي



مكتبة المقتطف

تشرتشل

رجل مفرغ في قالب الابطال — صفحاته ١٤٤ من القطع الوسط — طبع دار المستقبل بمصر

من لطف الله بالعالم في المحنة الأليمة التي يجتازها ، والفتنة الأثيمة التي تريد أن تسيطر عليه ، أن أتاح له رجلين أو قل قوتين جبارتين ، وإرادتين حديديتين ، وعزيمتين ماضيتين تجتمعان على فكرة واحدة وغرض واحد ليس الشر جزءاً من سياستهما ولا البغي فصلاً من رسالتهما ، عُرفت عن أولهما صلابة الرأي مع سداده وحرية الفكر مع الصراحة الخالصة من شوائب التهريج والدعاية يرمي ببصره الى أبعد آفاق السياسة فيطوي العالم في نظرة ليبني بعد ذلك خططه في أناة وحزم . وعُرفت عن الثاني روحه الديمقراطية السمحاء ودعوته الى السلم وسعيهُ الى إقراره فلما لم يستطع ذلك لم تهن عزيمته ، وعرف ان السلام الصحيح كالإيمان الصحيح لا بدّ له من بعض الشك في صحة الأشياء ليتخذ طريقاً الى الايمان الحق فأطلق عزماً هزّ العالم وشدّد أمله في سلام بعد ذلك صحيح

هذان الرجلان هما تشرتشل وروزفلت زعيما الدمقراطية في العالم الآن والمنافحان لقوى الشرّ والباطل ، والثابتان لأعاصير السياسة الدولية لا يتزعزعان

فرجل بريطانيا ثابت في سياسته ثبوت الجزيرة العاتية القائمة في وجه القوى الشريرة المتألبة عليها من البحر والجو ، فيه كلّ خلق هذه الجزيرة وأهلها . رجل استطاع ان يهزّ الفاشم هزّاً ويقلقه اقلاقاً ، ويسيّره من شرق اوربا الى غربها يستعدي هذا ويسترضي ذاك ، ويوقف ضرباته الخاطفة ويسدّ عليه الخناق . ثم يهوي بالصنم الفاشستي من عليائه ويكشف عنهُ قناعه فاذا هو صريع هشيم سخرية للعالمين وآية للظالمين

رجل استطاع ان يجعل الكلمة المأثورة «أول ضحايا الحرب : الحقيقة» حكمة لا تنطبق في هذه الحرب من جانب الحلفاء فآمن العالم بما تذيعه بريطانيا ووثق بأخبارها لأن رجلها

يقف فيطلع العالم أجمع على حقيقة الموقف لا يستر شيئاً ، ولا يهاب تقرير حقيقة ، ولا يبني على نصرٍ مهما تكن قيمته القصورَ الشامخات

هذا هو الرجل العالم الأديب ، والسياسي المفكر ،والصحفيُّ المغامر ، والضابط الحرُّ الفكر ، والقائد الذي يقود العالم.اجتمعت له جميع عناصر البطولة ، من الطفولة الى الكهولة . وليست البطولة ان تقف مستعدًّا عشرين عاماً لتخرِّب وتدمِّر ، ولكن البطولة أن تقف في وجه المستعد الثائر دون استعداد فتقسره على أن يحسب لك الف حساب ، ويعدِّل خططهُ الف تعديل، ويحار كيف يصارعك وفي أي مكان

ليست البطولة جديدة في حياة ونستن تشرتشل ولكنها في دمهِ منذ نعومة أظفاره وليست الصراحة سياسة جديدة ألزمتهُ اياها الظروف ولكنها غريزة فيهِ منذ صغرِه ، وليس نشاطه وسهره بالغريب فهو مناضل منذ زجَّ بنفسهِ في حلبة السياسة وهو شاب . فقوى النشاط عنصر من عناصر حياتهِ

ولقد جلا الاستاذ فؤاد صروف هذه الشخصية العظيمة أمام ابناء العربية وكشف عن مظاهر عبقرية تشرتشل وبطولته في الترجمة التي وضعها له في أسلوب قصصي شائق وبالدقة التي امتازت بهِ تآليفه فأطلعنا على حياة هذا الرجل في طفولتهِ وعند ما انتظم بالمدرسة الحربية ثم اشتراكه بعد ذلك لأول مرة في ثورة جزيرة كوبا ثم في بعض وقائع الهند ثم في معركة أم درمان ثم في حرب البوير وهو في جميع الحروب يحمل الى جانب السيف قلماً أمضى منهُ يستله غير هياب ، وكانت لنقداتهِ وصراحتهِ فيها ضجة كادت تحول دون اندماجهِ في بعض حروب الامبراطورية . ولكن القلب العظيم لا يعرف اليأس فقدشق طريقهُ الى غاياتهِ فلما انتهت الحروب انتقل الى ميدان السياسة فكان شعلة متقدة في مجلس العموم . وقد عرض المؤلف هذه الناحية عرضاً رائعاً أبان فيهِ عن نواحي العظمة الكامنة في بطلهِ المناضل المكافح لا يثنيهِ فشل ولا يزدهيه نجاح . حتى اذا ابتدأ الفصل الثالث من هذه الترجمة ، والفصول التالية أطلعنا المؤلف على جوانب تاريخية للحرب الكبرى التي نشبت سنة ١٩١٤ وما كان لتشرتشل من أثر فيها وما وجه اليه من حملات خلالها،ثبت فيها حتى استطاع أن يخرج منها كما يخرج القمر من الغيمة الكالحة. وتخرج بعد ذلك قضية بريطانيا وحلفائها ظافرة

ان الرجل الذي يهتف في شبابهِ عندما نشبت حرب البوير : « كنت حتى نشوب الحرب اطلب السلام مهما يكن الثمن . فلما نشبت اصبحت أطلب النصر مهما يكن الثمن » هو هو الرجل الذي يهتف في الحرب الحالية عندما قلد رآسة الوزارة : « ليس عندي ما أقدمهُ الاَّ العمل والضنى والدموع والدماء . . . تسألني ما سياسة الحكومة ؟ فأقول شن الحرب . وما غرضها

فأقول : النصر » وهو هو الرجل الذي ينتظر العالم منهُ جهود الجبابرة في سبيل قضيته الكبرى قضية السلام العام

ان حياة هذا الرجل حياة جديرة بالاجلال لانها نضال في سبيل الانسانية وخيرها لا في سبيل المطامع الذاتية والطغيان الغاشم ، وان كتاب الاستاذ فؤاد صروف لجدير بأن يتدبرهُ الشباب ففيهِ دروس لكل شاب ، وان يطلع عليهِ الشيوخ ففيهِ عظات بالغات للقوى المذخورة في هذا الرجل ، وأن تقرأه المرأة ففيه نواح من التربية الخلقية جديرة بالدرس والتلقين فاننا مقبلون على عالم يتطلب الكفاح والنضال واليقظة المستمرة. وليس هناك ما هو أبلغ في التأثير في نفوس الناشئة من سرد حياة العظماء ·

ولعلَّ وقت الأستاذ فؤاد يسمح لهُ باعادة طبع هذا الكتاب بعد أن يضيف اليه ناحية من حياة هذا الرجل الأدبية. مع عرض نماذج من آثاره فيها فما حمل الأثير في هذا الزمن الصاخب أروع من خطبه الممتلئة بضروب الثقافة ، ولا غرو فالأديب الكبير يدمغ كل عمل يعمله ولو كان الحديد والنار بالطابع الذي يدمغ به صحائفه . والأستاذ فؤاد صرُّوف من خير من يتناول حياة عظماء السياسة المعاصرين وهو المطلع على تيارات الفكر ، المراقب لتطورات الحوادث ببصر يقظ وثاب وذهن علمي دقيق

الصيرفي

نفحات تاريخية

الاستاذ عزيز خانكي بك المحامي — المطبعة العصرية بالقاهرة

مؤلف هذا الكتاب ليس جديداً في عالم التأليف والكتابة . ولكنهُ قديم فيهما متمرس بأصولها . عالم بقواعدها وما يجتذب بهِ اليه القارئين اجتذاباً . وله في ذلك وسائل عدة ، وطرائق مختلفة . فهو يسوق الحوادث سوقاً هيناً سهلاً لا عنف فيه ولا تعقيد ولا معاظلة . حتى يضطر القارىء الى متابعته والاتيان على كل ما يكتبه وقد خرج من ذلك لم يكدح فكراً ، ولم يتكلف فهماً

ويمتاز أيضاً هذا الشيخ الذي أدرك كثيراً من الحوادث ، وعاصر كثيراً من السنين بمزية الطرافة في كل ما يكتبه . وهذه الطرافة هي السر في الحاح القراء على كتبه وخاصة التاريخية منها لأنها تسرد الحوادث في رفق ، وتنتقل بالقارىء من روضة الى روضة ومن ثمرة الى ثمرة فيجد في هذا الانتقال لذة كبيرة ومتاعاً عظيماً

ويمتاز الاستاذ أيضاً بكثرة الانتاج وانهماره حتى في هذا الزمن الذي كلَّت فيهِ العقول من كثرة ما أصاب العالم من خراب لا تعلم له غاية ، ولا تدري له نهاية . وهو لا يبالي في سبيل

التأليف بما يصادف المؤلفين من عقابيل المادة . فليرتفع ثمن الورق ! وليبلغ ذلك الارتفاع مدى ما كنا نحلم به من عام وبعض عام ! وليضنّ المؤلفون باخراج كتبهم في هذه المحنة القاسية ! ولكن أستاذنا الجليل لا يبالي بذلك كله ولا يقيم له وزناً ولا يحسب له حساباً . . . . فيخرج كتابه الذي نقدمه اليوم الى القراء في حلة جميلة على ورق صقيل ، ومحلى بالكثير من الصور لمن تعرّض لهم من الرجال او لما تناوله من الحوادث

وفي الكتاب فصول طريفة غاية الطرافة لا نجد لواحد منها فضلاً على واحد . ولا لبعضها ميزة على بعض فكلها شائقة ممتعة تحتوي من المعالم التاريخية ما لا يستغني عنهُ كل مثقف أديب . او ذكي لبيب . نذكر منها فصلاً تاريخيًّا عن خديو مصر وعزيز مصر ، وفصلاً عن بعض كبار الأرمن في مصر وفصلاً عن أناتورك وفصلاً عن مصطفى كامل وفصلاً عن السلطان عبد العزيز في مصر وفصلاً عن تمثال محمد علي وغير ذلك من الفصول التي تهم معرفتها كل باحث ليرجع اليها متى شاء فيجد فيها تاريخاً ممحصاً وقد يكون مؤيداً في بعض الأحوال بمشاهدات المؤلف نفسه أو بسماعه

ومن محامد الأستاذ عزيز خانكي بك أنهُ لا يبغي من وراء تآليفه نفعاً ماديًّا ولا ربحاً ماليًّا ، ولو أراد ذلك لاجتمع لهُ من الربح كثير . ولكنهُ يؤلفها خدمةً للعلم أو حسبةً للتاريخ أو احتساباً للأدب ويوزعها على من يطلبها من القارئين . فاذا كانت المكتبة العربية مدينة لهُ بتسعة وعشرين كتاباً ورسالة أخرجها الى اليوم فاننا لنرجو مخلصين أن يمد الله في عمره ويبارك في حياته المنتجة حتى يخرج من كتبهِ اثني عشر كتاباً لا تزال تحت الطبع

ومن حسنات المؤلف أنهُ يؤمن بأثر التاريخ القومي في تكوين القومية ، وخلق الوطنية ولذلك تراه دائماً يختار سير الرجال البارزين في مصر ، أو يختار أكثر الحوادث الوطنية امتلاء بالعبر وحفولاً بالعظات فيبسطها ويعرضها على القراء لعلها تجد الى نفوسهم مسلكاً ، والى قلوبهم ومشاعرهم مجازاً

وعزيز خانكي منصف في كل ما يرى ، محقق في كل ما يكتب — الا بعض هفوات لا يسلم منها من تعرض للكتابة واستهدف للتأليف . وقد ذكر حضرته في عداد المؤرخين المصريين اسم الاستاذ (عمر الاسكندري) هكذا (احمد عمر الاسكندري) والحق أن احمد وعمر أخوان كان أولهما عالماً لغويًّا جليلاً وأستاذاً في دار العلوم وعضواً في مجمع فؤاد الأول [وقد تشرفت بالتتلمذ عليهِ — رحمهُ الله —] . أما الثاني الأستاذ عمر الاسكندري — مدَّ الله في حياتهِ — فهو مؤرخ محقق كبير

محمد عبد الغني حسن

الالحان

٩٣ صفحة من القطع الوسط، نشرتها دار «المكشوف» في بيروت وطبعت في مطبعة الاتحاد

منذ عامين تقريباً أصدر الشاعر الاستاذ الياس أبو شبكة مجموعة من شعره بعنوان «أفاعي الفردوس» نالت من إعجاب الادباء وتقديرهم ما هي جديرة به، ولاقت من النقاد ناحيتين مختلفتين من وجهتي النظر، ناحية اعجاب بهذا المنحى وتأييد له وناحية نقد في عنف. فلقد طالع القراء في تلك المجموعة اتجاهاً خاصاً في تصوير النزعات الفنية تصويراً دقيقاً في شيء من الصراحة التي ألبسها الفنُّ ثوباً فتّاناً نأى بها عن لوثة الحسّ الممضّة، فكانت لها منطلق الألسنة متورد الوهج

وكأنما اراد الشاعر أن يهدّئ أعصاب قرائه بعد ذاك — وبخاصة في هذه المحنة التي يجتازها العالم — وأن يرينا عالماً آخر من نفسه حالماً هادئ اللحن كالجدول المنساب في فضة القمر السائلة على نسم الليل العابر بين المروج الخضر الحالمة، بعد ان أرانا عالماً صاخباً بالثورة، عاجّاً بالشهوة، تخالط فيه املاكه بشيا طينه، وتتحطم موجات أحلامه على صخور رغباته، وتقدم عرائسه على مذابح شهواته وطغيانه،

أجل: أراد شاعرنا أن يرينا أن وراء هذه الضجة ووراء هذا اللهب المتوهج نغماً عذب الرنين هادئ النفَس حالم الصدى، ونوراً بهيّاً ينبعث في هدوء وسكينة فيشيع في النفس الطمأنينة، ويبعث فيها حنيناً الى أحلامها الضائعة في معترك الحياة وفي صخب المدن لنعود الى الطبيعة الحنون في معالمها الساذجة تلملم من بين حقولها ورياضها أزهار آمالها العطرة، ونجمع من فوق أفنان اشجارها ثمرات ايامها الخوالي، ونشرب من جداولها اكواب صباها العابر، ونبحث عن مرحها فوق جسورها وبين صباحها الناعم ومسائها الهادئ وليلها المترنم بعصفورها وحبها وحنانها — أراد شاعرنا ذلك، فأخرج مجموعته الشعرية الجديدة «الألحان» وهو ديوان الطبيعة في أجمل صورها وفي أهدإ نواحيها فهو يمشي مع الرعاة والحصادين ينشدهم من قيثارته ذوب قلب هادئ حنون يمجد الفلاّح، ويشارك القرويين افراحهم ويغني لأطفالهم في أعيادهم ويسامرهم في أمسياتهم ويستيقظ معهم على نغم الطبيعة السناري. فبعد ان كنا نسمع شاعرنا يصرخ في ديوان «الافاعي»:

أسليلة الفحشاء نارك في دمي فتضرمي ما شئت أن تتضرمي
أنا لست أخشى من جهنم جذوة ما دام جسمي، يا سدوم جهنمي

إذ بنا نسمعهُ في ديوانه الجديد يغمغم في «صلاة المغيب»:

اسمعي الأجراس في قبة دير الراهبات

يحمل الوادي صداها للنفوس الزاهدت
فيهِ أصوات حنان وبقايا زفرات
صعدتها راهبات الد ير قدام الصليبْ
اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيبْ

ونسمعهُ في « ألحان القرية » يهتف في لهفة وتحسر :

أرجع لنا ما كان يا دهر في لبنانْ
كانت لنا أحلامنا والمنى
وكان صفو الزمانْ
كان الضمير الهني من كنزنا المزمن
وراحة الوجدانْ وكان...كان الأمان
والعيش حلو الجنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان .

وقد اضطرته هذه الحياة الهادئة الناعمة الحالمة أن يضرب ريشته في وداعة وهدوء وفي اسلوب رقيق ليستطيع التوفيق بين الصورة الساذجة التي يراها وبين ما يجب أن تؤدَّى بهِ من اللفظ . وهو بين الثورة في ديوانهِ الأول ، وبين الهدوء في ديوانه الثاني وبين اللهب المتوهج هناك ، وبين التوهج الهادىء الرقيق هنا، وبين ما تحتاج اليهِ الحياة الاولى من ألفاظ وأساليب وبين ما تحتاج اليهِ الحياة الثانية ... هو هو الشاعر الذي لا تغيب عن فنه دقيقة من الدقائق ، ويصهر الساذج من الصور فيحولها الى فن رائع . فنسمعه في قصيدته « المعصرة » يقول :

اعصروا العنبْ واملأوا القربْ
شمسنا ندى خمرنا أدبْ
فيك المعصرْ روح النجومْ والقمرْ
وفي الكرومْ مرَّ النسيم فاختمرْ
وفيك ذاب الصباحْ معطر الاقداحْ
ودبَّ فيك اللهبْ
يا عنبْ

هذه هي روح هذا الديوان الجديد ، وهذه هي أنغامه . ومن قصائده : « الحصادون » و « ألحان الشتاء » و « ألحان الربيع » و « ألحان الصيفْ » و « ألحان القرية » و «ألحان

الطيور » و « المعصرة » و « الفلاح » — وقد نشرت في هذا العدد من « المقتطف » — و « نهر الصليب » و « المساء في الجبال » و « عرس في القرية » و « عيد في القرية » و «صلاة المغيب» و «يا بلادي» وجميع هذه القصائد تجري على النمط العذب الذي قدمنا نماذج منه . ومن روائعه في قصيدة « ألحان الربيع » وهي من السهل الممتنع قوله :

نم يا حبيبي نومَ الهنا   نامت عيونُ الزهر
ونام إلاَّ المنى   والقمرْ
حتى الندى نام والنسم   نمْ يا حبيبي نمْ
النهرُ فيَ الوادي   والغصن والشحرور   والبلبلُ الشادي
وكلُّ حيٍّ نامْ   إلاَّ العطورْ
والهيامْ   في فؤادي

وقد ختم الشاعر مجموعته بمقتطفات من طرفته الشعرية « غلواء » التي كنا ننتظر صدورها وهي قصة شعرية في خمسة عهود حالت الأحوال الحاضرة وأزمة الورق دون إخراجها بالحالة التي ترغب فيها « دارالمكشوف » فاختار منها المقتطفات التي نشرها وإنا لنأمل أن تتاح الفرصة لاخراجها قريباً لعشاق أدب هذا الشاعر فهي من عيون الشعر العربي الحديث ، وقد رسم لنا الشاعر صورة « غلواء » في هذا الاطار البديع :

غُلواء ما أحلى اسمها المعطارا !   صبيَّةٌ تغبطها العذارى
لا يستطيع شاعرٌ ان يبدعا   قصيدة أجمل منها مطلعا :
تصوَّرِ الازهارَ في نوَّارِ   تنعشها ارتعاشة الأنوار
تصوَّر النسيم في الصباح   يهزُّ ساق الفلِّ والاقاح
تصوَّر السماء في رؤاها   كأنها الأحلام في صفاها
تصوَّر الأعشاب في الجبال   تحلم في مهدٍ من الظلال
تصوَّر الرابية الجميله   لونها ظلٌّ من الخميله
وكُومَ الثلج على الروابي   تطفو عليها صفرةُ الغيابِ
وانظر أخيراً نظرة سريعه   مختلف الجمال في الطبيعه
تعرف إذاً معرفة علياء   كيف السماء أبدعت غُلواء

هذه هي نفحة من هذه الطرفة الشعرية الرائعة . وتلك نفحات من « الألحان » الجميلة العذبة التي سكبها الشاعر في اذن الزمان لتغير بعض الشيء مما يصك مسامع الزمان من قصف المدافع ودوي الحديد والنار وصراخ المكتوين بين قهقهة الطغاة المغرورين

فهنيئاً لعالم الشعر بأنغامه ، وهنيئاً لأخي الياس بألحانه
الصيرفي

اشواق

١١٦ صفحة — من القطع الصغير — مطبعة مصر

أصدر الشاعر الرقيق الاستاذ محمود ابو الوفا مجموعة جديدة من شعره سماها « أشواق » وهي في رقتها وعذوبة ألفاظها ودقة معانيها تنبع من نفس القلب الذي أخرج « الأنفاس المحترقة » وتبدو على شعره تلك السماحة التي أشار اليها الاستاذ فؤاد صروف عندما قدم الديوان الاول لهذا الشاعر . ومحمود ابو الوفا شاعر غنائي مرح العاطفة وثاب القلب يذمى في حبه كل ما يحيط بهِ من دنيا الناس كما في قصيدته « تعالي نطر . . . » حيث يقول

تعالي نطر في سماء المنى فلا بدَّ للحب من أجنحه
ولا بدَّ للحب من ساعةٍ تكون لنا الساعة المفرحه

***

تعالي نفسر حلم الهوى ونهدي الى الحب تفسيرنا
فان أبصر الناس فردوسنا وأعجبهم : تبعوا شرعنا
بدمعي أنا قد سقيت الغرام بربك ! لا تحرميني الجنى
تعالي ! تعالي بنا نجنها وننتهب الفرصة السانحه

ومن أجمل أبيات هذه القصيدة هتافه لمحبوبته :

ولا تحسبينا ابتدعنا الهوى ولا أننا في الهوى وحدنا
فقد ظلَّل الحب من قبلنا وسوف يظلِّل من بعدنا
لقد مرَّ بالحانِ أهل الهوى جميعاً ، وخلَّوا لنا كأسنا

وقد ضمَّ في هذه المجموعة كثيراً من المقطوعات التي غنيت لهُ في السنوات الأخيرة مثل « عند ما يأتي المساء » و « الينابيع السبعة » و « عاشقة القمر » ومن روائعهِ في هذا الديوان قصيدة « قلب الفنان » ومنها يقول :

من أنتِ ؟ من أنتِ ؟ قولي لا مُحاذرةً فقد وهبتك إسراري وإعلاني
تنكرُ الناس آتٍ من نكائرهم لو يطهرون لما احتاجوا لكتمانِ ؟

وفيها يقول ايضاً :

أمشي وقلبي على كفِّي . أقول : ألا من راغب في فؤاد صادق حاني
بحب حتى كأن الأرض ليس بها الا زنابق من آسٍ وسوسانِ
بل ليس في الأرض من بغضٍ ولا إحنٍ وليس في الأرض من ظلم وطغيانِ

وله من قصيدة « علميني يا حياتي :

ما الذي في ناظريكِ حيّراني
ساكنان ، مفصحانِ واضحانِ
غامضان ، هادئانِ نافرانِ
وهما في كل هذا هما منكسرانِ

وقصائد الديوان قسمان : قسم للغنائيات والتأملات ، وقسم للقوميات وقد طبع هذا الديوان طبعاً أنيقاً

***

تاريخ الوزارات العراقية

تأليف السيد عبد الرزاق الحسني — الجزء الثالث — صفحاته ٢٦١ صفحة قطع المقتطف — طبع بمطبعة العرفان بصيدا

تاريخ سياسي نفيس يبحث في نشوء الدولة العراقية ويتكلم عن الأدوار التي اجتازتها ويثبت نصوص المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها الوزارات المختلفة التي تعاقبت على كراسي الحكم في هذه البلاد منذ نشوء الدولة العراقية حتى الآن وذلك بأسلوب مجرد عن التحزب ومؤيد بالصكوك والوثائق

« وكانت الحكومة البريطانية تصدر تقارير سنوية مسهبة عن سير الادارة في العراق في مفتتح كل عام مضمنة اياها حوادث السنة الماضية كبيرها وصغيرها فكانت هذه التقارير خير مصدر رسمي يعوّل عليه المؤرخ في تتبع شؤون الدولة وحوادثها. اما بعد انتظام العراق في سلك العصبة الأممية في اواخر عام ١٩٣٢ فقد توقفت الحكومة المشار اليها عن هذا النشر فزاد هذا التوقف في مشاق المؤلف

« وكان مجلس الوزراء العراقي يطبع قراراته مطولة في كراريس صغيرة لكل اربعة أشهر كراسة مستقلة وكان بعض الوزراء يمهد لنا سبل الاطلاع على هذه القرارات فنستفيد منها فوائد غير منكورة . أما بعد السنة ١٩٣١ فقد أبطل هذا النهج وأصبحت القرارات مقتضبة لانجدها الا في أضبارات معدودة وهذا ما أدى الى حرماننا أهم مصدر من المصادر المعول عليها

« وقد رأينا بعد هذين الحادثين ان نركن الى رؤساء الوزارات فنلتمسهم موافاتنا ببعض الايضاحات التي تساعدنا على أداء هذه الخدمة التاريخية الكبرى على وجه أتم او نرسل اليهم بعض مواد الكتاب التي تخصهم ليبدوا مطالعاتهم فيها فلم نلق من معظمهم المؤازرة بالصورة التي كنا نبتغيها » — اه من كلام المؤلف في مقدمة الكتاب

باب الأخبار العلمية

أساليب مكافحة الغواصات

للغواصات عدوان لدودان الطائرات والمدمرات . الأولى تتبينها من الجو فتقذفها بالقنابل ولو كانت غائصة والثانية تستكشفها من سطح الماء فاذا تبينتها على سطحه قذفتها بقنابل المدافع واذا تبينتها بالأجهزة الخاصة وهي تحت سطح الماء قذفتها بقنابل الأغوار

قنابل الاغوار

قنابل الاغوار او الأعماق أوعية تحوي مقادير من مواد شديدة التفجر يستطاع ضبطها حتى لا تنفجر الا على عمق معين . وهي في مظهرها الخارجي لاتختلف عن برميل متوسط من الزيت وتُدَحرج عادةً الى الماء على لوح منحدر ، من مدمرة او سفن أخرى . فليست هناك حاجة الى جهاز خاص دقيق لاستعمالها ، فاستعمالها ليس بمقتصر على المدمرات دون غيرها. وقد تقذف الى الماء مسافة اربعين قدماً من جهاز يشبه مدفع الهاون قصير الأنبوبة واسع الفوهة. وعلى السفينة التي تلقي إحدى هذه القنابل في الماء ان تسرع في الابتعاد عن موقع القائها لكي لا تتأثر بصدمة الانفجار تحت الماء

فاذا تبينت مدمرة وجود غواصة تحت الماء في موقع معين ألقت في الماء أربع قنابل من قنابل الأغوار كلاً منها في زاوية مربع تحيط اضلاعه بالموقع الذي فيه الغواصة وتضبط القنابل حتى تنفجر على مسافة تحت سطح البحر حيث تكون الغواصة كما يحسب عمقها بواسطة الأجهزة الدقيقة المصنوعة لذلك خاصة

وفعل قنابل الأغوار ناشيء عن ان الماء يضغط على جوانب الغواصة ضغطاً عظيماً عندما تغوص فاذا أضيف الى ضغط الماء العادي موجة ضغط جديد متولد من انفجار القنابل فعندئذ قد تصاب الغواصة بما يعطلها عن الحركة او يفكك ألواح جدرانها او يدمر بعض أجهزتها الدقيقة ولو لم تصب الغواصة بالقنبلة اصابة مباشرة

أجهزة استكشاف الغواصات

ولاستكشاف الغواصات وتبينها وتعيين مواقعها تحت الماء أجهزة دقيقة مبادئها معروفة ولكن تطبيق تلك المبادىء فيها سر من أسرار الحرب على الغالب . فأمواج الصوت تنتقل في الماء. ولم تصنع غواصة حتى الآن لا تولد صوتاً عندما تسري في الماء . قد لا تحدث محركاتها الكهربية والغواصة تحت الماء، صوتاً يذكر اذا دارت دوراناً بطيئاً ولكن فراش دافعها يحدث صوتاً عندما يدور في الماء . ولذلك صنعت أجهزة دقيقة تتبين الجهة التي يأتي منها هذا الصوت ، وتأثير

الصوت في سماعة الجهاز يكون على أقواه عندما يقع عمودياً عليها ولذلك تستعمل عادةً ثلاثة أجهزة من هذا القبيل في ثلاث مدمرات في مواقع مختلفة لتعيين موقع الغواصة تعييناً دقيقاً تحت سطح الماء وعندئذٍ تضبط قنابل الاغوار حتى تنفجر على ذلك العمق وتلقى حول الموقع الذي تكون الغواصة فيه

وهناك جهاز آخر مبدؤه معروف ولكن تركيبهُ سر يمكن رجال المدمرات من معرفة موقع الغواصة ولو لم يكن فيها شيء يتحرك . ومبدؤه ان جسماً جامداً يعكس أمواج الصوت. ولذلك يولد هذا الجهاز صوتاً بأسلوب كهربي وينشر في الماء في جهات مختلفة فاذا انعكس عن جسم التقطت سماعة الجهاز الامواج المرتدة فيعين موقع الجسم الذي ردها على أساس سرعة الصوت في الماء والمدة التي يستغرقها في الذهاب والاياب

***

هذا قليل عن أفعل الوسائل في مقاومة الغواصات بقنابل الأغوار وفيه تفسير لشدة الحاجة الى المدمرات في حراسة القوافل فهي لسرعتها ولتجهيزها بوسائل تبين الغواصات بالأجهزة التي تقدم ذكرها وبقنابل الأغوار ولقدرتها على معالجة الغواصات متى طفت فوق سطح البحر خير السفن الحربية لهذا العمل

الطائرات والغواصات

ولكن الطائرات تساعدها في عملها هذا ولا سيما عند ما تقترب القوافل من السواحل اي عند ما تصبح على بضع مئات من الأميال منها

وهذه الطائرات تابعة لقيادة السواحل البريطانية . ومهمتها العامة حراسة سواحل بريطانيا ومراقبة قواعد العدو الساحلية وهي تعمل عملها هذا متعاونة تعاوناً تاماً مع الاسطول

بين طائرات قيادة السواحل طراز يعرف باسم « صندرلند » وهي قاذفة ضخمة ذات اربعة محركات وتبلغ زنتها خمسة وعشرين طناً وعدد رجالها عشرة وثمنها ٨٥ الف جنيه . ومن أهم نواحي مهمتها المتقدمة المشاركة في حماية السفن التجارية وليس بالنادر ان تطير احدى هذه الطائرات مسافة ١٨٠٠ ميل في اليوم الواحد انجازاً لما يعهد اليها فيه

تحلق الطائرة فوق المياه التي تسلكها القوافل مرتفعة او قريبة من سطح الماء بينما يتناوب رجالها التحديق في البحر لكشف منظار غواصة او جسم غواصة تحت الماء اذا كان الجو صافياً والماء رائقاً وعندئذٍ يحسب قاذف القنابل في الطائرة حساب البعد والعمق والسرعة ويعد قنبلة وزنها ٢٥٠ رطلاً فيقذفها الى البحر على موقع الغواصة . وفي الاحصاءات الرسمية ان طائرات هذه القيادة لحت في الاربعة الأشهر الأولى من الحرب مائة غواصة وهاجمت ثماني وستين وأغرقت ستاً على الأقل ولم تزعم أنها أغرقت غواصة اذا كان هناك أقل شك في ذلك ولو كان غرقها كبير الاحتمال

الطائرات والغواصات في عرض البحر

ولكن الغواصات تعلم الآن تأثير هذه الطائرات في كشفها ومقاومتها فتجرب ان تفعل

فعلها في مناطق لا تدخل في نطاق حراسة « الصندرلند » وعندئذٍ تقع مهمة مقاومتها على المدمرات وحدها فاذا كانت المدمرات قليلة والجو جهماً والبحر متلاطماً فقد يتعذر على المدمرات النهوض بهذه الحراسة على اوفى وجه ولذلك اقترح احد الخبراء الاميركيين ان يصحب كل قافلة سفينة حربية او غير حربية تصلح قاعدة لبضع طائرات تتناوب رصد الغواصات من الجو فترفع عن المدمرات جانباً من العبء . واقترح آخر ان تحرس الطائرات الاميركية جميع القوافل الذاهبة الى بريطانيا مسافة الف ميل من الشاطىء الاميركي او أكثر وتحرسها الطائرات البريطانية الف ميل قبل وصولها الى الساحل البريطاني فتبقى شقة في الوسط ضيقة بالقياس الى عرض المحيط تشترك في حراستها المدمرات والطائرات المستندة الى سفينة او اكثر في القافلة

التفاح وحفظ الازهار

تعلَّم باعة الأزهار في الولايات المتحدة الأميركية ان حفظ الأزهار المقطوعة كالقرنفل في ثلاجات معتدلة البرد يزيد نضرتها فهي أصلح للبيع ، ولكن حفظها في ثلاجات شديدة البرد يذويها ، ولم يعرف السبب حتى كشفهُ فريقٌ من الباحثين في وزارة الزراعة الأميركية

فقد وجدوا ان التفاح المحفوظ في الثلاجات يطلق مقداراً من غاز الأثيلين ، وهذا الغاز يؤثر في الأزهار كالقرنفل فيذويها ويذهب بنضارتها ، ولما كان التفاح لا يحفظ الاَّ في ثلاجات بردها قريب من درجة الجمد فحفظ الأزهار في هذه الثلاَّجات يفضي الى تأثرها بهذا الغاز . ولكن حفظها في ثلاجات بردها أقلُّ لا يعرضها لهذا الغاز لأن هذه الثلاجات لا تصلح لحفظ التفاح . وكذلك حلَّ باعة الأزهار الاميركيون بالاختبار مشكلة تواجههم قبل ان يعرف الأساس العلمي الذي قام عليهِ هذا الحل

كهربية الفم والاسنان المحشوَّة

كان من المسلَّم بهِ بين أطباء الأسنان أن فم الانسان قد « يكهرب » كهربة غريبةً لا يعلمون لها سبباً وقد تنشأ عنها حالات غير طبيعية في الفم لا يعرف ما علاجها. وفي أحد الأعداد الأخيرة من مجلة جمعية طب الأسنان الاميركية أن فريقاً من الباحثين أثبت ان هذه الكهربة تنشأ عن اختلاف المعدن الذي تحشى بهِ الاسنان فاذا كان في الفك الأعلى ضرس محشو بالملغم ، وهو خليط معدني يكثر فيهِ الزنك وكان في الفك الأسفل ضرس آخر تحت الضرس الأول أو قريب منهُ وكان محشوًّا بالذهب أو الفضة فمن المحتمل أن تذوب مقادير يسيرة جدًّا من الزنك في لعاب حمضي التفاعل ويتصل بالضرس الآخر المحشو ذهباً أو فضة وهذا يولد تياراً ضعيفاً من الكهربية وقد يسبب صدمة اذا تلامس الضرسان او اذا اتفق أن ملعقة او شوكة لمستهما معاً في اثناء الأكل

وقد أجري هذا البحث على طائفة كبيرة

من الكلاب وأكثر من الفي رجل وامرأة فاذا كان أحد الناس ممن يتعرض لهذه الظاهرة ظاهرة « كهربة الفم »

فعلى طبيب اسنانه ان ينزع الحشوات القديمة ويجعل حشو الاسنان جميعاً من معدن واحد أو من الملغم

أضرار التبغ وفوائده

نشرنا في هذا العدد من المقتطف مقالة عن أضرار التبغ وفوائده للدكتور اندراوس شخاشيري كما تراها في مكانها صفحة ٣٧٧ وفاتنا ان نشير فيها الى أنه أعدها ليذيعها بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية من محطة الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية في منتصف الثامنة من مساء السبت ٢٩ مارس الماضي فاقتضى التنويه به واستدراك ما فات

أهم المكتشفات والمخترعات

في سنة ١٩٤٠

* يدل البحث في أحجام النجوم أن رأس الجاثي في صورة هرقل أكبرها حجماً وأن قطره ٦٩٠ الف ميل وأن قلب العقرب وكان يحسب أكبر النجوم يأتي في المنزلة الرابعة

* كشفت خمسة عشر نجماً من « الاقزام البيض » التي حشكت مادتها في نطاق صغير حتى ليبلغ وزن بوصة مكعبة بوصة مكعبة منها عدة أطنان . وأول نجم عرف من هذا القبيل هو النجم المشهور باسم « رفيق الشعري »

* كشفت فأس قتال من الصلب في سوريا ترجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فهي اذا صح هذا النبأ أقدم من أقدم أدوات الصلب التي حقق وجودها في آثار المصريين القدماء

* ظهر من الاحصاء العام الذي تمَّ في الولايات المتحدة الاميركية في سنة ١٩٤٠ أن سكان الولايات المتحدة زادوا ٢ ر ٧ في المائة وان عددهم ٢٧٥ ٦٦٩ ر ١٣١ نسمة وأن مجموع سكان الولايات المتحدة والبلدان التابعة لها والملحقة بها نحو ١٥٠ مليوناً

* اقترب العلماء خطوة اخرى من « الطاقة الذرية » بعزلهم الاورانيوم ٢٣٥ وهو احد نظائر الاورانيوم فاذا اطلقت عليه النوترونات زخم معتدل أحدثت فيه انشطاراً وصحب الانشطار انطلاق مقدار من الطاقة ، ويمضي هذا العمل في ازدياد من تلقاء نفسه في تفاعل مسلسل، بعد اطلاق الجسيمات الأولى على هذا الصنف من الاورانيوم

* صنع لقاح جديد ضد الحصبة وامتحن امتحاناً طبيًّا « سريريًّا » دقيقاً فأسفر عن نجاح . وصنع عقار السلفاتيازول (مشتق من السلفانيلاميد)وهو أفعل من سابقه في كفاح النزلة الصدرية (النومونيا) وقد يصلح علاجاً للطاعون الدملي

* صنع المجهر الكهربي للبيع وقد بدأ العلماء يكشفون به عالماً حافلاً بالعجائب كان محجوباً عن عيونهم وعيون المجاهر التي صنعوها حتى الآن

* تم لبعضهم تلفزة مشاهد من طائرة الى الارض . وتلفزت مشاهد مؤتمر الحزب الجمهوري الذي عقد في فيلادلفيا في الصيف الماضي فنقلت الذبذبات الى نيويورك بسلك تلفوني ثم أذيعت لاسلكيًّا من نيويورك

* أجريت تجارب متعددة أثبتت ان الثيامين او فيتامين B_1 لا يلزم لمنع بعض الأمراض وحسب بل هو لازم للنشاط الجسماني كذلك ، وان نقص الريبوفلافين وهو أحد فيتامينات B يسبب الكيرايتتس (اي التهاب القرنية) ووجوده في الغذاء يشفي هذه الحالة

* قامت أدلة على ان الكبد عامل أساسي في تكوين البروترومبين المادة اللازمة في الدم لتخثيره ومنع النزف وانهُ كذلك عامل أساسي في تكوين فيتامين k الذي يمنع النزف اذا كان الدم يعوزهُ البروترومبين

* أذيع ان أحد مشتقات السلفانيلاميد وهو عقار يدعى سلفانيليلجواندين قد يكون ناجماً في علاج الدوسنطارية الباشلسية وغيرها من حالات المعدة

* صنع عقار يدعى برومين promin وهو أحد مشتقات السلفانيلاميد وهناك ما يشير الى احتمال نجاحه في علاج الدرن المستحدث في خنازير الهند

* قررت الحكومة البريطانية إضافة الثيامين الى الدقيق على اعتبار ان الثيامين عامل غذائيٌّ لا غنى عنهُ في منع بعض الأمراض وباعث من بواعث النشاط الجثماني

قسطاكي بك الحمصي

في اليوم السابع من شهر مارس توفي في مدينة حلب علم من أعلام الأدب والبيان هو الشاعر الناثر واللغوي المحقق المرحوم قسطاكي بك الحمصي فذهب الى بارئه محمود النقيبة ناصع الصحيفة بعد حياة مفعمة بأجل ما تنعم به حياة العاملين من غرر المآثر وآيات المجد وحميد الآثار

ولد الفقيد بحلب سنة ١٨٥٨ في بيت عريق في العز والمجد يرجع بنسبه الى أحد نبلاء الصليبيين الذين استوطنوا في مدينة حمص وأعقبوا فيها ولم يكد الفقيد يشب عن الطوق حتى تسلم ادارة مصرف مالي كبير خلفه لهُ والده ثم نشب يوماً خلاف بينه وبين المصرف العثماني بحلب فأقام الدعوى عليه وذهب الى القسطنطينية ليلاحق هو نفسه الدعوى فاتصل بأبي الهدى الصيادي وكان يومئذ نديم السلطان ومستشاره فأكرم وفادته وقضى لهُ حوائجه وأنعم عليه السلطان بالوسام المجيدي ولقب بك

وكان الفقيد كثير الأسفار فقد زار اوربا ومصر غير مرة وكان في السنوات الأخيرة لا ينقطع عن قضاء فصل الشتاء من كل عام

بالقاهرة وأثر رحلاته ظاهر بيِّن في نثره وشعره

ولما جرى الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٩ كان المسيحي الوحيد الذي دعي الى اجتماع عقده اعضاء جمعية الاتحاد والترقي واشترك معهم في الدعوة للحرية والجهر بها وعلى عهد فخري باشا والي حلب انتخب الفقيد ثانية عضواً في مجلس ادارة الولاية ثم عين ايضاً عضواً في مجلس المعارف برآسة نادر بك أحد مشاهير علماء الترك ثم عين معاوناً لرئيس المجلس البلدي على عهد الوالي حسين كاظم بك ولما هبط جمال باشا على حلب رأى الفقيد أن يكتم فلا يزوره ولكن اصدقاءه نصحوه بزيارته ومدحه مداراة لهُ ففعل

ولما قررت الحكومة التركية التزحزح عن حلب في أواخر الحرب الكبرى الماضية دعا والي حلب يومئذٍ مصطفى عبد الخالق بك نفراً من الاعيان ونصحهم بان ينتخبوا عشرة اشخاص ليقوموا بادارة المصالح وحفظ الأمن فكان قسطاكي بك في عداد هؤلاء العشرة

ولما تألفت الحكومة العربية في دمشق اختارتهُ عضواً في مجلس الشورى ثم استعفى عند ما استقلت حلب عن الشام وكان الفقيد من معارضي هذا الاستقلال وبيت الحمصي في حلب من أشهر البيوتات جاهاً ومنزلةً فقد كان منتدى الكبراء والعظماء من أمثال أنور وجمال ومصطفى كمال وفيصل ولما مرت ملكة رومانيا بحلب نزلت ضيفة على أسرة الحمصي

ولقد عرف الفقيد منذ حداثته بشغفه بالأدب فظل زهاء ستين عاماً ينظم البدائع والغرر ويكتب الفصول الطوال في الأدب واللغة والشعر والاخلاق والفلسفة والتاريخ والانتقاد والسياسة مما نشر في أشهر الصحف والمجلات السورية والمصرية . ولما أنشىء المجمع العلمي بدمشق انتخب الفقيد عضواً فيه ولهُ في مجلة المجمع بحث طريف في الموازنة بين رسالة الغفران للمعري والالعوبة الالهية لدانتي. ومن مؤلفاته المطبوعة: السحر الحلال في شعر الدلال وكتاب منهل الوراد في علم الانتقاد وأدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر ولهُ ديوان شعر كبير لم يطبع ومجموعة رسائل ومحاضرات ومقالات في موضوعات مختلفة لم تطبع كذلك

وكان الفقيد على اتصال وثيق بكبار أدباء العربية وشعرائها ولا سيما بامام اللغة الشيخ ابراهيم اليازجي وكان شديد التعصب لهُ شأن كل من عرف الشيخ أو تلمذ لهُ

ولقد أقيم للفقيد في شبابه حفلة تكريم أهدي اليه فيها تمثال صنع في باريس من خالص الفضة وهو يمثل مينرفا ربة الحكمة وفي احدى يدي التمثال اكليل من الغار وفي الثانية قلم مذهب ونقش على قاعدة التمثال المرمرية بيتان من الشعر من نظم صديقه الشيخ ابرهيم اليازجي

وفي سنة ١٩٣٨ أقيمت لهُ حفلة تكريم لبلوغه الثمانين برآسة الأمير مصطفى الشهابي محافظ حلب يومئذٍ. هذه كلمة مجلى عن ترجمة الفقيد . وسننشر في العدد المقبل بحثاً في نثره وشعره بقلم عادل الغضبان

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثامن والتسعين



مشكاة من الزجاج المملوكي عليها رنك مركب به رسم كأس



علبة من البرونز عليها رنك من رسم عصوي البولو

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن والتسعين

١ مايو سنة ١٩٤١ ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦٠

الفضاء بين النجوم

تقدم علماء الفلك في العصر الحديث، تقدماً عظيماً في قياس ابعاد النجوم، ولكنهم لم يحصروا عنايتهم بقياسها في طريقة « زاوية الاختلاف » بل اعتمدوا على وسائل حديثة طيفية واحصائية ، ثبتت صحة نتائجها باتفاقها والآراء الفلكية المسلَّم بها . فأسفر هذا البحث الشاق عن صورة جديدة للكون النجمي فاذا هو مجموعة من الوف الملايين من النجوم والمجرات منثورة في فضاء رحب شدَّ ما يسترعي انتباهك فيه فراغهُ العظيم . فاذا فرضت وجود اربعة من صغار الاسماك في المحيط الاطلسي رسمت لنفسك صورة تبين رحابة الفضاء الكائن بين النجوم وفراغ هذه الرحاب

ولقد رسخ في روع الباحثين ، من عهد غير قريب ، ان الفضاء الكائن بين النجوم ليس فراغاً تامًّا . فقد شاهد الراصدون ، ان اشعة الضوء التي تمر في رحاب الفضاء تتشتت ، وهذا التشتت لا يمكن ان يتم اذا كان الفضاء فراغاً تامًّا ، ولا بدَّ ان يحتوي الفضاء هنا وهناك على ذرة شاردة او كهيرب تائه . والواقع ان الصور الفوتوغرافية التي صورت لمناطق مختلفة من الفضاء، وخصوصاً مناطق المجرة ، تثبت وجود نواح تملؤها مادة غازية كثيفة تحجب ضوء النجوم التي وراءها فتمنع وصوله الينا بامتصاصه . وبعض هذه اللطخ الغازية ذو معالم وحدود واضحة، وبعضها لا حدود له ولكن كثافتهُ تقل رويداً رويداً الى ان يندمج في ما نحسبهُ عادة الجلد الصافي الاديم

وهذا يشير اشارة لا لبس فيها الى احتمال انتشار مادة لطيفة في رحاب الفضاء بين النجوم بسط اددنغتن اولاً هذا الرأي في خطبته البكرية Bakerian من نحو خمس عشرة سنة واثبت بالادلة الراجحة ان الفضاء بين النجوم ليس فراغاً بل هو « ممتلىء » مادة . وليس المراد بلفظ

« ممتلىء » هنا احتشاد المادة حتى لا يسع الفضاء شيئاً علاوة على ما فيهِ ، وانما يقصد معناها النسبي أي اننا لا نجد ناحية معينة في رحاب الفضاء خالية خلوًّا تامًّا من المادة ولو في ألطف حالاتها

وقد انقضت الآن فترة ، أثبت الراصدون في أثنائها ، بالمشاهدة صحة هذا الرأي ، بل أن حديث التقدم في هذه الناحية من الطبيعيات الفلكية من أفتن الاحاديث العلمية للب . والغريب ان هذا الاكتشاف نشأ — كطائفة كبيرة من المكتشفات — من مشاهدة شذوذ أوانحراف عن القاعدة العامة في اثناء بحث مسألة علمية أخرى

في علم الطبيعة مبدأ يعرف بمبدأ دبلر (Doppler) مؤداهُ أن اقتراب جسم صائتٍ اليك في اثناء احداثه للصوت من شأنه ان يقصّر امواج الصوت ويزيد سرعة توالها فيرتفع الصوت وان ابتعاده من شأنهِ ان يطيلها ، ويخفض سرعة توالها فيضعف الصوت . وعليه فاذا كنت واقفاً وكان قطار صافر متجهاً اليك قصرت امواج الصفير وارتفع صوتها . واذا كان مبتعداً عنك طالت امواج الصفير وخفت صوتها . وكان السر وليم هجنز (Huggins) الفلكي البريطاني ، يبحث في هذا الموضوع من نحو نصف قرن ، نخطر لهُ ان يطبق هذا المبدإ على امواج الضوء ويستعمله في قياس سرعة النجوم . فاذا كان نجم من النجوم مقترباً منا كان طول كل موجة من امواج الضوء الذي يشعهُ اقصر من طول امواج الضوء المماثل على الارض . فاذا حللنا ضوء النجم المقترب بالمطياف حادت الخطوط المظلمة الخاصة بالنجم الى جهة اللون البنفسجي في الطيف . وأما اذا كان النجم مبتعداً عنا فان الحيود يكون الى جهة اللون الاحمر . فمن معرفة جهة الحيود تعرف جهة سير النجم ، اقتراباً منا او ابتعاداً عنا . ومن معرفة مدى الحيود تعرف سرعتهُ . وقد طبقت هذه الطريقة في طائفة كبيرة من اشهر المراصد فقيست بها سرعة الوف من النجوم . واستعملت في قياس سرعة السدم التي خارج المجرة فثبت ان بعضها يبتعد عنا بسرعة عظيمة . وهذا مما حمل العلماء الى القول بأن الكون آخذ في الاتساع كأنهُ فقاعة صابون ينفخ فيها نافخ

وقد استعملت خطوط فرنهوفر حديثاً لمعرفة نسبة العناصر التي في الشمس بعضها الى بعض ، وذلك بدرس عرض الخطوط التي تظهر في الطيف ونسبة عرض الواحد منها الى الآخر . ثم استعملت هذه الخطوط لمعرفة شيء عن حركة الاجرام السموية . فقد ثبت انهُ اذا كان الجرم السموي متجهاً نحونا فان حركة الخطوط في طيفهِ تتجهُ من الاحمر الى البنفسجي . لان عدد الامواج التي تصلنا منهُ في الحالة الأولى آخذة في التزايد والقصر وفي الحالة الثانية آخذة في التناقص والطول فاتجاه حركة هذه الخطوط وسرعتها تمكن العلماء من معرفة اتجاه الاجرام السماوية بالنسبة الى الارض وسرعتها وبالجري على المبدإ ذاتهِ يستطاع الكشف عن النجوم المزدوجة واثبات دوران الارض حول محورها

ومن أول الذين وجهوا عنايتهم الى هذا الموضوع الدكتور هارتمان أحد علماء مرصد بوتسدام الالماني فلم يلبث أن صرح أنهُ في أثناء درسهِ لخطي الكلسيوم في طيوف بعض النجوم وجد ظاهرة غريبة لاتتفق ومقتضيات مبدأ دبلر المذكور . ذلك بأنهُ لاحظ أن خطي الكلسيوم لا يحيدان الى جهة اللون البنفسجي ولا الى جهة اللون الاحمر كما تحيد بقية خطوط الطيف وهذا من المفارقات ! فاذا كان نجم من النجوم يسير سيراً سريعاً نحونا فلا بد أن تحيد الخطوط في طيفهِ نحو اللون البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فلا بد من أن تحيد الى جهة اللون الاحمر. ومن الغريب أن هارتمان وجد أن جميع خطوط الطيف تحيد الى احدى الجهتين ما عدا خطي الكلسيوم وأحياناً خط الصوديوم . وما صرح هارتمان تصريحهُ المتقدم حتى عنى الراصدون بتحقيق مشاهدتهِ فأيدوها . ومن ثمَّ اخذوا يقترحون النظريات لتعليلها

ولايخفى ان الأرض في أثناء سيرها في الفضاء تنقل معها غلافها الغازي وكذلك النجم ينقل معهُ في أثناء سيره غلافاً من الغازات التي تحيط بكتلتهِ الغازية الشديدة الحمو

فاذا انبثقت من داخل النجم أشعة ومرَّت في جوه الغازي الخارجي — البارد اذا قيست حرارتهُ بحرارة قلب النجم — واذا كان في هذا الجو الخارجي ذرات عنصر الكلسيوم ، ظهر خط الكلسيوم في طيف ضوء النجم مع خطوط العناصر الأخرى ، وهو خط مظلم من خطوط فرونهوفر لأنهُ حدث بالامتصاص . ولكن الغريب أن خطوط الطيف الأخرى تحيد الى جهة الاحمر أو جهة البنفسجي بحسب ابتعاد النجم او اقترابهِ ، واما خطَّا الكلسيوم فلا يحيدان ولذلك عُرِفا اولاً هما وما ماثلهما « بالخطوط المستقرة » Stationary . أفلا يجوز ان تكون ذرات الكلسيوم منتشرة في الفضاء بين النجوم وبهذا يعلل استقرار خطي الكلسيوم في طيوف النجوم ؟ وما منشأ هذا الكلسيوم الذي في الفضاء النجمي ؟ هل هو مادة منبعثة من النجوم الجبارة في اثناءِ سيرها في الفضاء ؟ أو هو بقايا سديم كوني نشأت منهُ النجوم بالتجمع الجاذبي ؟

ولما تناول الدكتور ستروف Struve احد علماء مرصد يركيز Yerkes الاميركي هذا البحث أثبت انهُ كلما زاد بعد النجم عن النظام الشمسي زاد ظهور الخطوط «المستقرة» في طيفه . وهذا يعلل بأن الضوء مرَّ في مسافات شاسعة من السحاب الكوني المالىء للفضاء بين النجوم ، فزاد امتصاص هذا السحاب لضوء الكلسيوم فزاد ظهور خطيه في الطيف

ولم يلبث العلماء حتى وجدوا ان هذه الخطوط تحيد الى احد طرفي الطيف ولكن حيودها يسيرٌ جدًّا اذا قيس بحيود الحيوط الأخرى . لذلك عدلوا عن تسميتها بالخطوط المستقرة وقالوا إنها « خطوط ما بين النجوم» او «خطوط الفضاءِ النجمي» interstellar : وجاء الاكتشاف المتوج لهذه المباحث لما ثبت ان هذا الحيود الضئيل في خطي الكلسيوم وما يماثلها يمكن تعليله

تحليلاً دقيقاً بفرض ان المجرّة تدور حول مركزها وهو ما أثبتته المباحث الفلكية الأخرى

ويرى ادنغتن ان بقايا « السديم الكوني » المالئة لرحاب الفضاء النجمي ليست كلسيوماً فقط أو كلسيوماً وصوديوماً . وانما احوال الرصد فقط هي التي مكنتنا من مشاهدة خطوط هذين العنصرين قبل غيرها . وعنده ان هذا السديم الكوني يحتوي على جميع عناصر الأرض

اما كثافة بقايا « السديم الكوني » فيسيرة جداً لا تزيد عن كثافة نفخة مدخن وقد تمددت حتى ملأت فضاء سعته الف ميل مكعب ا على ان رحاب الفضاء تفوق التصور في سعتها . وعليه فهذا الغاز المتناهي في اللطافة الذي يملأها تبلغ كتلته نصف كتلة النجوم

وقد اطلعنا في عدد سبتمبر سنة ١٩٤٠ من مجلة السينتفك اميركان على مقال للدكتور هنري نوريس رسل رئيس قسم الفلك ومدير المرصد بجامعة برنستون ، اشار فيه الى كشف جديد يستوقف الانظار في هذا الموضوع مؤداه أن الأدلّة المستخرجة من البحوث الفلكية الطبيعية الحديثة تحمل على القول بأن في الفضاء بين النجوم جزيئات مركبات كيميائية اي ان الدقائق في هذا الفضاء ليست مقتصرة على الكهيربات والشوارد (الايونات) وحسب ، بل تشمل جزيئات عناصر (اي دقائق مركبة من ذرتين او اكثر من عنصر واحد) وجزيئات مركّبات . غير ان التفسير العلمي الجامع بين الدقة والبساطة للكشف الجديد ليس من السهولة بمكان

من المعروف ان ذرّة عنصر كالتيتانيوم مثلاً يمكن ان تكون في حالات شتى تختلف باختلاف الطاقة الداخلية في الذرّة . والذرّة في كل حالة من هذه الحالات تستطيع ان تمتص مجموعة معيّنة من خطوط الطيف . ولذرات بعض العناصر — كالصوديوم — حالة واحدة تكون فيها الطاقة الداخلية على ادناها ، والفرق بينها وبين الطاقة الداخلية في الحالات الأخرى كبير . ولذلك يتعذّر تحريك هذه الذرّات التي في «الحالة الدنيا» Ground-state تحريكاً يرتفع بمقدار طاقتها الداخلية الى الحالة التي فوقها. ولذلك عندما ننظر في خطوط الصوديوم الطيفية إنما نشاهد خطوط ذرات الصوديوم التي في « حالة الدنيا » . اما ذرّات التيتانيوم فتختلف عما تقدم . لهذه الذرّات « حالة دنيا » عندما تكون طاقتها الداخلية على أدناها . ولكن يلي « الحالة الدنيا » مباشرة حالات متعددة وفي كل منها تبلغ الطاقة الداخلية للذرّة مبلغاً قريباً جداً من طاقتها في « حالتها الدنيا » . ولذلك عند ما ينظر الى صورة التيتانيوم الطيفية نشاهد خطوط مردّها الى ذرات التيتانيوم من حالات ذرّية مختلفة -

ولكن الخطوط الطيفية للتيتانيوم الذي في الفضاء بين النجوم هي خطوط ذرّاته في « حالتها الدنيا » فقط . فكأن الذرات التي طاقتها أعلى قليلاً من طاقتها في «حالتها الدنيا» تطرد طاقتها الزائدة بفعلٍ ما وتهبط الى « الحالة الدنيا » . وكثيراً ما تستطيع الذرة أن تهبط هذا الهبوط

(من مستوى طاقة معين الى مستوى طاقة دونه) في جزء من مليون جزء من الثانية . ولكن التحول الى «الحالة الدنيا» من الحالة السابقة والقريبة منها ، لا يتم الا اذا تركت الذرة مدة طويلة لا يثيرها مثير . والمدة الطويلة في عرف علم الطبيعة ثانية من الزمان ، وعلى الأكثر وفي حالات نادرة، بضع دقائق . ولما كان الغاز الذي يملأ الفضاء بين النجوم لطيفاً غاية في اللطف فقد تمضي أسابيع او اشهر على المعدل بين اصطدام واصطدام . ولذلك تتاح للذرة فرصة للاستقرار

وقد أثبت الباحث أن الخطوط الطيفية التي تمتصها ذرات الايدروجين والهليوم والكربون والنتروجين والاكسجين والنيون والمجنيزيوم والسليكون ، وهي في « حالتها الدنيا » تقع في منطقة ما وراء اللون البنفسجي ولذلك يستحيل علينا مشاهدتها في أجهزتنا من خلال طبقة الاوزون التي تحيط بجو الأرض

وليس بالمحتمل أن يتاح للرصاد مشاهدة «خطوط الفضاء النجمي» الخاصة بعناصر أخرى غير العناصر التي شوهدت خطوطها حتى الآن . والباعث على ذلك أن اشعاع الشمس يميل الى التأثير في الذرات فيقذف منها بعض كهيرباتها فيؤينها ionize أي يحولها أيونات أو شوارد ولقلة عدد الذرات في فضاء عظيم الاتساع كالفضاء بين النجوم ، لايحتمل أن يتاح لشارد أن يلتقط الكهيرب التائه اللازم له ليعود ذرة كاملة . ولذلك نشاهد في المطياف أن خطوط الكلسيوم المتعادل (الكامل البناء) أضعف وأخفى كثيراً من خطوط الكلسيوم المؤين . وقد حسب الباحث دنهام Dunham أن النسبة بين ذرات الكلسيوم المؤينة وذرات الكلسيوم الكاملة البناء كنسبة ٣٥٠٠ الى ١ أي ان هناك ٣٥٠٠ أيون كلسيوم مقابل ذرة كلسيوم واحدة . وفي حالة الحديد الذي يصعب تأيينه تبلغ النسبة بضع مئات أيون الى واحد

وخطوط الايونات مخفية وراء طبقة الاوزون فلا تشاهد في المطياف لذلك كان من الغريب أن يشاهد المعنيون بدراسة الخطوط الطيفية للغاز اللطيف الذي يملأ رحاب الفضاء النجمي، خطوطاً واضحة قوية تعذر اسنادها الى عنصر من العناصر . وقد قيست مواقعها في الطيف قياساً دقيقاً فاذا هي لا تتفق مع خطوط عنصر ما من العناصر المعروفة

واذن فيجب أن يكون في الفضاء بين النجوم شيء آخر غير ذرات العناصر لتمتص من اشعاع النجوم ما يحدث هذه الخطوط في الطيف. فانصرف الذهن طبعاً الى الجزيئات ولكن هذا القول اصطدم فوراً بعقبة كبيرة . ذلك بأن الخطوط الطيفية للجزيئات خطوط معقدة أي ان الخط الواحد منها قوامه خطوط كثيرة متلازة يصعب كثيراً تفريقها حتى بأقوى الأجهزة المستعملة

كانت هذه العقبة عقبة حقيقية . ولكن العلم لا تثنيه العقبات ، فتغلب عليها الدكتور اندرو ماكلار McKellar مدير مرصد الدومنيون في فيكتوريا بكندا وتوصل الى تبين خطوط

واضحة لجزيئات، عدد الذرّات في كل منها ذرّتان . أما اذا زادت الذرّات في الجزيء على ذرّتين فالمشقة في استبانة الخطوط الطيفية الخاصة تزداد

فوجد مثلاً ان خطاً معيناً من « خطوط الفضاء النجمي » يتفق والخط الأساسي الخاص بالمواد الايدروكربونية . وان خطاً آخر يتفق والخط الأساسي الخاص «بالسيانوجين» . وان ثالثاً يتفق والخط المسند « لايدريد الصوديوم »

والاتفاق تام حتى ليصح ان يتخذ دليلا . وقد عني الدكتور أدمز مدير مرصد جبل ولسن بدراسة « خطوط ما بين النجوم » الظاهرة في طيف الضوء الواصل الى الارض من النجم « زيتا الحواء » Zeta Ophiuchi فاستبان ثلاثة خطوط تتفق في موقعها وقوتها مع خطوط معروفة للجزيء (CH ك يد) فكتب يقول « ان الدليل على وجود جزيئات (CH ك يد) في الفضاء بين النجوم دليل قاطع » . والبحث ماض في دراسة خطوط اخرى

وقد يبدو للباحث الكيمياني انه من الغريب استبانة جزيء C H بدلاً من جزيء CH4 (الميثان) وهو جزيء كامل التركيب ، أو جزيء C2 H2 (غاز السيانوجين) وهو جزيء تام التركيب كذلك . ولكن العالم الطبيعي لا يجد ذلك غريباً لأنه يعلم ان خطوط الجزيئات الكاملة التركيب واقعة في المناطق التي تحت الاحمر او فوق البنفسجي ولذلك فهي ليست في متناوله

ولكن هذا لا يمنع ان يكون في الفضاء بين النجوم جزيئات كاملة التركيب وفي الوسع تبين خطوطها والاستدلال على وجودها هناك بهذه الخطوط . ولكنها على الغالب جزيئات عناصر مثل H 2 (يد ٢) او N2 (ن ٢)

ومن نحو سنة من الزمان ذهب دنهام الى ان ذرة من الصوديوم المتعادل توجد في كل عشرين متراً مكعباً من هذا الفضاء وان أيون كلسيوم يوجد في كل سبعة أمتار مكعبة وهذا على المعدل طبعاً

غير ان نسبة وجود ذرات الكلسيوم المتعادلة أقل كثيراً من نسبة وجود ايونات الكلسيوم فلا توجد ذرة كلسيوم متعادلة الا في كل ٢٥٠٠٠ الف متر مكعب من هذا الفضاء ، أو ١٦٠ ذرة في ميل مكعب . بينما ذرات الصوديوم المتعادل تبلغ ٢٠٠٠٠٠ ذرة في ميل مكعب ولذلك نجد خطوط الفضاء النجمي الخاصة بالصوديوم أوضح هذه الخطوط ، وخطوط الكلسيوم المتعادل أضعفها

ونظراً الى أن ضوء النجوم يؤين ذرات غاز الكلسيوم، فوجود ١٦٠ ذرة كلسيوم متعادلة في ميل مكعب من الفضاء يقتضي وجود ملايين من الكهيربات التي نزعت من ذرات مختلفة بفعل ضوء النجوم والمرجّح ان هناك كهيرباً في كل سنتمتر مكعب من الفضاء اي ٤٠ مليون بليون في ميل مكعب واكثرها على الغالب منتزعة من ذرات الايدروجين

مساهمة العلماء

البريطانيين في تقدم العلوم

للدكتور علي مصطفى مشرفة بك
عميد كلية العلوم

يرجع تاريخ الحركة العلمية في الجزر البريطانية الى عصر النهضة في البلاد الأوربية ونحن نتصور عصر النهضة على انهُ الحد الفاصل بين القرون الوسطى و بين التاريخ الحديث، بين العصور المظلمة وبين نور المدنية الحديثة. كما ان لفظ النهضة في لغتنا يدل على الحركة بعد السكون والنشاط بعد الخمول. وفي اللغات الأوربية تستخدم كلمة renaissance التي معناها الحرفي الولادة من جديد والتي هي نوع من البعث او النشور كما استخدمت أيضاً العبارة revival of learning أي احياء العلوم التي تنطوي على معنى العودة الى القديم في معارف السلف ودراساتهم ونشرها مرة أخرى بعد طول الغفلة عنها. جميع هذه المعاني مجتمعة تصلح الى درجة ما في التقريب لتصور معنى النهضة في تاريخ أوربا. ولست أريد ان أخوض في تفاصيل ما حدث في ذلك العصر الهام في عصور التاريخ وما اشتمل عليه من حركات اجتماعية وفكرية وسياسية ودينية فمن المعلوم ان هذه الحركات قد شملت الاصلاح الديني والتحرر من سلطة الكنيسة كما شملت احياء الآداب الكلاسيكية والرجوع بالفنون الجميلة الى عهد الاغريق والرومان وكما شملت أيضاً طائفة من الاحداث السياسية والاجتماعية نبتت فيها فكرة القومية او الوطنية وأدت الى نشوء الدولة ذات السيادة بالمعنى الذي نفهمه اليوم فتلاشى نظام الاقطاعيات وتقلص ظل السلطة الزمنية او الدنيوية للكنيسة وتحولت أوربا الى مجموعة من الدول المستقلة على الصورة المعروفة في العصر الحديث. كل هذه أمور شائعة ومعروفة لا تحتاج مني الى تبيين الاّ ان هناك أمراً أريد ان أشير اليه لارتباطه بموضوع حديثي الليلة ألا وهو ان النهضة وان أمكن للمؤرخين ان يحددوا لها زمناً خاصّاً يشمل النصف الثاني من القرن الخامس عشر والثلث الاول من القرن السادس عشر على وجه التقريب، الاّ أنها ككل تطور في التاريخ لم تنشأ من لا شيء بل قامت على اسباب ومقدمات سبقتها وأدت اليها. فالعصور الوسطى على ظلامها قد احتوت على العناصر التي أدى امتزاجها وتفاعلها الى النهضة. ومن أهم هذه العناصر وأبعدها أثراً قيام

الجامعات وسواء أكان منشأ الجامعات راجعاً الى التقاليد الاغريقية الرومانية في العالم القديم أم الى التأثير المباشر للثقافة العربية فمن الثابت ان هذه الجامعات قد تأثرت تأثراً عظيماً بعلوم العرب ومؤلفاتهم وما ترجموه من الكتب الاغريقية وما نقلوه عن الاغريق من علومهم. ففي النصف الاول من القرن التاسع أرسل قيصر الروم في القسطنطينية الى الخليفة المأمون في بغداد مجموعة كبيرة من المخطوطات الاغريقية فتولى العرب ترجمة هذه الكتب ثم نقلت هذه التراجم العربية الى اللغة اللاتينية واستخدمت في التدريس في الجامعات الأوربية في القرنين العاشر والحادي عشر وما بعدها. وأقدم الجامعات الأوربية جامعة Salerno بايطاليا التي يرجع تاريخها الى القرن التاسع وقد بدأت كمدرسة للطب اعترف بها فريدريك الثاني عام ١٢٣١ على انها المدرسة الوحيدة لدراسة الطب في مملكة نابولي ويلي جامعة Salerno في القدم جامعة بولونيا التي نشأت كمدرسة للحقوق حوالي سنة ١٠٠٠ ميلادية ثم جامعة باريس التي أنشئت بين عامي ١١٥٠ و ١١٧٠ وجعل لها اربع كليات كلية للدين وكلية للحقوق وكلية للطب وكلية للآداب كما جعل لها نظام حُذي حذوه في انشاء الجامعات الأخرى في القرون الوسطى ومنها جامعتا اكسفورد وكمبردج بانكلترا

واللفظ اللاتيني (Universitas) الذي يدل على الجامعة كان في الأصل يستخدم للدلالة على كل جمعية أو هيئة فاذا أريد به الجامعة أضيفت اليه عبارة Magistrorum et Scholarium للدلالة على معنى العلم والتدريس . ثم تطورت الحال حتى صارت الكلمة تدل بذاتها في اواخر القرن الرابع عشر على الجامعة بالمعنى الذي نفهمه اليوم وكانت الجامعات تعرف على انها مدارس عامة (Studium Generale) وكانت مبانيها على نمط يقصد من ورائه حماية الطلبة والاساتذه باجتماعهم معاً في صعيد واحد مع المحافظة على الأغراب منهم الذين كانوا يأتون من بلاد بعيدة لتلقي العلم على النحو المألوف عندنا في الازهر الشريف . وقد استقر أمر الجامعات واستتبت نظمها في القرون الوسطى ومنحها الملوك والباباوات حمايتهم ورعايتهم وأصدروا المراسيم بانشائها وتنظيمها . والجامعتان اللتان يهمنا امرها اكثر من غيرها هذه الليلة هما جامعتا اكسفورد وكمبردج وأقدمهما اكسفورد. ويرجع تاريخ انشاء جامعة اكسفورد الى النصف الثاني من القرن الثاني عشر بعد عام ١١٦٨ بمدة وجيزة ويظهر ان انشاء جامعة اكسفورد انما جاء نتيجة مباشرة لطرد الطلاب والعلماء الانكليز الذين كانوا يدرسون في جامعة باريس حوالي عام ١١٦٧ ولقطع العلاقات بين انكلترا وباريس في عام ١١٦٧ أو ١١٦٨ مما ادى الى انشاء مدرسة عامة أو جامعة في مدينة اكسفورد . أما جامعة كمبردج فقد نشأت بعد جامعة اكسفورد بقليل ولكن في نفس القرن أي في القرن الثاني عشر . ومع ان كلاً من جامعتي

اكسفورد وكمبردج نظمتا عند انشائهما على اساس نظام جامعة باريس الا أن تطورهما في القرون الثلاثة الأولى من انشائهما امتاز بمزايا خاصة أبعدتهما تدريجيًّا في مظهرها الخارجي ونظامهما الداخلي عن الجامعة التي انشئا على نمطها. فانشاء الوحدات التعليمية التي يسميها الانكليز (Colleges) والتي يجب ان لا نخلط بينها وبين ما يسمونه (Faculties) قد أكسب كلاً من اكسفورد وكمبردج شخصية خاصة تمتاز بها على سائر جامعات القرون الوسطى في اوربا. وما يسمونه (Colleges) هي وحدات من البناء ينتمي اليها الأساتذة والطلبة يتناولون فيها طعامهم ويسكنها الكثير منهم. وأقدم هذه الدور ربما كان عام ١٢٤٩ University College Oxford التي انشأها William of Durham و Balliol College التي انشأها John Balliol والد ملك اسكتلاندا المسمى بنفس الاسم عام ١٢٦٣ وأقدم دور كمبردج Peterhouse التي انشأها Hugh Balsham اسقف Ely عام ١٢٨٤ ومن سوء الحظ ان كلاً من كلمة College وكلمة Faculty قد عبر عنها في اصطلاحها الحديث بكلمة واحدة وهي كلمة كلية مع عظم الفارق بين المعنيين. فالكلية بمعنى Faculty هي هيئة معنوية من الاساتذة والطلبة يتخصصون في دراسة فرع معين من فروع المعرفة كالطب أو كالعلوم أو كالحقوق الخ وهؤلاء لا يكونون بالضرورة مجتمعين في صعيد واحد.. أما الكلية بمعنى College فيحسن ان يعدل عنها الى لفظ مثل دار أو قلعة أو رواق لأنها تدل على بناء محدود الارجاء ينتمي اليه مجموعة من الطلبة والاساتذة ليسوا بالضرورة يدرسون فرعاً واحداً من فروع العلم وتجمعهم روابط اجتماعية وثقافية ليس بينها بالضرورة رباط التخصص في علم واحد. هذه الدور او هذه الاروقة في كل من اكسفورد وكمبردج هي أساس الحياة الجامعية بالمعنى الصحيح فكل طالب بل وكل أستاذ فخور بالدار التي ينتمي اليها حريص على تقاليدها مطالب بالمحافظة على نظمها وهو في الغالب يحافظ على هذه النظم بروح الولاء مما سيجيء الكلام عنه فيما بعد

وفي القارة الأوربية انشئت جامعات متعددة في القرون الوسطى عدا سالبرنو وباريس منها، ونبليه عام ١٢٨٩ وتولوز عام ١٢٣٣ وبلد الوليد عام ١٣٤٦ واشبيليه عام ١٢٥٤ وفينا عام ١٣٦٤ وهيدلبرج عام ١٣٨٥ وبودابست عام ١٤٧٥ وفرايبرج عام ١٤٥٥

ومن ذلك يتضح ان انشاء الجامعتين الرئيسيتين في انكلترا حدث في القرون الوسطى وانه كان حلقة في سلسلة من الحوادث المشابهة في سائر انحاء اوربا. فالجامعات اذن ليست وليدة النهضة بل سابقة لها ومؤدية اليها والجامعتان الانكليزيتان على وجه الخصوص ليستا قائمتين على الثورة الفكرية بل على شيء آخر هو أقرب ما يكون الى الرزانة التي يتميز بها رجال الدين والى الثبات والتؤدة اللذين تتصف بهما الكنيسة. وفي الواقع اذا رجعنا الى تاريخ انشاء الجامعات

في القرون الوسطى وجدنا ان القائمين عليها كانوا في الغالب من رجال الدين وكان بعضهم من الرهبان الذين وهبوا أنفسهم للكنيسة وكانت الروح المتغلبة عليهم هي روح التقوى وروح الطاعة وروح النظام وكانت الدراسات الجامعية في ذلك العهد ترتبط اشد ارتباط بالتعاليم الدينية وكانت المسائل العلمية اذا استعملت رجع فيها الى نحو من النصوص التي اتفق على احترامها كالكتاب المقدس او كمؤلف من مؤلفات بطلميوس فكلما ازداد فهم الطلبة والاساتذة لهذه الكتب الرئيسية ازداد فهمهم للدين وللعلوم والفنون . ومن أجل هذا كان منطق التعليم في القرون الوسطى منطقاً قياسيًا استنتاجيًا يرجع فيه الى مقدّمات مسلم بها ثم تؤدي هذه المقدمات الى نتائجها المنطقية

والشيء الذي أريد أن أؤكده والذي سأشير اليه فيما بعد في أمر هذه الجامعات هو أن نشأتها كانت محاطة بجوّ من التقاليد ينطوي على روح المحافظة واحترام القديم كما أن نظامها كانت تنطوي على نفس هذه الروح فيجعل الاساتذة طبقات أو درجات منها الكبير ومنها الصغير وتوجب على ذي الدرجة الصغيرة احترام ذي الدرجة الكبيرة فالحاصل على درجة الدكتوراه يميز على غيره يرتدي أردية خاصة حمراء اللون تشبه أردية الاساقفة ويحضر مجالس خاصة لايحضرها غيره . هذه الارستقراطية العلمية المقرونة بالمحافظة الشديدة هي التي أريد أن أوجه النظر اليها في هذه المرحلة لما لها من ارتباط بما سيأتي ذكره فيما بعد عند الكلام عن العلم والعلماء في انكلترا

ننتقل بعد ذلك من القرون الوسطى الى عصر النهضة فنجد شيئاً آخر غير المحافظة وغير الرجوع الى الكتب وغير الخضوع لسلطة الكنيسة . فقد اتضح لكثير من المفكرين أن الكتب القديمة مهما يكن تقديسنا لها واحترامنا اياها لايمكن أن تحتوي كل ما يمكن الوصول اليه من فروع المعرفة وأن في العالم حقائق لاتحصى لم تدوّن في الكتب ولم تمها خواطر الاقدمين كما اتضح أن العقل البشري يستطيع أن يصل عن طريق الحواس الى معرفة ما يحيط بنا من ظواهر الطبيعة . والعقل البشري يستطيع أن يفعل ذلك بطريقة مباشرة ودون التجاء الى الكتب أو الى رجال الكنيسة او الى رجال الجامعات . وقد كان بعض الفلاسفة في القرون الوسطى في أوربا قد اتجه الى هذا النوع من التفكير فمثلاً نجد Roger Bacon الفيلسوف الانكليزي الذي عاش في القرن الثالث عشر (١٢١٤ — ١٢٩٢) نجد أن هذا الفيلسوف المنتمي الى جامعة اكسفورد يتكلم عن حرية الفكر وعن امكان الالتجاء المباشر الى الطبيعة في طلب المعرفة . وقد اضطهدت الكنيسة Roger Bacon كما اضطهدت كل من حدثتهم انفسهم بالخروج على سلطتها من العلماء والمفكرين في القرون الوسطى . ويرجع الفضل في بحث الطريقة الجديدة في الوصول الى المعرفة وفي تمحيصها ووضعها على أساس ثابت من الناحية الفلسفية

الى الفيلسوف الانكليزي « السر فرنسيس بيكون » (Sir Francis Bacon) الذي عاش من (سنة ١٥٦١ الى سنة ١٦٢٦) ففي كتابات هذا الرجل الذي جمع بين صفات متعددة منها صفة الفيلسوف وصفة السياسي وصفة الاديب نجد في كتابات هذا الرجل مايكاد يكون دستوراً كاملاً للطريقة الجديدة في البحث والتفكير . وقد بحث السر فرنسيس بيكون في كتبهِ ومؤلفاتهِ في هذا المنطق الجديد منطق الوصول الى المعرفة عن طريق المشاهدة المباشرة وبين الطرائق الصحيحة لهذا المنطق ووضع قواعد عامة لهذا النوع من التفكير فخلد بذلك اسمه في تاريخ العلوم وفي تاريخ الفلسفة على السواء . وقد وصف السير فرنسيس بيكون مواهبه الخاصة وطبيعة عقلهِ والاغراض التي يرمي اليها وصفاً دقيقاً سأقرؤه على حضراتكم . قال

I found that I was fitted for nothing so well as for the study of truth; as having a mind nimble and versatile to catch the resemblances of things (which is the chief point) and at the same time steady enough to fix and distinguish their subtler differences; as being gifted by nature with desire to seek, patience to doubt, fondness to meditate, slowness to assert, readiness to consider, carefulness to dispose and set in order; and as being a man that neither affects what is new nor admits what is old, and that hates every kind of imposture. So I thought my nature had a kind of familiarity and relation with truth.

ولا شك في ان هذا الوصف الذي صيغ على صورة نوع من التحليل النفسي يصلح لوصف عقلية العالم المدقق ولتعريف المثل الأعلى لهذه العقلية بصورة لا تكاد تختلف في شيء عما هي عليه اليوم . وفي كتابه Novum Organum او الطريقة الجديدة يقول ما ترجمتهُ « ان المنهاج الذي اقترحه للكشف عن العلوم هو بحيث لا يترك الاّ القليل لحدة الذهن وقوته وهو يضع جميع العقول في مستوى واحد تقريباً فكما انهُ اذا أريد رسم خط مستقيم اودائرة كاملة الاستدارة كانت النتيجة متوقفة على ثبات اليد التي ترسم وعلى مرانتها اذا كانت اليد ترسم وحدها أما اذا استخدمت مسطرة او فرجار فان جميع الأيدي تكاد تتساوى فكذلك في الطريقة التي اقترحها تكاد جميع العقول تتساوى »

***

ولا يتسع المقام للبحث في تعاليم بيكن الفلسفية وطريقته الاستقرائية فان ذلك مفصل في كتب المنطق الحديث ولكنهُ لا بدَّ من الاشارة الى أمرين أولهما ان من الخطاءِ فرض أن المنطق الاستقرائي قد خلقهُ بيكن او خلقتهُ النهضة في أوربا خلقاً فمن المحقق ان ارسطاطاليس

قد بحث في هذا النوع من المنطق ووضع له حدوداً وطرائق كما أنهُ من المحقق ان العرب قد نقلوه عن ارسطاطاليس وأضافوا اليه وان كتبهم قد وصلت تراجمها اللاتينية الى أوربا فمباحث بيكن تعتبر جمعاً وتبويباً لآراء من سبقوه وان كانت لا تخلو من كثير من الاضافات والابتكارات التي تدل على قوة شخصية المؤلف وعلو كعبه . والأمر الثاني هو انهُ لا يجب ان يفرض ان العلماء والمفكرين لم يكونوا يستخدمون الأسلوب الاستقرائي قبل عصر بيكن . فالمعرفة البشرية منذ فجر التاريخ كانت دائماً تستمد من المشاهدة المباشرة للطبيعة عن طريق الاستقراء المنطقي الصحيح .فوصول ارخميدس الى قانونه المشهور عن دفع السوائل ووصول ابن الهيثم الى معرفة قوانين الانعكاس والانكسار للضوء ووصول كوبرنيكوس (١٤٧٣ — ١٥٤٣) قبل ان يولد بيكن الى وصف حركات المجموعة الشمسية كل أولئك أمثلة على تطبيق المنطق الاستقرائي في تاريخ العلوم .والفضل الحقيقي لبيكن انما هو في اقراره الطريقة الاستقرائية في التفكير وفي مناداته بها وفي وضعه لها على أسس فلسفية ثابتة ودعوته الناس الى استخدامها وتطبيقها في وقت كانت فيه أوربا لا تزال متأثرة أشد التأثر بالطريقة القديمة في التفكير وبالرغم من تسلط الكنيسة على كثير من العقول والأرواح . ولا شك في ان للانكليز ان يفخروا بالسر فرنسيس بيكن كمؤلف للمنطق الجديد وكمساهم في تأسيس الحركة العلمية في اوربا

وقد ادت مجهودات بيكن الفكرية الى نشوء فلسفة جديدة في اوربا فنشأت مدرسة جديدة من العلماء والمفكرين اساسها هذه الفلسفة الكونية وكان من الطبيعي ان يتزاور هؤلاء العلماء وان يتراسلوا وان يجتمعوا للبحث والتذاكر في هذه الفلسفة الجديدة او هذه الفلسفة التجريبية كما سميت ولا تزال تسمى . ففي لندن كان بعض هؤلاء الفلاسفة يعقدون اجتماعات اسبوعية منذ سنة ١٦٤٥ يحضرها بعض الأفاضل الراغبين في استطلاع الفلسفة الطبيعية وغيرها من نواحي العلوم البشرية وعلى وجه الخصوص في استطلاع ما سمي الفلسفة الجديدة او الفلسفة التجريبية او على حد التعبير الاصلي

"divers worthy persons inquisitive into natural philosophy and other parts of human learnings, and particularly of what hath been called the New Philosophy or Experimental Philosophy."

وفي اكسفورد كان يختلف بعض الفلاسفة الى مسكن الدكتور Wilkins في Wadham College للمذاكرة والبحث فنشأت جمعيتان احداهما الجمعية الملكية في لندن والاخرى الجمعية الفلسفية في اكسفورد ويرجع تأسيس الجمعية الملكية في لندن بصفة رسمية الى عام ١٦٦٠ ففي ٢٨ نوفمبر من تلك السنة نشرت اول صحيفة لتلك الجمعية . وورد فيها أنهُ قد

استقر الرأي بعد سماع محاضرة المستر رن (Wren) — وهو Sir Christopher Wren فيما بعد — على انشاء هيئة لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية التجريبية وانهُ قد انتخب ٤١ شخصاً لعضوية هذه الهيئة واختير الدكتور Wilkins رئيساً لها وجعل رسم الدخول عشرة شلنات ورسم الاشتراك في الجمعية شلناً واحداً في الاسبوع وبعد مرور بضعة ايام على هذا الاجتماع التأسيسي أبلغ Sir Robert Moray اعضاء الجمعية ان الملك شارل الثاني ملك انجلترا وافق على نظام الاجتماعات وجعلت Gresham Colleg مكاناً لعقد اجتماعات الجمعية ثم صدر مرسوم ملكي بانشاء الجمعية وعين اللورد Brouncker اول رئيس لها بعد صدور المرسوم الملكي بانشائها. فالجمعية الملكية أقدم جمعية علمية بالجزر البريطانية كما انها من أقدم الجمعيات أو الاكاديميات العلمية في اوربا. وكلمة اكاديمية مشتقة من اسم حديقة الزيتون التي كان يختلف اليها افلاطون ولعلَّ أقدم اكاديمية هي اكاديمية الاسكندرية التي أسسها بطلميوس الاول في القرن الثالث قبل الميلاد وكان ملحقاً بها مكتبة الاسكندرية المشهورة وقد تلا انشاء الجمعية الملكية بلندن جمعيات اخرى علمية منها جمعية ملكية في Dublin بارلندا وجمعية ملكية في ادنبره باسكتلندا كما انشئت جمعيات لدراسة فروع خاصة من فروع العلم الحديث او الفلسفة الحديثة لعلَّ أقدمها الجمعية اللينية (Linnean) عام ١٧٨٨ لدراسة علم النبات وهذه الجمعية تشتق اسمها من (Linnaeus) العالم السويدي (١٧٠٧ — ١٧٧٨) الذي وضع التقسيم العلمي للنباتات ثم تلا ذلك انشاء جمعيات لفروع العلم المختلفة كالجمعية الفلكية الملكية والجمعية الكيميائية والجمعية الرياضية وغيرها وتعددت هذه الجمعيات في انحاء الجزر البريطانية وفي انحاء الأمبراطورية البريطانية بأسرها

واذا كان انشاء الجمعية الملكية بلندن قد جاء نتيجة للحركة الفكرية المقترنة بعصر النهضة فان تاريخ هذه الجمعية في الأطوار الأولى من انشائها يمكن اعتباره ممثلاً لتقدم العلوم التجريبية في بريطانيا فكل عالم مبرز من علماء بريطانيا في ذلك العصر كان عضواً في الجمعية الملكية او متصلاً بها . ففي صحيفة الجمعية نجد بتاريخ ٢١ ديسمبر سنة ١٦٧١ ان اللورد اسقف (Sarum) وهو الاسم اللاتيني لـ Salisbury رشّح لعضوية الجمعية المستر ايزاك نيوتن (Isaac Newton) استاذ الرياضيات بجامعة كمبردج وقد انتخب نيوتن عضواً في الجمعية في ١١ يناير سنة ١٦٧٢ وانتخب رئيساً لها سنة ١٧٠٣ وبقي رئيساً لها الى ان مات عام ١٧٢٧ وقد عنيت الجمعية الملكية بطبع كتاب نيوتن المشهور باسم Principia وعنوانه بالكامل Philosophiae Natruralis Principia Mathematica وهو المؤلف الذي وضع فيه نيوتن اسس علوم الميكانيكا والفلك والطبيعة . ولما كانت الجمعية الملكية في عسر مالي في ذلك الوقت فقد اخذ الفلكي الانكليزي صديق نيوتن وعضو الجمعية Edmund Halley على نفسه ان يتحمل جميع

نفقات طبع هذا الكتاب من ماله الخاص . وكان من اعضاء الجمعية المعاصرين لنيوتن السر كرستوفر رن الذي بنى كاتدرائية سانت بول المشهورة بلندن وRobert Hooke العالم الطبيعي الذي ناقش نيوتن مناقشة حادة في آرائهِ وكان لهُ فضل كبير في مساعدة نيوتن على تحديد نظرياتهِ العلمية والبرهنة عليها

وانّنا اذا نظرنا الى تاريخ ذلك العصر أي أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كجزء من تاريخ الحياة الفكرية في انكلترا وجدنا الانكليز في ذلك الوقت وقد تزعموا حقاً الحركة العلمية في أوربا وليس معنى هذا أنهُ لم يكن في القارة الاوربية علماء مبرزون بل بالعكس كان فيهم كثيرون من أمثال Leibnitz في المانيا وهو الذي اشترك مع نيوتن في شرف اختراع حساب التفاضل والتكامل وDescartes و Pascal اللذين اشتركا في تأسيس اكاديمية العلوم في فرنسا ومع ذلك فلم يكن هؤلاء جميعاً ممن أضاف الى العلوم التجريبية (بصرف النظر عن الفلسفة النظرية) بقدر ما أضاف نيوتن ولم تكن هناك مجموعة من العلماء في اي بلد من البلاد الأوربية اكثر انتاجاً من المجموعة الانكليزية بزعامة نيوتن

وقد نتج عن تقدم العلوم التجريبية في أوربا تقدم عظيم في الاختراع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فالعلم ان كان نوراً يزيل الشك ويظهر الحقيقة فهو في الوقت نفسه كما يقول الانكليز قدرة تمكن صاحبها من التغلب على قوى الطبيعة . وقد رأينا فيما تقدم ان دراسة العلوم التجريبية في اوربا انما نشأت عن شغف بالمعرفة وحب للاستطلاع وقامت على أيدي فلاسفة وعلماء همهم الأول الكشف عن حقيقة الكون والوصول الى تفهم اسراره ولم يكن هؤلاء العلماء مدفوعين بالرغبة في التسلط على العالم او التحكم في الطبيعة ومع ذلك فقد أدت كشوفهم وما وصلوا اليهِ من معرفة قوانين الكون — أدى ذلك كلّهُ الى تطبيق هذه العلوم في خدمة البشر . ففي القرن الثامن عشر اخترعت الآلة البخارية على أيدي James Watt (١٧٣٦—١٨١٩) وغيره من المهندسين والمخترعين واستخدمت في الصناعة وفي النقل فبدأ عصر جديد من عصور التطور البشري أساسه العلم والاختراع . وفي القرن الثامن عشر أيضاً قام في أوربا ما يسمى بالثورة الصناعية التي ليست بثورة تدمير يتقاتل فيها الناس وتسفك فيها الدماء وتستخدم فيها الأسلحة المهلكة ، وانما هي ثورة آلات من نوع آخر ، هي الآلات البخارية وسائر العدد والأدوات المستحدثة التي دخلت في الصناعة فحلت محل الأدوات البسيطة الابتدائية التي كانت تستخدم في العصور السابقة . وبذلك ازداد الانتاج فازدادت الثروة وأعيد تنظيم المجتمع على أسس جديدة . ومن المسلم بهِ ان بريطانيا العظمى كانت زعيمة لأوربا في الثورة الصناعية وان كثيراً من الممالك الأوربية قد نقل عنها أساليبها ووسائلها في تقدم الصناعة وقد نقل البريطانيون علومهم واختراعاتهم

الى بقاع كثيرة في الأرض كاستراليا وزيلاندا الجديدة وشمال أميركا فاستوطنوا هذه البلاد وأنشأوا فيها الجمعيات العلمية والمصانع ونظموا حياتهم فيها على نمط الحياة في بريطانيا. وفي عصرنا الحديث نجد ان الجامعات التي نشأت في القرون الوسطى قد تقبلت العلم الحديث فأضافته الى برامجها ونجد ان هذه الجامعات قد تعددت حتى لا تكاد تخلو من جامعة بقعة من بقاع الجزر البريطانية او جزء من أجزاء امبراطوريتها المتسعة الارجاء. فهذه الجامعات التي نشأت كما رأينا تحت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى، تطورت مع الزمن حتى صارت عاملاً من أهم عوامل التقدم العلمي والصناعي. والأكاديميات العلمية التي نشأت لأغراض فلسفية بحتة، تعددت هي أيضاً وتنوعت وصار كل منها يرتبط بالحكومة والصناعة وبالمجتمع بأربطة قوية حية وصار البحث العلمي ينقسم الى قسمين رئيسيين بحث علمي أكاديمي من نوع ابحاث السر أيزاك نيوتن وهذا يرمي الى انماء المعرفة البشرية من حيث هي معرفة خالصة وبحث صناعي او تطبيقي يرمي الى تقدم الصناعات وحل مشاكلها الفنية وتطبق فيه النتائج العلمية على الاختراع وتحسين الآلات وزيادة الانتاج وادرك رجال الصناعة ورجال العمل والمهندسون ان لا سبيل الى تقدم صناعاتهم واعمالهم الا عن طريق تقدم العلم ذاته فقام الأغنياء منهم أمثال السير Alfred Yarrow بمنح الجمعية الملكية أموالهم لتخصص للبحث العلمي المحض. وقد وهب السير الفرد الجمعية ١٠٠٠٠٠ جنيه انكليزي يخصص ريعها لانشاء خمس أستاذيات للبحث لا يطالب من يمنحها بأكثر من الاستمرار في بحثه العلمي. وقامت الحكومة البريطانية منذ عام ١٩٢٠ بمنح الجمعية الملكية مبلغ ٦٠٠٠ جنيه سنويًّا تخصص للبحث العلمي كما أرصدت في ميزانية الدولة اعانات كبيرة لكل من جامعتي اكسفورد وكمبردج ولكثير من الجامعات الحديثة كجامعة لندن دون ان تتطلب الحكومة من هذه الجامعات اي تغيير في نظمها او وسائلها وليس هذا الا قليلاً من كثير مما وقف في بريطانيا وسائر أنحاء البلاد البريطانية على العلم والبحث العلمي فمن مكافآت تخصص للمتفوقين من الطلبة في الجامعات واعانات مالية للباحثين من العلماء ومن مداليات وجوائز سنوية تمنح تقديراً للانتاج العلمي وغير ذلك من وسائل التشجيع والتعضيد

سبقت الاشارة الى دُور جامعتي اكسفورد وكمبردج او أروقتهما (Colleges) وما كان لها من أثر في تطور الحياة العلمية والاجتماعية في هاتين الجامعتين. وان الذي يزور هذه الدور ويلمس الحياة فيها ليشعر بهذا الأثر واضحاً. فالتقاليد الموروثة عن القرون الوسطى وعقلية هذه القرون من احترام للقديم ومحافظة على التقاليد كل هذه تكاد تلمس في دور اكسفورد وكمبردج وتعدد هذه الدور ينشيء مجالاً للتنافس بينها، التنافس في العلم والتنافس في الرياضة البدنية، والتنافس في المحافظة على مستوى عال من السمعة وحسن الشمائل. ثم ان وجود جامعتين متناظرتين متنافستين مثل اكسفورد وكمبردج كان له أبعد الاثر في تقدم الحياة الفكرية والاجتماعية في انكلترا

بل وفي سائر انحاء البلاد البريطانية . وسباق التجديف الذي ينظّم سنويًّا بين جامعتي اكسفورد وكمبردج على نهر التمس انما هو رمز الى التسابق بين الجامعتين في جهودهما المختلفة . وربما ظهر لأول وهلة انني اقحم الخلق في محاضرات علمية وان لا علاقة بين تكوين الخلق في الجامعات البريطانية وبين تقدم العلم الاً ان هذه النظرة السطحية نظرة ولاشك خاطئة . فالعمل في الميدان العلمي كالعمل في اي ميدان آخر يتطلب صفات نفسية وخلقية لانجاح للعامل بغيرها . واني اذكر انني كنت ازور مرصد جرينتش القريب من مدينة لندن بانكلترا وهو المرصد الرئيسي في تلك البلاد وكان مدير المرصد في ذلك الوقت Sir Franck Dyson يصحبني فى هذه الزيارة فأراني المنظار الذي يرقبون بهِ النجوم في مستوى الزوال وأخبرني ان هذا المنظار قديم يرجع صنعه الى نحو مائتي سنة . ثم ذكر لي ان بعض المراصد في اميركا قد جهز بمناظير حديثة الصنع يستطيع الراصد بها بالضغط على زر كهربيٍّ ان يحرك ارض الغرفة الذي يرصد منها او وضع الكرسي الذي يجلس عليه بحيث لا يجهد جسمه ولا عضلاته في عملية الرصد في حين ان الراصد في جرينتش مضطر الى اتخاذ اوضاع جثمانية مجهدة وغير مألوفة كأن يستلقي على ظهره مثلاً ليتمكن من عملية الرصد . وقد ذكر لي السر فرانك هذه الحقيقة بشيء كثير من الفخار والزهو على المراصد الاميركية اذ هو على حد قوله يستطيع في جرينتش بآلته العتيقة ان يصل في الرصد الى نتائج لا تقل دقة واحكاماً عما تصل اليهِ المراصد الاميركية بآلاتها الحديثة . وأظنكم تسلمون معي ان هذا الخلق الذي ينطوي على روح التغلب على الصعاب خليق بأن يكون له اكبر الأثر في نتائج البحوث العلمية

***

لعلّ بعض حضراتكم كان ينتظر مني وأنا اتكلم عن مساهمة العلماء البريطانيين في تقدم العلوم ان أسرد اسماء هؤلاء العلماء او على الأقل البارزين منهم وأن اصف بحوثهم العلمية وما كان لهذه البحوث من أثر في تقدم العلم . ولكن هذه المهمة لا يمكن النهوض بها في ساعة او بعض ساعة من الزمن حتى ولا على سبيل التلخيص . فالعلوم التجريبية متسعة الارجاء منها ما ازعم انني افهمهُ ومنها ما لا أزعم انني افهمه . وتاريخ هذه العلوم منذ القرون الوسطى يمتد اجيالاً عديدة وعلى اية حال فان اسماء البارزين من العلماء الانكليز في العصور المختلفة أمثال دارون وفرداي ولستر تكاد لا تكون مجهولة لأحد

وانما اردت في حديثي هذا ان اشير الى منشإ الحركة العلمية في انكلترا والاطوار الرئيسية في تاريخها وبعض الصفات التي رأيتها مميزة للبريطانيين في مجهوداتهم العلمية . فلعلي أكون قد وفقت في ذلك والسلام

الرنوك المملوكية (١)

لجمال محمد محرز

إذا نظرت الى التحف والآثار التي تركها لنا المماليك — سلاطين وامراء — استرعت انتباهك ظاهرة فريدة في نوعها لا مثيل لها في الآثار الاسلامية الاخرى بمصر، الا الايوبية . وهي رسوم في دائرة أو منطقة ، يحيط بها في بعض الاحيان شريط من النقوش الكتابية قوامه ادعية وتمنيات لصاحب الأثر . فنقرأ مثلاً : اليمن والاقبال، عز لمولانا السلطان، الى غير ذلك من تلك العبارات التي امتاز بها الطراز المملوكي

تلك هي الرنوك . واستعمالها يرجع الى العصور القديمة ، فنجدها عند المصريين والحيثيين والاسرائيليين والأغريق وغيرهم . وفي الكتب الادبية القديمة والدينية اشارات الى الرنوك عند الاغريق و بني اسرائيل ، كما نسمع عن أسد يهوذا ونسور القياصرة (٢). ويرجح ان معناها في العصور القديمة يختلف عن مدلولها في العصور الوسطى ، ولعلها كانت في البداية رموزاً تتصل بالديانات والعقائد (٣)

اما في العصور الوسطى فكانت تستعمل في الغرب شعاراً للاشخاص والأسر بينما كانت في الشرق شعاراً للوظائف ، ولكنها لم تبلغ عند المماليك ما بلغته في الغرب من حيث الاهتمام العظيم بها ووضع القواعد والقوانين لتنظيمها مما ساعد كثيراً على دراسة الرنوك الغربية (٤)

اما في الشرق فليس لدينا لسوء الحظ مصادر كافية لمثل هذه الدراسة ؟ إذ ان ما روته الكتب الأدبية والتاريخية عنها قليل ، ومعظمه غامض ينقصه الدقة والشرح

والحق ان جل الاعتماد في دراسة هذه الرنوك يرجع ما نقش منها على التحف الزجاجية والمعدنية وعلى العمائر خاصة ، وذلك للعناية التي كانت تبذل في دقة اظهار هذه الرنوك إذ انه كلما

---

(١) الرنوك مفردها رنك وهي كلمة فارسية الاصل بمعنى لون استعملت في العصور الوسطى للدلالة على الاشمرة (٢) راجع ص ١ — ١٢ من الفصل الاول من كتاب A Complete Guide to Heraldry by Fox Davies (٣) من الامثلة على ذلك، ان شعار القبائل المصرية القديمة قبل توحيدها كان عبارة عن علم به رسم يرمز لمعبود القبيلة (٤) يرجع الفضل العظيم لتقدم الرنوك الغربية الى المماليك اذ اقتبس الغربيون عنهم . راجع المصدر السابق ص ١٣ وكذلك تراث الاسلام ج ٢ ترجمة الدكتور زكي محمد حسن ص ٥٩ — ٧٠

كانت المادة المراد نقش الرنك عليها من معدن نفيس أو مادة غالية الثمن زادت العناية برقه . ويمكن ملاحظة ذلك من الموازنة بين الرنوك المنقوشة على المواد السالفة الذكر وتلك التي نراها على الخشب والنسيج والخزف

ومهما يكن من الأمر فان المماليك نقشوا رنوكهم على التحف من مختلف المواد : على الحجر والخشب والمعدن والخزف والزجاج والورق والنسيج والعاج والعظم، وكانت الاشعرة في البداية بدون مناطق ، كالأسد[١] شعار بيبرس ، ثم رسمت احياناً بدون المناطق وأحياناً داخلها مثل شعار تنكيز . وأخيراً عمَّ رسمها في مناطق تامة الاستدارة اومدببة كشعار قره سنقر[٢]

ثم تعددت أشكال المناطق فصار منها المربع والمفصص والبيضاوي (أنظر شكل «١»)

ويذهب البعض في تعليل ظهور الرنوك الأولى بدون منطقة الى ان هذه الأشعرة كانت تظهر أصلاً على البيارق والاعلام ، ثم ظهرت داخل تلك المناطق المستديرة متأثرة بشكل الدروع الحربية ، ثم تعددت أشكال المناطق وقيل ان ظهور المناطق المدببة راجع الى اقتباس المماليك الدروع المدببة الشكل عن الصليبيين ولقد بلغ عدد الأشعرة المملوكية المعروفة الى الآن خمسين شعاراً ، عرف مدلول بعضها . ومن أهمها الكأس والمقلمة والقوس والبقجة والخونجة (المنضدة) وعصا البولو وزهرة اللوتس والصولجان

ولم يقتصر الأمر على تلك الاشكال الرمزية بل تعداها الى الطيور والحيوانات . ولكن عددها كان ضئيلاً بعكس مثيلاتها في الرنوك الغربية . وأهم المعروف منها النسر والأسد ، وهما من أحسن الأمثلة وأقدمها . أما غيرها فمشكوك في صحة اتخاذه رنوكاً . كالبط المنسوب الى قلاوون والسمك المنسوب الى ابنه محمد وكالحصان والوعل

ونجد الأسد غالباً كأنهُ زاحف برفع ذنبه ورجله اليمنى . أما النسر فقد رسموه برأس واحد ملتفتٍ الى اليمين او الشمال او برأسين متدابرين وكذلك إما بجناح واحد وإما بجناحين منشورين وتظهر المخالب عادةً كأنها ممسكة بنهاية الجناحين

ولقد دخل على الرنوك شيء من التعقيد بعد ان وصلت الى استخدام المناطق كما رأينا . فلم يكتف برسم شكلٍ واحد داخل المنطقة بل زاد عدد الأشكال في المنطقة حتى يلفت في القرن الخامس عشر الميلادي تسعة أشكال في بعض الأحيان . وكان يتوصل الى ذلك بأن تقسم أرضية المنطقة او الدائرة كما كانت تسمى ، الى ثلاثة أقسام يسمى كل قسم منها شطفة وأكبرها عادة الوسطى . وبها أكثر الاشكال

(١) هناك اختلاف حول حقيقة هذا الحيوان أهو أسد أم فهد أم مجرد حيوان مفترس

(٢) راجع ص ٢٦ — ٢٧ من كتاب Saracenic Heraldry للاستاذ ماير، فقد أشار الى الحالات المختلفة مع ذكر أمثلة لها والاستاذ ماير كبير الاخصائيين في الرنوك الشرقية واستاذ الآثار الاسلامية بفلسطين

وتنقسم الرنوك البسيطة والمركبة الى أقسام فأنواع الرنوك البسيطة هي :

١ — شعار بدون منطقة ٢ — منطقة خالية من الرسوم ٣ — منطقة خالية من الرسوم ولكن بها نقوشاً كتابية ٤ — منطقة داخلها رسم . أما أنواع الرنوك المركبة فهي :

١ — نوع ذو شارة تتكرر مرتين او ثلاثاً ٢ — نوع قوامه عدة شارات مختلفة ٣ — نوع به الشارات المعروفة ومعها رسوم حيوانات ٤ — نوع ذو شعارين مختلفين على اناء واحد ومن المحتمل ان احدهما للامير والآخر لأحد أتباعه

وقد ظهر في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي نوع آخر «خرطوش» قاصر على السلاطين وكان أول ظهوره على الأواني المشكاوات والسلطانيات وما شابه ذلك وهو خالٍ من الرسوم وليس به الا كتابات فقط ونلاحظ أن ألقاب السلاطين لم تأخذ في الظهور على هذه الخراطيش الا في وسط القرن الرابع عشر الميلادي

ويقسم الخرطوش الى ثلاثة أقسام ، الشطفة الوسطى عليها نقوش والعليا والسفلى خاليتان ويحتمل وجود خراطيش غير مقسمة . أما أشكال الخرطوش فنها ما هو دائري ، وعلى شكل الكمثرى ، والمفصص ، ومنها ما هو مربع الشطفة الوسطى وتنتهي العليا بقوس والسفلى مثلثة الشكل

وبالرغم من التعقيد والاختلاف العظيم في أشكال الرنوك فانه يمكن ارجاع اربعة اخماسها الى واحدة من المجموعات الثلاث الآتية : — (شكل « ٢ »)

١ — كأس كبيرة في الشطفة الوسطى وأخرى صغيرة في السفلى

٢ — مقلمة في الوسطى وبقجة في كل من العليا والسفلى

٣ — كأس منقوش على جسمها مقلمة ، وعن يمين الكأس وشمالها بوفان أو نمروالا الفتوة كما كانا يسميان . وفي الشطفة العليا بقجة والسفلى كأس صغيرة

ونلاحظ ان الظاهرة المشتركة في هذه المجموعات الثلاث هي تقسيم المنطقة الى ثلاث شطف اكبرها الوسطى . وكان الدافع الى هذا التنوع الرغبة في سهولة الاستدلال على أصحاب الرنوك اذ ازداد عددهم زيادة عظيمة ، فبلغ رجال الخاصة « الخاصكية » مثلاً في عهد برسباي ١٠٠٠ شخص ، مما أدى الى ضياع الفائدة المرجوة من استخدام الألوان وهي التمييز بين الرنوك ، نظراً الى ان الألوان ودرجاتها محدودة . وكان يتوصل الى التمييز بين الرنوك بتلوين كل رنك بلون خاص أو بدرجة خاصة منه اذا ما شاركه رنك آخر في اللون نفسه وكانت تلون المنطقة أحياناً بدرجتين للون الواحد ، ولذا كثرت الألوان بدرجاتها المختلفة ولا غرابة في ذلك لأن رنك معناها أصلاً اللون

(١) [المقتطف] لاحظنا ان رجال الآثار العربية في مصر يجمعون مشكاة على مشكاوات ورجال اللغة يقولون ان الجمع مشكيات

وأظهر ما تكون الألوان على الزجاج والفسيفساء وطلاء الجدران والأواني الخزفية . أما ألوان الفخار فلا يعتمد عليها ولا يوثق بها لتأثر الألوان بالحرارة مما يجعلها يختلط بعضها ببعض وبذلك لا نستطيع تحديد مناطق الألوان وبعبارة أخرى يفسد التصميم الأصلي للرنك[1] . أما المعادن فيندر تلوين الرنوك المنقوشة عليها وان لونت فهي ذات لون ابيض أو أحمر ، ووجدت حالة واحدة استخدم فيها التطعيم بالذهب واللون الأسود وهي مقلمة ابي الفداء ، ومثل المعادن العمائر ولقد وجدت حالات عُمد فيها الى استخدام الفسيفساء الحجرية للحصول على اللون المطلوب

ويمكن ان نحصي الألوان في الأبيض (فضي على المعادن) والأصفر (ذهبي على المعادن والزجاج) والأحمر والأخضر والأزرق والرمادي والأسود والسمني (وهذا غالباً على الفخار) وجميع هذه الألوان كانت بدرجاتها المختلفة

وهناك ألوان ذاتية بمعنى ان الرنك هو لون المادة ويتوصل الى ذلك في الخزف باستعمال الزجاج الشفاف الذي يغطى به الطمي المصنوع منه الآنية ليعطيها بريقاً ويزيد في قيمتها وليمنع امتصاص الطمي للالوان

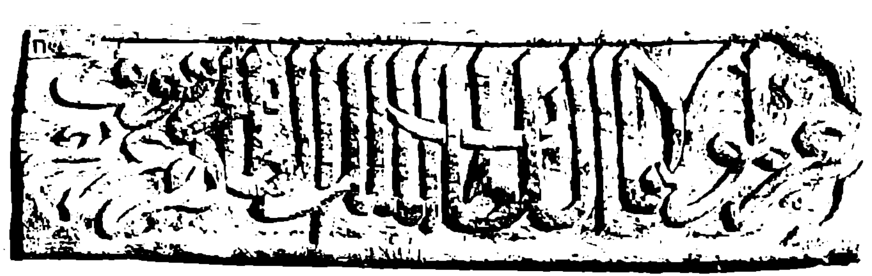
والمعروف أن الأسر في الغرب خاصة تتخذ رنكاً ليميزها من غيرها من الأسر ويكفي أن يرى الانسان رنكاً على أي شيء كمتاع أو بناء ليعلم ان صاحبهُ يمت الى الأسرة صاحبة هذا الرنك . ولذلك نجد الرنوك مختلفة ولا تشترك أسرتان في شعار واحد بعكس ما نراه في الشرق ؟ إذ أن الشعار الواحد يشترك فيه اشخاص كثيرون [2] لا يمتُّ بعضهم الى بعض بصلة أو قرابة إلاَّ صلة الزمالة أو قرابة النشأة . فما السر في هذا الاشتراك ؟

والإِجابة عن هذا السؤال تدعونا الى البحث عن مدلول هذه الرنوك . ونحن نستطيع الجزم مما ورد في النجوم الزاهرة ، وفي تاريخ ابي الفداء ، ومن مقارنة النقوش الكتابية المصاحبة للرنوك بما كتب عن اصحابها في الكتب الأدبية والتاريخية ، أن هذه الرنوك كانت فيما عدا حالات قليلة جدًّا تدل على الوظائف التي كان يشغلها الامراء وقت أن نصبوا امراء . وطبعي ان يكون هناك اشتراك في الرنوك لأن الوظائف حق مشاع بين المماليك الامراء جميعاً

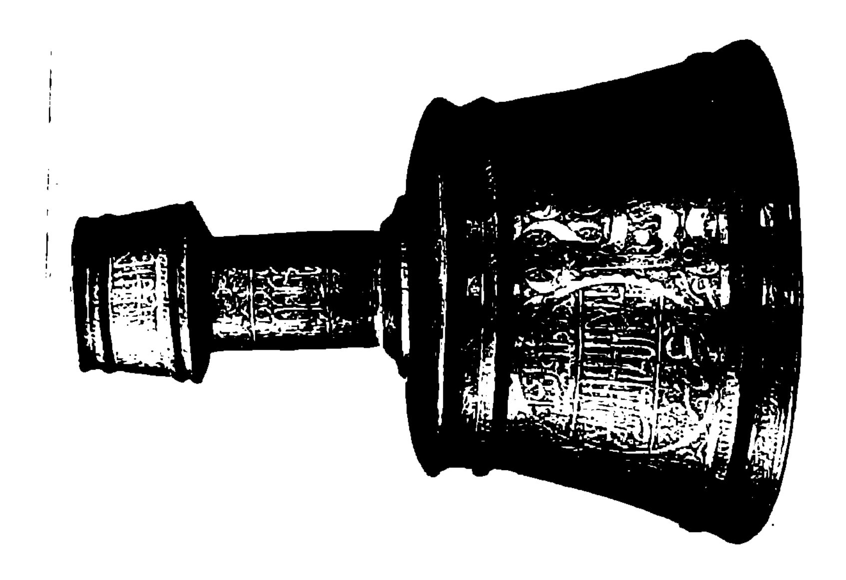
قال ابو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة إن الملك الصالح نجم الدين عند ما عين ايبك اميراً اعطاه خونجة شعاراً له . وقال ابو الفداء في تاريخه ان الامراء اصحاب الوظائف كانت لهم أشعرة خاصة فشعار الدوادار (السكرتير) المقلمة ، والطشت دار (المشرف على المخازن)

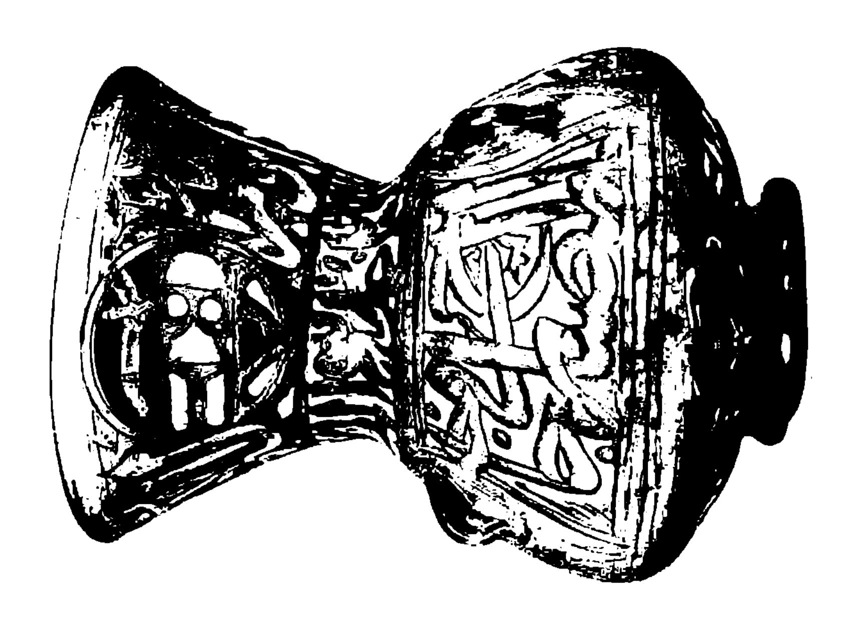
---

(١) ان الزجاج والاواني الخزفية تتعرض كذلك للحرارة ولكن ماسبق ذكره من حيث العناية التي توجه الى هاتين المادتين يفسر لنا وضوح الالوان فيهما (٢) يجب ملاحظة ان الالوان تختلف في الرنوك المتحدة الموضوع وهذا لا يسهل ادراكه الا على الاخصائيين



« خرطوش » مستطيل باسم السلطان المملوكي الظاهر برقوق





الطشت ، والسلاح دار (حامل السلاح) السيف ، والبندقدار السهم ، والامير آخور[1] (امير المعلف أو المتولي الأشراف على الاصطبلات) حدوة فرس ، والجمدار (المتولي امور الملابس) بقجة ، والجاويش[2] قبة مذهبة

وبالقياس نستطيع ان نضيف الى ما ذكره ابو الفداء : الساقي (متولي السقاية والاشراف على الموائد) وشعاره كأس ، والجوكندار عصا البولو ، والجاشنكير (ذائق الطعام) خونجة اي منضدة ، والعلم دار (المتولي امر اعلام السلطان) علم ، والطبل دار الطبلة والعصا ، والبشمقدار (حامل الاحذية) الحذاء ، والجمقدار (حامل الدبوس) الدبوس ، والبريدي دائرة ذات ثلاث شطف. وقد فسر الاستاذ ماير العلامة التي على شكل قرن بأنها تدل على القرن الذي كان يحفظ فيه البارود[3] ، وقد سبق ان ذكرنا انها كانت تسمى سروال الفتوة ، ولكن لم يذكر لنا اسم الوظيفة التي تدل عليها العلامة

واني أرى انهُ ربما كانت هذه العلامة هي شعار تلك الفرقة التي كانت تشرب كأس الفتوة باسم السلطان وتلبس سراويل الفتوة وترمي البندق باسمه. وكانت هذه الفرقة تقوم بألعاب خارج المدينة من أهمها رمي الحمام. وكانت خاضعة للسلطان له ان يدخل فيها من يشاء ويخرج من يريد[4]

على ذلك نقول ان الرنك يدل على الوظيفة وان ذلك الشكل داخل المنطقة علامة او رمز يوضح لنا نوعها وماهيتها ولكن كانت الوظائف المملوكية الخاصة بالامراء على نوعين : وظائف كبرى وصغرى ، يدلنا على ذلك قولهم امير سلاح وأمير آخور ودوادار كبير ، وسلاح دار وأمير آخور صغير ، ودوادار صغير ، فالى اي نوع تشير الرنوك ؟

من المعترف بهِ ان بعض هذه الرنوك يدل على الوظائف الصغرى وهي التي لم يتولها قط أمير عظيم ومثل هذه الجاشنكير والجمدار والجوكندار والعلم دار . اما تلك الوظائف التي يصاحبها لفظ امير او كبير كوظيفة امير سلاح ودوادار كبير فان ذكر تلك الالفاظ أوعدم ذكرها لا يغير من قيمة الوظيفة نفسها لأن هذه الوظائف معدودة من الوظائف السلطانية الكبرى والتي يتولاها الامراء العظام

---

(١) ذكر الاستاذ ماير في كتابه السالف الذكر ان معنى أمير آخور هو قائد Marshal وهذا يخالف الحقيقة . انظر شرح هذا اللفظ في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك الذي يعنى بنشره الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الاول . القسم الثاني . حاشية ٣ صفحة ٤٣٨ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦

(٢) احد أربعة من جنود الحلقة وظيفتهم السير امام السلطان أو النائب في مواكبه للنداء وتنبيه المارة وهم أيضاً من رتبة بسيطة يقومون بالمراسلات الخاصة بمخدومهم . انظر ص ٨٧٠ حاشية ٢ من الجزء الاول القسم الثالث سنة ٩٣٩ من كتاب السلوك السابق الذكر

(٣) انظر مقال الاستاذ ماير في B. I. E. TXXI, 1939 وعنوانه Une énigme du blason Musulman

(٤) انظر الجزء الاول — القسم الاول من كتاب السلوك السالف الذكر ص ١٧٢ — ٧٣ حاشية ٢

واذا ما علمنا أن الامراء لم يكن من عادتهم تناسي مراكزهم البسيطة يوم أن كانوا أجناداً بل كانوا يعتزون بها ويفخرون بتلك الأيام اتضح لنا السبب في عدم ذكر تلك الوظائف الكبرى على الرنوك وذلك لأن هذه الوظائف لا ينالها الأمير إلاّ بالترقية في مراتب الامارة ولأنهُ لم يكن يغير شعاره بترقيهِ في مناصب الامارة كما سنبين ذلك فيما بعد

وبذا تكون تلك الرنوك دالة على الوظائف الكبرى والصغرى على السواء ولو لم تذكر الوظائف الكبرى على الرنوك أو تصاحبها للأسباب السالفة الذكر

ونلاحظ أنهُ كلما كان الرنك بسيطاً سهل الاستدلال على وظيفة صاحبه في البلاط السلطاني وكلما تعقد قلت دلالته وصعب الاهتداء الى مدلوله وقد يكون التعقيد راجعاً الى ان الشخص كان يشغل عدة وظائف في البلاط او الى مجرد الزخرفة

ولقد تطور معنى الرنوك بمضي الزمن ولم يعد يدل على الوظيفة في القرن الخامس عشر الميلادي اذ أصبح شعاراً للفرق الحربية المختلفة لأن كل أمير كان مكلفاً حيازة عددمن المماليك يختلف عددهم بحسب مرتبة الأمير ، وكان هؤلاء المماليك يتخذون شعار أميرهم اوسيدهم شعاراً لفرقتهم . وقد تتفق بعض الفرق في شعار واحد مع اختلاف اللون مثال ذلك الفرقة الظاهرية اتباع برقوق والأشرفية اتباع قايتباي

وهذه الحيوانات ما معنى اتخاذها رنكاً ؟ ذهب البعض الى ان هذه رموز ناطقة Armes Parlantes تعبر عما اتصف بهِ الأمير من صفات وتترجم عن اسمه ان كان للاسم معنى ، ولقد اعتمد في هذا الرأي على ما ذكره ابن اياس عند كلامه على رنك بيبرس اذ قال انهُ يدل على شجاعته . على أننا نلاحظ ان رنكه يدل على اسمه اذ ان المقطع الأخير من الاسم « برس » معناه فهد في اللغة التركية (١)

ولقد اتخذت أمثلة من هذه الرنوك لتأييد هذا الرأي ولكن بالبحث نجد أنها ضعيفة ولا يعتمد عليها (٢) . ولقد ذهب الاستاذ ماير في كتابه ان هذه الحيوانات لا تنطبق عليها هذه التسمية معتمداً في رأيه هذا على النتيجة التي وصل اليها من فحص الأمثلة التي اتخذت أساساً لهذه النظرية وعلى بعض المراجع العربية المعاصرة للمماليك ولكنهُ للاسف لم يذكرها لنا غير أنهُ قال إنها لم تشر الى ان هذه الحيوانات تدل على صفات الأمراء

والشعار الذي يؤيد هذه النظرية هو شعار جمال الدين أجوش حاكم الكرك وهو الذي يدل رنكه (طائر أبيض) على اسمه وكذلك شعار بيبرس . ولكن سواء أكان ذلك مؤيداً لتلك

(١) انظر ص ٧ من مقال الكاتبة كرزويل عن اعمال الظاهر بيبرس البندقداري في مصر والمنشور في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ج ٢٦ القسم الثاني الصادر في سنة ١٩٢٦

(٢) راجع ص ٧ من Saracenic Heraldry للاستاذ ماير

النظرية أم مجرد مصادفة فانها ما زالت في حاجة الى التأييد وخاصة ان بعض هذه الحيوانات مشكوك في اتخاذها رنوكاً كما سبق القول

هل كانت الرنوك عامة ؟ بمعنى ان لكل شخص من خاصة السلطان مملوكاً كان أو أميراً حق حملها أم انها كانت قاصرة على فئة بالذات ؟ نستنتج مما قاله ابو المحاسن وأبو الفداء ان الرنوك كانت قاصرة على الأمراء ، والحق انها كانت كذلك اذ لم يرد اسم شخص غير السلاطين والأمراء على جميع القطع الأثرية التي وجدت والتي عليها رنوك ، واذا كان بعض رجال الدين قد حملوها فان ذلك راجع الى انهم كانوا من رجال السيف علاوة على وظيفتهم المدنية

ونستنبط ايضاً من كلامهما ان الرنوك كانت في أول الأمر منحة من السلطان ثم أصبح الأمر للامراء يختار الواحد منهم الرنك الذي يروقه ، ولم يتبع هذا الاجراء الا بسبب كثرتهم ونستطيع ان نقول بعبارة أخرى ان الرنوك كانت في أواخر الأيوبيين وزمن دولة المماليك الاولى منحة وكانت في زمن دولة المماليك الثانية اختيارية . ولكن لا نعلم أن كانت تمنح للامراء لشخصيتهم ووظائفهم أم لأنهم من طبقة الأمراء . ويظهر أننا لا نستطيع التفرقة بين الحالتين نظراً لأن كل أمير كان له عمل ووظيفة يشغلها . قلنا ان الرنك هو رمز للوظيفة التي كان يشغلها الشخص يوم ان نصب أميراً ، فهل كان يغير رنكه تبعاً لتنقله في الوظائف وخاصة عند ترقيته في مراتب الامارة ؟ اختلف المشتغلون بالآثار بصدد هذا السؤال فمنهم من أيد الرأي القائل بتغيير الرنك مثل ڤان برشم الذي أبدى السبب في اتخاذه هذا الرأي ، ومثل جايه وارتين باشا اللذين لم يبديا سبباً ما يؤيد رأيهما ، ومنهم من نفى هذا القول مثل الاستاذ ماير

ولقد اعتمد ڤان برشم في قوله هذا على شعارين مختلفين لأحد الأمراء وهو أقبغا ابن عبد الواحد والشعار الأول عبارة عن بقجة مرسومة على مشكاة والثاني كأس مرسومة على آنية كروية الشكل . وكان اقبغا هذا جمداراً ثم استاداراً . ولكن قام الاستاذ ماير بفحص هذين الشعارين والتحفتين واتضح له ان الشعار الاصلي (بقجة) موجود تحت الشعار الجديد مما يدل على أن الشعار ظلّ واحداً في كلا الزمنين وان هذا التغيير راجع الى انتقال ملكية الآنية الى شخص آخر استطاع تغيير الرنك ولم يستطع محو الاسم . وكذلك اتضح من مقارنة الخطين أن الخط المكتوب على المشكاة اقل جودة من الذي على الآنية مما يدل على أنها متقدمة في الزمن على الآنية وهي التي عليها الكأس والتي اتضح بعد فحصها ان الشعار الاصلي (بقجة) موجود فيها تحت الكأس . من هذا نقول إن هذا الأمير لم يغير رنكهُ عند انتقاله الى وظيفة اخرى . وثمّ أمثلة اخرى تؤيد الرأي القائل بعدم التغيير ومنها عدم تغيير كثير من الأمراء لأشعرتهم على تحفهم المختلفة

قلنا ان الرنوك رمز للوظائف ونحن نعلم ان النساء لم يكن لهنَّ حق في الوظائف ولم يشغلنها ولكن بالرغم من ذلك وجدت رنوك تصاحبها اسماء سيدات . فما معنى هذا ؟ بفحص هذه الرنوك اتضح من بعضها انها لم تكن خاصة بهؤلاء السيدات بل انها خاصة بآبائهنَّ أو أزواجهنَّ الذين كانوا يشغلون تلك المناصب السلطانية التي تشير اليها الرنوك (١)

من هذا نرى ان النساء كنَّ يستعرنَ أشعرة آبائهنَّ أو أزواجهنَّ وينقشنها على ما يُشيد لهنَّ من عمائر أو يصنع لهنَّ من تحف

بقيت هناك مسألة أخيرة وهي مسألة الوراثة . فهل كانت هذه الرنوك وراثية ؟ أي يتعاقبها الأبناء والاحفاد عن الآباء والأجداد كما يحدث في الغرب . اختلف المشتغلون بالآثار بصدد هذه المسألة ايضاً . فمنهم من قال انها غير وراثية ومنهم من قال انها وراثية معتمداً على توارث ابناء وأحفاد قلاون لشعاره وشعار ابنه محمد وكذلك حمل بركة خان لشعار والده بيبرس

ولكن بالرغم من ذلك فإننا لا نستطيع الجزم بأن الاشعرة كانت متوارثة اطلاقاً وذلك لقلة المعلومات عن ابناء امراء المماليك . غير اننا اذا ما عرفنا النظام الذي سار عليه الأمراء نحو ابنائهم من حيث انهم لم يسمحوا لهم بالانخراط في سلكهم ولم يقبلوا ضمهم الى زمرتهم للاختلاف بين النشأتين ، فالامراء اصلهم ارقاء وابناؤهم غير ارقاء وان المماليك لم يكن عندهم نظام وراثة العرش ، إن كان قد وجد في اسرة قلاون وفي تولية بركة خان بعد والده فانها حالة شاذة ولم تكن القاعدة المتبعة في الدولتين المملوكيتين —

اذا ما عرفنا كل هذا امكننا ان نقول ونحن مطمئنون الى صحة قولنا ان الأشعرة لم تكن متوارثة اللهمَّ الاَّ في الابناء الذين ينشأون نشأة حربية ويقتفون آثار آبائهم أو يفلحون في الاحتفاظ بعروش آبائهم . اما باقي الابناء وهم الأغلبية العظمى فكانوا يوجهون وجهة غير حربية ويعدون للوظائف الدينية والدنيوية وبذلك يحرمون حمل أشعرة آبائهم وتوارثها

على ان الاشعرة عند المماليك لم يقدر لها ان تصل الى المكانة التي وصلت اليها في الغرب بالرغم من الفضل العظيم الذي يرجع الى المماليك في تقدم الرنوك في الغرب . أقول لم تصل لأنها كانت في الغرب وسيلة للتعرف على الشخصيات وقت النزال وطريقة يهتدي بها الاتباع الى السادة وقت القتال لاختفاء معالم الوجه تحت القناع . وللاهتمام الشخصي العظيم الذي وجه اليها في الغرب دون الشرق لأن الابن كان يفخر بأنهُ يقاتل بالأسلحة التي قاتل بها والده ويعتز بأنه يحارب تحت الشعار الذي حارب تحته ومن أجله والده من قبل . ومن ثمَّ كان الاهتمام العظيم الشخصي بالمحافظة على الرنوك وعلى ألاَّ يستعملها اشخاص غير اصحابها مما أدى الى تسجيلها وسن القوانين لحمايتها والى عناية الهيئات والمعاهد بدراستها

(١) راجع صفحة ٤١ — ٤٢ من كتاب الاستاذ ماير السالف الذكر

دقيق مشبع بالفيتامين

انقلاب في عالم التغذية

نحن على عتبة انقلاب في عالم التغذية . فقد اضاف الناس قبلاً اليود الى ملحهم او مائهم لانهُ يقي من نقص اليود في الجسم وهو نقص يفضي الى حالات مرضية منها الجحوظ وصعوبة احتفاظ الحامل بالجنين. وسيطروا سيطرة علمية تامة على مصادر الماء لكي يمنعوا عنه ما يتلوَّث وما يفضي اليه الماء الملوَّث من امراض كالحمى التيفودية وما اشبه . ولكن لا يعلم ان امة كبيرة حاولت من قبل ان تدخل تعديلاً اساسياً على احدى مواد الغذاء الاساسية كالدقيق وما يصنع منهُ من خبز. غير ان بريطانيا عمدت الى مثل التعديل لتواجه به مقتضيات الحرب ، وجارتها ، الولايات المتحدة على اعتبار ان هذا العمل جزء من برنامج الدفاع الاميركي العظيم. والحقيقة ان العمل نفسهُ عمل صحيٌّ قبل ان يكون عملاً حربيًّا وحسبُ وإنما عجلت الحرب الإقدام عليه

واذا تذكرنا ان الجوع بمعناه العلمي الحديث (راجع صدر مقتطف مارس ١٩٤١) هو عوز الجسم الى مواد حيوية كالفيتامينات والمعادن قد لا توجد في مقادير وافية في الطعام، علمنا ان هذا الانقلاب سينقذ من الجوع الحقيقي ملايين من الناس كانوا يأكلون ملء بطونهم . ومن عواقب الجوع بحسب تعريف العلم الحديث له التعب والضعف والهم والقلق والخوف . فجوع الفيتامينات والمعادن يحوّل الناس مرضى لا جياعاً . ومن لا يتوافر في طعامهِ فيتامين C الذي في ثمار الموالح والطماطم والكرنب يصاب بمرض يعرف بالاسكربوط . والشعوب الشرقية التي تعتمد في غذائها على الرز المقشور تصاب بالبريبري . ذلك ان جوعهم بهِ راجع الى عوز الجسم الى مادة حيوية توجد في غلاف حبات الرز الخارجي ودعيت هذه المادة أولاً فيتامين B ودعيت كذلك الفيتامين المقاوم للبريبري . ولكن أطباء الولايات المتحدة قلما يرون مصاباً بالبريبري مع أن ملايين من المصابين الاميركيين جياع الى هذا الفيتامين الاَّ ان اعراض اصابتهم تبدأ أولاً بفقد الشهية للطعام ثم سوء الهضم والامساك ثم الضعف والاعياء وحالات مرضية تصاب بها البشرة واضطراب عصبي وعقلي . ولم يكشف الاطباء عن سر هذه الاعراض وأن مردَّها الى نقص أحد الفيتامينات التي في فيتامين B واسمهُ الكيميائي ثيامين ، الاَّ من عهد قريب

هذا الجوع الى فيتامين B لا يرجع الى تغذي الاميركيين بالرز المقشور لأن الاميركيين لا يكثرون من أكل الرز. ولكنهُ يرجع الى اعتمادهم فيما يعتمدون عليهِ من الغذاء ، على دقيق جرد مما في حبوب الحنطة (القمح) من هذه المادة الحيوية (فيتامين B او الثيامين) . فالحنطة التي يصنع منها الدقيق تحتوي على الثيامين . وتحتوي كذلك على فيتامينات أخرى تنطوي تحت ما يعرف عادة باسم فيتامين B لأن فيتامين B ليس فيتاميناً واحداً بسيطاً بل هو فيتامين مركب . وتحتوي كذلك على بضعة معادن لازمة . ولكن عندما يطحن القمح في المطاحن الحديثة ليصنع منهُ الدقيق الناعم الذي يسهل حفظه مدة طويلة ، يفقد من ٨٠ الى ٩٠ في المائة مما فيهِ من فيتامين ، ويفقد كذلك جانباً كبيراً مما فيهِ من الفيتامينات الاخرى والمعادن على نحو ما يتم في الرز عند قشره

ولما كان الخبز رخيصاً ويملأ حيزاً كبيراً في المعدة — أي ينشيء شعور الشبع — يعتمد عليهِ معظم الناس ولاسيما الفقراء في الجانب الأكبر من طعامهم . فمكتب الاقتصاد البيتي في الحكومة الاميركية يقول أن كل أميركي يستهلك في السنة من الدقيق وسائر الحبوب ما وزنهُ ٢٠٠ رطل وفي رأي ثقة اميركي ان الأمة الاميركية تستهلك ١١ الف مليون رغيف خبز في السنة [1] أي ان الاميركيين يقبلون على الخبز للحصول على ربع وحدات الحرارة التي يحتوي عليها كل طعامهم . ومن الشعوب الأخرى من يأكل من الخبز اكثر مما يأكله الاميركيون . ولما كان خمسة واربعون مليوناً من الاميركيين لا يستطيعون شراء المقادير اللازمة من المواد الغذائية الأخرى ، فاعتمادهم على الخبز اكبر من المعدل

***

وقد انقضت سنون والعلماء يحثون الاميركيين وغيرهم على اكل الخبز المصنوع من دقيق الحنطة بما فيهِ ردتهُ (نخالتهُ) لكي يضمن للآكل ما يذهب سدى في الردة من انواع الفيتامين والمعادن . وعلى الرغم من ذلك لم يزد ما يؤكل من الخبز الكامل زيادة تذكر . فاثنان في المائة لا غير ، من الخبز الذي يباع في الولايات المتحدة خبز كامل

وعلى ذلك فالخمسة والأربعون مليوناً من الأميركيين الذين يعتمدون على الأكثر على الخبز في غذائهم جياع الى فيتامين B وبعض المعادن

وهذا هو السبب الذي حمل الحكومة على وضع مشروع لاضافة هذه الفيتامينات والمعادن الى الدقيق والخبز الذي يصنع منه. فهذا الانقلاب في صناعة الخبز سينقذ عشرات الملايين من جوع الفيتامين وينفحهم بالصحة والقوة الجسدية والعقلية

(١) الرغيف عندهم كبير يفرح في أشكال مختلفة والمرجح ان المقصود هنا الرغيف الذي وزنه رطل

والطريقة التي اتبعتها الحكومة الأميركية في فرض هذا على الأمة الأميركية ستفرغ في قالبها الرسمي في قسم الطعام والعقاقير بوزارة الزراعة الأميركية حيث ينتظر ان يعرّف «الدقيق» تعريفاً رسميّاً جديداً يدخل فيه وجود نسبة معينة من فيتامين مركّب B وعندئذٍ يطلق على الدقيق الجديد اسم خاص يميز به. ولا يمنع الطحانون من صنع الدقيق الأبيض الخالي من الفيتامين ولا الخبازون من صنع الخبز من هذا الدقيق ، ولكن عندما يصدر القانون يجب أن يكون الدقيق المعروف بالاسم الجديد محتوياً على العناصر التي يعينها التعريف الرسمي ، وعندئذٍ يحثُّ جمهور الشعب على شرائه وأكله بجميع وسائل الدعوة والحثّ والاعلان . ومما يؤدي الى نجاح الدعوة ان ثمن الخبز المصنوع من هذا الدقيق سيكون رخيصاً فلا يزيد ثمن الرغيف الكبير منهُ الذي وزنهُ رطل على اكثر من نصف مليم واحد بالقياس الى ثمن الرغيف الكبير المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من الفيتامين ولن يكون في مظهرهِ أو طعمهِ ما يحول دون الاقبال عليهِ ولو لونهُ أقرب قليلاً الى السمرة وفي طعمهِ أثارة من طعم الكعك

***

في شهر دسمبر من سنة ١٩٣٩ جرَّب طبيبان من أطباءِ معهد مايو الأميركي تجربة خطيرة في ست نساءِ سليمات صحيحات اذ جعلا يغذيانهنَّ بغذاء تتوافر فيهِ جميع العناصر اللازمة التي يحتاج اليها الجسم بحسب العلم الحديث ما عدا عنصر « الثيامين » . وطال أمد التجربة ، وبدأت تظهر على النساءِ أعراض الحزن وخور العزيمة وأصبحنَ يشعرنَ بنوبات مفاجئة من الدوار والغثيان، واصيبت ظهورهنَّ بالألم وعضلاتهنَّ بالوجع وشقَّ عليهنَّ النوم وأخيراً بدأنَ يأبينَ أكل الطعام الشهيّ الذي يقدم لهنَّ ، وتعذر عليهنَّ حصر الفكر وتذكر الاسماء والحوادث ثم أصبحنَ يصبنَ بالقيءِ قبل أن يقسرنَ أنفسهنَّ على الأكل ودامت التجربة على هذا المنوال ثمانية وثمانين يوماً . ثم عمد الطبيبان المجرّبان الى حقن كل منهنَّ حقنة تحتوي على مقدار يسير من « الثيامين » فتحسنت حال كل منهنَّ بغير استثناء بعد ساعات ، فوقف القيء وأقبل القوة على الطعام بغير حثٍّ وزال الاعياء والضنى

وفي يوليو من سنة ١٩٤٠ قررت الحكومة البريطانية ، أن تشبع الدقيق الذي يصنع منهُ الخبز لشعبها ، بالثيامين المبلور . فكانت الحكومة الأولى في التاريخ التي اعترفت بضرورة تجهيز شعبها عامة بالفيتامين علاوة على مواد الطعام الأساسية المألوفة . وعمل الحكومة البريطانية هو السند الذي استندت اليهِ الحكومة الأميركية في وضع خطتها التي تقدم ذكرها . وفي مقال للدكتور بول دي كروف الكاتب الطبي الأميركي المشهور ان جماعة الطحانين والخبازين في الولايات المتحدة أقبلت على الموافقة على هذه الخطة بملءِ اختيارها

وكانت المشكلة الكبرى التي تعترض تنفيذ هذه الخطة مشقة تحضير الثيامين بالتركيب الكيميائي وفداحة نفقة تحضيره. فقد حضّر الغرام الأول من الثيامين المبلور من نحو اربع سنوات باسلوب كيميائي معقد فكانت نفقته ١٧٥ جنيهاً. ولكن ما كادت جماعة الطحانين توافق على ذلك حتى نهض أرباب الصناعة الكيميائية بالعبء فاستطاعوا أن يخفضوا النفقة لتحضير غرام واحد من الفيتامين الى أقل قليلاً من ريال أميركي. ومتى بدأوا يتوسعون في صنع الفيتامين لتجهيز جميع الطواحين مايلزم لها منهُ ينتظر أن يخفض الثمن الى أقل من ثمن ريال للغرام الواحد ويقدر ما يستهلكهُ الفرد من الفيتامين بهذه الطريقة بنحو غرام واحد في السنة

وقد يضاف الى الدقيق في أميركا فيتامينان آخران مشتقان من فيتامين ب B وهما الحامض النيكوتينيك والريبوفلافين (راجع مقتطف مارس صفحة ٢٢١ لمعرفة مالهما من منزلة في صحة الجسم)

ومتى تم ذلك أصبح الخبز حقًّا « عكاز الحياة » Staff of Life وليس من المغالاة في شيء أن يقال أن هذه الخطوة هي أكبر عمل صحي تمّ في جيلنا

***

وبعد كتابة ما تقدم تلقينا بالبريد الأميركي رسالة العلم الأسبوعية بتاريخ ٨ فبراير ١٩٤١ فاطلعنا في صدرها على مقال يفيد ان انتاج هذا الدقيق المشبع بالفيتامين والخبز المصنوع منه بدأ فعلاً في الولايات المتحدة الأميركية. وقد اتفق ممثلو مجلس البحث القومي في الطعام والاستمراء والجمعية الأميركية الطبية والطحانين والخبازين على تسمية الدقيق الجديد «الدقيق المعزّز» والخبز الجديد « الخبز المعزز » enriched bread, inriched flour وكلمة enriched تعني تعزيز كفايته على التغذية. ومن هنا الاستعمال العربي الذي نقترحه. وفي حكم المقرر ان الحكومة الأميركية ستوافق على هذا الاستعمال فيصبح رسميًّا ويذاع في طول البلاد وعرضها ويدعى الاميركيون الى الاقبال عليه. والمنتظر أن يكون هذا « الخبز » معزّزاً بالثيامين والحامض النيكوتينيك والحديد، كأنهُ مصنوع من دقيق طحن بالرحى فلم يفقد شيئاً من خواص القمح الأصلية. وينتظر أن يضاف في المستقبل القريب الريبوفلافين. وكل هذا بغير ان يتبدل مظهر الخبز او طعمه. أما الثمن فالمرجح ان لا يزيد ثمن كيس من الدقيق يزن ١٢ رطلاً الا ستة مليمات بالقياس الى الثمن السائر الآن

وختمت المجلة مقالها بقولها :— وهناك ما يبعث على الاعتقاد بأن الأمة التي تتناول هذه الفيتامينات في طعامها أقدر على تحمل متاعب الحرب والتهديد بالحرب من غيرها. وقد حثت اللجنة الحكومية الطحانين على المضي في انتاج هذا الدقيق المعزز حتى يزيد ما تستهلكه الأمة من الفيتامين الذي تحتاج اليه. والطحانون شعارهم «أقصى السرعة، الى الأمام»

فلسفة النشوء الخالق

موازنة بينها وبين فلسفة النشوء التي ألّفها سبنسر

لحنا خبّاز

قال الفيلسوف الاميركي وليم جيمس ، في فلسفة برجسن ، يوم صدور كتابه « النشوء الخالق » Creative Evolution : — انّ هذه الفلسفة لأعجوبة حقيقية في تاريخ الفلسفة . ومادّتها بدء عهدٍ جديد فيه . امّا شكلها فايقاع عذب رخيم او جدول غير جامح ، تتدفّق المياه بين ضفتيه بانتظام ، وبدون عنف :

وقال الكاتب ول دورنت الاميركي في كتابه « تاريخ الفلسفة » : — برجسن هو الفيلسوف الأوحد بفرنسا بعد ديكارت ، وفي اوربا كلها بعد كَنْت

فما هي تلك الفلسفة التي رفعت واضعها الى هذه المنزلة ؟ وما هي صورتها الفكرية التي يمكن تبيانها بجملة واحدة ، او ببضع جمل ؟ ذلك ما اسوق هذه المقالة لتحقيقه

واوّلاً — اسأل : ما هي القضايا التي ابتكرها برجسن ؟

١ — القضايا التي ابتكرها برجسن

ابتكر هنري برجسن أربع قضايا ، وعليها بنى فلسفته . والقضايا هي : —

الاولى : انهُ ، عدا المعرفة العلمية ، والمعرفة العقلية ، توجد معرفة فلسفية . ومعرفة متوسطة بين هذه وبين تينك المعرفتين ، وهي المعرفة البديهيّة

الثانية : يتناول العقل قسماً من اليقينية ، وتتناول البديهة قسماً آخر . فالعقل يتناول المادة والبديهة تتناول الحياة . فيلامس العقل هذا الكون من الخارج . أما البديهة فتلامس الكون من الداخل

الثالثة : ان الرأي القائل « إن اليقينية ساكنة » هو رأي زائف منبوذ فليست اليقينية ساكنة كما زعم ارسطو واضرابه . بل متحركة. وبالأحرى ان اليقينية هي الحركة بالذات

الرابعة : ان الاستمرار يقارن الحرّية التي هي هو . وهذه الحرية شرط لا بدَّ منهُ للابداع

على هذه القضايا ترتكز فلسفة النشوء الخالق [ملخص عن الدن كار]

٢ — برجسون وسبنسر

كان برجسن في أول نشأته ، من عشاق فلسفة سبنسر . ولكنهُ عاشق عاقل ، لا يعميهِ الحب عن عيوب ما يحب . فلم يفت نفسهُ الحرَّة ادراك ما في فلسفة النشوء السبنسرية من عيوب وكانت تلك العيوب تزداد ظهوراً لعينيهِ كلما تقدَّم . حتى تحوَّل خصماً عنيداً لها. وتنوزَّع نقاط الخلاف بينهُ وبينها في أروس ثلاثة . الاول : ما يختص بامر المادة والحياة . الثاني : ما يتعلق بالجسد والعقل . الثالث : ما يلاحظ الحرية والحتمية

ومعنى ذلك ان سبنسر يحسب الحياة ظاهرة مادية ، وبرجسن يرى ان الحياة أصل والمادة عرض او ظاهرة لذلك الأصل . هذه اولى نقط الخلاف بينهما

وثانياً — يرى سبنسر العقل ظاهرة بيولوجية. وبرجسن يراه والمادَّة عنصراً واحداً معكوس اتجاه الحركة كما سيأتي . وبعبارةٍ أخرى ان سبنسر لم يأخذ على عاتقه تبيان نشوء العقل ونشوء المادة بل يأخذ وجودها أمراً مسلماً بهِ. اما برجسون فيبين نشوء العقل ونشوء المادة. ويحسب ذلك من أهم خصائص الفلسفة

ثالثاً — ان نشوء سبنسر ميكانيكي. وحوادث الكون بحسب رأيه حتمية. يطبق ذلك الحكم على العضويات كما يطبقه على غيرها . امَّا برجسن فيرى العضويات ممتازة على الجوامد امتيازاً جوهريًّا . فأعمالها حرَّة طبيعيًّا . وهي خلق مستمر

وأرى من واجبي أن آتي اولاً على وصف فلسفة سبنسر وصفاً مختصراً. فيكون ذلك خطوةً اولى في الكشف عن فلسفة برجسن . ثم أتقدَّم الى الكلام في مؤلَّفات برجسن ، والاشارة الى فحواها . ثم اذكر خلاصة مذهبه الفلسفيّ . واختم بالاشارة الى وجوه التباين بين فلسفة برجسن وبين فلسفة سبنسر التي ينبذها .

٣ — خلاصة فلسفة سبنسر

قضى سبنسر ستًّا وثلاثين سنة في تأليف ما يدعوه « الفلسفة المركَّبة » . بدأ بذلك سنة ١٨٦٠ وانتهى منهُ سنة ١٨٩٦ . فأنجز تأليف احد عشر مجلداً ضخماً . وهي : مجلد واحد في « المبادىء الاولى » واثنان في « مبادىء علم الاحياء » . وثلاثة في « علم النفس » واثنان في « علم الاخلاق » . واثنان في «علم الاجتماع » . ومجلد واحد في «الديانة» . رمى سبنسر بهذه المجلدات الى تجلية ناموس النشوء . اعني انهُ اراد ان يوضح فعل هذا الناموس في المادَّة والحياة والعقل والاجتماع والاخلاق والديانة

وقد وضع تعريفاً لناموس النشوء ، في قولهِ إنهُ : تقدُّم من متجانس غير محدود ، ولا متطابق ، الى تباين محدود متطابق . ويتضح معنى ذلك بما اورد من الأمثلة

ففي عالم المادة : المتجانس غير المحدود هو الهيولى الأصلية ، قبل تشكلها بسائط ومركبات. والتباين المحدود هو العناصر ، ومركباتها . فالعناصر هي البسائط الأصلية المتباينة ، التي نعرف منها نحو اثنين وتسعين ، اولها الايدروجين وآخرها الاورانيوم . فهذه هي تباين محدود . والهيولى قبلها تجانس غير محدود . والتقدم من تلك الى هذه هو النشوء . كذلك ما تركب من تلك البسائط ،هو تقدم من متجانس الى متباين الخ .

هذا أول ميادين النشوء

وفي عالم النفس : التجانس غير المحدود ، ولا المتطابق هو الشعور في أبسط حالاته . كشعور الطفل لدن يرى النور أول مرة . يلي ذلك مؤثرات عديدة كالاصوات والالوان والاشكال والاشخاص والحركات والحوادث . وكل ما يحتك به الطفل من المهد فصاعداً . تنشيء هذه المؤثرات في نفس الطفل ادراكاً حسيًّا فتصوُّراً فتصديقاً فاختباراً . فهذا التقدم في حال النفس من متجانس غير محدود الى متباين محدود هو النشوء

وفي علم الاجتماع : التجانس غير المحدود هو الأفراد البشريون في حال البداوة الأصلية . يوم كان الناس يعيشون في الغابات ، حفاة عراة جهلاء ، أو هم كالبهائم . هذا هو التجانس غير المحدود

بعد ذلك تدرج الأفراد في مراقي الاجتماع . فخاطوا الملابس . وشادوا المساكن . ومارسوا الزواج . وسنوا الشرائع . وألفوا الحكومات . ونظموا الهيئة الاجتماعية . فهذا التقدم من حال البداوة الى حال الاجتماع هو النشوء الاجتماعي

وهكذا في علم الاخلاق ،والديانة . هذه هي صورة مصغرة لفلسفة سبنسر التي أحبها برجسن اولاً ثم عابها فهجرها . وألف فلسفة جديدة دعاها «النشوء الخالق»

٤ — النشوء الخالق

ما هو ؟ أغير ما قال سبنسر ؟ أم ماذا ؟

يقول برجسن في مقدمة كتاب النشوء الخالق ، ان النشوء البشري زائف . لأن سبنسر أطلق ذلك الناموس على العالمين العضوي وغير العضوي . وبرجسن يرى بينهما فرقاً جوهريًّا . فالمادة غير العضوية منفعلة . لا حول ولا طول . أما الحياة فقوة فاعلة . وفي الكائن العضوي ميل ورغبة وجهد . ولجهوده تأثير في ماجرية النشوء . فلا يجوز وضع الكائن العضوي في مصاف الجوامد ، واطلاق الناموس العامل فيها عليه . ويسند برجسن الى الجوامد صفتين تخالف فيهما العضويات

الصفة الأولى للجوامد : ان الجزء منها يمثل الكل دون تمايز . فالجزء من الحديد يمثل كل

الحديد والجزء من الفحم يمثل كل الفحم . وهكذا الشب والملح والذهب والهواء والماء والجلاتين الخ الخ (النشوء الخالق ص ٢٩)

الصفة الثانية للجوامد : ان الصيرورة فيها منظورة مقدماً لأنها ميكانيكية حتمية ، وما جريتها تكرار ، يجري على وتيرة واحدة ، دون تجديد أو إضافة . فالكيميائي مثلاً يعرف ما يحصل من تركيب الأوكسجين والايدروجين في نسبة معلومة . وهو الماء . وكذلك ما يحصل من تركيب مقادير معلومة من الاوكسجين والنتروجين . وهو الهواء . وكذلك من الصوديوم والكلور وهو الملح . وعلى هذا النحو يتمشى التركيب في غير العضويات . فصورها المتولدة عن التركيب منظورة مقدماً . ولا يحدث في تكرار عملياتها ما هو جديد . ويقول برجسن ان هذه المواد هي الآن كما في دقيقة سلفت . فلا تاريخ لها . وان تغيرها انما هو عبارة عن نقل جزء منها من مكانه ثم اعادته الى مكانه . هذا هو التغير الممكن ان يحدث في غير العضويات بسيطة أو مركبة

وليس كذلك العضويات . فأولاً ان الجزء منها لا يمثل الكل . بل هنالك فروقات في التراكيب وفي الوظائف . فرأس الخروف مثلاً لا يمثّل الخروف . وذراع الانسان لا تمثل الانسان كله . ففي العضويات ما ليس في المواد غير العضوية من هذا النحو . فيها مجموعات عديدة منوّعة الوظائف ، كالمجموع العظمي ، والمجموع العضلي ، والمجموع العصبي ، والمجموع الهضميّ والدوراني ، والتمثيلي . وهكذا . وما قيل في نشوء انواع جديدة يقال في نشوء افراد جديدة من حيث التنوع والتباين والاستمرار (ص ٣)

ثانياً : ان صيرورة العضويات لا يمكن نظرها مقدماً . لأنها ارادية حرة . فهي خلق لا تكرار او ان فيها خلقاً . انا نعرف منازل القمر فيمكننا ان ننبىء أين يبيت كل ليلة . كذلك نعرف الابراج الاثنى عشر التي تحل فيها الشمس في مدار السنة . اما الانسان ، وقد نهض ، فمن يدري هل يذهب الى السوق او الى الكنيسة ، او الى النزهة ، او الى القهوة ؟ ومن يعلم هل يعود ومتى يعود ؟ وكيف يعود ؟ لا أحد . لأن سير الشمس والقمر ميكانيكي حتمي ، لا خلق فيه . أما سير الانسان فهو اختياري ارادي . وبلغة برجسن : الانسان خالق افعاله : أي ان أفعال الانسان حرة غير حتمية . فلا يمكن الانباء بها قبل حصولها كما يمكن ذلك في غير العضويات . ثم ان الدقيقة الحاضرة لا تدل عليها دقيقة سلفت كما في غير العضويات . لأن للعضوي تاريخاً . وفي كل لحظة هنالك شيء جديد . (راجع كتاب النشوء الخالق صفحة ٨—١٦) وفي الوسع ايراد أمثلة لا تحصى على ما تقدم . مثلاً : كرة الثلج تتدحرج من ذروة الجبل الى أسفله . وأغصان الأشجار تحركها الريح . وكرات البليارد تندفع بتأثير الضرب فيها . فهذه حركات ميكانيكية حتمية . أمّا اتجاه الرضيع نحو النهد فهو فعل حيويّ . وكذا ذهابه الى المدرسة ، او الى النزهة ، او الى

غير ما ذُكر. وكذلك حب قيس ليلاه. وهوى جميل بثينه. وما يتفرّع على ذلك من الافعال والحركات. هو خلق لا تكرار. فلا يمكن ان ينظر مقدماً. ولا يجري على وتيرة واحدة

٥ — مؤلفات برجسن

لبرجسن اربعة مؤلفات كبيرة. عدا ما ألقى من محاضرات. ونشر من مقالات. وأملى من دروس. في خلال ستين عاماً. واوّل مؤلفاته « الزمان وحرية الارادة ». والثاني «المادة والذاكرة ». والثالث « النشوء الخالق ». والرابع اصل الاخلاق والديانة »

كتاب «الزمان وحرية الارادة» :

هو باكورة مؤلفات برجسن. اتمّ تأليفه سنة ١٨٨١. ومما جاء فيه : — ليست النفس كالمادة ذات ابعاد. ولا هي خاضعة للنظام الهندسي. ولكن لغاتنا البشرية، ومصطلحاتنا العلمية، تسوقنا عن غير قصد، الى وصف النفس بأوصاف المادة. فنجسّمها وليست جسماً. فينتج عن ذلك تطرّق الحتمية الى الافعال البشرية، وتحكّم الميكانيكا والرياضيات فيها. وهو خطأ قادنا اليه وضعنا الكمّ موضع الكيف، والميكانيكا موضع الارادة. فانّ المادة لا يمكن ادراكها الاَّ بقيود فضائية (من حيّز ذي طول وعرض وعمق) فلا نتصوّرها الاَّ ذات أبعاد. وليست النفس وأفعالها كذلك. فعاطفة الحب غير فضائية. أي انها لا تشغل حيزاً. وكذلك الفكر والارادة والاستدلال، هي أفعال نفسية حرة من قيود الميكانيكا الهندسية

هنا يبحث برجسن في الزمان والمكان، وينتقد سبينوزا وليبنتز وكَنْت، لأنهم خلطوا بين الزمان المجرد وبين الزمان الاضافي بداعي اشتراك اللفظ. فقادهم ذلك الى القول بالحتمية. فلكلمة زمان عنده مدلولان. الأول الزمان المجرد، مقياس الحركة، والثاني الزمان الاضافي. فالأول تمكن قسمته الى أجزاء كالسنين والأيام والساعات مثلاً. فهو خاضع لناموس الفضاء. والحوادث منتشرة فيه انتشار الأشياء في الفضاء. ووحداته متتالية كعربات القطار، تأتي الواحدة بعد سابقتها. فلا تبدأ سنة ما لم تمرّ اختها. ولا تبدأ ساعة أو دقيقة حتى تنتهي سابقتها فالزمان المجرد هذا هو ظرف

أما الزمان الاضافي فهو الاستمرار، هو ما نحياه. هو اتصال لا يقبل الانقسام. وحوادثه متداخلة لا متجاورة. فيندمج فيه الماضي في الحاضر. فحياة النفس لا زمانية بمعنى الزمان المجرد. ولكنها زمانية بمعنى الزمان الاضافي. ولها وحدة كالحركة لا تقبل الانقسام. فان الحركة لا تنقسم بصرف النظر عن الخط، او الميدان الذي تحدث الحركة فيه فانه منقسم. فالعلم يتناول ميدان الحركة لا الحركة ذاتها. وهو عبارة عن التكرار في زمان وفي مكان. لذلك يمكن نظر صيرورته مقدماً. فيتعين الخسوف والكسوف قبل حدوثهما. وذلك فعل منطقي (به يتعين اللاحق

بتعيين السابق) فالرياضي يستنتج المثلث من اضلاعه وزواياه . والحاسب يستخرج المجهول بواسطة المعلوم . والمنطقي يرى النتائج بالمقدمات

والاستمرار فعل بسيط (غير مركب) لا اجزاء له ، ولا وحدات فيه . فهو كيف لا كم . اضافي لا تجريدي . والنتيجة انا لا نقدر ان نخبر بصيرورته مقدماً . إذ لا نعلم ما سيكون من امر الفعل ، لان هنالك احتمالات شتى . ومتى وجد الاحتمال بطل الاستدلال . فالارادة الانسانية خالقة افعالها . ومع ان افعال الانسان مطبقة على نواميس الميكانيكا والمنطق فهي حرة لا تعينها الميكانيكا والمنطق . هذا بعض ما في الكتاب الاول

كتاب المادة والذاكرة :

اصدر برجسن هذا الكتاب سنة ١٨٩٦ . وهو أعقد مؤلفاته ، يفيض فيه في الكلام في الدماغ والادراك الحسي والذاكرة والعقل والاستبطان والزمان والمكان والمادة . وجاء في ختامه:

١ : كل حركة بين سكونين هي غير قابلة الانقسام

٢ : توجد حركات نسبية رياضيًّا ويقينية طبيعيًّا (كحركة الفكر ؟)

٣ تقسيم المادة اجزاء منفصلة بعضها عن بعض ، هو تقسيم رياضي

٤ الحركة عبارة عن تغير الحال لا تغير الشيء

لنا عالمان ضدان ، لا يأتلفان بغير معجزة ، هما الحركة في الفضاء ، والادراك الحسي . هذا الشعور غير الزمان المجرد بقياس الحركة . وتوجد ثغر بين الموضوعات المادية ، قد تضيق حتى لايكاد يشعر بها. بقياس نمو ادراكنا ينفصل عملنا عن المستقبل. فقانون المادة البقاء في الحاضر أي ليس لها ماضٍ ولا مستقبل

يفصل المذهب المثنوي العقل عن المادة (هو مذهب ديكارت القائل ان في العالم جوهرين غير الله ، هما المادة والعقل) فيجب الجمع بينهما زمانيًّا لا مكانيًّا . وفي قرن الذاكرة بالعقل تضييق الثغرة الكائنة بين العقل والجسد : ينتج مما تقدم

١ : ان جسدنا آلة العمل لا غير

٢ : ليس الادراك الحسي والذاكرة شيئاً واحداً

٣ : يعطينا الادراك الحسي الأشياء في ذاتها

٤ : الفعلان الحقيقي والجوهري هما تحول الشعور والذاكرة

٥ : الذاكرة روحية ، أو روح . وليست اعلان مادة

٦ : ليست الذاكرة من وظائف الدماغ

٧ : التقريب بينها وبين الادراك هو تقريب العقل من الجسد [تتمة البحث في الجزء التالي]

العبقرية والتربية (١)

لعلي أدهم

كلما ارتفع الحيوان في سلم الترقي كان عند ميلاده اشد حاجة الى الرعاية والتعهد وطول الحضانة ، وأحط الحيوانات وأدناها وهي « الأميبة » عند ما يصبح لها وجود مستقل تنفصل عن غيرها بطريق الانقسام تكون مزودة بكافة الخصائص اللازمة لحياتها ومقومات كيانها ، وكلما ارتقى الحيوان ومهما شأنه طال الأمد على احرازه الاستقلال بعد ظفره بالوجود الفردي ، فالحيوانات ذوات الثدي تحتاج الى رعاية وطول تعهد قبل ان تستطيع الاعتماد على نفسها والاكتفاء بذاتها ، والانسان يتقدم بخطوات ابطأ وتستغرق حضانته زمناً أطول « وهو يحتاج في تنشئته الى عناية اكثر من العناية اللازمة لتنشئة سائر الحيوانات التي تعيش على سطح الكرة الأرضية . وفي حدود الانسان نفسه فان نسبة مدة التربيـة تتفاوت بتفاوت نصيب الامة من الرقي والحضارة فالهمجي سرعان ما تكمل تربيته ويتيسر استقلاله والمعروف ان المرأة أسرع نضجاً من الرجل

وسرعة التقدم لا تدل بحال على التفوق العقلي التالي ، فالطفل الذي أسرع نموه وتكامل تكوينه في السابعة من عمره لا يستلزم ذلك أن نسبة نموه ستسير سيراً مطرداً وليس من المستبعد ان يحدث نقيض ذلك فيتعطل نموه ويمتنع تقدمه ، وقد ينشأ قصير القامة ضئيل الجرم ، والطفل الذي يبدو باكر الذكاء وافر العقل قد لا يكون مبشراً بان عقله سيتابع تقدمه حتى يستتم نموه ويبلغ منتهى أمده ، وبعض الاطفال المتخلفين عندما تتقدم بهم السن يكشفون عن ملكات باهرة وقوى عقلية ممتازة فالعلامة النباتي الذائع الصيت لينيوس Linnaeus كان في صباه يهمل دراساته المدرسية الى حد ان والديه يئسا من تقويمه واصلاحه وصمما على انشائه اسكافاً ولكن أحد الأطباء لحظ مواهبه الغافية واوصاهما بارساله الى المدرسة ، ولم يكن نيوتن تلميذاً نجيباً وكان في مؤخرة فرقته

---

(١) رجعت عند كتابة هذا المقال الى ما كتبه في هذا الموضوع الدكتور ولهم هرش الالماني والمفكر الانكليزي نسبت (Nisbet) والفيلسوف برتراند رسل وغيرهم من الباحثين

وأهم من تفوق الطفل الباكر — وهو امر يعلق عليه بعض الآباء والامهات شأناً أكبر مما يجب — توخي التناسق والملاءمة والأتزان في تكوين العوامل النفسية المختلفة والجوانب العقلية المتباينة ، والانحطاط العقلي الذي يؤخذ على بعض الاطفال لا يدل في أغلب الاوقات على تقدم عام بطيء ، وانما يدل على أن العوامل العقلية المختلفة لا تنمو نمواً متناسباً ، وعلى أن هناك اختلالاً داخلياً مصدره تفاوت مدى التقدم بين العناصر العقلية المختلفة ، ومن لوازم العقلية المتزنة المتناسقة الاحتفاظ بالتوازن بين الفهم والاحساس ، وبين الادراك والذاكرة ، وبين الارادة وقوة الملاحظة والانتباه

والتربيـة الصحيحة الحقة يلزم أن ترمي الى تناسق النمو العقلي وأن تعنى عناية خاصـة بتناول الاطفال ذوي الملكات غير المتناسبة والموازين المختلة ، وبعض الأطفال منذ نشأتهم يبدو في أعمالهم وسلوكهم أثر الدوافع القوية والميول الحافزة ، وبعضهم يظهر تقدماً غير مألوف في إرهاف المشاعر وفرط رقة القلب ، وأمثال هؤلاء اذا تركوا وشأنهم ولم تتهذب التربية الصالحة من هذا النمو الوجداني ، وأطلق العنان لمشاعرهم سرعان ما تنتابهم ضروب مختلفـة من الهستريا واضطرابات الأعصاب ، وبعض الأطفال ينشأ بطبعه خامد المشاعر بليد الاحساس ، فمثل هؤلاء في حاجة ماسة الى ما يحفز مشاعرهم ويفجر العواطف في نفوسهم ، ومنهم من ينشأ ضعيف القدرة على حصر الفكر وتنظيمه فهو في حاجة الى من يأخذه بأساليب المنطق ويعوده التفكير الصحيح

ومن المسائل التي لا تزال في مثار الخلاف تأثير التربية في الاخلاق ومدى استطاعتها ازالة اضطرابات عملية النمو وحركات التكوين ، وينكر بعض الناس تأثير التربية إنكاراً مطلقاً ، ويعتقدون ان العبقري يستطيع في مختلف الظروف ان يشق طريقه ويذلل ما يعترضه من العقبات ، والذين ولدوا مطبوعين على الاجرام لا نستطيع تقويم أخلاقهم وتهذيب طباعهم مهما نبذل من الجهد ، لأن عوامل الاجرام ستسير سيرها وتؤثر تأثيرها وتتغلب على عوامل التربية الصالحة ، ولـكن هذا الرأي لا يخلو من إسراف قد يعادله من ناحية أخرى اسراف القائلين بأن التربية تصنع كل شيء وتخلق المواهب وتوجه الملـكات ، والانسان في نظر أصحاب هذا الرأي هو ما صنعته التربية وصاغته النشأة ، ونظريتهم قائمة على فكرة نفسية خاطئة مؤداها أن عقل الانسان عند ميلاده يشبه صفحة بيضاء ، وان ما يطرأ عليه من التغيير والتهذيب مرده جميعه الى التربية ، ولو ربي طفل على الاسلوب الذي تربى عليه جيتي لأصبح مثل جيتي ولو اننا جعلنا أي انسان بمعزل عن الاحاسيس المختلفة لوقف نمو عقله وصوحت عبقريته ، ولـكن الأحاسيس وحدها ليست كافية اذا لم يكن هناك الاستعدادات الـكامنة والقوى الدفينة التي تثيرها وتبتعثها ، وأقوم تربية لا تستطيع ان تخلق من القدم الغبي حكيماً راجح الحصاة ولا أن تحيل الركيك العقل عبقرياً موهوباً

والطفل الذي يعاني منذ نشأته الباكرة ألم الحاجة ويرى حوله مظاهر القسوة والشر تتبلد
اعره ، وقد يبطيء ذلك في نفسه ظهور العواطف الكريمة والاحساسات النبيلة ، والطفل
ي أهمل تدريب عقله سيكون أقل قوة من الطفل الذي مرن عقله وشحذ ذكاؤه ، وقس على
ك سائر المواهب العقلية مثل قوة الذاكرة والقدرة على الاستيعاب والتحصيل والارادة المثابرة
لجد والميل الى الاتقان والاجادة ، فجميع هذه القوى تتأثر الى مدى بعيد بالمرانة والتعود

وتدلنا التجارب والمشاهدات على أن التأثيرات التي تلم بالناس العاديين في مطالع حياتهم
وائل نشأتهم يكون لها تأثير عظيم فيهم في سائر أدوار حياتهم ، ولا ريب في أن تأثر الطفل
بقري الموهوب سيكون أقوى وأدوم وأبعد مدى وأعمق جذوراً ، لأن مثل هذا الطفل حتى
طفولته الباكرة سيكون شديد اليقظة قوي الملاحظة ، وهو يستوعب التأثرات ويختزن
حاسيس أكثر من غيره ، كما أنهُ سيكون أقدر من غيره على الاستنباط واستخلاص الحقائق
ن ثنايا التجارب والمشاهدات ومن شأن خياله اليقظ الوثاب أن يجعلهُ أكثر استهدافاً
أثرات من غيره سواء كانت تلك التأثرات ضارة أو نافعة ، ومما يروى عن جيتي أنهُ عند ما
ع وهو في السادسة من عمره بزلزال لشبونة المشهور الذي هلك فيه ستون الفاً في طرفة
ن غامت نفسه ، ودبَّ الشك في قلبه ، وانهار ايمانه بالعناية الالهية

وكثير من العظماء والعبقريين أظهروا استعداداً باكراً غير مألوف ، ولكن هذا ليس
عدة مطردة ، فبعض العبقريين كانوا أطفالاً عاديين ، ومن الحقائق المعروفة أن كثيراً من
طفال الوادعين لم يحققوا الآمال التي كانت معقودة بهم وخابت فيهم الظنون ، وربما كان
صدر ذلك أسباباً خارجية ، ولكن في حالات كثيرة يمكن أن نرد أكثر تلك الأسباب الخارجية
ى سوء التربية فان التربية الفاسدة قد تفوّت على العالم فرصة الانتفاع بثمرات الموهوبين
لعبقريين

ومهما يُقَل في التربية والتقليل من خطرها فانها هي الاساس الذي يقوم عليه بناء الرجل
لتأثرات التي تغشانا في الصغر لها تأثير حاسم في تكوين الاخلاق ، وهي التي تمهد الاستعداد
القابلية للامراض العصبية والعلل النفسية ، وتأثير التربية يتلو في المنزلة تأثير الوراثة وكثيراً
نعزو الى الوراثة أشياء ربما كان مصدرها التربية ، فالطفل في بعض الاوقات يقتبس ممن
وله الآراء الشاذة والميول الملتوية ويتشبه بهم في نظرتهم الشائهة الى الحياة ويأخذ بأساليبهم
موجة في معالجة مشكلاتها ، وذلك بدافع التقليد والاقتداء ، ووجود الطفل تحت إشراف
ب مشوَّه العقل كثير الانفعالات مما يجعل سعادة الأسرة سريعة الزوال ولا يتيسر بذلك

تهيئة الأحوال التي تعين على نمو ملكات الطفل نمواً متسعاً

وليس المهم في التربية مقدار ماحفظهُ الطفل ومدى ماتعلمهُ لأن ذلك يمكن تحصيله بالمثابرة والاجتهاد ، وانما المهم هو انماء القدرة على الفهم والتفكير المنطقي ودقة الملاحظة وحصر التفكير وهي أشياء يجب تعهدها منذ الصغر ، واذا أهملت فمن المتعذر استدراك ذلك واصلاحه

والعناية بالتربية البدنية لازمة الى جانب العناية بالتربية العقلية ، وربما كان الأطفال المبكرو الذكاءفي حاجة أمس الى تلك العناية ، لأن امثال هؤلاء الأطفال يحسن ان يحد طموحهم ولا يباح لهم الاسترسال المطلق مع الأوهام والايغال في الأحلام وان يوجه نظرهم الى الحقائق الجافة والوقائع المرة التي قد تعترض أحلامهم وتجعلهم يستفيقون من الغرور والزهو . ومن أهم الأشياء في التربية ان تسترعى نظر الأطفال الى تقدير المبادىء الأخلاقية السامية والنزعات الانسانية الكريمة ، وحب الحق والوفاء بالوعد والترفع عن الاثرة على شريطة ألاَّ تلقنهم ذلك بطريقة جافة مملة ، ومن أهم العناصر في تكوين الأخلاق وبناء الشخصية صقل العواطف ، وتهذيب المشاعر ، والتربية الحقة هي التي يعنى فيها بتربية العقل والقلب معاً

والأقاصيص المفزعة لها تأثير سيء في الأطفال المشبوبي الخيال ، وهي تضعف شخصيتهم وتوحي اليهم الفزع والرعب ، والأطفال الذين يغلب عليهم الخيال والوهم لامفر من العناية بتوجيه التفاتهم الى حقائق الحياة ، والاكثار من الأقاصيص المثيرة للخيال ضار بهم لأنها تباعد ما بينهم وبين حقائق الحياة،ولو ترك لأمثال هؤلاء الأطفال الحبل على الغارب لكثرت أوهامهم وتداعت أحلامهم ، وعندما تسفر لهم الحقائق تنقضُّ على رؤوسهم قصور الأوهام وأبنية الخيال

والتربية العلمية هي من أعمال الوالد والمربي ، وتربية العاطفة والوجدان من واجبات الأم ، ولهذه التربية العاطفية تأثير كبير حتى ذهب المفكرون الى أن أكثر العظماء قد تأثروا بأمهاتهم ، وهذا يرينا الدور العظيم الذي تقوم بهِ الأم في التربية وتكوين الاخلاق

واذا القينا نظرة على حياة جيتي في ضوء هذا الرأي ظهر لنا أثر التربية الصالحة في انماء الملكات المتوازنة واستكمال نواحي الشخصية، وقد كان جيتي منذ طفولته الباكرة كثير المطالعة موفق الملاحظة منطقي التفكير مستقل الرأي ، وقد تفتحت الى جانب ذلك شاعريته وتأهب عقله لقبول التأثرات المختلفة ، وقد قام أبوه بنصيب وافر في انماء عبقريته من الناحية العلمية ، وعرفت والدته كيف تثير خياله وتحرك شعوره بالجمال والنبل (١) ، وكانت تقص عليه كل ليلة الأقاصيص الحسان حتى يغمض الكرى جفنيه

ولم يكن شلر الشاعر الألماني في بواكير حياته ظاهر التفوق والنجابة ولو انه كان مجداً

(١) راجع حياة جيتي للمفكر الانكليزي لويز

ومثابراً،وكان يشعر بأنه لا يستطيع ان ينال شيئاً بغير الكد والارهاق ، وكانت نشأته شديدة صارمة ، وقد احاطته أمه بجو من العطف مشجع كان له تأثير كبير في تكوينه

ورافائيل فقد والدته في الثامنة من عمره ، وفقد أباه في الحادية عشرة ولكن برغم ذلك تلقى تربية صالحة ، وكذلك جاليليو ونيوتن ومن اقواله عن امه « ان أنس لا أنس امي فقد القت في نفسي بذور الخير وفتحت قلبي لتأثرات الطبيعة ، وأيقظت أفكاري وأبعدت مطارحها ولا يزال لما تعلمته منها اثر باق في حياتي » . وكثير من الشذوذ الذي نلمحه في حياة بعض العبقريين مرده الى عيوب لحقت تربيتهم ونشأتهم

وقد كانت ام شوبنهاور امرأة موهوبة ، ولكنها كانت فاترة المشاعر وقد نشأ بينهما خلاف أدى الى مقاطعته لها وبجافاتها إيّاه ،وقد عاشت امه بعد هذه المقاطعة اربعة وعشرين عاماً دون ان يلتقيا او ان يرى احدهما الآخر،ولو انها عادت الى مراسلته قبل موتها بستة اعوام(١) وحرمان شوبنهاور من عطف الامومة كان لهُ تأثير عميق في حياته ، وقد كان لهذا الخلاف الذي ثار بينه وبين امه اثر ظاهر في سوء رأيه في النساء الذي بسطه في مقاله المشهور عن المرأة

وكثير من السخافات والحماقات والاخطاء التي تتكشف عنها حياة روسو مصدرها التربية الناقصة والظروف الحرجة التي مرَّ بها

وقد تولت تربية بيرون امه وكانت امرأة ضعيفة الاعصاب حادة الاخلاق فنمشت من جراء ذلك في اخلاقه بواعث الاضطراب وعوامل القلق والتبرم ولم تسر عبقريته في طريق النمو التام

وكون كثير من العبقريين شقوا طريقهم برغم التربية الناقصة لا يناقض هذا الرأي لانا لا نعرف مدى الكمال الذي كان يمكن ان يبلغوه لو حسنت تربيتهم واستقامت طريقتهم ، ومع ذلك فان كل قاعدة تتسع للشواذ وبيتهوفن —وهو اعظم عبقرية موسيقية عند كثير من الناس— قد استطاع انماء عبقريته ولم يعقه عن ذلك قسوة الظروف التي احدقت به

ويبدو تأثير التربية السيئة في الأطفال الذين يرجح فيهم جانب التخيل على الجوانب الأخرى، فان أمثال هؤلاء الأطفال يمكن أن يصيروا رجالاً صالحين لو مكنتهم ظروف حياتهم من التربية التي تتعهد فيهم تقوية الذاكرة وابتعاث اليقظة واثارة الارادة في حين ان اهمال ذلك يلحقهم بالعبقريات الفاشلة الزائفة

وأثر التربية لا تتكفل به المدرسة وحدها وانما الأسرة لها نصيب وافر فيه وبخاصة الام، وجبل برناسس الصخري المنيع لا يبلغ الانسان قنته الا بعد المحاولات المتصلة والمجهود الدائب

(١) كتاب حياة شوبنهاور للاستاذ W. Wallace صفحة ٧٩

المعرفة ونصف المعرفة

لجبران خليل جبران

جلس أربع ضفادع على قرمة حطب عائمة على حافة نهر كبير . فجاءت موجة هوجاء واختطفت القرمة الى وسط النهر فحملتها المياه وسارت بها ببطء مع مجرى النهر . فرقص الضفادع فرحاً بهذه السياحة اللطيفة فوق المياه لأنه لم يسبق لهنَّ أن أبحرنَ من قبل

وبعد هنيهة صرخت الضفدع الاولى قائلة ، « يا لها من قرمة عجيبة غريبة ! تأملنَ أيتها الرفيقات كيف تسير مثل سائر الأحياء . والله انني لم أسمع قط بمثلها ! »

فأجابتها الضفدع الثانية وقالت ، « ان هذه القرمة لا تمشي ولا تتحرك ايتها الصديقة وهي ليست عجيبة غريبة كما توهمتِ . ولكن مياه النهر المنحدرة بطبيعتها الى البحر تحمل هذه القرمة معها وتحملنا نحن ايضاً بانحدارها »

فقالت الضفدع الثالثة ، « لا لعمري فقد أخطأتما ايتها الرفيقتان في خيالكما الغريب فان القرمة لا تتحرك والنهر أيضاً لا يتحرك مثلها وانما الحقيقة ان فكرنا هو المتحرك فينا وهو الذي يقودنا الى الاعتقاد بحركة الأجسام الجامدة »

فتناظر الضفادع الثلاث في ما هو المتحرك بالحقيقة . وحمي وطيس الجدال وعلا الصراخ بينهنَّ ولم يقررنَ على رأي واحد

ثم التفتنَ الى الضفدع الرابعة ، التي كانت الى تلك الساعة هادئة صامتة تصغي اليهنَّ بانتباه واستيعاب وسألنها رأيها في الموضوع

فقالت لهنَّ ، « كلكنَّ على حقٍّ أيتها الرفيقات ولا واحدة منكنَّ على ضلال ! فان الحركة كائنة في القرمة وفي النهر وفي فكرنا في وقت واحد »

فلم يرقهنَّ ذلك الكلام لأن كل واحدة منهنَّ كانت تعتقد أنها وحدها المصيبة وأن رفيقاتها لفي ضلال مبين

وما أغرب ما حدث بعد ذلك : — فان الضفادع الثلاث تسالمنَ بعد العداء وتجمعنَ فرمينَ بالضفدع الرابعة من على القرمة الى النهر !

المذاهب المتباينة

في علم النفس الحديث

للاستاذ موكسلي

نقلها الى العربية : حسن السلمان
مدير منطقة معارف البصرة

من الادلة على جدة علم النفس وعلى مرونته أن مادته لم تقس بعد ، ولم تتصلب لتتكون منها حقائق علمية ثابتة ، فالعلماء ما زالوا باختلاف حول أكثر ما فيه من نظريات ، وانهم لم يجمعوا كلمتهم بعد حول اصوله الاساسية وفروضه الاولية . وفي هذه العجالة يشرح الاستاذ موكسلي ثلاثة من المذاهب المتباينة المتضاربة التي يذهب اليها السيكولوجيون في تحليلهم الحالات النفسية عند الانسان والحيوان

علاقة العقل بالجسم

المتعارف عند اهل العلم ان علم النفس هو علم العقل، ولما كانت صلة العقل بالجسم صلة وثقى، صارت مهمة العالم النفسي البحث عن الفرد كمجموعة واحدة مؤلفة من العقل والجسم معاً . والباحث المفكر ما ان يتطرق إلى البحوث النفسية حتى يضطر ان يوجه عدة اسئلة فلسفية إلى نفسه ، أهمها ما هي صلة العقل بالجسم ؟ وهل العقل هو العامل المسيطر على الجسم المسير له الموجّه لفعاليته ، او هناك ظاهرات عقلية ثانوية فسيولوجية معقدة كالادراك والتفكير والاحساس هي المسيطرة على الجسم المهيمنة عليه ؟ وهل الانسان جسمٌ مادي لا يختلف عن الاجسام المادية الاخرى كالحجارة والصخر الا بالتقليد ؟ والغريب حقاً ان الذي يحبب علم النفس الحديث الى الباحثين اختلاف ردود اصحاب المذاهب المتباينة على هذه الاسئلة الفلسفية. ويظهر ذلك جلياً من النتائج التي توصل اليها الباحثون في معضلة التعلّم

تتحرك الاجسام غير الحية بحسب تأثيرات المواد الاخرى فيها ، اما الاجسام الحية فتتحرك بمؤثرين احدهما خارجي ، والآخر داخلي ، وهي تستهدف من وراء حركتها غايات فيها فائدة لذاتها او نفع لأفراد نوعها. فعند ما يحاول الشخص تعلم شيء ما يسعى اولاً الى التغلب على نوع من ظروف تحيط به غريبة عنهُ ، ثم يتم تعلمه لذلك الشيء بعد ما تتقوى فيه قابلية

السيطرة على تلك الظروف . ومهمة الباحث السيكولوجي تحليل الظاهرات التي تتم بها تقوية قابليات الانسان وزيادة فعاليتها . وتحقيقاً لذلك سنحاول شرح بعض التجارب السيكولوجية المتعلقة بظاهرة التعلم

وضع فأرٌ جائع في محل كثير الشعب عديد المنعرجات مختلف المسالك ليس له الا مخرج واحد ، وجائزته إنْ تخلص من هذا المأزق طعام لذيذٌ شهي . ففي أولى التجارب لم يستطع الفأر التخلص من المأزق الحرج الا بعد ان مرَّ بكل جزء من اجزائه ، وربما يكون قد مرَّ ببعض الشعب غير مرة واحدة ، ولكن بعد ان توالت التجارب عليه صار يتحاشى المسالك العمياء اي التي ليس لها منفذ . فتعلم بعد هذا كيفية التخلص من المأزق بلا كبير عناء متبعاً أقصر السبل وأجدى المسالك . وقد أجريت تجارب شبيهة بهذه على بعض الأطفال والبالغين فربطت عيونهم فوجدوا انهم يستطيعون التخلص من المآزق التي حبسوا بها أو تعلموا كيفية التخلص منها في زمن أقل مما كانت تستغرقه الفئران ، وانهم كانوا لا يضطرون الى ولوج السبل التي لا منفذ لها اكثر من مرة واحدة أو مرتين . ومما لوحظ ايضاً ان قابلية التعلم عند الفئران تدريجية بينما هي متقلبة تقلباً فجائياً عند الأطفال والبالغين وربما بلغت عند بعضهم حداً عالياً بعد بضع تجارب

وأجريت على شمبانزي تجارب تختلف بعض الاختلاف عن التجارب المارة الذكر لتعيين قابلية التعلم عنده . علّم هذا الشمبانزي اولاً كيفية أخذ قطع موز معلقة في سقف مستعيناً بعصا طويلة . ثم أعطي في احدى التجارب قطعتين قصيرتين من عصاً يمكن تثبيت احداها في الاخرى . فحاول الشمبانزي بادىء بدء الوصول الى قطع الموز بشق الطرق مستعملاً لذلك قطعة واحدة من العصا ، فلما شعر بالخيبة ترك الموز متلهياً باللعب بالقطعتين وبعد بضع دقائق حدث مصادفةً ان ارتبطت احدى القطعتين بالأخرى فلما أدرك الشمبانزي ذلك هجم مسرعاً لانتزاع قطعة الموز المدلاة من السقف . ثم حدث ان انفصمت عرى القطعتين فثبت احداها في الاخرى وانتزع قطعة الموز وقبل ان يلتهمها حاول انتزاع كل شيء مدلى يمكن ان تصل اليه العصا. ولما اعيد اجراء التجربة على الشمبانزي ذاته في اليوم الثاني صعب عليه أولاً تثبيت القطعتين احداها في الأخرى ولكنه تمكن من ذلك بعد بضع دقائق فانتزع قطع الموز المدلاة من السقف

وأعيدت هذه التجارب على صغار فكانت النتائج شبيهة بنتائج تلك التي اجريت على الشمبانزي . فقد تعلمت طفلة لم تجتز الثالثة من عمرها كيفية الحصول على دمية معلقة بعيدة عن متناول يدها ، بعد ان اجريت تجربتان عليها في يومين متواليين . في اليوم الاول حاولت الطفلة شتى المحاولات للحصول على الدمية تارةً بواسطة عصا وأخرى بدونها فلم تفلح .

وفي اليوم الثاني استطاعت الحصول على الدمية مستعينة بعصاً طويلة ولكنها لم تتعلم كيفية تثبيت قطعتي العصا احداها في الاخرى الا بعد أن أعيدت التجارب عليها خلال أربعة أيام متوالية . في الايام الثلاثة الاولى كانت الطفلة تحاول الحصول على الدمية مستعينة بقطعة واحدة ولكنها في اليوم الرابع استطاعت وَصْل القطعتين معاً فسهل عليها الحصول على الدمية المعلقة

الافعال المنعكسة الشرطية

ولا نستطيع البحث في قابلية التعلم ما لم نتطرق الى التجارب التي أجراها بافلوف العالم الفسيولوجي الروسي المعروف، في ما يعرف باسم الافعال المنعكسة الشرطية. ان الفعل المنعكس جواب ذاتي لمؤثر حسي بسيط ، يحدث ذلك الجواب كلما أثر المؤثر . وليس للارادة تأثير ما في الافعال المنعكسة فهي فطرية في الانسان والحيوان ، فاذا ما وخزت قدمي سحبتها من موضعها دون تفكير او قصد ، واذا ما ضربت احدى ركبتيَّ عندما تكون مستندة الى الاخرى انتفضت ساقي دون ان تكون لي ارادة في ذلك

وتتطلب الافعال المنعكسة صلة بسيطة بين الاعصاب الواردة الناقلة للمؤثر الحسي ، وبين تلك التي تنقل الايعاز العصبي المؤدي للحركة . ومركز هذه الصلة في النخاع الشوكي . وقد تكون سلسلة الافعال المنعكسة متصلة بعضها ببعض بحيث تكون الحركة العضلية للفعل الواحد هي المؤثر المحدث للفعل الثاني، وهذا للفعل الثالث وهلمَّ جرّاً. فمثلاً اذا ما وخزت أرجل كلب أزيل دماغه من جمجمته فانه سيتحرك حركة لا تختلف في شيء عن حركة المشي . وسبب ذلك ان كل حركة بسيطة من هذه الحركة المركبة هي في منزلة الفعل المنعكس المؤثر للحركة التي تليها. وبهذه الكيفية تتم الحركة العامة الناجمة عن وخز الرجل

وقد اختصَّ عمل بافلوف باظهار ان المؤثر الحسي الذي يؤدي الى فعل منعكس خاص يمكن في ظروف معينة ان يستعاض منهُ بمؤثر مغاير له ، ومع ذلك سينتج الفعل المنعكس الاول. فاذا ما وضعت قطعة من الطعام في فم كلب سال لعابه ، وهذا فعل منعكس تقوم بهِ الغدد اللعابية كجواب للمؤثر الحسي وهو الطعام . واجرى بافلوف تجاربه على كلب جائع فكان يدق جرساً قريباً في اللحظة التي يضع بها قطعة الطعام في فم الكلب ، فلاحظ بعد تجارب متعددة ان لعاب الكلب يسيل كلما سمع صوت الجرس ، حتى وان لم يوضع في فمهِ طعام ما . وعلى هذا فان سيلان اللعاب — الفعل الذي كان في الأصل فعلاً منعكساً جواباً للطعام عندما يوضع في فم الكلاب — أصبح الآن جواباً لمؤثر آخر — صوت الجرس — مختلف عن الأول تمام الاختلاف . ويدعو

بافلوف هذا المؤثر الجديد « المؤثر الشرطي » . اما سيلان اللعاب الحادث بتأثير هذا المؤثر فقد دعاه « الفعل المنعكس الشرطي » (١)

وأسفرت التجارب الأخرى عن نتائج غاية في الدقة وخطر الشأن منها لو أن حيواناً اعتاد الاجابة الشرطية ثم عرض لمؤثر شرطي فقط مرات متعددة لاختفت الاجابة الشرطية ولتعذرت اثارتها في الحيوان مرة أخرى . فاذا ما اعتاد كلب أخذ طعام أثناء قرع جرس ، فان اللعاب يسيل من فيهِ كلما سمع الصوت حتى وان لم يقدم لهُ طعام ما . ولكن بعد أن يتوالى القرع مرات متعددة دون أن يقدم لهُ طعام ما فسيبطل سيلان اللعاب وسيقف تأثير صوت الجرس في الحيوان . وأجرى بافلوف تجربة أخرى شبيهة بهذه على كلب مستعملاً شوكتين رنانتين تختلف ذبذبة الواحدة عن ذبذبة الأخرى نصف نغمة من نغمات السلم الموسيقي فقط وكان يقدم الطعام للكلب كلما رنت احدى الشوكتين ويمتنع عن تقديمه له عند ما ترن الأخرى . فلاحظ أن الاجابة الشرطية تظهر على الكلب في الحالة الأولى ولا تظهر عليهِ في الحالة الثانية مع ان الفرق بين نغمتي الشوكتين قليلة غير واضحة

وأجرى باحثون نفسيون آخرون تجارب مماثلة لتجارب بافلوف على الأطفال فكانت نتائج هذه شبيهة بنتائج تلك فما لوحظ أن الخوف والفزع يظهران على الطفل كلما سمع صراخاً عالياً وما الخوف عند الأطفال غير جواب فطري شبيه بالفعل المنعكس . فاذا ما عرض على هذا الطفل فأرة بيضاء في أثناء سماعه الصراخ العالي فان خوفهُ من الصراخ سيتحول الى خوف من الفأرة البيضاء حتى ولو لم يسمع صوتاً ما ، شأنه في ذلك شأن الكلب الذي يسيل لعابه كلما سمع صوت جرس ، حتى وان لم يقدم له طعام ما . كذلك قد يتحول خوف الطفل من الفأرة الى خوف من كل ما يشبه الفأر حتى وان لم يكن حيواناً . والشيء المهم في هذه التجربة معرفة الباحثين بأن الاجابة الشرطية اذا ما تحكمت في الأطفال تعذر تخلصهم منها على ضدّ ما هي الحال في الحيوان . وهذا في نظر الكثيرين أهم فارق بين الاجابة الشرطية في الحيوان والاجابة الشرطية في الانسان

***

ولنفحص الآن ، بعد أن قطعنا هذه المرحلة من البحث ظاهرة التعلم على أضواء النظريات المختلفة التي تدين بها المذاهب السيكولوجية الثلاثة — المذهب السلوكي ومذهب الهيئة او المذهب النموذجي (٢) ومذهب الدوافع او ما يسمى بمذهب الغرض (٣)

(١) المقتطف — جرينا في المقتطف على تسميته الفعل العكسي او المنعكس المحوَّل لان الفعل نفسه تحول من الاستجابة لوجود الطعام الى الاستجابة لقرع الجرس . وعلماء الانكليز يعترفون بأن كلمة Conditioned التي ترجمت بشرطي ليست موفقة ولكنها درجت

(٢) Gestalt (٣) Hormic or Purposivistic

ان أكثر التجارب المارة الذكر اجريت على حيوانات او اطفال ناشئين ، ولهذا فان الاستدلالات على الظاهرات العقلية المستمدة من السلوك الخارجي كثيراً ما توقع الباحث في الزلل والخطإ . والسلوكيون يتمسكون بهذه الحقيقة ويرون أننا نستطيع تفهم السلوك الحيواني تفهماً صائباً اذا ما فرقنا بين العمل السلوكي والظاهرات العقلية الشعورية المرافقة لذلك العمل واقتصرنا في دراستنا على العمل السلوكي وحده . ولما لم يكن الانسان الاّ نوعاً خاصّاً من المملكة الحيوانية وجب علينا اتباع هذه الطريقة في دراسة سلوكه لكي نتفهم حقيقة حياته العقلية

السلوك ومشكلاته

تعتبر تجارب بافلوف في الافعال المنعكسة الشرطية في منزلة المفتاح للنظرية السلوكية . والسلوكيون لكي يعللوا ظاهرة التعلم اهتموا اهتماماً كبيراً بالتحسن التدريجي لقابلية الحيوان عند مايتغلب على مشكلة من المشكلات . فالفأر الموضوع في المأزق لا يستطيع التخلص منه الاّ بعد ما يمر بكل منعطف من منعطفاته ويتخطى كل جزء من اجزائه . وهو إن تعلم كيفية التخلص مما ألمَّ به مجتازاً أقصر السبل في مدة وجيزة وبعد تتالي التجارب عليه الاّ ان سلوكه هذا لا قصد فيه ولا تفكير وقد اتبع التهجس والتلمس في ذلك . شأنه فيه شأن من اراد فك عقدة من العقد وهو لا يعرف اولها من آخرها . ويسمي هذه الحال غيرُ السلوكيين من العلماء بناموس النتيجة[1] فالحركات التي تؤدي بالحيوان الى التخلص من المآزق التي وقع فيها يكون الدافع اليها الرغبة الملحة للحصول على ما ينتظره من طعام ، وان الاثر الذي يتركه الفشل في نفس الحيوان هو الذي يحول دون اتيان الحركات التي لا تؤدي بهِ الى ما يصبو اليه . وسلوك الفأر الذي تعلم كيفية التخلص مما حلَّ بهِ مؤلف من سلسلة من الاعمال مستخلصة من مجموع تصرفاته الأولى عندما وضع أولاً في المأزق . ولقد تمَّ اختيار هذه الاعمال بحسب ناموس النتيجة

ويلاحظ مما تقدم ان اتباع هذا الناموس لا يمكن ان يتم ما لم يشعر الفرد بالرضا عن عمله أو بعدمه . وهذان التأثيران لا بد ان يتضمنا جهداً عقليّاً بسيطاً كان ام غير بسيط . اما السلوكيون فانهم فسروا بالاستعانة بما وضع بافلوف من فروض ، قانون النتيجة تفسيراً فسيولوجيّاً بحتاً : فسلوك الحيوان المتدرب على القيام بعمل معين كخروج الفأر من المأزق ، مؤلف من أجوبة شرطية متسلسلة ، كل منها يكون في منزلة المنبه للجواب الذي يليه . وليست هذه الاجوبة والمنبهات الاّ اعمال عصبية من خصائص الجهاز العصبي . فالدماغ بحسب ما يقرره بافلوف يستخرج الاجوبة الشرطية ويصنف الدوافع العصبية الواردة من اعضاء الحس لا يصالها بالدوافع الحركية الخارجة من الجسم . ويعتبر السلوكيون الذين يذهبون مذهب بافلوف في

(١) Law of Effect

من الرضا عند رؤيته الهدف من نقطة (ا) وهذا الرضا هو الذي قوى عزمهُ وزاد سرعة حركتهِ اما في المحاولة الثانية فانهُ سيشعر بالرضا عند وصوله الى نقطة (ب) ومشاهدتهِ لنقطة (ا) شاعراً أن هذه النقطة هي هدفهُ الثانوي . فاذا ما تكررت المحاولات فان نقطة (ب) ستكون هدفاً آخر وسيشعر الحيوان بشيء من الرضا عند مشاهدة هذه النقطة من نقطة ثالثة هي نقطة (ج): ويستدل مما تقدم ان الادراك الباطني سيتحد مع الادراك الخارجي وان الشعور بالرضا الناجم عن الادراك الخارجي سيؤدي الى مضاعفة جهود الحيوان والى معرفة مسالك المأزق ومنعطفاته

وهذا التعديل الذي أدخله ماكدوجل على تعريف قانون النتيجة ذو شأن كبير ، فلقد كان القائلون بهِ يزعمون أن الفأر سيشعر بالرضا حالما يخرج من المأزق الذي وضع فيهِ. ولو صحَّ هذا الزعم لصح القول بأن الرضا الذي يشعر بهِ الفأر ذو أثر معكوس على الحركات التي أدت إلى تخلصه من المأزق . وبعبارة أخرى إن التعريف القديم يفرض أن العلة تتبع معلولها وهل في هذا شيء من المنطق ؟

ولنسأل الآن ما هو التعريف الذي يطلقه أتباع هذه المذاهب الثلاثة على الكائن الحي ؟ يرى السلوكيون ان الكائن الحي ليس الا آلة معقدة التركيب تتحرك وتتصرف بتأثيرات مادية بحتة .ويعتقد اصحاب مذهب الدوافع بان الاجسام الحية مؤلفة من عاملين متحدين هما الجسم والعقل ، وهذان العاملان يختلفان نوعاً والعقل أظهرهما . اما اتباع مذهب الجستالت او مذهب الهيئة فيؤمنون بأن العقل والجسم مظهران لشيء ثالث اعظم شأناً من كل منهما

يتضح للقارىء مما تقدم من البحث في المذاهب السيكولوجية الثلاثة وفي تباين الشروح لظاهرات التعلم ان نظريات علم النفس لم تأخذ بعد شكلها العلمي النهائي ، وان السيكولوجيا ذاتها ليست علماً بالمعنى المقصود من العلوم الطبيعية . وانّنا بدراستنا علم النفس الحديث لا نصل الى نتائج علمية متباينة فحسب وانما نجابه فروضاً فلسفية مختلفة الاتجاه شأننا في ذلك شأن الباحثين في علم الفيزياء الحديث . فكما ان الفيزيائيين لم يجمعوا كلهم بعد حول المعنى الشامل للمادة كذلك لم يتفق السيكولوجيون على المعنى الكامل للعقل . وانّنا وان كنا لا نشجع القارىء على رفض كلما يأتيه بهِ العلماء من فروض الا انّنا نطالب منهُ أن لا يسلم بها تسليماً اعمى. وخير لهُ ان يكون حذراً من هذه الفروض والنظريات . وانّنا معتقدون بان العالم سيواجه في السنين القادمة ثورة فكرية جديدة ستكون ولا ريب أشد أثراً من تلك الثورة الفكرية التي سببت انتقال الانسان من القرون الوسطى الى العصر الحديث

أصغر أعداء الانسان

« الڤيروس » وخصائصه

كان إيفانوفسكي العالم النباتي الروسي يبحث في سنة ١٨٩٢ مرضاً نباتيًّا يصاب بهِ نبات التبغ ويعرف باسم « آفة الفسيفساء » وقد وصفت بالفسيفساء لأن أعراضها إصابة ورق التبغ ببقع متلازة خضر قاتمة وفاتحة. واستخرج من النبات المصاب عصيراً ورشحهُ بمرشح دقيق المسام وفحص إيفانوفسكي المادة التي جازت مسام المرشح فوجدها صافية خالية من البكتيريا ولكنها تولد آفة الفسيفساء اذا فركت بها أوراق التبغ . فكانت هذه التجربة الدليل الأول على أول مرض يعزى الى ما يعرف بالفيروس Virus . ولم ينل هذا الكشف العناية الخليقة بهِ حينئذٍ ، وإيفانوفسكي نفسهُ لم يدرك مغزى ما كشف وقيمته ، ومضى معتقداً ان البكتيريا سبب هذا المرض على الرغم من الدليل المستخرج من التجربة التي جرَّبها ، والواقع ان منزلة « الفيروس » بين بواعث الأمراض المختلفة لم تفهم الاَّ في العقدين الأخيرين من السنين

ولعلَّ السؤال الاول الذي تتجه اليهِ أنظار القرَّاء عند الكلام على الفيروس هو هل الفيروس حيٌّ او غير حيٍّ : ولكن ما هو الجسم الحي وما المقياس الذي تقاس بهِ الحياة ؟ قال أرسطو من ألفي سنة « ان الطبيعة تتدرج تدرجاً بطيئاً من غير الحيّ الى الحيّ بحيث تكون الحدود الفاصلة بينهما مبهمة ومشكوكاً فيها ». والغالب ان علماء العصر الحديث لا يستطيعون ان يضيفوا كثيراً الى ما قالهُ أرسطو في هذا الصدد

ان الأمراض الرئيسية المسندة الى الفيروس هي الجدري والحصبة وابو كعيب (التهاب الغدة النكفية) وجدري الفراخ ووبأ الانفلونزا وشلل الاطفال وحمى الخنادق . وتصاب الحيوانات ولا سيما الطيور بأمراض تسند الى الفيروس منها الحمى القلاعية و « السيتاكوز » — حمّى الببغاء — وطاعون الدجاج وغيرها ، وتصاب السمك والحشرات بأمراض الڤيروس والبكتيريا نفسها تصاب بآفة تشبه الڤيروس في بعض خصائصها وتعرف باسم البكتيريوفاج او « آكل البكتيريا ». والنبات من أصناف مختلفة يصاب بأمراض الڤيروس وقد وصف العلماء ما لا يقل عن مائة وخمسة وثلاثين فيروساً نباتيًّا . ومن المتعذر احصاء المضار التي تنزلها أمراض الڤيروس بالناس ، ففي وباءِ الانفلونزا الذي تفشى في أعقاب الحرب العالمية الماضية اتى ملايين من الناس حتفهم بل ان عدد ضحاياها أربى على عدد قتلى تلك الحرب

وقد وصف إيڤانوفسكي احدى خصائص الفيروس البارزة الناشئة عن صغر حجمهِ وهي اجتيازهُ أدق مسام المرشحات ، وهي المسام التي لا تجتازها أصغر أنواع البكتيريا . ومنذ ما أثبت إيڤانوفسكي ذلك أطلق على هذه المواد اسم « الفيروسات الراشحة » ، ولكن اسناد هذا الوصف اليها أخذ يفقد معناه الآن باطراد التقدم في عمل الترشيح

معظم اصناف الفيروس أصغر من أن يشاهد بالمجاهر المركبة (ولا نعلم حتى الآن ما قيمة المجهر الكهربي في تبينها) ومع ذلك في وسع الباحثين أن يقيسوا حجم دقائقها . ومن الاساليب المستعملة لذلك تصفية سائل يحتوي فيروساً من خلال مسام معروفة اقطارها

فالسائل الصافي الذي يحتوي على الفيروس يصفى بالضغط من خلال سلسلة من الاغشية مسامُ كلِّ غشاءٍ منها أصغر من مسام الغشاء الذي قبله . وتستمر التصفية على هذا المنوال الى أن يثبت أن السائل المصفى لايحتوي على الفيروس وهذه الحقيقة تمتحن بقدرة السائل على توليد المرض الخاص المسند الى الفيروس الذي تحت البحث

بهذا الاسلوب قاس العلماء ما حجم الدقائق في عدد من الفيروسات التي تحدث امراضاً في الحيوان فوجد أن دقيقة فيروس الحمى القلاعية أصغرها اذ لاتزيد على عشرة مليميكرونات (المليميكرون جزء من مليون جزء من المليمتر). وكذلك ثبت أن دقيقة فيروس « السيتا كوز » (حمَّى البغاء) يبلغ قطرها ٢٧٥ مليميكروناً . ومن هنا يظهر ان دقائق بعض الفيروسات قريبة جدًّا من حجم الجزيئات الكبيرة من البروتين وحجم أدق أنواع البكتيريا . إلاَّ ان ترشيح فيروسات النبات شاقٌّ . ومن مشكلاتهِ ان دقائق كثير من فيروسات النبات ليست كروية بل عصوية الشكل ومسألة شكل الدقيقة ذات شأن لأن حساب الحجم مبنيٌّ على فرض ان الدقيقة كروية وثانياً لأن مرور دقيقة عصوية الشكل من خلال مرشح دقيق المسام اصعب من مرور دقيقة كروية

من المتعذر رؤية معظم الفيروسات بالمجهر ولكن بعضها يستطاع تصويره وقياسه في أحوال معينة والنتائج التي أسفر عنها هذا الأسلوب من البحث تطابق النتائج الأخرى المستخلصة من قياس دقائق الفيروسات بطريقة التصفية والترشيح

وليس ثمة ريب في ان المجهر الكهربي سيكون معواناً عظيماً على دراسة هذه المواد . وهناك طريقة ثالثة لقياس حجم دقائق الفيروس وهي طريقة الجهاز المبني على القوة الطاردة من المركز. وقد بلغ من قوة هذا الجهاز انهُ اذا وضع داخلهُ قطعة نقد من ذوات القرشين (نصف فرنك بالنقد المصري وهي قطعة فضية قطرها سنتمتر ونصف سنتمتر) ودارت الآلة بسرعة عظيمة بلغت القوة الطاردة لقطعة النقد من المركز مبلغاً يجعل ضغطها على الجدار الخارجي نصف طن

وهو يستعمل لفصل الدقائق المختلفة الكتلة في المحلولات الغروية ، فالدقائق التي من كتلة واحدة تنفصل بفعل الطرد من المركز عن السائل عندما تبلغ سرعة الجهاز حدًّا معيناً ، وأخرى من

كتلة أخرى تنفصل عندما تكون تبلغ سرعة الجهاز حداً آخر. وبحسبان عوامل السرعة والوقت الذي ينقضي قبل انفصال الدقائق يتمكن الباحث من تعيين أوزان الدقائق

وتستعمل الأشعة السينية للغرض نفسه. وجميع النتائج التي أسفرت عنها طرق البحث المختلفة متطابقة بوجه عام ولكن هناك وجوه من الخلاف ولعل سببه ان جميع دقائق الفيروسات ليست كروية

وبين البكتيريا والفيروس شبه في تأثر الطائفتين بالحرارة والعوامل الكيميائية كالمطهرات. ولكن مدى تأثير هذه العوامل الطبيعية والكيميائية في أنواع الفيروس تتفاوت . فالحرارة تقتل جميع انواع الفيروس ولكن درجة الحرارة التي تفتك بالفيروس الحيواني تختلف عن الحرارة التي تفتك بالفيروس النباتي. ومن الفيروسات النباتية ما تفتك به حرارة لا تزيد على درجة ٤٠ المئوية ومنها في الطرف الآخر ما لا يموت الا بحرارة ٩٠ المئوية . والتعرض للحرارة في الحالين مداه عشر دقائق . وهذا التفاوت في التأثر بالحرارة مشهود في انواع الفيروسات الحيوانية كذلك

ومن الفيروسات ما يفتك به الكحول بسهولة. ومنها ما هو اشد مقاومة له . فمن الفيروسات النباتية ما يمكن حفظه في الكحول التي ستة اشهر بغير ان يفقد قدرته على توليد الآفة

والتجفيف يقتل معظم الفيروسات ولكنه لا يؤثر في بعضها . ففيروس « آفة الفسيفساء » تحفظ بقوته في ورق التبغ المجفف مدى سنوات ، وهذا هو سبب العثور على هذه الآفة في ورق « السيجار » . وفيروس الحمى الصفراء يبقى فعالاً اشهراً ولو جفف وجمد

ثم هناك تفاوت عظيم في مدى احتفاظ الفيروسات بفعلها خارج ثويها (host)

ولا يخفى ان المعالجة بالاشعة يفتك بالبكتيريا وهو يفتك كذلك بالفيروسات النباتية والحيوانية. لكن الفيروسات اشد مقاومة للاشعة من البكتيريا مائتي ضعف

اذا اخذ عصير نبتة تبغ مصابة بآفة الفسيفساء بعد هرس النبتة في هاون كان العصير سائلاً كثيفاً اخضر ضارباً الى السمرة . ثم يصفى بمصفاة دقيقة فيصبح سائلاً بنياً صافياً. فاذا اضيف اليه بضع قطرات من الحمض الايدروكلوريك حتى يبلغ درجة معينة من الحموضة وقع فيه تغير مشهود اذ يغيم اولاً ثم يتكوّن فيه راسب لا تخطئه عين الخبير . وهذا الراسب هو الفيروس نفسه. والترسيب هو الخطوة الأولى في سبيل الحصول عليه نقياً . ثم يعالج بأساليب أخرى للحصول به مبلوراً. ولكن الفيروس لا يكون بلورات صحيحة مع ان الرأي الأول كان على هذا . وانما يكون بشبه البلورات para-crystals أي انها دقائق منتظمة كالبلورات ولكنها تختلف عنها في بعض خصائص البلورات. وسواء أمبلوراً كان أم غير مبلور فالمسألة الرئيسية هي الحصول عليه نقياً

والفيروس خارج ثويه لا يعدو كونه بروتيناً جزيئه كبير معقد . ولكن اذا وضعت دقيقته في ثويه ولدت ملايين من الدقائق . اي ان الفيروس يتكاثر تكاثراً سريعاً في ثويه الخاص فهو طفيل من هذا القبيل

[التتمة في الجزء القادم]

أغنية البلبل

لمحمود السيد شعبان

طافَ في قلبي نشيدٌ بالمنى يملأُ نفسي
وأنا اليائسُ يا بلبلُ ما يهدأُ يأسي
هذه كأسي . . . فهل يرضيكَ أن تفرغ كأسي ؟
لا غدي يضحكُ لي فيها . . . ولا يرجعُ أمسي

***

أيها البلبلُ ! إني ظامئ فاروِ لهاتي !
هاتِ لي ما شئتَ يا ساحرُ من لحنكَ هاتِ
وأدرْ كأسكَ بالحبِّ لتحيا فيه ذاتي !
سوفَ يفنى الجسدُ البالي وتبقى صبواتي ! !

***

أيها البلبلُ ! خذ أغرودةَ العشاقِ عني !
وتعلَّم كيفَ تحيا للهوى العذريِّ مني !
عشُّها في القلبِ مهجور . . . ولكني أغني !
وأنا الشاعرُ يا بلبلُ دنياهُ التمني

***

في مغاني الحسنِ يا بلبل ها نحن التقينا !
ما علينا إن ملأنا الكونَ سحراً . . . ما علينا ؟
الهوى ملكُ صبانا ، والصبى ملء يدينا !
فدع الألحانَ يا بلبلُ تروي شفتينا !

***

الهوى يا عابدَ الألحانِ كأسي وشرابي
والمنى يا عاشقَ الأوهامِ همي وعذابي

وأنا في موكبِ الحرمانِ ودَّعتُ رغابي!
المنى حُلْمُ فؤادي، والأسى لحنُ شبابي

***

كلُّ صدّاحٍ على الأيكِ بجنبِهِ حبيبُ!
وأنا بينَ الورى في هذهِ الدُّنيا غريبُ!
ليتَها يا بلبلي يوماً لنجوايَ تجيبُ!!
ذهبَ العمرُ... وما لي من لياليها نصيب!

***

أنا يا بلبلُ في دُنيايَ أحلامُ شريدِ
أنا لحنٌ حائرٌ بين سماواتٍ وبيد!
أنا معنًى مِن شقاءِ الرُّوح في قلبِ سعيدِ!!
اللظى مهدُ فؤادي، والصَّدى وحيُ نشيدي!

***

غربتي طالتْ عن الروح... فردِّدْ بي لنفسي!!
لم يعُدْ ينشد قيثاري ولا تضحك كأسي
أنا مِن بعدكِ ضيعتُ سدًى يومي وأمسي
وغدي؟... ضلتْ اليهِ النفسُ في ظلمةِ يأسي!!

***

قبلةٌ حيرى على ثغري تنادي شفتيها!!
ملؤها شوقٌ ولكن أين مَنْ يحنو عليها؟
ويدٌ كلُّ مناها رقدةٌ بين يديها!!
أنا يا بلبل منها قبسٌ حنَّ إليها

***

نحن يا بلبل كأسان من الحبّ ملئنا
نحن سرّان جريحان التقينا فهنئنا!
نحن لحنانِ حبيبان الى مهدك جئنا

الغرامُ العفُّ ما شئت مِنَ الدنيا وشئنا

***

باركي وحدة صدّاحٍ أمانيه شقاء !
كلما أضناهُ يأسٌ عادهُ منكِ رجاء !
وخُذيهِ ملء دنياكِ نشيداً يا سماء
هو في الحب فناء ، ومن الحب بقاء !!

***

ها هنا معبد حسن لم يفارقه سناه
التقت فيهِ صدور ، وارتوت فيهِ شفاه !
وتلاقى عنده العشاقُ . . . كلٌّ وهواهُ
فتعالي يا هدى رُوحي نكنْ نحن حلاهُ

***

ها هنا أيك أغاريدٍ وأعشاشُ قلوبٍ !
ما أرى فيها سوى إلفينِ كاللحن الطرُوب
هاتِ لي زادي من الحسن وقيثاري وكوبي !
ان يكن حبكِ ذنباً فأنا أهوى ذنوبي !!

***

ها هنا هيكلُ حبٍّ للمصلين مباحُ !!
سجدت فيه جباهٌ والتقت فيهِ جراحُ !
انّ الحانكَ يا بلبلُ للعشـــاقِ راحُ
فملى رِسْلِكَ . . . قد طاشَ بهم منكَ مراحُ !

***

ها هنا . . . كم نعم القلب بأحلام اللقاء !
يا لياليها ! . . . لقد طال على الدنيا شقائي !
أنا مَنْ خلّفتُ للحرمان أوهامي ورائي
وذَوَت في نفسيَ الحيرى أغاريدِ هنائي !

يا فتاتي ! . . . كيف يرضيك شقائي يا فتاتي ؟ !
في دمي شوق يناديك : تعالي يا حياتي !
أنا في محـــرابك الطاهر طالت بي صلاتي !
فدعيني ساعة فيـــه أبارك صبواتي !

***

هـذه قيثـارةُ الحـــبِّ تغنيّ في يميني !
فدعيني أطرب الدنيا بنجـواكِ . . . دعيني !
وانا الناسكُ يا روحي ونسكي فيك ديني
صلواتي بعض اشواقي واورادي حنيني ! !

***

أنا أغـــرودةُ أيامي وقيثـــارةُ عصـري
أنا وحدي شاعر الحب ومن للحب غيري ؟
تنفدُ الدنيـــا ولا ينفدُ يا حسناء شعري
ويجفُّ الزهرُ إن عاش ولا يذبلُ زهري

***

أنا للاشواق يا أنشودة الروح وقودُ
شاعرٌ أحيته في دنياك الامانيّ وعودُ
أبداً نجواه ألحانٌ ودعواهُ سجـودُ !
هو ان غبتِ فناء واذا عدتِ وجودُ

***

يا حيـاةَ القلب ! . . . . قد طال الى سعديَ حنيني
وأنا وحدي . . . فإن شئتِ الى حبي خـــذيني !
هذه دنياي ! مالي في الأسى ضاعت سنيني ؟
سئمت روحي مناها . . . فاذا متُّ اذكريني ! !

جامعة ليدن

ووليم الصامت

لعلَّ خير مثال يضرب على ما تتعرَّض لهُ معاهد العلم الحر — والعلم لا يكون علماً الاَّ ا
كان حرّاً — في بلدان أوربا المحتلة ، جامعة ليدن المشهورة في بلاد المشرق بمن أنجبتهم وآو
من علماء المشرقيات خاصة وما نشرته من كنوز الشرق العلمية النفيسة . ولكن ذلك لم يثن
رجال الحكم النازي في هولندا عن ايصاد ابوابها وطرد اساتذتها او اعتقالهم

ان قصة نشأة جامعة ليدن من أروع القصص في تاريخ الفكر . ففي سنة ١٥٧٤ كا
قد انقضى على الهولنديين نحو ست سنوات منذ ما ثاروا على المستبدين بالامر فيهم حينئذٍ وكا
رجال الملك فيليب الثاني الاسباني

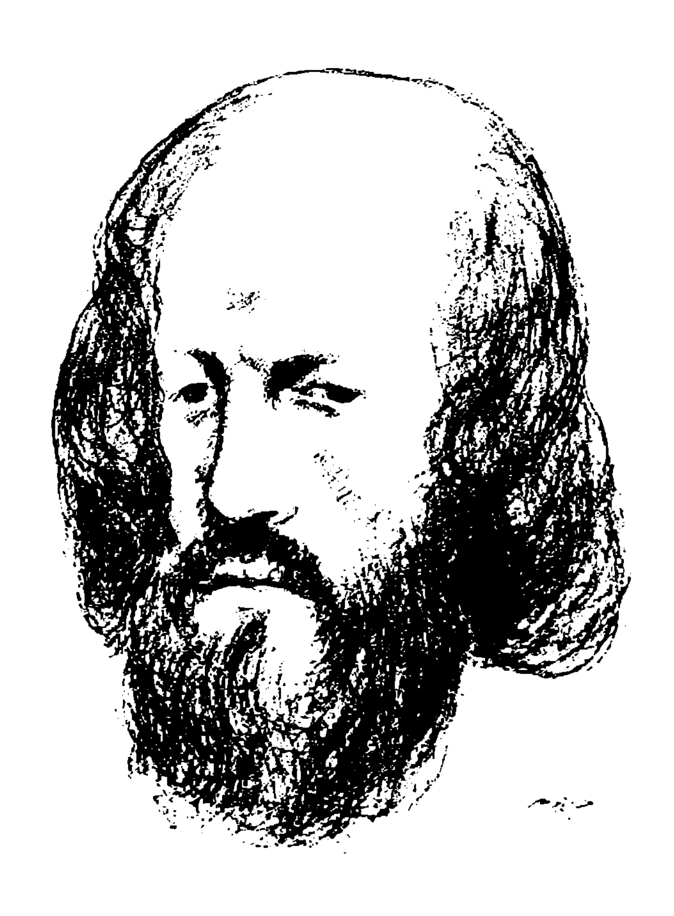
وكانت ليدن حينئذٍ محاصرة وكان سكانها قد علموا بالاختبار ما يكون مصيرهم اذا سقط
مدينتهم في ايدي محاصريها . ولكن الهولنديين احرار في طبعهم ونشأتهم وكانوا يدركون ا
اذا غلبوا فقد انطفأت في بلادهم شعلة الضمير الحر والفكر المطلق من قيود المستبدين . فا
دعوا الى التسليم أبوا . ولما اشتد الاعداء في حصرهم حتى جاعوا ، وفي اطلاق القنابل علي
حتى دمرت بيوتهم، صبروا على البلوى. ولكنهم نالوا اخيراً جزاء ما فعلوا ورفع الاسبان الحص
وعادت ليدن حرة وان كانت مهددة

عند ذلك سألهم اميرهم « ولیم الصامت » ان يختاروا بين اعفاء المدينة اعفاء دائماً من د
الضرائب وبين انشاء جامعة فيها . فاختاروا الجامعة وفتحت ابوابها في سنة ١٥٧٥ وجمل
الآية المنقوشة على خاتمها « الحرية تتولى الامر »

وليس من يجحد ما لجامعة ليدن على العالم أجمع من أيد بيض في شتى العلوم

***

اما الآن فقد اقفلت أبواب هذه الجامعة العريقة . اقفلها رجال الحكم النازي في البلا
بدعوى ان طلابها كانوا نواة لمقاومة « النظام الجديد » . ولكن السبب الحقيقي هو ان البحـ
عن الحقيقة بحثاً حرّاً من كل قيد وهو غرض كل جامعة وقد تجلى تأثيره في مآثر جام
ليدن مدى ثلاثة قرون ونصف قرن لا يتفق وفلسفة النازي ، ولا يلائم قواعد نظا
السياسي القائم على آراءٍ أُمليت بالتحكم ولا يحتمل ان تشهد البحث ولا ان تشرح على مائدة ال



الغزالي

(كما تصوره ورسمه جبران خليل جبران)

رأي في الغزالي

لحسن أنيس

فكرة

اذا صدق ان يطلق على الآراء المفردة وعلى الخطرات العقلية الموزعة ، بل ان صح أن يطلق على التشبث بالعقائد والتعلق بها في رضى الايمان والتسليم وفي حرارة المدافعة بالدليل الجدلي ، والبرهان المنقول ، وتلقي الاشراقات والفيوض — ان صدق الفكر على هذا فالغزالي مفكر بل مفكر من الطراز الأول اضاف الى تراث الانسانية الروحي قدراً من المعرفة تفيد دراسته التفكير فائدة محققة

أما ان كان شرط الفيلسوف أن تجمع بين جملة نتاجه العقلي ، جامعة تنتظم كل أنظاره في صورة من صور الوحدة النظرية ، التي تشمل دراسة الوجود وما وراء الوجود وما يقع بينهما من علائق مادية ، ونسب نظرية ، على نحو تتساوق فيه تمهيدات يتأدى عنها غايات ، وتجري فيه المقدمات على نمط من أنماط البحث يحصل بها وعنها نتاج فيه لون من ألوان الابداع العقلي يشهد لصاحبه بطرافة النظرة واصالة الرأي . . . .

اذا كان هذا ما يميز الفيلسوف من مجرد المفكر فان اضافة تسمية فيلسوف الآن الى الغزالي حكم سابق يتحيف البحث العلمي ويستبد بالنظر الحر الفلسفي . ودلالة هذا أننا لا نعرف باحثاً بعينه حاول درس الغزالي على هذا النحو فدل على مناهج تفكيره بل دل على خصائص نظرية وحدود وصور مذهبية تكشف عن قوام عام أو هيئة خاصة لمحاولات الغزالي العقلية وان كنا نعرف بعض البحوث أو على الأصح بعض المحاولات القصيرة أو الطويلة لجانب من جنبات هذا التفكير الغزالي ، الذي لا نستطيع معه الآن على الأقل أن نوجب أو أن نسلب فلسفة بعينها لهذا الرجل فنطلق الحكم فصلاً يعزل تراث الرجل في أحد مجالين : مجال التفكير الفلسفي المتسق في نفسه في وضع ميتافيزيقي يتعين فيه للرجل فلسفة وتصدق له دعوة فيلسوف ، أو مجال اللمحة النفسية الخاطفة والخطرة العقلية الوامضة التي ترسم في مجمعها ، أو انتشارها ، رأياً يحل طارئة ، أو يؤيد قاعدة ، أو ينفي قولة مما يهيء لصاحبه في نطاق المعرفة موضعاً بين

المفكرين والذين هم عندنا بحكم ما تلقوا من أنواع العرفان وبقدر تهيؤ الطبيعة النفسية واستعدا لهذا التلقي، وما ينشيء عن هذا من تلوين النظرة الى الحياة ، مما يجعل المفكر منهم في موضع المثقف العادي وبين طبقة العالم المتخصص أو الفنان الممتاز أو الفيلسوف صاحب النظ الشاملة للحياة والذي تتضمن نظرته بهذا الشمول المكان عموماً والزمان دواماً ... هذه النظ لازمة وعلى التخصيص إذا ماكان الحديث يتناول العقلية الاسلامية التي كثر الحديث عنها هذه الناحية في هذا العصر وأخريات القرن الماضي

***

والحديث عن آراء الغزالي يتصل اتصالاً تامَّا ، أو يكاد ، بالحديث عن ترجمة حيا لأنهُ واحد من المفكرين الذين يكون تسلسل ترجماتهم هو بعينه تسلسل حياتهم الروحية ، و هذا الحديث سيعيننا على الكشف عن الولائد التي كوّنت الأفكار الغزالية ، كما يعيننا على موضع الرجل من معاصريه بل وموقفه من خصومه ويوضح حاصل رأيه وحاصل الرأي ف وإذا كان هذا شأن ترجمة حياة الغزالي كان لا بد من عرض قصير يسير لحياته .... واذاً ففي عام (١٠٥٩ م — ٤٥٠ هـ) يولد الغزالي بطوس ويتوفى والده فيكفله صديق لا متصوّف يأخذه بتعاليم الفقه وغيره ولكن الغزالي الشاب يضيق بتعاليم الفقه في هذه الحد الضيقة التي تدفعه الى إمام الحرمين في نيسابور يتعلم عليهِ « الكلام » ويدرس عليهِ المذا واختلاف اتجاهاتها كما يدرس المنطق والجدل مما يذيع في نفسه لوناً من ألوان الحيرة التي تذ في القلوب الخصبة والعقول الكبيرة حين تريد هذه القلوب وهذه العقول أن تتفتح وحين ت أن تفلت من أخطاء الجبابرة ، وما في جبروت هذا الخطاءِ من استبداد بالافكار ... ثم ت بمرحلة يموت فيها إمام الحرمين فيتعرّف الغزالي على امام الملك الذي يعينه أستاذاً في المدر النظامية وينصرف الغزالي الى التدريس كما ينصرف الى الدراسة القوية النشيطة المنظمة توفرها لهُ هدأة يسيرة من الحياة والتي لا بد منها لمن يشتغل بالمعارف المنظمة والعلوم الفلس فيدرس الرجل مؤلفات الفارابي ونتاج الشيخ الرئيس ويؤلف ماشاء له التأليف ... ثم تأتي مر يلح عليهِ فيها الشك الحاحاً يقض هذا الهدوء بل هذا الاستقرار ويدفعهُ الى اليأس الحزين قدرة العقل كوسيلة تُنال بها حقيقة الدين فيترك التدريس والدراسة ويخرج من بغداد خائفاً يتر كأنما هذه الحيرة تتربص بهِ أينما كان فهو شاك حائر خائف لا يعرف أين يذهب فكل الأ وجهته... يجاهد نفسه الواناً من المجاهدة ويتحمس لرياضتها ضروباً من التحمس فينطوي نفسه انطواء يوشك أن يعزله في روحه عن عالم الشهادة : واذا هو حيال هذا الكون المش لا ينفي ولا يوجب . . . فهو في دمشق وهو في القدس وهو في الاسكندرية لعله بهذا ي

بسبب من أسباب السماء غير العقل الذي ايس منهُ سبيلاً الى قرار اليقين واصلاح أمور الدين وهو أبداً مشوق لأن يُكتَب في عداد المجاهدين وهو دائماً يرجو أن يكون ممن « يرسلهم الله على رأس كل مائة سنة من المصلحين .. »

وهو ينتهي من هذا الى ان ينصب نفسه داعية من دواعي الاصلاح القائم على العمل والتنفيذ فيؤلف كتاباً من أكبر كتبه يرجو بهِ أن يعيد مجد الدين أو يرفو بهِ ما خرّقتهُ ألسنة الزنادقة والملحدين . هذا الكتاب هو كتاب « احياء علوم الدين » ثم هو يرى أن يعود الى نيسابور فيواصل الارشاد والدعوة والعبادة حتى يدركه الموت في طوس سنة ١١١١م سنة ٥٠٥ هـ فيقع في الميدان كأي بطل من أبطال الفكر المجاهدين فيخلع عليهِ المسلمون لقب « حجة الاسلام وزين الدين »

﴿ موضع الغزالي من معاصريه ﴾ هذه ترجمة حياة الغزالي ثقفناها ما أمكن التثقيف الذي يوائم حياته الروحية بحياتهِ الزمنية والذي يبدو معها الرجل وهو يسير مع الحياة يصادف فقهاء يقفون من الفقه عند حد النصوص ومتكلمين يحاولون جاهدين في مزج الدين بالعقل أو قل يصبـون الايمان في صور عقلية يبدو عليها القلق والصنعة لأنهم فيما يحتمل أرادوا أن يصطنعوا لهذه المادة الروحية قوالب نظرية فتخطفوا وجوه المذاهب الفلسفية في غير حذق وتريث فجاءت شائهة ضاق بها الغزالي كما ضاق بها المسلمون زمناً ما... ثم أيضاً غير هؤلاء وهؤلاء تنشأ في محيط الغزالي طائفة تتمشدق بالرياضيات والطبيعيات وتأخذ بحظ مامن المنطق والفلسفة اليونانية ممثلة في القدر الهزيل من فلسفة افلاطون وأرسطو الذي أذاعهُ الفارابي وابن سينا

وهناك أيضاً فرقة أو أكثر تهيء نفسها بأنواع من السلوك والمجالدة على الرياضة الروحية في لون من الخفاء والتستر حيناً،أو الفوضى والاباحة أحياناً رجاء أن تطمئن وتطامن غيرها من طريق أسمى وأرفع من العقل ، ويمثل هذه الطائفة معظم الفرق الصوفية

هذه أظهر التيارات التي كانت تجري في القرن الحادي عشر الميلادي وصاحبنا لا يكاد يتبين نفسه منها ولا يكاد يفاضل بينها على أنهُ يرى من حق نفسه عليهِ أن يدرس كل هذه الدراسات فيندفع اندفاعاً قويًّا الى الدرس والتحصيل يتمثل في قوله « . . . . أتهجم على كل مشكلة وأستكشف اسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل . . . . . . »

فهو اذاً يدرس دراسة العارف المريد لا ليملأ نفسه ايماناً على طريقة المقلدين الذين يعتقدون ان الايمان تركة تورث ولا يتفيهق بالمنطق كالببغاوات ، ولا يتفلسف ليملأ شدقيهِ تفخيماً باسم أفلاطون الالهي وباسم أرسطاطاليس المعلم الاول ، انما هو يدرس هذا وذاك ليتبين موضع الحق عند كل طائفة فيبينهُ ، أو محلاً للباطل فيحمل عليهِ وهو حين يخاصم طائفة يحاربها بسلاحها

ويقهرها على نفسها بأدلة من نوع أدلتها (وسنبين هذا في موضعه من الحديث) . أما ه الطوائف فيدعوها بأصناف الطالبين وهي عنده أربعة أصناف

متكلمون يدعون أنهم أهل رأي ونظر ، وباطنية يزعمون أنهم أصحاب التعليم المخصوص بالاقتباس من الامام المعصوم، وفلاسفة يزعمون أنهم أهل منطق وبرهان ، وصوفية يدعون أ خواص حضرة وأهل مشاهدة ومكاشفة ويقول « إن الحق لا يعدو هذه الاصناف الاربعة وأخذ يدرس معارف كل طائفة دراسة مكنته من وسائل الخصام بل جعلت للخصومة في حـ العقلية العربية قيمة هامة . ولكن ما مدى الخصومة وما حدود هذا الخصام ؟ !

﴿ الخصومة ﴾ . . . بل طريق الغزالي الى المعرفة وسبيله الى الحق كان يختلف اختلا بعيداً او قريباً من هذه الطوائف ونظرتها الى اليقين الديني والسبيل التي يتأدى بوساطتها نحو نفسره فيما بعد مما أدى الى انهُ تارةً يقف مناصراً لبعضها في ناحية من نواحي المعر وتارةً نراه منازعاً بل خصماً مرداً عنيداً لبعضها الآخر، مما جعل الخصومة تشتد تارةً و تارةً ، ويفسر لنا هذا نظرة الغزالي الى قيمة العقل واقتداره على معرفة الحق وهو رتب هـ الطوائف على قدر نظرتها الى العقل

أما قيمة العقل في نظر الغزالي فيكفي أن يضعه في موضع أدنى من مرتبة الذوق اوالاشر الذي بدونه يصبح اليقين الديني ضرباً من الاستحالة ، بل هو يشك في قيمة العقل ويوجه سهماً اعلهُ يصيب (عنده) العقل في المقتل وفي أعظم موضع يعتز فيه العقل بذاته وبطبيعته كشفه من قوانين ، هذه الناحية التي ينقدها صاحبنا هي المعارف الضرورية ، ويخص منها قا السببية فيقول بالنص « لعلَّ وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى كذَّب العقل في حكمه تجلى حاكم العقل فكذَّب الحسّ في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته المنقذ ص ٧٢)

ومن هنا يمكن توقع نظرته الى الطوائف السابقة (اصناف الطالبين) ومدى خصامه لكل م فهو يرى ان المتكلمين كان غرضهم نصرة الدين والذب عنهُ بسلاح من البرهان والعقل و هذا العقل عن السمو بالعقائد الدينية الى درجة اليقين ولكنهُ رغم خصومته لهم كان يش عليهم — أليسوا مسلمين ! !

وهو أيضاً يقف للباطنية أصحاب الامام المعصوم فيدرس آراءهم ويؤلف في عرضها وا عليها ويجوّد هذا العرض حتى يعاتبه أحد اصدقائه بأن هذا العرض يوقف الخصوم على ما من مذهبهم في نظرهم ، وطريقته في إبطال حججهم هي طريقة مألوفة توسم بطريقة « الفنا هو يزعم ان دعوى هؤلاء باطلة ضعيفة وان ظهرت قوية فهذه القوة ليست بالذات ولا

الذات بل بالاضافة الى ضعف حجة خصومهم فهي قوة معتبرة وليست قوة حقيقية فينبري لهم هو خصماً ألد يعرف كيف يقهرهم ويدل على فساد نظرتهم الى معلم معصوم مزعوم فليس هناك معلم غائب ولا هنا دعاة ينتظرونه ، انما المعلم هو محمد ودستوره كامل من يوم أن أنزل الله «اليوم اكملت لكم دينكم» وما يزال بهم حتى يشعر هو بالنصر ويقول في النهاية « فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم »

وهو مع المتصوفة يدرسهم ويدرس طريقتهم التي هي تصفية النفس وارهاف الذوق بالعمل حتى يحصل الحال فهو يدرس هذا ويعرضه ، ويعيب عليهم بعض سلوكهم ، ولكنه بعد يأخذ مبادىء السالمية والكرامية ويزيل عنها بعض الغموض ويوسع جنباتها حتى تصبح عند أهل السنة دعامة يمكن ان يقوم عليها صرح العلم في نظرهم ، هذا شأنه مع المتصوفة ومسالكهم . أما شأنه مع التصوف فله معه حال فسنبقي عليه الى أن نتم جنبات الخصام . يعرض خصومته في أعلى صورها عند الفلاسفة وهم صنف من « أصناف الطالبين » ولكن موقفه معهم وموقفهم معه لم يكن من السهولة واليسر كما كان مع بقية «أصناف الطالبين » ، انما هنا الخصام يتسع اتساعاً قوياً حتى يكاد يلوّن أفكار الرجل جميعاً ، ويستغرق معظم تفكيره ، وهذه الفترة الحية من تفكير الغزالي حافز يستغرق الماضي من طرف كما يستغرق المستقبل من طرف ، فهو ينازع أفلاطون وأرسطو من قبل وينازعه ابن رشد من بعد ... وعندنا ان لهذا الخصام في جملته غرضاً واحداً له مظهران : فأما الغرض فهو أن يتزعم الغزالي حركة قوية ضد جملة المذاهب الفلسفية التي قامت في الشرق على أصول يونانية فيكسب بذلك نصراً للدين ويكتب في عداد المصلحين والابطال المجاهدين . أما أن الغرض أخذ مظهرين فذلك يتضح من أسلوبه في النضال. فمن الناحية الأولى يدرس الغزالي المسائل الرئيسية التي يدور حولها حديث الفلاسفة عادة ويعرضها عرضاً علمياً رائعاً ، يدل على دقة الفهم لما يقرأ ، وقدرة العرض لما يفهم ، فأنت تقرأ في « مقاصد الفلاسفة » فكأنما تطالع لمؤلف في الجيل الحاضر فهو يعرض المنطقيات والطبيعيات والالهيات كاحسن ما يكون العرض ، ثم هو بعد ان ينتهي من هذا يشرع في تنفيذ الجزء الباقي أو المظهر الثاني لغرضه وهو مناهضة هؤلاء الفلاسفة بالفعل فيحاول ان يكشف عن تهافت حججهم وفساد أدلتهم في كتاب قيم هو « تهافت الفلاسفة » . وطريقته في ذلك طريقة لبقة حقاً فهو يصطنع لهم ما يصطنع القائد الماهر ، فيحمل سلاحاً من جنس أسلحتهم (المنطق) ويحصر موضع النزاع(١) ويقسم ميدانهم (طبيعيات ورياضيات والهيات ومنطقيات ويضيف في المنقذ السياسة والاخلاق)

(١) في عشرين نقطة كفرهم في بعضها وبدعهم في البعض الآخر في التهافت بمجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين اصلا يجب تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في سبعة عشر المنقذ ٩٥

ويتوزع — ان جازت الاستعارة — هذا الجيش على جناحين وقلب، اما الجناحان فهم طائفة الدهر
وطائفة الطبيعيين، وأما القلب فهم طائفة الالهيين والطائفة الأولى تنكر الله وتزعم ان الوجود موجو
بالذات ومن الذات . والطائفة الاخرى لا تجعل للصانع الا مكاناً ضيقاً في فلسفتها فضلاً عن ا
تجحد البعث. وطائفة القلب مثال سقراط وأفلاطون وأرسطو هم شر من سابقيهم لأن موضوع
هو بالالهيات وتلك حظ مشترك بين الكفر والالحاد ليس بالاضافة اليهم وحدهم بل ويتدرج منه
من تناول هذا الموضوع على طريقتهم. «ففي الالهيات اكثر أغاليط الفلاسفة »فقد خانوا فيها ..ر
طريقتهم البرهانية التي يصطنعونها في المنطق والرياضيات وبنوا معرفتهم في هذا النوع من المعر
على ضرب من التخمين والظن .فالجيش كله اذاً سواء منهم من في القلب ومن في الجناحين زناد
ملاحدة .... فيحشد لهم من قلبه عواطف ومن عقله افكاراً ليرد عارمهم عن حوزة الدين
ولكن العواطف لن تفعل في هؤلاء فأصبحوا لا ينفعلون وهم بهذه الوسيلة لا يرتدون ولكـ
يستفيد من هذا السلاح كشارة تراجع يأمر بها المسلمين ان يرتدوا عن هذا الحصن حصن الفلاسـ
فيحرض المسلمين على مقاطعتها ويحذرهم ألواناً من التحذير وينشأ يصور لهم آفاتها ا
أبشع تصوير فهي قد تعدو على التوحيد من طريق مباشر او غير مباشر، ويندفق الرجل ؤ
التخويف والتحذير حتى يبلغ حدًّا من التصوير شائقاً حقـًا ، يقتنع معهُ هو بتراجع الاسلامي
عن هذا الخطر فاذا هو اطمأن الى هذا ونال بسلاح القلب ما اراد ، اندفع بمفرده كالسي
يقابل اعداء وخصوماً لا يعرف طريقة نزالهم وعدتها عامة المسلمين فينفرد لهم هو واحد
في ميدان العقل فيصاولهم بالمنطق فيبني ادلته على قانون التناقض ويفسد عليهم رأيهم في قانو
السببية كما اسلفنا ويأخذهم من طريقة اخرى هي طريقة الالزام فيقول « فألزمهم تارة مذهب
المعتزلة واخرى مذهب الكرامية ...... ولا انتهض ذابًّا عن مذهب مخصوص بل اجعل جمي
الفرق إلباً واحداً عليهم فان سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصو
الدين ، فلنتظاهر عليهم فعند الشدائد تذهب الأحقاد » التهافت ص١٣ — ١٤ : كما ينهض لر
الالهيات من طريق لا يقل حصافة عن سابقه فهو لا يدخل لهم « الا دخول مطالب منـ
لا دخول مدع مثبت » وهو يلجأ الى هذه الطريقة فيما يظهر لغرضين: لان ذلك المبدأ يجري
اصل من اصول الاسلام يقول « البينة على من ادعى » . والغرض الآخر ينكشف فيه و
الطرافة ذلك انهُ — فيما يبدو — يحرص على هذا المبدأ يأخذ منهُ ستاراً يقف من ورائه حذ
ان يخوض مع الفلاسفة مسائل قد يعتاص عليهِ حلها ومن ناحية أخرى قد يكشف الحدي
فيها عن خبرته ومدى معرفته بالفلسفة وخصوصاً مسائلها الدقيقة ... فلم لا يأتي من اخص
الطرق فيجادلهم في المسائل المعروفة ويعارض مسائلهم باشكالات مثلها ويلزمهم على أصو

الزامات لا يقبلها العقل فيوقفهم منهُ موقف الاحراج. وكتاب «تهافت الفلاسفة» ليس الاَّ مجالاً لهذا النزاع بينهُ وبين هؤلاء «الملاحدة» ويعيى الرجل الجهد فيتصور ان هذا الجيش قد اكل قلبهُ الجناحين ثم بعد ، أكل هذا القلب بعضهُ بعضاً . ويظهر هذه الصورة وهذا الأمل فحوى هذا النص : «الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم : سقراط وهو استاذ افلاطون وافلاطون استاذ ارسطاطاليس ...... وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الاولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم . «وكفى الله المؤمنين القتال» بتقاتلهم ثم رد ارسطاطاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم . الاَّ انهُ استبقى ايضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين كأبن سينا والفارابي وغيرهما «المنقذ ٨٥،٨٦» . . . . والى هنا يعيننا الحديث على أن نكشف صورتين يتضح بها مدى تفاعل هذا الجهد العنيف ومبلغ اثره وتأثره في المحيط والوسط كما — سيعيننا على فهم الصورة الباقية لحياة الرجل الروحية ، وليست هاتان الصورتان الاَّ الصورة المنطقية للخصومة والصورة النفسية لها

﴿ ١ — الصورة المنطقية ﴾ ان النظرة العقلية المتتبعة للذهن الأسلامي في مراحل نموه وترقيه وملاحظة الخصومة في وضعها المتجرد بين الخصم والخصوم وانتقال الخصم في ميادين الخصام وعلى الاصح ترقيه من مجال الى مجال فوقه ليُظهر أن التطور المنطقي للفهم النوعي للتفكير الاسلامي هو التطور المنطقي للخصومة وهو أخيراً التطور الفردي للتفكير الغزالي ، فالعقلية الاسلامية تقف عند المسلمات في طورها الأول ممثلة في النصوص الدينية من قرآن وحديث ، وهي بعد تريد أن تمس العقل من بعيد فيكون لها ذلك على يد فقيه كبير هو ابو حنيفة النعمان الذي فتح بالقياس مسرباً يسيل منهُ الدين الى العقل حتى يكاد يوازيه عند المتكلمين ثم بعد يريد الذهن الديني أن يصعد عند متفلسفة الاسلام الى موضع يكون أو ينبغي ان يكون له عنده قواعد اعتقادية مجردة منضبطة بضوابط منطقية... هذا تطور الذهن الاسلامي الى القرن الخامس الهجري، ويوازي هذا تطور الخصومة. وليست فترات النضال الاَّ قفزات الانتقال من مرحلة الى مرحلة حتى بلغ النضال مرحلته الاخيرة في النضال الفلسفي . وواضح من إضمار الخصومة للعقل الفردي الغزالي من محاذاة هذا العقل المفرد وتلاحقه بالصور والأطوار السابقة والتي استبقينا عندها الذهن الغزالي في مرحلته هذه عند آخر المراحل للذهن النوعي الاسلامي والتي استبقينا عندها الغزالي يدرس الفلسفة ويخاصم الفلاسفة ويعرض ويعارض مشكلاتهم — هذه هي الصورة المنطقية التي تتضح بما يوازيها من الصورة النفسية الآتية

﴿ الصورة النفسية ﴾ لكن هذه الصورة النفسية عسيرة لانها دقيقة ولأنها لا تستلزم الباحث فقط الملاحظة المباشرة لمادة اللفظ وضوابط المعنى بل تلزمه التمرس بالحياة الاسلامية ناحية ومعاشرة الغزالي إن صح هذا التعبير فيكسب بذلك الفة ، يفهم منها مكنونات الذ ومضمرات الحديث ومراميه ... ويكاد دُرَّاس هذه الناحية لا يتفقون عند صفة نفسية واح للروح الجمعي الاسلامي وان كانوا قد وقفوا على بعض الصفات للنفسية الغزالية

ونستطيع أن نقول ان الذي يراقب النفس الغزالية عن كثب يلحظ صوراً روحية تخالف في الظاهر ما يعرضه الرجل مُنْضبطاً في صور وقوالب منطقية ولكنها في الحق تا معها عند أصل واحد بعيد، هذه الصور الروحية التي تستجيب الواحدة للاخرى استجابة التأ للمؤثر لا الاستجابة المحتومة بالقيد العقلي بين النتيجة والمقدمة ، والفرق واضح بين منطق الق ومنطق العقل

هذه الصور التي تستجيب الواحدة للاخرى تلاحظ بينها وبين الطموح والوثوق الق لا (العقلي) نسبة وعلاقة . ومرد هذا طغيان السمة الشعورية على الدمة العقلية وانتشار الج الذاتي وتقلص النظر الموضوعي مما لا تكاد تجد له شذوذاً في أي من الظواهر الجمعية الاسلا بل لا نكاد نسمع له نشوزاً عند أية عبقرية اسلامية . والعبقرية الغزالية عبقرية تجمعت لها هي بهِ عبقرية نداءات الروح الاسلامي الموزعة في جيله وصدرت عنهُ هذه النداءات كلها صوت موحد وفي نفس منفرد ولكنهُ انسجام للروح الجمعي واتساق للفكرة الاسلامي وليست ألوان التحمس التي كانت تفلت من يده أحياناً في ميدان المعقولات فيعرض بالفلا في مناسبة وغير مناسبة ، الاّ أطراف الطبيعة الذاتية والشعرية في هذه النفس الفردية تم بأصولها الكامنة أطرافها الأخرى في طبيعة العقل الجمعي الاسلامي

وسنترك هنا هذه الموازاة بين العقل الجمعي والعقل الفردي لنكمل الصورة الأخيرة نفس الغزالي والتي يبلغ بتمامها تمام الصور الروحية له اذ هذه الصورة تضع نفسها فوق م النضال الفلسفي وتتوجها

﴿ أعلى الصور ﴾ والوثبة التي تلي هذا النضال الفلسفي او الصورة التي تعلو عليهِ و نجدها عنده هي حالة الشك . والحق ان هذه المرحلة لا تزال (غفلاً) مع سمو منزلتها فان هذه الحال لا تقصر فقط تمام الحياة الغزالية انما قد تنفض بعض الغبار عن حواشي التفكير الاسلا . . . ويرجح في نظرنا من بين ما يمكن افتراضه للتعرف في هذا المجال العلّـي على السبب ا يشرح هذه الحال ، فرض ان الغزالي كان عليهِ بعد الوقوف على الاتجاهات الفلسفية وف نوعاً من الفهم ومعارضتها نوعاً من المعارضة ، إما ان يعمق نفسه ويترك عقله حرًّا متمادياً

البحث فيكشف نظرة أصيلة تحل مفلقاً في الحياة وإما ان يترك المجال الفلسفي ، يراجع نفسه الى طمأنينة الدين وسلامته

أما التعمق الميتافيزيقي الذي قوامه النظر المتجرد والعقل الحر المتمادي فلم يتيسر للغزالي بل لم يتيسر لطبيعة المحيط والوسط ونحن لا نشك في ان الرجل له علم بالفلسفة واحاطة ، ولكن طبيعة عالم الفلسفة شيء وطبيعة الفيلسوف شيء آخر. فعبقرية الفيلسوف قائمة على أصول من النظر العقلي الحر المتجرد العميق الهادىء المتصل اما عبقرية الغزالي فكانت عبقرية وثابة،عبقرية دينية تحس فيها حرارة القلب وتوهج الايمان كما تبدو فيها ومضات الالهام.فهذه طبيعة العبقرية الفلسفية وتلك طبيعة العبقرية الدينية ، وكان على عبقرية القلب ان تلاقي عبقرية العقل او قل كان على العبقرية العربية ان تلاقي العبقرية اليونانية،وكان من المحتوم ان يقع التصادم بين الروح الديني والعقل الميتافيزيقي ، ووقفة الشك ليست الا تعليق الحكم وهنا تبلغ العقلية الغزالية الى أعلى صورها النسبية

حاصل الرأى

واذ تنتهي المفاضلة بين حرية العقل في الجو الميتافيزيقي وبين الاستسلام والطمأنينة في ظل اليقين الديني ، تنتهي حالة الشك ، ويضع ما علق من حكم ، بما رجح عنده من الموضوع الشعوري على الموضوع العقلي ، بل موضوع القلب على العقل ورجحان الذوق على المنطق

بل ربما رجحت عنده المفاضلة في وضعها النفسي بين الطمأنينة في ظل الاستسلام القلبي والتعلق المذهبي واليقين الديني ، على الاغتراب العقلي في حرية التفكير الميتافيزيقي

وكان نتيجة هذا لوناً من ألوان التصوف ، فقضى الرجل بذلك على آرائه ان تمشي في ظل الاجيال وهي خادمة للدين واللاهوت .وأبت طبيعة المحيط والوسط بل طبيعة النوع الأصيلة أن تصرف هذا الجهد النفسي في تيار ميتافيزيقي لهُ من كفاية الدرجة ما كان يكشف عن غاية من غايات الحياة المطلقة فيسعد الانسان وهو على الأرض وفي هذا الوجود المشاهد، بل اقتضت ارادة طبيعة الوسط السابقة أن يسعد الغزالي الانسان في السماء وفي ذلك الوجود الغائب

وهذه خصائص العبقرية الدينية التي توفرت للغزالي في مشتملاتها بل في نسقها العالي ، والذي استطاع بها أن يلفت اليه العالم بقوة وأن ينال التقدير والاعجاب. إن الناحيتين الفكرية والقلبية وامتزاج الحالتين امتزاجاً يجعله على رأس المتصوفين العارفين المريدين كما يضعه هذا الامتزاج في الصف الأول من المفكرين : فهو صوفي عارف ، ومفكر قوي ، ولكنه ليس بفيلسوف طرداً لمعنى الفيلسوف على ما نبهنا عليه من حدود

رحلة ابن بطوطة

وما تنطوي عليه من نبات وشجر

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٣ —

١ — وقال في ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيماً وتكريماً ما نصهُ :—
« وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوا مفرطة الطول من خشب الساج(١) الى آخر ما أورده »

وأقول إن الساج يسمى باللسان النباتي (Tectona grandis, L.) وبالانجليز (teak) وبالفرنسية (tek ou teck) وفصيلته القربينية (Verbenaceae) والشجر منهُ كبيرة تنبت في الهند وجزائر الملايو وترتفع ٨٠ قدماً الى ١٥٠ ذات فريعات مربّعة الزو وأوراق متقابلة بيضية الشكل تسقط سنويّـاً طول الواحدة منها ٨ بوصات الى ١٢ وزهرا بيض أو ضاربة الى الزرقة متعددة ومجتمعة في زهر الواحدة منهُ تسمى « پانيكل » قطر ١٨ بوصة وخشب هذه الشجرة النفيسـة في الغالب أسود ثقيل زيتيّ ولصلابتهِ ومتانت وسهولة نجره وندرة انكماشه كثيراً ما يفضل في الاستعمال على اي خشب آخر في بناء المدرعا والبوارج وعربات السكة الحديد وبالهند أيضاً في بناء المنازل والأثاث وفي اغراض اخر منوّعة لا تضارع . وعند كلامه على ما شاهده في بلاد اليمن وعلى الخصوص مدينة «ظفـار الواقعة على المحيط الهندي ذكر التنبول(٢) والنارجيل المعروف بجوز الهند وقال إنهما لا يكونا الاّ ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها

٢ —فقال عن التنبول ما نصهُ :—« والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب ويصا له معرشات من القصب كما يصنع لدوالي العنب أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد ف كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وإنما المقصود منهُ ورقه وهو يشبه ور

(١) معرب (sag) بالهندية (٢) نوع من الفلفل طعم ورقه كالقرنفل يمضغه اهل الهند وهو منبه مطر

العليق وأطيبه الأصفر وتجتنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيماً شديداً وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منهُ فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لاسيما ان كان أميراً أو كبيراً واعطاؤه عندهم أعظم شأناً وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله ان يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً ويجعله الانسان في فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيتهُ أنهُ يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح أكله الى آخر ما قال» وأقول إن التَنبُول يسمى باللسان النباتي (Piper Betle, L.) وبالانجليزية (betel pepper) وبالفرنسية (bétel, poivre à bétel) وفصيلتهُ الفلفلية (Piperaceae) وهو ضرب من اليقطين يتعلق أملس تقريباً أوراقه كبار ثخينة بيضية الشكل مستطيلة الواحدة منها محددة الرأس منحرفة القاعدة تتخللها خمسة أعصاب الى سبعة. الواحدة من زهره عبارة عن سنبلة طولها أربع بوصات الى ست. ثمرتهُ طرية جداً ويغلب التصاق الثمار بعضها ببعض لتكون كتلة اسطوانية طويلة . يزرع في مساحات واسعة بجزيرتي سيلان وجاوة وغيرها من بلاد الشرق الاقصى للحصول على أوراقه التي تدخل في تركيب « المضغة » ذلك بأن تقطع بذرة الفوفل التي هي في حجم البرقوقة الى قطع صغار وتلف في ورقة تنبول على هيئة كرية مع قليل من الجير ومواد أخرى كالتبغ وحب الهال « الحبهان » الذي يكسبها مذاقاً طيباً ويقال إن مضغ هذه الاوراق واق من الديسنطاريا ومفيد للصحة لأنها تشتمل على زيت فضلاً عن أن الجير غير موجود الا بمقدار قليل في تركيب الأرز الذي هو من أهم ما يقتات به أهالي تلك البلاد فهم بهذه الطريقة يستطيعون تعويض ما يحتاج اليه تكوينهم من الجير . على أن مضغ هذا المزيج يكسب اللعاب لوناً أحمر قانياً ويسود الاسنان وفي النهاية ينخرها نخراً ولذلك فقد أخذ الناس الآن يعرضون عن المضغ ويحلون محله التبغ

وتتكثر النباتات بواسطة قضبان صغار من السوق تغرس بجوار أسناد أو أشجار ويبدأ بحرث الارض حرثاً عميقاً ثم تسمد جيداً والسماد الوحيد المستعمل بجزيرة سيلان هو أوراق نبات حب الملوك مخرج صمغ اللك[1] وتقتطف أوراق التنبول بعد مضي سنة على غرسه . وفي بعض المناطق

(١) يسمى باللسان النباتي (Croton lacciferus, L.) وبالفرنسية (croton à laque) ينبت بالهند وجزيرة سيلان على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم وهو ذو قيمة لما يخرجه من صمغ اللك الذي يستعمل في صنع « الورنيش »

يترك النبات حتى يثمر مدة تتفاوت من سنة الى ست سنوات أو يزيد. هذا وزراعة التنبول مربحة جدًّا لكنها تحتاج بادىء ذي بدء الى رؤوس أموال غير قليلة فضلاً عن أخطار الامراض العديدة التي تصيب النبات

وأما الفَوْفَل فهو نوع من النخل الهندي يسمى باللسان النباتي (Areca Catechu,L. وبالانجليزية (betel nut و areca palm) وبالفرنسية (aréquier, palmier arec) وفصيلتهُ النخيلية (Palmaceae) منتشر في جزيرتي سيلان وجاوة وغيرها ولهُ منزلة عالية في الشرق الاقصى ذلك لأن الأغلبية الساحقة من اهالي تلك البلاد يمضغون التنبول كما سبق بيانه . وساق الشجرة منه وحيدة ترتفع ٤٠ قدماً الى ١٠٠ واوراقها تكوّن تاجاً كبيراً وطول الواحدة منها اربع اقدام الى ست ووريقاتها متعددة ملسٌ طول كل منها قدم او قدمان والثمر بيضية الشكل ملساء برتقالية اللون أو قرمزية طولها بوصة ونصف بوصة أو بوصتان . وهذه الشجرة توجد عادة في حدائق القرويين مختلطة بغيرها من المزروعات كما انها تزرع زراعة منتظمة في بعض الحقول . ويبدأ ثمرها في السنة السادسة تقريباً وتبلغ النهاية العظمى لانتاجها نحو ٣٠٠ جوزة سنويًّا

٣ — وقال عن النارجيل مانصه : — « وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الاشجار شأناً وأعجبها أمراً وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الاَّ ان هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون منها حبالاً يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ويصنعون منهُ الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمي. ويزعمون ان حكيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلاً بملك من الملوك ومعظماً لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على اهل الهند وسواهم من اهل الدنيا . فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز. وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم . ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه وأما الاعانة على الباءة فنفعه فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء امره اخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة

ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدوًّا وعشيًّا اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الأطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار اصبعين ويربطون عليه قدراً صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيًّا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر وينجر من العذق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيًّا . فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صنع منه الرب فيصير عسلاً عظيم النفع طيباً فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضاً ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعونه قطعاً ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع »

وأقول إن نخلة النارجيل المعروف بجوز الهند تسمى باللسان النباتي (cocos nucifera. L.) وبالانجليزية (cocoa nut) وبالفرنسية (cocotier) وهي من فصيلة النخل والفوفل

تكثر زراعتها في المناطق شبه الحارّة كجزائر سيلان والفيليبين وترينداد والهند الجنوبية وبعض مناطق بولينزيا لإصدار مقادير كبيرة . اما في سائر المناطق فتشترك مع غيرها من النباتات في زراعات الفلاحين وليس بين النباتات ما يضارعها من جهة الأغراض التي تستعمل فيها سواء كانت للاحتياجات الداخلية أو للإصدار . وزراعتها ترجع الى عهد بعيد وهي منتشرة في المنطقة الحارة الى حدّ يجعلنا في شك حتى الآن من تعيين المنطقة التي نشأت فيها . ومع ذلك فالرأي الغالب يؤيد ان أصلها من جزر پولينزيا الغربية ومنها نقلتها التيارات البحرية الى ماليزيا وسيلان بالهند والى افريقية والى غير ذلك . ولما كانت الثمار داخل أغطية ليفية كثيفة فمن السهل تنقلها على وجه الماء مدة طويلة من دون أن تفقد شيئاً من خواص إنباتها . لذلك كانت نخلة

النارجيل في مقدمة الاشجار التي ظهرت في الأراضي الحديثة النشأة بالمناطق شبه الحارّة وعلى انّ زراعتها منتشرة ايضاً في اميركا وافريقية ولكن أهمها هي تلك التي في جزيرة سيلان وغيرها من مناطق الشرق الأقصى . وأصلح المناطق لها هي الكائنة بجوا البحار الرطبة . ومع ذلك فكثير من الزراعات تنجح ايضاً داخل البلاد وعلى ارتفاعات ق تبلغ مائة متر أو يزيد

ويتولى أهالي البلاد جلّ هذه الزراعات ولو ان عدداً كبيراً من الأوربيين قد شرعو في السنوات الاخيرة في استغلال رؤوس اموالهم في هذه الزراعات على نطاق واسع . وبديهي ان نخل النارجيل هو في مقدمة الزراعات المشتركة التي لا تخلو منها أرض في تلك البلاد

هذا والفكرة السائدة عن نخلة البلح هي انها عبارة عن شجرة عالية متوجة بمجموعة من الأوراق التي تنبت في اتجاه عمودي ولكن هذه الفكرة لا تنطبق على نخلة النارجيل اذ ان جذعها ليس عموديًّا بل منحرفاً . فعلى الشواطىء مثلاً ينحني الجذع فيتجه نحو الماء لرغبته في الاقتراب من الضوء . وفي الزراعات الحسنة الادارة تزرع اشجار النارجيل في خطوط منتظم متباعدة الواحدة عن الاخرى بقدر ثمانية امتار بعكس الجاري في الحدائق الاهلية العادية حيث تنبت مختلطة مع غيرها من الاشجار والنباتات وان وجدت وحدها فهي تزرع على مسافات أقرب . وتبدأ نخلة النارجيل في الاثمار نحو السنة الخامسة وتستمر في الانتاج سبعين سنة او يزيد . ويختلف المحصول باختلاف الاحوال ولكن المعروف ان متوسط غلة الأراضي العادية يختلف من ٤٠ جوزة الى ٧٥ للنخلة الواحدة

وأصناف النارجيل عديدة يتميز بعضها عن بعض بصفات قليلة الشأن وأكثر صنفين انتشار هما النارجيل الأخضر والنارجيل الأصفر . فالأخضر معروف في سيلان بالنارجيل الاعتيادي والأصفر بالنارجيل الملكي . وبعض الأصناف ينتج الياقاً كثيرة البعض الآخر ينتج ثماراً كبيرة وفي الأراضي الحسنة الاستغلال تزرع الأشجار من فسائل تربى في « المشاتل » أما في حدائق الفلاحين فتزرع الحبوب مباشرة . وفي سيلان وغيرها من المناطق الحارة لا يهتم الزراع بالأشجار طالما لم تبلغ طور النضج بعكس الحال في الهند وشمال بومباي فالاهتمام بها يبدأ منذ زراعتها . وفي المناطق الحارة يجني الزارع من نخلة النارجيل أشياء كثيرة لازمة للحياة اليومية فالأوراق الكبيرة تنسج حصراً يقال لها «الكدجان»[1] تستعمل في انشاء الأكواخ بجنوب الهند وتستعمل السوق والعروق الوسطية من الأوراق لصنع الحواجز والمكانس والعصي وغيرها

(١) (cadjan) كلمة هندية نقلت الى الانجليزية ويراد بها الحصر المنسوجة من سعف نخل النارجيل

من الادوات المنزلية وتصنع من الجذع الواح خشبية وقوارب وحجرات وكذلك أدوات منزلية أما البرعم الطرفي (وهو واحد لا ينتزع الاّ بعد موت النخلة أي عند ما تبلغ عمراً متقدماً) فهو نوع من الخضر لذيذ الطعم يستعمل في صنع الخضر المحفوظة. وعند بلوغ النخلة طور الإزهار يمكن بجرح عذق الطلع الرئيس الحصول على « الطودي » (١) وهو نبيذ النخل الغني بالسكر والمشابه « للپولك » (٢) المعروف في بلاد المكسيك. وبتبخير « الطودي » يتحصل على سكر يسمى « چجر (٣) » وبجعله يختمر يتحصل على شراب روحي ينتج عن تقطيره عرقيّ واذا استمر الاختمار أمكن الحصول على خلّ. وتشتمل الجوزة الصغيرة على نصف لتر أو يزيد من المادة المائية الحلوة وهي شراب مرطب. وكلما تقدمت الجوزة في النضج نقصت كمية السائل واخذت القشرة في اليبس. ويجمع الجوز في الشهر العاشر من عمره. وتؤكل الجوزة اما نيئة أو في الكري (٤) أو تطهى بطرق اخرى. وقد تعتصر ايضاً للحصول على لبن يكسب « الكري » رائحة طيبة كما يستعمل في اغراض اخرى. ويتحصل من الجوز على زيت بطريقة الغليان هو زيت جوز الهند المشهور في المتجر والذي يصنع منهُ الصابون وغيره. وطريقة الحصول على الزيت هي ان يكسر الجوز ويوضع في الشمس أو غيرها للحصول على « الكوبرا » (٥) ثم تنقل هذه الى المعصرة حيث تنتج ثلثي وزنها زيتاً والثلث الآخر « نفايا أو ثفلاً » يصنع منهُ الكسب المسمى « پوناك » (٦) وهو غذاء يصلح لتسمين الماشية والطيور. وقد يستعمل الزيت للاستصباح أما في اوربا واميركا فأهم استعمال له هو صناعة الصابون كما انهُ يستعمل دهاناً لتجميل الشعر

---

(١) (toddy) كلمة انجليزية محرفة عن كلمة (tari) الهندية ويراد بها العصارة التي تنتج عن جرح الطلع (spathe) في انواع مختلفة من النخل اخصها نخل النارجيل كما تطلق على الشراب المخدر الناتج عن اختمار هذه العصارة ولعل هذا الشراب هو الذي قال عنه ابن بطوطة انهم يسمونه الاطواق

(٢) (pulque) اسم شراب مختمر يصنع في بلاد المكسيك وبعض اجزاء اميركا الوسطى من عصارة نبات يقال له قنب اميركا وهو باللسان النباتي (Agave americana, L.) وبالانجليزية (American aloe و century plant) وبالفرنسية (aloès و agave d'Amérique)

(٣) (jagre)

(٤) (curry) كلمة مشتقة من كلمة (kari) الهندية ويراد بها « صلصة » تجهز من اللحم أو السمك أو الفاكهة أو الخضر تطهى مع كمية من التوابل المهروسة والكركم وتستعمل لا سيما مع الطعام المركب من الارز أو المشتمل عليه

(٥) (copra) كلمة مشتقة من كلمة (khopra) الهندية ومعناها جوزة الهند ويراد بها بذور جوز الهند المجففة تجهز وتصدر ليعتصر منها زيت جوز الهند

(٦) (poonac) كلمة مشتقة من (punnakku) الهندية ويراد بها الكتلة المتخلفة عن اعتصار زيت جوز الهند من لباب جوزه يصنع منها الكسب الذي يستعمل علفاً أو سماداً

ولصنع الشمع اذ انهُ عند ضغطه يستحيل الى مادتين احداهما يابسة تشبه الشمع تسمى «استيارين»[١] والأُخرى سائلة تسمى «اولين»[٢]. وبعد انتزاع الجوز من قشوره تصقل هذه القشور في شكل اقداح وآنية وملاعق وايدي سكاكين وغير ذلك كما تستعمل القشور وقوداً لأنها لا تحدث عُثَناناً كما ينتج عن الفحم

وفي السنوات الأخيرة تقدمت صناعة جوز الهند المجفف بسيلان. وطريقتها هي استخراج جزء من الزيت ثم يقطع الجوز شرائح وتجفف في اجهزة خاصة ثم توضع الشرائح في علب مبطنة من داخلها بورق رصاص ثم تسد سدًّا محكماً وتصدر لسد حاجة صناعة الحلوى. اما القشرة الخارجية السميكة التي قلما ترى في اوربا وأميركا الشمالية فانها محوطة طولاً بعدد كبير من الالياف الطويلة المتينة وللحصول عليها يشرع الفلاحون في كسر القشرة ثم يعطنونها ويضربونها لانتزاع الالياف منها

وهذه الألياف المسماة «كور»[٣] تستعمل ايضاً في المصانع الكبرى لترتيبها على حسب تخاناتها ثم يستعمل بعضها في صنع الفراجين والبعض الآخر في صنع الحصر أو الحبال أو الخيوط أو غيرها. وتصدر من الكور مقادير كبيرة من سيلان وغيرها من المناطق الحارة. وعلى الرغم من انتشار زراعة شجر النارجيل في المناطق الحارة فان سيلان تشغل المرتبة الأولى بينها جميعاً سواء من جهة الانتاج للاستنفاد الداخلي ام للتصدير. وتزداد تجارة منتجات نخل النارجيل سنة فسنة كما تمتد زراعته الى مناطق جديدة وعلى الرغم من ذلك فان الأسعار لم تهبط ذلك لأن استعمالات زيت جوز الهند تزداد باطراد

***

وقد نجحت المحاولات التي شرع فيها لازالة الرائحة من هذا الزيت وأُصبح من السهل الحصول على مادة دهنية سمنية تستعمل بكميات كبيرة في التغذية وهي سائرة في طريق التقدم والانتشار كلما تحسنت طرق صناعتها

(١) (stearine) اسم تجاري لمستحضر مركب من حوامض دهنية منقاة يستعمل لصنع الشمع

(٢) (oléine) في الكيميا. هو «ثالث اوليات» «الجلسريل» من اكثر الدهون الطبيعية انتشاراً ويحصل عليه كسائل زيتي عديم اللون يتجمد في درجة حرارة (٦ —) سنتغراد

(٣) (coir) كلمة مشتقة من (kayar) بلغة أهل الملايو ومعناها حبل على أساس أنه يفتل ويراد به الالياف المجهزة من القشور الخارجية لجوز الهند تستعمل لصنع الحبال والحصر وغيرها



الولايات المتحدة والحرب

١ — تنصيب روزفلت الثالث ومغزاه

٢ — موقف الأمة بعد قانون الاعارة والتأجير

مصر وطريق الهند

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

لجمال الدين الشيال

الولايات المتحدة والحرب

« ان الحقيقة الرئيسية في عالم السياسة الحديث هي ان اميركا الشمالية تتكلم اللغة الانكليزية » « بسمارك »

١ — تنصيب روزفلت الثالث ومغزاه

بينما كان الحاكمان بأمرهما ، أو الحاكمان بأمر أحدهما ، يتأهبان للاجتماع في مكان ما ، في أوربا يوم الاثنين الماضي في ٢٠ يناير ، كان الرئيس فرنكلن روزفلت ، يتأهب لحفلة تنصيبه الثالثة ، والقاء خطبة الرآسة الثالثة ، أمام دار الكابيتول مقر المجلسين النيابيين في الحاضرة الاميركية ، وفي ظل مسلة وشنطن منشيء الوحدة ، وتذكار لنكن الذي صانها من الانفصام

ولو ان قدرة علوية ، أرادت قصداً ان تجمع في إطار عالمي ، صورة الضدين ، لتفرض على العالم قاطبة ، المقابلة بينهما ، واستخراج العبرة من المقابلة لما هيأت الا حادثين ، كهذين الحادثين في يوم واحد . أو لعل قدرة علوية ، أرادت ذلك قصداً ، وليس عليها شيء عسير

في الجانب الواحد من الصورة رجلان يجتمعان خفية في معزل عن أعين الرقباء وفي حماية نفر من العيون والأرصاد ويدبران سرًّا ما يريانه كفيلاً باخضاع العباد ، وتقييد العقل ، وفرض السلطان بالقوة الغاشمة

وفي الجانب الآخر ، رجل يقف حاسر الرأس أمام الجماهير ، يعلن ثقته « برضى المحكومين » واحترامه لعقل الشعب وروحه ، وايمانه بالرجل المنسي ، وعزمه الذي لا ينثني ، على ان ينهض بالولايات المتحدة الأميركية ومعها ، الى مستوى تاريخها المجيد . ان في كلماته رنة من كلمات وشنطن وهو يناشد شعبه ان «احتفظ بجذوة الحرية المقدسة » ، وعلى سماته الخَلقية والخُلقية ، مسحة من انسانية لنكن وهو يقول : « هذه الأمة لا كيان لها نصفها عبد ونصفها حر ». هنا ضدان جمعتهما القدرة العلوية في اطار وهما لا يجتمعان

ان الحاكم بأمره يسعى الى التغلب على توزعه النفسي بالاتجاه الى الابهة الخارجية الصاخبة ، وروزفلت يستطيع ، لثقته بسلامه النفسي ، ان يعرض عن مظاهر الوقار التي تلزم منصبه بغير ان يفقد وقاره . الحاكم بأمره يبدأ بالحقد والاضطهاد . ورغبة روزفلت الأولى متجهة منذ ما خاض غمار السياسة ، الى حماية المضطهدين . الحاكم بأمره لا يتكلم الاً عن مصلحة القوم كما يفسرها ويصورها مطمحهُ الضيق أو شعوره الموتور ، وروزفلت لا يتكلم الاً عن مصلحة الفرد

وكرامته وهناءته . الحاكم بأمره يعيش في حزبه وله ويلغي سائر الأحزاب . وروزفلت يعيش في نضال الأحزاب . الحاكم بأمره يغتصب السلطان بالسيف والنار ، ويحافظ عليه بالاضطهاد والاعتقال . وروزفلت تلقى السلطـان في ثلاثة انتخابات متوالية نتيجـة « لاعراب الأكثرية الحرة من الأمة عن رأيها الحر » . الحاكم بأمره يخلق الأزمات لكي يحرز في حلها نصراً جديداً يضيف لمعة جديدة الى الهالة التي ينسجها له انصاره . وروزفلت وجد نفسه في مستهل رئاسته الأولى امام اقتم أزمة اقتصادية منيت بها أميركا وفي مستهل رئاسته الثالثة أمام أزمة عالمية ، فاتجه اليه الشعب يطلب القيادة الرشيدة والضوء . رغبة الحاكم وشهوته تدفعانه الى دك أركان المجتمع ، ورغبة روزفلت تتجه الى حفظها وتدعيمها . الحاكم بأمره يرتاب في الناس ، وروزفلت يسعى اليهم ، الاول همه أن يُرهِب والثاني همه ان يُحب

وليس الغرض أن أقول ، أن روزفلت رجل كامل ، كلاً ، ولـكن الصفات التي تقدم ذكرها بارزة فيه ، في خلقه كرجل في داره ، وفي خلقه كسياسي في الحلبة العامة . وما هذه الصفات سوى ، اعراب ، مستوياً رجلاً ، عن لون من الحياة ، وصورة من المجتمع ، بينما الصفات التي يتصف بها الحاكم بأمره ، منذ ما عرف باسم الطاغية في عصر الاغريق القدماء ، الى أن عرفناه في عصرنا باسم الدكتاتور ، واحدة على مرّ العصور قلما تتغير ، وهي كذلك اعراب مجسم في رجل ، عن لون من الحياة ، وصورة من المجتمع البشري

***

كتب الدكتور جون فنلي ، وقد كان مديراً لمعارف ولاية نيويورك ومحرراً لجريدة نيويورك تيمس ، وأحد المقربين الى الرئيس ولسن ، أنهُ وصل في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٨ الى روما فكان أول ما استوقف نظره عند نزوله من القطار عنوان عريض بحروف ضخمة في إحدى الصحف الايطالية مؤداه « الجنود الاميركية في الميدان الايطالي » فعقب في مذكراته على ذلك بقوله : « أن صيحة الحرية من العالم الجديد ترن أصداؤها في أرض مكتشفه »(١)

وقد مضى ولسن وفنلي وغيرهما الى لقاء ربهم ، ووضعت ايطاليا الرسمية اصابعها في آذانها فلا تسمع صيحة الحرية الآن ، ولـكن الصيحة ماتزال منبعثة من العالم الجديد ، وفي أوربا بل في ايطاليا نفسها ، ملايين من الآذان تتوق الى سماعها ، ومن القلوب تتهيأ لها ، على الرغم من أن الاوامر العسكرية قد حالت بين آذان هؤلاء وبين أمواج الاثير الحافلة بأصدائها

وقد التي وشاح الرئيس ولسن على كتفي فرنكلن روزفلت العريضتين . فهو مطبوع بطابعه

(١) كولمبوس وأصله ايطالي

المثالي ، مؤمن ايمانهُ بالدمقراطية ومستقبلها من حيث هي نظام للحكم ، وصُورة للاجتماع ، ولكنه يفوقهُ في صدق نظرتهِ الى حقائق الحال ، وحسن تصريفه للامور . ان صوته يجمع بين النزعتين وهو يقول : « الدمقراطية لم تمت ، ولا هي سائرة في طريق الموت . اننا نعلم ذلك لأننا رأيناها تبعث بعثاً جديداً وتمضي في طريق النمو. أننا نعلم ذلك لأنها السعي المطلق من القيود ، يبذله افراد من رجال ونساء في عمل مشترك ، في عمل يعمل وينجزعن طريق الاعراب الحر عن رأي أكثرية حرة » . وانني لأتصور الرئيس روزفلت وهو واقف على سلالم الكابيتول يقول هذا القول في خطبة رآسته الثالثة ، فتعود بي الذاكرة ثماني سنوات الى الوراء فأتخيله في اليوم الرابع من مارس سنة ١٩٣٣ وهو يوم تنصيبه الاول واقفاً الوقفة نفسها وقد دعي الى تقلد أعلى منصب في الدولة ، فواجه في ذلك اليوم الذي يجب ان يكون يوم فرح واغتباط ازمة مالية اقتصادية عصفت بمنشآت الامة من الساحل الى الساحل ، فالمصارف مفلسة او على شفا الافلاس ، وعجلات الصناعة تسير في بطء وتثاقل نحو الوقوف ، وعشرة ملايين او يزيدون من العمال معطلون عن العمل ، والناس حيارى لا يعلمون ما يكون مصير كل ما بذلوه من جهد او نشاط ، ولا ما يكون مصير اولادهم من بعدهم

وقف فرنكلن روزفلت هناك ، شاحب الوجه ، يده اليسرى على التوراة التي جاء بها جده الاعلى من اوربا قبل ثلاثة قرون عند ما هجرها طلباً للحرية ، ويده اليمنى مرفوعة امام رئيس المحكمة العليا ، فأقسم يمين الولاء للدستور ثم اشرأبت اليه الأعناق ، لتلتقط كل كلمة تخرج من فيه . وبدأ خطبة الرآسة فقال : هذا وقت يتعين علينا فيه ان نقول الحقيقة في صراحة وجرأة .. ان الشيء الوحيد الذي يجب ان نخافه هو الخوف .. بهذه الروح فيَّ وفيكم نواجه معاً متاعبنا المشتركة .. وهي متاعب ، ليس مردها ، بحمد الله ، الاَّ الى الأشياء المادية ... ان مصيبتكم ليست ناشئة عن امساك الارض . والجراد لم يكتسح زرعنا .. فاذا قيست متاعبنا من هذا القبيل بما عاناه آباؤنا واجدادنا فليس لنا الاَّ ان نحمد الله ... ثم انتقل الى الهجوم فقال : ان الصيارفة قد فروا من مقاعدهم في هيكل الحضارة .. ففي وسعنا الآن أن نعيد تكريس ذلك الهيكل للحقائق الخالدة .. ان الأمة تطلب العمل وستأخذ مني ما تريد »

كان العدو الذي واجههُ روزفلت حينئذٍ والأمة من ورائه ، عدوًّا داخليًّا . فقابلهُ بذلك المزيج المتزن في نفسه ، من النزعتين الـكمالية والعملية في آن واحد . ولم يكن في حلبة السياسة الدولية حينئذٍ ما يبعث على القلق ، ومع ذلك نجد في بضعة السطور القليلة التي خصصها للسياسة الخارجية في خطبته ، نواة للخطة التي يجهر في الدعوة اليها اليوم ، قال : « وفي ميدان السياسة العالمية ، أكرس سياسة هذه الأمة لمبدإ الجار الطيب ، الجار الذي يحترم نفسه ، فيحترم لذلك ،

حقوق غيره . الجار الذي يحترم ما يجب عليهِ ويحافظ على عهوده وحرمتها » ان كل ما يعلنهُ الطغاة ويطلبونهُ ويطمعون فيهِ ويتوسلون بهِ مردود في هذه العبارة البسيطة لان روزفلت أفرغ فيها احدى الحقائق الخالدة في تاريخ الاجتماع البشري

وقد انقضت عليهِ ثماني سنوات ، اشتد فيها الخلاف على بعض الخطط التي اقترحها ، وكانت المقاومة على اشدها ، من الطبقة التي وصفها في خطبته الأولى بعبارة «الصيارفة الذين فروا من مقاعدهم في هيكل الحضارة» وهي الطبقة التي ينتمي اليها هو ، بحكم نشأته . ولكن كتلة الشعب أسلمته زمامها مرة اخرى في سنة ١٩٣٦ عند ما جددت انتخابه بأكثرية لا مثيل لها في تاريخ الولايات المتحدة ، وأخيراً خرجت على كل تقليد سابق في حياة أميركا السياسية ، فانتخبتهُ مرة ثالثة للرآسة ، وهو أول من انتخب لها ، فكأنها نادته في سنة ١٩٤٠ كما نادته سنة ١٩٣٢ لقيادتها في أزمة أخرى عصيبة .

فعندما وقف من أيام (٢٠ يناير ١٩٤٠) لالقاء خطبة رآسته الثالثة ، كان العدو الداخلي ، الذي واجهه قبل ثماني سنوات ، قد تراجع قليلاً ، ولكن العدو الخارجي بدا في الأفق الدولي القريب . ان مصير صورة الحياة الدمقراطية التي ارتضاها شعبه وآثرها على غيرها مهددة بالزوال ، فلكن هذه الحفلة ، كما كانت الحفلة التي سبقتها من ثماني سنوات ، تكريس الأمة تكريساً جديداً للحقائق الخالدة ! ونقلت أمواج الأثير كلماته الى اربعة أقطار الأرض وكأنها بوق ينادي للكفاح

ولكن النزعة المثالية في تركيب روزفلت العقلي ، لا تحجب عن ناظريه حقائق الأحوال . وليس ادراك الحقائق بالشيء الذي طرأ عليه اخيراً ، بل هو أصيل فيه . فقد كان وكيلاً لوزارة البحرية الأميركية في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان في الثلاثين من عمره ، فوجه همه من البدء الى اقناع الشعب الأميركي ، بوجوب تعزيز الأسطول ، ونشرت عشرات من المقالات بوحي منهُ ، وفيها الدليل على ان مائتي ميل لا غير من سواحل الولايات المتحدة — وطولها الفا ميل — محصنة والباقي غير محصن . ثم سعى بعد ذلك الى اعداد الاسطول ليكون متأهباً اذا اضطرت البلاد الى خوض الحرب . ولكن الرئيس ولسن كان أقوى معارض لهذه الخطة . وفي خريف سنة ١٩١٦ — أي نحو ستة أو سبعة أشهر قبل دخول اميركا الحرب — قابل روزفلت الرئيس ولسن فقال لهُ ان الحوادث تسير سراعاً ونحن على وشك الانغمار بها على ما يلوح ، فيجب ان نكون متأهبين . فهزَّ الرئيس ولسن رأسه معارضاً . ثم حوَّل الموضوع الى مسائل أخرى حكومية . فلما همَّ روزفلت بالانصراف ، استبقاه ولسن وقال : ان عيون التاريخ تحدق فينا ، نعم ان من المرجح اننا سندخل الحرب ، مضطرين ، ولكن في سنة ٩٨٠

سيكتب مؤرخ تاريخ هذه الحرب . وقد يكون المانيًا أو روسيًا ، فيجب ان يكون في قدرة ذلك المؤرخ ان يقول صادقاً « ان أميركا لم تتأهب للحرب الاً بعد ما اضطرت الى خوض غمارها »

وبعد ما أعلنت أميركا الحرب في شهر ابريل سنة ١٩١٧ ظهر ان ثلث سفن الأسطول الأميركي فقط ، على جانب وافٍ من التأهب الحربي ، وان عشرها فقط ، كان عامراً بجميع ما يلزم لها من الضباط والبحارة ، وان الاسطول الأميركي يحتاج الى تسعة أشهر من التأهب على الأقل قبل ان يبلغ اقصى قوته

وعرفت هذه الحقائق ، فكان خصوم روزفلت يقذفونها في وجهه فيما بعد ، متهمينه بأنهُ خاب في أهم ما يجب عليه نحو قومه اذ قصَّر عن قصد أو عن جهل في اعداد الأسطول الأميركي ولكن ولاءه للرئيس ولسن وذكراه ، حال دون اذاعة الحقائق على وجهها الصحيح ، الى قبل سنتين من الزمان

وفرنكلن روزفلت نفسه جالس الآن في مقعد ولسن . وفي يده زمام قوات أميركا المسلحة ومقدراتها السياسية ، ولا ريب في أن ذكرى تلك الأيام من نحو ربع قرن من الزمان مطبوعة على لوحة نفسه ، وهو يرى ان الخطر الذي تتعرض له الولايات المتحدة الأميركية في سنة ١٩٤١ أو ما يليها ، أعظم جدًّا وأشد اتصالاً بقواعد الحياة الأميركية من الخطر الذي كانت معرضة لهُ في سنة ١٩١٦ وهو لذلك يريد بلاده متأهبة للدفاع ، ويرى ان تأهبها للدفاع الكافي، لا يتم على أوفى وجه ، الاَّ اذا بذلت الولايات المتحدة اقصى العون لبريطانيا ، لان الدفاع عن بريطانيا دفاع عن اميركا . انهُ لا ينظر الى ما يحتمل ان يقوله مؤرخ الماني أو غير ألماني بعد خمسين سنة من الزمان ما دام مقتنعاً بأن الخطة التي اختارها فيها ضمان لمصالح قومه العليا ، وهذه المصالح تندمج في طبقتها العليا في مصالح الحضارة نفسها

هذه الاعتبارات تفسر مئات الملايين من الدولارات ، التي تقرها اللجان الفنية ويوافق عليها مجلسا الامة كل يوم . ففي خلال العشرة الأيام الاخيرة أُقر ما يزيد على ألف ومائتي مليون من الدولارات ، لتعزيز الأسطول الأميركي ، والدفاع الساحلي ، وتوسيع نطاق الأسطول التجاري . وهي تفسر مشروع القانون المعروض الآن للبحث وهو المعروف بقانون عون بريطانيا أو قانون الاعارة والتأجير . وتفسر كذلك رحلة ممثلين شخصيين للرئيس وسفراء رسميين مثل المستر هري هبكنز والاميرال ليهي والكولونيل دونوفان الى بلدان اوربا وافريقيا . ان الغرض من رحلتهم مزدوج ، فأولاً التوكيد لجميع الذين يجتمعون بهم من أقطاب الحكومات المختلفة ، ان الولايات المتحدة الاميركية جادة فيما تقول ، وانها ماضية في تأييد بريطانيا الى أقصى حدود قوتها وقدرتها ، وثانياً العودة الى الرئيس بحقائق مستقاة من مصادرها عن الحالة الدولية واتجاهاتها

ان النزعة المثالية في طبيعة الرئيس روزفلت، التي يعرب عنها في اقوال تهز أوتار النفوس وادراكه الواقعي لحقائق هذه الحرب ومسائلها الاساسية ، وتأييد كتلة الشعب الاميركية وكثر النواب والشيوخ له ، وقدرة أميركا التي لا تجارى على الانتاج الصناعي الحربي ، هي مصادر القوة التي يحسها كل من يقرأ في خطبته الاخيرة قوله « فلنمض روح اميركا وايمان اميركا. اننا لن ننثني ولن نقف جامدين »

ويطيب لي أن أتصوَّر شيخاً فلاَّحاً اميركيًّا ، عند مختتم هذا القرن، وقد جلس الى حفيده يحدثه فيقول : عند ما كنت صبيًّا يافعاً ، كان في شنطن رئيس يسمى روزفلت : ولد في بيت ثروة وجاه ولكنهُ حارب الأثرياء . وأصيب في شبابه بالشلل في فخذيه ولكنهُ تقدم الامة الى النضال، السيف في يده وكلمة الحرية النارية على شفتيه .كان روزفلت هذا يا بنيَّ، صديقاً صدوقاً للشعب ، ومؤمناً عميق الايمان بالانسانية الحرة

٢ — موقف الامة بعد قانون الاعارة والتأجير

في اليوم الحادي عشر من شهر مارس سنة ١٩٤١ اجتازت الولايات المتحدة الاميركية نهر « الروبيكون » في هذه الحرب. فلا تردد بعد هذا ولا التفات الى الوراء . ونهر الروبيكون هذا في شمال ايطاليا . وقف عنده يوليوس قيصر متردداً ثم قرر الزحف على روما فلما اجتازه ، ذهب اجتيازه له مثلاً . وهو اشبه ما يكون بما تم لطارق بن زياد ، عند ما نزل في ساحل الاندلس وحرق السفن التي أقلت رجاله ، وقال لهم : « البحر وراءكم والعدو امامكم »

ففي اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ،عندما وقع الرئيس روزفلت مشروع قانون « الاعارة والتأجير » ،فأصبح قانوناً، اجتازت الولايات المتحدة نهر الروبيكون كما فعل قيصر، وحرقت السفن وراءها كما فعل طارق بن زياد ، فكان هذا العمل خطوة حاسمة في تاريخ هذه الحرب، وعندي انهُ خطوة حاسمة كذلك في مستقبل العلاقات البريطانية الأميركية

ولم تنقض ايام حتى القى الرئيس روزفلت خطبته البليغة في مأدبة البيت الابيض لجماعة الصحفيين . فأعرب فيها بكلمات مجنحة ، صادرة من صميم النفس الاميركية ،عن مغزى هذا العمل العظيم . ولم تنقض ايام اخرى حتى عبَّر السفير الاميركي الجديد في لندن عن المغزى نفسه بكلام لا يقبل التأويل، فدعا الأبيض أبيض، والاسود اسود ، ولم يداور ولم يبال ما يقوله خصومهُ

فالرئيس يعلن على رؤوس الاشهاد في كلام يعلم، على قوله « ان كل كلمة منهُ تسجل عليه » « ان الاوتوقراطية البروسية كانت شرًّا ، ولكن النازية شرٌّ منها . وان القوى النازية لا تسعى الى تعديل خارطات المستعمرات ، ولا الى تنقيح حدود الدول الصغيرة في اوربا بل تسعى صراحة الى القضاء على نظم الحكم الانتخابية في جميع القارات ومنها قارتنا . وتسعى الى انشاء نظم

للحكم قائمة على افراغ الناس في قالب واحد كالانعام ووضع زمامهم في ايدي حفنة من الحكام الافراد الذين انتزعوا السلطان بالقوة . ان هؤلاء الرجال واتباعهم المنومين ، يدعون هذا نظاماً جديداً ، ولكنهُ ليس جديداً ولا هو نظام . ان الانسانية لم تستنم استنامة دائمة الى نظام فرض عليها بالفتح وقاعدته الاستبداد » انتهت العبارة المقتبسة من كلام الرئيس

وأما السفير الأميركي الجديد في لندن ، فقد جرت على لسانه عبارات لا التواء فيها ولا إبهام . فهذا النضال في عرفه « نضال بين الهمجية والحضارة » . والنازية في قوله « تأبى ان تعترف بكرامة الانسان ، وحرية الفرد ، والمساواة أمام القانون » . وهي في قوله كذلك « جن جنونها فتسعى الى التوسل بمخترعات العقل الحر والروح المبدع ، لتستعبد العقل وتطمس نور الروح »

واذن فالولايات المتحدة قد خطت الخطوة الحاسمة ، فلا تردد بعد الآن ولا التفات الى الوراء

وقد خطتها أمة متحدة . فزعيم المعارضة في مجلس النواب ، وقف بعد فرز الأصوات ، واعلان موافقة ٣٧١ صوتاً ، على المشروع ضد ٧١ صوتاً ، فارتفع في قوله الى ذرى البلاغة عندما صاح « احمد الله اننا نعيش في بلد نستطيع ان نناقش فيه مسألة عظيمة مناقشة حرة،ونحن اليوم امام هذا القرار ، لسنا جمهوريين ولا دمقراطيين ، ان ولاءنا ليس موزعاً ، وجميعنا يد واحدة على ألاَّ تزول النزعة الاميركية الصادقة من الارض » . ووقف المستر بلوم رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب فقال « ان هذا القانون هو الصوت الصارخ في جنبات العالم مكذباً من يقول ان الدمقراطية لأعجز من ان تقف وجهاً لوجه مع اعتداء الطغاة » وعرج الرئيس روزفلت على المعنى نفسه فقال في خطبته « ان وحدتنا ليست تلك الوحدة الكاذبة التي مردُّها الى الارهاب بالقوة والتضليل بالدعاوة . وان جهدنا اليوم ليس جهداً جزئيًّا وانما هو جهد كلي »

تقول برلين ان هذا القانون ينتهك حرمة مبدأ مونرو . فيرد الاميركيون قائلين مهلاً مهلاً انما نحن اقررناه لكي نحمي مبدأ مونرو من العبث به . وما ينفث من الدعاوة الدكتاتورية في جمهوريات اميركا الجنوبية ، يهيب بنا الى الوقوف صفًّا واحداً لحمايته

وتقول روما ان هذا القانون خروج على الحياد ، فيرد الاميركيون ، وماذا فعلتم في اسبانيا ، وما قيمة الحياد في عصر تبصقون فيه على الحياد ؟ واذا كنتم قد دستم باقدامكم حياد الدول الصغيرة ، فليس لكم ان تبرموا بما تفعله الدول المحايدة الكبيرة

ويهدد السنيور جايدا اميركا ، بما ينتظر أن يفاجئها في المحيط الهادىء ، فكأنهُ طالب صغير في مدرسة لم يقو على طالب آخر فهدده بشقيقه الكبير . ومع ذلك فلم نكن ندري ان السنيور

جايدا أصبح لساناً ينطق باسم طوكيو ويتكلم عن المحيط الهادىء . بينما لا تقع في كلامه على ذكر للبحر المتوسط !

لا . ان الولايات المتحدة الاميركية وضعت يدها على المحراث ولن تلتفت الى الوراء

ولماذا فعلت الولايات المتحدة هذا ؟

اليكم ناحية من السبب في قول الصحفي الاميركي الكبير مارك صليفن وهو شيخ الكاتبين السياسيين في العاصمة الاميركية . قال : اننا لا نخشى الآن من بعيد غزوة المانية مباشرة لأرضنا ولكن الخطر الصحيح الذي يواجهنا ، هو في نظر أصحاب الفكر والرأي ، خطر القضاء على النظام الأميركي بغير غزوة مباشرة . اما كيف يتم هذا القضاء بغير غزو ، فخطوطه الرئيسية كما يلي : اذا تغلبت المانيا على بريطانيا ، أصبحت سيدة البحر ، وصاحبة حول وسلطان ، على العالم ما عدانا (اميركا الشمالية) ثم تفرض المانيا نظامها « الكلي » على العالم ، بالسلاح أو بالتهديد بالسلاح أو بالضغط الاقتصادي . وتبدأ في جميع البلدان بتحويل الصناعة والتجارة واخضاعهما لحكمها وتدبيرها . وتنشيء من تجارة العالم وصناعته كتلة واحدة ، المانيا قلبها ، ومقرها في برلين . فتقول لبلد ما عليك بأن تنتج قمحاً وتصدره الى حيث أبين لك . وتقول لآخر عليك ان تنسج منسوجات . ولثالث ان تتوفر على صناعة السيارات . وتحتفظ هي لنفسها بالصناعات التي تعتبر مفتاح القوة الحربية في هذا العصر، كصناعة الأسلحة على اختلافها والدبابات والطائرات وتحتفظ بصناعة السفن أو تبسط سيطرتها التامة عليها في بلدان أخرى ، بحيث تكون الأساطيل التجارية جميعاً رهن اشارتها . ولا يبعد ان تمنع البلدان الأخرى من بناء سفن تجارية الا اذا كانت دون تفريغ قليل معين . وكذلك تغدو جميع مراكز الانتاج وجميع طرق العالم التجارية سدًى ولحمة في نسيج واحد تحركه يد واحدة حتى لكأن العالم مصنع واحد ومتجر واحد كلمته العليا في برلين

ونحن الاميركيين نخشى أن نعجز ، بعد ما يتم كل هذا ، بل قبل أن يتم ، عن البقاء خارج هذا النظام العالمي ، وبمعزل عنهُ . ونخشى ان نغدو مضطرين برغم انوفنا الى الاخذ بالنظام الكلي في صناعتنا وتجارتنا . وعندئذٍ ، لامحيص لنا عن ان يتبع حكمنا واجتماعنا ذلك النظام هذا هو لباب الرأي ، الذي حفزنا الى العمل . ومهما يكن لون الخطر الذي يهددنا من ناحية المانيا ، فان بريطانيا خير واق لنا منهُ ، فاذا صمدت بريطانيا فليس في وسع هتلر أن يهاجمنا مباشرة ، واذا صمدت بريطانيا ، فليس في وسع هتلر أن يفرض نظامه هذا على العالم

اما ولتر ليبان فيقول : ليست المسألة : — هل قليل من العون لبريطانيا يبقينا بمنجى من التعرض للحرب ، او هل مزيد منهُ يحتم علينا خوضها . ولكن المسألة هي هل نستطيع قبل فوات

الأوان ان نخطو الخطوات اللازمة ، لمنع هذه الحرب — التي لم نطالب حتى الآن بخوض غمارها — من ان تتحول حرباً لا بدَّ لنا من ان نخوضها و نسفك دماءنا فيها ، وقد نكون فيها وحدنا حينئذٍ

***

هذا هو وصف الباعث الاناني على الموقف الاميركي ، ولاحرج في وصفه ، ولا عيب في اذاعتهِ ، فالباعث الاناني أقوى البواعث لأنهُ أوثقها صلة بالدفاع عن النفس وحفظ الكيان . ولكن باعثاً آخر يصطحبهُ ، مداره التعلق بصورة معينة من الحياة ، ويقابله في عالم الطبيعة الحية التعلق بزوج او حبيب . قد تكون مزايا تلك الصورة من الحياة قائمة في عالم الوهم والخيال او مستنزلة من صميم الحقيقة نفسها ، ولكن سواء ، أهذه كانت أم تلك ، فانها مرتبطة بالانفعال والشعور ولذلك فهي تدفع الى العمل

وقد مضى على الاميركيين ثلاثة قرون ، منذ نزلت افواجهم الاولى في العالم الجديد من سفينة « المايفلور » وهم يرعرعون قواعد هذه الصورة من الحياة ، في البيت والمدرسة والحكومة ، في خطب الأقطاب وروايات الادباء واشعارهم ، وفيما يختارون دراسته من ادب الاغريق القدماء وتاريخ الامة الانكليزية وادبها وعلمها وفلسفتها من ثمانية قرون الى الآن

وما هي هذه القواعد ؟ هي ان السلطان والحرية غير متنافيين وان في وسع الانسان التمتع بالحرية بغير ان تعم الفوضى وان الحكومة تستطيع ان تمارس السلطان بغير ان ينتشر الاستبداد،وان الثقة بكلمة المتعاقدين، والقدرة على الاستناد الى وعد الرجل المستقيم أساس لاغنى عنهُ للاجتماع الاقتصادي ، وان الناس سواء أمام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة أو شهوة شرطي سري . وهذه جميعاً مردها الى الاعتقاد في أن للانسان الفرد شأناً في بناء الحضارة ، والايمان بالعقل ، والاصرار على أن للمرء المفكر كرامة في ذاتهِ . أي أن المبدأ الاساسي في هذا النظام الاجتماعي الاقتصادي قوامه أن الفرد غاية في ذاتهِ وليس مجرد آلة او أداة تحركها قوة فرد آخر أو حفنة من الافراد . وهذا القول ينطوي على وجوب منح الفرد بضع حريات أساسية لكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق وفي مقدمتها الحرية ليزن ويحكم ، والحرية ليبحث ويناقش ، والحرية ليعرب عن رأيه ، والحرية ليؤمن ويعبد . فالحريات المدنية والدينية هي روح الحضارة ، هي لباب هذه الصورة من الحياة النازلة في الصميم من شعور الاميركي وانفعاله ، فتعرضها للبوار يحرك عقل الاميركي وانفعاله معاً ، فاذا اضيف الى ذلك شعوره بان كيانهُ ، بأن سلامته مهددة ، فأظن ان السبب الذي حمل الولايات المتحدة على وقوف هذا الموقف يغدو واضحاً

وليس معنى هذا ان هذه الصورة تجمع كل الخير ، أو انها في التطبيق خالية من العيوب فالمستر تشرتشل نفسه قال في خطبته عند الترحيب بالسفير الاميركي الجديد « نحن نعلم ان فينا نقصاً، وان في نظامنا الاجتماعي عيوباً وأغلاطاً . ولكن مجال الاصلاح يتسع حيث يتسع مجال النقد، ورجاؤ في المستقبل لا يخبو نوره ولا ينطفىء اذا ظل مصباح العقل الحر مضيئاً »

أما القواعد الرئيسية البارزة في الصورة المقابلة ، فهي قواعد « الزعامة المطلقة » والحكم الشاملة . فالبشرية في هذه الصورة مقيدة بقيد ثقيل من حديد ، ومصائر الملايين من الناس في أيدي فئة من «المتفوقين» أو من الذين يزعمون التفوق لأنفسهم ، فهم طبقة الأسياد ، وسائر الناس اجزاء في آلة يحركونها ، فيوجهونها الى الزراعة او الى الصناعة أو الى الحرب أو الى المعتقلات ، وهذا انكار للمثل الاجتماعية العليا التي وضعها الرسل ومعظم الفلاسفة وتغنى بها الشعراء من فجر الحضارة الى الآن

والآن ما تأثير هذا القرار الأميركي في المستقبل القريب والبعيد . التأثير الأول تأثير معنوي سرت موجته عبر المحيط الأطلسي الى أوربا واتصلت بالبلقان . وسرت موجته كذلك عبر المحيط الهادىء واتصلت بالصين ، ثم جنوباً فاتصلت بزيلندا الجديدة واستراليا ، حيث يتجسم موقف الولايات المتحدة وتصميمها ، في ست سفن حربية تزور تلك البلاد النائية زيارة صداقة وود

وأما التأثير العملي المباشر ، ففي حق الرئيس روزفلت ان يبيح حالاً لبريطانيا واليونان والصين ، وكل دولة أخرى تقرر الدفاع عن استقلالها وسلامتها ضد الطغيان والاعتداء، ما قيمته ١٣٠٠ مليون ريال مما تملكه الولايات المتحدة الآن من الأسلحة والذخائر وأدوات الحرب . بغير قيد ولا شرط . ولم تنقض دقائق خمس على توقيع الرئيس روزفلت قانون « الاعارة والتأجير » في اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ، حتى أصدر الأمر بالشروع في التنفيذ ولم تنقض يومان حتى كانت الشحنات الأولى في طريقها تشق عباب الماء ، والقاذفات الكبيرة في طريقها تشق اجواز الفضاء . أما التأثير العملي غير المباشر ، فهو ارصاد سبعة آلاف مليون ريال الآن لهذا الغرض . وقد اقر مجلس النواب الأميركي هذا المبلغ الضخم ، الذي يكاد يكون رقماً كالأرقام الفلكية التي تقاس بها أبعاد الكواكب باتفاق ٣٣٧ على ٥٥ . وقد لا ينتهي الاسبوع حتى يقره مجلس الشيوخ[1] . فاذا تحولت هذه المبالغ الضخمة انتاجاً كما ينتظر ، وبالسرعة المنتظرة فقد العون الأميركي للديمقراطية سيعلو ويعلو ، حتى يطغى على الانتاج الأوربي . فقد صرح

المستر هاريمان مندوب الرئيس روزفلت الخصوصي الذي جاء لندن ليدقق ما تطلبه بريطانيا وما يرسل اليها من الولايات المتحدة الأميركية ، بأن قدرة بلاده هذه السنة على انتاج الحديد والصلب ، تبلغ ٨٥ مليون طن . وهو على ما نعلم ضعفا ما تستطيع القارة الأوربية جميعاً انتاجه باستثناء روسيا . وسئل المستر هاريمان في اجتماعه الصحفي الأول في لندن ، هل تستطيع اميركا ان تنجز الآن ما انجزته في الحرب الماضية في بناء السفن . فقال ان يخيب املكم . وهذا القول لا ندرك قيمته الحقيقية الا اذا تذكرنا ما حدث في الحرب الماضية . فمنذ ما خاضت الولايات المتحدة غمارها في ابريل من سنة ١٩١٧ تهكم بها خصومها فقالوا انها لا تملك جيشاً ، والجيوش لا تدرب ولا تعد بين ليلة وضحاها . وقالوا كذلك ان تفوقها الاقتصادي والصناعي لا يجدي الحلفاء كثيراً لأن الغواصات تغرق من سفن الحلفاء اكثر مما يستطيعون بناءه لتعويض ما يغرق . ولكن لم تنقض اربعة اشهر حتى كانت حكومة تلك البلاد قد انشأت بمعاونة اقطاب الصناعة الأميركية ، من لا شيء تقريباً — لأن صناعة بناء السفن فيها كانت لا تذكر — دوراً متعددة لبناء السفن ، وبدأت كل دار منها تخرج سفينة كل يوم من أيام السنة

***

في اليوم العاشر من شهر يونيو الماضي خطب الرئيس روزفلت فقال « افسحوا الطريق . أزيلوا كل عائق . اقصى السرعة الى الأمام » وفي يوم السبت الماضي خطب كذلك فقال « ونحن هنا ، في وشنطن ، لا نفكر الا في السرعة ، السرعة الآن ، ورجائي ان ينفذ هذا الشعار الى كل بيت في الأمة الأميركية »

ان الأمة الأميركية بمواردها الطبيعية والصناعية والمالية المتفوقة بدأت تعمل والهر هتلر يدرك ذلك ، وظفره في هذه الحرب ، يعني التغلب على بريطانيا وحلفائها والولايات المتحدة كذلك . وقد يحييه المسيو ماتسوكا من طوكيو ، ولكن اليابان على المرجح لا تعمل لمجرد حبها اسيد برختسجادن ، انما تعمل لنفسها ، ولا تقدم على استفزاز اميركا في المحيط الهادىء ، الا اذا كان هناك أمل راجح بفوز قريب للدكتاتوريات وهنا . لأن عبرة السنيور موسوليني ماثلة أمام عيني المسيو ماتسوكا

ان الهر هتلر يدرك هذا ، واجتياز الولايات المتحدة لنهر الروبيكون ، في هذه الحرب ، قضى بأن يكون ظفر هتلر في القارة الأوربية محدوداً بحدود زمنية ، لا يحتمل ان تطول كثيراً وقد تكون اقصر مما نظن . قد تعرج الطريق قبل الوصول ، ولا ريب في انها ستكون وعرة ، ولكن الختام — على قول الجنرال سمطس مساء السبت الماضي — لا ريب فيه (١)

(١) هذا في الفصل ملخص ثلاثة احاديث أذاعها رئيس تحرير المقتطف من محطة راديو القاهرة

مصر وطريق الهند

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

لجمال الدين الشيال

﴿ المماليك واستغلال طريق الهند ﴾ امتاز عصر المماليك في مصر بالبذخ والترف البالغين حدهما الأقصى ، ومع هذا فقد كان المصدر الاول لايراد الدولة في ذلك العصر هو الضرائب الفادحة التي كانت تفرض على تجارة الهند المارّة بأحد الطريقين المسلوكين في ذلك الوقت وهما ﴿ طريق الخليج الفارسي ، وطريق البحر الاحمر ﴾ وسواء أعن طريق الخليج الفارسي نقلت التجارة ام عن طريق البحر الاحمر (وهو الأغلب لأنهُ أصلح) فانها كانت تمرُّ لا محالة في أراضي المماليك إذ هم المالكون في ذلك الوقت لمصر والشام جميعاً

وقدكان لمرور التجارة الهندية عبر هذين الطريقين اكبر أثر في ترويج تجارة البحر المتوسط وعظمت بسببه ثروة الجمهوريات الايطالية ولا سيما جمهوريتي جنوة والبندقية

﴿ تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح في القرن ١٦ ﴾ وقد اشتطَّ المماليك والبنادقة في جمع المكوس والضرائب الى درجة أثارت غضب الممالك الأوربية وحدها ، فدفعهم ذلك الى البحث عن طريق آخر توصل الى الهند حتى يتيسر لهم الاستيلاء على نصيب من هذه الأموال التي تتدفق الى جيوب المصريين والبنادقة . وساعد على نجاح هذا الاتجاه نشاط حركة الاستكشاف في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان أول ابناء البرتغال أول الرواد للبحث عن هذا الطريق . وقد وصل أولهم «هنري الملاح» الى مصب السنغال والرأس الأخضر في سنة ١٤٤٦ وسنة ١٤٤٧ . ثم واصل هذه الجهود من بعده (برتلوميو دياز) الذي وصل الى طرف افريقيا الجنوبي سنة ١٤٨٦ م ، و « ڤاسكو دي جاما » الذي وصل الى موزمبيق ، وكلوه ومنبسة وانتهى به المطاف الى « قاليقوط » في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديد وقوع الصواعق على مصر والأمم التجارية في البحر المتوسط ولا سيما البنادقة ، وحاولوا القضاء على البرتغال وعلى هذا الطريق الجديد فاتحد السلطان الغوري سرًّا مع البنادقة ومع ملك « قاليقوط » على أن يعملوا معاً لنزع سيادة البرتغال من

الشرق ، وأنشأ الغوري اسطولاً عظيماً وقدّم البنادقة اليه كل عون ، وأمدوه بالأخشاب التي يريدها لبناء الاسطول ، وتقابل الاسطول مع سفن البرتغال في البحار الهندية بالقرب من شواطيء بماي، وانتصر المصريون في الموقعة الأولى، ولكن لم يلبث البرتغاليون أن جمعوا اسطولاً آخر ، وانتصروا على المصريين أمام بماي سنة ١٥٠٩ م (سنة ٩١٥ هـ) ، فكانت هذه الموقعة هي الفاصلة في أمر التجارة الهندية. وظلّ هذا الطريق الجديد — طريق رأس الرجاء الصالح — هو الطريق المطروق من التجار الاوروبيين طوال القرن السادس عشر

﴿ انكلترا تبدأ علاقاتها التجارية مع الشرق ﴾ كانت نتيجة حرب المائة سنة مع فرنسا أن فقدت انكلترا ممتلكاتها في القارة حيث الغنى والقوة ، وكذلك أدّت حروب الوردتين إلى قيام حكومة مركزية ، ولهذا ابتدأ البحر يلعب دوره ، ويقود الانكليز إلى منابع وميادين جديدة للثروة والنشاط . وخلال هذا القرن (١٦) كانت طائفة من سفنهم تغادر الساحل الغربي فتنفذ إلى البحر المتوسط حيث تثير قليلاً من اهتمام السفن الاسبانية والفرنسية والبندقية التي كانت تمخر عباب هذا البحر منذ أمد طويل . فطريق مرور التجارة من الشرق وإليه عبر البحر المتوسط كان معروفاً منذ القدم ، ولكن الانكليز لم يحاولوا استعماله إلاّ قبيل نهاية القرن السادس عشر وذلك لسببين :

١ — أحدهما يتعلق بالعوامل الطبيعية للجزر البريطانية

٢ — والثاني يتصل بالعداء القديم بين الاسطولين البريطاني والاسباني . فنشأت الرغبة في الاتصال بالشرق ، ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقات السياسية بين انكلترا والدولة العثمانية

وفي هذا الوقت نفسه — أي في القرن السادس عشر — كانت دول أوربا تخطب ود السلطان بوساطة سفرائها الذين أتوا يمثلون الشعوب الأوربية المختلفة ، وذلك لان تركيا كانت حينذاك في أوج مجدها ، كما كانت — وهو الأهم في نظر دول اوربا — تسيطر على طرق التجارة البرية المؤدية إلى الشرق والمطروقة في ذلك الوقت ، وابتدأ التنافس بين هذه الدول بمحاولة الفرنسيين — تؤيدهم حكومتهم ، ويشد أزرهم البنادقة — الانتقاص من قيمة شركة الشرق الانكليزية ، وتحديد امتيازاتها التجارية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن باعتراف السلطان بوليم هاربورن سفيراً لانكلترا سنة ١٥٨٣ بدأ عهد جديد هام في تاريخ العلاقات الانكليزية بالشرق

وفي ذلك الحين كان الانكليز قد استوثقوا من قدرتهم على نزول حلبة المنافسة التجارية مع جيرانهم الاوروبيين وبذلك ابتدأوا يفكرون في تتبع التجارة الشرقية حتى مصادرها الأصلية ، وقادهم هذا التفكير الى بذل مساعٍ كثيرة يتلو بعضهـا البعض الآخر لاكتشاف طرق برية تصل بين الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط والسواحل الاسيوية الشرقية ، وقد حبطت

هذه المحاولات جميعاً ويرجع حبوطها إما الى العقبات الطبيعية التي تتخلل هذه الطرق ، وإما الى صعوبة النقل ، وتأخر وسائله في ذلك الزمن

أما المخاطرات والمحاولات الأخرى للوصول الى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد أدّت الى انحلال القوى الاسبانية ، كما فتحت الطريق الى نبع غزير للثروة جذب الانكليز نحوه حتى اضطروا في أواخر هذا القرن الى الانصراف عن طريق البحر المتوسط الذي كان يدر عليهم الربح الوفير الى هذا الطريق الجديد وهو أوفر ربحاً . واستمر هذا الطريق مفضلاً عند التجار الانكليز حتى عهد الثورة الصناعية التي أعادت توجيه طرق الاتصال والتجارة مع الشرق نحو البحر المتوسط ، وذلك في القرن التاسع عشر

وبرغم هذا فقد بقي القليل من التجار الانكليز يعبرون البحر المتوسط للوصول بتجارتهم نحو الشرق ، يشجعهم على ذلك أنهم استمروا نحو قرنين يتمتعون بالامتيازات التي حصلوا عليها سنة ١٦٠٤ ، وهي تشابه في كثير من الوجوه الامتيازات التي منحت للفرنسيين سنة ١٥٣٥ والتي تبيح لهم التجارة في جميع الثغور العثمانية

﴿ انكلترا تحاول العودة الى طريق مصر البحر الاحمر في القرن ١٧ ﴾ وحوالي نهاية القرن السابع عشر عبرت بعض السفن الانكليزية بحر العرب ، ودخلت الى البحر الاحمر واشترت صفقة جد رابحة من البن اليمني من مدينة مُخا

كانت هذه المحاولة للوصول الى أوروبا عن طريق مصر والبحر الاحمر عاملاً قويًّا دفع القوم الى التفكير الجدي في عقد صلات جديدة بين انكلترا وسواحل آسيا الجنوبية بانشاء طريق جديد يجوس خلال مصر

وفي سنة ١٦٩٨ مرَّ هنري تستو Tistew (وكان قبل ذلك قنصلاً لانكلترا في طرابلس) بمصر والبحر الاحمر ، وفي عزمه العمل على ترقية طريق التجارة المار بمصر والبحر الاحمر ولكن آماله حبطت لأن الدولة العثمانية أصدرت أمراً بمنع السفن المسيحية من الملاحة في البحر الاحمر شمال ثغر جدة لقرب هذا الثغر من المدينتين المقدستين — مكة والمدينة — ومع هذا فقد استمرت التجارة نشطة مزدهرة بين جدة ومخا وبمباي تقوم بها السفن الانكليزية والعربية على السواء

أما في القرن الثامن عشر فقد تطوَّر اهتمام الدول الاوربية بمصر كطريق للتجارة نحو الشرق فأصبح نضالاً خفيًّا بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على أرض المصريين ، وسنحاول في مقال تال ان شاء الله أن نحدث القراء حديثاً موجزاً عن تطور هذا النضال ونتائجه

باب المراسلة والمناظرة

أيقال كنائسيّ أم كنسيّ

على ذكر رسالة «العقود النفائس في صحة النسبة الى كنائس»

نشر الشيخ أمين ظاهر خير الله العالم المشهور رسالة سماها «العقود النفائس في صحة النسبة الى كنائس» أي إنهُ يقال كنائسي لا كنسي . فرأيت أن التي دلوي بين الدلاء على ما فيّ من قصور وغايتي الوصول مع القارىء الى محجَّة الصواب إن شاء الله

يقولون إن العرب وضعت قاعدة للنسبة مبناها أنهُ لا يجوز أن ينسب الى مثنى أو مجموع وعلى هذا الاساس نسب بعض الكتَّاب في هذا العصر الى كَنيسة لا الى كنائس فقالوا كنسي لا كنائسي

والذي أراه أن العرب وقد وضعوا للاسد أكثر من خمسمائة اسم وللابل وأعضائها وما يطرأ عليها من الحالات الوفاً من الكلمات وللخمر وللتمر مثل ذلك كانت صدورهم أرحب من أن تضيق بالنسبة الى المثنى والجمع أسوة بالمفرد وفقاً لما تقتضيهِ الحال

لم يصنع العرب العاربة الآلات في حال بداوتهم ولا استصنعوها أحداً في صحاريهم وجهلوا معظم الصناعات فلم تضطرهم حالهم للنسبة الى المثنى والجمع ولو هم صنعوا الآلات لنسبوا الى المثنى والجمع بلا ريب وقالوا سكاكيني في موضع سكيني مثلاً ذلك لأنهم كانوا أرحب منا صدراً نحن أبناء هذا العصر فعرَّبوا الوف الكلمات الدالَّة على الاشخاص والاماكن والاعشاب والآلات وغيرها فقالوا الاركون والاحور والارغن والاسانح والاسبيداج والاستاذ والاستبرق والاسطرلاب والاسطقس والاسطورة والاسفنج والاسطوانة والافسنتين والالماس وقد ورد بعض هذه الكلمات في القرآن الكريم على ما أثبت الامام الخفاجي في مقدمة كتابهِ «شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل» نقلاً عن عكرمة ومجاهد وابن عباس . وهذه التي تقدمت أمثلة من المعربات وردت في المعاجم في حرف الهمزة خلا سواها من حروف الهجاء مما يعد بالالوف فلم يسموا التلفون مثلاً إرزيزاً مع أن تعريبه سهل فهو وزان حلزون وزرجون ونطرون وغيرها ويستطاع الحاقه بالابنية العربية وأخذ الفعل منهُ فيقال تلفن كدحرج . ونقل الالفاظ من لغة الى لغة أخرى عادة حميدة درجت عليها الامم الحية الراقية وليس فيهِ من معرة

قلت لم يصنع العرب الآلات في حال بداوتهم فلم تضطرهم حالهم للنسبة الى المثنى والجمع فلما خرجوا من حال البداوة الى حال الحضارة عقب الفتح العربي نسبوا الى المجموع فخرجوا عن القاعدة التي وضعها بعض العرب لا كلهم ونسبوا الى الشعوب فقالوا الشعوبية جاء في محيط المحيط مادة شعب الشعوبي من يحتقر أمر العرب أو كل من ليس بعربي وهم الشعوبية . وفي صحاح الجوهري الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم ولم يعقب عليها . وجاء في محيط المحيط أيضاً

مادة سكن السكاكيني صانع السكين نسبةً الى الجمع مولدة لان القياس يقتضي الردّ الى المفرد وقوله مولّدة فيه نظر . قال الشدياق في الجاسوس على القاموس (صفحة ٥٢٠) ان المولّدين ومنهم جرير والفرزدق والاخطل وبشار بن برد ومهيار الديلمي وابي نواس وابي تمام والبحتري والمتنبي وابي فراس وأضرابهم راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها اكثر من العرب في الجاهلية فبالغوا في ضبطها ما امكن وهذا الامر لم يكن يخطر ببال العرب قط فاذا كان المولدون قد جاؤا شيئاً مخالفاً للاصول والقواعد فانما لعدم وقوفهم على نص فيهِ او لانهم كانوا قادرين على توجيهه وتخريجه بخلاف العرب العاربة فانهم خالفوا تلك الاصول لعدم المبالاة وبقي النظر في قولهم ان كلام المولدين لا يحتج به فانهم لم يبينوا معنى المولدين فغاية ما قالوه في المولد انه عربي غير محض فان كان المراد بذلك انهُ الذي نشأ بعد الاسلام فهو محض تعنّت لان من هؤلاء المولدين من عاش قبل ان عرف التأليف في اللغة فكيف يحكم على كلامهم بانه ليس عربيًّا صحيحاً من دون كتب اللغة اه . وفي هذا القول ما فيه من صحة في النظر ودقة في الحكم

وفي محيط المحيط ايضاً مادة قسا القسيّ جمع القوس على غير قياس وكذلك القُسوي نسبة اليها ولم يعقّب عليها . وفيه ايضاً البرميل وعاء مستدير محدب الاوسط طوله اعظم من عرضهِ معربة جمع براميل وصانعه وبائعه براميليّ ولم يعقب عليها . وفيه مادة صحف الصَحَفي من يخطىء في قراءة الصحيفة ومن يأخذ العلم من الصحيفة وهو منسوب اليها بحذف الياء على القياس اه . فان كان كذلك فاذا نسمّي ناشر الصحف وبائعها ان لم نقل صُحُفي . وفيه ايضاً مادة سكن السكينيّ ما كان بهيئة السكين فان كان كذلك فاذا نسمي صانع السكاكين وبائعها ان لم نقل سكاكيني نفياً للبس . وعلى هذا المنوال الزنانيري والساميري تمييزاً له عن المسماري كالخط المسماري مثلاً والمشاوري نسبة الى العشار تمييزاً له عن العُشَري والعَشَري نسبة الى العُشر والعشرة . والنصولي والسيوفي والعجائبي تمييزاً له عن العجبي نسبةً الى العجب والكواكبي والساعاتي والحواصلي والقباقبي والكتبي وهو بائع الكتب . والجنيناتي جاء في محيط المحيط مادة جنّ الجنينة تصغير الجنة والعامة تستعملها لبستان الفواكه والزهور جمع جنينات وعاملها جنيناتي وقوله والعامة تستعملها لبستان الفواكه والزهور فيهِ نظر والكنائسي في موضع الكنسي والكنيسة ليست في الاصل عربية بل معربة مأخوذة من اكليسيا اليونانية والعقائدي تمييزاً له عن العقدي والعقدي نسبة الى العَقد والعُقدة والعقاقيري في موضع العقاري نسبة الى العقار واحد العقاقير نفياً للبس وازالة للشبهة فان النسبة الى العقار وهو المنزل والارض والضيعة عقاري . والآلاتي وهو صانع الآلات وبائعها ومن يضرب على الآلات الموسيقية تمييزاً له عن الآلي نسبة الى الآلة كالمصنوعات الآلية وهي غير المصنوعات اليدوية . والاجزائي تمييزاً له عن الجزئي نسبة الى الجزء وهو البعض والمراكبي والملوكي والدواليبي والرُقعي وهو حرف الطباعة

المعروف والأُمّي والدُّوَلي وهو ما يعبر عنهُ الأعاجم بلفظة International والثعالبي وهو العالم المشهور نسبة الى صناعة خياطة جلود الثعالب كما ورد في ترجمته في مقدمة كتابه فقه اللغة والحصري والطرابيشي والمسابكي والماردي والسباعي والدروبي والمواقدي والضباعي والهواونبي والطباشيري والبزوري والشفاهي والقنواتي والصناديقي والمراياتي والكتائبي والقصيباني والدُّوري نسبة الى الدور. ومنها العصفور الدوري المعروف والزبداني والكوكباني والعضامي نسبة الى العضام جمع عضم وهو العظم. قال ابن خلكان في وفيات الاعيان: كان ابو محمد عبد الله بن زياد الكوفي المعروف بابن الاعرابي يقول: جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطيء من يجعل هذه في موضع هذه وينشد: (الى الله اشكو من خليل اوده ثلاث خلال كلها لي عائض) بالضاد ويقول هكذا سمعته من فصحاء العرب اه. قلت: فلا يخطيء اذن من يضع الضهور في موضع الظهور والظابط في موضع الضابط. وجاء في محيط المحيط مادة سرج: السرج الرحل وغلب استعماله للخيل جمع سروج والسرَّاج صانع السرج والعامة تقول سروجي وقوله والعامة تقول سروجي فيه نظر وكيف لا يكون كذلك وقد جاء في مادة ملك ويقال امر او تاج ملوكي ولم يعقب عليها كما سترى

وسار على هذه القاعدة بالنسبة الى الجماعة جمهرة من فحول العلماء. فورد في مقتطف مايو سنة ١٩١١ في باب السؤال والجواب قوله «ويمكنكم ان تطلبوا الى احد الكتبيين ان يشتري لكم كتاباً الخ» يقصد بالكتبي بائع الكتب فنسب الى المجموع مضطراً ازالة للبس لانه لو قال احد الكتابيين لوقعت الشبهة لان الكتابي من يؤمن بما اوحاه الله في الكتب المنزلة

وممن سار على هذه القاعدة الشدياق صاحب الجاسوس وهو من أبرز ائمة اللغة وذلك في التوراة التي ترجمها الى العربية فطبعتها في لندن سنة ١٨٥٧ جمعية ترقية المعارف المسيحية ووصفها المطران الدبس في تاريخ سورية بأنها أدق الترجمات العربية. قلت: قال في سفر استير (٦: ٨) «يأتون بالملبوس الملوكي الذي يكتسي به الملك وبالفرس الذي يركبهُ الملك وبالتاج الملوكي الذي وضع على رأسه». وكرّر ذلك في موضع آخر من السفر نفسه (٨: ١٥) فقال «وخرج مردكاي من حضرة الملك باللباس الملوكي الخ». وقال في كتابه الواسطة في أحوال مالطة (صفحة ٤٣ سطر ١٤) «وقد مرَّ بك عدد الكنائس والقسيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية»

فان تكن النسبة الى الجماعة غير جائزة فكيف ينسب كتّاب العصر وادباؤه بلا استثناء الى النساء فيقولون أزياء نسائية ومجلات نسائية والنساء جمع امرأة. ومرأة والنسبة اليها وفقاً للقاعدة المزعومة مرئي فان كان كذلك فكيف نميز بينها وبين المنسوب الى المرء. جاء في محيط المحيط مادة مرأ المرء الانسان أو الرجل والنسبة اليه مرئي جمع رجال من غير لفظه والانثى امرأة بهمزة وصل وفيها لغة أخرى مرأة وجمعها نساء ونسوة من غير لفظها

وممن قال بالنسبة الى المجموع الاستاذ جبر ضومط وأوضح وجهة نظره في رسالة النسبة

قال الامام الحريري المتوفى سنة ٥١٥ هجرية في كتابهِ درة الغواص (صفحة ٩٤) «ويقولون لمن يقتبس من الصحف صحفي مقايسة على قولهم في النسب الى الأنصار أنصاري والى الأعراب اعرابي . والصواب عند النحويين البصريين أن يوقع النسب الى واحدة الصحف وهي صحيفة فيقال صحفي لأنهم لا يرون النسب الاَّ الى واحد الجموع فاما قولهم في النسب الى الأنصار انصاري فانهُ شذ عن أصلهِ وأما قولهم في النسبة الى الأعراب اعرابي فانهم فعلوا ذلك لازالة اللبس ونفي الشبهة اذ لو قالوا فيهِ عربي لاشبه المنسوب الى العرب وبين المنسوبين فرق ظاهر لأن العربي هو المنسوب الى العرب وان تكلم بلغة العجم والاعرابي هو النازل بالبادية وان كان عجمي النسب انتهى كلام الحريري . قلت : فان جاز للعرب ان ينسبوا الى المجموع ازالة للبس ونفياً للشبهة فقد حلوا العقال عن القاعدة التي وضعوها واجازوا لنا أن نجري على غرارهم وهذا جلّ ما وددتُ بحثهُ في هذا المقال فاني لستُ أقول بعدم جواز النسبة الى الواحد بل أقول بجواز النسبة الى الجماعة ازالة للّبس ولستُ أرى مانعاً مطلقاً من النسبة الى واحدة الصحف فأقول صَحَفي لمن يقتبس من الصحيفة وصُحُفي لناشر الصحف وبائعها

ومعلوم ان الامام الحريري المتقدم ذكره من أهل البصرة والبصريون قالوا بعدم جواز النسبة الى الجمع فلا غرابة اذا قال قولهم وقد خالفهم الكوفيون كما سترى

فقد قال الامام الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هجرية في شرح درة الغواص (صفحة ١٩٨) قال ابن برّي كونه لا ينسب الى الجمع قول البصريين وهو المشهور وخالفهم الكوفيون فجوّزوا النسبة الى الجمع مطلقاً فلا وجه لما قالهُ المصنف (يريد الحريري) فيما ادعاه من عدم جواز النسبة الى الجماعة . ومعلوم أن الكوفة تأسست سنة ١٧ هجرية (٦٣٨م) وازدهرت بسرعة وظلت مركز السياسة والأدب في العراق حتى تأسيس بغداد واليها ينسب الخط العربي الكوفي المعروف

ويجب ألاَّ يفوتني القول ان للذوق أيضاً دخلاً كبيراً في الأمر فمن منا لا يستحب النسبة الى المجموع على النسبة الى المفرد في مثل قولنا أزياء نسائية في موضع قولنا أزياء مرئية وأيقونة عجائبية في موضع أيقونة عجيبة وباب ملوكي في موضع باب ملكي وهو الباب الأوسط من الايقونسطاس في كنائس النصارى الملكيين وجمال ملائكي في موضع جمال ملكي . جاء في محيط المحيط مادة ملك الملاك واحد الملائك . الملكي بفتح اللام نسبة الى الملك بكسر اللام . الملكية مؤنث الملكي والملكية طائفة من النصارى لقبوا بهِ لاتباعهم الملك الواحد ملكي . الملوكي نسبة الى الملوك يقال أمر أو تاج ملوكي اه . ولم يعقب على النسبة الاخيرة فلم يقل انها مولدة أو عامية أو خارجة عن القياس وكذلك ترى ان لا مفر للكاتب في مادة ملك من صوغ ثلاثة ضروب من النسبة ملكي وملوكي وملائكي . فما قول القارئ الكريم في هذا الذي تقدم ?

بيروت في ٢٩ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤١ رزق الله فتح الله عرمان

على هامش مقال الكوفية والعقال

للاب الكرملي منزلة في العلم سامية، وله اسلوب خاص في البحث والتنقيب لا يجارى ، فهو كحجر الفلاسفة ، يحوّل كل ما يعالجهُ قلمه العسجدي ذهباً صرفاً ومقاله المنشور في مقتطف مارس سنة ١٩٤١ خير شاهد لما نقول، ومؤلفاته الكثيرة المشهورة جملته أشهر من « قفا نبك »

غير انهُ عرض في اقوال من استشهد بهم العلاّمة الجليل بعض الاوهام،لذا رأينا من واجبنا التنبيه عليها خدمة للعلم ، وتنزيهاً لذلك المقال النفيس البكر عن الطعن. من ذلك ماجاء في صفحة ٢٤٤ :

«فلقد رأينا من اسمائه في التوراة (الحبل) وعند اهل الحجاز والعراق وكثير من بلاد العرب (العقال) . وعند ابناء شرقي الأردن (المَرِيْر) وعند بدو شرقي الاردن،والسلط وعجلون، وفلسطين (العصابة)

والواقع ان بدو شرقي الاردن وحدهم — ونعني بالبدو (بني صخر) و (الحويطات) — هم الذين يسمون (المرير) (عصابة). اما اهل السلط وعجلون وفلسطين فيسمونه (العقال) وعلى سبيل الاستطراد نقول: « ان لفظة المرير على شيوعها في الديار الاردنية اكثر استعمالها في مأدبا والكرك ، وضواحيها

وجاء في صفحة ٢٤٦ نقلاً عن كتاب الاستاذ الجليل عبدالله مخلص المؤرخ في ٣١/٨/١٩٣٨ ما نصه الحرفي : « اما لباس الرأس الذي يشبه العقال وهو كما وصفتم من جهة شكله وحشوه عادة من المواد فيسمى هنا (في فلسطين) صمادة وهو خاص بالنساء . الاّ ان هذا اللباس لا يدار على الرأس كالعقال بل يوضع فوقه فيتدلى من الجانبين حتى يصل الى الأذنين وله خيط يربط به من تحت الحنك يسمى (محنكة) او (زناق).ويخاط على دائر الصمادة مسكوكات فضية قديمة مجوفة حتى يركب بعضها بعضاً ، فتتراص وتنسجم . و (الصمادة) (هنا غير الصماد) الوارد في كتب اللغة . وكذلك القول على المحنكة والزناق

والذي نراه ان في أقوال الاستاذ المخلص أوهاماً كثاراً منها :

(أ) انهُ جعل الصمادة نفسها لباساً ، مع أن الصمادة ليست لباساً ، وان هي سوى سفيفة من القماش يطوى بعضها على بعض ، او تحشى بخرق ، وتخاط عليها قطع من النقود الفضية . وتسمى الصمادة في شرقي الاردن (ألصَّفَّة) وما تخاط عليه الصَّفَّة (ألوقاة) من وقى يقي والصمادة كما تسمى في فلسطين، والصفّة كما تدعى في شرقي الأردن لاتخاط على (الوقاة) التي هي العمرة الحقيقية لرأس المرأة الاّ عند الزواج وبعده . ومن هنا نعلم أن (الصمادة) — [الصفة] في شرقي الاردن — شارة كمال توضع على رأس المرأة من الزواج فصاعداً. كما أن المرير نفسه من علامات الرجولة والكمال . واذكر أني كنت أتمنى لبسه ، فلم أحصل عليه قبل بلوغي

العاشرة من عمري. ولعلي قد سبقت بذلك أكثر لداتي في مأدبا. وقد أخذت الصمادة اسمها من فعل صَمَّدَ العروس أي جلاها وصمدة العروس هي اجلاسها في موضع بارز من الدار ليراها أقاربها والمهنّئون. ثم توسعوا في المعنى واطلقوه على هذه الشارة التي توضع على (الوقاة) مع أن الصمادة في الأصل اسم للموضع الذي تجلس عليهِ العروس. ودليلنا على ذلك ما هو شائع على الألسن بعد حفلات تصبير الاطفال في شرقي الأردن، وبعض الديار الفلسطينية « من عَمَّادْنه لَصْمادتهُ ». أي أطال الله عمر هذا المعمد الى أنْ يحتفل بزواجهِ، كما احتفل بعماده

(ب) ان العالم الجليل قد خلط بين (المحنكة) و (الزناق) فالمحنكة شيء، والزناق شيء آخر، والمحنكة حلية فضيَّة قوامها ريال شُوشي[1] أو مثلث فضي حادّ الزوايا تعلق بهِ سلاسل فضية دقيقة الصنع تنتهي بقطع نقود فضية تعرف بـ (القرطات) واحدتها قرطة أو (البراغيث) واحدها برغوث ولكون هذه الحلية تلاصق الحنك سميت (المحنكة) وبعضهم يسميها الريال. والمرأة التي تلبسهُ تدعى « أم ريال »[2] والزناق سلسلة فضية توصل بالوقاة من خلف الأذن وتدار على العنق وتوصل بجانب الوقاة الثاني من خلف الاذن الاخرى ويندر أن يكون الزناق خيطاً الا اذا كان لعجوز، أو لفقيرة معدمة، أو لامرأة أحدث؛ وكثيراً ما تغطيه المحدّة بخرقة سوداء، وتبقيه على حاله. وبرهاناً على ان المحنكة غير الزناق قول الشاعر الاردني — فضلاً عن معرفتنا الشخصية —

« يخفى[3] لَمَيْعَ المحنكةِ بنحرها وزْنَاقْها يوضي[4] كما[5] شمعَةَ الدَّارْ »

(ج) انهُ جعل النقود التي تخاط على الصمادة (الصفة) مجوفة، ويفهم من هذا ان تجويفها شرط، مع ان الأمر ليس كذلك. فقد تكون مجوفة، او مبسطة، وهذه النقود تعرف بـ (الوزريات) واحدها الوزري، او (العشاري)، واحدتها العشراوية[6]

وجاء في الصفحة ذاتها نقلاً عن رسالة الدكتور مصطفى جواد ما يلي:

« ان الذي رأيتموه على رؤوس البدويات نوعان: نوع من جنس العقال الذي يتخذه الرجال، ونوع يسمى جمجة. أي كعكة، يتخذه النساء الربعيات اي المعيديات تهوينا لنقل

(١) الريال الشوشي أو ابو شوشة هو الريال الانكليزي

(٢) هذه الحلية التي تكاد تنقرض في شرقي الاردن كانت خاصة بالطبقة الراقية، والبدو يتغزلون بهذه الحلية. راجع صفحة ٩٥ من كتاب النقود العربية وعلم النميات الذي تولى نشره الاب العلامة انستاس ماري الكرملي سنة ١٩٣٩ وطبعه في المطبعة العصرية (٣) اي انه لا فرق بين بريق الفضة الخالصة وبريق نحر حبيبته، لجمالها، ونقاء بشرتها (٤) يوضي — يضيء (٥) كما كأنه. يشبه

(٦) الوزري هو النقد التركي المعروف في سورية بالزهراوي. وكانت قيمته الى سنة ١٩٣٠ خمسة قروش تركية صاغة. وهو اليوم يباع بنحو ١٢ ونصف (اثنى عشر ملا ونصف اقل من النقد الفلسطيني). والمقابل الفلس العراقي. اما العشراوية فهي نقد فضي بطل التعامل به سنة ١٩٢٥. راجع صفحة ٩٤ من كتاب النقود العربية وعلم النميات. للاب انستاس ماري الكرملي المطبوع سنة ١٩٣٩

ما يحملن على رؤوسهن من قصاع اللبن والرائب ، وكلاهما مألوف معروف »

« فأما العقال فعند اكثر البدويات الرواحل . وأما الكعكة فهي شيء اضطرت الحاجة اليه فلا يدخل في أبواب العقال ، فالعقال هو الرفيع ، والجمجة ثخينة » آه

والذي نعرفه يؤكد لنا ان الدكتور الجليل واهم في قوله . فالجمجة ، ليست عقالاً ، ولا عصابة ، ولا هي عمرة ، ولا جزء من عمرة الرأس ، انما هي أداة من القماش او الخيش توضع على الرأس عند حمل الاثقال فقط ، وتطرح بعد ذلك . وتسمى في مأدبا (مـدْوَرَة) وفي عمان والسلط ، وعجلون « كاـيْـل » . أما قوله : « ان العقال عند اكثر البدويات الرواحل » فليس في شيء من الصواب . فعصائب النساء لا تكون عادةً الا من القماش — هذا اذا استثنينا بعض الشراريات — على نقيض عصائب الرجال وعقلهم . والمرأة لا تعتصب عادةً الا بعد الزواج — ما عدا نساء السلط والحصن وضواحيهما من أعمال شرقي الاردن فان العصائب شائعة بينهن أبكاراً ومتزوجات — لان العصبة تعد شارة من شارات كمال المرأة ، وشيخوختها . ولا تتشبه المرأة بالرجل في عصبتها . اوفي اتخاذ البياض عصابة الا اذا أحدَّت . وكأن لسان حالها يقول: — انهُ لم يبقَ في الحي رجل تعترف برجوليته ، اذاً ، فلا لوم عليها اذا تشبهت بالرجال في عمرة رأسها »

ولعلَّ الدكتور الجليل رأى من أحدَّت من البدو فظنَّ لباسها عامًّا في نساء البدو كافة

وجاء في صفحة ٢٤٧ « والعراقيون من أهل البادية يسمون الكوفية (الحلالية) بتحريك الحاء واللام ، وكسر اللام الثانية ، وتشديد الياء

وهذه التسمية معروفة في الكرك من أعمال شرقي الاردن فهم — أهل الكرك — يقولون: « حْـلِـيْـلِـيّـة » باسكان الحاء وكسر اللام الأولى والثانية وتشديد الياء الثانية مفتوحة ، ولفظ الياء كما يلفظ حرف (é) الفرنسية . وجمعها « حْـلَـيلـيَّـات » ويسمون (الشَّمَـاغ) (اليشماق) (حَـلَالِـيّـة) ويجمعونها على « حَـلَالي »

وجاء في صفحة ٢٤٨ سطر ١٥

« ولهذا كان من اسمائه العربية في البلاد الضادية اللسان تدل كلها على مثل هذا المعنى »
والذي نعتقده انهُ سقط من الاصل ما جعل العبارة غير واضحة . فهي تستقيم هكذا :

ولهذا كان من اسمائه العربية في البلاد الضادية اللسان كلها ، دليل على هذا المعنى . » ومن أوهام الطبع الواردة في المقال ما جاء في صفحة ٢٣٨ سطر ٦

اصفياء جمع فؤاد الأول للغة العربية ، وصوابها أحفياء واحدها حفي

هذا ما عنَّ لنا تعليقه على ذاك المقال النفيس البكر ، شاكرين للأب الحجة خدمته الجبارة المخلصة لهذه اللغة ولأبنائها

عمان شرقي الاردن روكس بن زائد العُزَيزي



خطبة وزير المعارف

في حفلة افتتاح مستشفى فؤاد الأول

تفضّل حضرة صاحب الجلالة الملك بافتتاح مستشفى فؤاد الأول في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس ٢٤ ابريل في حفل رسمي عظيم فألقى معالي وزير المعارف الخطبة التالية بين يديه : —

مولاي : أن في تفضل جلالتكم بتشريف هذا الحفل لتفتتحوا مستشفى فؤاد الأول لآية من آيات رعايتكم العلم ، وجميل بركم بالمرضى والفقراء ، وعظيم حرصكم على أن تسرع نهضة هذه الأمة التي تعتز بعرشكم وتحب من أعماق القلب شخصكم . وليس يسعنا جميعاً لقاء هذا العطف السامي الاّ أن نرفع الى مقامكم الكريم أبلغ الشكر ، وأن نتوجه الى المولى القدير بالدعاء أن يظلكم بعنايته ويمدكم بتوفيقه ، ويعز شعبكم الوفي الطامح الى غايات الرفعة والمجد

ومما يضاعف غبطتنا ، يامولاي ، أنكم تفتحون اليوم عملاً من الاعمال الجليلة التي كان للمغفور لهُ والدكم العظيم ، عليه رحمة الله ، فضل اقامتها صروحاً مشيدة للعلم ، والبحث ورعاية الانسانية . اليه ترجع الفكرة الاولى في هذه المؤسسة ، وبعنايته في ظل ملكه بدأ التعهد لتشييدها ، وبعزمه وحزمه سار العمل فيها رغم كل العقبات . وها هي ذي تشهدها اليوم أعين جميع المقيمين بمصر فيأخذها الاعجاب بجلالها وعظمتها ، وتشهدها أعين الأجانب عن مصر ، فيقرون لها بالتفرد بين نظائرها في العالم فخامةً ونظاماً ودقةً

مولاي : لما تولى المغفور له والدكم العظيم رآسة الجامعة المصرية الاهلية الناشئة في سنة ١٩٠٧ ، كانت عنايته بها فأل يمن بنجاح نشأتها والمستشفى الذي تتفضلون اليوم بافتتاحه اثر من آثار هذه العناية التي وطدت ركن الجامعة فجعلتها صرحاً للعلم مشيداً . ولقد ظلت الأرض التي يقوم عليها هذا المستشفى ، والتي تبلغ اثنين وخمسين فداناً ، فضاء فسيحاً يكتنفه النيل من جانبيه ، ويغمر الفيضان بعض اجزائه ، حتى جلس والدكم على عرش ابيه وجده سنة ١٩١٧ . عند ذلك صح العزم على اقامة مستشفى يتصل بكلية الطب ليؤدي الغرض التعليمي ، ويحقق فكرة صاحب العرش في الجامعة ، ولينهض بعاصمة الدولة في الناحية العلاجية الى المكانة التي تناظر بها مثيلاتها من عواصم اوربا وأميركا . وتم اختيار هذه الأرض لاقامة المستشفى وكلية الطب عليها ، ووضعت التصميمات لمبانيها المختلفة ، ومن بينها تصميم مدخل رئيس يقام فيه تمثال الملك فؤاد ، اعترافاً بفضله في اقامة هذه المؤسسة العلمية التي لا تدانيها في العظمة او في الدقة مؤسسة في العالم

وقد لوحظ في تصميمها، ان تحقق الغرضين الاساسيين منها على أكمل وجه. لذلك حوت مجموعاتها اقساماً تناولت جميع فروع الطب في التشخيص والعلاج، وانشئت بها صيدلية اصرف الأدوية للجمهور. وبهذا استوفت ما يجب للاغراض التعليمية في جميع فروع الطب، فلا يضطر الطلاب للتنقل بين المستشفيات المتباعدة على نحو ما يقع في كثير من العواصم، كما استوفت ما يجب للعلاج، فاذا قصدها المريض وجد امامه المستشفى الذي يعالج فيه مرضه. واستيفاؤها هذين الغرضين هو الذي جعلها أكبر مجموعة طبية في العالم

مولاي: تم بناء هذا المستشفى خلال خمس عشرة سنة بذل في اثنائها من الجهد والمال ما لم يكن يتيسر بذله لولا رعاية والدكم، عليه رحمة الله ورضوانه، ولولا عطفه على هذا العمل العظيم وتشجيعه للقائمين به وحرصه على تمامه. وكيف كان له ان يتم من دون هذه الرعاية. وقد قدرت التكاليف النهائية لاقامة المستشفى وكلية الطب بمبلغ ١٣٦٥٠٠٠ جنيه، انفق منها في بناء المستشفى نحو ٨١٥٠٠٠ جنيه. وسينفق ما بقي في اقامة كلية الطب ومعاملها وملحقاتها

وكان لتشييد هذه المؤسسة الجليلة، يامولاي، من الاثر في النهضة المصرية بوجه عام، ما يشهد بأن العمل العظيم لا يقف فضله عند تحقيق الغرض المباشر المقصود منه، بل يتعداه الى نواحٍ ليست دون هذا الغرض جلالاً ونفعاً. فقد أنهض العمل في هذه المؤسسة صناعات شتى لم تكن معروفة قبله في مصر، وكان الوارد منها الى البلاد يستنفد قدراً جسيماً من أموالها. نشأت صناعة النوافذ والحواجز والدواليب المعدنية، وصناعة الرخام الصناعي المصقول المعروف باسم «التراتزو» وصناعة الطلاء بالكروم، وصناعة الارضيات الكاوتشوك وصناعات أخرى توطنت في هذه البلاد وأغنتها في الأزمة العالمية الحاضرة عن الاستيراد من الخارج

ومن دواعي الاغتباط، يا مولاي، ان الأيدي العاملة التي أتمت هذا البناء الفخم مصرية كلها، فيما خلا بعض الأعمال الاخصائية كالبخار والكهرباء. والاجانب الذين تولوا هذه الأعمال الاخصائية، لم يتعد عددهم العشرة

ويرجع الفضل الاكبر في نمو هذه الصناعات وفي قيام الايدي المصرية بالعمل في هذه المؤسسة الكبرى، الى ما ابداه مهندسونا المصريون من براعة ودقة، وحرص صادق على افادة وطنهم من هذا العمل بكل وسيلة ممكنة

وأدعى للاغتباط، يا مولاي، ان هذه المؤسسة العظيمة قد عهد في العمل العلاجي فيها الى رجالنا والى شباننا المصريين الذين تعلموا في مصر وحصلوا على أرقى الدرجات العلمية من الجامعات الاوربية. فالاطباء على اختلاف فروع اختصاصهم، والصيادلة، والعاملون في الأشعة وغيرهم من المتولين لشئون هذا المستشفى جميعهم من المصريين، وجميعهم من ذوي القدرة والكفاية، وأكثرهم قد انقطع لعمله تمام الانقطاع. وهذه خطوة مباركة كنا نرجوها لمصر من زمان بعيد وتحقيقها في عهدكم

السعيد ، يامولاي ، يزيدنا بها غبطة وابتهاجاً

وما دمت قد ذكرت المهندسين الذين تولوا بناء المستشفى ، والاطباء الذين عهد اليهم بالعمل فيه فانني استأذنكم يامولاي، في ان أذكر ما كان لطبيب مصر العظيم الدكتور علي ابراهيم باشا من جهد صادق في جميع الأدوار التي مر بها هذا المستشفى منذ البدء في تأسيسه الى وقتنا الحاضر

مولاي: ان علينا، بعد أن تم بناء مستشفى فؤاد الأول. أن نقيم معهُ كلية الطب ومعاملها وملحقاتها ، وسيتم ذلك عما قريب ، بجميل عطفكم وحسن رعايتكم. وسيتم كذلك في عهدكم وبعنايتكم ، يامولاي ، تشييد المعاهد التي تؤلف جامعة « فاروق الأول» بالاسكندرية وانشاء غيرها من الجامعات ومعاهد العلم والبحث والبر بالانسانية في شتى أنحاء المملكة ، على نحو من الدقة والجلال تطمئن اليهِ نفسكم الكبيرة ، ويتفق مع ميولكم العظيمة، وآمالكم الجسام في النهوض بهذا الوطن ، والرقي بجميع مرافقه، ليسعد أبناؤه ، وليتابعوا خطوات جلالتكم الموفقة في السير بهِ الى المكان الذي تبتغونهُ لهُ

وأستأذنكم ، يا مولاي ، ان تفتتحوا مستشفى فؤاد الأول ، داعياً الله أن يجعل عهدكم السعيد عهد يمن وتوفيق وعزة لهذا الوطن وابنائه

اللؤلؤ في الاساطير والآداب القديمة

ما فتئت اللآلىء من قرون تستوقف أنظار الناس ببهائها وسر تولدها ، فهي الحجر الكريم الوحيد الذي يستخرج من البحر ، والذي يتولد بفعل حيوي . فليس بالعجيب ان تحاك من حولها أساطير الأقدمين ، ويسير ذكرها في روايات الرواة والقصاصين، وتطيف بها أحلام الشعراء وتغنيها قصائدهم ، ولكن العلم الحديث لا يثنيه الشعر عن التحليل فعمد الى اللؤلؤة يخضعها لأساليب الكيمياء وعين المجهر والمطياف ، وقد عني كثيرون بتوليد اللؤلؤ مجارين الطبيعة في أسلوبها ولكنهم لم يفوزوا حتى الآن بما يضاهي لؤلؤ خليج ايران بل ان اللؤلؤ المولد بالقياس الى اللؤلؤ الطبيعي يشبه — في رأي الدكتور الكسندر أحد علماء معهد ميلون الاميركي — الصورة المقلدة بالمقابلة مع الصورة التي وشتها ريشة علم من الأعلام

تدخل جسم محارة اللؤلؤ حبة من الرمل او دقيقة من مادة غريبة عن ذلك الجسم اللين الحساس ، فتغدو تلك الحبة او تلك الدقيقة نواة اللؤلؤ البهية ، اذ تغطيها المحارة بطبقة في أثر طبقة من الافراز المعروف باسم Nacre اي عرق اللؤلؤ . وهذه الطبقات تختلف ثخانة ، فنها ما هو أرق من الورق الرقيق ، الذي تلف بهِ لفائف التبغ. وأبهى اللآلىء ما كانت طبقاتهُ رقيقة . ومنها ما هو أثخن من ذلك على تفاوت ، وأقل اللآلىء قيمة في عرف الخبراء هي اللآلىء التي طبقاتها ثخينة

والغالب ان اللؤلؤة تتخذ لونها من غشاء الصدفة او من ذلك الجانب من الغشاء الذي تتولد وتنمو في جواره. فليس من المحتمل ان

تقع على لؤلؤة وردية اللون في الصدفة ليست بوردية في داخلها

وألوان اللآلىء تختلف من ورديّ الى قشدي الى ابيض الى رمادي الى برونزي الى اسود الى اصفر فاتح الى ازرق الى اصفر الى بنفسجي الى برتقالي الى بني الى اخضر . ولكن الالوان المقدمة على غيرها هي الوردي والقشدي والابيض والاسود

وهناك ما يحمل على القول بأن درجة الحرارة وتركيب الماء وصحة المحارة نفسها هي العوامل التي تحدد لون اللؤلؤة في نطاق العامل الاول الذي تقدم ذكره . وتلألؤها مردُّهُ الى انعكاس الضوء وتكسره على سطحها

وقد تغنت كتب النصارى والعبرانيين الدينية بجمال اللآلىء وبهائها ففي انجيل متى « يشبه ملكوت السماوات انساناً تاجراً يطلب لآلىء حسنة » . وفي امثال سليمان عن الحكمة « هي أثمن من اللآلىء . . . » . وفي التلمود اشارة الى اللؤلؤة التي « لا ثمن لها » والى المن الابيض كاللؤلؤ

وتعزو أساطير الهنود كشف اللؤلؤة الى كريشنا فهي الشكل الذي تجلى فيه الاله فيشنو بكل مجده ، وتمضي الرواية فتقول انهُ انتزع اللؤلؤة من اعماق البحر ليزين ابنتهُ بها يوم زواجها ، والى هذا ترتد عادة الجمع بين اللآلىء والعرائس وفي الادب السنسكريتي في عصر ازدهاره في القرن الثالث الميلادي اشارات متعددة الى اللآلىء وكانت اللؤلؤة تدعى « بوتكا » اي النقية وفي مسرحيات كاليداسا الشكسبير الهندي اسماء شتى اطلقت على اساور اللؤلؤ وعقوده

ويذهب روزنتال في كتابه « مملكة اللؤلؤ » الى ان اللؤلؤ أول الحجارة الكريمة التي عرفها الانسان . ومن المحتمل انهُ كشف اولاً بواسطة رجل من القبائل التي تأكل السمك وغيره من حيوان البحر على سواحل الهند . والغالب انهُ أعجب ببهاء اللؤلؤ عند ما فتح صدف المحار الذي جمعه ليأكل ما فيه . ثم استعملهُ وفقاً لارتقاء ذوقه ورغبته في الزينة

وعرف الصينيون قيمة اللؤلؤ من قديم الزمان فكانوا يقبلونهُ في المعاملات . ومن رواياتهم العجيبة ان من اللآلىء ما يبلغ تلألؤه مبلغاً يكفي لطهي الرز على مسافة الف ميل . وفي بدء العهد المسيحي رويت رواية عن لؤلؤة كانت لشدة بهائها ترى على بعد ثلاثة اميال

ومن أشهر الروايات ان كليوباطرة شربت خمراً اذيبت فيه اللآلىء . ولكن العلم الحديث يضيف الى هذه القصة ان اللآلىء لا تذوب في الخمر المألوف الاَّ اذا سحنت قبلاً . وتشبه هذه الرواية رواية أخرى عن حادثة حدثت في عصر الملكة اليزابث . فقد قيل ان رجلاً يدعى السر توماس جريشام كان يملك لؤلؤة يقدر ثمنها بخمسة عشر الفاً من الجنيهات فسحنها وأذابها في خمر وشربها نخباً للملكة في مأدبة أدبها للسفير الاسباني . ويقال ان غرضه من ذلك اقامة الدليل للسفير على مبلغ غنى الانكليز وقدرتهم على انشاء اسطول قوي لمقاومة مطامع سيده فيليب الثاني -

بوارج طبقة « جورج الخامس »
خصائصها وبعض أوصافها الفنية

اذاعت الأميرالية البريطانية في اواخر شهر ابريل ١٩٤١ ان بارجة جديدة تدعى «برنس اوف ويلز» قد تمَّ انشاؤها وتسليحها فانضمت الى الأسطول البريطاني متأهبة للقتال. وهي شقيقة البارجة « جورج الخامس » التي اقلَّت لورد هاليفاكس الى الولايات المتحدة الأميركية من اشهر. والبارجتان من طبقة جديدة تعرف باسم طبقة « جورج الخامس » وتشمل خمس بوارج ينتظر أن يتم انشاء الثلاث الباقية منها وتسليحها في خلال هذه السنة

تفريغ كل بارجة منها ٣٥ الف طن ومحركاتها تولد ١٥٢ الف حصان فتدفعها بسرعة ثلاثين ميلاً بحريًّا في الساعة وهي اقصى سرعتها . وقد خصص نحو ١٣ الف طن من تفريغها للدروع فهي من امتن البوارج دروعاً وأحيطت اجزاؤها الحيوية الداخلية — كحجرة المحركات — بدروع أخرى فاذا ثقبت الدروع الخارجية فان المحركات لا تعطب قبلما تثقب الدروع الداخلية كذلك

وداخل البارجة مقسم اقساماً في الوسع فصل احدها عن الآخر بأبواب ضخمة متينة فاذا عطب جزء من البارجة ودخله الماء بقيت الأجزاء الأخرى بمنجى من تدفق الماء عليها فمن اشقِّ الأمور اغراق بارجة من هذا القبيل. وأحيطت الأجزاء التي تعرف بدماغ البارجة — أي المرقب وأجهزة السيطرة على المدافع — بجدران قلعة متينة من الصلب وفي الوسع احكام ايصادها فلا ينفذ الغاز الحربي او غيره اليها

اما مدافعها فأكبرها عشرة قطر كل منها اربعة عشر بوصة وهي مركبة في طابيتين بكل منها اربعة مدافع وفي طابية ثالثة بها مدفعان . وقد يسأل القارىء لماذا فضلت الأميرالية البريطانية مدافع من عيار ١٤ بوصة مع ان طائفة من البوارج البريطانية وغير البريطانية المستعملة الآن والتي بنيت قبل سنين مسلحة بمدافع عيارها ١٥ بوصة او ١٦ بوصة. والواقع ان هذا التفضيل نشأ عن تقدم صناعة الصلب القاسي المتين تقدماً عظيماً في العهد الاخير فجعل في الوسع صنع مدافع طويلة الانبوب سريعة الانطلاق تفوق في طول انبوبها وسرعة انطلاقها المدافع التي صنعت قبلاً . واذا كانت قنبلتها لا تزيد من حيث الوزن على ثلاثة ارباع وزن القنبلة المنطلقة من مدفع قطره ١٦ بوصة فان سرعة انطلاقها (ثلاثة انطلاقات في الدقيقة) تمكن المدافع العشرة من ان تقذف في وقت معين مجموعة من القنابل تعدل في زنتها ما تستطيعه تسعة مدافع من عيار ١٦ بوصة . والمدافع الجديدة على كل حال أبعد مرمى وأدق رماية . وفي هذه البوارج مدافع اخرى منوعة وليس فيها انابيب طوربيد لأن الخبراء البحريين يكادون يجمعون الآن على ان قذف الطوربيد ليس من اختصاص البوارج

مؤتمر المجمع المصري

للثقافة العلمية

يعقد المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الثاني عشر في الاسبوع الاول من شهر مايو (٢ — ٨ مايو) في ردهة الجمعية الملكية للحشرات برآسة الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك الاستاذ بكلية الطب ومدير معهد فؤاد الاول لأمراض البلاد الحارة . وسماع محاضراته مباح لمن يريد بغير دعوة او تذكرة. واليك برنامجه

الجمعة ٢ مايو: افتتاح المؤتمر — كلمة الرئيس السابق الدكتور حافظ عفيفي باشا مدير بنك مصر . محاضرة الرآسة « اثر العوامل الجوية في شدة اصابة شمال الدلتا بدودة ورق القطن واستنباط طريقة جديدة للمقاومة على هذا الأساس » للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

السبت ٣ مايو : « التقدم الصناعي في مصر وأثره في الاقتصاد القومي » — للدكتور حافظ عفيفي باشا

الأحد ٤ مايو : « الحديد والفولاذ في المدنية الحاضرة » — للدكتور احمد زكي بك المراقب العام لمصلحة الكيمياء. و « استغلال الجراثيم لصحة الانسان » للدكتور احمد زكي ابو شادي الطبيب البكتريولوجي ورئيس رابطة مملكة النحل

الاثنين ٥ مايو: « اصلاح القرية » للدكتور سيد فهمي كريم الاستاذ بكلية الهندسة

و « تعدد دساتير الأدوية وما يسببه من ارتباك في فن العلاج بمصر » للدكتور ابراهيم رجب فهمي استاذ خواص العقاقير بكلية الطب

الثلاثاء ٦ مايو: عطلة رسمية احتفاء بعيد الجلوس الملكي

الاربعاء ٧ مايو : « فتوحات شجرة القطن في عالم الصناعة » للاستاذ عبد الحليم الياس نصير بوزارة الداخلية

الخميس ٨ مايو: « الانسولين ومسألة تحضيره في مصر » للدكتور علي حسن استاذ الكيمياء الحيوية بكلية الطب

و « الملاحة الجوية وعلاقتها بانتشار الأمراض » للدكتور سعدالله مدور الاخصائي بمعهد فؤاد الاول لأمراض البلاد الحارة •

التطوع للصحافة في لندن

عنيت شركة الأخبار الأميركية المعروفة باسم الصحافة المتحدة (A. P) بالتخفيف عن مكاتبها في لندن فمنحتهم اجازات يعودون في خلالها الى الولايات المتحدة اذا شاؤا او يذهبون الى مناطق اخرى وذلك على اعتبار ان العمل الصحافي في لندن وهي معرضة لاخطار الحرب الجوية مرهق ومنهك للقوى . ولم تشأ ان تلزم التحكم في تعيين غيرهم من مراسليها مكانهم فدعت الى التطوع في خدمة الصحافة في لندن فتلقت في خلال يومين اسماء ستين متطوعاً

البارجة الاميركية نورث كارولينا

أنجزت دور الصنعة البحرية في الولايات المتحدة الأميركية إحدى بارجتين جديدتين وتمّ تسليحها وضمت الى الاسطول الأميركي في أثناء شهر ابريل ١٩٤١ وينتظر أن تلحق بها شقيقتها في منتصف مايو ١٩٤١

وهي بارجة تفريغها ٣٥ الف طن وأكبر مدافعها تسعة من قطر ست عشر بوصة واثنا عشر مدفعاً من قطر خمس بوصات وثمانية مدافع مقاومة للطائرات من عيار خمس بوصات ومدافع أخرى متعددة. وتحمل أربع طائرات تقذف بمنجنيقين. و٣٥ في المائة والواح من دروعها ملحومة بعضها ببعض بالالحام الكهربي والباقي متصل بالمسامير القوية. والالحام يوفر وزناً غير يسير فيستعمل في زيادة ثخانة الدروع او ضخامة المدافع او سعة خزانات النفط. وقدرت نفقتها بخمسة وستين مليوناً من الدولارات

سلاح الحرباء

كيف تستطيع حرباء طولها سبع بوصات ان تصطاد ذبابة على اثني عشر بوصة منها بغير ان تتحرك الحرباء من مكانها. السرُّ في ذلك ان للحرباء لساناً أطول من جسمها وانهُ ينطلق من شدقيها كالسهم بفعل عضلات خاصة كما تنطلق بذرة البطيخ الزلقة بفعل عضلات الأصبعين اللذين يضغطان عليها. فللحرباء في فمها عضلات تنقبض فجأة على عظمة زلقة فينقذف اللسان الى الخارج وفي طرفهِ مادة لزجة تعلق بها الذبابة قبلما تستطيع النجاة

المرقب العاكس الجديد

متى تمَّ انشاء المرقب العاكس الجديد الذي قطر مرآتهِ مائتا بوصة يغدو علماء الفلك قادرين على رصد نجوم اضأل ضوءاً من اخفى النجوم التي ترى بالعين المجرَّدة مليون مرة

عدد الصور المتحركة

عندما تخرج من دار للصور المتحركة بعد ما انقضي ساعتين فيها تشاهد الأفلام المعروضة تكون قد شاهدت في الافلام على المعدل نحو ١٧٥٠٠٠ صورة متوالية بسرعة معينة

حرارة لفافة التبغ

قيست درجة الحرارة في الطرف المشعل من لفافة التبغ فاذا هي ١٣٧٥ درجة فارنهيت اي ٧٤٦ درجة مئوية

[مجلة ملخص العلم]

حقائق عن البحر الاحمر

يبلغ طول الساحل الشرقي للبحر الاحمر ١٤٢٨ ميلاً ومعدل عمقه ١٦١٧ قدماً وعرضهُ الاكبر ٢٢٠ ميلاً ومساحة سطحه ٣٠٠٧٠٠ ميل مربع ، ويبلغ عرضهُ عند باب المندب ١٥ ميلاً ونصف ميل ومعدَّل عمقه ٣٢٨ قدماً . وفي وسط البوغاز جزيرة بريم الانكليزية

وماء البحر الاحمر أجاج، ويذهب بيجار Bigarre الى ان معدل ملوحته سيتضاعف في خلال ١٧٠ سنة ويقترح ان تفصل بعض المساحات التي ماؤها ضحضاح فيتبخر ماؤها ويؤخذ ملحها الراسب ، فاذا فصلت مساحات من هذا القبيل مجموعها ٣٠ الف ميل مربع تبخر منها نحو ٤٠٠ مليون ذراع مكعبة من الماء في اليوم تاركة ستة عشر مليون طن من الأملاح اكثرها من ملح الطعام ولكنها تشمل املاحاً أخرى متعددة

ومن آرائه انهُ في الوسع انشاء سدود عند باب المندب وعند طرف قنال السويس الجنوبي لمنع ماء البحر المتوسط والمحيط الهندي من دخول البحر الاحمر ، فتجف مناطق لايزيد عمق مائها على ٩٠ قدماً الى مائة قدم (وهي ٩٠ في المائة من مساحة سطح البحر) ويستغرق ذلك سبع سنوات

(محرر نيويورك تيمس العلمي في مجلة ملخص العلم)

حبوب النشاط

يذهب الباحث الالماني موريل Murell الى وجوب اعطاء الطيارين وسائقي السيارت والدبابات حبوب « فيتاملتين » وهو اسم اطلق على حبوب تشمل مقادير غير معينة من الدكستروز وفيتامين C وكلوريد الثيامين وأميد الحامض النيكوتينيك فتمكنهم من المضي في بذل نشاط عضلي مدة اطول جدًّا من المدة الطبيعية

***

ويقول أنهُ جرَّب هذه الحبوب في شابين صائمين وهما يحركان عجلات دراجتين مثبتتين فاستوقف نظره تأثير هذه الحبوب في نشاطهم

وترى مجلة اللانست الطبية أن التجربة يجب أن تشمل عدداً وافراً من الشبان ويجب كذلك أن تضبط باعطائهم حبوباً تشبه الحبوب المذكورة من كل ناحية الاَّ انها لا تحتوي عقاراً او فيتاميناً ما لتبين تأثير الوهم

ومع ذلك تذهب مجلة « اللانست » الى وجوب تجربة تجارب من هذا القبيل على ان تكون خاضعة للسيطرة العلمية الدقيقة لأنهُ اذا ثبت تأثيرها وخلوها من الضرر فاستعمالها مستحسن

فعل فيتامين D
في منع الكساح وشفائه

كل قارىء من قراء المقتطف يعرف ان فيتامين D يمنع الكساح ويشفيه . ولكن الاطباء الذين يصفونه لاصغار المصابين بالكساح والعلماء الذين كشفوه وتبينوا طريقة تولده بفعل أشعة الشمس ، كانوا يجهلون الى عهد قريب طريقة تأثيره في منع الكساح وشفائه

وقد اطلعنا في آخر عدد اتصل بنا من رسالة العلم الأسبوعية الأميركية على نبإ مؤداه ان الباحثين الدكتور هارولد هريسون والدكتورة هلن هريسون (كلية الطب بجامعة كورنيل) أثبتا بالبحث ان فيتامين D يفعل فعله هذا عن طريق الامعاء والكليتين

ولا يخفى ان ضعف العظام في المصابين بالكساح مرده الى ان العظام لا تمثل مقداراً كافياً من الكلسيوم والفصفور وهما عنصران لازمان لقوامها . وقد يكثر مقدار هذين العنصرين في الطعام ومع ذلك فقد تعجز العظام عن تمثيلهما

وقد وجد الباحثان اللذان تقدم ذكرهما أن هذا الفيتامين يساعد الدم على أخذ الكلسيوم والجير من الطعام عن طريق الامعاء . ثم ينقلهما الدم إلى حيث تمتصهما العظام وتمثلهما فيدخلان في بنائها

ولكن قد يكون في الدم مقدار وافر من الكلسيوم والفصفور ومع ذلك تنشأ حالة كساح لأن الكليتين قد تأخذانه من الدم وتفرزانه

وقد وجد الدكتور هريسون وقرينته أن وجود فيتامين D يمنع هذا الافراز. فقد تأخذ الكليتان الكلسيوم والفصفور من الدم ولكن هذا الفيتامين يحملهما على إعادة العنصرين الى الدم فتتاح للعظام فرصة تمثيلهما

الارانب أقدم الثدييات العائشة الآن

يذهب الدكتور وليم سكوت الاستاذ السابق لعلم طبقات الارض في جامعة برنستن الى ان الأرانب والاوبسوم أقدم الثدييات العائشة الآن وانها ترجع الى عهد الايوسين قبل ٣٠ الى ٤٠ مليوناً من السنين والدكتور سكوت من كبار العلماء الذين بحثوا حالة أميركا قبل التاريخ

هل تعلم

* انهُ جربت وسيلة جديدة لعلاج الأمراض العقلية باحداث صدمة كهربية عن طريق إمرار تيار كهربي في الدماغ

* أن الخراطين عميٌ صمٌّ وإن أصواتها — على قول كاتب في مجلة التاريخ الطبيعي — يشبه صوت وكف الماء قطرات متتابعة ؟

الرجل الايمن والرجل الايسر

للدكتور عبده رزق
طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو (العراق)

يلاحظ الأطباء منذ عهد بعيد ان جهتي الجسم في كثير من الأمراض لا تصابان بدرجة واحدة ، وان بعض العلل والعاهات تنتاب الانسان في جانب واحد اكثرمنهُ في الجانب الآخر . وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من عزا هذا التباين الى أسباب تشريحية وآخرون الى أحوال مختلفة

والواقع انهُ يوجد بين الجانب الأيمن والجانب الأيسر من الجسم عند أغلب الأشخاص سواء أكانوا في حالة الصحة أم في صولة المرض فرق بين من هذه الناحية . غير ان هذا الفرق يختلف باختلاف الأشخاص وبنسبة نستطيع التوصل الى معرفتها وضبطها بسهولة اذا ما أردنا ان نفحص عدداً معيناً منهم استناداً الى بعض الدلائل والاعراض ، فنستطيع إذ ذاك تقسيمهم قسمين مستقلين : أحدهما ضعيف من اليمين والآخر ضعيف من اليسار

والنقط الرئيسية التي يصحُّ الاعتماد عليها لتعيين الفرق بين هذين القسمين نوضحها هنا كما يلي : —

تنظر مثلاً الى الوضع الذي يأخذه الشخص في أثناء نومه : هل هو ينام على الجانب الأيمن أو على الجانب الأيسر ؟ وأية جهة يفضلها عادة على الأخرى وقت نومه ؟ ولا يخفى ان معظم الناس يؤثر إحدى الجهتين على الأخرى ، أي ان بعضهم يفضل الجهة اليمنى والبعض الآخر الجهة اليسرى . وهؤلاء الأخيرون هم بوجه عام أقل عدداً من الأولين . وقد فسر بعضهم هذا التباين بالنظر لوضع القلب والكبد والمعدة الخ . غير ان هذا التفسير لا يكفي لتعليل السبب والبتُّ فيه بصورة مطلقة واذا سلمنا بهذه النظرية فالجسم يجب ان يأخذ حينئذٍ وضعاً واحداً وينام الانسان على جانب واحد دون الآخر ، وهذا غير صحيح ولا مألوف مادامت الأعضاء المذكورة ثابتة وما دمنا نرى أناساً ينامون بحسب اهوائهم وميولهم سواء على هذا الجانب او على الجانب الثاني

وقد أجريت اختبارات عديدة في هذا الصدد ففحص ٢٠٠٠ شخص بين صحيح وسليم على السواء بعد اتخاذ الاحتياطات الدقيقة اللازمة تجنباً لوقوع كل سبب للخطإ فظهر ان ٨٦ بالمائة منهم يميلون في نومهم الى هذا الجانب او ذاك ، وانهم يشعرون بانزعاج وتعب اذا خالفوا هذه العادة ، بينما ١٤ بالمائة فقط من ذلك العدد يميلون الى النوم على الظهر

فضلاً عن ذلك فقد لوحظ ان بين الـ ٨٦ بالمائة من الاشخاص الذين ينامون على هذا

الجانب دون الآخر يوجد ٧٢ بالمائة منهم ينامون على الجانب الأيمن والباقون على الجانب الأيسر ، ويعلل الفسيولوجيون هذا الفرق بنتيجة الضغط على الكتل العضلية في أثناء النوم مما يسبب ثقلاً وضيقاً شديداً في جهة واحدة أكثر من الأخرى ، وهذا ما يبرهن لنا ان بين ٨٦ بالمائة من الاشخاص الذين كانوا موضوع المشاهدة والاختبار ، تكون الجهة اليسرى في ٧٢ بالمائة منهم أكثر احساساً ويؤثرون النوم على الجانب الأيمن ، والباقون يشعرون بعكس ذلك أي ان الجانب الأيمن عندهم يكون أشد احساساً ويفضلون الجانب الأيسر وقت نومهم

ومن ذلك كله يمكننا التوصل الى نتائج مضبوطة واضحة وتصنيف مجموع الأشخاص تقريباً الى فئتين: فئة ضعيفة من اليمين وأخرى ضعيفة من اليسار . وهؤلاء الاخيرون يمكن معرفتهم بعلامات أخرى تؤيد ما تقدم شرحهُ وذلك بالتثبت من نموهم العضلي الغالب عادة في جهة من الجسم أكثر من الأخرى ومن حاسية الجلد العصبية الزائدة في هذه الجهة دون تلك. وقد عرف كل منا بالاختبار ان هذه الذراع او الساق مثلاً أقوى من الأخرى، وان عضلات هذه الكتف أو الورك أيضاً هي دائماً أشد احساساً من الأخرى ، ويمكن معرفة هذا خصوصاً عند ما تحقن الحقن : فبعضهم يشعر بشدة الألم في الجانب الأيسر اكثر منهُ في الجانب الأيمن والعكس بالعكس وقد لوحظ ايضاً من ناحية الحاسة العصبية ان ٧٦ ٪ من الأشخاص هم أشد احساساً من الناحية اليسرى و٢٤ ٪ فقط من الناحية اليمنى . ويجب ألاَّ ننسى ان للوراثة تأثيراً عظيماً من هذه الناحية لا نناكثيراً ما نسمع اشخاصاً يصرحون قائلين : « انا لا استطيع النوم الاَّ على هذا الجانب ، ولست وحدي على هذا بل كثيرون ايضاً على هذه الشاكلة من افراد عيلتي نفسها »

نستنتج مما تقدم ان الانسان يكون اكثر احساساً في أضعف الجهتين من جسمهِ . والامراض نفسها لا تصيب في الغالب الاَّ المواضع الضعيفة من الجسم . مثال ذلك الاكزيما التي تبتدىء دائماً في الجهة الضعيفة وكذلك الثاليل وتسويس الاسنان والدوالي التي تشاهد في ساق دون الأخرى أو في ساق واحدة اكثر من الساق الثانية (ثلاثة اضعاف في الساق اليسرى اكثر منها في الساق اليمنى) . كذلك قل عن عرق النسا Sciatica الذي يبتدىء دائماً في منطقة العصب من الجانب الضعيف . واذا انتقل الألم بعدئذٍ الى الجهة المقابلة تكون الجهة التي حصل فيها الألم أولاً هي الأسهل تعرُّضاً للانتكاس

وكذلك في حالات تدرن العظام وسرطان الثدي وذات الرئة الخ التي تبتدىء أو تصيب الجانب الضعيف من هذه الاعضاء . وقصارى القول يوجد دائماً تغلب حقيقي عند حدوث الآفات والأمراض ، في الجهة الضعيفة من الجسم أكثر من الجهة الأخرى



مكتبة المقتطف

الفصول الاربعة

لعمر فاخوري — منشورات دار « المكشوف » بيروت ١٩٤١ — ١١٧ ص من القطع الصغير

مما يُعزّي القارىء العربي عما يُبذل لهُ، ومما ينشطه ويهزه أن كتاباً كهذا يخرج اليه فجاءةً فيكون لهُ غذاء طيب النوع موفور الفائدة . إن عدداً جمًّا من الذين يحملون الأقلام — وربما حملوها عدواناً واغتصاباً — يحلو لهم ان يسطروا ويحبروا فيقال فيهم إنهم من أرباب التفكير او من أهل التجديد . غير ان الكاتب بما يكتب رهين . وهذا الكتاب لا يشقّ أفقاً ، وصاحبه لا نزّين بدعوى ، ولكن الكتابَ من دعامات النقد المستحدث السليم ، وصاحبه من ذوي البصائر النوافذ

في الكتاب ثورة على المنقول الرث سواء في النهج او التأليف. وتلك ثورة هيأها المجددون في لبنان وأميركا ومصر ، وربما نادوا بها . فجاء الاستاذ فاخوري ووقف لها حماسته وصرّف فيها براعته . اسمعه يقول : « الأديب في بلادنا صورة رجل من ورق وحبر ، لا تكاد تجد فرقاً الاّ في لون الحبر ونوع الورق » (ص ١٨) ، ثم : « يجب على الفنان ان يتصل بهذا الوجود فلا يعتمد على الحفظ والقراءة » (ص ١٩) ، ثم : « لا يهم الأديب الاّ ان يخرج آية فن باقية على الزمان » (ص ٢٤) ، ثم : « ان الشعر لا يحتمل أوساط الأمور ، فاما ان يكون بالغاً مرتبة الكمال وإما ان لا يكون البتة » (ص ٧٦)

بالقرّاء ولاسيما بالكتّاب حاجة الى سماع هذه الأقوال حتى تندك — بغير أمل في المعاودة — تلك الأصول والقواعد التي يتشبث بها فريق من الغفلة تارة والمعجزة أخرى ، فريق يسعى بين الفن والوجود ، وبين الفنان والاضطراب ، وبين العبقرية والابتداع . تلك أصول وقواعد صالحة للفارغين او الجامدين او المتعصبين ، فلنهلك وليمضوا

على ان الكتاب ناهض على دراية واسعة وثقافة مكينة . أما الدراية فتلمسها في فصلين في نقد الشعر ، وأما الثقافة فما وراء السطور من ألوان الاطلاع على تواليف العرب والفرنجة[1]

(١) مما يورث الاسف ان صاحب الكتاب نقل بعض أسماء أعجمية الى لغتنا مرسومة على غير وجوهها في النطق : باك Basch والوجه باش (ص ٩١ ، ١١٠) ، ديجاس Degas والوجه ديجا (١١٢)

وقد أعجبني شرح الاستاذ فاخوري لشطر المتنبي حيَّر الشرّاح قديماً ، وهو : « تناهى سكون الحسن في حركاتها » . فانظر كيف راح صاحب الكتاب يسترشد فيلسوفاً فرنسيًّا (آلا Alain) فيصيب في كتابه « نظام الفنون الجميلة » Système des Beaux-Arts, Paris 1920 ما يبين روعة قول المتنبي ويضعف آراء شراحه السابقين . يقول Alain : « ان الوجه المليح او الحسن ينبيء عن طمأنينة أو سكون الأشياء جميعاً حتى في حالة الاختلال والحركة العارضة » ويلي ذلك تفسير وتدليل

هذا مثل حسن على وجوب خروج النقد عندنا من نهج الى نهج . ولصاحب الكتاب الفضل في ضرب المثل . وقد ضرب غيره مثلاً اخذه من شعر ابي نواس وعلق عليه بقول صاحب « دلائل الأعجاز » : « انك لتنظر في البيت دهراً طويلاً وتفسره ولا ترى أن فيه شيئاً لم تعلمه ثم يبدو لك فيه أمر خفي لم تكن قد علمته »

ذلك الأمر الخفي الذي لا يقوى على دسه في الشعر وما اليه إلاَّ الملهمون ، لا بدَّ له من نقَّاد بصراء على دراية وثقافة حتى ينكشف لنا الفن بدقائقه وغرائبه بشر فارس

في تاريخ الاخلاق

صفحاته ٢١٤ من القطع المتوسط — مطبعة أمين عبد الرحمن

. مؤلف هذا الكتاب الاستاذ الشيخ محمد يوسف موسى مدرس الاخلاق بكلية أصول الدين فالموضوع ليس غريباً عليه ولا بعيداً منهُ ، ولقد حاول في هذا الكتاب ألاَّ يكون جمعاً لأقوال الأخلاقيين وعلماء الفلسفة الاخلاقية . بل فيهِ (ما يعين القارىء على تتبع التطور لمسائل العلم المختلفة وكيف عالجها الاخلاقيون) كما يذكر في مقدمة الكتاب

وفي الكتاب فصول أولها عن الاخلاق في الشرق القديم سواء أكان ذلك في مصر أم عند الاسرائيليين أو الهنود أو الفرس أو الصينيين . أما الفصل الثاني فيتناول الأخلاق عند الاغريق قبل عصر سقراط ثم يتدرج من ذلك الى العصر الذهبي ويشرح النظريات الاخلاقية عند حكماء هذا العصر الثلاثة وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو

ويفضي ذلك الفصل الى فصل عن الاخلاق عند الابيقوريين والرواقيين . ويتصل بذلك فصل عن الافلاطونية الحديثة ونظرتها الى الاخلاق على ضوء الفلسفة التي تمثلت فيها ، ثم فصل عن الاخلاق في القرون الوسطى وكيف خلصت من ذلك الى الفلسفة الحديثة بعد عهد عصر النهضة المشهورة

واقد عالج المؤلف الفاضل بعد ذلك الدراسات الاخلاقية المختلفة عند محدثي الفلاسفة

مابين ديكارت وسبينوزا وهوبس و بنتام وكانت وجون ستيوارت ميل وسبنسر وغيرهم ، وهي دراسات ومعالجات على ايجازها تلقي ضوءاً على الاخلاق عند علماء الغرب وكبار مفكريه

والاخلاق عند المسلمين نصيب كبير في هذا الكتاب ، فهو يتناول تطورها من الجاهلية حتى ابتدأ الفكر الفلسفي الاسلامي يتكون ، ثم يتكلم على الأخلاق عند الكندي فيلسوف العرب ، والفارابي واخوان الصفاء أصحاب الرسائل المشهورة ، وابن مسكويه والغزالي ، وابن باجة ، وابن الطفيل . ويلي ذلك فصل عن السعادة وآراء الفلاسفة فيها

ولم يفت صديقنا العالم الجليل ان يضع في ذيل الكتاب معجماً أبجديًّا للتعريف بأعلام وردت في خلال الكتاب خالية من كل تعريف ، فأسدى بذلك يداً جليلة الى القارىء الذي يود ان يتعرف الى أعلام يمر بها ولا يعرف عنها . ووضع بجانب الاعلام الأجنبية أسماءها بالحروف اللاتينية ليسهل الرجوع اليها في مظانها الأفرنجية

فجدير بالمشتغلين بالمباحث الاخلاقية ان يطلعوا على هذا الكتاب القيم الذي نرجو ان يكون باكورة لعلم الاستاذ الغزير عبد الغني

العبير

لحسين عفيف — ١٧٠ صفحة من القطع الصغير — مطبعة حجازي بالقاهرة

منذ سبع سنوات تقريباً حمل الاستاذ حسين عفيف نايه الجميل ينفخ فيه «مناجاته» فأسمع أبناء العربية نغماً عذباً تتجاوب به سماوات الأدب العربي في رقة وحنان . وكان لهُ في مضمار الشعر العربي المنثور — في مصر — يد طولى اذ حرص على حمل لوائه والسير بموكبه في طريق الحياة قُدُماً . ولم يكن حسين عفيف بالكاتب الذي تعبث ريشته بألفاظ موسيقية شأن الكثير مما مهد في صرح هذا الضرب من الكتابة ، ولكنه ما فتىء واضحاً في الفكرة نصب عينيه

وفي هذه الفترة أخرج سبع مجموعات في كل عام مجموعة تحمل الطابع الذي امتاز به والروح التي هيمنت عليه . ولقد استطاع هذا المؤلف ان يصبغ حياته بالحياة التي يصورها فعاش في الجو الذي يكتب عنه ، وزهد في الحياة الصاخبة لينطوي على نفسه في ثنايا عالم بريء ، عالم من التصوف الروحي والشاعرية العالية التي يستمدها من الطبيعة الجميلة . وفي الحق ان في تآليف حسين عفيف لوحات فنية للطبيعة المصرية جملتها ريشته القديرة اي تجميل ولوَّنتها أبدع تلون ، كما ان في تآليفه تلك الأحلام السحرية التي تلوح في تآليف طاغور متنقلة بين مواكب الدهور فما تكاد تستمع اليه حتى يحملك على موجة من عبير الشاعر الهندي فالعلاقة بينهما ان شاعرنا يغمس ريشته في ينابيع الروح التي غمس طاغور ريشته فيها ولذلك احسن شاعرنا عندما أهدى مجموعته الأخيرة الى ذلك الرجل العظيم

وحسين عفيف حريص كل الحرص على ان يتقيد بالرغم من حرية الشعر المنثور — بالنغم الذي ربط بهِ كلماته فاستطاع بهذا القيد الذهبي ان يطلق الرنين العذب يموج ألفاظه كما تموج النسمة مياه الجدول ، واليك رائعة من روائع «عبيره» : «أنا من عصرت بسماتي على صبحك وذهبت بأحلامي أصيلك . ووردت لك الشفق بأشواقي ، وزرعت لك الليل شهباً من حُرَقي . وملأت من دمعي جداول بستانك ، ومددت من أحزاني ظلاله . وفرشت من وردي طريقك ، ثم دست على شوكه

«ولقد بسطتُ من وسَني مهادك،وسهرت أحرسك . وأضأت من لهبي شمعك ، واحترقتُ على نوره

«فهل سمعت بمثلي عاشقاً خلق من صميمه جنّة ثم قال لك ارتعي ؟ »

وفي القطعة التالية بساطة النفس الصوفية التي تبدو لرقتها وكأن لا عمق فيها وهي أعمق من نظرة الحب:

في الصباح ، حملت ، سِلالي الخالية ، وقصدتُ الى روضك . وطفقتُ حتى انصرم النهار ، أجمع من خدك الخوخ ، والكراز من ثغرك ، وعند ما عدتُ لداري وسلالي مفعمة ، أفرغتها بجانب قلبي ورحت في نوم لذيذ كطفل احتضن دمية ونام»

وفي القطعة التالية تفكير هذا الشاعر :

« هذا الوجود على سعته ، في قلبي أنا . إنهُ نقطة فيَّ كما أنا نقطة فيهِ .

كل أطيافه لها في قلبي ظلال مصغّرة . وكل انغامهِ لها فيه اصداء تتردد .

اني لأستطيع في لحظات الإشراق أن أراهُ بنظرة واحدة ، وأعبّر عنهُ بنغمة واحدة انهُ ينقصنا هذا المضاء لندرك انه تحت بصرنا . فلو استطعنا ان تنظر النظرة الخاطفة ، ونعبر التعبير الخاطف ، لما أعيتنا رحابته

فلا جديد في الامر ، ولا أسرار وراء الحجب ، وانما تكرارٌ لعالم يعيش في نفوسنا .

وما اللغز الاَّ في ذلك العالم الصغير — فينا نحن . هل نستطيع ان نفهم انفسنا » .

ويقول : « لقدَ فهمتُ سرَّك أيها الكون . انك لا تحب الهندسة . لأنها المحدودية وذاك عجزٌ تنزهتَ عنهُ انما اردتَ ان تكون ولاشكل لك ، لكيما يكون لك من الاشكال ما لا يحدّ »

هذه بعض نماذج من عبير هذه الروضة التي انتظمت مجموعاته السبع « مناجاة » و« وحيد» و «سهير» و « الزنبقة » و «البلبل» و «الاغنية» ثم انتهت الى هذا «العبير».وانها لأثر جميل لهذا النَفَس الجميل الصيرفي

تاريخ الطب في العراق

هذا كتاب نفيس نشرتهُ الكلية الطبية الملكية العراقية أجملت فيهِ أهمَّ أدوار الطب في العراق من عهد العباسيين الى عصرنا هذا. وقد عني بتأليفهِ وترتيبه الدكتور هاشم الوتري عميد الكلية سابقاً وأستاذ الطب السريري فيها والدكتور معمر خالد الشابندر أحد خريجيها وقد أجمل المؤلفان الفاضلان الغرض من الكتاب في توطئة نفيسة قالا فيها

« بدأت في بغداد على عهد الخلافة العباسية مدنية رائعة قوية الاسباب ، أخذت من علوم الأولين أرقى ما وصلوا اليه فصبتهُ في القالب الجذاب المنتج الذي يميز الحضارة العربية وقدمتهُ الى الاجيال التالية أرضاً خصيبة للزرع والانتاج ، فكانت علاوة على أهميتها كوحدة تاريخية ذات شخصية ثابتة متميزة ، حلقة الوصل بين العقل البشري في سحيق الأجيال الممعنة في القدم وبينهُ في هذه المدنية الحديثة التي حملتها أوربا ، بعد ان حملها أجدادنا ردحاً طويلاً من الزمن كانوا فيها سادة الارض وحملة الثقافة وسدنة العلم والعرفان

« ومع أهمية تلك الفترة الرائعة من فترات الحضارة العالمية ، لم نجد من البحوث المتصلة ما يكشف عن نواحي النشاط العلمي المختلف الذي كوَّن تلك الحضارة ، إلاَّ فيما يتصل بالادب وفروعه . ورغم ان هناك نتفاً متفرقة هنا وهناك في بطون الكتب وغياهب الأسفار عن نواحي الحضارة الأخرى كالطب والهندسة والصيدلة والطبيعة ، الاَّ انها ليست في متناول الأكثرية من أهل الثقافة لتفرقها في عدد عديد من الكتب من جهة ، ولقلتها وبعد مصادرها عن المتناول من جهة أخرى، ولانصراف المؤرخين والكتَّاب عن تدوينها وتتبع تطوراتها والاهتمام بترتيبها من جهة ثالثة

ولذلك أصبح من الضروري ، والامر كذلك ، ان يلتفت الباحثون والمؤرخون الى تذليل تلك الصعوبات ، وتدوين ذلك التاريخ الباهر المشرق ، وتتبعه في مظانه الأكيدة ، البعيدة عن الزيف والشكوك ، إيفاء بحق الاجداد ، وتسهيلاً للأبناء على الاطلاع الكامل على آثارهم الخالدة ومدنيتهم الرائعة ، وشحذاً للعزائم ، وتقويةً للشعور ، واذكاء للهمة ، وخدمةً للقومية العربية المجيدة. ولقد تلفتنا حولنا، وهذه الحقائق تحفزنا، فلم نجد تاريخاً سهل المتناول متصل المناحي عن سير الثقافة الطبية الرائعة في هذه الربوع التي كانت رأس البلاد العربية وسيدتها وقائدتها الى المجد ، فبدأنا بكتابتهِ خدمة للجماعة العزيزة من شبابنا المثقف الذين تخرجهم كليتنا الطبية ، ليحملوا لواء الطب ، وليصلوا ماضي نبوغهم بحاضره . فشرحنا الادوار التي مشت فيها الثقافة الطبية منذ قيام المدرسة الطبية العباسية في بغداد على غرار مدرسة جندي سابور بعد ان انتقل أساتذتها وعلماؤها الى بغداد بعناية الخلفاء، ثم ترجمنا لأشهر الأطباء والمترجمين العرب من الذين

أقاموا أساس الطب في العراق ، ونوهنا بحرص الخلفاء على اكتساب العلماء ، وتشجيع العلم وبث الحضارة . وذكرنا أهم البيمارستانات التي أسست في زمن العباسيين بحسب الترتيب التاريخي الذي تقسم اليه الخلافة العباسية في ربوع الرافدين كبيمارستان هرون الرشيد والبيمارستان العضدي . ثم أتينا الى نكبة الحضارة العربية على يد المغول ، والخمول الذي حل بها في العصر المظلم ، ثم استطرقنا الى الثقافة الطبية في العهد التركي الأخير يوم كانت البلاد العربية ايالات تابعة لمقر الخلافة في الاستانة ، فذكرنا المدارس العثمانية التي تخرج منها أكثر الاطباء العراقيين الذين رجعوا الى بلادهم فأسسوا هذا الكيان الصحي الموجود اليوم ، ونشرنا صوراً تاريخية فريدة لهم ولبعض ما يتصل بالموضوع ، ثم اتينا على الحالة الصحية في العراق قبل الحرب العامة ، ثم على عهد الاحتلال ، ومن ثمَّ على عهد الحكم الوطني ، ثم بحثنا باسهاب في نشوء المستشفيات والمعاهد الصحية العراقية وتوحيدها ، ثم في تأسيس الكلية الطبية الملكية وتقدمها وتدرجها في الرقي سنة بعد أخرى وتتبعها حتى اليوم . وبهذا انتهينا بذكر الكلية الطبية كما بدأنا بذكر مدرسة بغداد الطبية التي قامت في العهد العباسي » اه

وسنلخص في عدد تال نشأة الكلية الطبية الملكية العراقية وارتقاءها وما يتصل بها من هيئات كمدرسة الممرضات والجمعية الطبية والمستشفى الملكي

سمو المعنى في سمو الذات

او اشعة من حياة الحسين — لعبدالله العلايلي — مطبعة عيسى الحلبي

هذا الكتاب يعتبر تجلية لشخصية الحسين بن علي بن أبي طالب وفيه فصول كثيرة لا بد منها لدراسة هذه الشخصية الجليلة كالصراع بين الخلافة والملك ، وعلي في الخلافة ، والخوارج ونظرية الخروج والانقلاب الاموي . وفي الكتاب تصوير لنواحي العظمة في الحسين ما بين عظمة المبدإ وعظمة المضاء وعظمة الإباء وعظمة الاستهانة وغيرها . والكتاب حلقة اولى لسلسلة يهمُّ المؤلف باخراجها في تاريخ الحسين ، وحياة الحسين فنرجو رواج ما ظهر والتوفيق فيما لم يظهر م ...

مكتوب على الجبين وقصص اخرى

محمود تيمور — صفحاته ٢٣٢ من القطع المتوسط — طبع بمطبعة المعارف بالفجالة

أخرج الاستاذ محمود تيمور كتابهُ الجديد « مكتوب على الجبين وقصص اخرى » وهو يحوي ١٤ قصة من القصص التي اشتهر بها الاستاذ تيمور في تصوير العواطف والميول النفسية نذكر منها قصة « كان في غابر الزمان » وهي من التاريخ المصري القديم وقصة « تاج من الورق » وهي دراسة نفسية وقصة « في خميلة الحب » وهي من القصص العاطفي الراقي

وسننشر في مقتطف الشهر القادم فصلاً دراسيًّا عن فن تيمور القصصي

كتاب المكافأة

لاحمد بن يوسف — مطبعة الاستقامة بالقاهرة — صفحاته ١٦٠ من القطع الوسط

عني الاستاذ محمود محمد شاكر بتحقيق هذا الكتاب وشرحهِ وتصحيحهِ فأحسن بذلك الى الأدب العربي كل الاحسان . فأولى طبعات الكتاب التي أشرف عليها أحد الناشرين لم تخل من وقوع أخطاء كثيرة . على أن الناشر الأول لهذا الكتاب لهُ فضل السبق وثواب التقدم وللاستاذ شاكر فضل التحقيق والتدقيق بما عرف عنهُ في مسالك بحثهِ ، ومناهج درسهِ . وبالكتاب مقدمة طيبة في تاريخ أحمد بن يوسف وبتحقيق نسبه ونسب أبيه ، وفيها وصف لبيان ابن يوسف وأسلوبه في كتابته . وفي ذيل الكتاب فهرسان احدهما للاعلام التي وردت ، والآخر لأسماء الأماكن التي جاءت في خلال القصص

ولقد كان القارىء للطبعة الأولى من هذا الكتاب يصادف كثيراً من الاضطراب في التعبير فجاء صاحبنا شاكر ففهم الكتاب وأخرجهُ مخرجاً يقرب الى الصدق ويميل الى الاستقامة ، ويبعد عن الالتواء فلهُ الشكر على عمله الجميل

صحة الفم والاسنان وعلاقة الامراض بها

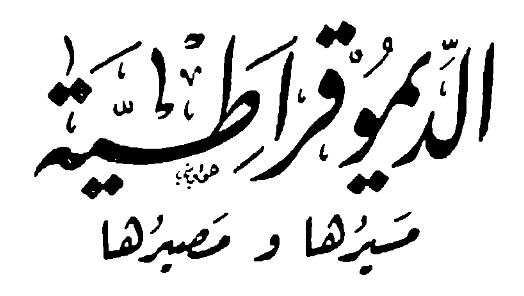
تأليف الدكتور مصباح اديب المالح — مطبعة ابن زيدون (بدمشق) — ١٠٦ صفحات

هذا كتاب صغير الحجم كبير الفائدة . وفائدتهُ ليست عقلية وحسب بل هي فائدة عملية كذلك ، « وقد ظلَّ الكثيرون من الأطباء ينكرون علاقة الصحة العامة بصحة الفم والاسنان ولا يولونها شيئاً من اهتمامهم الى ان أثبتت التجارب التي لا تحصى والاحصاءات الكثيرة مبلغ تأثر الصحة العامة باهمال الفم والاسنان وعدم الاعتناء بها ، فلم يبقَ مكابر ينكر هذه الصلة القديمة ، وأصبح الطبيب لا يقبل على مداواة مريضه بصورة جدية الاَّ بعد ان يبرز له مصدقةً تشعر بسلامة فمهِ واسنانه من كل آفة يمكن ان تكون لها اختلاطاتها في الأعضاء الداخلية والأجهزة الأخرى . وقد ادركت الأمم الراقية مبلغ تأثر الصحة الاجتماعية العامة باهمال الفرد امر الاعتناء بفمهِ وأسنانهِ فأنشأت المؤسسات الخاصة لتداوي فيها بعض آفات الفم والاسنان بالمجان وأسندت الى هيئات خاصة من الأطباء امر التفتيش والتعليم الصحي الخاص بالاسنان في المدارس وفي جميع طبقات الشعب والمؤسسات الرسمية » عن مقدمة المؤلف

ان حفظ صحة الفم والاسنان علم وعادة . ولذلك نشير على ربات البيوت والأمهات بوجه خاص اقتناء هذا الكتاب لما فيه من علم عملي ولأن تعلم الصغار منذ نعومة الأظفار العناية بنظافة الاسنان وغيرها من مسائل صحة الفم من العادات الصحية الرئيسية التي يجب تنشئتهم عليها فيوفر عليهم في مستقبل حياتهم كثير من الألم والنفقة وتهيئة الجسم لعلل شتى بعض بواعثها على الأقل يستقر في الفم والاسنان

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثامن والتسعين



Democracy, Its Course and Tendency

بحث اجتماعي سياسي اقتصادي أخلاقي

تأليف

نقولا الحداد

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٥٠

تمهيد

مبادىء أولية

١ — دائرة الحرية مولد الديموقراطية

لا يفطن ذو العقل الى الشيء إلاّ اذا شعر بحاجته إليه . وقد يجهل وجوده اذا لم يكن إليه محتاجاً .

الوحش الضاري لا يدري أنه مطلق الحرية لأنه لا يجد ما يصده عن فرائسه . ولكن الثعلب يشعر بأن له حرية محدودة ، لأن هناك أسداً ينازعه فريسته . يشعر هذا الشعور بدليل حذره . فالأسد إذن يحد حريته .

كذلك الهمجي العائش وحده في الوعر أو في الغابة لا يفطن الى الحرية ولا يفهم معناها ، لأنه لا يصادف أفراداً من نوعه يعترضونه في سبيله ، أو يمنعونه من الارتزاق من محلته ، أو يسابقونه الى صيده ، أو يغتصبون منه صيده

فهذا ، كالأسد مطلق الحرية ، أو لا حدود لحريته ، اللهمّ إلاّ الطبيعة، كالجبل والنهر والبحر ، والصحراء ، والقيظ ، والجدب ، والحر ، والقرّ الخ . ولكن متى اجتمع أكثر من شخص واحد في بيئةٍ واحدةٍ وتوخّوا أن يعيشوا معاً بسلام، طفقت الحرية تتحدد بحدود . وإلاّ نفى الأقوى فيهم الآخرين ، وعاد أعزل يعيش وحده مطلق الحرية بلا قيد.

الغالب أن الأقوى لا يستطيع أن ينفي الآخرين من بيئته لأسباب ترجع الى اثنين رئيسيين : اما لأنهم يتألبون بعضهم على بعض فيحدث شجارٌ بينهم يحرمهم هناءة العيش . أو لأنهم لا يستغنون عن تعاونهم بعضهم لبعض . ولذلك يضطرون أن يذعنوا لتحديد حرياتهم بحكم طبيعة الحال من غير تفاهم صريح فيما بينهم

للتبسط في هذا البحث نفرض أن الجماعة الاولى التي تصوّرناها في التمثيل الآنف

تقاسمت الناحية فيما بينها، فاقتصرت حرية كل واحد على الجولان والعمل في بقعة أرضه.
لحدود بقعته اذن هي حدود حريته.

ولنفرض أن واحداً منهم طغى على بقعة غيره يبتغي جنى منها أو استغلالاً. فهو إذن معتدٍ على حرية غيرهِ. وإذا لم يستطع هذا الغير أن يكفّه، بل اضطرّ أن يذعن أو يخضع ويسلم له بما اغتصبه من حريته، أو أن الاثنين تراضيا على هذا، عُدّ الأوّل الطاغي أوسع حرية من الآخر.

يمكننا أن نعد هذا التفاوت في سعة الحرية حقّاً ما دام الاثنان متراضيين على هذا التعاون، إما لأنه أصبح مفهوماً ضمناً فيما بينهما أن الحق جزاء للقوة، ولهذا يعادلها، أو لأنهما لا يعتبران مصدراً للحق إلاّ القوة.

ولنفرض أن الأقوى في الجماعة تزعّم الجماعة وسيطر عليها وتولّى العدالة والأمن والسلم فيها. ولقاء هذا النظام السياسي الذي استأثر به وسّع حدود حريته، فحينئذٍ لا بدّ أن تضيق حرية الجماعة بقدر توسع حريته حتماً، إذ لا يمكن أن تمتد حدود حريته الى غير حدود حرية الجماعة، فتتسع حريته جدّاً على حساب سعة حرية الجماعة.

بطبيعة الحال إذن، كلما اتسعت دائرة حريته ضاقت حرية الجماعة وشعرت الجماعة بوطأة ضغطه عليها.

هذه الحال، انضغاط حيوية الجماعة باتساع حرية المسيطر، هي ما يسمونه استبداداً. ووطأة الضغط هي المسماة ظلماً وجوراً. وكلما كان الحاكم مطلق الحرية كان المحكومون قليلي الحرية وكان وقع الظلم عليهم أشد.

قد يلوح لك أن تحجنا بهذا القول: — « اذا كان لا بدّ من نظام لحفظ الأمن والعدالة والسلام للجماعة فلا بدّ من منظم، أو من حافظ للنظام، وهو المسيطر بعينه (أي الحاكم) ولا يمكن الحاكم أن يسيطر إلاّ اذا كانت له حرية ليست لكل فرد من الجماعة. أي يجب أن يكون أوسع حرية من الجماعة لكي يستطيع السيطرة وحفظ النظام. فإذن النظام يلد استبداداً بلا محالة. وإذا لم يكن بدّ من الاستبداد لحفظ النظام فلماذا نحسبه آفة المجتمع؟ فأين مصدر هذه الآفة وكيف يمكن تلافيها؟ »

والجواب :

لا مشاحة في أن النظام يقرر حدود أفراد الجماعة . والنظام العادل يجعل هذه الحدود متساوية أو مكافئة للاهليات النافعة للجماعة . ولكن النظام لا يختلس شيئاً من حرية الأفراد المحددة البتة ، ولا يجعلها أضيق مما يجب أن تكون . فإذا شعر فرد من الأفراد ، حاكماً كان أو محكوماً ، في هذه الحالة ، إن حريته ضيقة أو انه مقيد الحرية بلا مبرر فلأن طمعه يخدعه . يريد أن يوسع حريته على حساب حرية سواه ، فيمنعه النظام العام ، فيظن أن حريتــه مقيدة . فاذا كان حظه من نعمة الحرية تحت راية النظام العادل كحظ غيره فشكواه من قيود حريته كفر بالنعمة . فاذا أصر على التمتع بحرية أوسع فليخرج من دائرة الجماعة وليعتزل في الجبل أو في الصحراء أو في القفر

وحاصل القول أن النظام يحافظ على حدود حريات الأفراد كما تحددت بالتساوي والتكافؤ بين الأهليات النافعة . ولكنه لا يلد استبداداً .

وإنما الاستبداد الذي لحظه المحتج آنفاً ليس استبداد النظام ، بل هو استبداد القائم بالنظام – استبداد المسيطر باسم النظام ، أو بصولجان النظام ، أو بسيف النظام . ذلك المسيطر هو الذي اختلس من حرية الأفراد ما استطاع لكي يوسع من حريته ويستغلها لنفســه . ذلك منشأ الاستبداد . وهذا هو المستبد . وهنــا آفة الظلم التي يشكو منها المحكومون .

٢ – تصادم الاستبداد بالجماعة

إذا استفحل الاستبداد بحث المنكوبون به عن مصدره أولاً . ثم عن حقانيته ثانياً . ثم عن وسيلة لقطع دابره ثالثاً .

فأولاً : في بحثهم عن مصدره لم يجدوا له مصدراً الا استحكام المسيطر (الحاكم) وتمكن قبضته بأعناق الجماعة ، ولكن بأية واسطة ؟ بواسطة قوة الجماعة نفسها ، وبواسطة النظام الذي تواطأ عليه أفراد الجماعة ضمناً ، أي تواطؤ غير صريح . فهو بوثاق هذا النظام يوثق الجماعة ويقيدها . وبقوة الجماعة المودعة في هذا النظام يستبد بها . فمصدر الاستبداد طمع المسيطر ، لا ضعف النظام ، واستئثاره بزمام قوة الجماعة لكي يستخدمها لمصلحته .

وثانياً : في بحثهم عن حقانية الاستبداد لم يجدوا له مبرراً عملياً إلاّ القوة . أي انه يعادل القوة التي أصدرته . ولكن مهما تفلسفوا نظرياً في تبرير «الحق للقوة» لا يمكن أن يجدوا أنه جزاء مستحق للقوة . القوة تستحق السيطرة ، تستحق الحرص على تولي النظام . ولكنها لا تستحق أن تبرر لنفسها ظلم الجماعة . لو كانت هذه القوة ذاتية بحتة كقوة الأسد أو النسر لاستحقت الفريسة . ولكنها بالحقيقة قوة الجماعة نفسها مدمجة في وحدة النظام . والنظام مودع في يد المسيطر . والقصد من وضعهما هناك استخدامهما لمصلحة الجماعة . فإذن لا يمكن أن يكون استعمالهما للإستبداد والظلم كجزاء لها . وإذن استبداد المسيطر ليس حقاً له لا عملياً ولا نظرياً .

وثالثاً : في بحثهم عن الوسيلة لقطع دابر هذا الاستبداد لم يجدوا إلاّ قلب ذلك المسيطر المستبد عن كرسي السيطرة،ورد زمام النظام والقوة المودعة فيه الى الجماعة نفسها ، لكي تختار من تشاء أن توليه هذا الزمام ، ومتى تشاء . لأنه اذا كان زمام السيطرة في يد الجماعة نفسها فلا يبقى ثمت خوف من استبداد السيطرة ، لأن الجماعة لا تستبد بنفسها .

هذا هو منشأ النظرية الديموقراطية . وعلى هذا المبدأ قامت الجماعات منذ القرن الثامن عشر تسترد زمام السيطرة من الحكام الذين أساؤوا استعمالها

وبناء على هذا المبدإ : — حيث يوجد استبداد وظلم كان وجودهما دليلاً على أن هناك يداً أو أيادي مستأثرة بزمام السيطرة ومستحكمة برقاب العباد ، مهما كان الحكم في ظاهره ديموقراطياً

يفهم مما تقدم :

أولاً : أن الديموقراطية هي أن تكون ادارة احكام الجماعة ملكاً للجماعة وزمامها في أيديهم يؤمنون عليه شخصاً (أو أشخاصاً) الى أجل ، أو الى أن يسيء استعمال هذه الادارة ،فينزعون زمامها من يده،ويؤمنون عليها شخصاً آخر أميناً

ثانياً : ان امتلاك الجماعة لادارة أحكامهم بحيث يتسنى لهم أن يؤمنوا عليها من يشاؤون ، يستلزم أن تكون لهم حريتهم التامة كما حددناها آنفاً . وإلاّ فديموقراطيتهم مزيفة ،أو أنهم فاقدوها فقداً تاماً .

فالحرية اذن هي روح الديموقراطية .

وقد أشرنا آنفاً الى أن للحرية حدوداً . ولكننا لم نتبسط بهذه الحدود لكي نعلم ما هي . فنبحث فيها فيما يلي : —

حرية الجماعة انما هي مجموعة حريات الأفراد مندمجة . وهناك اعتبارات أخرى لوجود حرية للجماعة كوحدة قائمة بذاتها ليست لكل فرد ، كحرية الرأي العام، وستبدو في خلال الفصول التالية .

للفرد ٣ حريات رئيسية نتبسط فيها فيما يلي . وهي :

١ — حرية الفكر ٢ — حرية القول ٣ — حرية العمل .

١ — حرية الفكر

قد يستهجن القارىء العادي جعلنا « حرية الفكر » موضوعاً للبحث ، لأنه يرى بديهياً أن الانسان مطلق الحرية فيما يفتكر فيه . حقيقي أن الانسان حرٌ في أن يفكر فيما يشاء . ولكننا سنرى في سياق هذا البحث أن الانسان ليس حرًّا في مشيئته هذه ؟ بل سنرى حدود مشيئته ضيقة جدًّا ، فما شاء التفكير في شيء إلاّ لأن هذا الشيء طبع في ذهنه — فهناك عوامل مختلفة طبعت في ذهنه منذ حداثته حتى آخر ساعة من حياته مواد خاصة لتفكيره . وهذه العوامل فاعلة فيه وفي بيئته الطبيعية والاجتماعية . ولذلك هو يفكر ضمن الحدود التي تحصرها تانك البيئتان .

ولجلاء هذه النظرية نضرب أمثالاً لها : — الشرقي لا يفكر كالغربي،ولا هذا كذاك حتى الانكليزي لا يفكر كالأميركي وهما من طينة واحدة ولغة واحدة . وحتى الجار لا يفكر كالجار . وكذلك البوذي لايفكر كالمسلم ، والمسيحي . ولا هذا كذاك . والروسي الحالي لا يفكر كما كان يفكر أبوه وجده بتاتاً . حتى أولادنا نحن يستهجنون تفكيرنا كما نحن نستهجن تفكير آبائنا — الى غير ذلك مما يجلو لك ان الانسان مقيد الحرية ليس فيما يفكر به فقط ، بل فيما يشاء أن يفكر فيه ، لانه منذ حداثته يتلقى معلوماته من البيئة التي تدرّب عقليته بمقتضاها وتصوغ عواملها نفسه في اتجاهاتها .

لذلك إذا اصطدم تفكير فرد بتفكير فرد آخر من غير جلسه استهجن كل منهما فكرة الآخر، وقد ينفر منها أو يصدها بغضب. ويحتمل أن يثير تخالف المفكرين العداء بين الاثنين. لأن كلاً منهما يرى فكرته حقاً وفكرة الآخر خطأ. وقد يتمادى الواحد في الاستئثار بأن ينكر على خصمه حرية التفكير بما يفكر.

العقيدة هي زبدة تفكيرات صادرة ضمن بيئة واحدة، وذووها متطبعون بها فلا يفكرون بما يخالفها. وإذا تراءى لك أنهم يشاؤون ان يتمسكوا بها ولا يشاؤون أن يفكروا بما يخالفها فاعلم أنهم غير أحرار بهذه المشيئة. ان حريتهم في المشيئة محدودة بتلك العقيدة.

يستفاد مما تقدم ان الانسان مقيد حرية الفكر قبل أن يولد.

١ — سيطرة الثقافة على الفكر

ذلك هو شأن الفكر فيما تطبّع به الانسان بحكم بيئته الطبيعية والاجتماعية. فما بالك بتفكيره فيما طبّعته فيه التربية والثقافة عمداً؟ ان ما يتعلمه الغلام اللين الدماغ في المدرسة والكلية يندغم في عقليته حتى يصبح جزءاً منها أو مادة لها. لأن التعليم يعطى له مادةً بالبيان المنطقي، والسفسطي أحياناً، وإلا فلا يقتنع به التعقل. ومتى دخلت النظرية الى منطقة العقل، من باب البرهان، أوصد المنطق عليها الباب فلا تعود تستطيع الخروج منه بسهولة، إلا إذا فتح المنطق باباً آخر لنظرية أخرى أقوى، فقد تطرد هذه تلك وتخرجها من الباب الذي دخلت منه.

وزبدة هذا القول هو أن النظريات التي تدخل الى العقل في دور الثقافة ولا سيما في دور الحداثة تكون أمكن من النظريات التي يكتسبها الانسان من البيئة بلا تعمد. ولذلك يكاد يستحيل أو يتعذر جداً نزعها. فاذاً تفكير الانسان محدود بحدود ثقافته، وبعبارة أخرى ان حرية تفكيره محدودة بهذه الحدود من غير أن يشعر هو، وقد لا يشعر بمحدودية حريته في التفكير الا حين يصطدم بتفكير آخر مخالف لتفكيره ومقنع له، فيمتنقه بدل تفكيره بعد حوار عنيف بين التفكيرين.

فاذا كانت البيئة من جهة والثقافة من جهة أخرى تصوغان عقلية الفرد وتنشئان اتجاه

تفكيره فالقوة التي تسيطر على هذين العاملين — البيئة والثقافة — توجه تفكير الفرد وتضع حدوداً لحرية التفكير .

منذ بدء الاجتماع أو على الأقل منذ بدء الحضارة الى اليوم كان الفرد تحت سيطرة قوة كهذه توجه تفكيره كما تشاء هي لا كما يشاء هو بتاتاً اللهمّ بفعل الاقناع وبقوة البرهان — أيّ برهان منطقياً كان أو سفسطياً ، سديداً كان أو تُرّهة — يكفي ان ينصاع له عقل الفرد ويذعن راضياً . وبتأثير هذا التوجيه استطاع فرد (أو أفراد معدودون أو فئة) أن يتحكم بجماعة وأن ترضى الجماعة بتحكمه لاقتناعها ان تحكّمه نعمة لها . وكان من وسائل هذا التوجيه الذي نحن بصدده ان نشأت العرافة والكهانة والأمارة والحكومة الخ . واستوت السيادة مطلقة أو مقيدة قليلاً أو كثيراً — سيادة الفرد أو الأفراد — على الجماعة .

وما دام السيد يستطيع التصرف بعاملي البيئة والثقافة اللذين شرحناهما آنفاً فالسيطرة مستتبة له ، لذلك تقتضي حنكتُهُ ان يضيق حدود حرية الفكر لقومه ما استطاع لكي يبقى ظافراً بسلطة الحكم . ولكن اذا تسنى لبعض العقول ان تفلت من دائرة تلك الحدود وتستخرج النظريات السديدة من احتكاك النظريات المتناقضة التي تتشاجر فيها وتهاجم بهذه النظريات السديدة عقائد القوم المُذلّة لها ، شرعت سلطة السيد تتداعى للسقوط .

ليس في هذا التمهيد متسع لتعداد التفكيرات والعقائد التي استغلّها أسياد الأقوام وأمراؤهم وحكامهم في التاريخ الطويل للحرص على سؤددهم ، وحفظ كيان سلطانهم . وإنما نشرح أساسها جميعاً ، ونلم بالرئيسي منها الماماً موجزاً .

٢ — زمام العواطف

لا يخفى أن السيد الأعلى في الذاتية الانسانية هو العقل . ولكن هذه السيادة إنما هي لضالع واحد فيه من ورائه ، وهو العاطفة أو الشهوة . مهما تحذلق العقل في الحكم لكي يبرزه سديداً مستقيماً فلا يستطيع أن يبرزه مجرداً من تأثير العاطفة فيه ، حتى الفيلسوف الذي يتجرد من كل هوى نفساني في تفكيره لا يسلم أحياناً من سيطرة الهوى على تفكيره . فالعاطفة تعمل من وراء العقل المنطقي . وهي مصدر الارادة . ولهذا مهما حكّم

الأفراد عقولهم أو تعقلهم يبقَ لاهوائهم نفوذ في تفكيرهم وفي أحكامهم العقلية . وهم معذورون لأن الحرص على البقاء يقتضي الاسترشاد بميل العاطفة .

فالأسياد أو الحكام من قديم الزمان اكتشفوا أن المِقوَد المتين الذي يستطيعون أن يقودوا به القوم هو مِقوَد العاطفة . أي انهم اذا قبضوا على زمام شهوات القوم استطاعوا أن يقودوهم حيث يشاؤون . وما هي أهم شهوات الإنسان ؟ —

١ — النجاة من الجوع . أو بعبارة إيجابية عامة سد حاجات الجسد جميعاً

٢ — النجاة من الخوف من أخطار الطبيعة ومن خطر العدو . وبدرء هذه الأخطار ، بهاتين الشهوتين يحرص الانسان على بقائه . وجميع أمانيه ووسائل هنائه مشتقة منها .

فإذا تسنَّى للسيد المسيطر أن يمني جماعته بالحصول على هاتين الأمنيتين الرئيسيتين بالوسائل التي يهيئها لهم بقي قابضاً على زمام عواطفهم وحصل على طاعتهم له

٣ — زمام العاطفة الدينية

فمنذ بدء التاريخ الى الدور الأخير منه ، كان الحكام يستخدمون العقائد الدينية في تطويع الجماعات، بدعوى أن تلك الأماني التي تشبع شهواتهم إنما هي نِعَم تنزل عليهم من السماء . ترى هذا الأسلوب بكل جلاء في تاريخ الإسرائيليين، ولا سيما وهم تحت قيادة موسى ويشوع . لذلك بقيت المعارك البشرية تصلي نارها تحت رايات الأديان بضعة ألوف السنين . أي أن العقيدة الدينية كانت المقود الذي به يقود السيد قومه ، والمنخاس الذي ينخس به شعبه للجهاد في مضمار التنازع مع الأقوام الأخرى ، والسوط الذي يقرع به ناسه للنشاط في العمل لكي يستطيع أن يقدم القرابين والضحايا والمكوس الخ للسلطة . ولذلك أيضاً بقيت التربية في كل تلك السنين محصورة ضمن الحدود التي توجِّه العقول المفكرة الى العقائد المذكورة، أو تحصرها فيها لكي يبقى الزمام في أيدي الحكام .

في مدى هذه السنين الطويلة كان التفكير العلمي بطيئاً جداً لأن حرية التفكير كانت ضيقة جداً . وكانت هذه ضيقة بضغط السادة الحكام لأن النور العلمي يكشف الترهات عن الحقائق، ويجلو للناس أن مصادر الخيرات والنعم التي تشبع شهواتهم وتدرأ الأخطار عنهم ليست محصورة في أيدي بعض حكامهم ، كما كان هؤلاء يوهمونهم، بل هي في منال أيديهم كما

يرشدهم إليها العلم . ولهذا كان ذوو السلطات يعتبرون كل نظرية علمية زندقة أو فسقاً في العقيدة . وبهذا الاعتبار كانوا يقاومونها كأنها الخصم العنيد والعدو اللدود . وفي التاريخ شواهد لا تحصى على تحريم تعليم النظريات المخالفة للعقائد السائدة ، كما أن التاريخ نفسه يسرد لك من ضحايا الاضطهاد لأجل العلم أو طلب العلم من عهد سقراط الى ما بعد عهد غاليليو عدداً لا يكاد يحصى .

ولكن النور لا تطفئه الظلمة . والأشعة لا تصدها الأكف . والعلم نور . والعقل بصير للنور . فمهما تكاثفت التقاليد القديمة وترهاتها وخرافاتها فلا تستطيع أن تحجب ذلك النور . لذلك نشط العلم في العصور الأخيرة ، وكشف تلك الترهات عن الحقائق . ولم يعد في الامكان أن يضبط الحكام العقول المتمردة ضمن دائرة المدنية الضيقة . ولذلك تزعزع سلطانهم وتداعى بنيانهم .

٤ — زمام العاطفة الوطنية

لم تعد العقائد الدينية تصلح مقاود لقيادة الجماعات . ولكن الطامعين بالسلطة لم يعدموا الوسائل للقبض على أزمة عواطف الجماعات ، فتطلعوا الى حيث تتجه عواطفها وشهواتها وميولها وأمانيها في الحرص على حياتها وبقائها . فاذا بها تتنازع الأرزاق جماعات كما كانت تتنازعها أفراداً . فاختلقوا لها من صميم اجتماعيتها عقيدة جديدة وهي « العقيدة الوطنية ». هذه عقيدة جديدة حلت في القرن الماضي محل العقيدة الدينية ، لظنهم أن العلم لا يستطيع أن يزعزعها كما زعزع التقاليد والعقائد الخرافية القديمة . ثم صاغوا لهم من الوطن صنماً لكي يعبدوه . وجعلوا يقودونهم بمقود « العاطفة الوطنية » ، ويستفزون فيهم الحماسة في الجهاد الوطني بتحريض هذه العاطفة . فعلوا ذلك بزعم أن سعادة الجماعة وهناءها يأتيان عن يد « إلــه الوطن »

ولكن هذه الخزعبلة الجديدة لم تجز على العلم الحديث الذي اكتشف نواميس الاجتماع والنفس وآدابهما ، وجلا للمفكر أن هناءة العالم وسعادته يتوقفان على سلامه واطمئنانه . وان سلامه واطمئنانه يتوقفان على تعاون جماعاته كتعاون أفراده : وان هذا يتوقف على تفاهم الجماعات واتفاقها . وهذان يتوقفان على حريتها في التفكير والرأي والعمل . ومآل

هذه الحرية قيام الديموقراطية الصرفة وقلب السلطة الاستبدادية مهما اختلفت أشكالها وصيغها . والديموقراطية كما لا يخفى عدوة أصحاب السلطة . إذن ليس من مصلحتهم أن تطلق حرية التفكير ، بل يجب أن يكون التفكير مقيداً ، أي ان تكون دائرة هذه الحرية ضيقة ما أمكن .

٥ — زمام الثقافة

لذلك لعبت أيدي السلطات المستبدة ببرامج التعليم ، بل لعبت بنصوص الكتب المدرسية ، على قاعدة تحريض النعرة الوطنية وتأليه السلطة (١) وتقديس الحرب وجعل عداء الوطن الواحد للأوطان الأخرى عبادة، الى غير ذلك مما تراه جلياً في الدكتاتوريات الحديثة في روسيا وألمانيا وايطاليا والنمسا وغيرها قبل أن تدول .

أغرب من ذلك ان هذا التدخل الفظيع في شؤون الثقافة امتد الى البرامج العلمية البحتة ، فأمر هتلر الأساتذة الكبار أن يعلموا هذه النظرية وأن يمتنعوا عن تعليم تلك والا عوقبوا عقاباً صارماً . ومن أمثلة ذلك . أنه ورد الى الأستاذ الاثنولوجي (علم السلالات البشرية) في إحدى الجامعات الألمانية (وهو أستاذ كبير عالي الشأن) أن يدرس طلبته أن اليابانيين من أصل آري (لأن هتلر يريد أن يتقرب من اليابان) فلم يعبأ الأستاذ بهذا الأمر السخيف . ولكن الأمر تكرر له بشدة ثانية وثالثة . وبعد إصراره على رفض هذه السخافة أوعز اليه أحد أصدقائه انه أصبح تحت خطر الاعتقال في السجن . فاضطر أن يفر الى سويسرا (٢) .

ومن غرائب ما يرغم به العلماء على تفسيق العلم ما ورد في كتاب عن درس السلالات

(١) تردد الكتاب على اختلاف جنسياتهم في أن يذكروا هذا الواقع الناصع . فمن أقوال الدكتور فرفك ما ورد في كتاب الجمهورية الجديدة لجون جنثر . «هتلر جعل الآلهة حساده ، » . وبالقياس المنطقي «هتلر وحيد في نوعه . هكذا الله وحيد . فهتلر مثل الله»

وموسوليني لم يتورع عن أن يظهر بهذا المظهر . فقد رنت أقواله في الراديو واللاسلكي قبيل حرب الحبشة بمثل هذا التبجح السمج : «يجب على الامة أن تسمع كلام الدوتشي وأن تلبي دعوته وأن تأتمر بأمره وأن تطيعه الطاعة العمياء . الدوتشي كل شيء لايطاليا» . مثل هذه النغمة سمع كثيراً في خطبه التي كان يطلقها في ذلك الحين على شعبه وعلى العالم.

(٢) نقلا عن حشية صفحة ١١٥ من كتاب «الحرية اليوم» للعلامة الدكتور جود Liberty to day, by Dr. C. E. M. Goad

للعلامــة الدكتــور جوثن Neuse Grandlegen der Rassen forschurg وهو بفحــواه المطابق لأصله : —

« هكذا نستطيع نحن أن نقرر المبدأ التالي : لا توجد خاصة طبيعية ولا عقلية تبرر لنا التفريق بين النوع الانساني والعالم الحيواني. وجل ما هنالك من الفروق انما هو ما بين الانسان النوردي Nordic man (الجرماني . الألماني) من الجهة الواحدة والحيوانات على العموم من الجهة الأخرى، ومن جملتها النــاس غير النورديين ، أو من هم من طبقة الانسان السفلى Subman (أي الذين هم حلقة الاتصال أو الانتقال بين النوعين» (صفحة ٧٩ من الـكتاب المذكور [1] —

(ولا يخفى على القارىء انه يعني أن الألمان وحدهم يختلفون عن الحيوانات، وأما سائر البشر فلا فرق بينهم وبين الحيوانات إلاّ حلقة الانتقال من الحيوانية الى النوردية).

ويقول في مكان آخر : « ان السلالة النوردية وحدها تستطيع أن تصدر أصواتاً واضحة كل الوضوح ، في حين أن السلالات غير النوردية تلفظ ألفاظها أقل وضوحاً، بحيث ان أصوات الشخص الواحــد تلتبس أو تختلط بعضها ببعض كالنباح والشخير والعطاس والشهيق الخ . . . . وأما أن العصافير تستطيع أن تتكلم بأحسن من سائر الحيوانات فلأن أفواههـا نوردية البنية ، أي أنهـا مرتفعة مستدقة وألسنتها قصيرة . وشكل لثة النوردي تؤذن بفصاحة اللفظ ووضوح الغناء [2] (صفحة ١٦٥ من كتاب جوش).

وفي مكان آخر يتمادى في اعلاء شأن النوردي بمنطق غريب عجيب : — « اذا كان غير النورديين أقرب الى سلالة السعادين وأشباه الانسان منهم الى السلالة النوردية فلماذا يمكنهم أن يتزاوجوا مع النورديين ولا يمكنهم مع أشباه الانسان؟ » هذا سؤال سبق الدكتور جوش القارىء اليه لـكي يجاوب هذا الجواب السخيف : « لم يقم برهان على أن النورديين لا يستطيعون أن يزاوجوا أشباه الانسان » [3]

(١) حاشية في صفحة ١١٥ من الكتاب هذا

(٢) و (٣) نقلا عن حاشية كتاب الحرية اليوم صفحة ١١٥

هذا نزر يسير من تعسف كثير في الاعتداء على حرمة العلم لأجل تبرير الاستبداد الدكتاتوري . وفي ايطاليا وغيرها من الدكتاتوريات كثير من أمثاله بحيث لا يبقى عندك شك بأن حرية التعليم والتفكير مفقودة بتاتاً من المانيا وسائر الدكتاتوريات الآن لأن، الدكتاتور (الحاكم بأمره) يريد أن يغرس في عقول الناشئة ان المانيا فوق جميع الأمم ، وان حكومتها هي الالآه الذي يحرس المانيا ، وان الحرية الفكرية وحرية الرأي إنما هي كفر بهذا الإلآه ، وان الفرد الألماني يجب أن يضع نفسه تحت أمر السلطة (سلطة هتلر) كأداة صماء عمياء بكماء لأن هذه السلطة كفيلة بهنائه وسعادته .

ليت المكان يتسع لسرد كثير من هذه الشواهد على مثل هذه الخطة جرى كل حاكم بأمره (دكتاتور) في بلاده . ولكن لأنه ليس غرضنا في هذا الكتاب البحث في أحوال الدكتاتوريات فنقتصر على ما تقدم من الاشارة فقط .

وحاصل ما نرمي اليه من هذا البحث هو ان حرية الفكر التي هي حق طبيعي لكل انسان بلا معارضة كانت ولا تزال معدومة أو ضيقة جداً . أي ان الشعوب تفكر كما يريد أسيادهم وكما يفرض لها حكامها مواد التفكير . لا تجد حرية الفكر أوسع نطاقاً إلا حيث الديموقراطية مقاربة النضوج . ولا تستوفي حقها من الاتساع إلا حيث تستتب الديموقراطية الناضجة البحتة .

ب — حرية القول

قد يكون فكر العقل النيّر حرّاً، ولكن لا يستطاع الجهر به لأن حرية القول مفقودة أو ضيقة . فما بالك اذا كان الفكر غير حرّ ؟ فهل ينتظر أن يكون الجهر به حرّاً ؟

لم يحجر على حرية الفكر لمجرد طمس الحقيقة في الفكر، بل لكيلا يبرز الفكر بالحقيقة الناصعة . فكان الغرض من تدريب الفكر في مجرى معين تدريب القول في المجرى نفسه . وبعبارة أخرى الحجر على حرية القول . والمراد بالقول هنا الرأي الخاص بالمفكر القائل .

فاذا كان أفراد الجماعة لا يستطيعون أن يجهروا بآرائهم فلا جدال في أنهم لا يستطيعون أن يتولوا ادارة شؤونهم بأنفسهم، ولا أن يولوها لمن يريدون، أو ان يؤمّنوا عليها من يشاؤون . بل يتولاها رغم أنوفهم آخرون يضغطون على « حرية قولهم » . فحكمهم إذن

ليس ديموقراطيًّا حتى ولو كان بالثوب الديموقراطي الأنيق .

في هذا الموضوع نبحث في أمرين رئيسيين : —

الأول — هل حرية الرأي من مصلحة المجتمع ؟

الثاني — ماهي الوسائل التي تخنق بها حرية الرأي ؟

حرية الرأي لمصلحة المجتمع

الحكام المطلقون (ملوك ودكتاتورة) يزعمون أن حرية الرأي تؤذي مصلحة المجتمع ولذلك يعارضون الديموقراطية بما يأتي : —

أولاً : لأن أفراد الجماعة متضاربو الآراء فلا يستطاع التوفيق بينهم واستخراج رأي عام منها .

ثانياً : ان الفرد غير الخبير بالشؤون السياسية لا يحسن اصدار رأي صالح للجماعة . ومعظم أفراد الشعب غير خبيرين بما هو صالح للجماعة . فالاعتماد على الغالب من آرائهم خطر على مصالح الأمة .

ثالثاً : ان في الجماعة أفراداً يبتغون أن يتنازعوا السلطة ، لا لأجل الخير العام ، بل حبًّا بالسيادة واستخدامها لمنفعتهم . فحرية القول تفسح السبيل لتحريض الجمهور الساذج للمشاغبة وايقاظ الفتنة .

رابعاً : ان هذا العصر عصر انتقال من نظام متقادم الى نظام مستجد — من حكم فردي مطلق الى حكم ذاتي ديموقراطي . فلا يحسن الهدم قبل الاستعداد التام للبناء العاجل ، واطلاق الحرية للقول والعمل خطر على الأمن لأنه يغلب ان يؤدي الى الفوضى

١ — احتكاك الآراء المتضاربة

على الأول نجيب : ان الرأي الأصوب لا يصدر إلاّ من احتكاك الأفكار أو الآراء المتضاربة . مهما كان العبقري سديد الرأي ، والفيلسوف ثاقب الفكر ، والعلاّمة واسع العلم ، تفتُه ملاحظات كثيرة لا يفطن لها . وإنما يفطن لها العامي لأنها تمس مصلحته ، وأحياناً يتوقف عليها خيره وخير الجماعة . الحقيقة بنت البحث . لذلك يجب لمصلحة المجتمع أن تكون حرية القول مطلقة تمام الاطلاق . وبالتالي حرية المناقشة أيضاً لكي يهتدى الى

الحقيقة الصائبة من خلال تصادم الآراء واحتكاك الأفكار. وبغير هذا الأسلوب لا يمكن أن يُهتَدَى الى الحقيقة الجيدة . فخنق السلطة الحاكمة لحرية الرأي والمناقشة إنما هو اعتداء على حق الجماعة وتهرُّب من نور الحقيقة ، لأنه اعتراف ضمني بأن السلطة تتعدّى حقوقها وتتجاوز دائرة العدالة . فلذلك تحجب هذا النور لكيلا تنفضح سوءتها . وإلاّ فاذا كان ضمير السلطة نقيًّا فلا تخشى حرية التناقش وحرية ابداء الرأي . لأنه ان كان الرأي سديداً وكتمته فتكون قد حرمت الجماعة نفعه. وان كان غير سديد أو خطأً لا يثبت أمام المناقشة ، فضلاً عن انه بالمضاهاة يبين سدادُ رأي كان خفيًّا . فلا خطر من حرية الرأي والمناقشة فيه إلاّ على مساوىء السلطة ان تنفضح . فهذا الاعتراض الذي يعترضه أنصار الحجر على حرية الرأي إنما هو عليهم لا لهم .

٢ — رأي الخبير السياسي

والسبب الثاني الذي يزعمه خصوم الديموقراطية لتضييق نطاق الحرية هو ان العامي قليل المعرفة أو عديمها ، لا يدري من مصلحة الجماعة شيئاً حتى مصلحته الشخصية قد يجهلها . فاطلاق الحرية له في ابداء رأي أو اختيار رأي دون آخر يعرض مصلحة الجمهور للخطر . على ان هذا العامي الجاهل لا يناقش ولا يتكلم بل يسمع وقد لا يسمع .

في هذا الاحتجاج على حرية الرأي شيء من الحقيقة والحق ، اذا كانت الأمة مؤلفة من طبقتين أو ثلاث أو أربع متفاوتة في المعرفة والجهل تفاوتاً عظيماً . فحينئذٍ تكون مصالح الجماعة أو مصالح فئة منها معرضة للخطر اذا تغلب رأي الفئة الجاهلة على رأي العاقلة بسبب اطلاق حرية الرأي . ولكن اذا كانت طبقات الأمة متقاربة في المعرفة فآراؤها تتقارب في معرفة النافع والضار لها . وبالتالي يقل أو يتلاشى هذا الخطر المخوف منه

ثم ان ذوي المعرفة السياسية الذين نسميهم خبراء ليسوا بالحقيقة خبراء بكل حاجة من حاجات الأمة . فكل من الزارع والصانع والعامل والتاجر وذوي الفن طبيب أو صيدلي أو محامٍ أو ممثل أو موسيقي الخ أعرف منهم بما يفيده وما يضرُّه مهما كان قليل العلم والخبرة بالأمور العامة . فان تحرمه ابداء رأيه تحرمه حق الحرص على مصلحته ما دام هو

الأعرف بها . وكونه لا يفهم شيئاً من شؤون المصلحة العامة كما يفهمها الخبير السياسي فلا يبرر حرمانه حق ابداء رأيه

والحقيقة ان كل فئة من الناس خبيرة بشؤونها بل هي أخبر من سواها بها . فاذا كانت ، الديموقراطيــة لا تقوم الا على عواتق الخبراء فالاختصاصيون بالأعمال والأشغال والفنون الخ هم الخبراء الحقيقيون . ومن آراء هؤلاء تستخرج الآراء الصالحة للمجتمع . ولذلك يجب أن تكون الحرية مطلقة لهم في إبداء آرائهم بواسطة النظام الديموقراطي . ولهؤلاء الحق بأن يختاروا عنهم نواباً يبسطون آراءهم أو بالأحرى أمانيهم ويناقشون فيها ويقررون الراجح منها .

نعم . الأمة تحتاج الى خبراء يصوغون لها آراءها لا الى خبراء يفرضون عليها آراءهم. تحتاج الى اختصاصيين يضعون لها اقتراحاتها ويعرضونها للمناقشة ، لا الى خبراء يوجبون عليها تنفيذ اقتراحاتهم . تحتاج الى خبراء تولبهم تنفيذ الاقتراحات التي هي تقررها

مهما كانت الأمة على سذاجة وبساطة وقليلة المعرفة فلها من خبرة أفرادها واختباراتهم ما يرشدها الى مصلحتها النافعة . في هذا العصر لا تجد أمة ديموقراطية النظام سقيمة المعرفة بالأحكام .

٣ — تنازع السلطة

في هذا العصر الذي نشأت فيه الدكتاتورية لـكي تـتمم عمر الحـكم الفردي المطلق لذي شاخ ، يزعم الدكتاتورة (الحاكمون بأمرهم) أن في الأمة أفراداً يطمحون الى كراسي لحـكم والظفر بالسلطة لـكي يستغلوها لأنفسهم . ولذلك يستخدمون حرية الـكلام في ستثارة العوام لقلب النظام وقلقلة الأمن العام وهدم أركان السلام . لذلك يفضل جداً ن يضيق نطاق الرأي لـكيلا يبقى لهؤلاء المشاغبين سبيل للشغب .

والرد على هذا الزعم هو ان ما يطمح إليه هؤلاء المشاغبون المزعومون طمح إليه قبلهم لحكام الزاعمون . فكراسي الحـكم المطموح إليها إنما هي « اللحاف » الذي يتنازعه ؤلاء وأولئك .ففريق القائمين بالحـكم وفريق خصومهم الطامعين به سيّان الى جانبي هذا لطمع . والفريق الأولى به هو الذي يثبت بلا سفسطة انه يعمل لمصلحة الأمة . والوسيلة

الأمينة الناجحة لهـذا الإثبات هي اعتراف الأمة نفسها بفضل الفريق الصالح . ولـكي تستطيع الأمة أن تصـدر اعترافاتها الصادقة يجب أن تكون حرّة في أن تقول ما تريد أن تقول .

إذن حرية الـكلام أنما هي في مصلحة السلطة الحاكمة اذا كانت هـذه حسنة القصد محسنة الخدمة نافعـة العمل . وهي ضد مصلحة الفريق الذي يزعم الدكتاتور أنه فريق مشاغب يريد قلب الحـكم لـكي يغتصبه ويستغله لنفسه . وحاصل القول ان فصل الخطاب في هذا النزاع إنمـا هو في فم الأمة . ولذلك يجب أن يكون فم الأمة حرًّا لـكي ينطق بالحـكم لاحد الفريقين وعلى الآخر

لعمري أن كمّ السلطة المسيطرة الأفواه والأقلامَ تلافياً للشغب ، إنما هو شهادة على السلطة نفسها بأنها تفعل نفس ما تمنع المشاغبين أن يفعلوه ، وإلاَّ لما اضطرت الى كمٍّ فمها .

ان من كان الحق بيده كانت البلاغة في قلمه والأمر والنهي في فمه .

٤ — دور الانتقال

بقي زعمُ « الحاكمين بأمرهم » ان دور الانتقال من نظام استبدادي متقادم رثّ الى نظام ديموقراطي طريف أنيق ، يستلزم حزم السلطة المتولية واستقلالها في الحـكم لـكي تتم النقل بأمان وسلام ، وإلاّ تعرّضت البلاد للفوضى .

هذا زعم صادق نقرّهم عليـه . ولا مشاحة فيه اللهمّ اذا أثبتوا صدق دعواهم بأنهم يتولون عملية الانتقال بكل عناية وكل حذر تلافياً للفوضى . أو اذا لم يبد على الأقل أنهم يتولون عملية الانتقال من يد الحـكم المطلق المستبد الى يد حكم أبعد اطلاقاً وأشد استبداداً يتولونه هم أنفسهم

قد يكون هذا العذر مقبولاً من شاه العجم السابق أو الغازي أتاتورك أو أمثالهما ممن لم يمارسْ الحـكم الديموقراطي في بلادهم بعد ، ولا تعوَّدهُ أهاليها ولا فهموه بعد . ولـكن ما هو عذر موسوليني وهتلر وأمثالهما ممن تمرست أممهم على الحـكم النيابي زمناً ؟ ان أمثال هؤلاء لا يقبل منهم عذر كهذا .

حاصل ما تقدَّم من المناقشة أن حرية الرأي : أولاً حق لـكل فرد من أفراد المجتمع

ثانياً : هي الأقنية التي تتسرّب فيهـا منافع الأمة من منابعها الى الحوض العام الذي توزّع منه .

ثالثاً : ان الحجر على هذه الحرية دليل قاطع على ان السلطة التي حجرت عليه تعمل لأذى الأمة لا لمصلحتها .

رابعاً : اذن ، ان الخطر على الأمة انما هو في حبس هذه الحرية لا في اطلاقها .

ج — الوسائل لخنق حرية الرأي

بعض الوسائل التي تخنق بهـا السلطة الحاكمة حرية الرأي هي نفس الوسائل التي ذكرناها آنفاً لخنق حرية الفكر . ويزاد عليها على نفس الأساس الذي بسطناه آنفاً ، وهو قيادة العواطف أو الشهوات وكبت التعقل ، الدعاية الايجابيـة من ناحية والدعاية السلبية من ناحية أخرى . أما الدعاية الإيجابية فهي في السيطرة على العقل . والدعاية السلبية في السيطرة على العواطف ، كما سنتبسط به فيما يلي

١ — الدعاية الايجابية

العقل يسمن ويقوى بغذاء المعرفة ، والتعقل الصحيح يتوقف على حرية العـقل في تلقن العلم ، وفي التفكير بالمعلومات التي تبلغ اليه . والعلم الحديث الذي تفجرت منه ينابيع الاختراعات جعل جميع تأثيرات العالم الخارجي (الخارج عن العقل) تصـل الى العقل بسهولة كلية . وبعبارة معكوسة وضع العقل تحت هـذه التأثيرات وجعله يتطبع بطابعها ويتخلق بخلقها . فانسان اليوم إنما هو مصنوع من صنع عوامل عديدة . فمن كان في يده زمام هذه العوامل يطبـع أناس اليوم نسخات متعددة من أصل واحد كما تطبع ملايين نسخ الجريدة بطابع واحد .

أهم العوامل الرئيسية في مصنع إنسان اليوم .

١ — الثقافة على العموم من بدايتها الى نهايتها .

٢ — الطباعة على العموم .

٣ الصحافة على الخصوص .

٤ — السنما .

٥ – الراديو الناطق واللاسلكي على العموم .

وكان الفونوغراف قبل الراديو عاملاً أيضاً ، ولكن لما ظهر الراديو اندغم ذلك فيه .

هذه الخمسة هي المصادر الرئيسية للمدركات المختلفة . ومن كل مصدر منها يتفرّع عدد لا يحصى من الأقنية تتسرّب فيها المدركات الى العقول المفكرة . تتسرّب الى العقول بسهولة من غير أن تعاني شيئاً في استقدامها . وبسبب وحدة المصدر وتعدد الأقنية تنطبع العقول طبعات متماثلة كما لا يخفى . وبيانه : —

المعرفة التي يتلقنها الحدث والغلام والطالب في الروضة والمدرسة والكلية والجامعة يتلقنها نفسها مئات ألوف النشء في الأمة الواحدة . وليس لهم اختيار في تلقنها ، لأن برامج التعليم والتثقيف موضوعة بمراسيم قانونية على الغالب . فلا المدرس حر في أن يدرس ما يشاء . ولا الطالب حر في أن يقبل أو يرفض ما يشاء من فروع درسه .

والمعرفة التي يقتبسها المطالع من كتاب صادر من معامل الطبع والنشر يقتبسها نفسها ألوف غيره من القراء . ومصدر التفكير فيها واحد وهو تفكير المؤلف . وبقدر ما يكون المؤلف حرًّا في تفكيره وتأليفه يستقي المطالع المعرفة حرة سليمة من التمويه والتضليل الى حد . ولأن المؤلفين جميعاً خارجون من بوتقة ثقافية واحدة فلا يندر التماثل والتشابه في روح مؤلفاتهم مهما تنوّعت وتنوّعوا . وبقدر تنوع المؤلفات والمؤلفين تتنوّع معارف المطالعين .

لا تظهر هذه النظرية الا بالمقابلة بين ثقافة أمة وثقافة أخرى . ففي عهد الحكم الغليومي مثلاً كانت روح الثقافة الألمانيـة نظرية «السوبرمان» التي اخترعها نيتشه . وفي أواخر القرن الثامن عشر كانت روح الثقافة الافرنسية في القرن التاسع عشر مستمدة من كتابات جان جاك روسو وأمثاله .

وشأن عامل الصحافة كشأن عامل الطباعة تقريباً . أو هو أقرب لعامل الثقافة لأن ملايين قراء الصحف يقتبسون تفكيرات بضع مئات أو بضعة ألوف المحررين . وهؤلاء المحررون قلما يختلفون في روح تفكيرهم وتحريرهم العام بقطع النظر عن اتجاهاتهم الحزبية وهي اتجاهات ضيقة الحدود . فملايين قراء الصحف على الاجمال ملزمون أن يقرأوا ما تقدمه

الصحف لهم ولا خيار لهم فيه . ولذلك هم يتأثرون تأثرات متشابهة كل التشابه تقريباً .

وأما شأن العامل السينمائي فأشد حصراً للحرية في تلقي المعلومات والمدركات من العوامل الثلاثة السابقة وأوسع شمولاً للعقول التي تتلقى المدركات والمعلومات . فأفلام هوليوود مثلاً تستهوي ملايين الناس على سطح الكرة الأرضيـة . وتطبع في عقولهم جميعاً في وقتٍ واحد طابعاً واحداً لا خيار لهم فيـه . فهم في كثير من التأثرات العقليـة والنفسية خاضعون، من غير أن يشعروا بالخضوع، لسلطان تفكير مؤلف السيناريو ومخرجه . فما بالك بحرية انفعالهم اذا كان هذان غير حرّين .

بقي عامل الراديو وهو لا يقل عن عامل السينما تأثيراً ونفوذاً ، سوى أنه أقل منه شمولاً ، أو أنه أوسع حرية من حيث الشمول . أعني أنك حرٌّ في أن تسمع اذاعة وطنك أو إذاعة وطن آخر . ولكنك لا تستطيع أن تعترض على ما يذاع لك ولا رأي لك فيه . لست حرّاً إلاّ في أن تمتنع عن السمع بتاتاً . كما أنك حرٌّ في أن تمتنع عن حضور السينما. بيد أن هـذه الحرية يقابلها استهواء العاملين واغراؤهما بحيث لا تكاد تكون حرّاً في الامتناع .

٢ — علم الانسان صنع قيداً للانسان

يستفاد مما تقدم ان العلم الذي هو زينة العقل تاج الانسان — هذا العلم الذي ابتدعه العقل الانسـاني هو نفســه اصطنع قيوداً وسلاسل لحرية العقل كما رأيت . فهل تعتبر العلم هذا عدوّاً لمبتدعه ، اذا كانت الحرية نعمة للانسان وهو يقيدها ؟

ان هذا العلم المخترع الذي يتباهى به العقل ليس ثمرة العقل الفردي ، بل هو ثمرة العقل الاجتماعي . هو شرر العقول الفردية المحتكة . فهو يكافىء الاجتماع الذي أنتجه بهـذه السلاسل التي يقيد بها حرية الأفراد لكي يرتبطوا في المجتمع . فتلك الأقنية التي تتسرّب فيهـا المعلومات والمدركات الى العقول على أنماط متماثلة تتراءى لنا قيوداً لحريات الأفراد، وإنما هي طوابع تطبع تصورات الأفراد وأفكارهم وأخلاقهم بطابع واحد عام لكي يتسنى اتحادهم ويكونوا مجتمعاً متيناً منهم غير متقلقل . فمنتجات العلم الاختراعيـة التي حسبناها قيوداً للحرية ليست ذات أذى للمجتمع البشري بل هي منحة له لا تقدّر بثمن. هي العامل الأعظم في انشاء المجتمع .

ولكن اذا كان المجتمع يسيء استعمالها فما ذنب العلم ؟

العلم ليس عدواً للحرية، وانما الذين يسيئون استعمال منتجات العلم هم أعداء الحرية. هم المسيطرون المستبدون الذين نحن نبحث في كيفية قتلهم للحرية التي هي أثمن ما يتمتع به الإنسان.

أولئك الحاكمون بأمرهم يسيطرون على المصادر الخمسة لأقنية المعلومات والمدركات التي بسطناها آنفاً. وبالتالي يسيطرون على حريات الأفراد وحريات الجماعات، فكيف يسيطرون ؟

٣ — السيطرة على قيود الحرية الفردية

فيما سبق أشرنا الى بعض شواهد وأمثلة لكيفية سيطرة « الحكام بأمرهم » على برامج التعليم والثقافة. فلا لزوم للعودة الى هذا الموضوع. وأما سيطرتهم على الطباعة والصحافة فهي سيطرة علنية في جميع البلاد الدكتاتورية. وفي المانيا على الخصوص بلغت الحد الذي بلغته لعهد الحكم الحميدي في تركيا تقريباً. فالصحيفة الألمانية كانت لا تستطيع أن تنشر إلاّ ما يُوعَز به إليها. والبريد لا يؤذن بدخول صحف أجنبية مغضوب عليها. هذه القيود الصحافية يعرفها كل إنسان فلا مقتضى لذكر شواهد عليها.

كذلك شأن السينما فهو تحت السيطرة أيضاً بحيث لا يؤذن إلاّ بإظهار ما تؤذن به السيطرة. ودور السينما مضطرة أن تظهر على شاشتها ما تقدمه لها السلطة.

هذه سيطرة على الحرية لا يجهلها أحدٌ الآن.

وأما السيطرة على الراديو فمن الشواهد الغريبة عليها أن الحجز على عدّة الراديو لأجل دَيْن لا يجوز في المانيا بتاتاً، ولو استحال تحصيل الدين بغيره. وقد تقرّر هذا المنع بدعوى أنه يجب أن يكون لكل إنسان عدّة راديو لكي يتسنى له استماع البلاغات الرسمية وبلاغات الزعيم. وينتفي كل عذر له في عدم معرفته بها.

هذا من حيث وجوب استعمال كل فرد للراديو. وأما من حيث وجوب امتناعه عن سماع ما تعلنه السلطة، فان محكمة وستفاليا حكمت على أب وابنه بالسجن ١٥ شهراً لأنهما دعوا بعض أصدقائهما من حزبهما الى منزلهما لسماع اذاعة محطة موسكو [١].

---

(١) الخبران منقولان عن حشية صفحة ٥١ من كتاب « الحرية اليوم » المذكور سابقاً

هكذا تُخنق الحرية الفردية بحكم الدعاية الايجابية عن طريق السيطرة على موارد المعلومات وأقنيتها الى العقول . فان الحاكمين بأمرهم يستخدمون منحة العلم العظيمة التي سهّلت ورود المعارف الى العقول لبث دعايتهم ، يرسلون في أقنية المعلومات ما يريدون ارساله ويمنعون ما يريدون منعه ، لكي يتسنى لهم أن يصوغوا العقول لقبول دعاويهم ومزاعمهم في صلاحيتهم لتولي الحكم

٤ — الدعاية السلبية

أما الدعاية السلبية فهي على الغالب :

أولاً : في منع ورود الحقائق والمعلومات الصحيحة في تلك الأقنية أو حجبها عن الجمهور من ناحية .

وثانياً : في منعه من اعلان فكره أو رأيه من ناحية أخرى .

أما الأول فقد ورد الكلام فيه في عرض البحث الآنف من الدعاية الايجابية . فالغرض الأول من الرقابة على الصحافة والطباعة والسنما والراديو إنما هو منع إذاعة حقائق ومعلومات عديدة عن الجمهور ، بدعوى انها تسمم أخلاق الجمهور وعقولهم . والحقيقة انها تنبه الجمهور لعسف « الحكام بأمرهم » أو تثيره عليهم ، أو تثير شغبه فتعرقل أعمالهم .

وأما الثاني فالغرض منه ألاّ يكون للوطني رأي البتة . ولسان الحال فيه : « انك أيها العامي لا تصلح لصياغة الرأي . فلا تعنت ذهنك في صياغته . أرح بالك . فالحاكمون يصوغون لك الرأي الأصوب لمصلحة الجماعة التي تشمل مصلحتك » .

وهذا الشكل من الدعاية السلبية يقتضي أن تسد السبل لمناقشة الأفراد كلما أمكن سدها ، فما يريد أن يبلغه « الحاكم بأمره » للشعب يبلغه بواسطة الراديو بحجة أن هذا الأسلوب أفضل أساليب الاذاعة لاتساع انتشاره وسرعته . فالوطني يستطيع أن يسمع البلاغ بسهولة وفي الحال . ولكنه لا يستطيع الرد على قائله ولا مناقشته فيه . كذلك الاذاعة في الصحف مباحة للحاكم ولكن المناقشة محظورة على المحكوم .

وهناك وسائل أخرى عديدة لمنع الوطني من ابداء رأيه أو ملاحظاته لوضعه في موضع الآلة الصماء البكماء العمياء :

١ – الجندي في معظم البلاد محظور عليه تحت طائلة العقاب الصارم التكلم أو الاشتغال بالسياسة، وبالتالي لا يجوز له أن يخالف رأي الحكومة برأي آخر، أو أن يناقش ضد جانبها. فكأن الثوب العسكري يحرمه أهم حقوق الوطني الا الاستهداف للهلاك في سبيل الوطن.

٢ – كذلك الموظف في مصالح الحكومة الدكتاتورية لا يجوز أن يكون له رأي غير رأي الحكومة، ولا يجوز له أن يناقش الا في جانب رأي الحكومة، وإلا تعرض للعزل فضلاً عن العقاب إذا كان قد سفه رأي الحكومة بشدة.

٣ – العمال المستخدمون في المصالح الأهلية وفي المعامل، وكل من هم على شاكلتهم انما هم مسلوبو الحرية من نواحٍ مختلفة: أولاً: من ناحية انهم محصورون ضمن نطاق عملهم فلا متسع من الوقت عندهم لبحث المسائل السياسية والاجتماعية. هيهات أن يبقى عندهم وقت لقضاء مصالحهم الخاصة الشخصية والعائلية.

ثانياً: أن انحصارهم ضمن نطاق العمل في عمل واحد على وتيرة واحدة يجعل عقولهم بليدة قلما تحسن التفكير. ناهيك عن ان هذا الانحصار يسلبهم فرص الاختبار واحتكاك الأفكار بالأحوال الخارجية والعمومية. فلا يحسنون تكوين آراء.

ثالثاً: انهم وهم مضطرون الى المحافظة على مراكز خدمتهم ملزمون أن يراعوا خواطر أسيادهم أصحاب أعمالهم. فآراؤهم، إن جاز لهم ابداؤها، إنما هي آراء أسيادهم.

رابعاً: في ظل الحكم الدكتاتوري يكون جيش العمال « بلا حرية رأي » البتة، بل قل « بلا ارادة » ما دام هؤلاء العمال لا يستطيعون التفوه إلا بارادة أسيادهم الرأسماليين. والغالب أن أسيادهم أداة في يد الحكومة الدكتاتورية، والأغلب بالعكس، أي أن الحكومة الدكتاتورية آلة في أيدي أولئك الرأسماليين، وفي أي الحالين الحكومة والرأسمالية يجريان مجرى واحداً. لذلك يكون ذلك الجيش من العمال آلة بلا ارادة في يد السلطة. فمن يبقى إذن حر الرأي ؟

٤ – المشتغلون بعملهم. وهؤلاء أقلية لا يعتد بها وهيهات أن تستطيع الافلات من قبضة الدكتاتورية.

د — حرية العمل

بقيت حرية العمل وهي بعد ما تقدم من البحث لم تبق موضوعاً للبحث لأن مسلوب حرية الفكر وحرية القول لا يستطيع أن يملك حرية العمل فيما لا يفكر فيه وفيما لا يستطيع أن يتفوه به. يستطيع أن يعمل ما يجوز له أن يقوله فقط، لأنه لا يضاد ارادة السلطة الحاكمة بأمرها

ه — صلاحية الرأي

بقي أمر جوهري لا بد منه لختم هذا التمهيد وهو: ما هو الرأي الذي يعتبر صالحاً لحياة المجتمع أو الأمة ؟

بحسب المبدإ الديموقراطي البحت الرأي الأصلح لحياة الجماعة هو الرأي الذي تقره أكثرية الجماعة لأنه ليس أولى من الجماعة نفسها لتقرير ما يصلح لها مهما كانت راقية أو منحطة، مثقفة أو ساذجة. لأنها هي التي تتحمل تبعة رأيها صالحاً كان أو طالحاً، وهي الجديرة باصلاحه أو تنقيحه أو العدول عنه ان كان غير صالح أو قليل الصلاحية. ولا وظيفة للسلطة الحاكمة الا تنفيذ ذلك الرأي الذي تقره الجماعة.

الرأي الأصلح لحياة الجماعة ليس من مواضيع هذا الكتاب والبحث فيه لا يسعه هذا المجلد الصغير، فلا نتعرض له. وإنما نذكر المبدأ العام الذي تبنى مصلحة الجماعة عليه وهو: إن كل رأي يكون فيه نفع الجماعة موزعاً على الأفراد بأكثر ما يستطاع، وضرره العائد على الأفراد أقل ما يمكن، هو الرأي الأصلح للجماعة.

وهنا نسأل: هل يطابق هذا المبدأ العام سياسة الحاكمين بأمرهم وادارتهم ؟ وفي الجواب نشير الى بعض مبادئهم للدلالة على مبلغ غرور هؤلاء الحكام بعبقريتهم. وعنجهيتهم التي يتخلقون بها في فرض مبادىء اجتماعية على عقول أممهم لا تستطيع أن تقبلها الأقوام الساذجة، فكيف تتحملها الشعوب الراقية بغير الرضوخ للسؤدد القاهر

اليك أمثلةً على ذلك ما أورده مؤلف «الحرية اليوم» في حاشية صفحة ١١٤: —

«الحقيقة لا ينبغي أن تكون دائماً مرغوبة. هذا في رأي الهر هتلر الذي صرّح به

في محاضرة إذ قال بالنص : « ان الواجب على الألماني ان لا يطلب الحقيقة لذاتها Objective truth اذا كانت نافعة للآخرين . بل يجب أن يطلب بلا انقطاع الحقيقة التي تهمه نفسه »

وقد ورد في مرسوم للحكومة البروسية في مارس ١٩٣٤ « الاشتراكية الوطنية التي يدعيها حزب النازي، ويزعمها الهرهتلر، ولا أحد يدري أي اشتراكية هي، تهجر على تعقلها نظام الثقافة الذي يجعل المعرفة غايته القصوى »

وصرّح الدكتور فريك وزير الداخلية بهذا القول: « ان جهد الثقافة يجب أن يوجه الى انتاج الرجل السياسي الذي بأفكاره وأفعاله جميعاً متأصل في أمته ومندمج بتاريخها وإيمانها بلا انفصال . وأما الحقيقة لذاتها فشيء ثانوي وغير مرغوبة دائماً »

وصرّح الهر روست وزير المعارف . « أنتظر من المدرسين أن يقدموا لتلاميذهم المبادىء الأساسية للفلسفة وفكرة « الاشتراكية الوطنية » .... لا ان يبقوا محايدين ومكبين على درس الحقائق لذاتها في المدرسة . ولا ان يجعلوا الغلام ملاحظاً بليداً ، بل يجب أن يوقظوا فيه الحماسة والعاطفة : ان هذه المسألة ذات قيمة إلهية وأبدية . وليست ذات حقيقة فاترة » . (١)

ومن ذلك قوله أيضاً : « ان من واجب « اتحاد « المعلمين » أن ينشئوا فكرة الوطنية والاشتراكية الوطنية .... يجب أن يدرّب الطلبة على الطاعة العمياء للمعلمين » ...

ومن غرائب ثمار التعصب الألماني الجنسي ان الذائع في مجالس النازي ان نظرية النسبية التي أذاعها إينشطين العلاّمة الشهير قبل الحرب الكبرى اختلسها اينشطين من دفتر مذكرات كان في جيب ضابط روسي (الماني) . فتأمل

بمثل هذه المبادىء يصوغ « الحاكم بأمره » الألماني الآراء الصالحة لأمته ، وهي آراء كلفت المانيا في كل من سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٦ نحو ٨٥٠ مليون جنيه في الاستعدادات الحربية تجاه الدول التي يثير ايجاسها من شر بلاده بمثل هذه المبادىء العدائية

وعلى هذا النمط يصوغ موسوليني وأمثاله من « الحكام بأمرهم » الحقائق التي يسندون

---

(١) كتاب الحرية اليوم صفحة ١١٥

اليها تعاليمهم السياسية والوطنية . فمن أقوال هذا « العبقري الالهي » بهذا الصدد في كتابه « تعليم الفاشيزم السياسي والاجتماعي » : « الحكومة تمثل روح الأمة . فالحكومة هي التي تثقف الرعايا الوطنيين على قاعدة الفضيلة المدنيـة وتمنحهم وجدان Conciessness وسالتهم وتجبلهم في جبلة وجدانيتهم . وهي التي تقود الناس من حياة الفطرة الأولى الى عبادة القوة البشرية العليا التي هي الامبراطورية »[١]

وفي حين أنه يصرّح : « بأن الفرد في الحكم الفاشيستي مجرد من الحرية التي لا فائدة منها [٢] والتي قد تكون ضارّة وله ان يحتفظ بالجوهري منها فقط . يناقض هذا التصريح بقوله : ان الفرد في الحكم الفاشيستي لا يلغى من الوجود بل يضاعف وجوده [٣]

نرى هل الآراء التي تصاغ من هذه المبادىء وتلك تصلح للنفع الأكثر والضرر الأقل للجماعة ؟ . للقارىء ان يزنها بميزان العقل المجرد من الغرض وثمّ يحكم .

(١) كتاب الحرية اليوم صفحة ١٧٨
(٢) من يحكم بأن لا فائدة منها ، الدوتشي أم الامة ؟
(٣) كتاب الحرية اليوم صفحة ١٨٢

الفصل الاول

نشوء الديموقراطية وتطورها

١ — نشوء الحكم

يفهم سواد المفكرين بالشؤون السياسية والمطالعين فيها ان الديموقراطية نظام سياسي اداري يتساوى الناس فيه بحرية التفكير والقول، وبالحقوق الانسانية العامة، كما هم متساوون بالواجبات الاجتماعية . وبحكم هذا التساوي يكون زمام حكمهم في أيديهم يسلمونه لنواب عنهم ينتخبونهم من خاصتهم، الممتازين فيهم برجاحة العقل والفطانة والحصافة ونقاء الضمير وسعة المعرفة والاختبار .

ذلك هو المعنى الشائع الآن للفظ الديموقراطيـة . ولكنه لم يكن المعنى اللازم له في كل زمان ومكان . بل اعتورته معانٍ مختلفة بعض الاختلاف بحسب الزمان والمكان ، كما سيتضح من سياق البحث .

وليس المقصود هنا بالحكم التحكّم ، بل المقصود به ادارة المصالح الداخلية وسياسة الشؤون الخارجية . فذلك النظام وهذا الحكم الذي يقتضيه مسندان الى القوة الصادرة من مجموع الأمة . ولهذا يجب أن نخص النبذات التالية بصدد القوة التي يستند إليها الحكم

١ — نشوء التعاون الاجتماعي

الديموقراطية نزعة من نزعات الحياة ، فردية واجتماعية . هي عنصر من عناصر الحيوية كامنة في الهيولي نفسها . وقبل أن يبرز هذا العنصر الى الوجود الحيوي لابدّ من بروز الاجتماعية التي تنزع هذه النزعة — لا بدّ من تكوُّن المجتمع . والاجتماعية نفسها سجية من سجايا الحياة ، تراها منذ نشوء الخليات Cells الحيّة . فما توالدت خليّة بروتوبلاسمية حتى صارت مواليدها جماعة متواطنة . ففي كل مستعمرة جرثوميـة بروتوبلاسمية ترى

ضرباً خاصـّاً من الجرائيم تتألف منه المستعمرة وتطرد سواه أو تلتهمه

ترى الاجتماعية الحيوانية ، كلما تصاعدتَ في دراسة سلم الحياة من الحيوانات الدنيا حتى الإنسان . وكلما تصاعدتَ فيها ترى هذه الاجتماعية أعقد حيوية، ووظائفها التعاونية أكثر تنوّعاً . أجل ترى من ضروب تعاونها وتكافلها ما يكاد يقنعك أن هنـاك عقلاً يسوس ويدبر ، ويجمع ويفرق . ولا ريب أن العقلية الداخلية (الغريزية) تبتدىء مع بداية الحياة الأولى .

ترى الجماعة التعاونية في أسراب الحياة الدنيا حتى الحشرات كالنمل والنحل . وتراها في الوحوش كالإيـّل والأبقار البرية ، وفي الطيور الخ . واذا دققت في الدرس تراها في كل نوع من أنواع الأحياء بلا استثناء .

جمع كروبتكن [١] أمثلة عديدة عجيبـة لتعاون الحيوانات . فمن ذلك أن نوعاً من الطيور المائيـة يدعى بجماً (جمل الماء) Pelican يذهب جماعات لصيد الأسماك . فتختار الجماعة أولاً جوناً [٢] من الأجوان . ثم تصطف تجاه شـط الجون بشكل نصف دائرة واسعة مواجهة الشاطىء ، ثمّ تتقدّم نحوه مضيّقة المساحة بينها وبينه سائقـة الأسماك أمامها الى أن تحصرها . ثم تقبض على معظم الأسماك التي انحصرت في الدائرة الضيقـة . وأما في الأنهـار والجداول فتنقسم الى صفين متقابلين عن بعد، وكل منهما بشكل نصف دائرة . ثم يتقاربان الى أن يتصل طرفا نصف الدائرة الواحدة بطرفي نصف الأخرى .ولا يزالان يحصران الأسماك بينهما حتى يتسنى لهما الظفر بالجانب الوافر منهـا . حتى إذا جن الظلام عادت تلك الجماعات من مصائدها الى مراقدها . وما من أحد من الناس رآها تعترك متنازعة ما اصطادته .

الـكركي أو الرهو ، وهو نوع من الطيور المائية ، تعيش جماعات بسلام تام فيما بينها، مسالمة لسائر الطيور المائية الأخرى . ولها نظام كشافة عجيب . فتقيم عسساً حول الجماعة في اثناء راحتها وغذائها ورعاية صغارها . فإذا باغتها صياد بشري في اثناء ذلك افرنقعت

---

(١) انظر Democratic Process حاشية صفحة ١٥

(٢) الجون خليج صغير في البحر ، الشط فيه شبه نصف دائرة

ولا تعود ثانيـة الى ذلك المكان لأنه أصبح في يقينها خطراً . وانما ترسل في أول الأمر كشّافاً يستكشف الناحية . ثم ترسل ثانية زمرة من الكشافة ، حتى متى عادت الكشافة بخبر زوال الخطر تبعث بزمرة أخرى أوفر عدداً لكي تتأكد صحة الخبر . وأخيراً تعود الجماعة كلها مطمئنّـة .

ومن غريب ما يروى ان كلاب البرية في أميركا تخرج من أوجارها عائلات ، وتتداعب مرحة وتتزاور ، ثم تعود الى أوجارها .

وفي سيبيريا الشرقية تتوافد الأيائل من نواحٍ مختلفة الى نقطة معينة لكي تهاجر الى صقع آخر سرباً واحداً (١) .

وهناك أمثلة عديدة على اجتماعية الحيوانات تثبت لك ان الحيوانات الضعيفة تدفعها الغريزة الى الاجتماع والتعاون حرصاً على بقائهـا . والأنواع القليلة الاجتماعيـة الضعيفتها أو العديمتها معرّضة للانقراض مهما كانت قوتها الفردية شديدة . والعقليـة غريزية كانت أو اكتسابيـة تستقوي بالتفاعل الاجتماعي كما لا يخفى عليك . ولذلك ترى الحيوانات الأمتن اجتماعية أقوى غريزة في درء الأخطار واكتساب المنافع .

فلا تستغرب إذن انه بقوة العوامل الاجتماعية سادالانسان العوالم الحيوانية والطبيعية جميعاً .

٢ — الاجتماعية نظام قوة

الخيط المثلث لا ينقطع سريعاً . كذا قال الحكيم . وقوة الجماعة متحدة أقوى من قوى أفرادها غير متحدة . هذه حقيقة فلسفية لا مشاحة فيها . السفينة في متلاطم اللجج أثبت من حطامها المفككة التي تبعثرها الأمواج هنا وهناك . الريح لا تفتت السنبلة القائمة ، ولكن إذا فتتها الدارس ذرّت الريح عصافتها في كل ناحية . إذن الاجتماعيـة قوة عظمى .

كذلك الاجتماعية نظام . هذا النظام مفقود في الفردية أو في الأفراد متفرقة . أعواد الكرسي متفرقة لا تصلح للجلوس عليها ، حتى ولو كانت متجمعة بعضهـا على بعض .

(١) أنظر صفحة ١٥ The Democratic Process

لا تصلح للجلوس عليها إلا بعد أن يجمعها النجار بشكل كرسي ، ويربطها بعضها ببعض ربطاً متيناً .

ترى أن أعواد الكرسي ومساميره وغراءه الخ لا تساوي كرسياً البتة . وبعبارة معكوسة ، الكرسي لا يساوي الأعواد والمسامير الخ فقط ، بل يساويها ومعها شيء آخر . فما هو هذا الشيء ؟ ليس اجتماعها فقط ، بل انتظامها معه أيضاً . فالكرسي = الحطام + فن النجار . والبيت يساوي = الحجارة + فن المعمار . وهكذا كل مصنوع = الحطام + النظام .

كذلك الجماعة هي مجموعة أفراد ونظام اجتماعي معاً — هي أفراد منتظمون في نظام ذي قوة ، وما هي أفراد مبعثرون أو مجتمعون بغير نظام .

فكيف تنتظم الجماعة ؟

ينتظم مجتمع الجماعة إذا شعر كل فرد فيه انه لا يستطيع أن يدرأ خطراً عنه ، أو يكتسب منفعة ، الا بالتعاون مع رفقائه . والأخطار التي هو عرضة لها ترجع الى ناحيتين :—

أولاً — ناحية الطبيعة التي تجود عليه بالرزق جزاء عمله فيها . فهي عرضة للنضوب أو الشح أو المحل .

ثانياً — ناحية الاجتماع ، وهي غزو جماعة أخرى لجماعة ، بغية استعبادها ونهب قسطها من خير الطبيعة .

لذلك هو مضطر أن يتفاهم مع رفاقه على التعاون لدرء هذين الخطرين ، لأن الغريزة والعقل الاستدلالي الاستنتاجي أرشداه الى أن هذا التعاون الاجتماعي ينقذه من الخطرين . فكيف يحصل على هذا التعاون ؟

يدرك أن هذا التعاون نظام يستلزم تنظيماً .

والتنظيم يستلزم منظماً .

يدرك ذلك بالغريزة وان لم يفهمه فهماً فلسفياً بالعقل . لذلك ترضخ الجماعة لتنظيم منظم .

ومن هو المنظم ؟

هو المسيطر الذي يذعن له الأفراد ويأتمرون بأمره .

هذا يدركه الأفراد بالسليقة أيضاً من غير اعنات فكر . وتؤيده الوقائع والتجارب فكيف ينشأ المسيطر ؟

٣ — نشوء المسيطر

السيطرة، سواء كانت سلطة حاكم مطلق أو سلطة ادارة ، لا يمكن أن تستتب الا إذا كانت مستندة الى قوة كافية لقيامها . ولا نعرف مصدراً للقوة العظمى إلا قوة الجماعة كما تقدم القول . لا يستطيع فرد أن يتحكم بجماعة بقوته الشخصية ، ما دام « ضعيفان يغلبان قوياً » ، إذن فمهما كان الفرد ذا شخصية قوية فلا بد له من استخدام قوة الجماعة نفسها — فكيف يستطيع أن يستخدمها ؟

لهذا الأمر وسيلتان : ١ — التزعم . ٢ — التنظيم .

١ — التزعم: هذا الموضوع يحدو بنا الى البحث في نشوء « الحكم » أو بعبارة أوسع نشوء « السيطرة » . لذلك نتصور جماعة أولية أو قبيلة في بدء اجتماعيتها وجدت نفسها تواجه في معيشتها مشكلتين : الأولى خلافات تنازعية بين أفرادها لا تكاد تحسم إلا بالخصام والمشاجرة، وبالمقاتلة أخيراً، بحيث يؤول الحق للغالب، ولكنه يثير حنق المغلوب وحفيظته . والثانية احتكاكها بقبيلة أخرى مجاورة لها . ولا يكاد يسلم هذا الاحتكاك من الأيلولة الى حرب بين القبيلتين . وفي كلتا الحالتين يدرك أفراد القبيلة أنهم خاسرون وغير مطمئنين لمعيشتهم ، فلا يلبثون أن يكتشفوا أن الوسيلة الفضلى لتلافي هذا القلق هي أن ينضووا تحت كنف زعيم يتولى أمرين مقابلين لتينك المشكلتين . الأول: أن يقضي بينهم ويفض خلافاتهم . والثاني : أن يقودهم لمقاتلة القبيلة الغازية لهم كعصبة واحدة . وفي مقابل حسنات هذه الزعامة يتعهدون ضمناً أو بصراحة بالطاعة والاذعان لاوامره .

ولما كانت القبيلة عادة من سلالة واحدة ودم واحد، كان كبيرها سناً أو حنكة واختباراً ودهاء هو المتزعم . بواسطة هذا التزعم يصبح زمام قوة الجماعة في يد الزعيم القائد القاضي والحاكم . وبموجب حق الزعامة ينفذ قضاءه فيهم وأوامره الادارية والحربية باستخدام هذه القوة أو باستخدام جزء منها حسب الاقتضاء . ومن هنا ينشأ التنظيم .

٢ — التنظيم — ومتى استتبّ الأمر للزعيم برضى الجماعة، شرع ينظم القوة التي ينفّذ بها قضاءه وأوامره. فيعين شرطته ويرتب جنديته ويوظف عمال ادارته.

بهذا التنظيم يستتب له الأمر والنهي، ويصبح زمام القوة في يده، حتى اذا تمرّد أحد الأفراد على سلطته أخضعه بهذه القوة رغم أنفه. فإذا استطاع أن يقمع بنظام قوته هذا ثورة متمرّدين أصبح صاحب السلطة المطلقة، بحيث لا يستطيع أناسه ان يستردوها منه، أصبح أميراً فملكاً.

بعد بلوغه الى هذه الدرجة من الاعتصام بزمام القوة يصبح النزاع بينه وبين قومه فاتراً أو حادّاً، بقدر ما يحسنه من رعاية، وما يحكمه من نظام:

بحسن النظام يظفر بقوة القوم. وبه يتحكم بالقوم بواسطة قوة القوم. وبه يجعل القوم يخلدون الى حسن رعايته.

فما هو سرّ أنّ فرداً واحداً يستطيع أن يتحكم بجماعة ويستبدّ بهم، وقد يكون عاميّ واحد منهم أقوى منه عضلاً وعقلاً؟ السرّ هو ان الحاكم يمتاز باحراز أمرين: قوات الأفراد متجمعة، وتنظيم هذه القوات. وأما الأفراد فلا يحرزون إلاّ قواتهم متفرّقة — كلٌّ يحرز قوة نفسه. وقد لا يحرزها إذا زجّه الحاكم في نظام جنديته أو شرطته، أو إذا اعتقله أو اذا أبعده.

فترى ان اتحاد الجماعة تحت رعاية نظام الزعيم — هذا الاتحاد الذي اخترعه الانسان لأجل ضمانة سلامته وسلامه، وضمانة الأمن لاسترزاقه — كان العامل الرئيسي في استعباد الزعيم له واستغلاله. وندر أن الزعيم الظافر بالسلطة لم يستأثر بها، ويجعلها اداة لنفعه الخاص، وذريعة للاستعلاء على قومه. وهذا الاستعلاء نفسه يصبح مع الزمن وسيلة نفسية لتعزيز سلطته.

فمنذ نشوء الزعامة في كبير القبيلة وشيخها وبطلها نشأت الكهانة. وهما صنوان متماشيان. وعلى تقادم العهد يصبح البطل الزعيم الميت إلهاً، وحفداؤه أولاد الإله. وبالتالي أنصاف آلهة. فروعة الالوهية تعزز سلطة الزعيم في نفسية القوم. ولذلك كانت الكهانة التي هي وظيفة سلالة الإله مقترنة بالزعامة. وفي كثير من سلطات التاريخ كانت الزعامتان الدينية

والسياسية تجتمعان في الملك ذي السلطان الأعلى .

بقي هذا التقليد المظم الشأن دهراً طويلاً حتى جيلنا الحاضر . فابن السماء الصيني، والقيصر الروسي وغيرهما لم يخلعا عن عرش الالوهية أو عرش النيابة عنها إلا في أوائل هذا القرن . وبابا روما كان زمناً طويلاً يجمع السلطتين في يده .

وفي سنة ١٩٠٦ سنّت المادة الرابعة من قوانين الدولة الروسية بهذا النص :

« انّ لإمبراطور الروسيين القوة الاوتوقراطية العليا . فطاعة سلطانه ، لا عن رهبة بل عن ضمير حيّ ، إنما هي أمر من الله نفسه »

والملك جايمس الأول الانكليزي الذي حكم من سنة ١٦٠٣ ١٦٢٥ حاول ان يثبت في « قانون الممالك الحرّة » من نصوص الكتاب المقدس ومن الشرائع الطبيعية والانسانية، أن الملوك يحكمون بحق إلهي ، الى أن قال : — « انه لالحادٌ وكفرٌ شنيعٌ وتجديفٌ فظيعٌ أن يناقش أحد فيما يستطيع الله أن يفعله . وهكذا يُعَدُّ تجديفاً ووقاحة ان يجادل أحدٌ فيما اذا كان ملك لا يستطيع أن يفعل هذا الأمر أو ذاك »

بهذه العقيدة — عقيدة أن للملك حقّاً إلهيّاً ببسط سلطانه على قومه — كان الملوك يؤيدون شوكتهم ويعزّزون سلطانهم . وفي كثير من الأحيان كانت هذه العقيدة وحدها كافية لتأييد الملك في عرشه، لأن اغراق الجمهور بها كان يردعهم عن الافتئات على سلطانه ، بل كان يدفعهم الى التضحية في الذود عن عرشه وحمايته من الغاصبين .

لهذا كان أفعل سياسة يسوس الملوك بها رعاياهم، هي تعظيم الروح الدينية، واعظام نفوذ الإله وتأثيره في حياتهم الزمنية، فضلاً عن الأبدية . فلا بدع ان تكون النعرات الدينية معظم أسباب الحروب في القديم، حتى في العصور الأخيرة .

٤ — غريزة الحرية

وبالرغم من أن عقيدة السلطة الإلهيّة والوراثية كانت أيضاً ميراثاً اجتماعيّاً للعباد يتلقنها الأولاد عن الوالدين والأحداث عن البالغين ، عن الكهول والشيوخ ، كانت البديهة تحفز بعض العقول النيّرة لاستنكار هذه العقيدة، وتحرّض النفوس المتمرّدة على المجاهرة باستنكارها واستفزاز الجماعة لطرح نيرها عن رقابهم .

الحرية بديهية في الفكر . ولماذا يكون الانسان محروماً الحرية،وهو يرى الطيور والوحوش والحشرات حرة ؟ ففي الطبيعة كل يوم محرض له على استرداد حريته . فلا بدع ان يتحين كل فرصة لاسترداد حقه الطبيعي في ادارة حكم نفسه بنفسه . ومهما أنبت التقاليد الانسان بأن السلطة التي يتمتع بها الحاكم ويستخدمها في استعباد قومه هي مستمدة من قوى قومه متجمعة ، فان تلك البديهة تفكره بأن هذه السلطة انما هي ملك القوم لا ملك الزعيم ، لأن ينبوع قوتها في القوم ، لذلك يحرض نابغة القوم قومه على انتزاع تلك السلطة من الزعيم المستبد .

فما فتيء النزاع أو التنازع بين عباقرة القوم على السلطة متعاقباً متتابعاً جيلاً بعد جيل . العبقري الزعيم يجاهد في الاحتفاظ بالسلطة له . والعبقري الغيور يجاهد في سلخ السلطة من الزعيم وردها للقوم ، كما كانت منذ منشإ الاجتماع الانساني يوم انتخب رجال القبيلة زعيمهم أو شيخهم انتخاباً .

كذا كانت الديموقراطية منازعة الأمارة سلطة الحكم — منذ القديم الى اليوم . وكانت المعارك مترددة بين الجانبين . وإنما كان الفوز أغلب لناحية الحكم الفردي المطلق لصعوبة اتفاق الأفراد ضدها .

٥ — نظام الحكم المدني

رأينا فيما تقدم ان الاجتماعية التي هي سجية طبيعية من سجايا الحياة العامة، اقتضت أن تكون نظاماً لكي تصدر منها قوة ، وان تنظيمها اقتضى ان يكون للجماعة مُنظِّم . ولا مُنظِّم لها إلا العبقرية المكنونة فيها، التي تبرز في شخص نابغ . فهذا الشخص النابغ هو الذي يجمع قوة الأفراد بيده، وينظم الجماعة بهذه القوة الى أن يصبح مسيطراً .

لم ينصع الأفراد لهذا العبقري المنظم إلا برضاهم واختيارهم لتوسمهم الانتفاع عن يد تنظيمه . فسواء انتخبوه أو هو تولى الزعامة بالارث أو بالبطولة ، فاستيلاؤه على الزعامة جاء عن طريق الديموقراطية ، حتى لو اغتصبه اغتصاباً لبقيت روح الديموقراطية جرثومة في النظام ، لأنه يكون عرضة لخلع الجماعة له عند سنوح أول فرصة

من أمراض اجتماعية الانسان ان ديموقراطيتها التي هي سر نظامها بقيت ضعيفة دهراً

طويلاً . هو مرض عقام لا نجده في اجتماعيات الحيوانات الدنيا ولا العليا . أعني أنه ما قبض عبقري من الناس على زمام الزعامة إلاّ داس ديموقراطية الجماعة تحت قدميه، واستقلّ بالسيطرة ، واستبدّ بالقوم . وندر أن رأيت زعيماً أميراً أو ملكاً يحسن سياسة الحكم ، ويعمل لخير رعيته إلاّ اضطراراً . بل تراه يستأثر بالخير كله أو بمعظمه لنفسه ، ولا يبقي لجماعته إلاّ فضلات هذا الخير . كذا كان شأن الحكام منذ بدء التاريخ الى العصر الأخير تقريباً . فما سبب هذا الداء الذي بلي به المجتمع الانساني ، وقد سلمت منه المجتمعات الحيوانية ؟

السبب هو في نفس السبب الذي نشط بالنوع الانساني ودفعه دفعة قوية في سلم الارتقاء ، وجعله أعلى جداً في هذه السلم من سائر الأحياء . هو العقل نواة العواطف والشهوات . فالجماعة البشرية مشتركة بالعقل الاجتماعي الذي لا يزال ضعيفاً جداً وقاصراً بالنسبة الى العقل الفردي . ولكنها متنازعة الشهوات والعواطف . فلا بدع ان يسخر ذلك العبقري الذي ثبّت زمام السيطرة في يده قوة الجماعة لخدمة شهواته .

هكذا نشأ الزعيم ديموقراطياً . ولكنه ما لبث ان صار ملكاً مطلق الحكم . على انه مهما حرص على الاستقلال بالسيطرة فلا يستطيع ان يظفر به كله اذا اتسعت دائرة سلطانه، وتضخمت كتلة جماعته . لا تستطيع سطوته ان تنبسط على الملايين من النفوس والألوف من الأميال المربعة . لا بدّ ان يستعين بأعوان يشركهم بالسيطرة وبنعمائها ونعمها . وفي هذه الحالة ينثلم استقلاله وتضعف سيطرته ويصبح عرضة لخطر الانقلاب .

اما كيف تتسع دائرة سلطانه، فعلى حساب الجماعة نفسها . بقوة الجماعة تحدث ثلاثة أحداث:

أولاً — يتسنى للجماعة ان تنشط في العمل والاستغلال، وبالتالي في التوالد . فتنمو سريعاً .

ثانياً — يتسنى للزعيم (أو الحاكم) بقوة جندية الجماعة أن يفتح بلاداً أخرى فيضمها الى بلاده، ويوفر لقومه أسباب الرزق . وهذه تنشط فيهم قوة التوليد أيضاً .

ثالثاً — يضم الى قومه أسرى عبيداً أرقاء، ويستخدم قواهم في الاستغلال والتجنيد الخ .

كل ذلك يأول الى سعة ملكه وبسط سلطانه . وبالتالي يضطره الى استخدام الأعوان من عباقرة قومه ودهاتهم .

متى احتاج الزعيم المسيطر الحاكم المطلق الى أعوان في الحكم ، نشأ النظام الحكومي بطبيعة الحال . لأن الحاكم يرى أن الوسيلة الفضلى للتنظيم هي أن ينوِّع أساليب ادارته الحكمية، ويوزعها على أعوانه ولاةً وحكاماً وقضاةً وقواداً وجباةً الخ . هم رجال الدولة .

حينئذٍ تظهر الديموقراطية ثانية من وراء غيوم الحكم المطلق الاستبدادي . تظهر فيما يأتي من الأحوال .

١ — يشترك أولئك الاعوان الحكام مع الحاكم الأعلى بالرأي والتنفيذ،وبقدر ما لهم من الاستشارة العقلية ، يحدون من سلطته،ويضطرونه الى اشراكهم معه بالسلطة.

٢ — تصبح نفعية الجمهور حجة لتدخل أولئك الأعيان ، وان كانت أحياناً حجة مزعومة موهومة .

٣ — يصبح في طاقة أولئك الأعيان أن يتآمروا على خلع الحاكم وتعيين غيره .

في مقابل هذه المزايا التي للأعوان،والتي تخيف الحاكم الأعلى من خطرهم عليه يضطر هذا الحاكم أن يفتت كتلة تآمرهم بأن يشتري ولاءَ فريق منهم بالهبات من الأملاك ، ويقطع دابر الفريق الآخر الذي يخاف طموح مطامعه .

من هنا صدر نظام الاقطاع . وهو تولية أفراد ممتازين ببطولتهم في الحروب ، أو بدهائهم ، مقاطعات يحكمونها ويستغلون مكوسها . وفي مقابل ذلك يقدمون للملك ولاء واتاوات وجنوداً . وفي الوقت نفسه يطرح عن عاتقه الاهتمام بادارتها وسياستها وحفظ الأمن فيها . هذه الولايات الاقطاعية متوارثة .

هذا بيان اجمالي جداً لنظام الاقطاع . ولكن تفصيله يكاد يكون مستحيلاً لأنه مختلف الاشكال في الزمان والمكان . والمهم فيه أن لهؤلاء الولاة الاقطاعيين حق المشورة في مهمات الدولة السياسية والحربية . فهم شركاء الملك في الرأي والتنفيذ . ومجلسهم يعد ذا لون ديموقراطي .

الحكم الذي يشترك فيه الأعيان مع الملك كثيراً أو قليلاً يعد حكم الأعيان Oligarchy هذا الحكم الملكي المقيد بالأعياز قديم العهد ، تجد آثاره منذ بدء التاريخ . على أنه

لا يختلف عن الحكم الملكي المطلق من حيث تأثيره في الشعب. فهو مثله استبدادي. وكثيراً ما يكون أكثر منه ظلماً للرعية، لأن المتمتعين فيه، والمترفين على حساب الشعب عديدون. كل منهم يريد أن يكون مترفاً ترف الملك.

وندر أن ظهر في تاريخ الحكم الملكي ملوك عملوا لخير الشعب، قامعين شهواتهم وكابحين جماح عنفوانهم، كبعض ملوك اسرائيل القدماء، وبعض سلاطين صدر الاسلام ـ دولة الراشدين

وقد علمت في مطلع هذا الفصل ان الغرض الأساسي من نشوء الحكم هو ضمانة السلامة والسلم والأمن لتوفير الرزق للقوم. ولكن هذا الغرض ينعكس في ظلّ الحكم الملكي، أو الأعياني المطلق انعكاساً فظيعاً، في ظل هذا الحكم الاستبدادي يحدث ما يأتي:

١ — تنسحق الحرية الفردية حتى ضمن دائرة القانون. يصبح القانون بأزائها حبراً على ورق. تُحبَس حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل.

٢ — يتعرض كل نابغ وعبقري لخطر الهلاك. لأن عبقريته ونبوغه خطر ان على السلطة، فالسلطة الحاكمة تغتاله بأية الوسائل لكي تتخلص منه.

٣ — تحرم حرية الاجتماعات بقدر الامكان، مهما كان نوعها تفادياً لتفاهم القوم وتواطؤهم على المؤتمرات.

٤ — لا يسمح بإنشاء جمعيات أو أندية ونحوها للسبب السابق عينه.

٥ — تمنع الثقافة ما استطاعت لكيلا يتنبه الشعب للمطالبة بحقوقه الطبيعية.

لا تكتفي السلطة بما تقدم تحامياً لتآمر الجمهور ضدها، بل تختلق أسباباً للفت أنظارهم عنها: —

١ — تختلق فتناً سرّية بين الشعب لكي يشاجر بعضه بعضاً ويقتتلوا ويتعادوا.

٢ — تثير فيهم حسد الفقير للغني والوضيع للرفيع.

٣ — تعمل كل ما يمكن عمله لافقار الشعب لكيلا يستطيع التحفز للثورات.

٤ — تثقل عملية الضرائب لكي تغدق المكافآت لحرسها ولأعوانها. وبذلك تختلق أيضاً ضغينة بين الحرس والشعب (١)

(١) يقال انه في عهد حكم الامبراطور غليوم الالماني كان الجيش معززاً جداً، بل جعل أغلى قيمة في الامة، حتى اذا أساء جندي لمدني سومح الجندي، وربما عوقب المدني وهو بري.

٥ — تفتعل الحرب أحياناً لكي تشغل الشعب بها عن الثورة ضدها .

إذن السلطة المستبدة ما كانت في زمن من الأزمان إلاّ عقبة في سبيل تقدم الهيئة الاجتماعية .

ان دور الملكية الطويل جدير بأن يسمى دور « الحضارة الاستمبادية » . وبقدر ما كانت الملكية تتقيد بفئة من الأعيان ، أو بشيء من ارادة الشعب كانت الروح الاستمبادية تضمر وتضعف . ولكن ما دام ثمت ملكٌ له ارادة مطلقة ولو في بعض الأمور ، فهناك عبودية محدودة بتلك الارادة . هذا الاعتبار ينطبق على الدكتاتور (الحاكم بأمره) كما ينطبق على الملك المطلق . ورُبَّ دكتاتور اليوم أعظم سلطاناً ، وارادته أثقل وطأةً من ملك كان مطلق الحكم .

٧ — حقوق الانسان الطبيعية

بالرغم من مظالم الحكام المستبدين لم يمكن صدّ التقدم الاجتماعي صدّاً تامّاً . لأنه مهما اشتد الاستبداد فلا يمكن أن يخانق المعرفة والفنّ جميعاً ، ولأن المستبد نفسه يحتاج اليهما حاجة شديدة ، وإلاّ فلا يتمتع بثمرة استبداده .

المستبد يحتاج الى أهل العلم والمعرفة والفن ، لأنه في حالة السلم يود أن يتمتع بالأبهة وهناء المعيشة . وكلاهما يحتاجان الى ذوي الفن لكي يبنوا القصور وينقشوها ، وينسجوا الأطالس وينمقوها ، ويوشوها ، ويصوغوا الحلي ويزخرفوها ، ويطهوا ألوان الطعام ، الى غير ذلك من بهجة الحياة وأطايبها . وفي حالة الحرب يحتاج الى أهل الفن للتفنن في صنع السلاح ، وفي رسم الخطط ، الى غير ذلك من لوازم الحرب . وكل هذا وذاك يحتاج الى فن . والفن ابن العلم والمعرفة ، وهما سلم الارتقاء الحقيقي ، وفيهما يتنبه الجمهور الى حقوقه الطبيعية والمطالبة بها . فترى ان الاستبداد نفسه يبحث عن حتفه بظلفه . يختلق القوة القاضية عليه

لذلك في مقابل ادعاء السلطة الالهية التي كان الملوك بها يضعون نيرهم على رقاب الشعب تنبهت في الشعوب روح حقوق الانسان . وبهذه الروح نشأ النزاع الحاد بين الشعوب والسلطات لاسترداد الديموقراطية الى مقامها الاجتماعي .

ب — سير الديموقراطية

في احناء الملكية المطلقة

بالرغم من طغيان استبداد الحكم الملكي المطلق كانت روح الديموقراطيـة متغلغلة في أنظمة الحكم منذ نشأ ذلك الحكم. كانت تلوح أحياناً ثم تختفي حيناً، وتلمع تارةً ثم تغيب أخرى. ترى هذه الروح واضحة في تاريخ الامة الاسرائيليـة كله، فندر ان استبدّ ملكٌ من ملوكها. لأن يهوه رب الجنود المقيم في أدمغة الشعب كان يقف للملك أو القائد بالمرصاد، حتى اذا جنح عن الصراط الذي رسمه الوحي له ضربه بقوة الشعب نفسه، أو سلط عليه الأمم الأخرى المعادية. وكان النظام الديموقراطي الاسرائيلي ممثَّلاً بجميع القضاة الذين كانوا ينوبون عن أسباطهم. ولم يكن لوارث الملك حق الارث إلاّ بموافقة الشعب أو نوّابه. في ذلك النظام كانت العبودية ظلاً خفيـّا، اللهمّ إلاّ طائفة الأرقّاء الأجانب عن « شعب الله المختار »

ولا ريب ان هذا النظام الديموقراطي كان العامل الأكبر في بقاء هـذه الأمة الصغيرة بين الدول الكبرى المحيطة بها: مصر وبابل وفارس. ولو كان نظامها ملكيـّا مطلقاً لانقرضت سبياً واستعباداً، واندغمت بقاياها في الأمم السابيتها. لم يكن في الممالك المعاصرة للمملكة الاسرائيلية مثل هذا النظام. وإنما كان مثل ظله عند بعضها أحياناً.

١ — استعانة الملك بالنواب لجباية الاموال

قلنا فيما سبق أن المُلكَ متى اتسع جدّاً، وتعذّرت على الملك الاحاطة به، اضطرّ الملك أن يشرك معه أعواناً في ادارته واستغلاله. وفي هذا الاشراك شيءٌ من الديموقراطية، ولكنها « ديموقراطية استعبادية »، لأن سواد الشعب لا رأي له فيها ولا نفوذ، وإنما عليه نير العبودية أثقل. فما كفاه أن يبتزه ملكُه، حتى صار يبتزه حواشي ملكه أيضاً.

وكان الملك (أو الوالي) اذا رام أن يجبي مزيداً من مال الشعب، وهو يخشى أن يتمرّد الشعب مضرباً عن الدفع، لئلاّ ينوءَ تحت ثقل الضرائب، يتذرّع (الملك) بالشيوخ الى هذه الغاية. فيشرفهم بانتدابهم أعضاء في مجلس يزعم أنه مجلس الشورى. ويستشيرهم في حاجة الدولة الى المال للانفاق على اصلاحات أو على الحرب. وهو لا يبتغي الاستشارة، بل

يبتغي فرض ارادته عليهم، وحملهم على اقناع اتباعهم بدفع الضريبة الجديدة . فبهذه العضوية الشورويّة يضمن الملك معونة كل واحد منهم له في قصده

كان مجلس الشيوخ هـذا في جميع دول العهد القديم ، ودول التاريخ المتوسط حتى الحديث، ذريعة لمثل هـذا الغرض أو ما يشابهه . والنظام الديموقراطي الحديث ابتدأ على هذا النمط في الدولة الانـكليزية الباقية ، المعتبرة أقدم ديموقراطيات هذا العصر منذ ثمانية قرون . فـكان مجلس الاستشارة الملكوس نواة البارلمنت الانكليزي . وكانت أمم أوروبا تحذو حذو انكلترا في اقتباس هذا النظام .

حتى في مصر لعهد الاحتلال الانكليزي ،كانت الجمعية التشريعية مختصة بسن القوانين المالية فقط . ولم يكن لها شأن في الأمور الأخرى . وأما مجلس شورى القوانين فلم يكن له إلاّ الرأي الاستشاري فقط . ومرجع حق التنفيذ للسلطة الحاكمة وحدها

٢ — مجلس الشورى

وهو أمرٌ طبيعي أن يبتدىء النظام الديموقراطي بالشورى في جباية الأموال فقط ، لأن الملك يحتاج الى الأخذ من كل فرد مباشرة . فأسهل عليـه أن يفوّض الى زعماء الأسرات أو القبائل أمر هذه الجباية ، ويشركهم بعمولة منها . وهم لعلمهم بدخائل ناسهم وبواطنهم أقدر من رسله ومندوبيه على قضاء هذه المهمة . وحسبهم مكافأة على هذا الصنيع أن تعفى أملاكهم من الضريبة ، وهي كثيرة لأنهم عادةً أغنى الأفراد في قومهم .

نرى أن طبيعة الحال اقتضت أن تؤلف مجالس الشورى (الحاليـة) التي هي نوى البارلمانات من أغنياء الشعب . ولذلك كانت البارلمانات الأولى في جميع انحاء أوروبا مؤلفة من طبقة الأغنياء . ولا ينتخب الاّ الأغنياء لعضويتها . ولذلك كانت الحـكومات حكومات الأغنياء الأعيان Plutocracy

ابتدأ الانتخاب لعضوية البارلمان على نفس الأساس الذي ابتدأ به تعيين أعضاء الشورى. فلكي يحصل الملك على المال الذي يبتغيه من الشعب يُغريه بأن يمنحه الحرية في اختيـار شيخه أو زعيمه القروي ، ولا سيما اذا كان ثمت أكثر من شخص واحد يجاهد للحصول على الزعامة أو الشيخية . ولذلك يرجـح الباحثون الاجتماعيون أن نظام الانتخاب ابتدأ في

القرى أولاً ، أي في الادارة القروية (البلدية) . فلشيخ القرية وظيفة أخرى مع وظيفته في مجلس الشورى ، وهي ولاية بعض الشؤون القروية التي لا محيص للادارة الحكومية من طرح عبئها عن عاتقها . وقد لا تحتاج الدولة لعضويته في مجلس شوراها بتاتاً أو يندر أن تحتاج إليها

وقد يحتاج الملك الى معونة الشيوخ والأعيان في أحوال الدفاع عن الدولة أكثر جداً مما يحتاج الى مال الأمة لأجل ترفه وقصفه وبذخه . وقد لا يستطيع أن يقوم بأعباء الدفاع اذا دوّى صوت النفير ، إلاّ برضى أولئك الأعيان . فهو مضطرٌ ان يجمعهم في مجلس استشاري لكي يبسط لهم الخطر المقبل على المملكة من غزو دولة أخرى ، ويقنعهم أن ويل هذا يقع عليهم كما يقع عليه . فيقتنعون بوجوب جمع المال والجنود والعتاد .

ناهيك عن أمور كثيرة لا يستطيع الملك الواسع الملك ان يفعلها إلاّ برضى الأعوان والزعماء . فهو في كثير من الاحوال مضطرٌ أن يجعل تحت يده مجلس أعوان يستقضيه أغراضه . فمجلس الشورى اذاً هو جنين البرلمان ، تتمخض به الدولة حين تلجأ الى نظام الانتخاب القروي .

مهما كان البارلمان في أول أمره استشارياً أو تنفيذياً ، شكلياً لا فعلياً ، فهو في الطريق الى نظام السيطرة البرلمانية الفعلية على الدولة، ولو بعد أمد طويل .

واذا تكوّن البارلمان انفتح باب حرية الكلام والنقاش ، وانشقت طرق السعي الى « حقوق الانسان » ، وانعقد المجلس للتآمر على السلطة، وارغامها على التسليم بحقوق الانسان الطبيعية .

الملك ، في اضطراره ، لاتساع ملكه ، أن يستعين بشيوخ قومه على قضاء مآربه النفسانية الخاصّة ، جمع بنفسه الهيئة المضيقة على حريته ، والموسعة لحرية أمته ، ووحّد القوى التي تقضي على مطلق سلطانه ، وتقطع شأفة استبداده.

هنا نرى مرّة أخرى الاستبداد نفسه مضطر ان يسعى الى حتفه بظلفه .

لماذا ؟

لأن النظام الديموقراطي نظام طبيعي، ونظام الحكم الفردي افتئات على النظام الطبيعي.

هذه القضية الطبيعيــة حجة قاطعة على ان المجتمع البشري لا يزال ضعيف الأدبيــة جداً . لأن الحاكم الفرد ليس له من أخلاقه ما يكفي لردعه عن تضحيــة المجتمع على مذبح شهواته. وإلا فلو كان الحاكم قديساً عفيفاً حقيقة ومنزهاً عن ارتكاب الآثام لكان أصلح للاستقلال بإدارة شؤون الجماعة ، حتى ولو كان وسطاً في الذكاء والنبوغ . لأن حصر سلطة الحكم في فرد كامل ينقذ الأمة من مشاكل داخليــة خطيرة بسبب تضارب الآراء لتباين الأهواء . وإنما تناظر أفراد الأمة تحت راية الديموقراطيــة أخفّ شراً من معاناة الأمة برمتها تحت نير الحكم المستبد الظالم .

فالنظام الديموقراطي يُعَد طبيعياً في الوسط الاجتماعي الضعيف الأدبية ، والركيك الأخلاق . ومتى ضارع النــاس الآلهة في أخلاقهم ، فلا يبقى من حاجة لحكم ملكي ولا ديموقراطي .

ليس معنى هذا الكلام ان المجتمع الانساني لن يترقى أدبياً بتاتاً . لا . بل سيترقى تدريجياً وإنما لن يبلغ الكمال المطلق . لهــذا تبقى للمجتمع حاجة الى نظام حكومي ولو خفيف الوطأة .

٣ — بارلمان الاعيان والملاك

ابتدأ البارلمان استشارياً مؤلفاً من اصحاب الاملاك ، ثم صار انتخابياً ينتخبه أصحاب الأملاك أنفسهم، لأنهم هم الذين يدفعون المكوس، فكان لهؤلاء ونوابهم شيء من العتق من العبودية للسلطة بقدر ما لهم من حرية الرأي . وبقي عامة الشعب أرقاء الملك وأعوانه وأعضاء شوراه .

أما وقد اجتمع نخبة رجال الأمة في مجمع يخدمون به الملك في استنزاف عرق جبين الشعب، فصار لهم حق مساومته . يعطونه كثيراً من ذلك العرق، ويأخذون منه قليلاً من « حقوق الانسان »، وهي حقوق الشعب في الأمن والعدالة والحرية الشخصية والصحة العمومية والتعليم والثقافة ورواج الأعمال، الى غير ذلك من الشؤون الاجتماعية العامة والاقتصادية (فضلاً عن الدينية أيضاً) .

في سلسلة هذه المساومات بين الملك وبارلمانه التي توالت عليها الليالي والسنون

لأجيال،كانت القوانين تصاغ ، ودوائر الحكم على اختلاف أنواعها تنظم ، وعلى التوالي
نت الأمة تظفر بواسطة نوابها بحقوق سيطرتها الديموقراطية على هذه الأنظمة ، فضلاً
ن نظام التشريع الذي هو نواة الديموقراطية .

ظفر البرلمان بقوة التشريع قبل أن ظفر بالسيطرة على القوة المنفذة . كانت الوزارات
ؤولة للملوك رأساً،حتى بعد أن صارت قوة التشريع في أيدي البارلمانات . وما صارت
زارة مسؤولة للبرلمان إلاّ في القرن التاسع عشر في بعض الدول الأوربية .

في القرن الماضي شرعت الحضارة العالمية تتحرر من العبودية التي كانت تطمسها في
دبم، وتشوهها في التاريخ الحديث .

حتى أواخر القرن الثامن عشر كان الحكم في كل بلاد ملكيًّا مطلقاً حتى في انكلترا
رق الأمم بالديموقراطية . أعني كانت الكلمة النافذة الأخيرة للملك ، وليس لوزرائه
شواره الا الرأي فقط. حتى ذلك الحين كان البارلمانت الانكليزي يقتصر على الشورى وعلى
انتقاد فقط . وكانت ارادة الملك مصدر السلطة . وندر أن حاول البارلمان أن يظفر بحق
سيطرة الفعلية على ناحية من نواحي الحكم .

على هذا النظام أُنشئت حكومة الولايات المتحدة الأميركية القديمة أيضاً تحت
سيطرة نائب الملك . ولكن ما لبثت صرخة « حقوق الإنسان » أن دوّت في أميركا
في فرنسا ، وتمخضت ثورتاهما عن جمهوريتين طرحتا نير الحكم الفردي منهما بتاتاً . وكان
ـذا الحادث العظيم في تاريخ المجتمع الانساني زلزالاً زعزع العروش . فمن ثمت صار
ارلمانت الانكليزي يقتنص السيطرة شيئاً فشيئاً من القصر ، الى أن ظفر بها كلها تقريباً .
وذت بارلمانات سائر أوروبا وأميركا الجنوبية حذوه،حتى تمّ استتباب أمر الديموقراطية
القارتين تقريباً في هذا القرن .

في القرن الماضي صار حق الرأي (الانتخاب) لكل ذكر بالغ بقطع النظر عن مقامه
جتماعي أو الاقتصادي ، بعد ان كان هذا مقصوراً على أصحاب الأملاك أمداً طويلاً .
ان المراد بكلمة « الشعب » الذكور البالغين . وأما الذكور الأطفال فبطبيعة الحال
حسب حسابهم ، إلاّ متى أدركوا سنّ البلوغ . وأما الاناث فكنّ لم يزلنَ في صف

الأرقاء، لأنهن محرومات « حقوق الانسان » . وما زلن كذلك في فرنسا وفي بعض ممالك أوروبا ، مع ان بعض ممالك الشرق ردت للمرأة هذه الحقوق أو بعضها

المرأة الاميركية تمتعت بحق الرأي في نظام التعليم والثقافة والدين منذ منتصف القرن الماضي .

٤ — عقيدة حقوق الانسان

الديموقراطية الحديثة وليدة القرن الثامن عشر ، وصبية القرن التاسع عشر . انما هي ثمرة لقاح التفكير الانكليزي والحماسة الأفرنسية والتحرر الاميركي . الأميركان والأفرنسيس طمحوا الى الحرية والاستقلال بتأثير الكتاب الانكليز . وأخصهم جون لوك [1] . وفيما كان الانكليز لا يزالون محافظين على التقاليد ، وحكومتهم تحت سيطرة أصحاب الأملاك الذين كانوا محتكري التصويت والنيابة ، كان الأميركان يصوغون بنود « حقوق الانسان الطبيعية » التي كانت دستور ثورتهم لأجل الاستقلال ، وطرح النير الانكليزي . ولأجلها انتصر لهم الافرنسيس وساعدوهم في حرب استقلالهم الذي أعلنوه سنة ١٧٧٦ وأعلنوا دستوره سنة ١٧٨٧ . ذهب المتطوعون الأفرنسيس الى أميركا لكي يتلقوا درساً في الحرية والحقوق الانسانية . وعادوا وفي صدورهم الحماسة التي دكت سجن البستيل بعدئذ

وقد حذا الكتاب الأفرنسيس حذو الكتاب الانكليز في بيان « حقوق الانسان المدنية » وتحريض الشعب الأفرنسي للحرص عليها حتى استفزوه للثورة سنة ١٧٨٩ الى أن أعلنوا حكومتهم الجمهورية سنة ١٧٩٣ بعد أن حاكموا ملكهم وقاصوه .

وكان الأميركان أول من نادى « بحقوق الانسان » و « بسلطة الشعب » The soverlin People وأخذها الأفرنسيس عنهم . ونشروا لائحة « حقوق الانسان » في « المجتمع الوطني » في باريس سنة ١٨٧٩ . وفيه نص بليغ على أن الجهل وازدراء حقوق الانسان هي السبب الجوهري في بؤس الشعب وفساد الحكم .

وأول بند من بنود هذه العقيدة السياسية الجديدة — عقيدة « حقوق الانسان » :

(١) انظر صفحة ٢٧ من "Democracy" by Delisle Borns

« ان النـاس يولدون متساوين ويبقون أحراراً . فهم متساوون في « الحقوق » . والبند الثاني ينص : على « ان الغاية من أي مجتمع سياسي انما هي الاحتفاظ بحقوق الانسان الطبيعية والمكتسبة بالقدمية Prescriptive . والثالثة تنص : على « ان المبدأ الأصلي في الحكم أو السلطة موجود في الأمة » . (كما سبق تبيانه في مطلع الفصل) . وفي البند السابع عشر : « ان الملكية حق مقدّس للفرد لا يجوز سلبه »[1]

هـذه مبادىء مستخرجة من أقوال فلاسفة الاجتماع في ذلك العهد وقبله . فأصبحت قوة عظمى في نظام الحكومة .

وأما ألفاظ « الحقوق » و « الحكم أو السلطة » و « الأمة » و « الملكية » الخ فلم تكن واضحة المعنى ، أو لم يكن مفهومها واحداً عند كل فرد وجماعة . وإنما هي التي أصبحت محاور مباحث العلماء الاجتماعيين والسياسيين .

على انه مهما تعدّلت المعاني أو تنقحت ، فالانقلاب كان محتوماً من حقوق الملك الالهية ، الى حقوق الانسان الطبيعية ، ومن الحكم الملكي الاستبدادي الى الحكم الشعبي الحرّ ، ومن الاستعباد الى الحرية ، ومن الاستسلام والاذعان الى المناقشة والانتقاد ، ومن الجهل المطبق الى نشر المعرفة والعلم والثقافة ، ، وبالاجمال انقلاب من عصور بؤس للعامّة الى عصر يسر وهناءة لهم بالنسبة الى ماضي أجدادهم .

الحق يقال ان القرن التاسع عشر يُعَدُّ طفرةً الى الأمام في الحضارة . فهو جدير بأن يسمى عصر العلم والاختراع ، والفن واليسر الاقتصادي ، لأن استتباب أمر الديموقراطية فيه أطلق حرية الأفراد من عقالها .

في القرن التاسع عشر تضعضعت سلطة الملك الإلهية وأصبحت سلطته مستمدة من رضى الشعب ، وحكومتهُ تحت سيطرة نواب الشعب . أصبح البارلمان وفي وسعه أن يسقط الوزارة ويقيمها ، وان يؤيد الملك ويخلعه . وأصبح الملك مقيداً بالدستور ، وعليه أن يحلف أنه مخلص له ، حتى إذا انتقض عليه أو نقض شيئاً فيه ، كان عرضة لتهمة « الخيانة العظمى » . وأصبح الدستور سنة يسنها البارلمان ، لا شريعة يشترعها القصر . ولم تعد ارادة

---

(١) صفحة ٢٦ من كتاب Democracy الآنف ذكره في حاشية الصفحة السابقة

الملك قانوناً ، بل ارادة مجلس الأمة قانون الأمة . أصبح الملك تقليداً قديماً، ليس له الا حرمة التقليد وقداسته . أصبحت قوة الأمة مصدر قوة الحكم علناً وجهاراً . أصبحت السلطة الملكية تعترف بهذه الحقيقة، لأنها لم تعد تثبت بمجرد الاستناد على « الحق الالهي » . أصبح « صوت الشعب من صوت الرب » .

٥ — مساوىء الطفرة

لطفرة الديموقراطية في القرن التاسع عشر على النحو الذي بسطناه آنفاً مساوىء لم يكن بد منها كما هي طبيعة كل طفرة

في حين كانت الشعوب الديموقراطية تنادي بالحرية والمساواة وحقوق الانسان وحكومة الشعب ، كانت حكوماتها جادة بالفتح والاستعمار والتوسع وانشاء الامبراطوريات . قد لا يكون بأس في هذا ، لو كان هذا التوسع أو الاستعمار على المبدإ الديموقراطي ، أي أن تحفظ فيه للأمم المستعمرة « حقوق الانسان الطبيعية » وحق « حكم الشعب » الداخلي Autonomy وما إلى ذلك من خواص الديموقراطية ومزاياها . ولكن الأمر كان بالعكس فان تلك الحكومات المصبوغة حديثاً بالصبغة الديموقراطية حملت معها في فتوحاتها الى مستعمراتها جميع مظالم الحكم القديم البائد وعسفه واستبداده وجوره .

ففيما تسمع مثلاً في البارلمان الفرنساوي المناقشات الحادة في كل مشروع يتساوى الافرنسيس بالتمتع فيه ، وفي كل قانون يحفظ المساواة وميزان العدالة بين أفراد الشعب الى غيرذلك — تسمع أيضاً في نفس ذلك البارلمان الصوت العالي بأن « دعوا حاكم مراكش أو تونس أو غيرهما يفعل ما يستحسنه في الضغط على حرية ذلك الشعب لكي يستطاع استعباده » . ومثل ذلك تسمع في البارلمانت الانكليزي . تسمع لورداً من اللوردات كجورج لويد مثلاً يصيح ملء شدقيه « أن الشعب الفلاني لا يرضخ إلا تحت قرع السوط »

ديموقراطية في الوطن واستبداد في المستعمرة . هذه سيئة الطفرة . الأمة التي ظفرت بحقوق الانسان الطبيعية تحرّم هذه الحقوق على غير الوطني ، على ابن المستعمرة ، كأنّ « حقوق الانسان الطبيعية » منهبة تتناهبها الأمم الفاتحة ، وما هي حقوق طبيعية . أو ان الأمم المنكوبة بالاستعمار ليست من صنف الانسان الذي له تلك الحقوق الطبيعية .

هذا هو الأرجح في نظر أمم أوربا التي ما ظفرت بالديموقراطية حتى شرعت تتناهب

بلاد الشرق استعماراً . — ذلك هو الأرجح في نظرها لأنها جعلت فارقاً بين الأمم البيضاء والأمم الملوّنة . وجرّمت على هذه حق الاسترزاق إلاّ في الدائرة التي تحدها لها . لا تسمح مثلاً للاسيوي أو الافريقي ان يطلب الرزق في أوستراليا أو نيوزيلاندا أو جنوبي أفريقيا كأن الله قسم الأرض للعباد بحسب ألوانهم .

ان استفحال الديموقراطية الأوربية في الاستعمار كلّف أوربا من النفقات أكثر جداً مما جنته من الاستعمار — كلفها التسليح لأجل المحافظة على المستعمرات ، ولأجل التنازع الاستعماري ، ولأجل الحروب التي أوقدتها جنّة التنافس الاستعماري أضعاف ما جنت من مستعمراتها ، بالرغم من أنها أرهقت المستعمرات بالضرائب الثقيلة، لكي تستعين بها على تلك النفقات. كان ذلك الاستعمار انتحاراً . والذنب فيه ذنب الهوَج الديموقراطي . إنما هي ديموقراطية عنجهية غرّ ناسها احرازهم حق الرأي في الحكم ، كأنّ الحكم هو الغاية القصوى من الحياة . ولعلهم جهلوا ان الحكم ليس إلاّ وسيلة للحصول على مطالب الحياة . كان الغرض من الحكم في الأصل، ولم يزل الى اليوم ، ان يكفل الأمن والعدالة وأسباب المعايش للجمهور . فهل أفضى الحكم الديموقراطي الأوربي الى هذه الغاية ؟

وقد يبادر القارىء الى القول : — أليس الاستعمار مؤدياً الى تلك الغاية ؟ وهل أسخى من المستعمرة بالخير على المستعمرين ؟

— أجل . ومن هم المستعمرون ؟ أهم عامّة الشعب الذي يفرحون ويتهللون بنغمة « حقوق الانسان » ؟

لا . بل هم الرأسماليون . هؤلاء هم المستعمرون الذين يجتنون خير المستعمرة . وأما عامّة الشعب فهم عمّال ، سواء أكانوا في الوطن أو في المستعمرة . وهم الجنود المحاربون لأجل فتح المستعمرة ، كما هم الجنود المدافعون عن الوطن . وهم العمال الذين يشتغلون لأجل كسب الرأسماليين . ها الجندي الايطالي ، خاض غمار الموت لفتح الحبشة ، وسيخوض غمار الموت في العمل في الأرض السوداء لأجل كسب الرأسمالي . وأخيراً نفاية الثمرة تبقى له

ثم مَن هم المستعمَرون (بفتح الميم الثانية) ؟ أليسوا أصحاب البلاد . أو ليسوا بشراً ذوي حقوق انسانية كحقوق مستعمريهم .

فعيب الديموقراطية الطافرة في القرن الماضي هو أنها ديموقراطية سياسية فقط . فضلاً عن أنها هوجاء . ولا شأن فيها البتة للنظام الاقتصادي الذي هو الغاية القصوى من روح الديموقراطية . فلا تتم الديموقراطية النقية إلاّ اذا شملت النظام الاقتصادي كما سنشرحه في فصله الخاص .